تفسير الجيلاني

الغوث الرباني والإمام الصمداني

سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني

المتوفى ٧١٣هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثاني

المحتوى:

أول سورة الأنعام - آخر سورة النحل



المكتبه المعروفيه

كانسى روڈ شالدره كوئٹه پاكستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010م 1431هـ



رَجَـــاءٌ

غَفَرَ اللهُ ذُنــُوْبَ هٰذَا النـــاشِرِ

وَذُنــُوْبَ وَالِدَيْهِ مَعاً فِي النَّاظِرِ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ وَسَتَرَ عُيُوبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِينَ

أَجْمَعِينَ وَلِمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ

راجي عفو ربه

عبدالغني حليمي



المكتبة المعروفية – كويتا – باكستان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنعام

فاتحة سورة الأنعام

لا يخفى على المستضيئين المستنيرين من أشعة نور الوجود اللائح من مشكاة العدم التي هي طلسمات التعينات والأظلال والهويات الظاهرة في عالم الكون والفساد، أن سر ظهور كمالات الوجود من العدم إنما هو لجلاء الوجود وصفاته، إلى حيث لم يدرك لو لم يكن في مقابلته مرآة مجلوة يتراءى فيها ما انعكس منه، ولم يكن له مقابل غير العدم، لذلك ما انعكس كمالاته إلا منه، والمحجوب المقيد بسجن الطبيعة ما يرى الوجود والموجود إلا هذه العكوس المنعكسة في سراب العدم من الأمواج الحادثة في بحر الوجود من التجليات الحبيبة، ولم يتفطن إلى مبدئها، ولهذا عدل عن طريق الحق، وضل عن سواء السبيل، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

والمكاشف المشاهد بنور الله، المستغرق بمطالعة جماله، لا يرى في الوجود إلا هو، وكلما ظهر في العالم الصوري من الآثار فمن تجلياته المنتشئة من أوصافه الذاتية، وتطورات أسمائه الكمالية الجمالية والجلالية، وسر التكاليف الموردة في الكتب الإلهية والآثار النبوية إنما هو للتحقق والتقرب إلى ما عليه الوجود الحقي، من الاعتدال والاستواء الذي هو صراط الله الأقوم الأعدل.

لذلك ألهم سبحانه خلص عباده الذين تحققوا بوحدة الوجود، وانكشفوا بنوره المستقل، أن يواظبوا على حمده وثنائه دائمًا مستمرًا؛ ليتمكنوا بمقام الشكر الذي هو أعلى مقام العارف بالله، إذ الشكر إنما يحصل بقدر رفع حجب التعينات رأسًا، وذلك لا يكون إلا بالفناء فيه، ومتىٰ فني فيه فقد تحقق بمقام الشكر، وينطلق لسان حاله ومقاله بشكر نعمه، ولهذا أخبر سبحانه تعليمًا لعباده قائلاً متيمنًا:

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المستغني بذاته عن جميع الأكوان ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليها بإضافة نور

الوجود من محض الجود والامتنان ﴿الرَّحِيمِ﴾ بإقدارها على مواظبة الحمد والثناء له أداء لحق الإنعام والإحسان.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾ [الأنعام:1-5].

﴿الْحَمْدُ﴾ والثناء المشعر بالإطاعة والانقياد المنبأ عن التعظيم والتبجيل الذاتي الصادر عن ألسنة جميع من يدخل في حيطة الوجود، المعترف بتوحيده سبحانه وتفريده استقلالاً ثابتًا ﴿لِلَّهِ﴾ المستقل بالألوهية، المتوحد في الربوبية، المستحق في العبودية، وكيف لا يستحق سبحانه مع أنه القادر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وقدر ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[1] أي: أظهر علويات الأسماء والصفات وسفليات الطبيعة العدمية القابلة لانعكاس أشعة العلويات ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي: أنشأ حجب التعينات ﴿وَالنُّورَ﴾ أي: ظل الوجود المنبسط عليها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ظهر إشراق نور الوجود، ولمع أضاء شمس الذات ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: ستروا بهويتهم الباطلة هويته الحقيقية السارية في

---

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى: الإشارة فيها أن الله تعالى ذكر الحمد بالألف واللام وهي لاستغراق الجنس، وفي قوله تعالى: ﴿لله﴾ لام التمليك يعني: في حمد يحمده أهل السماوات والأرض في الدنيا والآخرة ملك له، وهو الذي أعطاهم استعداد الحمد يحمده بآثار قدرته على قدر استعدادهم واستطاعتهم؛ فأين المحامد للجن والإنس متسعات لحد جناب القدس؟! بل هو حمد نفسه القديم الأزلي، وقال: «الحمد لله حمد الخلق له مخلوق»، فإن وحمده لنفسه قديم باقٍ، ثم عرف نفسه بصنعته، فقال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾؛ أي: سماوات القلوب في أرض النفوس وجعل الظلمات في النفوس، وهي صفاتها البهيمية والحيوانية وأخلاقها السبعية والشيطانية والنور في القلوب، وهي صفاتها الروحانية الباقية، وإنما ذكر بلفظ الجعل؛ لأن النور والظلمة من عالم المعاني وهو عالم الأمر كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:54]، ألا له الخلق والأمر فالسماوات والأرض من عالم الصورة ذكرها بلفظ الخلق كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ والنور والظلمة من عالم المعنى ذكره بلفظ الجعل.

الآفَاق أزلاً وأبدًا ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:1] يميلون وينحرفون عن طريق الحق جهلاً وعنادًا.

وكيف تعدلون عن طريق الحق وتسترون هويته مع هوياتكم الباطلة أيها التائهون في تيه الضلال؟! إنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم﴾ أي: قدر وجودكم ﴿مِّن طِينٍ﴾ جماد قريب من العدم ﴿ثُمَّ قَضَى﴾ وقدر ﴿أَجَلاً﴾ لحياتكم في النشأة الأولى ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ مقدر ﴿عِندَهُ﴾ لفنائكم فيه في النشأة الأخرى ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ بعدما علمتم وتحققتم منشأكم ونشأتكم الأولى ﴿تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام:2] تشكون في النشأة الأخرى.

﴿وَ﴾ كيف تمترون وتشكون فيها مع أنه ﴿هُوَ اللهُ﴾ القادر المتوحد المتفرد المتجلي ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ بالاستقلال والانفراد ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[1] [الأنعام:3] من خير وشر ونفع وضر في نشأتكم الأولى.

﴿وَ﴾ من أمارات كفرهم وسترهم أنهم ﴿مَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ عظيمة دالة على توحيد الحق بلسان رسول من الرسل العظام ﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المتوحد بالربوبية ﴿إِلَّا كَانُوا﴾ من غاية كفرهم وجهلهم ﴿عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام:4].

ومن غاية إعراضهم وإلحادهم عن طريق الرشاد ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع الذي هو القرآن الجامع ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ بلسان من هو أعلى مرتبة ومكانة عند الله، وأكمل دينًا وأقوم طريقًا فكذبوه واستهزءوا به ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ وسيظهر لهم في النشأة الأولى والأخرى ﴿أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام:5] حين نزول العذاب عليهم في الدنيا بضرب الذلة والمسكنة والجزية والصغار، وفي الآخرة العذاب والنكال المخلد.

---

(1) قال كبرى: باستعمال الاستعداد السر والجهر والمأمورات والمنهيات من الخير والشر، وقد خص الإنسان بهذا الكسب أيضًا من الملك والحيوان، فإن الملك لا يقدر أن يكسب من الصفات الحيوانية شيئًا، ولا الحيوان قادر على أن يكسب من الصفات الملكية شيئًا والإنسان متصرف في هاتين الصفتين، وله اكتساب التخلق بأخلاق الله، بالتقرب إلى الله بأداء ما فرض عليه والتزام النوافل واجتناب النواهي إلى أن يصير خير البرية، وأيضًا أن يكتب من الشر ما يصير به شر البرية، فيكون من أحواله ما أخبر عنه.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنعام:6-8].

﴿أَ﴾ يشكون في نزول العذاب ويترددون و﴿لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ من أهل القرون الماضية كعاد وثمود وغيرهما مع أنا ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قدرناهم فيها قادرين على أمور عظام وآثام جسام ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ ولم نجعل في وسعكم من السعة وطول الملك والترفه والاستيلاء ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ مغزارًا كثيرة ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ دائمًا متجددًا، وبالجملة: أمهلناهم زمانًا طويلاً متنعمين مترفهين ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ بالمرة ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم من تكذيب الأنبياء وما جاءوا به، وإفسادهم في الأرض بأنواع الفسادات ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام:6].

ولا تبالِ يا أكرم الرسل بتكذيباتهم واقتراحاتهم، ولا ترجُ منهم الإيمان بك وبكتابك؛ لأنهم من غاية انهماكهم في الضلال.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ مكتوبًا ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ ورق ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ حين نزوله ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من خبث باطنهم وجهلهم الجبلي ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:7] عظيم ظاهر؛ لأن الورق لا تنزل من جانب السماء إلا بسحر.

﴿وَقَالُوا﴾ من غاية شقاقهم ونفاقهم معك: إن كان نبيًا ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ويصدقه بنبوته فنصدقه، قل لهم في جوابهم نيابة عنا: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ على مقتضى سنتنا في الأمم الماضية ﴿لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لتحقق أمر إهلاكهم البتة ﴿ثُمَّ﴾ بعد نزول الملك بل تعذبون كالأمم السالفة ﴿لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام:8] ولا يمهلون ساعة ولينكرون ويعذبون البتة.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ

﴿اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11)﴾ [الأنعام:9-11].

﴿وَ﴾ بعد ذلك أيضًا ﴿لَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الرسول المنزل إليهم ﴿مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ أي: على صورته؛ إذ لا يمكن لبشر أن يرى الملك على صورته لمهابته، لذلك ما جاء جبريل على رسول الله ﷺ إلا على صورة دحية الكلبي، وأيضًا لم يمكنهم الاستفادة منه لعدم الجنسية ﴿وَ﴾ إن أنزلناه على صورة البشر ﴿لَلَبَسْنَا﴾ أي: لخلطنا ﴿عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1] [الأنعام:9] ما يخلطون على أنفسهم من البشر لا يليق بالرسالة فلم يصدقوه أيضًا.

﴿وَ﴾ لا تغمم ولا تضطرب يا أكمل الرسل من استهزائهم وسخريتهم معك واصبر على أذاهم فإنه ﴿لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فصبروا على ما كذبوا واستهزئوا ﴿فَحَاقَ﴾ وأحاط من الجوانب ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام:10] فأهلكوا واستؤصلوا بما استهزءوا وإن أنكروا قصة هلاكهم.

ف﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي: مستقر الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والخواقين معتبرين ﴿ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:11] الذين كذبوا الرسل عتوًا وعنادًا إلى حيث لم يبق من رسومهم وآثارهم وأظلالهم أصلاً مع أنهم كانوا أولي قوة وذوي بأس شديد.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ

---

(1) قال ابن عجيبة: أي: لخلّطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، أو لفعلنا لهم في ذلك فعلاً مُلبسًا يطرق لهم إلى أن يَلبِسوا به على أنفسهم وضعفائهم؛ فإن عادة الله في إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته؛ ليبقى سر الربوبية مَصُونًا، فمن سبقت له العناية خلق الله في قلبه التصديق بها، حتى علمها ضرورة، وغيره يلبس الأمر عليه فيها وكرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء، لا تظهر إلاّ لأهل الصدق والتصديق، ولا يتحقق بولايتهم إلاّ من سبق له الوصول إلى عين التحقيق: «سبحان من لم يجعل الدليلَ على أوليائه إلا من حيثُ الدليلُ عليه، ولم يُوصَل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»، فأهل الإنكار عليهم لا يرون إلا ما يقتضِي البعد عنهم، وأهل الإقرار لا يرون إلا ما يقتضي القرب منهم والمحبة فيهم، والله تعالى أعلم. [البحر المديد (126/2)].

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام:12-14].

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل تبكيتًا وإلزامًا: ﴿لِّمَن مَّا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تصرفًا وتملكًا إيجادًا وإظهارًا وإعدامًا وإفناءً ﴿قُل﴾ أيضًا أنت يا أكمل الرسل بعدما بُهتوا وتحيروا في الجواب: ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد المتفرد بالتجلي والظهور والتصرف مطلقًا؛ إذ ﴿كَتَبَ﴾ أوجب وألزم ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: ذاته حين كان ولم يكن معه شيء ﴿الرَّحْمَةَ﴾ العامة؛ أي: التجلي باسم الرحمن على عروش ذرائر الأكوان المنعكسة من أوصافه الذاتية، والله ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أيها العكوس والأظلال بمقتضى اسم الرحيم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ التي هي الطامة الكبرى المرتفعة فيها نقوش الغير والسوى مطلقًا ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في جمعه ورفعه عند أولي البصائر المتأملين في سر الظهور والإظهار، وأما ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ باقتصار النظر في هذه الأظلال والتماثيل الزائفة الزائلة التي لا قرار لها ولا مدار للذاتها وشهواتها ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 12] بالرجوع إلى ما في التوحيد ومقر التجريد والتفريد، أولئك هم الظالمون في تيه الحرمان، الباقون في ظلمة الإمكان.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون جمعه وتوحيده مع أنه ﴿لَهُ﴾ سبحانه ﴿مَا سَكَنَ﴾ وبطن ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ أي: مرتبة الباطن والغيب ﴿وَ﴾ ما ظهر وانكشف في ﴿النَّهَارِ﴾ أي: مرتبة الظاهر والشهادة ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿السَّمِيعُ﴾ لكل ما سمع ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:13] لكل ما علم وأدرك لا يخفى عليه شيء مما ظهر وبطن.

﴿قُلْ﴾ لمن أنكر توحيد الله وأثبت الشريك له، ومع ذلك يرغبك يا أكمل الرسل إلى شركه إلزامًا وتبكيتًا: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لا شريك له أصلاً ﴿أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ موليًا وكيلاً لأكون مشركًا مع كونه سبحانه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: موجدهما ومظهرهما من كتم العدم ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ أي: يرزق للمحتاجين ﴿وَلاَ يُطْعَمُ﴾ لتنزهه عن الأكل والشرب، خص بهذه الصنعة؛ لأنه من أقوى أسباب الإمكان، وأجل أمارات الحدوث وأظهرها، والباقي متفرع عليه ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لكافة

البرايا: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ من عند ربي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أطاع وانقاد، وأظهر التوحيد الذاتي وأدعو الناس إليه ﴿وَ﴾ أيضًا نُهيت أنا على وجه المبالغة والتأكيد من عنده سبحانه بقوله: ﴿لاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:14] المثبتين الوجود لغير الحق من الأظلال وبعدما أمرت مما أمرت.

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام:15-18].

﴿قُلْ﴾ لمن تبعك لعلهم ينتبهون: ﴿إِنِّي﴾ بعدما تحققت بمقام الكشف والشهود ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي: إن خرجت عن مقتضى توحيده ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام:15] هو يوم العرض الأكبر الذي تجزى فيه كل نفس بما تسعى.

﴿مَن يُصْرَفْ﴾ العذاب ﴿عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الحق، وحققه بمقام شهوده وكشفه ﴿وَذَلِكَ﴾ التحقق والانكشاف هو ﴿الفَوْزُ المُبِينُ﴾ [الأنعام:16] لأهل العناية والوصول.

﴿وَ﴾ بعدما تحققت يا أكمل الرسل، وتقررت في مقر التوحيد ﴿إِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ بلية وعناء ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا شيء غيره ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ عطية وغنى ﴿فَهُوَ﴾ أيضًا منه؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الخير والشر والنفع والضر ﴿قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:17] تحيط قدرته بجميع المقدورات.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون قديرًا على كل ما أراد؛ إذ ﴿هُوَ القَاهِرُ﴾ العزيز الغالب ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[1] يتصرف فيهم كيف يشاء ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ﴾ المتقن في تدبيراتهم

---

(1) قال في التأويلات: في الأزل، فبالقهر إخراجهم من مكامن العدم إلا أنه سبحانه وتعالى يقهر هذه الحالة ويبدل العدم بالوجود، وقد عم قهره جميع عباده، فقهر الكفار بموت القلوب وحياة النفوس إذ أخطأهم النور المرشش على الأرواح في بدء الخلقة، فضلوا في ظلمات الطبيعة وما اهتدوا إلى نور الشريعة، وقهر نفوس المؤمنين بأنوار الشريعة؛ فأخرجهم عن ظلمات الطبيعة بالقيام على طاعته وقهر قلوب المحبين في بلوغات الاشتياق، فأسنها بلطف مشاهدته وقهر أرواح الصديقين بسطوات تجلي صفات جماله، وقهر أسرار الواصلين بسطوات بها صفات

﴿الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:18] بحوائجهم يعطيهم ما ينبغي لهم ويمنعهم عما يضرهم بالإرادة والاختيار.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (19) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21)﴾ [الأنعام:19-21].

وإن جادلوك واستشهدوا منك شهيدًا على نبوتك ورسالتك ﴿قُلْ﴾ لهم إلزامًا وتبكيتًا: ﴿أي شَيءٍ أَكبَرُ﴾ وأتم ﴿شَهَادَةً قُلِ اللهُ﴾ لأن المتعين المتعزز بالعظمة والكبرياء هو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ﴾ شهادته على أنه ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرآنُ﴾ الجامع للكتب السالفة من عنده ﴿لأُنذِرَكُم﴾ وأبشركم ﴿بِهِ﴾ أيها الموجودون في حين نزوله ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَن بَلَغَ﴾ له خبر وحيه وحكمه من الأسود والأحمر إذ أرسلت إلى كافة البرية بشيرًا ونذيرًا على مقتضى التوحيد الذاتي ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها المنهمكون في بحر الضلال ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ بعد وضوح البرهان ﴿أَنَّ مَعَ اللهِ﴾ المتوحد بذاته، المستقل بالألوهية ﴿آلِهَةً أُخرَى﴾ مشاركة له في ملكه ووجوده ﴿قُل لاَّ أَشْهَدُ﴾ ما تشهدون ظلمًا وزورًا بل ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ متفرد بالألوهية، متوحد بالربوبية، ليس لغيره وجود حتى يشارك معه، بل لا وجود إلا هو، ولا إله سواه ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:19] إليه من الأظلال الباطلة والتماثيل العاطلة.

ثم قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: سيدنا محمد ﷺ بحليته وأوصافه المذكورة في كتبهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بلا شائبة شك وهم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ من أهل الشرك والتحريف ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:20] به وبنبوته ورسالته عنادًا ومكابرة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ عند الله وأوجب للبطش والانتقام ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾

جلاله، وبالجملة لا ترى شيئًا سواه، إلا وهو مقهورٌ تحت أعلام عزته وذليل في ميادين صمديته.

وحرَّف كتابه عنادًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المنزلة على رسوله المبينة لطريق توحيده مكابرة بلا سند ودليل، ومع ذلك يطلبون ويتوقعون الفوز والفلاح من عنده سبحانه ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:21] الخارجون عن مقتضى العقل والنقل، التاركون متابعة من أيده الحق وأرسله إلى الخلق لإشاعة توحيده وتبليغ أحكامه اللائقة بوحدة ذاته وإزاحة الشرك وإزالته بالمرة.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) ﴾ [الأنعام:22-27].

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ ونجمعهم ﴿جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ استهزاءً وتفضيحًا لهم على رءوس الملأ: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:22] أنهم آلهة مستحقة للعبودية والإيمان، وتعتقدون أنهم يشفعون لكم وينقذونكم من العذاب؟ ادعوهم لينقذوكم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما سمعوا ما سمعوا ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ وحيلتهم للخلاص ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ معتذرين مقسمين: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا﴾ أنت يا مولانا ﴿مَا كُنَّا﴾ في أنفسنا ﴿مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:23] لك غيرك عابدين لسواك.

﴿انظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ في مقعد الصدق ومحل اليقين ﴿وَ﴾ انظر كيف ﴿ضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:24] من الشركاء الذين يعتقدونهم شفعاء عند الله يخلصونهم من عذاب الله.

﴿وَ﴾ كان ﴿مِنْهُم﴾ أي: من هؤلاء المشركين المعتذرين ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو القرآن ولم يفهموه أنكروه واستهزءوا به ﴿وَ﴾ كيف يفهمونه؛ إذ ﴿جَعَلْنَا عَلَى

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾[1] أغطية وأغشية كراهة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ يمنع عن استماعه ﴿وَ﴾ من غاية إنكارهم وعنادهم ﴿إِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ دالةٍ على توحيد الحق وتمجيده ﴿لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ عنادًا ومكابرة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ﴾ من إفراط عتوهم ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ في آيات الله بما لا يليق بها حيث ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سترًا للحق وترويجًا للباطل: ﴿إِنْ هَذَا﴾ ما هذا الكلام الذي أتى به سيدنا محمد ﷺ ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:25] يسطرونها لتضليل ضعفاء العوام.

﴿وَهُمْ﴾ بهذا الطعن والقدح ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يقصدون إضلال المؤمنين المسلمين عن متابعة الرسول والإيمان به ﴿وَ﴾ هم في أنفسهم ﴿يَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يبعدون عنه عتوًا وعنادًا ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ أي: ما يهلكون بهذا التضليل والخداع ﴿إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:26] أن ضرر إضلالهم وخداعهم لا يتجاوز عنهم؛ لأنهم هم ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:7] في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ أي: حين أشرفوا ﴿عَلَى النَّارِ﴾ وتحققوا الوقوع والإيقاع فيها عنوة وعنفًا لرأيت أمرًا فظيعًا فجيعًا ﴿فَقَالُوا﴾ حينئذٍ من غاية تفزعهم وتفجعهم متمنين: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ على أعقابنا التي كنا فيها ﴿وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ التي جئنا فيها فكذبناها ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:27] المصدقين بمن جاءنا بها.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ

---

(1) قال البقلي: كانت قلوبهم محجوبةً بعوارض البشرية، وظلمات النفس الأمّارة عن رؤية أنوار الغيب، وفهم خطاب الحق، كانت قلوبهم في أغطية الغيرة؛ لأنهم ليسوا مطبوعين باستعداد قبول خطاب الله، ورؤية عرائس الملكوت، وفي آذان أسرارهم وقر الضلالة، ولم يسمعوا بها ما لَمْ يسمع بسمع الخاص، وعلى عيون ظاهرهم وباطنهم غشاوة العجب والجهل، حتى لم يروا براهين الحق في وجوه الصديقين. قال ابن عطاء: لأنه لم يجعل لهم سمع الفهم، وإنما جعل لهم سمع الخطاب.

وقال الواسطي: منهم مَنْ يستمع إليك بنفسه؛ فهو في ظلمات نفسه يتردد، ومنهم مَنْ يستمع منك بنا؛ فهو في أنوار العارف يتقلب.

قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام:28-31].

﴿بَلْ بَدَا﴾ وظهر ﴿لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ حقية الرسل والكتب عنادًا واستكبارًا فتمنوا حين اليأس والبأس ضجرًا لا عزمًا صحيحًا؛ حيث لو ردوا لآمنوا البتة بل ﴿وَ﴾ الله ﴿لَوْ رُدُّوا﴾ أي: لو فرض ردهم إلى الدنيا بعد وقوعهم على أهوال الآخرة ﴿لَعَادُوا﴾ من خباثة طينتهم ﴿لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أيضًا مكابرة وعنادًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ في هذا التمني أيضًا ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:28] البتة لكون جبلتهم وأصل فطرتهم على الكذب لا يزول عنهم أصلاً.

﴿وَ﴾ كيف لا تكونون مجبولين على الكذب والعناد إذ هم ﴿قَالُوا﴾ من خبث باطنهم حين دعاهم الرسل - عليهم السلام - إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر: ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: التي كنا عليها فيها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1] [الأنعام:29] كما زعم هؤلاء السفهاء.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أي: حين وقفوا وصفوا عند ربهم؛ ليحاسبوا بما عملوا لرأيتهم حيارى سكارى مضطرين مضطربين ﴿قَالَ﴾ لهم سبحانه من وراء سرادقات العز والإجلال: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أيها الحمقى الكاذبون المكذبون؟ ﴿قَالُوا﴾ بعدما كوشفوا وعوينوا معتذرين متفجعين مصدقين مقسمين: ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾ آمنا وصدقنا ﴿قَالَ﴾ سبحانه: الآن لن ينفعكم الإيمان ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:30] وتكذبون به في النشأة الأولى التي هي دار الفتنة والاختبار.

---

(1) بعد أن متنا،وذلك لأنهم مجبولون على إنكار البعث وتكذيب الرسل، وأنهم قد كانوا في عالم الأرواح مشاهدين المطاف الحق ومخاطبي قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، ومجيبي ﴿بَلَى﴾ [الأعراف:172]، فلما بعثوا إلى عالم الصورة وحجبوا بلباس البشرية فنسوا تلك الأحوال والأقوال، ولم يسمعوا عن الأنبياء حين ذكروا بتلك الأيام كما قال تعالى: وذكرهم بأيام الله فما نفعتهم الذكرى، إذا طبعوا كافرين وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:55]، فكذلك لو ردوا إلى عالم الصورة لنسوا ما شاهدوا من الأحوال ولعادوا إلى ما كانوا عليه من الإنكار دون الإقرار. [التأويلات النجمية].

ثم قال سبحانه تقريعًا وتوبيخًا لهم: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وخاب ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ مع نزول الآيات الدالة عليه، وإرشاد الرسل والأنبياء والأولياء لهم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ المعدة للعرض ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿قَالُوا﴾ بعدما انكشفوا به وتيقنوا له متحسرين خائبين خاسرين: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ كلمة تحسر وتأسف ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي: في النشأة الأولى من التكذيب وعدم الإيمان ﴿وَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿يَحْمِلُونَ﴾ وبال ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ وآثامهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ خائبين خاسرين محرومين عن مطالعة وجه الله الكريم ﴿أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام:31] في الدنيا، ويحرمون بها في العقبى عن لقاء المولى.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)﴾ [الأنعام:32-35].

﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ التي يحصرون الحياة عليها، ويحرمون من الحياة الحقيقية لأجلها ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يلعب بهم ويلهيهم ويشغلهم عن الحياة الأبدية والبقاء السرمدي ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ﴾ وجناتها الحقيقية ولذاتها المعنوية ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ عن محارم الله ومنهياته في الحياة الصورية ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[1] [الأنعام:32] وتميزون أيها العقلاء بين الحياتين، ولا تعلمون أي اللذتين خير لكم.

---

(1) الإشارة فيها أن القيامة يوم ينكشف فيه الأسرار وتنهتك فيه الأستار، فكم من محلل بثوب تقوية حكم له مقارنوه بأنه زاهد في دنياه، راغب في عقباه، محب طولاه، مفارق لهواه، كشف الأمر عما توهموه فافتضح عندهم بغير ما ظنوه، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم غدًا، أي: وقفوا على ربوبيته عند ظهورها بالقهر ولو وقفوا على الربوبية في الدنيا لوقفوا عند ظهورها باللطف، فمن خفي عليه الربوبية؛ فلغلبة القهر، ومن ظهر له به الربوبية اليوم؛ فغلبة اللطف بلسان القهر. [التأويلات].

ثم قال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾ الشأن ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ ويؤذيك القول ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ في حقك أولئك المعاندون المكابرون من أنك ساحر كاذب مجنون شاعر وغيرها، ولا تبالِ بهم وبقولهم ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ في الحقيقة ﴿لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن حدود الله، المنصرفين عن مقتضى أحكامه ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ المنزلة عليك من عنده لإهداء التائهين من عباده ﴿يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:33] ينكرون ويعاندون جحودًا وإصرارًا، وبالجملة: فاصبر على أذاهم يا أكمل الرسل إلى أن يحل عليهم الغضب من الله المنتقم المقتدر.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ مثل ما كذبت ﴿فَصَبَرُوا﴾ وتحملوا ﴿عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ الذي وعدناهم، فنصرناهم وانتقمنا من عدوهم فكانوا هم الغالبين ﴿وَ﴾ بالجملة: لا تيأس من نصر الله وتأييده بإمهال الله إياهم؛ إذ ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ التي سبقت منه سبحانه لنصر أنبيائه ورسله ﴿وَ﴾ كيف تيأس وتقنط ﴿لَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:34] ما يكفيك عن التردد فيه.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ﴾ وشق ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإيمان والانقياد لك ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ من غاية حرصك لإيمانهم وانقيادهم ﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾ وتطلب ﴿نَفَقًا﴾ منفذًا ﴿فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا﴾ مرقاة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ فافعل ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ دالة على إلجائهم إلى الإيمان، وإلا فاصبر حتى يأتي الله بأمر من عنده وما لك إلا التبليغ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام:35] بأن الأمور كلها بيد الله واختياره، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تحرص على إيمانهم وهدايتهم، ولا تجهد فيما لا يسع فيه جهدك وسعيك؛ لأنك لا تهدي من أحببت، هذا تأديب من الله لرسوله وأمثال هذا في القرآن كثيرة.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)﴾ [الأنعام:36-39].

وكيف تطلب إيمانهم وتتوقع هدايتهم أيها الرسول الداعي مع أن الداعي ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[1] الدعوة عن رضا، ويلقون السمع وقلوبهم حاضرة بفهمها، وهم في أنفسهم طالبون الحياة الحقيقية ﴿وَ﴾ هؤلاء ليسوا من الطالبين بل هم ﴿الْمَوْتَى﴾ حقيقة وإن كانوا أحياء صورة ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ في يوم الحشر ويحييهم بالحياة الحقيقية حتى يطلعوا على ما فاتهم في الحياة الصورية، ولا تنفعهم تلك الحياة والاطلاع إلا الحسرة والندامة على ما فات عنهم في دار العمل والاختبار ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أحياهم وأطلعهم، ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:36] يساقون لجزاء ما عملوا في الدنيا من تكذيب الآيات والرسل والاستهزاء معهم والذب عنهم.

﴿وَ﴾ من غاية بغضهم وعنادهم وبغضهم معك يا أكمل الرسل ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: إن كان محمد ﷺ نبيا ﴿لَوْلا﴾ هلا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: آية اقترحناها منه وآية تلجئنا إلى الإيمان به أو آية تستأصلنا بالمرة مع أن دعواه أن ربه يقوى ويقدر على جميعها ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿قَادِرٌ﴾ بالقدرة التامة الكاملة ﴿عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ من آية اقترحتموها متى تعلقت إرادته ومشيئته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:37] أن الله فعال لما يريد، وأن الله لو أنزلها نزل عقبها عليهم البلاء كما نزل على الأمم الماضية.

﴿وَ﴾ كيف لا يقدر سبحانه على جميع المرادات والمقدورات مع أنه ﴿مَا مِن دَابَّةٍ﴾ تتحرك ﴿فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ﴾ في الجو ﴿بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ محفوظة أحوالها وأرزاقها وآجالها عندنا؛ بحيث لا نهمل شيئًا من حوائجها، بل نكتب ونثبت في لوحنا المحفوظ وكتابنا المبين على التفصيل بحيث ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ وأفرطنا ﴿فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ من حوائجهم وأحوالهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما حفظوا ورزقوا كل منهم ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:38] يرجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على قدرتنا الكاملة ﴿صُمٌّ﴾ عن استماع كلمة

---

(1) إنما يستجيب لدعوة الخصوصية، ويُجيبون الدعاة إلى السير لشهود عظمة الربوبية، الذين سبقت لهم العناية، وأحيا الله قلوبهم بالهداية، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح، ويَتَرقّون من حضرة عالم الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح؛ والموتى بالغفلة والجهل يبعثهم الله ببركة صُحبة أهل الله فتَهُبّ عليهم نفحات الهداية؛ لِما سبق لهم من سر العناية، ثم إليه يُرجعون فيتنعمون في حضرة الشهود، في مقعد صدقٍ عند الملك الودود [البحر المديد (141/2)].

الحق من ألسنة الرسل ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن التنطق بها مع أنهم تيقنوا بها بل هم مغمورون ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾[1] أي: الحجب الناشئة من هوياتهم الباطلة وهياكلهم الفاسدة العاطلة ﴿مَن يَشَأِ اللهُ﴾ إضلاله بمقتضى اسمه المذل المضل ﴿يُضْلِلْهُ﴾ حتمًا بلا هداية وإرشاد أصلاً ﴿وَمَن يَشَأْ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:39] موصل إلى توحيده؛ إذ كل من عنده ميسر موفق لما خلق له.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام:40-44].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إمحاضًا للنصح: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أي: أخبروني صريحًا ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ في يوم الجزاء ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ التي تحشرون فيها إلى الله تعالى هائمين حائرين ﴿أَغَيْرَ اللهِ﴾ المنقذ من العذاب، والمنجي من الحيرة والهيمان ﴿تَدْعُونَ﴾ أم تدعونه تضرعًا وتلجئون نحوه استعاذة؟ بينوا إليَّ أمركم في حالة اضطراركم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام:40] في الأقوال والأخبار.

---

(1) وصف سبحانه أهل الامتحان الذين تهتف هواتف الإلهام بالخطاب لقلوبهم من الغيب فيستقبلونها بمعارضة نفوسهم، ويكذبون خواطر الحق بخاطر الباطل حين لم يعرفوا الإلهام من الوسواس، وذلك من وقر الضلالة في آذانهم؛ حيث لم يلقوا أسماعهم في مقام الشهود إلى الله، ولم تذكر اسم الله ألسنة أسرارهم بوصف الهيبة والمحبة، وذلك من بقايا نفوسهم في ظلمات هواها.

ومعناه: أي من كذب خواطر الحق الواردة من عندنا حين ألهمنا بخالص الإيمان بكرامات أوليائنا ومعجزات أنبيائنا تغطى آذان أسراره، وأبصار بصائره بغشاوة الضلالة؛ حتى لا يسمع كلامنا في الغيب ولا يرانا في الملكوت، ويبقيه في ظلمات نفسه الأمارة وشيطانه الكافر، ولا يقدر أن يتكلم بذكرنا ومعرفتنا. قيل: لم تصدقوا إظهار كراماتنا على المقربين من عبادنا عموا وصموا عن أنوار الملاحظات، وبقوا مع ظلمات النفوس، وهواجس الهياكل.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ إذ لا ملجأ ولا ملاذ حينئذ إلا هو ﴿فَيَكْشِفُ﴾ عنكم ﴿مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ من الضرر والبلاء ﴿إِن شَاءَ﴾ أي: إن تعلقت مشيئته وإرادته ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ حينئذ ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:41] له من الأظلال الباطلة والتماثيل العاطلة، وقل لهم أيضًا: إذا سمعتم مآل أمركم وعاقبة حالكم وشأنكم، فتضرعوا إلى الله في جميع أحوالكم، والتجئوا نحوه، ومع ذلك لم يقبلوا منك قولك ونصحك البتة لخبث باطنهم.

﴿وَ﴾ اعلم أنَّا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسلاً من مقام جودنا ولطفنا ﴿إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وأيدناهم بآيات ظاهرة ومعجزات باهرة فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:42] رجاء أن يتضرعوا إلينا ويلتجئوا نحونا فلم يتضرعوا ولم يلتجئوا.

﴿فَلَوْلاَ﴾ هلا ﴿إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ وما هي من عدم تأثرهم في البأساء والضراء بل يتأثرون منها ويزعجون ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ﴾ أي: حبب وحسن ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:43] من عدم المبالاة بآيات الله، وتكذيب رسله، والإعراض عن دينه.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من البأساء والضراء ولم يتعظوا بها ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ ابتلاء وفتنة ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نافع وخير وأمهلناهم عليها ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾ أعجبوا ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ مترفهين متنعمين بطرين مغرورين بالنعم ناسين المنعم بالمرة ﴿أَخَذْنَاهُم﴾ بأنواع البلاء ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:44] متحسرون آيسون خائبون محرومون.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام:45-48].

﴿فَقُطِعَ﴾ واستؤصل ﴿دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بحيث لم يبق من خلفهم من استخلفهم واستدبرهم ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:45] على هلاكهم

واستئصالهم إلى حيث لم يبقَ من شؤمهم على وجه الأرض.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل أيضًا للنصح لعلهم ينتهون: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ﴾ فأصمكم ﴿وَأَبْصَارَكُمْ﴾ فأعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم﴾ بغطاء الغفلة فلا تحسوا ولا تعلموا ولا تفهموا أصلاً ﴿مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ﴾ الواحد الأحد القادر المقتدر ﴿يَأْتِيكُم﴾ ويرجعكم ﴿بِهِ﴾ أي: بالمأخوذ ﴿انظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نكرر لهم ﴿الآيَاتِ﴾ ليتنبهوا تارة عقلاً، وتارة تذكيرًا وعظة، وتارة عبرة واعتبارًا ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:46] أي: ثم انظر كيف يعرضون عن جميعها من قساوة قلوبهم وخبث طينتهم.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً﴾ فجأة بلا سبق مقدمة وأمارة ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ مع سبق المقدمات والأمارات ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ أي: من سنته سبحانه ما يهلك بأمثال هذا العذاب الفجائي أو الجهري ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:47] الخارجون عن مقتضى أوامر الله ونواهيه الجارية على ألسنة الرسل المؤيدين من عنده.

﴿وَ﴾ كيف لا نهلك الظالمين ولا نعذبهم؛ إذ ﴿مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ لمن آمن بنا وامتثل بأوامرنا واجتنب عن نواهينا ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن لم يؤمن ولم يمتثل ولم يجتنب ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ منهم بعدما سمع الدعوة من ألسنة الرسل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالإيمان والتوبة ما أفسد من قبل ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين وصولهم إلينا ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام:48] من سوء المنقلب والمآب.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) ﴾ [الأنعام:49-52].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا، ولم يعملوا بمقتضاها ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ الذي يحيطهم من جميع جوانبهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام:49] أي:

بسبب فسقهم وخروجهم عن مقتضى أوامرنا ونواهينا.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة تليينًا لقلوبهم: ﴿لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ أي: جميع مراداته ومقدوراته ﴿وَلاَ﴾ أدعي أني ﴿أَعْلَمُ الغَيْبَ﴾ أي: جميعه؛ إذ هما مما استأثر الله به لا يحوم حوله أحد من خلقه ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أيضًا: ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ إذ أنا بشر من جنسكم بل أقول لكم: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي: ما أتبع ﴿إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ من عنده لأبلغكم به وأخبركم عنه، والهداية والضلال بيد الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وإن أنكروا لياقة البشر لوحي الله وإلهامه ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل الالتزام: ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ عندكم البشر ﴿الأَعْمَى﴾ عن مطالعة عجائب مصنوعات الحق وغرائب مخترعاته ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ المشاهد المطالع لها ﴿أَ﴾ تشكون فيما بينهما من التفاوت ﴿فَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:50] وتتأملون حتى ينكشف ويتميز عندكم الحق الصريح من الباطل الزائل الزائغ.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي: أنذر بما يوحى إليك يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ مع كونهم معتقدين أن ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ يولي أمرهم غيره ﴿وَلاَ شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم عنده حتى ينقذهم من عذابه ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:51] لكي يتقوا ويحسنوا العمل لرضاه.

﴿وَ﴾ بعدما أرسلناك يا أكمل الرسل؛ لترويج الحق وتقوية أهله ﴿لاَ تَطْرُدِ﴾ لا تبعد من عندك ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ﴾ أي: في جميع أوقات النهار ﴿وَالْعَشِيِّ﴾ أي: في جميع أوقات الليل، وبالجملة: يستغرقون جميع أوقاتهم بالتوجه نحوه سبحانه إنما ﴿يُرِيدُونَ﴾ بتوجههم غير أن يطالعوا ﴿وَجْهَهُ﴾[1] الكريم بسبب ميلك إلى إيمان

---

(1) الآيتين الإشارة فيهما أن من عواطف إحسانه ولطائف امتنانه وحقوق خواص عباده أن يكون في بعض الأوقات لسانهم فيتكلمون به كما قال: «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا... إلى آخره» وفي بعض الأوقات يكون لسانهم فيتكلم عنهم، فإذا تكلموا به لكلم مع عباده ليدعوهم إليه، وإذا تكلم عنهم مع عباده ليهديهم إليه فما كان حال الفقراء مع النبي ﷺ العجز عن الاستدراك ومعارضته فيما كانوا بصدده من إخلاء الرسول ﷺ مجلسه عنهم سكتوا عن الاعتراض وتوجهوا بقلوبهم إلى الحق تعالى متضرعين بين يديه متعرضين ببراءتهم لديه فتولى الحق سبحانه إظهارها في ضمائرهم، واطلاع النبي ﷺ على ودائع سرائرهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أخبره عن دوام ذكرهم، وأنهم حسباء الله بالغداة والعشي كما قال تعالى: «أنا جليس من ذكرني»، فلا تطردهم عن مجالستك فإنهم يطلبوني في

أهل الأهواء ومصاحبتهم ومجالستهم، مع أنهم ليسوا من أهل الفلاح ولا قابلين له بل ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ وإيمانهم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ يعود إليه نفعه ﴿وَمَا مِنْ حِسابِكَ﴾ وإيمانك ﴿عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ بل كل منك، ومنهم مجزي بما عمل ومسئول عما فعل ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ أي: هؤلاء المؤمنين المريدين وجه الله في جميع أوقاتهم وحالاتهم؛ لأجل أولئك المنهمكين في الضلال ﴿فَتَكُونَ﴾ بواسطة طردهم وتبعيدهم ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:52] الخارجين عن مقتضى العقل والشرع والمروءة.

روي أن قريشًا قالوا: لو طردت يا محمد هؤلاء السفلة - أرادوا عمارًا وصهيبًا وسلمان وغيرهم - جلسنا إليك وحادثنا معك فقال ﷺ: «وما **أنا بطارد المؤمنين**»[1].

قالوا: فأقمهم من مجلسنا إن جلسنا معك.

قال له عمر ﷺ: لو فعلت حتى ننظر ماذا يصيرون، فقبل ﷺ.

قالوا: فاكتب بذلك كتابًا، فدعا بالصحيفة وبعلي ليكتب، فنزلت:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام:53-56].

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: مثلما فتنا بعض الناس ببعض في الأمور

متابعتك وقد خصهم الله تعالى بإرادته عما سواهم كما قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:152] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:52] فكل يريدون منه وهم لا يريدون عنه دونه، ويقال: تكلم الناس في الإرادة فأكثروا، وتحقيقها: احتياج يحصل في القلب بسلب القرار من العبد حتى يصل إلى الله تعالى، فصاحب الإرادة لا يهدوا ليلاً ولا نهارًا ولا يجد من دون وصوله إليه سبحانه مسكونًا ولا قراراً. [التأويلات النجمية].

(1) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (29/7).

المتعلقة بمعاش الدنيا من المال والجاه والرئاسة، فتناهم في أمور دينهم أيضًا ﴿لِيَقُولُوا﴾ من غاية استبعادهم واستحقارهم: ﴿أَهَؤُلاءِ﴾ الضعفاء الفقراء ﴿مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ قال سبحانه توبيخًا وتقريعًا لهم: بل هم أولئك الفقراء الصابرون على بلاء الله، الشاكرون لنعمائه ﴿أَلَيْسَ اللهُ﴾ العالم بضمائر عباده ﴿بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:53] الصابرين منهم ومنكم أيها الشرفاء الكافرون لنعمه.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ ويمتثلون بها بالغداة والعشي وهم يريدون وجهنا ﴿فَقُلْ﴾ لهم قبل تسليمهم: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المقبولون عند الله الراضون المرضيون وبشرهم بأنه ﴿كَتَبَ﴾ أي: قضى وحبب ﴿رَبُّكُمْ﴾ لأجلكم ﴿عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الشفقة والرحمة إلى حيث ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا﴾ به يسيء نفسه عند الله صادرًا عنه ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ لا عن قصد وإصرار ﴿ثُمَّ﴾ بعدما علم وخامة عاقبته ﴿تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ واستغفر ربه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتوبة ما أفسد بالجهالة ﴿فَإِنَّهُ غَفُورٌ﴾ يستر تلك المعصية عنكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:54] يقبل توبتكم بسبب إخلاصكم.

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾ ونوضح ﴿الآيَاتِ﴾ ليظهر طريق التوحيد ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ ويتميز ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:55] المنحرفين عن منهج الرشاد ومسلك السداد عن طريق أهل الحق.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين الذين يعبدون آلهة غير الله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ زجرت وصرفت بالدلائل القاطعة الدالة على توحيد الحق، وبالكشوف والمشاهدات الواردة من عنده سبحانه، الصارفة عن الميل والتوجه إلى الغير والسوى مطلقًا ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتسمون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ آلهة باطلة بأهويتكم الفاسدة ﴿قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ التي اخترعتموها من تلقاء أنفسكم، وإن اتبعت بمتابعتكم تلك التماثيل العاطلة ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ﴾ بعدما ضللت ﴿مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:56] أصلاً؛ أي: في شيء من الهداية كمثلكم.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا

﴿يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:57-59].

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ واضحة ﴿مِّن﴾ معرفة ﴿رَّبِّي﴾ وتوحيده ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ وبتوحيده، وأشركتم له غيره واستوجبتم العقوبة العظيمة بشرككم، ومع ذلك استهزأتم باستعجال العذاب ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب والنكال ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم إلا له باستعجال العذاب ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي: يقضي فيه ويدمغ الباطل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام:57] الحاكمين في الوقائع.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي﴾ وتحت قدرتي ومكنتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من نزول العذاب والعقاب ﴿لَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: لأهلككم بالمرة وارتفع النزاع ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ولكن ليس لي هذه القدرة والمكنة ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:58] المستوجبين للعذاب والنكال بأخذهم بظلمهم تعلقت إرادته.

﴿وَعِندَهُ﴾ وتحت قدرته وإرادته ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ ومقاليد السرائر والخفيات ﴿لاَ يَعْلَمُهَا﴾ وأوقات ظهورها من الغيب إلى الشهادة ﴿إِلَّا هُوَ﴾[1] إذ هو المحيط بجميع ما كان ويكون، لا يعزب عن علمه شيء، ثم لما كانت الأفهام قاصرة عن إدراك الغيب تنزل عن تلك المرتبة إلى ما هو أقرب إلى الأفهام فقال: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من الكائنات والفاسدات، وتنزل منها أيضًا فقال: ﴿وَمَا

(1) قال الشيخ كبرى: لأنه لا خالق إلا هو وليس لنبي ولا لولي مدخل في هذه المفاتيح ولا في استعمالها؛ لأنه مختص بالخالق فحسب ما ضرب لك مثلاً يدركه به هذه الحقيقة، وذلك مثل نقاش الصور، فإن لكل صورة فيما ينشقها شهادة هي هيئتها، وغيب هو أعمل التصوير، ومفتاح يفتح به باب علم التصوير على هيئة الصورة لتنفعل الصورة ثابتة في ذهن النقاش، وهو العلم بيد النقاش لا مدخل لتصرف غيره فيه، فإن الله تعالى هو النقاش المصور والصور هي صورة المكونات المختلفة الغيبية والشهادية، وشهادة كل صورة منها خلقها وكونها وغيبها علم خلقها وتكوينها، وقلم تصويرها الذي هو مفتاح ويفتح به باب علم تكوينها على صورتها وكونها هو الملكوت فبقلم ملكوت كل شيء يكون كل شيء، وقلم الملكوت بيد الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]، فكما أن الشهاديات مختلفة فالملكوتيات مختلفات، ولكل شيء من الجماد والنبات والحيوان والإنسان والملك غيب مناسب لصورته، ولهذا جمع المفاتح ووحد الغيب، وقال ﴿عِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ هو علم التكوين وهو واحد في جميع الأشياء وفي الملكوت كثرة كما في الصور.

تسقط مِن ورقةٍ﴾ من أغصان الشجر ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ كيف ينزل، ومن أين ينزل، وإلى أين ﴿وَلاَ حَبَّةٍ﴾ ساقطة ﴿فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾ أي: كموناتها وبروزاتها إلى أن تصل إلى مرتبتها الأصلية التي كانت عليها قبل سقوطها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ﴾ من الكوائن والفواسد ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:59] هو علمه الحضوري المتحد بعينه وذاته الظاهرة في نفسه المظهرة لنفسه؛ إذ لا هو إلا هو، ولا شيء سواه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام:60-62].

﴿وَ﴾ كيف يخرج عن حيطة علمه شيء من الكائنات والفاسدات؛ إذ ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم﴾ أي: يغيب استعداداتكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ أي: في مقر البطون والغيب ﴿وَ﴾ في تلك المرتبة ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا جَرَحْتُم﴾ أي شيء كسبتم واكتسبتم باستعداداتكم ﴿بِالنَّهَارِ﴾ أي: في فضاء الظهور والشهادة من المعارف والحقائق المقتضية للظهور والإظهار لو ظهرتم فيه ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ ويظهركم ﴿فِيهِ﴾ أي: في فضاء الظهور والشهادة ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عنده لاكتسابكم ما في استعدادكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقطاع الأجل المسمى ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوع الظل إلى ذي الظل ﴿ثُمَّ﴾ بعدما رجعتم إليه ﴿يُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم ويحاسبكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 60] وتكسبون في نشأة ظهوركم وشهادتكم من الأعمال الصالحة للقبول، والفاسدة الموجبة للرد.

﴿وَ﴾ عليكم أيها الأظلال الهالكة ألا تغفلوا عن مقتضيات توحيد الله، ولا تخرجوا عن امتثال أحكامه الجارية على ألسنة رسله؛ إذ ﴿هُوَ الْقَاهِرُ﴾ القادر الغالب ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[1] الرقيب المحافظ لهم يحفظهم عما لا يعنيهم ﴿وَ﴾ من حفظه أنه

(1) قال ابن عجيبة: من علم أن الله قاهر فوق عباده، انسلخ من حوله وقوته، وانعزل عن تدبيره واختياره؛ لإحاطة القهرية به، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى، علم أنه لا حجاب حسي بينه

﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ من الملائكة يكتبون ويحصرون ما صدر عنكم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: الوقت الذي قدره الله لانقضاء الأجل المسمى ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ أي: وفى عليه حسابه ﴿رُسُلُنَا﴾ أي: الموكلون عليكم ﴿وَهُمْ﴾ أي: الرسل ﴿لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:61] ولا يفرطون أصلاً فيما صدر عنكم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما وفى الرسل حسابكم ﴿رُدُّوا﴾ للجزاء ﴿إِلَى اللهِ﴾ الذي هو ﴿مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾ العدل القائم بالقسط، العالم بجميع أحوال عباده؛ ليجازي كلاً على مقتضى علمه وخبرته ﴿أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ﴾ والأمر والجزاء ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:62] لعباده؛ إذ لا يغيب عن حفظه شيء من أعمالهم.

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنعام:63-67].

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: شدائدها وأهوالها حين ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً﴾ متضرعين معلنين ﴿وَخُفْيَةً﴾ مناجين مسرين قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَانَا﴾ الله بلطفه ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الأهوال والمخاوف ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ لنعمه الصارفين لها إلى مقتضى ما أمره الحق ورضي عنه ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:63].

﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ هم وغم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أنجاكم الله ﴿أَنتُمْ﴾ أيها المنهمكون في بحر الضلال ﴿تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:64] به ما لا وجود له من التماثيل، وتكفرون نعمة العقل المفاض من عنده لتتنبهوا إلى توحيده.

وبينه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، وإنما المحجوب: العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحى من ارتكاب القبائح، لئلا تعرض على رءوس الأشهاد [البحر المديد (156/2)].

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ المقتدر ﴿عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً﴾ نازلاً ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ مثل الرعد والبرق والصواعق الكائنة في الجو ﴿أَوْ﴾ حادثًا ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ مثل الزلزلة والغرق وغير ذلك ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ ويخلط عليكم أهواءكم ويجعلكم ﴿شِيَعاً﴾ فرقًا متخالفة متقابلة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بالقتل والسبي والإجلاء ﴿انظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نجدد ونكرر لهم ﴿الآيَاتِ﴾ أي: دلائل توحيدنا وشواهده ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:65] رجاء أن يتفطنوا إلى سر توحيدنا وسريان هويتنا في مظاهرنا، ومع ذلك لم يتنبهوا.

﴿وَ﴾ من عدم تفطنهم وتنبههم ﴿كَذَّبَ بِهِ﴾ أي: بما جاء من عندنا إليك من الكتاب الجامع للكتب السالفة ﴿قَوْمُكَ﴾ يعني: قريشًا، ونسبوه لنا ما لا يليق بجنابنا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع نزوله منا إليك ﴿قُل﴾ لهم في مقابلة تكذيبهم: ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:66] موكل لحفظكم ليحفظكم عما يضركم بل ما علي إلا البلاغ والحفظ، والوقاية بيد الله.

واعلموا أن ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ خبر وآيات نازلة من الله ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ مقر ومورد ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:67] حين تقرره ونزوله في مورده في الدنيا والآخرة.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70) ﴾ [الأنعام:68-70].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالطعن والتكذيب ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تصاحبهم، واخرج من بينهم ﴿حَتَّى﴾ لا تكون سببًا لاستهزائهم و﴿يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: غير القدح والطعن في القرآن ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ الخروج بعد وقوفك بأباطيلهم ﴿فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ والتذكر البتة ﴿مَعَ

﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:68] الطاعنين على الله بما لا يليق بجنابه.

﴿وَ﴾ إن اتفق مجالسة المؤمنين معهم أحيانًا ﴿مَا﴾ يلزم ويعود ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ عن محارم الله ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ الذين يحاسبون عليها ومعاقبون لأجلها ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي: بشيء من الخطر والتزلزل ﴿وَلَكِن﴾ إن اتفق جمعهم لزمهم ﴿ذِكْرَى﴾ والموعظة الحسنة الناشئة عن محض الحكمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:69] ينتهون عما هم عليه من الاستهزاء والتكذيب تأثرًا واستحياء.

﴿وَ﴾ إن لم يتأثروا ولم يستحوا ﴿ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذين يدعون الهداية بسببه ﴿لَعِباً وَلَهْوًا﴾ أي: ملعبة وملهى ليس منه تأثر أصلاً بل يجرونه على طرف اللسان ويلقون على طرف التمام، وكيف يتأثرون منه ولا يلعبون معه ﴿وَ﴾ إذ ﴿غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بحيث عموا وصموا عن الأمور الأخروية بالمرة ﴿وَ﴾ إن أردت أن تذكر بالقرآن ﴿ذَكِّرْ بِهِ﴾ على من هو على خطر من الله مخافة ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أي: بتسلمه وتوقعه النفس العاصية إلى الهلاك الأبدي والبوار السرمدي ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من العقائد الزائفة والمعاصي العائقة عن إقامة حدود الله؛ إذ ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ أي: للنفس ﴿مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ﴾ يولي أمرها وينقذها من العذاب ﴿وَلاَ شَفِيعٌ﴾ يشفع لها عند الله لينجو من عذابه ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ وتفد ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ كل ما يفدى به من أمتعة الدنيا ﴿لاَّ يُؤْخَذْ﴾ ولا يقبل ﴿مِنْهَا أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن روح الله هم ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ سلموا نفوسهم إلى الهلاك ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من شؤم نفوسهم من المعاصي تهيأ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يحرق بطونهم عن مسرة المؤمنين ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم عن مكانتهم عند الله ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:70] أي: بسبب كفرهم وخروجهم عن حدود الله، وإن ادعى المشركون حقية دينهم ويدعون المسلمين إليه.

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَٰطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ ۚ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ ۚ

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام:71-73].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تعليمًا لمن اتبعك: ﴿أَنَدْعُو﴾ ونعبد ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ الخالق الرزاق الفاعل المختار ﴿مَا لَا﴾ يقدر على جلب ما ﴿يَنفَعُنَا وَلَا﴾ على دفع ما ﴿يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ﴾ بعبادته ﴿عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ التي كنا عليه من الشرك والعصيان ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ﴾ بنور التوحيد والعرفان؟ ﴿كَا﴾ الشخص ﴿لَّذِي اسْتَهْوَتْهُ﴾ أي: ذهبت به ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ والأغوال وطرحه ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: المهاوي والمهامه ﴿حَيْرَانَ﴾ قلقًا حائرًا تائهًا، وكان ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ ورفقة ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَى﴾ أي: الطريق الواضح المستقيم صائحًا عليه قائلاً: ﴿ائْتِنَا﴾ حتى تهتدي إلى الطريق، ونحن فيها، لم يسمع كلامهم ولم يقبل قولهم، واقتفى أثر الغول المغوي حتى يضل ويهلك ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده الذاتي ﴿هُوَ الهُدَى﴾ أي: مقصور على الإسلام الموصل إليه ﴿وَأُمِرْنَا﴾ أيضًا من عنده بمقتضى توحيده الذاتي ﴿لِنُسْلِمَ﴾ ونفوض جميع أمورنا ﴿لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأنعام:71] إذ هو مستقل بتربية مظاهره؛ لأنه لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

﴿وَ﴾ أمرنا أيضًا ﴿أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وأديموا الميل والتقرب نحوه ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ من سخطه وغضبه بارتكاب منهياته ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿هُوَ﴾ الموجد المظهر ﴿الَّذِي إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من العكوس والأظلال ﴿تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:72] ترجعون.

كيف لا ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: أوجدهما وأظهرهما ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ على مقتضى الحكمة المتقنة التي ما ترى فيها من فطور وفتور ﴿وَ﴾ ذلك ﴿يَوْمَ﴾ حين ﴿يَقُولُ﴾ بعد تعلق إرادته ومشيئته بتكوينهما ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[1] على الفور

(1) أي: للحق يعني: لإظهار صفات الحق ويجعل المخلوقات مرآة مناسبًا تحاكي جميع صفاته تعالى وتقدس، ولكن لا تشاهد صفاته بالكمال إلا في مرآة النسيان لا المخلوقات بالكمال إلا الإنسان، وهو أكمل المخلوقات استعدادًا وأحسنهم تقويمًا في المراقبة وأنه يشاهد مرآة المخلوقات مما اختصت به من الصفات ما لا يشاهد غيره ويشاهد في مرآة نفسه من الصفات ما هو المخصوص به ولا يشاهد منه غيره كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]؛ أي: مرآة أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق والآيات هي الصفات ولما كانت المشاهدة بإراءة الحق لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ والإرادة إنما تحصل بتكوينه إياها فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام:73]؛ يعني: وإذا أرادوا أن يرى عبدًا من عباده تلك

بلا تراخٍ ومهلة تنفيذًا لسرعة قضائه ﴿قَوْلُهُ﴾ لإعدامها أيضًا في الساعة ﴿الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع بلا تخلف ﴿وَ﴾ كيف يتصور التخلف في قوله؛ إذ ﴿لَهُ﴾ لا لغيره ﴿الْمُلْكُ﴾ أي: المظاهر كلها وله التصرف فيها بالاستقلال إيجادًا وإعدامًا ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ لإعدام ما في الوجود وإفنائها إظهارًا لقدرته؛ إذ هو ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ وما يجري فيها ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ وما يترتب عليها ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿الْحَكِيمُ﴾ في إبداء مظاهره من الغيب ﴿الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:73] بما ترتب عليها في الشهادة بعد إعادتها.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (74) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)﴾ [الأنعام:74-78].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين وقت ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ حين تيقظ عن منام الغفلة وتنبه عن سنة النسيان ﴿لأَبِيهِ﴾ المسمى ﴿آزَرَ﴾ العابد للأصنام ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً﴾ تنحتها ﴿آلِهَةً﴾ مستحقة للعبادة قادرة للإيجاد والإعدام ﴿إِنِّي﴾ بعدما تنبهت وتفطنت بعدم قابليتها للألوهية بل الإله لا بدَّ أن يكون متصفًا بجميع أوصاف الكمال بلا تغيير وزوال وانتقال ﴿أَرَاكَ﴾ يا أبت ﴿وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 74] بعبادة هذه التماثيل الباطلة واعتقادها معبودات حقة.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما نوقظه من منام الغفلة في أمر الأصنام ﴿نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] أي: عجائبهما وغرائبهما المودعة فيهما؛ ليتأمل فيها

الصفات يقول كن وإنا فيكون بهذا التيسير إلى أن ليس في استعداد الإنسان أن يصير رائيا بمجرد سعيه صفات الحق في مرآة المخلوقات إلا أن يخلق الله تعالى فيه استعدادًا مناسبًا للرؤية عند رؤيته تلك الصفات..[التأويلات].

(1) أي: وكما أريناه ظلمة الكفر والضلالة المستورة في ملكوت آزر وقومه نريه ملكوت السماوات

ويتفكر في تدبيراتها وتصريفاتها حتى ينكشف بمبدعها ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:75] في أمرها لا من المنتظرين المترددين المتخذين بعضها آلهة كعبدة الكواكب والمجسمة وغيرهما.

﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ أظلم ﴿عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً﴾ استنار بنوره وانكشف عنه الظلمة بسببه، وظن أن انكشافه ذاتي مطلق دائم ﴿قَالَ﴾ على مقتضى ظنه به: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ إذ هو نور يتجلى في الظلمة فيستحق الربوبية والعبودية ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ غاب وانمحق ﴿قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:76] فكيف أعبده وأخص العبادة له؛ إذ الأفول والتغيير من أمارات الحدوث، والحادث لا يستحق العبودية ولا يليق بالألوهية.

﴿فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً﴾ مبتدئًا في الطلوع منيرًا، له إشراق وإضاءة وانكشاف خيله؛ إذ هو وحصره فيه ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ انمحق وانكسر ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ ولم يكشف علي أمره ﴿لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام:77] باعتقاد إلهية هذا البازغ الآفل.

﴿فلَمَّا رأى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ قاهرة لجميع الكواكب مضيئة بنفسها مشرقة بجميع ما ظهر عليها بحيث لا يَنمحى انكشافها بسائر الكواكب أصلاً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ إذ هو

والأرض؛ أي: باطنها، واعلم أن لكل شيء من العالم ظاهرًا يعبر عنه تارة لجسمانية لما له من الأبعاد الثلاثة من الطول والعرض والعمق والمتحيزية وقبول القسمة والتحري، وتارة بالدنيا لدنوه إلى الحس وتارة بالصورة لقبول التشكل ولإدراكه بالحس، وتارة بالشهادة لشهوده بالحس وتارة بالملك لتملكه والتصرف فيه بالحق وباطنًا، يعبر عنه تارة بالروحانية لا انتفائه عن الأبعاد الثلاثة وعن التحيز والتجزؤ في الحس، وتارة بالآخرة لتأخره عن الحس، وتارة بالمعنى لتعريه عن التشكل وبعده عن الحس، وتارة بالغيب لغيبوبته عن الحس، وتارة بالملكوت لملاك عالم الملك والصورة فإن قيام الملك لملكوت وقيام الملكوت لقدرة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]، أي من طريق الملكوت والملكوت من الأوليات التي خلقها الله من لا شيء بأمر ﴿كُن﴾ [غافر:68]، وكان الله ولم يكن معه شيء يدل عليه قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:185]، فتبه إن الملكوت لم يخلق من شيء، وما سواها خلق من شيء وقد سمي الله ما خلق بالأمر أو ما خلق من الشيء خلقًا فقال: ﴿أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف:54] فالله تعالى أرى إبراهيم عليه السلام ملكوت الأشياء والآيات المودعة فيها الدالة على التوحيد. [التأويلات النجمية].

أتم انكشافًا وأكمل إضاءة وإنارة ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ من الجميع فهي المستحق بالألوهية والربوبية ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ وتغيرت، انكشف إلى نور لا أفول له ولا تغيير، بل هو ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور:35].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي﴾ بعدما كوشفت بنور الحق وعوينت بوجهه الكريم، تحققت بتوحيده وتمكنت بمقر تجريده وتفريده ﴿بَرِيءٌ مِّمَّا﴾ جميع ﴿تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:78] به من التماثيل الباطلة والأظلال الهالكة الآفلة.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام:79-81].

﴿إِنِّي﴾ بعدما اجتهدت في طريق التوحيد، وبذلت جهدي في مسالكه ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: وجه قلبي الذي هو يلي الحق نحوه بتوفيق منه، وجذب من جانبه وتوجهت ﴿لِلَّذِي فَطَرَ﴾ قدره وأظهره بلا مادة ومدة ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: العالم العلوي والسفلي ﴿حَنِيفاً﴾ مائلاً عن جميع الأديان الباطلة والآراء الفاسدة ﴿وَ﴾ بعدما تحققت بما تحققت ﴿مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:79] بإثبات الوجود لغير الحق بل الوجود منحصر به وما سواه أظلال أوصافه وعكوس تجلياته، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ أي: خاصموا في توحيد الله وقالوا: أنترك ما يعبد آباؤنا بتسويلات نفسك يا إبراهيم؟ ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي﴾ وتخاصموني ﴿فِي﴾ حق ﴿اللهِ﴾ وتجادلونني في توحيده وتخوفونني بهذه التماثيل الزائفة؟! ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ هَدَانِ﴾ بلطفه إلى مقر توحيده ﴿وَ﴾ بعدما كوشفت بتوحيد الله واستقلاله بالتصرف في مظاهره ﴿لاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ إذ لا نفع منه ولا ضر ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ مكروهًا يلحقني من جهتها؛ لأنه من جملة مظاهره إذ ﴿وَسِعَ﴾ وأحاط ﴿رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:80] وتتفكرون؛ لتميزوا بين المظهر والظاهر والعاجز والقادر.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ﴾ من ﴿مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ مع أنه لا ضرر يتوقع منه ﴿وَلاَ تَخَافُونَ﴾ أنتم من غضب الله مع ﴿أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ﴾ المتوحد بالألوهية المنزه في ذاته عن الشريك والنظير ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ الله ﴿بِهِ﴾ بشركته ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهانًا ﴿فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ﴾ أي: الموحدون أو المشركون ﴿أَحَقُّ بِالأَمْنِ﴾؟ بينوا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:81] أي: من ذوي العلوم والعقول.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام:82-85].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله ﴿وَ﴾ بعدما آمنوا ﴿لَمْ يَلْبِسُوا﴾ أي: لم يخلطوا ولم يستروا ﴿إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: بخروج عن مقتضى الإيمان والتوحيد ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿لَهُمُ الأَمْنُ﴾ في مأمن التوحيد ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:82] مقصورون على الهداية لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿وَتِلْكَ﴾ القصة التي سمعت ﴿حُجَّتُنَا﴾ ودليل توحيدنا ﴿آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ امتنانًا له وإرشادًا؛ ليغلب بها ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ ومن سنتنا أنّا ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾[1] من عبادنا في العلم والحكمة والإيقان والمعرفة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها المظهر الجامع ﴿حَكِيمٌ﴾ في رفع درجات بعض عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:83] باستعداداتهم وقابلياتهم.

﴿وَ﴾ من رفعنا إياه ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ من محض فضلنا وجودنا ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا﴾ أي: هدينا كلاً منهما إلى توحيدنا ﴿وَ﴾ كذلك ﴿نُوحًا﴾ هو جد إبراهيم ﴿هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ فيكون إبراهيم وارثًا لهداية نوح، ومورثًا لهداية إسحاق ويعقوب، وهو من

(1) قال ابن عجيبة: رفع الدرجات في جنات الزخارف في جنات الزخارف يكون بالعلم والعمل وزيادة الطاعات، ورفع الدرجات في جنة المعارف يكون بكبر اليقين، والترقي في شهود رب العالمين، وذلك بحسب التبتل والانقطاع، والتفرغ من شواغل الحس ودوام الأنس، والله تعالى أعلم [البحر المديد (2/ 169)].

أعظم النعم والهداية ﴿وَ﴾ كذا ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل جزاء هؤلاء ﴿نَجْزِي﴾ جميع ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام:84] مع الله المتشوقين بلقائه.

﴿وَ﴾ هدينا أيضًا ﴿زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾ و﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام:85] لعناية الله وهدايته.

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام:86-90].

﴿وَ﴾ أيضًا هدينا من ذرية إبراهيم ﴿إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿فَضَّلْنَا﴾ بالنبوة والحكمة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:86] أي: على الناس الموجودين في زمانهم.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ ممن لم يبلغ مرتبة النبوة والحكمة فضلنا عليهم بأنواع النعم ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ وانتخبناهم من بين الناس ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:87] موصل إلى توحيدنا.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: سبب تقرب هؤلاء الكرام ﴿هُدَى اللهِ﴾ أي: هدايته وعنايته تفضلاً عليهم وامتنانًا ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ إرادة واختيارًا ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ بالله، هؤلاء المهديون بأن أثبتوا الوجود لغيره ﴿لَحَبِطَ﴾ واضمحل وضاع ﴿عَنْهُم﴾ ثواب ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:88] من الخيرات والمبرات، وكانوا في حبوط الأعمال كسائر المشركين، نعتصم بك من إنزال قهرك يا ذا القوة المتين.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء الأمناء ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ الجامع المبين لهم طريق تهذيب الظاهر والباطن ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الفارق بين الحق والباطل في الوقائع على مقتضى الحكمة الإلهية ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ والرسالة المقتضية لإهداء التائهين في بيداء الغفلة والضلال

إلى طريق التوحيد ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ﴾ المضلون عن طريق الحق يعني قريشًا ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ وبمراعاتها ﴿قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:89] من أهل العناية والتوفيق.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المذكورون من الأنبياء هم ﴿الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ إياهم إلى توحيده تفضلاً عليهم ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ إذ مقصد أهل التوحيد واحد، وإن كانت الطريق مختلفة متفاوتة ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل لمن بعثت إليهم كلامًا صادرًا عن محض الحكمة إشفاقًا لهم: ﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ﴾ ولا أطمع منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على تبيين طريق التوحيد وتبليغ أمر الحق ونواهيه ﴿أَجْراً﴾ جعلاً ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما الغرض من التبيين والتبليغ ﴿إِلاَّ ذِكْرَى﴾ وموعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90] كي يتنبهوا على مبدئهم ومعادهم وما جبلوا أو خلقوا لأجله.

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92) ﴾ [الأنعام:91-92].

﴿وَ﴾ القوم الذين أنكروا بعثك وكذبوا موعظتك ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عرفوا ظهوره في الآفاق واستقلاله بالتصرف فيها ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ﴾ لهم تبكيتًا وإلزامًا: ﴿مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ من عند ربه وكان ﴿نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ يستنيرون ويستكشفون منه، ويهتدون به إلى توحيد الله مع أنكم ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ وكانت ألواحًا ﴿تُبْدُونَهَا﴾ أي: تظهرون منها ما يصلح لكم ويعين على مدعاكم ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ مما لا يصلحكم عنادًا ومكابرة ﴿وَ﴾ كيف تنكرون إنزاله؛ إذ ﴿عُلِّمْتُم﴾ منه ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ﴾ من الأمور المتعلقة بالظاهر وبالباطن ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل في الجواب بعدما بهتوا: ﴿اللهُ﴾ إذ هو المتعين للجواب ولا شيء غيره ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ أباطيلهم وأراجيفهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:91] يترددون فلا عليك بعد التبليغ والتبكيت.

ثم قال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ جامع لما في الكتب السالفة على أبلغ وجه وآكده مع زيادات شريفة ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ إليك يا أكمل الرسل ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير والبركة لك ولمن تبعك ﴿مُّصَدِّقُ﴾ للكتاب ﴿الَّذِي﴾ أحكامه ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: التوراة والإنجيل وجميع الكتب النازلة من عند الله، وإنما أنزلناه ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ به ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ أي: أهل مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: جميع أقطار الأرض؛ إذ دُحيت الأرضُ من تحتها على ما قيل لذلك صار قبلة لجميع أهل الأرض، وفرض حجها وطوافها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ من أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿وَ﴾ سبب إيمانهم أنه ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:92] أي: يراقبون ويداومون على الميل والتوجه نحو الحق بجميع شؤونه وتجلياته، ومن جملتها بل من أجلها: إنزال القرآن البالغ على درجات اليقين في تبيين أحوال النشأة الأولى والأخرى؛ إذ هو منتخب منهما على وجه يعجز عنه أرباب اللسن من البشر، ومن له أدنى مسكنة من ذوي العقول لا بدَّ أن يؤمن به وبإعجازه إلا من أضله الله وختم على قلبه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام:93-94].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن قال: بعثني الله نبيًا كمسيلمة والأسود العنسي ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كعبد الله بن أبي سرح ﴿وَمَن قَالَ﴾ من كفار قريش: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ولو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها الرائي ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ المفترون على الله المكذبون لكتبه ورسله ﴿فِي غمرات الْمَوْتِ﴾ وسكراته وأهواله ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ قائمون عليهم ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ كالمتقاضي قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ أيها المفترون الكاذبون بأيديكم حتى تخلصوا عن أيدينا واعلموا أن ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ المشتمل على الهوان والمذلة ﴿بِمَا كُنتُمْ

تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:93] عتوًا وعنادًا.

﴿وَ﴾ الآن ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ عارين منفردين عما استكبرتم به من المال والجاه والرئاسة ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عارية عن جميعها ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ ابتليناكم به في النشأة الأولى؛ ليكون سبب خيلائكم وبطركم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَ﴾ أيضًا ﴿مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ﴾ معبوداتكم ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾ أي: في إيجادكم وإظهاركم ﴿شُرَكَاءُ﴾ من الآن ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ﴾ وانفصل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وبينهم ﴿وَضَلَّ﴾ أي: غاب وتخفى ﴿عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:94] أنها شفعاؤكم ينقذكم من عذاب الله.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنعام:95-98].

قل يا أكمل الرسل للمنكرين البعث والحشر المستبعدين الممتنعين إحياء الأموات من العظام الرفات: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ القادر على كل ما أراد وشاء ﴿فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى﴾ أي: الحبة والنطفة ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ﴾ أي: الحبة والنطفة ﴿مِنَ الحَيِّ﴾ أي: الحيوان والنبات ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ المحيي المميت الحي القيوم المستحق للألوهية وللعبودية والربوبية ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام:95] تصرفون عنه إلى غيره من الأظلال الباطلة أيها الحمقى.

وكيف تصرفون عنه وهو ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ أي: شاق ظلام الليل بنبلج الصبح لتكتسبوا فيه أقواتكم ومعاشكم ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ﴾ سكنًا لتستريحوا فيه من تعب الكد، وهما من أقوى أسباب حياتكم ﴿وَ﴾ أيضًا جعل لكم ولمعاشكم ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾[1] ذا أدوار وأطوار مختلفة وأوضاع متفاوتة شتاء وصيفًا ربيعًا وخريفًا تتميمًا

(1) يعني: تجلي شمس الروحانية في طلوع قمر القلب بالحسبان؛ لئلا يفسد القلب والقالب، أيضًا

لأرزاقكم وأقواتكم ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ﴾ تدبير وتدوير ﴿الْعَزِيزِ﴾ القادر الغالب على جميع صور التدابير والتداوير ﴿الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:96] بنفع التدوير المخصوص والوضع المتعارف لمعاش عباده.

﴿وَ﴾ كيف تصرفون عنه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ لتدبير مصالحكم ﴿النُّجُومَ﴾ الزاهرات مرتكزة في السموات ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ وتوصلوا إلى مطالبكم بسببها حين كنتم تائهين ضالين ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ﴾ أي: مفاوزه ﴿وَالْبَحْرِ﴾ أي: لججه، وبالجملة: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا واستقلالنا في التصرفات والتدبيرات الواردة في عالم الكون والفساد ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:97] يستدلون وينتفعون بها وينتبهون إلى وحدة موجدها ومصرِّفها.

﴿وَ﴾ أيضًا كيف يصرفون عنه سبحانه مع أنه ﴿هُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي أَنشَأَكُم﴾ وأظهركم بالتجلي الحبي ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي طبيعة العدم ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: فكلكم أطوار مختلفة، وشؤون متفاوتة، لبعض قرار واستقرار، ولبعض استيداع واستتار، تتبدلون وتتحولون من حال إلى حال على مقتضى تطوراتها وتجلياتها ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وأوضحنا ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على ألا وجود لغيرنا من الأظلال، والإقرار ولا مراد لها أصلاً ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:98] يتأملون ويتدبرون لينكشفوا بكيفية سريان الهوية الإلهية في المظاهر الكونية والكيانية.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ

تجلي شمس الربوبية وطلوع قمر الروحانية لليل البشرية بالحساب؛ لئلا يفسد أمر الدين والدنيا على العبد بالتفريط والإفراط، فإن في إفراط طلوع شمس المعارف والشهود آفة «أنا الحق» و«سبحاني»، وفي تفريطه آفة «أنا ربكم»، ودعوى الألوهية واتخاذ الهوى إلهًا.

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام:99-101].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء - التفت لئلا يتوهم إسناد الإخراج إلى الماء - ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نبت كل صنف من أصناف النباتات ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: من النبات ﴿خَضِرًا﴾ وهو الساق ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبلة ﴿وَ﴾ أخرجنا ﴿مِنَ النَّخْلِ﴾ طلعها ﴿مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ عنقود ﴿دَانِيَةٌ﴾ ملتفة بعضها ببعض ﴿وَ﴾ أيضًا أخرجنا ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَ﴾ كذا أخرجنا ﴿الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ من أشجارهما ﴿مُشْتَبِهًا﴾ بعضها ببعض ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ أي: أنواع مختلفة ﴿انظُرُوا﴾ أيها الناظرون ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾ أي: ثمر كل من المذكورات ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ حين أخرج أولاً صغيرًا بلا لذة وانتفاع ﴿وَ﴾ انظر إلى ﴿وَيَنْعِهِ﴾ نضجه وبدو صلاحه ونفعه وكبره قليلاً قليلاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:99] دلائل واضحات على وجود الفاعل المختار الحكيم، المتقن في فعله بلا مشاركة أحد وممانعة ضد وند، العليم الخبير بتطوراتها وتبدلاتها من حال إلى حال متدرجًا من كمال إلى أكمل، المربي لها في كل مرتبة بما يناسبها ويلائمها على الاعتدال إلى أن يعود إلى ما بدأ.

﴿وَ﴾ مع عجائب صنيعه وغرائب قدرته ﴿جَعَلُوا﴾ من غاية جهلهم ونهاية غفلتهم ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد في ذاته، المنزه عن الشريك مطلقًا ﴿شُرَكَاءَ﴾ خصوصًا ﴿الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين فيعبدونهم كعبادة الله ويمتثلون أوامرهم كأوامر الله ﴿وَ﴾ الحال أنهم عالمون بأن الله تعالى قد ﴿خَلَقَهُمْ﴾ ومعبوداتهم ﴿وَ﴾ من جملة شركهم أنهم ﴿خَرَقُوا لَهُ﴾ أي: أثبتوا له افتراء ومراء ﴿بَنِينَ﴾ كما قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله ﴿وَبَنَاتٍ﴾ كما قالت العرب: الملائكة بنات الله، كل ذلك صادر منهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ومعرفة بذاته المنزه عن الأهل والولد ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام:100] هؤلاء الظالمون المفرطون؛ إذ هو:

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما ومظهرهما من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة وأزواج وأرواح، بل بالتجلي عليها ومد الظل إليها ﴿أَنَّىٰ﴾ أي: من أين ﴿يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ وليس غيره أحد ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ والولد إنما يتصور بين المتجانسين. ﴿وَخَلَقَ﴾ أوجد وأظهر ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بأظلال أوصافه الذاتية وعكوس شؤونه وتجليات الحية ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما ظهر من تجليات صفاته ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 101] لا يخفى عليه شيء.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: 102-105].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: الذات الأحدية الموصوفة بالصفات الأزلية الأبدية السرمدية المتجلي بالتجليات اللطفية والقهرية ﴿رَبُّكُمْ﴾ ومربيكم أيها الأظلال الهالكة والعكوس الباطلة ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ولا موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وهو ﴿خَٰلِقُ﴾ ومظهر ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ ظهر من العكوس والأظلال ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ فهو المستحق للعبادة والرجوع، وفوضوا أموركم كلها إليه وكيف لا يفوضونها إليه ﴿وَهُوَ﴾ بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الكوائن والفواسد الحادثة في مظاهره ﴿وَكِيلٌ﴾ [الأنعام:102] يوليها ويصرفها كيف يشاء حسب قدرته وإرادته.

وإن كان ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ من غاية ظهوره وجلائه ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ القاصرة عن إبصار نوره ﴿وَ﴾ كيف تدركه الأبصار ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿يُدْرِكُ﴾ ويبصر ﴿ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ومبصر الأبصار لا يبصره الأبصار ﴿وَ﴾ كيف يبصر ﴿هُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ الرقيق المنزه عن المجازاة والمقابلة والانطباع والمحاكاة ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾[1] [الأنعام:103] هو كيف يخبر عنه،

(1) قال أبو سليمان: اللطيف: هو البر بعباده، الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [الشورى:19]، وقيل: هوالذي يوصل إليك إربك في رفق، ويقال: هو الذي لطف عن أن يدرك بالكيفية، انتهى. وقال سيدي محمد القونوي - قدس الله سره: اللطيف سريانه.في أفعاله الموجودات، أي باعتبار أنه الفاعل لها، واختفاء لطائف حكمته في مظاهر الكائنات، هو الذي يسر كل عسير، ويجبر كل كسير، اعلم أن حقائق هذا الاسم وأسراره عمّت مراتب الوجود، واللطيف مأخوذ من اللطف، وهو الخفاء، وأغرب أمثلته، خفيات ألطافه، مد الظل وقبضه، فإن البصر لا يدرك غير امتداده وانقباضه، حالاً بعد حال، ولا قدرة له على شهود حركته المحسوسة على الدوام، فضلاً عن شهود حقيقة خروجه عن الأصل الحقيقي ورجوعه إليه، فإن الظل إذا أخذ في الامتداد، يخرج من ذات الشخص، وكذلك إذا انقبض لا ينقبض إلا ما منه خرج، هذا

وبالجملة: ما يرى الله إلا الله، وما يخبر عنه إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿قَدْ جَاءَكُم﴾ وحصل عندكم أيها المجبولون على فطرة التوحيد ﴿بَصَائِرُ﴾ شواهد وكواشف ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي أوجدكم وأظهركم عليها ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ شهد وانكشف بها ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: عاد نفعه إليها ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ واحتجب ﴿فَعَلَيْهَا﴾ أي: وبالها عائد عليها ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام:104] رقيب مصرف بل منبه مبلغ، والحفظ بيد الله، والتصرف بقدرته، يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك المذكور ﴿نُصَرِّفُ﴾ ونكرر ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا رجاء أن يتنبهوا فلم يتنبهوا ﴿وَ﴾ غاية أمرهم أنهم ﴿لِيَقُولُوا﴾ لك يا أكمل الرسل: ﴿دَرَسْتَ﴾ تعلمت هذه الأساطير الكاذبة القديمة من

شهادة العين. وقال الحق عز شأنه: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: 46]؛ إشارة إلى أن ما يخرج منه هو الحق سبحانه، ظهر من حيث تجليه بصورة فيه، فظل يبرزه تارة ويقبضه أخرى، وكما أضاف القبض إلى نفسه، كذلك أضاف الامتداد إليه، بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان:45] الآية، وهذا من ألطف الإشارات، فإن العين تدركه، وتشهد حركة الامتداد وانقباضه من ذات، انكشف أنها هي حقيقة من لطائف تصرفات القوي اللطيف، وكذلك قوله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:80]؛ إشارة إلى سريان هذا اللفظ الإلهي، الذي هو كسريان نور الشمس في أجزاء الجو؛ إذ امتزاجها بحيث لا تقع الإشارة إلى الهوى إلى النور، وكذلك سبب اختفاء الذات المتعالية سعة ظهوره واحتجابه عن الإدراكات بسبحات نوره، انتهى. وقال الجيلي - قدس الله سره - في «الكمالات الإلهية»: اسمه اللطيف تعالى، هو الذي امتنع إدراكه بالأبصار، وتنزه عن المكان، فلا يتحيز في الجهات والأقطار، وتعالى عن الحد، فلا تعرفه العقول بالفهوم والأفطار، وهو مع ذلك أقرب إلى الأشياء من ذواتها، وأظهر عليها من صفاتها غاية الإظهار، وهذا الاسم اسم صفة إلهية بهذا الاعتبار، ولهذا الاسم اعتبار آخر، وهو أن اللطيف هو الذي يسرع بكشف الغمة عند حلول النقمة، ويصبح بإزاء النعمة من حيث لا تتوقفها الغمة، وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال: «إن لله في طرفه عين نظر لطف إلى خلقه»، فهذا الاعتبار اسمه اللطيف من أسماء صفات الأفعال، وصفته اللطف، وهو عبارة عن سريان الرحمة بأنواع الإغاثة والنعمة من غير امتناع، وبالاعتبار الأول: أن اللطف عبارة عن غموض أعلم به من حيث يحصل امتناع معرفته على الحقيقة؛ للطافتها عن مدارك الفهوم، وتنزهها عن مبلغ غايات العلوم أ.هـ

أهل الكتاب ﴿وَ﴾ مع كونه ما نصرفها ونكررها إلا ﴿لِنُبَيِّنَهُ﴾ ونوضحه إلى التوحيد الذاتي المدلول عليه بتصريف الآيات والدلائل ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:105] يستدلون بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة على وحدة الصانع الحكيم، وإن انصرفوا عنكم ولم يقبلوا منك ما جئت به من الآيات، اتركهم وحالهم.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام:106-109].

﴿اتَّبِعْ﴾ أنت ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن﴾ توحيد ﴿رَّبِّكَ﴾ بأن ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا موجود ﴿إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:106] واتركهم وشركهم بعدما تحققت وتمكنت في مقر التوحيد.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده عدم إشراكهم ﴿مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ مصرفًا بل مبلغًا منبهًا ﴿وَمَا أَنتَ﴾ أيضًا ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:107] تشفع لهم وتقوم بأمرهم.

﴿وَلاَ تَسُبُّوا﴾ أي: لا تذكروا بالمساوئ والمقابح أيها المؤمنون الموحدون أصنام ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون؛ أي: المشركون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إذ هم من جملة المجالي والمظاهر لله مع أنكم إن تسبوهم وآلهتهم ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ من غاية جهلهم وحميتهم فتكونوا سببًا لسب الله ﴿عَدْوًا﴾ تجاوزًا عن الحق إلى الباطل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بمآله ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل تزيننا لكم دينكم وإلهكم وعملكم ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿عَمَلَهُمْ﴾ وإلههم سواء كان حقًا أو باطلاً؛ إذ ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:53] ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:108] أي: يجازيهم على مقتضى ما عملوا من خير وشر وإيمان وكفر.

﴿وَ﴾ من غاية نفاقهم واستهزائهم معك يا أكمل الرسل وتهكمهم بما جئت به

من الآيات ﴿أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: مغلظين فيها مؤكدين لها تهكمًا ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ البتة وبك أيضًا ﴿قُلْ﴾ لهم كلامًا خاليًا عن وصمة الكذب: ﴿إِنَّمَا الآيَاتُ﴾ ونزولها وإنزالها ﴿عِندَ اللهِ﴾ وبقبضة قدرته وليس في وسعي وطاقتي شيء منها ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ ويظهر لكم أيها المؤمنون الطالبون لإيمان هؤلاء الكفرة، وأنتم تتفرسون من مظاهر حالهم لو تأملتم في شأنهم ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ جميع مقترحاتهم ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:109] بها البتة؛ إذ طبع الله على قلوبهم بالكفر والنفاق.

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام:110-112].

﴿وَ﴾ كيف يؤمنون بها، إذ ﴿نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ عن الميل إلى الحق مطلقًا ﴿وَأَبْصَارَهُمْ﴾ عن إحساس شواهده وعلاماته ﴿كَمَا﴾ قلبناها حيث ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: بما جاء به من الحق ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إذ لا تفاوت بين حقية الآيات سواء كانت مقترحة أم لا ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ نمهلهم وندعهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: ضلالهم المجاوز عن الحد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:110] يتحيرون ويترددون إلى أن نأخذهم وننتقم منهم.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلاَئِكَةَ﴾ كما اقترحوا ﴿وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى﴾ من قبورهم وأوصاهم بالإيمان ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً﴾ كفلاً يرشدونهم إلى الإيمان ﴿مَّا كَانُوا﴾ ليؤمنوا؛ إذ ختم الله على قلوبهم بالكفر في سابق علمه ﴿لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ إيمانهم أيضًا في قضائه السابق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثر الناس ﴿يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:111] عن قضاء الله ومشيئته فيتمنون إيمانهم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ما جعلنا لك يا أكمل الرسل عدوًا ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿عَدُوًّا﴾ يعاديهم ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ بالمظاهرة والمعاونة؛ إذ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ﴾ أي: أباطيله وأراجيفه ﴿غُرُورًا﴾ ليقدموا ضعفاء

الأنام على مخاصمة الأنبياء ومعاداتهم، ويظهروا عليه بتغرير بعضهم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إيمانهم ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: هذا الغرور والقول المزخرف المموه، وبالجملة: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ وكفرهم ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:112] ويزخرفون بسبب غرورهم وزخرفتهم.

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام:113-116].

﴿وَلِتَصْغَى﴾ ولتميل ﴿إِلَيْهِ﴾ وتوجه نحوه ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم ما يزخرفون به لكون جبلتهم عليه ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ ويكتسبوا بسببه ﴿مَا هُم مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:113] مكتسبون من العقائد الزائفة والآثام.

قل لهم إن أرادوا أن يتصالحوا ويتحاكموا معك بعدما ظهر لك تنسيبهم وتغريرهم إنكارًا عليهم: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ﴾ المستقل بالحكومة والتصرف ﴿أَبْتَغِي﴾ أطلب ﴿حَكَمًا﴾ عادلاً يفصل بيني وبينكم أيها المعاندون المكابرون ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمْ الكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ مبينًا موضحًا مغنيًا عن التحاكم والترافع ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ أي: علمه إن أنصفوا، ولم يعاندوا ولم يكابروا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يقينًا بشهادة كتبهم ﴿أَنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿مُنَزَّلٌ مِن رَبِّكَ﴾ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ بلا ميل إلى الباطل أصلاً ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:114] في أنهم عالمون بحقية القرآن وموافقته لكتبهم، إلا أنهم يكابرون في تحريف كتبهم، ويعاندون بادعاء تكذيب القرآن ظلمًا وعدوانًا.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: انتهت وتناهت، وبلغت الغاية القصوى بيان كلمة التوحيد برسالتك يا أكمل الرسل؛ إذ ظهرت في تبيينها وكشفها بما لا يظهر به أحد من الأنبياء؛ إذ الأنبياء إنما يظهرون توحيد الصفات والأفعال دون توحيد الذات، وأنت تظهر به حيث ورد في شأنك: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء:80]، و﴿إِنَّ

الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ﴾ [الفتح:10].

وقلت: «من رآني فقد رأى الحق»[1].

وقلت أيضًا: «رأيت ربي في ليلة المعراج»[2]، وغير ذلك من الآثار والأخبار الدالة على التوحيد الذاتي.

لذلك أتممت مكارم الأقوال والأخلاق ﴿صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ ومتى تمت وبلغت ﴿لاَّ مُبَدِّلَ﴾ ولا محول ﴿لِكَلِمَاتِهِ﴾ إذ ختم وتم أمر الرسالة والنبوة وسد باب الوحي ﴿وَ﴾ بعد ذلك ظهر أنه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقواله ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:115] بشؤونه وتجلياته إلى ما شاء الله.

﴿وَ﴾ متى تحققت يا أكمل الرسل بمقام الشهود والمشاهدة ﴿إِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ المتوحد بالذات والصفات والأسماء ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتبعون ويقتفون ﴿إِلاَّ الظَّنَّ﴾ الفاسد والوهم الكاسد، والظن لا يغني عن الحق الصريح شيئًا ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ أي: ما هم في ظنونهم الكاذبة وأوهامهم الباطلة في الاعتقادات والأحكام ﴿إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:116] يخلطون ويلبسون على نفسهم حسدًا وعنادًا.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأنعام:117-120].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾ من أصحاب التقليد ﴿وَهُوَ﴾ أيضًا ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:117] من أرباب الشهود والمكاشفة لا يفيد تغريرهم وإضلالهم.

---

(1) رواه البخاري (2568/6، رقم 6595)، ومسلم (1776/4، رقم 2267)، وأحمد (306/5، رقم 22659).

(2) تقدم تخريجه.

وإذا علمتم أيها المؤمنون أن الهداية والإضلال بيد الله لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا بتحريم المباح وتحليل الحرام ﴿فَكُلُوا﴾ أي: من الأزواج الثمانية وما يشبهها ﴿مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ عند ذبحه مستبيحين محللين على أنفسكم ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:١١٨] وبأحكامه مصدقين ممتثلين.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾ وأي شيء عرض لكم ويمنعكم ﴿أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ ربكم ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...﴾ [المائدة:3].

فعليكم ألَّا تأكلوا المحرمات ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ حينئذ يباح لكم منها مقدار سد جوعة ﴿وَإِنَّ كَثِيراً﴾ من الناس ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ في أنفسهم ويضلون غيرهم من الضعفاء بتحليل المحرمات، وتحريم المحللات بلا سند شرعي ﴿بِأَهْوَائِهِم﴾ الباطلة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بما عند الله فلا تتبعوا ولا تقتفوا أثرهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام:119] المتجاوزين عن حدوده بمتابعة أهوائهم الفاسدة فيجازيهم على مقتضى علمه.

﴿وَذَرُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿ظَاهِرَ الإِثْمِ﴾ أي: الإقدام عليه والاتصاف به ﴿وَبَاطِنَهُ﴾[1] أي: أخطاره وإجراءه على القلب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ﴾ ويميلون إليه متلذذين ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:120] أي: بمقدار ما يتلذذون.

---

(1) المراد بالإثم: جميع المعاصي، التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم، والحرج، من الأشياء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده. فنهى الله عباده، عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد، ترك المعاصي الظاهرة والباطنة، إلا بعد معرفتها، والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك واجبا متعينا على المكلف، وكثير من الناس، تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصا معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة، ثم أخبر تعالى، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته. انظر [تفسير السعدي (1 /271)].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام:121-123].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حين ذبحه ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: أكلكم منه ﴿لَفِسْقٌ﴾ خروج عن حكم الله بمتابعة أهل الأهواء الضالين عن طريق الحق بوسوسة الشياطين، ولا تغفلوا من وسوستهم ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ يلقون ويوسوسون ﴿إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من أهل الأهواء ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون حتى يضلوكم عن طريق الحق سيما في المآكل والمشارب ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:121] لأنه من أطاع غير الله فقد أشرك به.

﴿أَوَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿مَيْتًا﴾ بالجهل والكفر ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالمعرفة والإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ هاديًا منيرًا كان ﴿كَمَن مَّثَلُهُ﴾ وصفه وشأنه ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ المتراكمة المتزاحمة وهي ظلمة الجهل والكفر والعصيان، واعتقاده أنه ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ لعدم تناهيها فأنقذه الله من ظلمة الضلالة بنور الهداية وهداه إلى صراط مستقيم هو الإسلام ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل تزيين الإيمان للمؤمن ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:122] من الكفر والعصيان.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما جعل في مكة أكابر وصناديد يجرمون فيها جرائم عظيمة ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ أي: قدرنا فيها ﴿أَكَابِرَ﴾ كانوا ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ ومترفيها ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بأنواع المكر والحيل ليضلوا ضعفاء العوام ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ هؤلاء الماكرون ﴿إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وبال مكرهم يعود عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:123] لقساوة قلوبهم وشدة عمههم.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا

يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأنعام:124-127].

﴿وَ﴾ من غاية جهلهم ونهاية قسوتهم ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ هادية لهم إلى سبيل الرشاد ﴿قَالُوا﴾ من غاية بغضهم وعنادهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ بها ﴿حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ﴾ من يدعي أنهم ﴿رُسُلُ اللهِ﴾ إذ نحن وهم سواء في البشرية وأولى منهم في الرئاسة والنسب، فكيف يؤتى لهم ولم يؤتَ إلينا؟ قل لهم يا أكمل الرسل: الوحي والإيتاء بيد الله يؤتي من يشاء ويمنع ممن يشاء؛ إذ ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ لا يعتبر عنده الرئاسة والنسب بل تفضلاً على من تفضل من عباده بلا التفات إلى نسبه وحسبه بقدر قابليته واستعداده، المقدر له من عنده في سابق علمه، ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:70] ويقولون إذ ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ مغرورين على رئاستهم وجهلهم ونسبهم ﴿صَغَارٌ﴾ مذلة وهوان ﴿عِندَ اللهِ﴾ حين إحضارهم الحساب والجزاء ﴿وَ﴾ بعدما كشف حالهم وحسابهم لهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: 124].

وإذا كان الأمر بيد الله من عنده ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ إلى توحيده ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ أي: يفسحه ويوسعه ﴿لِلإِسْلامِ﴾ أي: التفويض والاستسلام إلى حيث رضي بجميع ما قضي له، ومتى رضي بالقضاء يسع الحق فيه فيستولي عليه فيغنيه عن هويته ويبقيه ببقائه السرمدي ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ عن فسحة توحيده ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ﴾ الذي من شأنه أن يسع الحق فيه ﴿ضَيِّقًا﴾ ضنكًا ﴿حَرَجًا﴾ في غاية الضيق باستيلاء لوازم الإمكان عليه، إلى حيث تضيق الأرض عليه فيتمنى الصعود إلى عالم الأسباب ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يطلب الصعود إلى السماء، ومن غاية احتياجه واضطراره، وهذا مثل يضرب به لمن ضاق عليه طرق معاشه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كحال من اضطر إلى الصعود نحو السماء ﴿يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ﴾ أي: خذلان الإمكان والحرمان في النشأة الأخرى ﴿عَلَى﴾ القوم ﴿الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:125] بتوحيد الله وسعة لطفه وجوده.

﴿وَهَذَا﴾ أي: ما أنزلنا إليك يا أكمل الرسل من القرآن المبين لطريق المعرفة

والإيقان ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيها أصلاً موصلاً إلى توحيده ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وأوضحنا فيما أنزلناه إليك ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 126] يتعظون بها ويتذكرون مبدأهم الذي ينشئون منه ويظهرون عنه وهو الوحدة الذاتية.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ أي: مقام التفويض والاستسلام ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بعدما تحققوا بتوحيده ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿وَلِيُّهُم﴾ ومولى أمورهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:127] أي: بجميع ما كانوا يعملون من الأعمال؛ إذ هو سمعهم وبصرهم ويدهم ورجلهم وجميع جوارحهم التي صدرت عنها أعمالهم على ما نطق الحديث القدسي صلوات الله وسلامه على قائله.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)﴾ [الأنعام:128-129].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميع ما يتأتى منه الإطاعة ويتوجه إليه التكليف من الثقلين قابلين عليهم منادين لهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ أي: الشياطين ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُم﴾ أي: استتبعتم بأن أضللتم وأغويتم كثيرًا ﴿مِّنَ الْإِنسِ﴾[1] بإيقاعهم إلى المعاصي والمهالك والخروج عن مقتضى أوامرنا ونواهينا، وإغرائهم إلى مستلذات نفوسهم ومقتضيات شهواتهم ﴿وَ﴾ بعدما سمع الإنس هذا النداء ﴿قَالَ أَوْلِيَاؤُهُم﴾ أي: أولياء الجن ومتابعهم ﴿مِّنَ الْإِنسِ﴾ متذللين متحسرين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم فكفرناك بمتابعة هؤلاء الغواة فإن ظهر الحق واضمحل الباطل نحن نقر بما جرى بيننا وبينهم ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ منهم بإغوائهم وإغرائهم إلى خلاف ما أمرتنا عليه بألسنة رسلك، وبعضهم استمتع ببعضنا بالموالاة

---

(1) يشير إلى أنه تعالى حشر وجمع الجن وهي صفة الشيطانية والإنس، وهي النفس الإنسانية وصفاتها في موقف القالب البشري بحكمة بالغة وقدرة كاملة ويحيطها بقوله: يا معشر الجن إلى الصفات الشيطانية قد استكثرتم من الإنس؛ أي: قبلتم على الصفات الإنسانية، وأضللتموهم عن طلب الحق وهو الصراط المستقيم إلى الله الذي خلق الإنسان للعبور عليه والوصول إلى الحق، ومن شأنه إقعاد الإنسان عن هذا الصراط. [التأويلات].

والمتابعة ﴿وَبَلَغْنَا﴾ الآن ﴿أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ على ألسنة رسلك فالآن جئناك خائبين خاسرين ﴿قَالَ﴾ سبحانه من وراء سرادقات العز والجلال: الآن انقرض دار الابتلاء ومضى زمان الاهتداء ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ جميعًا؛ أي: تابعيكم ومتبوعيكم مؤبدًا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ وقتًا ينقذهم منها؛ لئلا يتعودوا بعذابها ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ متقن في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:128] بمقدار جزاء العصاة.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل قول أولياء الإنس والجن ﴿نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ﴾ من الإنس ﴿بَعْضاً﴾ منه ليفتضحوا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:129] من المظاهر بتغرير بعضهم بعضًا.

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الأنعام:130-132].

﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ﴾ المفتضحين على رءوس الأشهاد ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ غلب الإنس على الجن؛ إذ ليس يبعث من الجن نبي بل من الإنس إلى الثقلين ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ ويدعونكم إلى توحيد ذاتي وأوصافي وأفعالي ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يوم القيامة والجزاء ﴿قَالُوا﴾ مضطرين معترفين: ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾ يا ربنا بالجرم والعصيان بعدما ظهر الأمر وانكشف الحجاب، وصرنا مستحقين بالعذاب والنكال ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿غَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بحيث لم يبالوا بما جاءهم من عند ربهم لإهدائهم بل يكذبونه ويستهزئون به ﴿وَ﴾ أدى عاقبة أمرهم في عتوهم وعنادهم إلى أن ﴿شَهِدُوا﴾ واعترفوا ﴿عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام:130] مستحقين بأنواع العقوبة والعذاب.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: إرسال الرسل وإنزال الكتب إنما هو ليتنبهوا وينتبهوا؛ أي: العصاة على ما هم عليه والسر في الإرسال ﴿أَن﴾ أي: لأن ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ﴾ أي: بسبب ظلم صدر عنه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾[1] [الأنعام:131]

(1) عن إنذار رسل الإلهامات الربّانية، وذلك أن الاستعداد الروحاني لا يفسد استيفاء حظوظ

عن طريق الحق بلا تنبيه منبه وإرشاد مرشد نبيه، وعلِّم من تبعك من المؤمنين.

﴿وَ﴾ اعلم يا أكمل الرسل وذكرهم أن ﴿لِكُلٍّ﴾ من أهل التكليف ﴿دَرَجَاتٌ﴾ عند الله حاصلة لهم ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ عن الصالحات ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:132] لمقتضى التكاليف التي كلفهم بها.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام:133-135].

﴿وَ﴾ الحال إن نفعه عائد إليهم؛ إذ ﴿رَبُّكَ﴾ هو ﴿الْغَنِيُّ﴾ بذاته عنهم وعن أعمالهم بالمرة صالحًا أو فاسدًا بل هو ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ على من عمل بمقتضى التكليف امتنانًا عليه وتفضلاً بلا احتياج له سبحانه إليهم وإلى عملهم بل ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس الناسون حقوق ألوهيته وتوحيده والتكاليف الواقعة في طريقه ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾ ممن يعمل على مقتضى تكاليفه ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام:133] قرنًا بعد قرن، بطنًا بعد بطن مع أنه يترحم عليكم ويبقيكم تفضلاً وامتنانًا.

قل لهم يا أكمل الرسل تنبيهًا عليهم: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المكلفون من الحشر والنشر والجزاء ﴿لَآتٍ﴾ كامن ثابت لا محالة، واعملوا على مقتضى ما كلف به ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام:134] أي: عاجزين عن الإتيان بالأمور حتى لا تؤاخذوا بترك التكاليف ولا تعذبوا به؛ إذ لا تكلف نفس إلا وسعها.

الحيواني في الطفولية، إلا بعد أن يصير العبد مستعدًا لقبول فيض العقل وفيض الإلهام عند البلوغ، فيخالف الإلهامات ويتبع الهوى، فيفسد بذلك حسن الاستعداد لقبول الفيض الإلهي، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:26]، وهذا كما أنه تعالى لا يعذب قومًا بلغهم الدعوة حتى يبعث فيهم رسولاً، فيخالفونه فيعذبهم بها،وقد عبّر لسان الشرع عن هذا المعنى، بأنه لا يجري عليه قلم تكاليف الشريعة إلا بعد البلوغ بالأوامر والنواهي؛ لأنه أوان ترقي الروح باستعمال المأمورات، ونقصانه باستعمال المنهيات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾. [التأويلات].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على طريق الترحم والتحنن إرخاء العنان مبالغة في التعريض: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا﴾ من المعاصي ﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ مقدار مكنتكم وطاقتكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أيضًا من الصالحات المأمورة علي بمقتضى مكنتي وطاقتي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حين انكشف الحجب وارتفع الغشاء ﴿مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي: العاقبة الحسنى التي تترتب على هذه الدار؛ أي: أينا نفوز بها إنا أو أنتم؟ ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:135] الخارجون عن حدوده بمقتضى أهويتهم الفاسدة.

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأنعام:136-137].

﴿وَ﴾ من جملة أهويتهم الباطلة أنهم ﴿جَعَلُوا لِلهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ برأ وخلق ﴿مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا﴾ المعين المفروز ﴿لِلهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ أي: آلهتنا وشفعائنا ﴿فَمَا كَانَ﴾ من أموالهم يفرز ﴿لِشُرَكَائِهِمْ﴾إن كان جيدًا طيبًا ﴿فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ﴾ ولا يتجاوز عن شركائهم ﴿وَمَا كَانَ لِلهِ﴾ إن كان جيدًا ﴿فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ بأن استبدلوها بالردئ الذي كان لشركائهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136] هؤلاء الجاهلون؛ لأن فعلهم واختيارهم هذا إنما هو تفضيل المفضول المترذل على الأصل الأفضل.

روي أنهم كانوا يعينون في حرثهم ونتاجهم لله، ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئًا منها لآلهتهم وينفقونها إلى سدنة آلهتهم وخدامهم، ويذبحون عندها ثم إن رأوا ما عينوا لله أزكى؛ بدلوه بما لآلهتهم من الرديء، وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حبًا لآلهتهم، وهذا مما اخترعوه من تلقاء أنفسهم وإن افتروا إلى كتبهم ترويجًا وتغريرًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل قسمتهم في القربات والصدقات ﴿زَيَّنَ﴾ حبب وحسن ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ المُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ أي: آلهتهم الذين يعبدونهم من دون الله من الشياطين، وما ذلك التزيين والتحسين إلا ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم ويضلوهم

بالإغواء عن طريق الحق ﴿وَلِيَلْبِسُوا﴾ ويخلطوا ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ الذي وجب عليهم الانقياد والإطاعة ليصلوا إلى طريق التوحيد ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ الهادي لعباده هدايتهم ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما قبلوا ما زينوهم ولبسوا عليهم ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:137] أي: جانب عنهم وعن افترائهم إلى أن نأخذهم وننتقم عنهم.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾[الأنعام:138-139].

﴿وَ﴾ من جملة ما اخترعوها من تلقاء أنفسهم ونسبوها إلى الله وإلى كتابه ترويجًا أنهم ﴿قَالُوا هَٰذِهِ﴾ المعينة المفروضة ﴿أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ حرام ﴿لاَ يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ﴾ إطعامه؛ يعنون سدنة الأوثان وخدمتهم من الرجال دون النساء، فإنها يحل عليهم ويحرم على غيرهم وما هي إلا ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ الفاسد بلا حجة نقلية وعقلية ﴿وَ﴾ أيضًا قالوا: هذه ﴿أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وأراد البحائر والسوائب والحوامي، ﴿وَ﴾ قالوا أيضًا: هذه ﴿أَنْعَامٌ﴾ معدة للتجارة والحمل والظعن ﴿لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾ أي: لا يركبونها للحج، كل ذلك من مخترعاتهم التي يخترعونها من أهويتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة ويفترون ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ سبحانه بلا سند لهم نازل من عنده ﴿سَيَجْزِيهِم﴾ الله ويعذبهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:138] أي: بسبب بافترائهم عليه.

﴿وَ﴾ من جملة مفترياتهم ومخترعاتهم أنهم ﴿قَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الأَنْعَامِ﴾ أي: البحائر والسوائب إن كانت حيًا فهي ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ مخصوصة مستحلة لهم ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ لا نصيب لهن فيه ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ أي: وإن يخرج ميتة ﴿فَهُمْ﴾ أي: الذكور والإناث ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ بلا تفاوت وخصوصية ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: سيجزيهم الله على وصفهم، وتفصيلهم هذا افتراء عليه ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في جزاء المفترين ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:139] بمقدار جزائهم.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ

وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأنعام:140-142].

﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وخاب خيبة مؤبدة الأعراب ﴿الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا﴾ مخافة سبي وإملاق ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منهم بما يؤول أمرهم عليه، ولاشك أن الرازق لعباده هو الله لا هم ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿حَرَّمُوا﴾ على نفوسهم ﴿مَا رَزَقَهُمُ اللهُ﴾ وأباح عليهم من البحائر والسوائب وغيرها ونسبوا تحريمها ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللهِ﴾ هوى وميلاً إلى الباطل، وبالجملة: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ بهذه الجرائم عن طريق الحق ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 140] إلى توحيده وما يرجى منهم الهداية والفلاح أصلاً.

﴿وَ﴾ كيف تضلون عن طريق الحق أيها الجاهلون المسرفون مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ لكم لمعاشكم في النشأة الأولى ﴿جَنَّاتٍ﴾ من الكروم ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ مرتفعات من الأرض ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾[1] ملقيات على وجه الأرض ﴿وَ﴾ أنشأ لكم أيضًا﴿النَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ أي: أكمل كل واحد منهما رطبًا ويابسًا ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا﴾ بعضها ببعض ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ بل مختلف في الشكل والطعم ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ أي: ثمر كل واحد من المذكورات حيث شئتم ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ﴾ أي: أخرجوا حق الله منه على الوجه المفروض ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ إدراكه وبدو صلاحه ﴿وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ في الأكل إلى حيث تقسى قلوبكم ويكل إدراككم ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

---

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى: الإشارة فيها: إن الله تعالى عرّف ذاته بصفاته، وقال:﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾؛ بساتين في الظاهر كما مرّ ذكره في المعاني، وبساتين في القلوب، مغروسات وغير مغروسات، كما هي قراءة علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه ﷺ - فالمغروسات: لمغرسة الله تعالى في أرض القلوب من شجرة الإسلام والإيمان والإحسان، وما يتعلق بصفات الحق تعالى، كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:42]، وغير المغروسات: هي أشجار من صفات الروحانية، التي جبلت القلوب عليها مثل: السخاء والحياء والوفاء والمروة والفتوة والشفقة والعفة والحلم والعلم والعقل والشجاعة والقناعة وأمثالها، فإن بساتين القلوب بها موفقة، وشموس الأسرار منها مشرقة، وأنهار المعارف فيها زاخرة، وأزهار الشواهد عنها زاهرة.

[الأنعام:141] أي: لا يرضى عنهم وعن فعلهم؛ إذ الأكل إنما هو لقوام البدن وتقوية الروح على فعله، وإسرافه يفضي إلى التعطيل والتكليل المخل للحكمة الإلهية.

﴿وَ﴾ إنشاء لكم أيضًا ﴿مِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً﴾ تحملون أثقالكم يوم ظعنكم ﴿وَفَرْشاً﴾ تفرشون من أصوافها وأشعارها وأوبارها المنسوجة تحتكم يوم إقامتكم ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ وأباحه عليكم منها ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا﴾ أثر ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تسمعوا وساوسه في تحليل المحرمات وتحريم المباحات؛ يعني: لا تتبعوا أهويتكم التي هي من جنود الشياطين ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام:142] ظاهر العداوة فاجتنبوا من إغوائها.

﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام:143-144].

واعلموا أيها المؤمنون أن الله سبحانه أباح لكم من الأنعام ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ الكبش والنعجة وما يتولد منهما ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ التيس والعنز أيضًا كذلك ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن يدعي التحريم في تقدير الجنس إلزامًا وتبكيتًا: ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾ الكبش والتيس ﴿حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ﴾ النعجة والعنز ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ﴾ أي: حرم ما في بطن الأنثيين من هذين الجنسين ذكرًا كان أو أنثى ﴿نَبِّئُونِي﴾ أخبروني أيها المدعون تحريم شيء منها ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: بمقدمة معلومة عندكم من نقل ونص دال على أن الله حرم شيئًا من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: 143] في دعوى التحريم.

﴿وَ﴾ أيضًا أباح لكم ربكم أيها المؤمنون ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ﴾ يعني: لم يحرم أيضًا شيئًا منهما ولا ما في بطنهما ذكرًا كان أو أنثى ﴿أَمْ﴾ تدعون أيها المدعون أنكم ﴿كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ حضراء ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ﴾ أي: حين وصاكم الله ﴿بِهَذَا﴾ التحريم؛ لأنه ما أخبر به نبي وما جاء به كتاب، فبقي أن تدعوا الحضور عنده سبحانه وأنتم أيها المفترون من

المردودين المطرودين عن ساحة عز حضوره سبحانه، وما من الأمر تسويلات نفوسكم وتلبيسات شياطين أوهامكم وخيالاتكم تفترونه على الله ظلمًا وزورًا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ﴾ عن طريق الحق ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نص ونقل وارد نازل من عند الله بل من تلقاء نفسه تلبيسًا وتخليطًا لضعفاء العوام ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع بمخايل المفسدين ﴿لاَ يَهْدِي﴾ إلى طريق صراط توحيده ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:144] المفترين عليه بأمثال هذه المفتريات الزائغة.

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام:145-146].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على مقتضى ما أوحينا إليك: ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: في القرآن الجامع لأحكام الكتب السابقة المستحضر لها ﴿مُحَرَّمًا﴾ طعامًا حرمه الله ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ بل أجد كل ما يطعم حلالاً؛ إذ الأصل في الأشياء الحل ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ مات حتف أنفه بلا زكاة ﴿أَوْ دَماً مَّسْفُوحًا﴾ سائلاً جاريًا مفروزًا عن اللحم ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ نجس في نفسه لا يقبل الزكاة أصلاً ﴿أَوْ﴾ ما يذبح من المحللات ﴿فِسْقًا﴾ خروجًا عن مقتضى الشرع بأن ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ حين ذبحه من أسماء الأصنام وغيرها، وما سوى هذه المستثنيات المذكورة فهو مباح ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أيضًا إلى تناول تلك المستثنيات حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ خارج على أهل الإسلام ظلمًا ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مجاوز عن سد الجوعة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ لمن تناولها ضرورة ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:145] لا يؤاخذه عليها بل إن لم يتناول في محل الاضطرار، وهلك كان عاصيًا البتة؛ لأنه تخريب لبيت الله وإبطال لصنعه بعدما رخص.

﴿وَ﴾ إن سألوك يا أكمل الرسل عن محرمات الأمم الماضية قل لهم نيابة عنا: ﴿عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ وحافر يمكن أن يخرج معها ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ﴾ من الشحوم ﴿ظُهُورُهُمَا﴾ وهي الثُّروب وشحوم الكلى ﴿أَوِ﴾ حملتها ﴿الْحَوَايَا﴾ أي: الأمعاء ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ﴾ من الشحوم ﴿بِعَظْمٍ﴾ كالألية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تحريم هذه الأشياء، وإن كان الأصل في الأشياء الحل

والإباحة مطلقة بسبب أنا ﴿جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ بها وظلمهم وخروجهم عن حدودنا بلا ورود نص منا ﴿وِإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام:146] في جميع ما أوحينا إليك من الأقوال والأخبار والمواعيد والوعيدات.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام:147-149].

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وعاندوك فيما تلونا عليك ﴿فَقُل﴾ لهم إمحاضًا للنصح على مقتضى مرتبة النبوة: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ يمهلكم على ما أنتم عليه ويوسع عليكم على مقتضى رحمته وجماله ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ وبطشه على مقتضى غيرته وحميته وجلاله ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:147] الذين أجرموا على الله بالخروج عن مقتضى أحكامه النازلة على ألسنة رسله.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ على سبيل التكذيب والإنكار فيما جئت به: و﴿لَوْ شَاءَ اللهُ﴾ ما أنت ترويه عنه وتدعيه بالنسبة إلينا ﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ مع أنه القادر على جميع ما أراد ﴿وَلاَ﴾ أشرك ﴿آبَاؤُنَا﴾ أيضًا ﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ مما أجزت تحريمه عنه بالنسبة إلينا بل ما هي إلا مفتريات تخترعه من عندك ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل تكذيبهم لك بأمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ الذي أنزلنا عليهم واستأصلناهم بتكذيبهم، وإن أردت إلزامهم وتبكيتهم ﴿قُلْ﴾ لهم مستفهمًا: ﴿هَلْ﴾ حصل ﴿عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ نقل صريح وحجة واضحة موردة من عند الله ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ وتظهروه حتى نتبعه، ونقبله؟ فإن لم يخرجوا فقل لهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتبعون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الذي لا يغني من الحق شيئًا ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[1] [الأنعام:148] تكذبون على الله افتراء ومراء، فأعرض عنهم ودع

(1) تكذبون على الله تعالى وقد تقدم الكلام في حكم اتباع الظن على التفصيل فتذكر قل فلله خاصة الحجة البالغة أي البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة على الاثبات أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه كعيشة راضية والمراد بها في المشهور الكتاب والرسول والبيان، وقال شيخ

مجادلتهم ومخاطبتهم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما ألزموا وأفحموا: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ﴾ البينة الواضحة ﴿الْبَالِغَةُ﴾ حد الكمال ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:149] أي: لأوضح حجته عليكم ووفقكم إلى قبوله، ولكن لم تتعلق مشيئته على هدايتكم لذلك أصررتم واستكبرتم، وإذا لم ينتبهوا بعد إلقاء حجة الله عليهم بل أصروا على تقليد أحبارهم.

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾ [الأنعام:150-151].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ أي: أحضروا أحباركم ﴿الَّذِينَ

مشايخنا الكوراني: الحجة البالغة إشارة إلى أن العلم تابع للمعلوم وان إرادة الله تعالى متعلقة باظهار ما اقتضاه استعداد المعلوم في نفسه مراعاة للحكمة حودا ورحمة لا وجوبًا وهي من الحج بمعنى القصد كأنها يقصد بها إثبات الحكم وتطلبه أو بمعنى الغلبة وهو المشهور والفاء جواب شرط محذوف أي إذا ظهر أن لا حجة لكم قل فلله الحجة فلو شاء هدايتكم جميعا لهداكم أجمعين، بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن شاء هداية البعض الصارفين اختيارهم إلى سلوك طريق الحق وضلال آخرين صرفوه إلى خلاف ذلك، وقال الكوراني: المراد لكنه لم يشأ إذ لم يعلم ان لكم هداية يقتضيها استعدادكم بل المعلوم له عدم هدايتكم وهو مقتضى استعدادكم الأزلي الغير المجعول وهذا تحقيق للحق ولا ينافي ما في صدر الآية لما علمت من مرادهم به وفائدة ارسال الرسل على القول بالاستعداد تحريك الدواعي للفعل والترك باختيار المكلف الناشيء من ذلك الاستعداد وقطع اعتذار الظالمين وقد أشرنا الى ذلك من قبل فتذكر وذكر ابن المنير وجها آخر في توجيه ما في الآية وهو أن الرد عليهم انما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم وأن اشراكهم انما صدر منهم على وجه الاضطرار وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بذلك فرد الله تعالى قولهم في دعواهم عدم الاختيار لأنفسهم وشبهتهم بمن اغتر قبلهم بهذا. انظر [روح المعاني (8 /51)].

يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ﴾ في كتابه ﴿هَذَا﴾ أي: ما ادعيتم تحريمها.

﴿فَإِن شَهِدُوا﴾ بعدما حضروا افتراء على كتاب الله ﴿فَلاَ تَشْهَدْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَعَهُمْ﴾ ولا تقبل شهادتهم ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ونسبوا إليها ما هي خالية عنها ﴿وَ﴾ اعلم يا أكمل الرسل أن ﴿الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ ولا بالمجازاة والمكافأة مطلقًا، ولا يبالون من أفعال هذه المفتريات الباطلة ﴿وَهُم﴾ من غاية جهلهم ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع الكرم ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:150] يشركون ويجعلون له عديلاً، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على مقتضى شفقة النبوة: ﴿تَعَالَوْا﴾ أيها التائهون في بيداء الضلال ﴿أَتْلُ﴾ وأعد لكم ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ في نشأتكم الدنيا، أولاها وعظماها: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ من مصنوعاته؛ إذ هو أحد صمد فرد وتر ليس لغيره وجود حتى يشاركه ويماثله ﴿وَ﴾ أن تفعلوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ اللذين هما سببان قريبان لظهوركم إلا ﴿إِحْسَانًا﴾ لإحسانهما إليكم في حفظكم وحضانتكم ﴿وَ﴾ أن ﴿لاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم﴾ ظلمًا ناشئًا ﴿مِّنْ﴾ خوف ﴿إِمْلاَقٍ﴾ فقر وقلة؛ إذ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وأن ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ﴾ القبيح ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالقود وقتل المرتد ورجم الزاني المحصن وغيرها من المحارم التي رخص الشرع بارتكابها، إذا ارتكابها من جملة المحللات والمأمورات ﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور مفصلاً مما ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:151] رجاء أن تسترشدوا لتهتدوا إلى توحيده.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:152-153].

﴿وَ﴾ من جملة المحرمات التي حرمها الحق عليكم: أن ﴿لاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ ولا تتصرفوا ﴿إِلاَّ بِـ﴾ التصرفات ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لليتيم وأحفظ لغبطته من تنمية ماله وحفظه ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: يسمع من التصرفات الشرعية شرعًا، وحينئذ يسلم إليه بعد تجربته واختباره، ﴿وَ﴾ من جملتها أيضًا: ألا تنقصوا وتخسروا

في الكيل والوزن بل ﴿أَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل ولا تنقصوا منهما، وإن كان إيفاؤهما في غاية الصعوبة والعسر، فعليكم أن تبذلوا وسعكم وطاقتكم في تعديلها وإيفائهما مهما أمكن لكم، وما ليس في وسعكم ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ معفو عنكم، ﴿وَ﴾ من جملتها: ألا تميلوا في الأحكام ﴿إِذَا قُلْتُمْ﴾ وحكمتم حال كونكم حاكمين بين الخصمين ﴿فَاعْدِلُوا﴾ في الحكومة ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المحكوم عليه أو له ﴿ذَا قُرْبَى﴾ من حميمكم وذوي قرابتكم، وعليكم أيها الحكام ألا تتجاوزوا في الأحكام عما حكم الله به بل ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ﴾ الحكيم العليم ﴿أَوْفُوا﴾ وبمقتضى حكمه وحكمه وفوا ﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور مما ﴿وَصَّاكُم﴾ الله ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 152] رجاء أن تتذكروا وتتعظوا به أيها المتوجهون إلى توحيده.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المائلون نحو توحيدي ﴿أَنَّ هَذَا﴾ أي: المذكور في هذه السورة من الأوامر والنواهي والمحرمات والمحللات والأحكام والإشارات والآداب والمعاملات ﴿صِرَاطِي﴾ الموصل إلى توحيدي ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ سويًا بلا ميل واعوجاج ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ حتى تفوزوا إليه ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ المتفرقة والطرق المختلفة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ وتضلكم ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: سبيل توحيده الذاتي ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: اتباع طريق التوحيد مما ﴿وَصَّاكُم﴾ الله ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] [الأنعام:153] رجاء أن تحذروا

---

(1) قال في «التأويلات»: اعلم أن هذه الآيات لتشتمل على عشر خصال جامعة للخير كله: أولها: ألَّا تشركوا به شيئًا قدم الشرك؛ فإنه رأس المحرمات،﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:48]، فإنه لا يقبل معه شيئًا من الطاعات، وهو ينقسم إلى جلي وخفي؛ فالجلي: عبادة الأصنام ومتابعة الهوى في الأنام، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:43]، والخفي: ملاحظة الأنام بعين استحكام الإعظام ورؤية الأغيار مع الله الواحد القهار.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:151]، وإنما ذكر بعد تحريم الشرك تحريم العقوق والأمر بالإحسان إلى الوالدين؛ لأنهما سبب وجوده ومظهره، كما أن الله تعالى موجد وجوده ومبدعه ومبدئه فحرم عقوقهما بعد تحريم الشرك به، وأوجب الإحسان إليهما بعد القيام بعبادته، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:23]، إقامة لحقوقهما بعد الإقامة لحقوق الله تعالى، فالتقاعد عن أداء حقوقهما عقوق فهو أكبر الكبائر.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:151]، ثم حرم قتل الأولاد بعد تحريم العقوق؛ لما فيه من هدم بنيان الله تعالى، وملعون من هدم بنيانه، وفيه إبطال ثمرة، وشجرة وجوده، وقطع نسله، وفيه خشية إملاق؛ وهي ترك التوكل على الله

وعدم الثقة بالله إن يرزقهم وذلك يؤدي إلى تكذيب الله تعالى؛ لأنه قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:6]. ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:151]، ثم الفواحش جميعها، وقد يدخل في ذلك جميع أقسام الآثام ما ظهر منها: وهو ما يبعده من الجنة ويدنيه، وباطن منها: وهو ما يبعده عن الحق ويحجبه عنه، وإن لم يحجبه عن الجنة ولم يبعده منها، وأيضًا ما ظهر منها بالفعل، وما بطن بالنية.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:151]، ثم حرّم القتل إلا بالحق؛ أي: وإلا في طلب الحق، فإن المقتول في سبيل الله هو حي عند ربه، وفي قتل ترك تعظيم أمر الحق وترك الشفقة على الخلق وهما ملاك الدين ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: 151]، يعني: هذه الخمسة المحرمة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:151] لكي تعرفوا موجبات الانقطاع عن الله تعالى فتحرزوا عنها.

وسادسها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ والأشدة: الصلاح، والفقه؛ يعني: يتفقه في الصلاح للدين لا في إفساد الدنيا، ثم حرّم المال بعد تحريم قتل النفس؛ لأن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، وقدم مال اليتيم؛ لأنه عاجز عن حفظ ماله، فإن الله تولاه، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، وفيه معنيان: أمره وحي الخلق بالاجتناب عن ماله وبالشفقة والنظر في حقه.

وسابعها: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ وفيه معنيان:

أحدهما: تحريم الطمع في مال المسلم بنقصان الكيل والوزن عند الوفاء وأتاه بزيادتهما عند الاستيفاء.

والثاني: أوفوا الكيل العمر وميزان الشرع حقوق الربوبية، واستوفوا بكيل الاجتهاد وميزان الاقتصاد وحظوظ العبودية من الألوهية، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ في إبقاء الحقوق واستيفاء الحظوظ، ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا بحسب استعدادها.

وثامنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ ثم حرّم الظلم والجور والميل في الفعل المقال، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام:152] أي: ولو كان المسلم على الكافر والكافر على المسلم وحقيقته العدل في الكلام أن ما يذكر الله تعالى ولا يذكر معه غيره،وأن يتكلم لله وفي الله وبالله.

وتاسعها: قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا﴾ ثم حرّم نقص العهد مع الله وأمر بالوفاء بعهده عليه، وهو ألّا يعبد إلا مولاه ولا يحث إلا إياه ولا يرى سواه، ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ يعني: هذه المحرمة الأخرى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكي تذكروا أيام الوصال في حضرة الجلال ومشاهدة ذلك الجمال:

أيامنا قضيت بذي القضاه	سقاهن رجاف العشى بطول
إذا العيش غض والشباب بمائه	وفي حدثان الدهر عنك غفول
ونحن بربع إن تطأه ثوابت	ولا استجيب للهم فيه ذبول

وعاشرها: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ

بسببه عن سبيل الأهوية الفاسدة والآراء الباطلة المضلة عن طريق الحق وتوحيده.

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأنعام:154-157].

﴿ثُمَّ﴾ اعلموا أنا ﴿آتَيْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿مُوسَى الكِتَابَ﴾ تمامًا؛ أي: التوراة المبين لطريق الحق ﴿تَمَاماً عَلَى﴾ الوجه ﴿الَّذِي أَحْسَنَ﴾ بيانه وتوضيحه ﴿وَ﴾ بينًا فيه أيضًا ﴿تَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الكوائن والفواسد المتعلقة بعالم الفواسد المتعلقة بعالم الملك والشهادة ﴿وَهُدًى﴾ من المعارف والحقائق المتعلقة بعالم الملكوت والغيب ﴿وَرَحْمَةً﴾ من المكاشفات والمشاهدات المسقطة للإضافات مطلقًا المغنية لنفوس الغير والسوى رأسًا ﴿لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:154] رجاء أن يتحققوا بمرتبة اليقين العلمي ثم العيني ثم الحقي.

﴿وَهَذَا﴾ أي: القرآن ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ تتميمًا لمقاصد الكتب السالفة، وترويجًا لحكمه وأحكامه ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير والنفع لمن آمن به وصدقه ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أيها المتوجهون نحو التوجه الذاتي، وامتثلوا جميع أوامره، واجتنبوا عن جميع نواهيه ﴿وَاتَّقُوا﴾ عن تكذيبه والقدح فيه وفيمن أنزل إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:155] تكشفون وتفوزون به إلى فضاء التوحيد.

وإنما أنزلنا القرآن بعد التوراة والإنجيل، وإن كان أكثر أحكام الكتب الإلهية مشتركة كراهة ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أيها المؤمنون: ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾

سَبِيلِهِ﴾ ثم حرّم إتباع كل سبيل الله، وأمر باتباع طريق محمد ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا﴾ أي: ذكرنا من الخصال العشر، ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ يعني: إلى الله تعالى وهو صراط محمد ﷺ، واختص هذه الأمة باتباع صراط إلى الله تعالى. ثم قال ﷺ: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ أي: بمتابعته وصيتكم في السير إلى الله، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:153] بالله وتحترزون عن غير الله.

أي: اليهود والنصارى، وعلى لسانهم ولغتهم فلا تقبلون الأحكام الإلهية معللين قائلين: ﴿وَإِن﴾ أي ﴿كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم وتعلمهم لعدم علمنا بوضع لغتهم ﴿لَغَافِلِينَ﴾ [الأنعام:156]

﴿أَوْ﴾ أن ﴿تَقُولُوا﴾ متحسرين متمنين: ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ﴾ كما أنزل عليهم ﴿لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ لحدة أذهاننا وصفاء صدورنا، ومتى علم واطلع سبحانه من استعداداتكم هذا ﴿فَقَدْ جَاءَكُم﴾ من عنده لإهدائكم وإيصالكم إلى مقر توحيده ﴿بَيِّنَةٌ﴾ واضحة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بإضافة استعدادات التوحيد وقابلياته، دالة عليه، مبينة له كاشفة إياه بالنسبة إلى المحجوبين من ذوي العلوم اليقينية ﴿وَهُدًى﴾ يرشدهم إلى مرتبة اليقين العيني ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لكم تستر هويتكم عن عيون بصائركم ويغنيكم في هوية الحق.

وبالجملة: لو امتثلتم بمقتضاه لصار علمكم عينًا وعينكم حقًا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ بعدما سمع أوصافها وفرائدها من الله ﴿وَصَدَفَ﴾ صد وأعرض ﴿عَنْهَا﴾ عنادًا واستكبارًا، والله ﴿سَنَجْزِي﴾ باسمنا المنتقم ﴿الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾ إباء وتكذيبًا ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: عذابًا يسوءهم ويشتد عليهم ﴿بِمَا كَانُوا﴾ أي: بشؤم ما كانوا ﴿يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:157] عنها، ويستنكفون عن قبولها عتوًا وعنادًا بلا حجة قطعية بل ظنية أيضًا.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (158) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160)﴾ [الأنعام:158-160].

﴿هَلْ﴾ أي: ما ينتظرون ويسوفون أمر الإيمان ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: ملائكة العذاب كما أتوا الأمم الماضية فتلجئهم إليه ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: يطلبون إتيان ربك عنادًا كما طلب اليهود حين قالوا: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:153] ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدالة على انقضاء النشأة الأولى المسمى بأشراط الساعة، وبالجملة: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ لكونها ملجئة إليه حين اضطرارها، ولا عبرة للإيمان حين البأس والإلجاء؛ إذ الإيمان تعبدي برهاني اختياري ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: نفسًا لم تكن آمنت قبل ظهور الملجئ ﴿أَوْ﴾ لم تكن ﴿كَسَبَتْ﴾ وإن

آمنت ﴿فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ مقبولاً عند الله ﴿قُلِ﴾ للمنتظرين استهزاءًا: ﴿انتَظِرُوا﴾ إلى ما تخيلتم وتوهمتم ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:158] أيضًا إلى حلول الوقت المعلوم ونزول العذاب فيه عليكم بكفركم وشرككم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ الذي يوصلهم إلى التوحيد الإلهي بلا منازعة ومخالفة ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: صاروا فرقًا مختلفة متحزبة متعصبة كما قال ﷺ: «**افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة**»[1].

﴿لَسْتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من شأنهم وإصلاحهم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ بل ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ﴾ حين عرضوا وحشروا نحوه ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ ويخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:159] في النشأة الأولى التي هي دار الابتلاء.

وبالجملة: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ فيها ﴿فَلَهُ﴾ على مقتضى الفضل الإلهي ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ امتنانًا عليه وجزاء له ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ فيها ﴿فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ على مقتضى العدل الإلهي ﴿وَهُمْ﴾ في جزاء السيئة ﴿لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:160] بالزيادة؛ إذ لا ظلم في ذلك اليوم.

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:161-165].

---

(1) رواه أبو داود (197/4، رقم 4596)، والترمذي (25/5، رقم 2640)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (1321/2، رقم 3991)، والحاكم (47/1، رقم 10)، والبيهقي (208/10، رقم 20690)، وأحمد (332/2، رقم 8377)، وأبو يعلى (317/10، رقم 5910)، وابن حبان (140/14، رقم 6247).

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل المبعوث إلى كافة البرايا: ﴿إِنَّنِي﴾ مع كوني بشرًا مثلكم ﴿هَدَانِي رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى توحيده الذاتي، وآتاني من فضله ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قويمًا مستقيمًا ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة والآراء الفاسدة لذلك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:161] في وقت من الأوقات.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل المظهر للتوحيد الذاتي مفوضًا جميع أمورك وما جرى عليك وظهر منك إلى ربك: ﴿إِنَّ صَلاتِي﴾ أي: ميلي بجميع أعضائي وجوارحي ﴿وَ﴾ سائر ﴿نُسُكِي﴾ وعباداتي التي هي سبب تقربي وتوسلي نحو الحق ﴿وَ﴾ بالجملة: لوازم ﴿مَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ خالصًا ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد المتصرف في ملكه وملكوته بما يشاء بالاستقلال والاختيار لكونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:162]

﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾ ينازعه، ولا ضد له يكافئه ويماثله، لا وجود لغيره أصلاً ﴿وَبِذَلِكَ﴾ التفويض والإخلاص ﴿أُمِرْتُ﴾ من عنده لتوحيده ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:163] الموحدين المظهرين الطاهرين بالتوحيد الذاتي.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل مستوبخًا مستقرعًا لمن عاندك في طريق التوحيد، وجادلك بإثبات الشركاء له وتوقع موافقتك لشركه: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ المتوحد في ذاته، المتفرد في ألوهيته ﴿أَبْغِي﴾ أتخذ وأطلب ﴿رَبًّا﴾[1] مربيًا موليًا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾

---

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى: أي: كيف أطلب غير الله وهو حبيبي، والمحب لا يطلب إلا الحبيب، وكل شيء طلب دونه فهو رب ذلك الشيء ومالكه، فإذا كان هو لي يكون ما له لي، وإن قبلت غيره لم أجده، وكل خير وجدته غيره يكون عليّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:164]، يعني: إن النفس إنما تكسب بأمر هواها،﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53]، ولهذا كان من دعائه ﷺ: لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك. واعلم أن النفس مأمورة بالسير إلى الله بقدم العبودية والأعمال الصالحات بقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:27ـ 28]، وإن اطمئنانها بالطبع إلى الدنيا وزخارفها مخالف لأمر الله تعالى وهو وزرها وسيرها إلى الدركات السفلى، فلا يمكن لغيرها أن يحمل قدرها، وإنّ القلب إذا كان سليمًا من كدورات صفات النفس باقيًا على ما جبل عليه من حب الله تعالى وطلبه مزينًا بنور الإيمان وحبه لا يؤخذ بمعاملة النفس وزرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام:164]، والنفس مأخوذة بوزرها معًا معاقبة بما هي أهله ولا يتألم القلب بعذابها، وإن كان القلب منقلب الحال وأزاغه الحق تعالى بإصبع القهر إلى محاذاة النفس فينطبع مرآة القلب

بذاته وأسمائه وأوصافه ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وخالقه وموجده من كتم العدم ﴿وَ﴾ إذا قلت لهم من كلمة الحق ما قلت دعهم وشركهم؛ إذ ﴿لاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من الجرائم والآثام ﴿إِلَّا﴾ تحمل ﴿عَلَيْهَا﴾ آصارها وأثقالها ﴿وَلاَ تَزِرُ﴾ تقترف وتحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ عاصية كافرة ﴿وِزْرَ أُخْرَى﴾ بل كل منها رهينة بما كسبت، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ رجوع الظل إلى ذي الظل ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام:164] أي: يميز لكم الحق من الباطل والهداية من الضلال والعناية من الوبال والنكال.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون توحيد الحق وتربيته إياكم مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ﴾ أي: خلفاء قابلين لمظهرية جميع أوصافه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في الاتصاف بأوصافه والتخلق بأخلاقه ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من استعداداتكم وقابلياتكم هل تصرفها إلى ما خلقتم لأجله أم لا ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ على صنيع استعداده الفطري فيما لا يعنيه ﴿وَإِنَّهُ﴾ أيضًا ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن تنبه واستغفر ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:165] لمن تاب واستهدى.

خاتمة سورة الأنعام

عليك أيها المتوجه نحو الحق القاصد سلوك طريق توحيده، أنجح الله أملك وأوصلك إلى مبتغاك أن تنخلع وتتجرد عن مقتضيات القوى النفسانية من لذاتها وشهواتها الحسية والوهمية والخيالية، وتتوجه بما فيك من مبادئ القوى الروحانية إلى مبدئها، مقتفيًا في توجهك أثر ما وصل إليك من آثار النبي ﷺ المختار، الذي استخلفه الحق وأظهره على مقتضى جميع أوصافه وأسمائه، واجتباه من بين جميع رسله وأنبيائه، وأرسله مظهرًا للتوحيد الذاتي وأنزل عليه كتابًا جامعًا محتويًا على جميع فوائد الكتب السالفة مع زيادات خلت عنها الجميع، مبينًا لطريق التوحيد على الوجه الأتم الأكمل إلى حيث لم يبق بعد بعثته احتياج إلى مبين آخر، لذلك قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ

بصفات النفس وأخلاقها، فيتبع النفس وهواها فيزول بطبع الشهوات ولذاتها، ويكسب الإثم والوزر بترك ما هو مأمور به من؛ الطهارة والصفاء والسلامة والذكر والفكر والتوحيد لله تعالى والإيمان به والتوكل عليه والصدق والإخلاص في القلب والعبودية، وغير ذلك من أعمال القلب فيكون مأخوذًا بوزره لا بوزر غيره، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14].

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ [المائدة:3]. وقال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

وبعد بعثته ﷺ ونزول الكتاب لم يبقَ للمسترشد المستهدي نحو التوحيد الذاتي إلا الاتصاف والامتثال بما جاء به خاتم الرسالة، لذلك لم يكن الاجتهاد بعد بعثته إلا في جزئيات الأحكام دون المعتقدات الكلية؛ إذ خُتم أمر الرسالة والتشريع به ﷺ. ولا بدّ لك أن تربط قلبك بمرتبته ﷺ وتجعلها قبلة مقصدك، وتقتفي أثر ما ورد عليه وجاء به ﷺ بحيث لا يهمل منها شيء. ولا بدّ أن يكون في متابعته ﷺ على وثوق تام واطمئنان كامل، عارٍ عن جميع ما يشوشك من ظلمات الشكوك والأوهام، خالٍ عن جميع الرعونات العارضة من وساوس شياطين الأهواء الفاسدة مثل العجب والرياء والسمعة وغيرها.

وبالجملة: عليك أن تتوجه نحو التوحيد عن طريق الفناء والموت الإرادي؛ بحيث لا يصدر عنك شيء من أمارات الحياة الصورية ومقتضيات القوى البشرية، حتى يتيسر لك التحقق بمقام الخلة، والتخلق بأخلاق الله، مع توفيق من قبل الحق وجذب من جانبه؛ إذ كل ميسر لما خلق له. ومتى صفيت سرك وسريرتك عن جميع ما يشغلك عن الله ويضلك عن سبيله، تحققت بمقام التوحيد، وفنيت عن مقتضيات أمارات التخمين والتقليد، وصرت على يقين من ربك وكشف وشهود لا تظمأ منه أصلاً ولا تروى أبدًا، وحينئذٍ حق لك أن تقول حقًا: ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:162-163].

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:10].

(1) رواه البيهقي في «الكبرى» (192/10)، والقضاعي في «الشهاب» (270/4).

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الأعراف

لا يخفى على المستبصر الخبير والمسترشد البصير أن إنزال الكتب وإرسال الرسل إنما هو لتبيين طريق التوحيد، وإهداء أصحاب الضلال والتقليد من المتوغلين في تيه الغفلة والنسيان نحو فضاء الوحدة الذاتية، ولا يتيسر لهم ذلك إلا بترك مألوفاتهم، وقطع تعلقاتهم التي كانوا عليها بمقتضى بشريتهم وبإرشادهم، وإهدائهم على التدريج بوضع التكاليف الشاقة المشتملة على الإنذارات الشديدة والتخويفات الغليظة المزكية لموانع الموصل إليه، حتى تستعد نفوسهم وتتهيأ سرهم وسريرتهم إلى أن تنكشف لهم سر سريان الوحدة الذاتية المشعشعة المتجلية دائمًا حسب أوصافه وأسمائه الذاتية على ذرائر المظاهر كلها.

لذلك أنزل سبحانه على حبيبه الذي أظهره جامعًا لجميع مراتب أوصافه وأسمائه الكتاب الجامع لجميع مراتب الوجود غيبها وشهادتها، أولاها وأخراها، رطبها ويابسها، وأورد فيه أنواع الوعيد والإنذار والتخويف البليغ؛ لينزجر به أهل الغفلة والهوى، وأنواع الوعد والتبشير؛ ليرغب نحوه أهل المحبة والولاء؛ ليتمتعوا على ما جبلوا عليه من الفطرية الأصلية التي فطر عليها بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وبالجملة: ليتأدبوا بآدابه حتى يتخلقوا بأخلاقه سبحانه.

فقال مناديًا لحبيبه ﷺ متيمنًا متبركًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المنزه في ذاته عن النقص والاستكمال ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعباده بالتكميل؛ لأن يصلوا إلى درجات القرب والكمال ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بإنزال القرآن الهادي إلى سرادقات العز والجلال.

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ

جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف:1-6].

﴿المص﴾[1] [الأعراف:1] أيها الإنسان الكامل اللائق لتكميل الخلائق المكرم

---

(1) قال في عرائس البيان: ﴿المص﴾ كان الله سبحانه إذا أرد أن يتكلم مع نبيه محمد ﷺ بقصص الأنبياء، وما جرى عليهم في الدهور والإعصار، وشأنه معهم في الأسرار والحقائق والشرائع، وأراد أن يخصه ﷺ بشريعته، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته، وتحيّره ممّا كان وما يكون إشارة إلى هذه الأشياء له بحروف التهجي، وأعلم سر ذلك محض الإشارة ولطيف الخطاب، وعلم تعالى أنه ﷺ يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق ونبأ طارق، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة فعبّر عنها بسورة طويلة من القرآن؛ ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه وخواص أمته، ربما يطلع على سر بعضها كالصحابة والتابعين والمتقدمين من الأولياء والعلماء. كانت حروف المقطعات رموز معاني سور القرآن لا يعرف تلك الرموز إلا الربانيون والأحبار من الصديقين، فهذا الألف إشارة إلى آدم ﷺ، ألا ترى أن أول اسم آدم ﷺ ألف إشارة، الألف إلى حاله وقصته وبدو أمره وخلقته، وعرضه على الملائكة ودخوله الجنة وخروجه منها، وكان هو أصل الفطرة، ومَنْ تشعب منه فهو تابع له في الذكر، وإشارة الألف إلى علم الأسماء بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾ التي فيها أنباء جميع الذات والصفات والنعوت والأفعال، وعلم ما كان وما سيكون عرَّف نبيه محمد ﷺ ما عرف آدم ﷺ بجميع الأسماء بحروف الألف؛ لأنه كان ﷺ ألطف الأولين والآخرين وأكرمهم على الله، وعلى قدر قربه إشارة ألطف وأخفى وأخبر باللام، هاهنا تعالى حبيبه قصة تجلاه لموسى ﷺ والجبل، وعرف بها تلك الأحوال الماضية. ألا ترى إلى حرف اللام في التجلّي، وعرَّف بحروف الميم شأن موسى ﷺ وقصته من أوله إلى آخره، ألا ترى إلى حرف الميم مراسم موسى ﷺ، وعرف بحرف صاد هاهنا قصص نوح وهود ﷺ وصالح ﷺ وشعيب ﷺ ولوط ﷺ وجميع ما جرى عليهم من بدئهم إلى آخر أعمارهم، وأخبر بحرف صاد صبرهم، وتحملهم في بلائه وصدق محبتهم بالوفاء والصدق بالأعمال والأقوال، وتصديق ذلك وهو أن تحت الحروف جميع الكتب مندرجة ما روي في الحديث عن قول النبي ﷺ: «**إن الله سبحانه أعطى آدم ﷺ حروف التهجي، وكان كل حروف كتابًا من الله تعالى إليه**». وأيضًا أخبر سبحانه بحرف الألف نبيه ﷺ عن عين القدم ووحدانية نفسه المنزَّه عن الاجتماع والافتراق، وإصدار جميع المخلوقات منه؛ لأنه تعالى مصدر جميع الوجود، كما أن الألف مصدر جميع الحروف، وأخبر بالألف سر الأسرار وصرف الأنوار، وما كان في جميع الحروف من علم الأولين والآخرين، وهذا أدق إشاراته إلى نبيه ﷺ ثم زاد وضوحه بحرف اللام لترقيه خاطره وزيادة إدراكه، ثم صرح الخطاب بحرف الميم وبيّن له بحرف الصاد ما كان في الأحرف الخاص؛ لأن بحرف الصاد صفا جميع علومها له ثم عمّ العبارة للخلق بالسورة لقلة إدراكهم لعزّ الأسرار ولطائف ضمائر الإضمار، وأيضًا أخبره بلام

المؤيد لإهدائهم إلى توحيد الذات والصفات والأفعال، الصادق الصفي في نفسه عن كدورات أهل الزيغ والضلال، هذه الآثار والآيات اللطيفة اللائحة اللائقة لأن يسترشد منها ويستكشف عنها أرباب الذوق والكمال، المنزهة عن شوائب الشكوك وظلمات الأوهام الصافية عن تخليطات العقول وتخمينات الأحلام الصالحة لأن يستبصر بها ويستشهد منها إلى توحيد العليم العلام المقدس السلام.

﴿كِتَابٌ﴾ جامع لجميع فوائد الكتب المنزلة وأحكامها وإشاراتها، ناطق بجميع الأحوال الواقعة في النشأة الأولى والأخرى ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا هادي المضلين تقوية لك وترويجًا لما أمرت به ﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ضيق وتعب حاصل ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من نشره وتبليغه مخافة الأعداء بل إنما أنزل إليك ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أي: بإنذاراته وتخويفاته

ألف سر أوليته، وما في بحار أزليته. ألا ترى كيف شقّ الألف من اللام لإخفاء الإشارة حتى لم يبق حديث العدم في القدم، وكيف يكون لها من لام وألف ومعناها العدم، فشقُّ أحدهما عن الآخر حتى لا يكون حديث النفي؛ لأن النفي علّة يقع على الحدثين، وليس ذكر الحدثان في القدم أخبر بالألف عن أحدية الأولية، وباللام عن الأزلية السرمدية، وبالميم عن محبته القدمية، وبالصاد عن صفاتِهِ القائمة بذاته الأبدي، أخبر بالألف عن الذات؛ لأنها عين الواحد، ثم أخبر باللام والميم والصاد عن شمول صفاته القديمة، الألف من الذات، واللام من صفة الأزل، والميم من صفة المحبة، والصاد خير جميع الصفات. قال محمد بن عيسى الهاشمي: سمعت من ابن عطاء أنه قال: لمّا خلق الله الأحرف جعل لها سرًّا، فلمّا خلق آدم ﷺ بث فيه ذلك السر ولم يبثه في الملائكة، فجرت الأحرف على لسان آدم ﷺ بفنون الجريان وفنون اللغات جعله الله صوره لها. وقال الحسين: الألف ألف المألوف، واللام لام الآلاء، والميم ميم الملك، والصياد صاد الصدق. وقال: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الحروف في لام ألف، وعلم لام تلك في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في الأزل، وعلم الأزل في المشيئة، وعلم المشيئة في غيب الهُو، وغيبه الهو ليس كمثله شيء. وقال أبو محمد الجريري: أن لكل لفظ وحرف من الحروف مشرب فهم غير الآخر. ومن شرّاح ذلك حين سمعه يقول: ﴿المص﴾ للألف عندهم فهم، وللفهم في محضرهم استماع إلى حسن مخرج وطعم عذب موجود نظر إلى المتكلم، وكذلك اللام حسن استماع ومخرج غير الألف وطعم فهم موجود، وكذلك للميم حسن استماع من مخرج غير اللام وطعم فهم موجود، والصاد حسن استماع إلى حسن مخرج وطعم فهم موجود غير الميم فممزوج ذلك كله بالملاحظة للمتكلم. وقال الحسين: الألف ألف الأزل، واللام لام الأبد، والميم ما بينهما، والصاد اتصال مَنْ اتصل به وانفصال مَنْ انفصل عنه، وفي الحقيقة الاتصال والانفصال، وهذه ألفاظ تجري على حسب العبارات ومعادن الحق مصونة عن الألفاظ والعبارات.

من ضل عن طريق الحق، وأعرض عنه جهلاً وعنادًا ﴿وَ﴾ تذكر بمواعيده وتبشيراته من وفق بتذكر الموطن الأصلي والمنزل الحقيقي؛ إذ هو ﴿ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:2] الموقنين بوحدة الحق المتوجهين نحوه بالعزيمة الصحيحة.

﴿اتَّبِعُوا﴾ أيها المؤمنون المتوجهون نحو التوحيد ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على لسان نبيكم ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا﴾ بعد بعثه ودعوته ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ توالونهم وترجعون إليهم في أموركم من الجن والإنس؛ إذ هو خاتم النبوة فعليكم أن تتبعوه، وإن كان منكم ﴿قَلِيلاً مَّا﴾ شرذمة قليلة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:3] وتتعظون بتذكيره وعظته لميلكم إلى أهوية نفوسكم من الجاه والمال والرئاسة المستلزمة للتفوق على القران والأقران.

﴿وَ﴾ عليكم ألا تغتروا بها بل تذكروا ﴿كَم﴾ كثير ﴿مِّن﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ﴾ ذوي بطر ورفاهية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بإنزال قهرنا إليها حتى استحقوا الهلاك بسبب كفرهم وظلمهم ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ قهرنا ﴿بَيَاتًا﴾ حال كونهم راقدين رقود البطر والغفلة ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف:4] مستريحون وقت الضحوة الكبرى تنعمًا وحضورًا.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي: دعاؤهم وتضرعهم ﴿إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: حين ظهر عليهم قهريًا ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ متضرعين مقرين معترفين: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف:5] وبعدما اعترفوا بظلمهم ملجئين لا نبالي باعترافهم وإقرارهم.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾[1] لنستكشفن ونظهرن في النشأة الأخرى أحوالهم التي كانوا عليها في النشأة الأولى أولاً من ﴿الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الرسل ما فعلوا بهم حين دعوهم إلى إطاعتنا وانقيادنا ﴿وَ﴾ بعدما ظهر منهم ما ظهر ﴿لَنَسْأَلَنَّ﴾ ثانيًا عن أحوالهم من ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:6] المبلغين لهم أوامرنا ونواهينا عن قبولهم وتكذيبهم وتصديقهم، وبعدما ظهر أيضًا منهم ما ظهر.

---

(1) سؤال تعذيب وتعنيف تسألون عن القبول، هل قبلتم الرسالة وعملتم بما أمرتم أم لا؟ وفيه معنى آخر؛ أي: فلنسألن الذين كانوا مخصوصين بالرسالة إليهم من المؤمنين قابلي الدعوة هل بقوله: هل بلغ إليكم رسلنا رسالتنا ومواعيدنا، ومن بينوا لكم حقائق ما أنزل إليكم، ووصفوا لكم ما أعدونا من المقامات والدرجات والكرامات لكم، ومن دعوكم إلى كمالات الدين وكشف الغطاء عن اليقين وهذا سؤال تقريب وتشريف. [التأويلات].

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠ ﴾ [الأعراف:7-10].

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ جميع أحوالهم وأعمالهم التي صدرت عنهم على التفصيل ﴿بِعِلْمٍ﴾ لا يعزب عنه شيء من صنائعهم ﴿وَ﴾ كيف يخرج عن حيطة علمنا بشيء من أعمالهم؛ إذ ﴿مَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:7] عنهم بل حاضرين معهم شاهدين بجميع أحوالهم.

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ الموضوع لانتقاد أعمال العباد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: وقت كشف السرائر وانكشاف الحجب ﴿ٱلْحَقُّ﴾[1] أي: الثابت المحقق؛ لئلا يبقى للعصاة مجادلة مع الله

(1) للحق سبحانه وتعالى موازين يزن بها الأحوال والأعمال، يزن بميزان الإخلاص المعاملات، ويزن بميزان الصدق الحالات، فكل عَمَلٍ عُمِلَ برؤية الأعواض ورؤية العمل والالتفاف فيه إلى غير الله، فهو ساقط عن محل القبول، وكل حالة صاحبها موجب بها فهي ساقطة عن درجة الوصول، فالنيات موازين المعاملات والصدق ميزان الحالات، فمَنْ هاهنا يزن نفسه بميزان الرياضات والمجاهدات، ويزن قلبه بميزان المراقبات، ويزن عقله بميزان الاعتبارات، ويزن روحه بميزان المقامات، ويزن سرّه بميزان المحاضرات ومطالعه الغيبيات، ويزن صوره بميزان المعاملات، الذي كفتاه الحقيقة والطريقة ولسانه الشريعة وعموده العدل والإنصاف يوزن نفسه يوم القيامة بميزان الشرف، ويوزن قلبه بميزان اللطف، ويوزن عقله بميزان النور، ويوزن روحه بميزان السرور، ويوزن سره بميزان الوصول، ويوزن صورته بميزان القبول، فإذا ثَقُلَت موازينه بما ذكرنا فجزاء نفسه الأمن من الفراق، وجزاء قلبه مشاهدة مشوق في الأشواق، وجزاء عقله مطالعات الصفات، وجزاء روحه كشف أنور الذات، وجزاء سره إدراك أسرار القدميات، وجزاء صورته الجلوس في مجالس وصال الأبديات. وأيضًا هاهنا لأهل الحق موازين، ميزان الإرادة، وميزان المحبة، وميزان الشوق، وميزان العشق، وميزان المعرفة، وميزان اليقين، وميزان التوحيد، فهذه سبعة موازين فينبغي أن يزن المريد نفسه في كل نفس بميزان الإرادة، ويزن المُحب قلبه في كل نفس بميزان المحبة، ويزن المشتاقين عقله في كل نفس بميزان الشوق، ويزن العاشق روحه في كل نفس بميزان العشق، ويزان العارف سره في كل نفس بميزان المعرفة، ويزن الموقن أنفاسه في كل نفس بميزان اليقين، ويزن الموجد جميع وجوده بميزان التوحيد، فيستوفي المريد بميزان إرادته عن نفسه انقيادها للحق عند جريان القضاء والقدر عليها، ويستوفي المُحب بميزان محبته عن قلبه شهوده في الحضرة بلا خطرات المذمومة، والالتفاتات المشوبة

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بكثرة الطاعات ووفور الخيرات والمبرات ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء المبرورون ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:8] الفائزون بالمثوبة العظمى والمرتبة العليا.

بنعت النيات الصافية، ويستوفي المشتاق بميزان شوقه من عقله جولانه في الشواهدات لطلب عرفان المشاهدات بلا فترة ولا رعونة، ويستوفي العاشق بميزان عشقه من روحه طيرانها في الملكوت لطلب الجبروت، ويستوفي العارف بميزان معرفته من سره إصغاءه بنعت الشهود؛ لكشوف أنوار الغيب، وغوصه في بحر الهموم لطلب جوهر الإلهام، ويستوفي الموقن بميزان اليقين من أنفاسه صعودها عند تنفسها إلى معارف القرب بلا هواجس اليقين وغبار الوسواس، ويستوفي الموحد بميزان توحيده من جميع وجوده اضمحلاله في أنوار كبريائه القديم، وفنائه في سبحات الأبد، فمَنْ ثقلت هذه الموازين أفلح عن حجبة الامتحانات، وتُثَقَّل موازين الحضرة غدًا بفيض أنوار صفات الحق، ولطائف ذاته وكرامات قربته له، فيفلح هناك بالله عن غير الله ويصير أهلاً لله؛ لأنه خرج عن موازين صفاته وأنوار ذاته بنعت المعرفة والتوحيد والمحبة، فطُوبَى لهذا المحاسب طُوبَى له وحسن مآب. قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير هذه الآية: ومَنْ وزن نفسه بميزان العدل كان من المحبين، ومَنْ وزن خطراته وأنفاسه بميزان الحق اكتفى بمشاهدته، والموازين مختلفة، ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسرّ، فميزان النفس والروح الأمر والنهي وكفتاه الكتاب والسُّنة، وميزان القلب والعقل والثواب والعقاب وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان المعرفة والسرّ الرضا والسخط وكفتاه الهرب والطلب. وقال الأستاذ: يوزن أعمالهم بميزان الإخلاص وأحوالهم بميزان الصدق، فمَنْ كانت أعماله بالرياء مصحوبة لم يقبل أعماله، ومَنْ كانت أحواله بالإعجاب مشوبة لم يرفع أحواله، وافهم يا صاحبي أن حكمة وزن الأعمال يوم القيامة للعباد أن الله يبيّن لهم ما كان مكتوبًا في اللوح المحفوظ قبل الخلق مما يجري عليهم من القضاء والقدر، والرضا والسخط، والشقاوة والسعادة، مقابلة بما جرى عليهم في الدنيا الذي في أوراق الحساب التي في أيدي الملائكة ليزيدهم برهانًا وعيانًا وعلْمًا بعلمه المحيط على كل شيء، وليكون حجة عليهم، خرّج أعمالهم على وفق ما كان مكتوبًا عليهم، وافهم يا صاحبي أن الأعمال أعراض كيف تكون موزونة ليس هذا في علم الخلق أن ميزانه الحقيقي رده وقبوله، وهو قادر أن يخرج الأعراض بصور الجواهر فيزن بميزانه الذي يظهره لهم يوم القيامة، وذلك على لسان الشرع يوجب الإيمان به. قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان، فأما المؤمن يؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان وهو الحق فيثقل حسناته على سيئاته، فيوضع عمله في الجنة، فيعرفها بعمله. فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 8]، وهم أعرف بمنازلهم في الجنة إذا انصرفوا إليها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم، وأما الكفار فيؤتى بأعمالهم في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان وهي الباطل؛ فيخف وزنه حتى تقع في النار، ثم يقال للكافر: الحق بعملك.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بقلة الطاعة وكثرة المعاصي ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ وما ربحوا لها في دار الابتلاء ﴿بِمَا كَانُوا﴾ أي: بسبب ما كانوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:9] يكذبونها ظلمًا وعدوانًا.

﴿وَ﴾ من غاية جودنا ولطفنا إياكم يا بني آدم إنا ﴿لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي﴾ مستقر ﴿الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾من الملائمات كي يعيشوا بها مترفهين متنعمين شاكرين لنعمنا، صارفين إلى ما خلقناها لأجله، ومع ذلك الفضل العظيم واللطف الجسيم ﴿قَلِيلاً مَّا﴾ أي: في غاية القلة منكم ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:10] نعمنا بل تكفرونها وتصرفونها أكثركم إلى مقتضى أهويتكم الفاسدة.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف:11-18].

﴿وَ﴾ من عموم جودنا أيضًا أنا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: قدرنا تعيناتكم وأظهرنا هوياتكم من كتم العدم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: زيناكم بصورنا وخلقناكم بأخلاقنا ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ﴾ المهيمين المستغرقين بمطالعة جمالنا: ﴿اسْجُدُوا﴾ تذللوا، تواضعوا ﴿لآدَمَ﴾ المصور على صورتنا تعظيمًا لنا وتكريمًا له؛ إذ هو مرآة مجلوة تحاكي جميع أوصافنا وأسمائنا، وترشدكم إلى وحدة ذاتنا، وبعدما شهدوا آثار جميع أوصافنا وأسمائنا منه ﴿فَسَجَدُوا﴾ جميعًا متذللين ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي هو رأس جواسيس النفوس الخبيثة ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف:11] مع كونه من زمرتهم حين أمروا، ثم لما امتنع إبليس عن السجود.

﴿قَالَ﴾ سبحانه إظهارًا لما تحقق في علمه وكمن في غيبه من خبث طينة إبليس:

﴿مَا مَنَعَكَ﴾ يا إبليس ﴿أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ لخليفتي ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ مع رفقائك؟ ﴿قَالَ﴾ إبليس في الجواب بمقتضى هويته الباطلة وأهويته الفاسدة: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وأفضل ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ منير ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[1] [الأعراف:12] مظلم كدر، ولا يحسن تذلل الفاضل للمفضول.

لما امتنع عن مقتضى الأمر الوجوبي، ولم يتفطن بسره الذي هو التوحيد الذاتي؛ إذ الأمر سجود المظهر الجامع والظل الكامل، أمر بالتوجه نحو الذات الأحدية والمعبود الحقيقي المتجلي عليه، طرده سبحانه عن ساحة عز حضوره حيث ﴿قَالَ﴾ مبعدًا: ﴿فَاهْبِطْ﴾ أيها المطرود المعلون ﴿مِنْهَا﴾ أي: من ساحة عز التوحيد المقتضية للتذلل والتخشع، ورفض الالتفات إلى الغير والسوى مطلقًا ﴿فَمَا يَكُونُ﴾ يجوز ويصح ﴿لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ بادعاء التفضل والتفوق المقتضي للإضافات الناشئة من أنانيتك الباطلة ﴿فَاخْرُجْ﴾ منها مطرودًا مخذولاً ﴿إِنَّكَ﴾ حيث كنت وأين كنت ﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف:13] الذليلين المحرومين، بل أنت سبب صغار سائر الأذلاء.

ثم لما آيس إبليس عن القبول وحرم عن ساحة عز الحضور بسبب إبائه عن

---

(1) قال في التأويلات: يعني: النار علوية نورانية لطيفة، والطين سفلي ظلماني كثيف فهي خير منه، فأخطأ اللعين في الجواب وفي الاستدلال والقياس من وجوه،وقد قدرنا خطأه في الجواب، فأمّا في القياس: فأحد الوجوه: إنّا لو سلمنا أن النار أفضل ما شرف وأعلى من الطين من حيث الظاهر والصورة، ولكن من حيث الحقيقة والمعنى الطين أفضل وأشرف منها؛ لأن من صفات الطين وخواصه: الإثبات ومنه النشوء والنمو، ولهذا السر كان تعلق روح الإنسان به؛ ليصير قابلاً للترقي، فإن جوهره كان من قبيل جواهر الملائكة في الروحانية والنورانية وقابل للترقي، والنار من خاصيتها الإحراق والإفناء.

وثانيها: إن في الطين لزُوجَة وإمساكًا، فإذا استفاد الروح منه بالترابية هذه الخاصية يصير ممسكًا للفيض الإلهي، إذ لم يكن ممسكًا له في عالم الأرواح، ولهذا السر؛ استحق آدم ﷺ سجود الملائكة، وسيأتي شرحه - إن شاء الله تعالى - وفي النار خاصية الإتلاف وهو ضد الإمساك.

والثالث: إن الطين مركّب من الماء والتراب، والماء معطية الحياة كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:30]، والتراب معطية النفس النامية، فعند ازدواجهما تتولد النفس الحيوانية؛ وهو الروح الحيواني وهو معطية الروح الإنساني للمناسبة الزوجية بينهما، وفي النار ضد هذا من الإهلاك والإفساد، ثم تقول: شرف سجود آدم وفضله على الساجدين لم يكن لمجرد خواص الطبيعة، وإن شرف طبيعته لشرف التخمير من غير واسطة لقول: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:75]، ولقوله ﷺ: «خمر طينة آدم بيده أربعين صباحًا».

سجوده آدم، ﴿قَالَ﴾ منتقمًا من آدم متضرعًا إلى ربه: ﴿أَنظِرْنِي﴾ أي: أمهلني يا ربي فيما بينهم لأضلهم وأغويهم ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف:14].

﴿قَالَ﴾ سبحانه إظهارًا للسر الذي أسلفناه في سورة البقرة: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف:15] فيما بينهم ليتميز المحق منهم من المبطل والمهدي من الغوي.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: فبسبب ما بعدتني وأطردتني لأجلهم ﴿لأَقْعُدَنَّ﴾ وألزمن البتة ﴿لَهُمْ﴾ لإغوائهم وإضلالهم ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:16] أي: على دينك وطريقك الموصل لهم إلى توحيدك، أغويهم وأوسوسهم بأنواع الوسوسة بعضهم بالفسق والظلم، وبعضهم بالرياء والسمعة، وبعضهم بالمخائل الفاسدة من اللذات الوهمية والخيالية، وبالجملة: أوسوسهم وأخرجهم بأنواع الحيل عن جادة توحيدك.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أرد وسوستي في نفوسهم ﴿لآتِيَنَّهُم مِّنْ﴾ جميع جهاتهم ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: يضلهم بالمعاصي الحاصلة من قدامهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: بالمعاصي الحاصلة منه ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَ﴾ بالجملة: استسخرهم وأحيط عليهم بإغوائي ووسوستي إلى حيث ﴿لاَ تَجِدُ﴾ يا معز كل ذليل، ومدل كل دليل ﴿أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:17] بعد رجوعهم إليك شاكرين، صارفين ما آتيتهم من النعم إلى ما أمرتهم به.

ثم لما طرده الحق وأبعده وأنظره ابتلاء لعباده ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿اخْرُجْ﴾ أيها المردود المطرود ﴿مِنْهَا﴾ أي: من عرصة أهل التوحيد ﴿مَذْءُومًا﴾ حاملاً للمذمة ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مستوجبًا للعنة وافعل بهم ما شئت، والله ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ بعدما أظهرتهم على صورتي، وكرمتهم بكرامتي على جميع خليقتي، ونفخت فيهم من روحي وتجليت عليهم بجميع أسمائي وأوصافي، وأرسلت إليهم أنبيائي ورسلي، وأنزلت عليهم كتبي لتبيين طريق توحيدي؛ لأطردنهم البتة عن عز حضوري، وأخرجنهم عن جنة سروري، واعلموا يا بني آدم ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:18] إن اتبعتم عدوي وعدوكم، فعليكم أن تجتنبوا عن غوائله.

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:19-22].

﴿وَ﴾ بعدما طرد سبحانه إبليس حين امتنع عن السجود قال لآدم اختبارًا وابتلاء وتوصية لحفظ مرتبته: ﴿يَا آدَمُ﴾ المكرم المسجود ﴿اسْكُنْ أَنتَ﴾ بمتابعة عقلك الموهوب لك من العقل الكلي ﴿وَزَوْجُكَ﴾ بمتابعة نفسها الفائضة عليها من النفس الكلية ﴿الجَنَّةَ﴾ التي هي مقر أهل التوحيد، ومنزل أهل الولاء والتجريد من أرباب الوصول الفائزين بشرف القبول ﴿فَكُلا﴾ منها، واحظظا من لذاتها الروحانية من حقائقها ومعارفها وشهوداتها وكشوفاتها رغدًا ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ التي هي من أغذية نفوسكم وأهوية هوياتكم ﴿فَتَكُونَا﴾ بتقربها وتناولها ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:19] الخارجين عن مقتضى أمرنا وحكمنا المستحقين لطردنا ومقتنا.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾[1] أي: أوقعهما في الدغدغة بأمر الشجرة، وإن كان وسوسة أيضًا عن مقتضيات الحكمة المتقنة الإلهية، بعدما وصاهما الحق سبحانه ونهاهما عنه، وليس غرضه إلا نزع لباس الصيانة والتقوى عنهما ﴿لِيُبْدِيَ﴾ أي: يظهر ﴿لَهُمَا مَا وُورِيَ﴾ أي: غطي وستر ﴿عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ التي هي من مقتضيات بشريتهما وهويتهما الباطلة ﴿وَ﴾ بعدما أشربهما الوسوسة ﴿قَالَ﴾ على وجه الشفقة والنصيحة وإرادة الخير: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ المباركة المزكية عنكم

(1) قال العارف التستري (154/1): الوسوسة ذكر الطبع، ثم النفس، ثم الهم والتدبير، ووسواس العدو على ثلاث مقامات: فالأول يدعوه ويوسوس له، والثاني يأمن إذا علم أنه يقبل، والثالث ليس له إلا الانتظار والطمع، وهو للصديقين.

لوث بشريتكم ﴿إِلَّا﴾ كراهة ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ بتناولهما ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾ [الأعراف:20] فيها.

﴿وَ﴾ بعدما نصحهما وأشفقهما وسمعا منه ما سمعا ﴿قَاسَمَهُمَا﴾ أي: بادر إلى القسم تأكيدًا وترويجًا لِقوله إياهما قائلاً: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:21] المشفقين المريدين خيركما.

﴿فَدَلَّاهُمَا﴾ أي: أسقطهما عن معالي العز إلى مهاوي الذل ﴿بِغُرُورٍ﴾[1] غرهما به على وجه الانتقام ﴿فَلَمَّا﴾ سمعا قوله وقبلا غروره ﴿ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ مطمعين على ما أغراهما إليه من الشرف والخلود، وبعدما ذاقا منها ﴿بَدَتْ﴾ ظهرت ﴿لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ عوراتهما؛ إذ نزع عنهما لباس التقوى وثياب العصمة ﴿وَ﴾ بعدما نزع لباسهما ظهر سوءاتهما ﴿طَفِقَا﴾ أخذا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يلصقان ويلزقان ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ﴾ أشجار ﴿الجَنَّةِ﴾ قيل: هي التينة، وقيل: الكرمة ﴿وَ﴾ بعدما ما بدا منهما ما بدا ﴿نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ موبخًا مقرعًا: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ أيها المعتديان المسرفان ﴿عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:22] ظاهر العداوة، فلم تسمعا قوله، وتتبعا أمره؟ فلما سمعا من ربهما ما سمعا.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف:23-27].

(1) أي: بسبب تغريره إياهما باليمين بالله كاذبا وكان العين أول من حلف بالله كاذبًا، وظن آدم أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا فاغتربه، فإن شأن المؤمن أن يعتقد بصدق من حلف بالله لتمكن عظمة اسم الله تعالى في قلبه، تفسير حقي (4/121).

﴿قَالَا﴾ متضرعين متذللين معترفين على زلتهما: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على الكرامة لمقتضى فضلك وجودك ﴿ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ بمتابعة عدونا ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ولم تتجاوز عنا ﴿وَ﴾ لم ﴿تَرْحَمْنَا﴾ بفضلك ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23] خسرانًا عظيمًا.

ثم لما صدر منهما ما صدر بوسوسة عدوهما، أمر سبحانه بإخراجهما عن دار السرور إلى دار الابتلاء والغرور؛ حيث ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ انزلوا وانحطوا أيها المتجاوزون عن حدودنا أصلاً وفرعًا، تابعًا ومتبوعًا عن مقر العز ومرتبة الإطلاق والتجريد الخالي عن جميع الإضافات، والتقييد إلى محل الكون والفساد، ومنزل البغي والعناد؛ إذ ﴿بَعْضُكُمْ﴾ في دار الدنيا التي هي نشأة الاختبار والابتلاء ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أبدًا لا يرتفع الخصومة عنكم أصلاً ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها المتخاصمون ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: مرتع الطبيعة ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع قرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمتع من لذاتها وشهواتها ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف:24] أي: على انقضاء آجالكم وانقطاع مآلكم.

ثم لما تحيروا واضطربوا في أمرهما وفساد حالهما ﴿قَالَ﴾ سبحانه منبهًا عليهما: ﴿فِيهَا﴾ أي: في أرض الطبيعة ﴿تَحْيَوْنَ﴾ بالحياة الطبيعية ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿فِيهَا تَمُوتُونَ﴾ بالموت الطبيعي ﴿وَمِنْهَا﴾ أيضًا ﴿تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:25] لجزاء ما كسبتم من الخير والشر، والتقرب والخير، والتبعد في حياتكم الطبيعية التي هي دار الابتلاء ومزرعة الأجر والجزاء، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ثم قال سبحانه مناديًا لكم في مقام الامتنان وتعديد النعم والإحسان؛ لتواظبوا شكر نعمه، وتداوموا على انقياده وإطاعته بعدما صدر عنكم الكفر والخروج عن مقتضى أمره ونهيه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ المجبولين على فطرة الخلافة والنيابة ﴿قَدْ أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ عقلاً مدبرًا ﴿يُوَارِي﴾ ويستر بتدبيره ﴿سَوْءَاتِكُمْ﴾ مقتضيات بشريتكم وبهيميتكم ﴿وَ﴾ أيضًا وهبنا لكم من غاية لطفنا ﴿رِيشًا﴾ معارف وحقائق نزينكم ونميزكم بها عن جميع المخلوقات، ونستخلفكم بسببها من بين سائر البريات ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾[1] عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته خير لكم وحقيق

---

(1) قال الشيخ نجم الدين: والتقوى: هو لباس القلب والروح والسر الخفي، فلباس القلب من التقوى: هو الصدق في طلب المولى فيواري به سوءة الطمع في الدنيا وما فيها، ولباس الروح من التقوى: هو محبة المولى فيواري به سوءة التعلق بغير المولى، ولباس السر من التقوى: هو

لفطرتكم، فعليكم أن تلبسوها وتتحفظوا بها عما لا يليق بمرتبتكم وفطرتكم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التقوى ﴿خَيْرٌ﴾ لكم إن أردتم أن تصلوا إلى مرتبة التوحيد التي جبلتم لأجلها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على استقلاله في ألوهيته وربوبيته، إنما أنزلها عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:26] رجاء أن يتذكروا نعمه فيعرفوا المنعم وينكشفوا بتوحيده.

ثم ناداهم وأوصاهم ثانيًا بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ مقتضى خلافتكم ونيابتكم أن ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يوقعنكم في الغي والضلال بغتة ووسوسة ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ بالفتنة والغرور ﴿مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ هي دار السرور، وأهبطهما بوسوسته إلى الأرض التي هي محل الفساد ومنشأ الشرور حين ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ أي: تسبب للنزع حين تغريرهما وإغرائهما إلى تناول المنهي ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ انتقامًا منهما.

فعليكم أيها الأبناء أن تجتنبوا عن غوائله وتعوذوا إلى الله عن جميع مخايله، وتتخذوه وقاية ووكيلاً حتى تتخلصوا عن وسوسة شياطين الأهواء المضلة، وعليكم ألا تغفلوا عنه؛ إذ ﴿إِنَّهُ﴾ دائمًا ﴿يَرَاكُمْ﴾ ويراقبكم ﴿هُوَ﴾ أي: الشيطان نفسه ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ جنوده الأمارة بالسوء رؤية صادرة عن محض العداوة ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ إذ هم مرتكزون في نفوسكم التي بين جنبيكم، يضلكم ويغويكم على صورة الهداية والإرشاد، فعليكم أن تخالفوا أهواء نفوسكم وتجانبوا مناها ومشتهياتها، ومع ذلك تضرعوا نحونا وتعوذوا بنا ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ مقتضى حكمتنا المتقنة ﴿الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ مسلطين ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:27] بتوحيدنا واستقلال استيلائنا.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم

رؤية المولى فيواري بها رؤية غير المولى، ولباس الخفي من التقوى: إبقاؤه بهوية المولى فيواري بها هويته وهوية غير المولى؛ ولهذا قال: ذلك خير؛ لأن لباس البدن بالفتوى وهو شريعة إلباس القلب بالتقوى وهو حقيقة.

مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف:28-31].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا﴾ أي: هؤلاء الكافرون بوسوسة الشياطين ﴿فَاحِشَةً﴾ فعلة ذميمة قبيحة متناهية في القبح ﴿قَالُوا﴾ في الجواب: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ وهم يقولون: ﴿وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فيما أنزل علينا على لسان نبينا ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الهادي لعباده ﴿لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ﴾ أيها المفترون ﴿عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:28] لياقته بجنابه.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي﴾ بمقتضى فضله وعدله على من أمر منه خلص عباده ﴿بِالْقِسْطِ﴾[1] أي: العدل السوي في جميع مأموراته بلا ميل إلى جانبي الإفراط والتفريط ﴿وَ﴾ عليكم أيها المؤمنون أن ﴿أَقِيمُوا﴾ واستقيموا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ التي بها ميلكم وتوجهكم نحو الحق بلا ميل إلى ما سواه ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ومقام تتذللون فيه وتتوجهون نحوه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿ادْعُوهُ﴾ وتوجهوا نحوه حال كونكم مستقيمين فيه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الطاعة والانقياد بلا شوب الغير والسوى مطلقًا، واعلموا أيها الأظلال ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ الله أي: أنشأكم وأظهركم من كتم العدم بمد ظله ورش نوره عليكم ﴿تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:29] إليه بقبض الظل وطيه في نشأتكم الأولى.

﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَى﴾ بتوفيق الله إلى مبدئه ومعاده ﴿وَفَرِيقًا﴾ ضل وغوى لذلك ﴿حَقَّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ﴾ في مكمن القضاء، وكيف لا يحيقهم ويحيط بهم الضلالة ﴿إِنَّهُمُ﴾ من غاية غفلتهم ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ آلهة ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ المتوحد بذاته ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ بسبب هذا الاتخاذ ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:30] إلى طريق النجاة بل ضالون تائهون.

---

(1) القِسط العدل، ويقع ذلك في حق الله تعالى، وفي حق الخلق، وفي حق نفسك؛ فالعدلُ في حقِّ الله الوقوفُ على حدِّ الأمر من غير تقصير في المأمور بهِ أو إقدامٍ على المنهيّ عنه، ثم ألا تدّخِر عنه شيئاً مما خوّلك، ثم لا تُؤثِرَ عليه شيئاً فيما أحلّ لك، وأمّا العدل مع الخَلْق - فعلى لسان العلم - بذلُ الإنصاف، وعلى موجِب الفتوة ترك الانتصاف. وأمّا العدل في حق نَفْسِك فإدخال العتق عليها، وسدُّ أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال في كل نَفَس. تفسير القشيري (362/2).

﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ المجبولين على زي التقوى ولباس السلامة ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ التي زينكم الله بها من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ومقام تميلون فيه نحو الحق وجوهكم التي يلي الحق ﴿وَ﴾ لا تهملوا أمر مراكبكم التي هي نفوسكم وهوياتكم؛ لئلا تبطلوا صنع الله ولا تخربوا بيته، بل ﴿كُلُوا﴾ مقدار سد الجوعة ﴿وَاشْرَبُوا﴾ قدر دفع العطشة ﴿وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ فيهما إلى حيث يؤدي إلى تقوية القوى البهيمية ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:31] ولا يرضى عن فعلهم لإخلالهم بإسراف الأكل والشرب على الميل الذي جبلوا لأجله؛ إذ الشبع يميت القلب وينقص الغريزة الإنسانية، ويزيد القوى البهيمية.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) ﴾ [الأعراف:32-35].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمحجوبين من أهل الظاهر المحرومين عن الرزق المعنوي؛ المحرومين عن التوجه نحو التوحيد في هذه النشأة: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ﴾ وأظهر ﴿لِعِبَادِهِ﴾ الخلص من ذرائر الكائنات بتجليات الأسماء والصفات ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ المعنوي والمستلذات الروحانية ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هِيَ﴾ حاصلة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالتوحيد الإلهي ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والنشأة الأولى حال كونهم مشوبة بالقوى البشرية والكدورات البهيمية ﴿خَالِصَةً﴾ لهم ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ بلا شوب كدورة حين انخلعوا من جلباب الهويات الباطلة والتعيينات العاطلة ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:32] يذعنون بالإيمان ويتوجهون نحو الكشف والعيان.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل المولي لتدبير مصالح العباد: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ﴾ القبائح الصادرة من أولي الأحلام السخيفة ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ من الظلم وشهادة الزور

ورمي المحصن والغيبة والنميمة، وغيرها من القبائح التي ظهرت من الألسنة والأيدي ﴿وَمَا بَطَنَ﴾[1] من القبائح التي صدرت من الفروج ﴿وَ﴾ بالجملة: كل ما يوجب ﴿الإِثْمَ﴾ المستلزم للانتقام والعقاب ﴿وَالْبَغْيَ﴾ أي: الحروب على الولاة وجمهور المسلمين ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ بلا رخصة شرعية ﴿وَ﴾ أعظم المحرمات جرمًا وأشدها انتقامًا ﴿أَن تُشْرِكُوا بِاللهِ﴾ المتوحد بذاته ﴿مَا﴾ أي: شيئًا من مصنوعاته مع أنه ﴿لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهانًا ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ﴾ افتراءً ومراءً ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33] ثبوته له، لا عقلاً ولا نقلاً.

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم العاصية الضالة ﴿أَجَلٌ﴾ مقدر من عند الله لمقتهم وهلاكهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدر المبرم ﴿لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:34] أي: لا يسع لهم فيه طلب التأخير على مقتضى أهويتهم ولا طلب التقديم تخليصًا لنفوسهم من الأذى، بل أمره حتم نازل في وقته وحينه بلا تخلل تقدم وتأخر؛ لكمال قدرته ومتانة حكمته.

﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ المستكملين القابلين للإرشاد والتكميل المستعدين لفيضان كمال التوحيد ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: أن يأتينكم ويرسلن إليكم ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسكم وبني نوعكم؛ إذ هم أدخل لنصحكم وإرشادكم وأنسب لجذب قلوبكم، وأشفق عليكم من الأجانب حال كونهم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ المنزلة من عندي، الدالة على وحدة ذاتي فعليكم أن تصدقوهم وتؤمنوا لهم وبما جاءوا به من عندي من الأوامر والنواهي ﴿فَمَنِ اتَّقَى﴾ منكم عن محارم الله بواسطة رسله وآياته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: أخلص أعماله لله بلا ترقب على الجزاء ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا في النشأة الأولى ولا في الأخرى ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:35] عن سوء المنقلب والمثوى.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ

(1) «ما أحدٌ أغيرَ مِنَ الله، ولذلكَ حرَّم الفواحِشَ ما ظَهَرَ مِنهَا وما بَطَنَ، وما أحدٌ أحبُّ إليهِ المدحُ من الله، ولذلكَ مدَحَ نفسَه، وما أحَدٌ أحبُّ إليهِ العذرُ مِنَ الله تعالى، ولذلِكَ أرسَلَ الرُّسلِ وأنزَلَ الكُتبَ». البحر المديد (20/2).

إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأعراف: 36-38].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ وعمن أنزلت عليه عتوًا وعنادًا ﴿أُولَئِكَ﴾ المكذبون المستكبرون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ المعدة لجزاء المخذولين من أهل الضلال ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف:36] لا نجاة لهم منها أصلاً.

نعوذ بك من سخطك يا ذا القوة المتين.

وبعدما أرسل الرسل وأنزل الكتب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ أي: نسب إليه ما لم يصدر عنه افتراء وكذبًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الصادرة عنه عنادًا ومكابرة ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المفترون المكذبون ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكِتَابِ﴾ أي: مما كتب في اللوح وثبت فيه من العذاب والنكال لذوي الجرائم العظام ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: ملائكتنا الموكلون ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ لتوفية حساب العصاة ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ من الآلهة الباطلة وتعتقدونهم شفعاء ﴿قَالُوا﴾ متضرعين مضطرين: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: غابوا عنا بعدما أضلونا عن طريق الحق ﴿وَشَهِدُوا﴾ واعترفوا ﴿عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في مدة حياتهم ﴿كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:37] ضالين.

﴿قَالَ﴾ سبحانه من وراء سرادقات العز والجلال على مقتضى عدله: ﴿ادْخُلُوا﴾ أيها الضالون المكذبون ﴿فِي﴾ زمرة ﴿أُمَمٍ﴾ عاصية كافرة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ على الكفر والضلال أمثالكم ﴿مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ المعدة لجزاء العصاة الغواة الكفرة، وبعد صدور الأمر الوجوبي منه سبحانه صاروا بحيث ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ في نار الخذلان ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي أضلتها ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا﴾ وتلاحقوا ﴿فِيهَا جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ أي: مستأخرهم ﴿لأُولاهُمْ﴾ أي: لأجل مستقدميهم وفي حقهم، متضرعين إلى ربهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ﴾ الضالون المضلون

﴿أَضَلُّونَا﴾ عن طريقك بوضع سنن الضلال بيننا فاقتدينا بهم، فضللنا ﴿فَآتِهِمْ﴾ الآن وأنزل عليهم ﴿عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾[1] أي: مثل عذابنا؛ لأنهم ضالون مضلون ﴿قَالَ﴾ سبحانه على مقتضى عدله: ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم أيها الأتباع ومن متبوعيكم ﴿ضِعْفٌ﴾ من النار، أمّا المتبوعون فلضلالهم وإضلالهم، وأمّا التابعون فلضلالهم وتقليدهم بهؤلاء المضلين لا بالأنبياء ﴿وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:38] استحقاقكم واستحقاقهم.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف:39-41].

﴿وَ﴾ بعدما سمعت الأولى من الأخرى ما سمعت ﴿قَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ﴾ إنّا وأنتم مساوون في الضلال ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ تستحقون به تخفيف العذاب ﴿فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:39] كما نذوق بما نكسب.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ ولم يؤمنوا لها عتوًا وعنادًا ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: الفيوضات والفتوحات من سماء الأسماء والصفات حتى ينكشفوا بوحدة الذات ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ﴾ أي: مقر التوحيد ﴿حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾ أي: دخولهم في مقر التوحيد في الاستحالة كولوج الجمل في سم الخياط بل أشد استحالة، هذا مثل يُضرب في الممتنعات والمستحيلات ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:40] المخرجين عن ساحة عز التوحيد بجرائم أهوية هوياتهم الباطلة.

---

(1) قال في التأويلات: وإنما قدم الجن على الإنس؛ لتقدمهم عليهم في الخلقة، وذلك أن الله تعالى لما خلق الجن جعل منه حكمة؛ فمنهم: مؤمن، ومنهم: كافر، فلمّا استولى أهل الكفر منهم على أهل الإيمان وغلبوهم بالحرب والقتال حتى استأصلوهم بعث الله إليهم جندًا من الملائكة، قيل: كان رئيسهم إبليس، فسلطهم الله عليهم حتى أهلكوا جميعهم، ثم خلق الله تعالى آدم ﷺ بعدهم فخلق منه ذريته فكان منهم كافرًا: كقابيل، ومنهم مؤمن: كهابيل إلى أن كان في كل زمان منهم أمة كافرة مستحقة لدخول النار، وأمة مؤمنة مستحقة لدخول الجنة حتى الآن وإلى انقراض العالم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:2].

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ﴾ الإمكان ﴿مِهَادٌ﴾ فراش يحترقون عليه بنيران الأمنية والأهوية الفاسدة ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية من سعير الجاه والمال ودعوى الفضل والكمال ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:41] المتجاوزين عن حدود الله بمقتضيات نفوسهم المنغمسة في اللذات الحسية والوهمية والخيالية.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (43)﴾ [الأعراف:42-43].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة نحوه على مقتضى استعداداتهم وقابلياتهم ومقدار وسعهم وطاقتهم؛ إذ ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ﴾ السعداء الباذلون جهدهم في سلوك طريق الفناء ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب الولاء، المتمكنون في مقام الرضا بما جرى عليهم من القضاء ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف:42] ما شاء الله؛ إذ لا حول ولا قوة فيها إلا بالله.

﴿وَ﴾ بعدما دخلوا جنة التوحيد ﴿نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ مشعر بالاثنينية والأنانية؛ إذ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ أي: جداول المعارف والحقائق المترشحة من بحر الوحدة ﴿وَ﴾ بعدما كوشفوا بفناء تعيناتهم وفازوا بالبقاء السرمدي الإلهي ﴿قَالُوا﴾ بلسان استعداداتهم بإلقاء الله إياهم ليتحققوا بمقام الشكر: ﴿الحَمْدُ﴾ والثناء المنبعث من محض التسليم والرضا ﴿لِلهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي: أوصلنا بمقام الرضا وشرف البقاء واللقاء ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بأنفسنا لو بقينا في مجلس هوياتنا ومضيق تعيناتنا ﴿لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ بلطفه وسعة جوده ورحمته، وحين تمكنوا في مقام الكشف والشهود أقسموا بالله ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ لإرشادنا ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع في جميع ما جاءوا به ﴿وَ﴾ بعدما تحققوا بمقام الشكر واعترفوا بما اعترفوا ﴿نُودُوا﴾ من وراء سرادقات العز والجلاء: ﴿أَن تِلْكُمُ الجَنَّةُ﴾ أي: التوحيد الذاتي ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أعطيتم بها ومكنتم فيها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:43] بمقتضى أوامر الله ونواهيه وإرشاد رسله وتذكير كتبه.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف:44-47].

﴿وَ﴾ بعدما تمكن أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ﴿نَادَى أَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ ليفتضحوا على رءوس الأشهاد: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من المواعيد والتبشيرات على ألسنة الرسل وكتبه ﴿حَقًّا﴾ يقينًا بعدما تيقناه علمًا وعينًا فيما مضى ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم﴾ أيها المحبوسون في سجن الإمكان ونار الحرمان ﴿مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من الوعيدات والإنذارات الشديدة الجارية على ألسنة الرسل والكتب ﴿حَقًّا﴾ مطابقًا للواقع ﴿قَالُوا﴾ متحسرين بحالهم مضطرين عما هم عليهم: ﴿نَعَمْ﴾ قد أصبنا ما كذبنا وحققنا ما أبطلنا، وبعدما جرى بينهم ما جرى من المقاولة ﴿فَأَذَّنَ﴾ صوت ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ هاتف وراء سرادقات الجلال ﴿بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللهِ﴾ أي: طرده ومقته نازل ثابت ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:44].

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ ينصرفون وينحرفون ﴿عَن﴾ استقامة ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ الموصل إلى توحيده ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون منها زيغًا وضلالاً ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:45] مكذبون منكرون.

﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي: بين الموحدين المتمكنين في نعيم الجنان، المشرفين بشرف لقاء الرحمن، والمشركين المحبوسين في سجّين الإمكان، المحترقين بنيران الخذلان والحرمان ﴿حِجَابٌ﴾ لا يدرك كنهه إلا العليم العلام ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ﴾ أي: البرزخ ﴿رِجَالٌ﴾ من الأبرار ﴿يَعْرِفُونَ كُلاًّ﴾ من الفريقين ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾[1] أي: بوجوههم التي

(1) إن لله عبادًا في الدنيا قلوبهم تطير في الملكوت، وأرواحهم تطير في أنوار الجبروت، وعقولهم تستشرق على الأسرار، وأسرارهم تطلع على الأنوار، فيرون بنور الله بالله من العرش إلى الثرى، ويعرفون جميع الخلائق بسمات البعد والقرب التي تظهر من وجوههم، وهي منقوش خاتم السعادة والشقاوة الذي لا يقرأه إلا عارف رباني، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «اتقوا فراسة المؤمن

يلي الحق والباطل وهم متقررون في البرزخ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴿وَنَادَوْا﴾ أهل البرزخ ﴿أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ هنيئًا لكم، ما تتنعمون فيها وتتمتعون بها حال كونهم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف:46] دخولها من فضل الله وسعة رحمته وجوده.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: أبصروا بذلك البرزخ ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا﴾ متضرعين متخشعين: ﴿رَبَّنَا﴾ وإن صدر عنا من التقصير ما صدر ﴿لاَ تَجْعَلْنَا﴾ بلطفك ﴿مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:47] الخارجين عن حدودك مطلقًا عنادًا وإصرارًا.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأعراف:48-51].

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ﴾ على وجه التوبيخ والتقريع ﴿رِجَالاً﴾ من

فإنه ينظر بنور الله». وهؤلاء على أعراف ذروة شرفات الحضرة يوم القيامة، مطلعون على أحوال الدارين ينظر إليهم أهل الجحيم فيحتملون برؤيتهم أثقال العذاب، وينظر إليهم أهل الجنة فيستزيدون من وجوههم سرور العيش، وهم يشفعون على كل مقصر، وينعمون على كل متوفر والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام منهم عليهم زيادة قربه أهل الجنة وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ يعني أهل الأعراف من أعظم شأنهم عند الله في حضرته وقفوا شفاعة الخلق، وهم يطمعون أن يدخلوا الجنة، ويعيشون مع عوام الجنة كالملوك يجلسون مع أهل الدناءة، لتطييب قلوبهم، والفرح بملكهم. روى أبو الحسن الفارسي عن سهل بن عبد الله يقول: أهل المعرفة هم أصحاب الأعراف قال الله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ أقاموهم لإشرافهم على الدارين وأهلها، يعرفهم الملكين كما أشرفهم على أسرار العباد في الدنيا وأحوالهم. ويقال: عرفوهم غدًا بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم، فأقوم موسومين بأنوار القرب وآخرون موسومون بآثار الرد والحجب.

صناديدهم كانوا ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ بوجوههم الباطلة من المال والجاه والرئاسة والتفوق وغيرها ﴿قَالُوا﴾ لهم متهكمين: ﴿مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: ما أسقط جمعكم المال وجمعيتكم بسبب الجاه شيئًا من عذاب الله ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف:48] أي: ما يفيد لكم استكباركم على خلق الله وعن آياته اليوم؟!

انظروا أيها الحمقى ﴿أَهَؤُلاءِ﴾ المترفهون المتنعمون في مقر العز والتمكن هم ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ في النشأة الأولى أنهم ﴿لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ﴾ في النشأة الأخرى، كيف قيل لهم من قبل الحق تفضلاً وامتنانًا عليهم: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ﴾ التي هي دار الأمن والأمان ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ بعدما دخلتم فيها ﴿وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:49] أصلاً من فوت شيء وتعويقه.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الجَنَّةِ﴾ متمنين منهم متحسرين: ﴿أَنْ أَفِيضُوا﴾ صبوا ﴿عَلَيْنَا﴾ رشحة ﴿مِنَ المَاءِ﴾ الذي هو سبب حياتكم الحقيقي وبقائكم السرمدي ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ من الرزق المعنوي ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم بإلهام الله إياهم: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:50].

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو سبب الحياة الحقيقية في حياتهم الصورية ونشأتهم الدنيوية ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ يلهون ويلعبون به ويكذبون من أرسل إليهم وأنزل عليهم الكتب لتبيينه ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿غَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بمزخرفاتها من اللذات الجسمانية والشهوات النفسانية، وصاروا بسبب تغريراتها ناسين العهود والمواثيق التي جرت بيننا وبينهم في بدء فطرتهم ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: حين كشف السرائر وارتفعت الحجب ﴿نَنسَاهُمْ﴾ ولم نلتفت نحوهم ﴿كَمَا نَسُوا﴾ في النشأة الأولى ﴿لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ في النشأة الأخرى مع ورود الإنذارات والتخويفات الجارية على ألسنة الرسل والكتب ﴿وَمَا﴾ أي: وكما ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على أمثال هذه الإنعامات ﴿يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف:51] ينكرون ويصرون كذلك يخلدون في النار وينسون.

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا

كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف:52-53].

﴿وَ﴾ كيف لا يخلدون في النار ﴿لَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ﴾ مبين لجميع أحوال النشأتين ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أي: أوضحنا معانيه وبيَّنا ما فيه من العقائد والأحكام مفصلاً ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ حضوري منا متعلق بتفصيله بحيث لا يشذ عن علمنا شيء أصلاً، وإنما فصلناه وأوضحناه وجئنا به؛ ليكون ﴿هُدًى﴾ هاديًا ومرشدًا لهم إلى توحيدنا ﴿وَرَحْمَةً﴾ مخلصة لهم عن سجن الطبيعة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:52] به وبحقيقته.

وبعدما آمنوا به وبما فيه من أحوال النشأة الأولى والأخرى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون هؤلاء المؤمنون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: ما يؤول إليه ويترتب عليه بعدما حصل لهم الإذعان بالوقوع ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ ونبذوه وراء ظهورهم ﴿مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع فكذبناهم مكابرة وعنادًا ﴿فَهَل لَّنَا﴾ اليوم ﴿مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ ليخلصونا من نكال ما أجرمنا ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ بشفاعتهم على أعقابنا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في أيام الغفلة، وهم ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والشرك وعبادة الغير ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ضَلَّ﴾ غاب وخفي ﴿عَنْهُم﴾ لدى الحاجة ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف:53] لشركائهم من الشفاعة والمظاهرة.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:54-56].

وكيف لا تتنبهون وتنكشفون أيها المجبولون على فطرة التوحيد ومن الذات المستجلي في الآفاق بالاستقلال ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ وأظهر وأوجد ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وما بينهما من كتم العدم بامتداد أظلال أوصافه وأسمائه عليها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أوقات ودفعات ليشير إلى إحاطته بالجهات كلها ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[1]

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أن الذي هو ربكم وسيدكم الذي تجب طاعته عليكم لربوبيته -

أي: على عروش المظاهر والمكونات الكائنة والأقطار، منزهًا عن الجهات والاستواء والاستقرار والتمكن مطلقًا، ورتب أمور المكونات على حركات الأفلاك بحيث ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يغطي بالليل وجه النهار مع أن النهار ﴿يَطْلُبُهُ﴾ أي: يعقبه ﴿حَثِيثًا﴾ سريعًا ﴿وَ﴾ جعل ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ يتحركن حيث أمرها الحق سبحانه ﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها الأظلال الهالكة والعكوس المستهلكة أن ﴿لَهُ﴾ سبحانه وفي قبضة قدرته ﴿الْخَلْقُ﴾ والإيجاد والإظهار ﴿وَالْأَمْرُ﴾ أي: التدبير والتصرف بالاستقلال، وبالجملة: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:54] أي: تعاظم

هو: الله المستحق للعبادة بالإلوهية، الذي خلق بالقادرية والخالقية السماوات والأرض بالمدبرية والحكيمية خلقها في ستة أيام، وإنما حصر في ستة أيام؛ لأن أنواع المخلوقات ستة وهي: الأول: الأرواح المجردة. والثاني: الملكوتيات، فمنها: الملائكة، والجن، والشياطين، وملكوت السماوات، ومنها: العقول المفردات والمركبات. والثالث: النفوس: كنفوس الكواكب، ونفس الإنسان، ونفس الحيوان، ونفس النبات والمعادن. والرابع: الأجرام والبسائط العلوية من الأجسام اللطيفة كالعرش، والكرسي، والسماوات، والجنة والنار. والخامس: الأجسام المفردة وهي: العناصر الأربعة. والسادس: الأجسام المركبة الكثيفة من العناصر فتصير عن خلق كل نوع منها بيوم، وإلا فالأيام الزمانية كونها مستحيل قبل خلق السماوات والأرض؛ فلما أتم خلق المكونات من الأنواع الستة استوى على العرش بعد الفراغ من خلقها استواء التصرف في العالم وما فيه التدبير في أموره من العرش إلى تحت الثرى، وإنما اختص العرش بالاستواء؛ لأنه مبدأ الأجسام اللطيفة القابل للفيض الرحمانية. واعلم: أن الاستواء صفة من صفاته تعالى لا تشبه استواء المخلوقين، كالعلم صفة من صفاته تعالى لا يشبه علم المخلوقين؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11]، ولو أمعنت النظر في خصوصية خلافتك عن الحق تعالى لعرفت نفسك فعرفت ربك، وذلك إن الله تعالى لمّا أراد خلق شخصك من النطفة المودعة في الرحم استعمل روحك بخلافته؛ ليتصرف في النطفة أيام الحمل فيجعلها عالمًا صغيرًا مناسبًا للعالم الكبير، فيكون بدنه بمثابة الأرض، ورأسه بمثابة السماء، وقلبه بمثابة العرش، وسره بمثابة الكرسي، وهذا كله بتدبير الروح وتصرفه خلافة عن ربه، ثم استوى الروح بعد استواء من الشخص الكامل على عرش القلب استواء لا مكانيًا لاستواء مكانيًا؛ ليتصرف في جميع أجزاء الشخص ويدبر أموره بإفاضة فيضه على القلب، فإن القلب هو: القابل لفيض الروح، ثم يفيض على سائر الأعضاء، كما أن سن العرش ينصب الفيض الإلهي إلى سائر المخلوقات، فالعرش مقسم فيض الحق تعالى إلى المخلوقات كلها، كما أن القلب مقسم فيض الروح إلى القالب كله، فإذا تأملت في هذا المثال تأملاً شافيًا وجدته في نفي التشبيه عن الصفات المنزهة المقدسة كافيًا، وتحققت حقيقة من عرف نفسه فقد عرف ربه إن شاء الله تعالى.

في ألوهيته عن أن يدركه العقول والأفهام، وتعالى في ربوبيته عن المظاهرة والمشاركة والأمثال والأشباه.

﴿ادْعُوا﴾ أيها المجبولون على فطرة التوحيد ﴿رَبَّكُمْ﴾ المتفرد بتربيتكم وإظهاركم ﴿تَضَرُّعًا﴾ متضرعين ﴿وَخُفْيَةً﴾ كاتمين خائفين خاشعين عن ظهر القلب لا مقلقلين على طرف اللسان عادين ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:55] المجاوزين المجاهرين الملحين في الدعاء؛ إذ علمه بحالهم يغني عن سؤالهم.

﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ التي هي محل الكون والفساد ﴿بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَادْعُوهُ﴾ سبحانه إن أردتم الالتجاء إليه والمناجاة معه ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[1] أي: خائفين من رده بمقتضى قهره وانتقامه، راجين قبوله من فضله وإحسانه ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ﴾ المجيب للمضطرين عناية ولطفًا ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:56] الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ويقومون بين يديه خائفًا مستحييًا من سطوة سلطته وقهره وجلاله، طامعًا راجيًا من طوله ونواله.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف:57-58].

﴿وَ﴾ كيف لا يكون رحمته قريبة من المؤمنين المحسنين ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ أي: يثيرها ﴿بُشْرًا﴾ مبشرات ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قدام روحه ورحمته ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ﴾ حملت وأثقلت وجمعت من البخارات المتراكمة ﴿سَحَابًا﴾ غليظًا ﴿ثِقَالاً﴾ بالأجزاء المائية ﴿سُقْنَاهُ﴾ من غاية لطفنا ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ يابس لأجل إحيائه ونضارته ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بالبلد الميت ﴿الْمَاءَ﴾ المحيي ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: أنواعها وأجناسها المختلفة بالألوان والطعوم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إخراجنا بالماء الصوري أنواع الثمرات من البلد الميت، نخرج بالماء المعنوي الذي هو

(1) مصدران في موقع الحال أي خائفين من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطامعين في إجابته تفضلا وإحسانا لفرط رحمته. تفسير حقي (4/ 169).

العلم اللدني من أراضي القابليات واستعدادات الموتى المحجوبين بالحجاب الظلماني والجهل الجبلي الهيولاني، بإرسال رياح أنفاس الأنبياء والأولياء المستنشقة من النفس الرحماني، مبشرات بالكشوف والمشاهدات حتى إذا اجتمعت صارت سحابًا شرعيًا ثقيلاً بمياه الحكمة والتقوى، سقناه من غاية جودنا إلى بلاد النفوس الميتة اليابسة، فأجرينا فيها أنهار المعارف والحقائق المنتشئة من قلوب الأنبياء والأولياء، فأخرجنا به ثمرات اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ في النشأة الأخرى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:57] فتعرفون قدرتنا على جميع مقدوراتنا ومراداتنا.

﴿وَ﴾ بعد سوقنا مياه جودنا إلى أموات ﴿الْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الذي هو نجيب المنبت، لطيف الطينة، قابل التربية ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بتوفيقه سبحانه وتربيته جيدًا نافعًا كثيرًا على مقتضى استعداده الفطري ﴿وَ﴾ البلد ﴿الَّذِي خَبُثَ﴾ طينته وقل قابليته كالحرة والسبخة ﴿لاَ يَخْرُجُ﴾ نباته بعد إجراء المياه اللطيفة عليه ﴿إِلاَّ نَكِدًا﴾[1] قليلاً

---

(1) قال المحقق روزبهان: ألا يا أخي أرض القلوب تُنبِتُ أزهار المواجيد ورياحين الموارید بقدر كشوف أنوار الصفات والذات، فكل قلب بذرة المحبة فنباته المشاهدة، وكل قلب بذرة الشوق فنباته الأنس والوصال، وكل قلب بذرة العشق ونباته كشوف الجلال والجمال، وكل قلب بذرة الهوى فنباته الشهوات؛ فالقلب المنور يظهر على الجوارح آثار المحبة وهي الموافقة، وكل قلب مظلم يظهر بالظاهر آثاره وهي المخالفة. ثم أشار تعالى إلى تبديل الأخلاق ونشر الأفضال وثبوت المقامات وطيران الأحوال بالإرادة السابقة والمشيئة الأزلية المنزّهة عن التغاير في التدبير، بل هو موصوف بأصل التقدير بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لقوم يعرفون المشكور قبل وجود الآلاء والنعماء، يجدونه شاكر أنعامه بنفسه فيخجلون عن شكره بعرفانهم بعجزهم عن محل شكره. قال أبو عثمان: أسعد الطيب مثل قلب المؤمن التقي يخرج نباته بإذن ربه يظهر على الجوارح أنوار الطاعات والزينة بالإخلاص والذي حيث قلب الكافر لا يظهر منه إلا النكد والشؤم والظلمات على الجوارح من إظهار المخالفات. وقال الواسطي: البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه أي بتوليه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا حجب عن التجلي والخطاب كذلك نصرف الآيات، كذلك تحرق الشمس طوائف من النبات وتنبتها وتغلي طوائف من النبات وتطيبها، وذلك على قدر جوهرها، كما أن بإرادة واحدة ظهرت المخالفات والموافقات. قال بعضهم: البلد الطيب الذي طيبها بدوام الأمن وعدل السلطان. ويقال: النسيم الساطع يدل إلى الجوهر اللازم، إن خبث الجوهر لم يطلب ما لم يحل منه وإن طاب العنصر، فالحر يحاكي أصله، والأسرة تدل على السريرة، فمن صفا ساكن قلبه زكي ظاهر فعله، ومن كان بالعكس فحاله بالضد. وقال الأستاذ: وإذا زكى الأصل بماء الفرع. قال بعضهم: هو قلب المؤمن الذي طهره الله وطيبه طهر الله الروح بماء القربة، وطيبه بطيب الكرامة، وطهر القلب بماء

غير نافع، بل ضار كالنفوس المنهمكة في الغفلة والضلال إلى حيث لا يؤثر فيها مياه الحكم والمعارف الجارية على ألسنة الرسل؛ لخباثة طينتها وقلة قابليتها ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ﴾ نردد ونكرر ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على استقلالنا في ملكنا وملكوتنا ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:58] نعمتنا ويتفكرون في آلائنا، ويعتبرون بها إلى أن يستغرقوا في مطالعة جمالنا:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾ [الأعراف:59-64].

ثم أشار سبحانه إلى تفاوت الاستعدادات واختلاف القابليات بتفصيل الأمم الهالكة بموت العناد والجهل لخبث طينتهم، فقال مقسمًا: والله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسولنا ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ بعدما انصرفوا وانحرفوا عن طريق الحق بالميل إلى الأهواء الباطلة والآراء الفاسدة ﴿فَقَالَ﴾ لهم نوح إمحاضًا للنصح على وجه الشفقة: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا﴾ أيها المنهمكون في الغفلة ﴿اللَّهَ﴾ المتوحد في الألوهية، المتفرد في الربوبية، المستحق للعبودية، واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ معبود بحق ﴿غَيْرُهُ﴾ ينقذكم من عذابه، وإن لم تعبدوه وتوحدوه ﴿إِنِّي﴾ بعدما أوحي إليّ من عنده إهداءكم وتنبيهكم إلى توحيده ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:59] هو يوم الطوفان في النشأة الأولى ويوم القيامة في النشأة الأخرى.

وبعدما سمعوا مقالته ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ الأشراف ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ يا نوح ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي

العلم، وطيب السرّ بنور المعرفة، وطهر اللسان بالصدق والذكر، وطهر الجوارح بماء العظمة وطيبتها بنور التوفيق.

ﺿَﻼﻝٍ ﻣُّﺒِﻴﻦٍ﴾ [الأعراف:60] ظاهر لائح، تأمرنا بترك عبادة الآلهة المحققة وتدعونا إلى إله واحد موهوم أبدعته من عند نفسك.

﴿قَالَ﴾ أيضًا على مقتضى شفقة النبوة لعلهم يتنبهوا: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ كما تخيلتم من جهلكم ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ هادٍ لكم مرسل ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:61] الذي أوجدكم ورباكم بأنواع التربية؛ حتى تعترفوا بربوبيته وتقروا بتوحيده.

وإنما جئت لكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ بآياته سبحانه؛ حتى تفوزوا من عنده بالمثوبة العظمى والمرتبة العليا بإهدائي وإرشادي ﴿وَ﴾ لا تضعفوني ولا تنسبوني إلى الجهل والسفه، إني ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللهِ﴾ بتوفيقه وحيه وجذب من جانبه ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:62] منه، أكذبتموني وأنكرتموني.

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ﴾ من ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ موعظة وتذكير لإرشادكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ به عن الكفر والمعاصي ووخامة عاقبتهما ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ عن محارم الله بسبب إنذاره وتخويفه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:63] بإثبات مأموراته وترك منهياته؛ عناية وتفضلاً.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعدما ضعفوه ونسبوه إلى الضلال، فانتقمنا منهم وأخذناهم بالطوفان ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾ حال كونهم متمكنين ﴿فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسولنا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف:64] غير مستبصرين بآيات الله الدالة على توحيده؛ لعمي قلوبهم وفسادهم وعمههم في الغفلة والضلال.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف:65-68].

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضا ﴿إِلَى﴾ قوم ﴿عَادٍ﴾ حين خرجوا عن ربقة الإيمان وعرى التقوى ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أضافه إليهم بالأخوة؛ لكمال الشفقة ووفور الأعطاف ﴿قَالَ﴾

مناديًا لهم مضيفًا لهم إلى نفسه؛ ليقبلوا قوله ويمتثلوا بما جاء به من ربه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ المظهر الموجد لكم من كتم العدم ورباكم بأنواع اللطف والكرم، واعتقدوا يقينًا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾ موجد مرب ﴿غَيْرُهُ﴾ فعليكم أن تعبدوه إيمانًا به وعملاً بما جاء عنده لأنبيائه حتى يتحققوا بمقر التوحيد، أتنكرون وحدة الحق وتعبدون غيره من الآلهة الباطلة ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:65] عن بطشه وأخذه؟!

فلما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ المَلأُ﴾ الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ - إذ بعض الأشراف آمن به كمرثد بن سعد ـ: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ عظيمة في دعوى الإرشاد والتكميل ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾ في ادعاء الرسالة والنبوة ﴿مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: 66].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ لا تسفهوني؛ إذ ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ أرسل إليكم لإهدائكم ﴿مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:67].

جئتكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[1] [الأعراف:68] فعليكم أن تتعظوا بنصحي وتتصفوا بما نصحت لكم بإلهام الله ووحيه لتكونوا من زمرة المؤمنين الموقنين.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف:69-70].

﴿أَ﴾ أنكرتم وكذبتم أمري وإهدائي ﴿وَ عَجِبْتُمْ﴾ من انهماككم في الغي والضلال من ﴿أَن جَاءَكُمْ﴾ لإصلاح حالكم ﴿ذِكْرٌ﴾ عظة وتذكير ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ عما يضلكم ويغويكم تفضلاً وامتنانًا عليكم؟ ﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من الله أمثال هذا ولا تنكروها، بل ﴿اذْكُرُوا﴾ نعمه عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ

---

(1) قال سهل: ومن لم ينصح الله في نفسه ولم ينصحه في خلقه هلك، ونصيحة الخلق أشد من النفس، وأدنى نصيحة النفس الشكر، وهو ألا يعصى الله تعالى بنعمه . وقال أيضًا: النصيحة ألا تدخل في شيء لا تملك صلاحه . تفسير التستري (162/1).

نُوحٍ﴾ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴿وَزَادَكُمْ﴾ بسببها ﴿فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ تفوقًا واستعلاء ﴿فَاذْكُرُوا﴾ أيها المترفهون بنعم الله ﴿آلاءَ اللهِ﴾ الفائضة عليكم واشكروا لها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:69] تفوزون من عنده بشرف الرضا والتسليم.

ثم لما بالغ في نصحهم وإرشادهم وبذل جهده في أداء الرسالة والتبليغ ﴿قَالُوا﴾ في جوابه من غاية قسوتهم ونهاية حميتهم مستفهمًا مقرعًا: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ أيها الكذاب السفيه ﴿لِنَعْبُدَ اللهَ﴾ الذي ادعيت أنت أنه ﴿وَحْدَهُ﴾ لا شريك له ولا إله سواه ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الآلهة، فاذهب أنت وإلهك؛ إذ لا نؤمن بك وبه أصلاً، وإن شئت ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب والنكال ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:70] في دعواك.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف:71-72].

ثم لما آيس هو من هدايتهم وصلاحهم ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ وجب وحق ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب شديد تضطربون به ﴿وَغَضَبٌ﴾ نازل من عنده بحيث يستأصلكم بالمرة ﴿أَتُجَادِلُونَنِي﴾ أيها المغضوبون بغضب الله ﴿فِي أَسْمَاءٍ﴾ أشياء ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ من تلقاء أنفسكم آلهة تعبدونها كعبادة الله مع أنه ﴿مَّا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ حجةٍ وبرهانٍ تستدلون بها على عبادة هؤلاء التماثيل العاطلة والمفتريات الباطلة، وبعدما ظهر الحق فلم تقبلوا أيها المسرفون ﴿فَانتَظِرُوا﴾ نزول العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف:71].

روي أنهم كانوا يعبدون الأصنام، فلما بُعث إليهم هود كذبوه وأصروا على ما هم عليه عتوًا وعنادًا التماثيل العاطلة، فأمسك الله القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدهم، وكان من عادتهم إذا نزل عليهم البلاء توجهوا نحو البيت الحرام، وتقربوا عندها وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه قيل بن عنز، ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيلهم معاوية بن بكر، فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم، فلبثوا عنده شهرًا، ثم قصدوا البيت ليدعوا.

قال مرثد: والله لا يسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله لأسقيتم، فقالوا لمعاوية: احبس منا مرثدًا لا يقدمن معنا مكة، فإنه قد اتبع دين هود، وترك ديننا، فحبسه ثم دخلوا مكة.

فقال قيل: اللهم اسق ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاث: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نادى منادٍ من جانب السماء: اختر يا قيل لنفسك ولقومك منها، فقال: اخترت السوداء؛ لأنها أكثرهن ماء، فخرجت على عادٍ من وادي المغيث، فاستبشروا بها واستعجلوا لنزولها، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، بل ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم، فجاءتهم ريح عقيم فأهلكتهم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: هودًا ﴿وَالَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ﴾ نازلة ﴿مِّنَّا﴾ لإيمانهم وانقيادهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بأن استأصلناهم ﴿وَ﴾ هم ﴿مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:72] بنبينا وكتابنا، ولا من شأنهم التصديق.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:73-74].

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضًا ﴿إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ معجزة ظاهرة الدلالة على صدقي في دعواي نازلة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ﴾ أظهرها ﴿لَكُمْ آيَةً﴾ دالة على صدقي في قولي ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾ حيث شاءت ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ وإن آذيتموها بسوء ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:73] مؤلم مفظع مستأصل، فعليكم أن تحفظوها حتى لا ينزل عليكم العذاب.

﴿وَاذْكُرُوا﴾ أيها المتنعمون نعم الله عليكم، سيما ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ مكنكم ووطنكم وكثركم في الأرض التي هم فيها حال ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا﴾ لبنًا وآجرًا، وتبنون ﴿قُصُورًا﴾ عاليات تسكنون فيها مترفهين ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾

تشقون بالمعاول ﴿الْجِبَالَ﴾ المتحجرة ﴿بُيُوتًا﴾ لحفظ أمتعتكم ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾ المترادفة المتوالية عليكم، وقوموا بشكرها؛ ليزيد عليكم سبحانه ويديم لكم ﴿وَلاَ تَعْثَوْا﴾ أي: لا تظهروا ﴿فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:74] بغرور الأموال والأولاد والأمتعة.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:75-79].

ثم لما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان والاتباع له ﴿مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ إياهم واستذلهم ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ يقينًا أيها الحمقى المصدقون له المؤمنون ﴿أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ الذي ادعى وحدته واستقلاله في الألوهية والربوبية ﴿قَالُوا﴾ أي: المؤمنون المخلصون من صفاء عقائدهم ونجاة طينتهم على سبيل التأكيد والمبالغة: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ﴾ أي: بجميع ما أرسل ﴿بِهِ﴾ من عند ربه ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:75] مصدقون موقنون.

﴿قَالَ﴾ الملأ ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عنادًا ومكابرة: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ﴾ بمتابعة صالح ﴿كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:76] منكرون مكذبون.

ثم لما كفروا وكذبوا مصرين ﴿فَعَقَرُوا﴾ أي: نحروا ﴿النَّاقَةَ﴾ التي هي آية الله عليهم ووديعة الله عندهم، قد أوصاهم سبحانه ألا تمسوها بسوء، وهم قد هلكوها عنادًا ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[1] استكبارًا ﴿وَقَالُوا﴾ لنبيه؛ بطرًا واستهزاء: ﴿يَا صَالِحُ﴾ الكذاب

---

(1) أي: استكبروا عن امتثاله وهو ما بلغهم صالح من الأمر بقوله فذروها ومن النهي بقوله ولا تمسوها واستكبروا عن اتباع أمر الله وهو شرعه ودينه ويجوز أن يكون المعنى صدر عتوهم عن

المدعي ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ﴾ صدقت أنك ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:77] فلما فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا استحقوا ما وعدوا وأوعدوا.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الصيحة الهائلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: 78] أي: صار كل منهم جاثمًا جامدًا إلى حيث لا يتحرك منهم أحد.

روي أنهم كانوا في منازل عاد يعيشون فيها متنعمين مترفهين إلى أن كثرهم الله وعمرهم أعمارًا طوالاً، واقتضى طول أملهم أن نحتوا من الجبال بيوتًا يخزنون فيها أمتعتهم ويبنون قصورًا عاليات في السهول؛ إذ كانوا في خصب وسعة، فقروا على ما هم عليه وأفسدوا في الأرض بأنواع الفسادات، وبالغوا في عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم صالحًا وهو من أشرافهم فدعاهم إلى الإيمان والتوحيد، فسألوا منه آية فقال:أية آية تريدون؟

قالوا:أخرج معنا إلى عيدنا، فادع إلهك وندعو إلهنا فمن استجيب اتبع، فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم يجابوا، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها:الكاثبة، وقال لصالح:أخرج من هذه الصخرة ناقة جوفاء وبراء، فإن خرجت صدقناك وآمنا بك.

فأخذ صالح عليه السلام عنهم المواثيق إن أخرجت لتؤمنوا له، فعهدوا، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، فانصدعت عنه ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا وهم ينظرون، ثم أنتجت ولدًا مثلها في الكبر، فآمن له جندع في جماعة ومنع الباقين دوار بن عمرو، والخباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صمغر كاهنهم، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبًا، فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تتفجج فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم ويدخرون، وكانت تصيف في ظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم، وتشتو في بطنه فتهرب أنعامهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم فهموا بقتلها، وزينت لهم قتلها أم غنم وصدقتها بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها.

فرقى ولدها جبلاً اسمه قارة، فرغا ثلاثًا، فقال صالح عليه السلام: أدركوا الفصيل عسى

أمر ربهم كان أمر ربهم بترك الناقة كان هو السبب في عتوهم ونجوا من هذه كما في قوله وما فعلته عن أمري. انظر [تفسير حقي (4 /195)].

أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه، وانفتحت الصخرة بعد رغائه فدخلها.

فقال صالح عليه السلام: تصبح وجوهكم غدًا مصفرة وبعد غد محمرةً، واليوم الثالث مسودة، ثم يصحبكم العذاب، فلما رأوا العلامات هموا أن يقتلوه، فأنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين، ولما كانت ضحوة اليوم الرابع وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم، فهلكوا ﴿فَتَوَلَّى﴾ وأعرض صالح عليه السلام ﴿عَنْهُمْ﴾ بعدما ظهر عليهم أمارات عذاب الله وعلامات الانتقام ﴿وَقَالَ﴾ متحسرًا متأسفًا حين تجانب عنهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ المبالغين في الإعراض عن الحق ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ وبذلت جهدي في إهدائكم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ إشفاقًا عليكم حتى لا يلحقكم العذاب الموعود ﴿وَلَكِن﴾ أنتم قوم مستكبرون في أنفسكم، مصرون معاندون ﴿لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:79] فلحقكم ما أخاف عليكم بالإعراض عما أُمرتم به.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأعراف:80-84].

﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ المبالغين في ارتكاب الفعلة القبيحة والديدنة الشنيعة على وجه التوبيخ والتقريع: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ وترتكبون ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ المتناهية في القباحة والفضاحة مع أنها ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:80] بل أنتم اخترعتموها من خباثة نفوسكم ورداءة طباعكم.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المتجاوزون عن حدود الله ومقتضى حكمته ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ أي: حال كونكم متلذذين مشتهين لإتيانهم ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ مع أن الحكمة تقتضي إتيانهن، وما هو من جهلكم بقبحها وخباثتها ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:81] في الفساد والخروج عن مقتضى الحكمة الإلهية بمتابعة أهويتكم الباطلة.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ حين سمعوا منه ما سمعوا ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ مستكبرين مستنكرين منهمكين: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي: لوطًا ومن آمن له ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:82] يدعون التطهر عن الخبائث ويجتنبون عن الفواحش، فلا يناسبهم الإقامة فينا.

ثم لما لم يمتنعوا بقوله، بل زادوا الإصرار والعداوة، أخذناهم بظلمهم وإسرافهم ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: من آمن له مما أصابهم ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ لأنها تسر الكفر؛ لذلك ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف:83] الهالكين بقهر الله.

﴿وَ﴾ بعدما أخذناهم ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: مطرًا وحجارة من سجيل فاستأصلناهم به ﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 84] المصرين على الجرائم العظائم مع إرسال الرسل الهادين لهم إلى طريق النجاة، الزاجرين عما هم عليه من القبائح على أبلغ وجه وآكده.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86)﴾ [الأعراف:85-86].

﴿وَ﴾ أيضًا أرسلنا ﴿إِلَى﴾ قوم ﴿مَدْيَنَ﴾ وهم قرية شعيب عليه السلام ﴿أَخَاهُمْ﴾ وابن عمهم ﴿شُعَيْبًا﴾ عليه السلام حين أفرطوا في التطفيف والتخسير ﴿قَالَ﴾ لهم مناديًا على وجه الشفقة والنصيحة: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ المتوحد المستقل في الألوهية، واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾ يعبد بالحق ﴿غَيْرُهُ﴾ وأنه ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع اللطف والكرم دالة على القسط والعدالة في المعاملات الصورية؛ ليفوزوا بها إلى الاعتدال المعنوي والقسط الإلهي ﴿فَأَوْفُوا الكَيْلَ﴾ أي: وفوا حقه ﴿وَ﴾ أقيموا ﴿الْمِيزَانَ وَ﴾ بالجملة: ﴿لاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: لا تنقصوا من حقوقهم شيئًا ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تُفْسِدُوا﴾ مطلقًا ﴿فِي الأَرْضِ﴾ التي وضعت للعدالة والصلاح سيما ﴿بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ أي: بعد إصلاحنا أمرها بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: العدل والصلاح وامتثال الأوامر ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:85]

موقنين بعدل الله وصراطه المستقيم.

وعليكم أن تتوجهوا نحو طريق الحق بالعزيمة الصحيحة ﴿وَلاَ تَقْعُدُوا﴾ أي: لا ترصدوا ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ طريق ومذهب من الطرق الباطلة حال كونكم ﴿تُوعِدُونَ﴾ وتخوفون الناس عن سلوك طريق الحق ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ ضعفاء ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ بإلقاء الشبه والرخص في قلوبهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[1] أي: تطلبون أن تنسبوا عوجًا وانحرافًا إلى سبيل الحق والطريق المستقيم؛ لينصرف الناس عنه، وعليكم ألَّا تميلوا عن مخالفة أمر الله ونهيه ﴿وَاذْكُرُوا﴾ نعمه عليكم ﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً﴾ عَددًا وعُددًا ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ قوّاكم وأظهركم، واشكروا نعمه عليكم؛ ليدوم ويزيد ولا تكفروها ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:86] المكفرين لنعم الحق من الأمم الهالكة واعتبروا من حالهم ومآلهم.

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف:87-89].

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من العدالة الصورية والمعنوية ﴿وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ عنادًا واستكبارًا ﴿فَاصْبِرُوا﴾ وانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ﴾ بمقتضى عدله ﴿بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين بالنصر على من آمن والقهر على من كفر واستكبر ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه في ذاته ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف:87] يحكم بمقتضى حكمته

(1) أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعا لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها. انظر [تفسير السعدي (1 /296)].

المتقنة المتفرعة على العدالة الحقيقية.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ على وجه المبالغة والتأكيد وعدم المبالاة: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ البتة ﴿يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾ وصدقوا قولك ﴿مِن قَرْيَتِنَا﴾ كرهًا وإجلاءً ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ أنت ومن معك ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ التي كنتم عليها من قبل ﴿قَالَ﴾ عليه السلام مستبعدًا مستنكرًا: ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا﴾ في الأيام السالفة أيضًا ﴿كَارِهِينَ﴾ [الأعراف:88] منكرين ملتكم التي أنتم عليها، فتعيدوننا إليها، وكيف نعود؟!

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا﴾ البتة ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا﴾ وصرنا ﴿فِي مِلَّتِكُم﴾ سيما ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ﴾ المنجي لعباده عن ظلمة الكفر ﴿مِنْهَا﴾ وألهمنا بطلان ما أنتم عليه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَكُونُ﴾ يجوز ويصح ﴿لَنَا أَن نَّعُودَ﴾ ونرجع ﴿فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ عودنا ومصيرنا إليه؛ إذ هو ﴿رَبُّنَا﴾ يربينا بلطفه بما هو خير لنا، وإن كان فيها خيرًا يعيدنا إليها؛ إذ ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تحققًا وحضورًا لذلك ﴿عَلَى اللهِ﴾ لا على غيره من الأسباب ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ في جميع ما جرى علينا، واتخذناه وكيلاً لجميع أمورنا ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم ﴿افْتَحْ﴾ واقض على ما جرى عليه حكمك وقضاؤك ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع والموافق لما ثبت في لوح القضاء ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:89] الحاكمين بين ذوي الخصومات.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾ [الأعراف:90-93].

ومن حسن محاورة شعيب عليه السلام مع أمته ومجاملته معه لقب بالخطيب بين الأنبياء.

﴿وَ﴾ بعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ لمتابعيهم ترهيبًا وتهديدًا على وجه المبالغة والتأكيد: والله ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ عليه السلام وآمنتم له وسمعتم قوله في ترك البخس والتطفيف ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:90] في بضاعتكم ومعاملتكم، ثم لما بالغوا في الضلال والإضلال استحقوا الانتقام والنكال.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ والزلزلة الشديدة فخر عليهم سقوف بيوتهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي

دَارِهِمْ﴾ التي يستقرون فيها ﴿جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:91] جامدين ميتين.

وبالجملة: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: استؤصلوا وانقرضوا إلى حيث صاروا كأن لم يسكنوا ولم يكونوا في تلك الديار أصلاً، بل الحق إن ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:92] المقصورين على الخسران في النشأة الأولى والأخرى.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ شعيب ﷺ بعدما شاهد حالتهم واستحقاقهم للعذاب ﴿وَقَالَ﴾ متأسفًا متحزنًا على مقتضى شفقته، مضيفًا لهم إلى نفسه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ المنهمكين في الغفلة المبالغين في الإصرار والاستكبار ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾ حتى لا يلحق بكم ما لحق ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بإذنه سبحانه وبالغت في نصحي، فلم تقبلوا مني نصحي ولم تصدقوا قولي، ثم كذب هواجس نفسه وأنكر عليها؛ خوفًا من غضب الله، فقال: ﴿فَكَيْفَ آسَى﴾ أتحزن ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ كانوا ﴿كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:93] لنعم الحق مكذبين لأوامره مستحقين لما نزل عليها بسوء معاملتهم مع الله بعد ورود ما ورد من الوعد والوعيد؟.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) ﴾ [الأعراف:94-98].

ثم لما ذكر سبحانه من أحوال الأمم الماضية الهالكة وقبح صنيعهم مع الله وتكذيبهم كتبه ورسله، سجل عليهم بأن ما لحقهم إنما هو من سوء صنيعهم وشؤم نفوسهم، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾[1] من القرى الهالكة ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿إِلَّا

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أن سبب البأساء والضراء ابتلاء لأوليائه وأعدائه، فالولي يتضرع إليه عند البلاء ويرجع إليه، ويتوكل عليه، ويتمسك بحبل الصبر والتسليم والرضا، ويتمسك =

﴿أَخَذْنَا﴾ أولاً ﴿أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ إزالة لقساوتهم وتليينًا لقلوبهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف:94] رجاء أن يتضرعوا إلينا ويتوجهوا نحونا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما ضيقنا عليهم كشفنا عنهم بأن ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾ المضرة المؤلمة ﴿الْحَسَنَةَ﴾ النافعة المسرة ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ إلى أن كثروا وتكاثروا عَددًا وعُددًا ﴿وَقَالُوا﴾ بعدما صاروا مترفهين في سعة ورخاء مكان شكر وإظهار المنة منًا: ﴿قَدْ مَسَّ﴾ ولحق ﴿آبَاءَنَا﴾ كما لحقنا ﴿الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ ومن عادة الزمان وديدنة الدهر تعاقب السراء بالضراء والجدب بالرخاء، ومتى ظهر منهم كفران النعم وعدم الرجوع إلينا بالشكر ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ فجأة بلا سبق مقدمة وتقديم أمارة ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ من غاية عمههم وسكرتهم ﴿لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف:95] نزول العذاب والنكال.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ الهالكة العاصية ﴿آمَنُوا﴾ بالله وبأنبيائه المبعوثين إليهم ﴿وَاتَّقَوْا﴾ عن محارم الله بمقتضى أوامره التي جاءت الأنبياء به ﴿لَفَتَحْنَا﴾ ووسعنا ﴿عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾ نازلة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَ﴾ نابتة من ﴿الأَرْضِ وَلَكِن﴾ من خبث طينتهم ورداءة فطرتهم ﴿كَذَّبُوا﴾ بالله وبأنبيائه وكتبه ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾ بعدما أظهروا التكذيب والإنكار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:96] بأيديهم لأنفسهم، وبالجملة: ما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ من انتقامنا وبطشنا إياهم ولم يخافوا ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا وعقابنا ﴿بَيَاتًا﴾ في أثناء الليل ويحيط بهم ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف:97] في مضاجعهم.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ ولم يترقبوا ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ في كمال إضاءة اليوم ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:98] بأمور دنياهم على مقتضى مخايلهم ومناهم.

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

بالعروة الوثقى، والعدو يأخذ في الجزع والكفران ولا يصبر على البلاء بالخذلان ولا يتسلم للقضاء، ويرجع في ذلك إلى الخلق ويذهل عن الحق.

فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف:99-102].

وبالجملة: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ أولئك المنهمكون في الغفلة ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ المراقب لجميع أحوالهم، ولم يخافوا ولم يحزنوا من أخذه وانتقامه، ولم يتفطنوا أن من أمن عن مكره وأخذه فقد خسر خسرانًا مبينًا ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ المنتقم المقتدر ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:99] المقصورون على الخسران الأبدي والشقاق السرمدي في أصل فطرتهم وقابلياتهم.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أي: ألم يذكروا ولم يبين الغيور أحوال الأمم الهالكة، وأخذنا إياهم بما صدر عنهم من تكذيب الأنبياء؟ وما جاءوا به من عندنا من الأوامر والنواهي ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ خلفاء ﴿مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ الهالكين بالجرائم المذكورة ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿أَصَبْنَاهُم﴾ أي: الخلفاء أيضًا ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم مثل أسلافهم، بل بأضعافهم وآلافهم ﴿وَ﴾ من علامات أخذنا وانتقامنا عنهم: أنا ﴿نَطْبَعُ﴾ ونختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ كيلا يفهموا؛ ليعتبروا ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100] بسبب ذلك حتى يتعظوا به.

وبالجملة: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ الهالكة التي ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل في كتابنا هذا ﴿مِنْ﴾ بعض ﴿أَنبَائِهَا﴾ قصصها وأخبارها وجرائمها مع الله ورسله ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة والمعجزات القاطعة الساطعة، وهم من خبث طينتهم وشدة شكيمتهم وضغينتهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل إرسال الرسل عليهم، بل أصروا على ما هم عليه ولم يؤمنوا أصلاً، ولم يقبلوا من الرسل جميع ما جاءوا به ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ ويختم سبحانه بمقتضى قهره ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ﴾ جميع ﴿الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:101] فلا تعجبك يا أكمل الرسل حال أهل مكة وإصرارهم ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيق من مكائدهم؛ إذ هي من الديدنة القديمة والخصلة الذميمة المستمرة بين الكفرة.

﴿وَ﴾ من جملة أخلاقهم الذميمة وخصلتهم القبيحة أيضًا: نقض العهد والمواثيق.

لذلك ﴿مَا وَجَدْنَا﴾ وصادفنا ﴿لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أيضًا على لسان رسلنا موفين له ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[1] [الأعراف:102] أي: بل ما وجدنا أكثرهم بعدما عهدناهم إلا فاسقين، ناقضين لعهودنا ومواثيقنا.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأعراف:103-110].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ أي: بعد انقراض الغواة الطغاة الهالكين بأنواع العذاب والنكال نبينا ﴿مُوسَى﴾ المخصوص بتشريف تكليمنا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا مع تأييدنا إياه بالمعجزات الباهرة ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ المبالغ في العتو والاستكبار إلى حيث يدعي الألوهية والربوبية لنفسه ﴿وَمَلَئِهِ﴾ المعاونين له المصدقين لدعواه الكاذب، وبعدما ادعى النبوة وأظهر الآيات ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: أنكروا بالآيات وكذبوا من جاء بها ﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:103] في أرض الله، الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه.

---

(1) قال البقلي في «العرائس»: كأن هذه الآية أنزلت في شأننا مع هؤلاء البطالين الذين سلكوا الطريقة وأخطأوا بما وجدوا فيها من الجاه والمال، ونقضوا عهد الإرادة واشتغلوا بالرياسة وخانوا في الطريقة وأنكروا على المشايخ، أعمى الله قلوبهم ما أشد إنكارهم على أهل الحق وما أشد خروجهم عن طريق الحق، جمعهم الله في الاستدراج وطردتهم عن أنوار المنهاج كأنه تعالى عاتب الجمهور حيث لم يفوا عهد الأزل، حيث وقف الكل على ما وجدوا، وهكذا شأن ما التفت في مشاهدة المحبوب إلى غير المحبوب، ولكن هم معذورون لأن الحدثان لا يستقل أثقال محامل الكبرياء ومطايا القدم، والبقاء في أودية الفناء. قال الجنيد: أحسن العباد حالاً مَنْ وقف مع الله على حفظ الحدود، والوفاء بالعهود.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل إذ ﴿قَالَ﴾ حين أراد دعوتهم ﴿مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ﴾ المستكبر المتجاوز عن حدود الله، المفسد بين عباده بأنواع الفسادات، المفرط المسرف بدعوى الربوبية ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:104] اختارني الله واصطفاني لرسالته.

وبعد اختياره سبحانه واجتبائه إياي من بين بريته أنا ﴿حَقِيقٌ﴾ جدير لائق ﴿عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ﴾ وأسند ﴿عَلَى اللهِ﴾ من الأقوال والأحكام المواعظ ﴿إِلاَّ الْحَقَّ﴾ الذي علمني ربي وبعثني لأجله وتبليغه لعباده، واعلموا أيها البغاة الطغاة أني ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ واضحة دالة على صدقي في دعواي، صادرة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي أظهركم وأوجدكم من كتم العدم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا ﴿فَأَرْسِلْ﴾ أيها الفرعون الطاغي ﴿مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف:105] المقهورين تحت استيلائك، المظلومين بيدك ليرجعوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم وفكك رقابهم، وخلِّ سبيلهم بعدما أمر الحق به وإلا قد نزل عليك وعلى قومك ما أوعدك الحق به من أنواع العذاب في العاجل والآجل.

﴿قَالَ﴾ فرعون في جوابه مستكبرًا مكذبًا، بل منهمكًا على سبيل الترفع والخيلاء:لا أفك رقابهم ولا أخلي سبيلهم، بل ﴿إِن كُنتَ﴾ أيها المدعي الكاذب ﴿جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ من عند ربك الذي ادعيت رسالته ﴿فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:106] في الدعوى.

ثم لما سمع موسى قوله وشاهد عتوه واستكباره ﴿فَأَلْقَى﴾ بإلهام الله إياه ﴿عَصَاهُ﴾ من يده على الأرض بين أيديهم ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ بلا معالجة واستعمال أسبابٍ كما يفعل السحرة ﴿مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:107] عظيم ظاهر بأضعاف مقدار العصا.

روي أنه لما ألقاها صارت ثعبانًا أشقر، فاغرًا فاه بين لحييه ثمانون ذراعًا، وضع لحاه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا، فصاح فرعون:أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه فعاد عصا.

﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿نَزَعَ يَدَهُ﴾ أي: أدخل يده في جيبه، وكان لون بشرة موسى شديدة الأدمة، ثم نزع ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ مشرقة مشعشعة محيرة ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف:108]

مفرقة لأبصارهم من غاية إنارتها وضوئها إلى حيث غلب ضوءها ضوء الشمس.

ثم لما شاهدوا من معجزاته وآياته ما شاهدوا ﴿قَالَ المَلأُ﴾ الأشراف ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ متعجبين من أمره مشاورين مع فرعون، حائرين مضطربين، خائفين من استيلائه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:109] متناه في هذا العلم إلى أقصى غايته؛ لذلك ادعى الرسالة وعجز الغير عن إتيان مثله.

وبالجملة: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف:110] أيها المتأملون المتفكرون في ضبط المملكة وحفظ البلاد في دفع هذا العدو.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف:111-116].

وبعدما تشاوروا وتأملوا كثيرًا في أمر دفعه، استقر رأيهم واتفق أمرهم إلى أن ﴿قَالُوا﴾ مخاطبين لفرعون: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخر وسوِّف قتلهما؛ لئلا يظهر عجزك عنهما ولا يختل أمر ربوبيتك ﴿وَأَرْسِلْ فِي المَدَائِنِ﴾ التي اشتهرت السحر والسحرة فيها شرطاء ﴿حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف:111] جامعين من فيها من السحرة.

وبعد جمعهم ﴿يَأْتُوكَ﴾ ويحضروا عندك ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف:112] ماهر حاذق في هذا العلم؛ ليتمكنوا على مغالبتهما، فأرسلهم فحشروا وانتخبوا من السحرة من انتخبوا.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ﴾ المنتخبة ﴿فِرْعَوْنَ﴾ متظاهرين بطرين، جازمين على غلبتهما لذلك سألوا أولاً الجعل حيث ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: 113] وهم وإن كانوا جازمين في نفوسهم الغلبة أتوا بأن المفيدة للشك للمبالغة في طلب الأجر.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ إن لكم أجرًا كثيرًا ﴿وَ﴾ مع الأجر الكثير ﴿إِنَّكُمْ لَمِنَ المُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف:114] عندي، الحاضرين في مجلسي، المصاحبين معي دائمًا،

قاله تحريضًا وترغيبًا.

وبعدما تقرر عندهم وفي نفوسهم الغلبة، وسمعوا منه ما سمعوا من الإنعام والتقرب ﴿قَالُوا يَا مُوسَى﴾ نادوه استحقارًا له واستهزاء معه، ومسفهًا كيف أقدم مع ضعفه في مقابلتهم: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ أولاً ما جئت به ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:115] أوامره، فلك الخيار؛ إذ الأمر عندنا سواء.

﴿قَالَ﴾ موسى بإلهام الله إياه: بل ﴿أَلْقُوا﴾ ما جئتم بإلقائه أيها الساحرون المبطلون ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ أي: أرادوا الإلقاء ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ حتى لا يتخيلوا أنها أمور غير مطابقة للواقع، بل اعتقدوا مطابقتها ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل المنتظرين لغلبة موسى؛ ليخلصوا من يد العدو إرهابًا شديدًا؛ لأنهم ألقوا حبالاً غلاظًا وخشبًا طوالاً صارت الكل حيات متراكمة متراكبة بعضها فوق بعض ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿جَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:116] متناه في فنه أقصى غاية.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأعراف:117-125].

﴿وَ﴾ بعدما جاءوا بسحرهم العظيم ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت ثعبانًا عظيمًا ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ أخذت ﴿تَلْقَفُ﴾ تبتلع وتلتقم ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف:117] أي: ما يزورونه ويلبسونه سحرًا وشعبذة.

وبالجملة: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ وتحقق الإعجاز ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 118] من السحر والشعبذة في مقابلته.

﴿فَغُلِبُوا﴾ أي: فرعون وملؤه ﴿هُنَالِكَ﴾ في المجمع ﴿وَانقَلَبُوا﴾ أي: رجعوا منه ﴿صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف:119] ذليلين محزونين بعدما خرجوا متكبرين مستغلبين.

﴿وَ﴾ بعدما شاهد السحرة من أمر موسى ما شاهدوا، وانكشفوا بحقيته وصدقه

بجذب رقيق من جانب الحق، وإلهام تام منه سبحانه ﴿أُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾[1] [الأعراف:120] متذللين، واضعين جباههم على تراب المذلة.

وحين سجدوا ﴿قَالُوا﴾ عن ظهر قلوبهم وكمال قبولهم: ﴿آمَنَّا﴾ أيقنا وتحققنا ﴿بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:121].

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:122] أي: الذي ادَّعى الرسالة منه، ودعوا الناس إلى الإيمان به والإطاعة له والتوجه نحوه.

ثم لما رأى فرعون سجود السحرة وسمع إيمانهم ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مغاضبًا بهم مستفهمًا على سبيل الإنكار والتهديد: ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ أي: برب موسى وهارون ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي: قبل أن تشاوروا معي وتعترفوا عندي بغلبتهما عليكم، وقبل أن تستأذنوا مني بالإيمان، فظهر من صنيعكم هذا ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: أمر موسى وهارون وادعاؤهما النبوة والرسالة ﴿لَمَكْرٌ﴾ حيلة وخديعة ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أنتم وموسى ﴿فِي المَدِينَةِ﴾ أي: مصر ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ يعني القبط، وتستولوا أنتم وبنو إسرائيل على ملك مصر بهذه الخديعة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:123] عاقبة أمركم وخداعكم.

﴿لأُقَطِّعَنَّ﴾ اليوم أولاً على رءوس الأشهاد ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ﴾ متبادلتين ﴿ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:124] زمانًا كما يصلب البغاة الذين خرجوا على أولي الأمر والإطاعة.

وبعدما سمع السحرة تهديده ﴿قَالُوا﴾ حين كوشفوا بمآل الأمر وشوهدوا بحقيقة الحال، مستطيبين مستنشطين فرحين: ﴿إِنَّا﴾ بعد خلاصنا عن ربقة ناسوتنا وسلسلة إمكاننا ﴿إِلَى رَبِّنَا﴾ حسب حصة لاهوتنا وحظ وجوبنا ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف:125] صائرون، راجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ

(1) أي: فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كأن ملقياً ألقاهم بغير اختيارهم من قوة إسراعهم، علمًا منهم بأن هذا من عند الله، فأمسوا أتقياء بررة، بعد ما جاءوا في صبح ذلك اليوم سحرة.

لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:126-129].

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا﴾ أيها الطاغي المتجبر المتكبر وتنكر علينا ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا﴾ أيقنا وأذعنا ﴿بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ الذي أظهرنا من كتم العدم، وربانا بأنواع اللطف والكرم ﴿لَمَّا﴾ أي: حين ﴿جَاءَتْنَا﴾ تلك الآيات، وانكشفنا بحقيتها بتوفيق منه وجذب من جانبه، ولو كوشفت أيضًا بما انكشفنا، ارتفع غطاء التعامي وغشاوة الغفلة عن بصرك وبصيرتك، فتشهد بما شهدنا إلا أن الحق سبحانه ختم على قلبك وبصرك وسمعك بالغشاوة الغليظة والحجب الكثيفة؛ لذلك استكبرت واستنكرت، وبالجملة: ﴿مَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

ثم انصرفوا نحو الحق واشتغلوا بالمناجاة معه سبحانه، فقالوا متضرعين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بلطفك وكرمك إلى أن جعلتنا من زمرة شهدائك الذين بذلوا مهجهم في سبيلك طائعين راغبين ﴿أَفْرِغْ﴾ أفض واصبب ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ من عندك متواليًا متتابعًا حين اشتغل هذا الطاغي على قضاء ما هددنا به بحيث لا يغيب عنا شوقك، ولا يغلب على قلوبنا ألم ناسوتنا أصلاً ﴿وَ﴾ حين انقطعت أنفاسنا وخرجت أرواحنا ﴿تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:126] مستقرين على الرضا والتسليم، ثابتين على جادة التوحيد والعرفان بلا تزلزل وتمايل.

ثبت أقدامنا على دينك وتوحيدك يا خير الناصرين.

﴿وَ﴾ بعدما فعل فرعون بالسحرة أنار الله براهينهم ما هددهم به ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سيما بعدما انتشر في أقطار الأرض غلبتهما عليك، ويغيروا طباع الناس عنك، ويوقعوا الفتن بين رعايا بلادك ﴿وَ﴾ بالجملة: أدى أمرهم وإيقاعهم إلى أن ﴿يَذَرَكَ﴾ أي: كل واحد منهم عبادتك ﴿وَ﴾ عبادة ﴿آلِهَتَكَ﴾ التي وضعتها لعبادة عبادك من الأصنام والتماثيل لتتخذوها معبودات وتتوجهوا نحوها ﴿قَالَ﴾ فرعون: لا ندعهم بعد اليوم على ما كانوا عليه من قبل، ولا نستأصلهم أيضًا؛ لئلا ينسب الظلم والعجز إلينا، بل نستضعفهم على

التدريج ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ بعد اليوم ﴿أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي: ذكور أولادهم؛ لئلا يتكثروا ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي: إناث أولادهم حتى نتزوجهن وينزجروا بلحوق العار، وإذا مضى زمان على هذا انقرضوا واستؤصلوا، وكيف لا نفعل بهم ما نقول ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:127] قادرون غالبون.

وبالجملة: لما فعلنا بهم من قبل فيما مضى، هكذا أيضًا الآن حتى لا يتوهم أن موسى هو المولود الذي زعم الكهنة والمنجمون أن ذهاب ملكنا على يده.

ثم لما سمع بنو إسرائيل تهديد فرعون تفزعوا منه وتضجروا، وبثوا الشكوى إلى الله متضرعين ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ تسلية لهم وإزالة لضجرتهم: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ لدفع مضارهم ﴿وَاصْبِرُوا﴾ على أذاهم ولا تقنطوا من نصر الله وعونه واعلموا ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ إيجادًا وتملكًا وتصرفًا ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ﴾ بالجملة ﴿الْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] [الأعراف:128] الذين يتقون عن محارم الله، ويصبرون على ما جاءهم من القضاء.

﴿قَالُوا﴾ يعني: بنو إسرائيل: ﴿أُوذِينَا﴾ من أجلك يا موسى ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء واستحياء النساء ﴿وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أيضًا كذلك ﴿قَالَ﴾ موسى: لا تيأسوا من نصر الله وإنجاز وعده، بل ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ أي: قرب أمر ربكم وإنجاز وعده بإهلاك عدوكم ﴿وَ﴾ بعد إهلاكهم ﴿يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ التي هم فيها ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:129] هل تشكرون نعمه أم تكفرونها أو تعملون من الصالحات أم تفسدون فيها مثلهم؟.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ

---

(1) انظر في هذه الآية إلى جميل أدب سيدنا موسى ﷺ كيف علّم قومه معاملة طريق الله أمرهم بالالتجاء إليه والاستعاذة به والاستغاثة به في تحمل مشقة الصبر ووجدان حسن الرضا في البلاء، وأخبرهم أن مَن كان بالله صبر يكون مظفرًا على جميع المراد ويكون خليفة الله في أرضه. قال أبو عثمان: مَنْ استعان بالله في أموره، وصبر على ما يلحقه في مسالك الاستعانة، أتاه الفرج من الله، قال الله استعينوا بالله واصبروا. قال سهل: أمروا أن يستغيثوا بالله على أمر الله، وأن يصبروا على أدب الله، ولمّا أمرهم بالاستعانة والصبر شكوا عن عقوبة الأعداء لهم. [العرائس].

﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:130-133].

ثم أشار سبحانه إلى إهلاك عدوهم وإنجاز وعده على سبيل التدريج حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ أي: بعدما تعلق إرادتنا بأخذهم وإهلاكهم أخذناهم أولاً بالقحط وقلة الأقوات والغلات ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ التي يتفكهون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:130] أي: يتذكرون أيام الرخاء ويتضرعون نحونا لإعادتها ويصدقون نبينا الذي أرسلنا إليهم لدعوتهم إلى توحيدنا.

وهم من شدة قسوتهم وعمههم لا يتعظون بأمثال هذا، بل ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ الخصب والرخاء وكل ما يسرهم ويفرح نفوسهم ﴿قَالُوا﴾ مغالين: ﴿لَنَا هَٰذِهِ﴾ أي: لأجلنا وسعادة طالعنا، ونحن مستحقون بها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ أحيانًا ﴿سَيِّئَةٌ﴾ مشقة وعناء ومما يشوشهم ويملهم ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ أي: يتطيروا ويتشاءموا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن﴾ آمن ﴿مَّعَهُ﴾ وقالوا: إنما عرض علينا هذا البلاء بشؤم هؤلاء ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها المتنبهون المتوجهون نحو الحق في السراء والضراء ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ﴾ أي: ما يتطيرون به ويتشاءمون بسببه ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته ومشيئته؛ إذ له التصرف بالاستقلال في ملكه والقبض والبسط من عنده وبيده، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:131] فيرون الأسباب والوسائل في البين ويسندون الحوادث الكائنة إليها عنادًا ومكابرة.

﴿وَ﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم وكمال قسوتهم وبغضهم ﴿قَالُوا﴾ مستهزئين منهمكين ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ﴾ أي: أي شيء تحضرنا به ليغلب علينا من سحرك الذي سميته آية نازلة ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ فأت سريعًا إن استطعت ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:132] أي: متى استبطأت وتأخرت.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ إمدادًا لموسى وانتقامًا لهم ﴿الطُّوفَانَ﴾ أي: الماء الذي طاف حولهم ودخل بيوتهم ووصل إلى تراقيهم، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل مع أنها متصلة ببيوتهم ولم يتضرروا - أي: بنو إسرائيل - من الماء أصلاً، ثم لما تضرروا واضطربوا وكادوا أن يغرقوا، تضرعوا إلى موسى وقالوا: ادع لنا ربك يكشف عنا فنؤمن بك، فدعا

فكشف عنهم ونبت من الزرع والكلأ ما لم يعهدوا، فنكثوا عهدهم، ونسبوا دعاءه إلى السحر ﴿وَ﴾ بعد أرسلنا عليهم ﴿الْجَرَادَ﴾ فأكلت زروعهم وثمارهم، وأخذت تأكل السقوف والأبواب والثياب، فتضرعوا إلى موسى، فدعا وانكشف وخرج إلى الصحراء مشيرًا بعصاه نحو الجراد يمنة ويسرة، فتفرقت إلى النواحي والأقطار فنكثوا.

﴿وَ﴾ أرسلنا بعدها ﴿الْقُمَّلَ﴾ دودًا أصفر من الجراد، قيل: إنها حدثت من الجراد، فأخذت أيضًا تأكل ما بقي من الجراد وتقع في الأطعمة وتدخل بين أثوابهم فتمص دماءهم، ففزعوا إليه فكشف عنهم، فقالوا: علمنا الآن إنك ساحر عليم ﴿وَ﴾ بعد ذلك أرسلنا ﴿الضَّفَادِعَ﴾ بحيث لا يخلو مكان منها، وتبث إلى قدورهم وأوانيهم وأفواههم حين تكلموا، ففزعوا نحوه معاهدين، فخلصوا بدعائه ثم نقضوا ﴿وَ﴾ بعد ذلك أرسلنا ﴿الدَّمَ﴾ حيث صار المياه كلها عليهم دماءً حتى كان القبطي والإسرائيلي يجتمعان على إناء فيصير ما يلي القبطي دمًا وما يلي السبطي ماء، ويمص القبطي ماء من فم السبطي فيصير دمًا.

وإنما أرسلت عليهم هذه البليات لتكون ﴿آيَاتٍ﴾ أي: دلائل وعلامات دالة على كمال قدرتنا ﴿مُفَصَّلاتٍ﴾ مبينات واضحات مميزات بين الهداية والضلالة والحق والباطل والرشد والغي ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عنها مع وضوحها وسطوعها وأعرضوا عن مدلولاتها وأصروا على ما هم عليها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:133] مستحقين بالعذاب والعقاب، فلم ينفعهم الآيات والنذر؛ لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم.

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأعراف:134-137].

﴿وَ﴾ كانوا ﴿لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾[1] أي: حين وقع ونزل عليهم البلاء والمصيبة ﴿قَالُوا﴾ متضرعين متفزعين: ﴿يَا مُوسَى﴾ الداعي للخلق إلى الحق ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرامات ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ من إجابة دعواتك وقبول حاجاتك، والله ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ بدعائك ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ مصدقين رسالتك ونبوتك ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف:134] بلا ممانعة ولا مماطلة.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾ بدعائه ﴿إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ﴾ عينوه لأيمانهم وإرسالهم حتى يتأملوا ويتفكروا فيها ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف:135] أي: بعدما وصل وقت الوفاء والإيفاء بالعهود والمواثيق، بادروا إلى النقض والنكث.

ثم لما بالغوا في أمر النقض والنكث وخالفوا أمرنا وكذبوا نبينا ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: أردنا انتقامهم وأخذهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: البحر العميق لانهماكهم في بحر الغفلة والطغيان ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة الموصلة إلى توحيدنا الذاتي ﴿وَكَانُوا﴾ بسبب استغراقهم في بحر الغفلة والضلال ﴿عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:136] محجوبين لا يهتدون بإهداء الرسل والأنبياء.

﴿وَ﴾ بعدما أغرقناهم في يم العدم واستأصلناهم عن فضاء الوجود ﴿أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالقهر والغلبة بقتل الأبناء واستحياء النساء ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ﴾ المعهود؛ أي: مصر ومشارقها الشام ونواحيها ﴿وَمَغَارِبَهَا﴾ الصعيد ونواحيها ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي: كثرنا فيهم الخير والبركة وسعة الأرزاق وطيب العيش من جميع الجهات ﴿وَ﴾ بعدما أورثناهم ما أورثناهم ﴿تَمَّتْ﴾ أي: كملت وحقت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ يا موسى بإنجاز الوعد والنصر والظفر وإيراث الديار والأموال، وغير ذلك ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسبب ما صبروا على أذياتهم المتجاوزة عن الحد ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أي: هدمنا وخربنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من الأبنية الرفيعة

---

(1) في «تفسير الخازن» (85/3): يعني لما نزل بهم العذاب الذي ذكره في الآية المتقدمة هو الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت فنزل بهم الطاعون حتى مات منهم في يوم واحد سبعون ألفًا فأمسوا وهم لا يتدافنون عن أبي أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه».

والقصور المشيدة ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:137] عليها متفوقين بطرين كمسرفي زماننا هذا، أحسن الله أحوالهم.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾ [الأعراف:138-140].

ثم أشار إلى قبح صنيع بني إسرائيل وخبث طينتهم وجهلهم المركون في جبلتهم وسخافة طبعهم، وركاكة فطنتهم؛ تسلية لرسول الله ﷺ وتذكيرًا للمؤمنين ليحترزوا عن أمثال ما أتوا به، فقال: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: عبرناهم سالمين غانمين ﴿الْبَحْرَ﴾ الذي أهلك عدوهم ﴿فَأَتَوْا﴾ أي: مروا في طريقهم ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من بقية العمالقة ﴿يَعْكُفُونَ﴾ يعبدون ويقيمون ﴿عَلَى أَصْنَامٍ﴾ تماثيل كانت معبودات ﴿لَهُمْ﴾ من دون الله.

﴿قَالُوا﴾ من قسوة قلوبهم وضعف يقينهم بالله المنزه عن الأشباه والأمثال ﴿يَا مُوسَى﴾ المبعوث المرسل إلينا من الله الواحد الأحد ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾ مثالاً واحدًا مشابهًا لله نعبده ونتقرب نحوه ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يعبدونها ويتقربون نحوها، ونحن كيف نعبد ونتقرب إلى إله موهوم لا نراه ولا نشاهده؟ وكيف نتضرع إليه ونتوجه نحوه ونستحي منه ونخاف عنه؟ ثم لما تفرس منهم موسى ما تفرس من الحجاب الكثيف والغشاوة الغليظة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:138] تستمرون على جهلكم الجبلي، لم يؤثر فيكم الآيات الكبرى والبراهين العظمى، ولم تتفطنوا بالتوحيد الذاتي مع وضوحه في ذاته سيما بعد الإيضاح بالآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة.

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ العاكفين الضالين ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلك معدوم ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ من عبادة التماثيل الباطلة العاطلة الهالكة في أنفسها، لا وجود لها أصلاً ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:139] لها ولأجلها من الإطاعة والانقياد؛ إذ هو إشراك بالله الواجب الوجود، المستقل بالألوهية ما لا وجود له أصلاً.

ثم: ﴿قَالَ﴾ موسى متأسفًا مقرعًا: ﴿أَغَيْرَ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الذي ليس كمثله شيء أصلاً ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ وأطلب لكم أيها الحمقى العمي، الضالون في تيه الغفلة

﴿إِلَهًا﴾ من مصنوعاته يعبد له بالحق ويتقرب إليه ﴿وَ﴾ الحال إنه ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:140] إذ لا مظهر له أكمل منكم، فكيف تعبدون المفضول المرذول، وما عرض عليكم أيها الجاهلون لم تعرفوا مرتبتكم الجامعة الكاملة، وعليكم أن تعدوا نعم الله التي أنعمها عليكم لعلكم تنبهون على توحيد المنعم.

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف:141-142].

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حين ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ﴾ أي: يعلمونكم به، وذلك إنهم ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ حتى لا تستكثروا وتستظهروا بهم ﴿وَ﴾ أقبح منه أنهم ﴿يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ليلحق العار عليكم بتزويجهن بلا نكاح ﴿وَ﴾ لكم ﴿فِي ذَلِكُم﴾ المذكور من العذاب ﴿بَلاءٌ﴾ اختبار وابتلاء ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1] [الأعراف:141] فأنجيناكم منه؛ لتقيموا بذكرنا وتواظبوا بشكر نعمنا وتفطنوا بتوحيدنا واستيلائنا، ومع ذلك لم تتنبهوا.

﴿وَ﴾ اذكروا، إذ ﴿وَاعَدْنَا مُوسَى﴾ قبل إهلاكنا فرعون بأن أخلص لنا ﴿ثَلاثِينَ لَيْلَةً﴾ من ذي القعدة بأن صام فيها وصلى بعد هلاك عدوه، نتزل عليه من عندنا كتابًا نبيّن له فيه التدابير المتعلقة لأمور معاش بني إسرائيل ومعادهم، ثم لما أهلكنا العدو فذهب موسى إلى ميقاتنا إنجازًا لوعدنا ﴿وَ﴾ قبل ما تم المدة المذكورة أنكر خلوف فمه فتسوك قالت الملائكة:كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك لذلك ﴿أَتْمَمْنَاهَا﴾ أي: مدة ميقاتها بأن أمر موسى كفارة لما فوت بالسواك ﴿بِعَشْرٍ﴾ أي:

(1) قال في التأويلات: يعني: وكان في استخدام صفات القلب النفس وصفاتها بأن يعمل الصالحات رياء وسمعة؛ لجذب المنافع الدنيوية لحظوظ النفس بلا تعظيم من ربكم، فخلصكم منه لئلا تطلبوا غيره ولا تبعدوا سواه، فلا تركنوا إلى الروحانية ولا المعقولات؛ كي تظفروا بمراتب الوصول ودرجات الوصال.

بعشرة أيام من ذي الحجة ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وبعدما أتمها فأنزلنا إنجازًا لوعدنا التوراة المبين لهم الأحكام الدنيوية والأخروية، وذلك من أعظم النعم.

﴿وَ﴾ اذكر أيضًا، إذ ﴿قَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي﴾ عني ﴿فِي قَوْمِي﴾ واذكر لهم مما يتعلق بأمور معاشهم ومعادهم نيابة عني ﴿وَأَصْلِحْ﴾ بينهم، واحفظ عن زيغ أهل الضلال ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ﴾ أنت ومن معك ﴿سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:142] الذين يفسدون عقائد ضعفاء الأنام بالتمويهات الباطلة، ومع ذلك اتبعتم السامري من خبث طينتكم.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف:143-145].

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿لَمَّا﴾ أي: حين ﴿جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ المبعوث إليكم لإصلاح حالكم ليناجي معنا ﴿وَ﴾ من غاية اللطف والجود ﴿كَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[1] أي: كلم معه مرتبته

---

(1) وفي قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ إشارة إلى تفضله لموسى ﷺ لما جاء بنعت الشوق والهيمان والعشق والهيجان بخطرات الوالهين إلى موعد رب العالمين، وصار موسى ﷺ فانيًا عن موسى ﷺ ولم يبق في موسى ﷺ إرادة موسى ﷺ بنعت التحير في موقف الفناء على جناب القدم والبقاء، ولم يعلم من تحيره أين هو؟ وأين يطلب؟ وأين يفرّ؟ حيث لا حيث علم سبحانه أنه في ذهاب اللهاب، فكلمه بالبداهة فطار سرّ موسى ﷺ في هواء الهوية، وطار روح موسى ﷺ في سماء الديمومية، وطار عقل موسى ﷺ في فقار الأحدية، وطار قلبه في أنوار الوحدانية، وكان كلا شيء الأول كلام التعظيم والهيبة والأخرة كلام اللطف والبسط ففنا في الأول وبقي في الثاني، ولولا لطفه وكرمه بكليمه كان يتلاشى في أول خطاب، ولكن من عطفه ورحمته اسمع عجائب كلامه كليمه؛ ليعرفه بكلامه لأن كلامه مفاتيح لكنوز الصفات والذات. ولولا اصطفائيته الأزلية لموسى ﷺ واختياره بالتكليم معه، وإنه لم يخل في طول عمره عن كلامه ووحيه وإلهامه في كل نفس لم يبق في الميقات عند بداهة خطابه أثره وبصفه لذة كلامه وحلاوة

التي حصل له وانكشف بها من الله؛ إذ لكل أحد بل لكل ذرة من ذرائر المظاهر مرتبة خاصة وظن مخصوص بالنسبة إلى الله؛ لذلك قال سبحانه:«**أنا عند ظن عبدي بي**»[1].

وأعلى المراتب وأسناها مرتبة النبوة والرسالة على تفاوت طبقاتها، ثم الأمثل فالأمثل، كما انبسط موسى وانكشف من ربه بما انكشف، حيث سمع كلامه من جميع الجوانب بلا واسطة ووسيلة من مَلك وغيرها، بلا تلفظ وتقطيع حروف، اضطرب ووله ومن غاية ولهه وسكره تسارعه إلى انكشاف أجلى منه ﴿**قَالَ**﴾ بعد سماع كلامه سبحانه: ﴿**رَبِّ أَرِنِي**﴾ يا ربي، فإنك تنزهت عن المقابلة والمحاذاة والمماثلة والمحاكاة، كما أسمعتني كلامك المنزه عن الحروف والأصوات وتقطيع الكلمات ﴿**أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ ببصري كما سمعت كلامك بسمعي.

﴿**قَالَ**﴾ سبحانه: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾ يا موسى مادمت في جلباب تعينك وغشاوة هويتك ﴿**وَلَكِنِ**﴾ إن أردت أن تعرف استعدادك لرؤيتي ﴿**انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ**﴾ حين تجليت عليه بهويتي المسقطة لهوياتها مطلقًا ﴿**فَإِنِ اسْتَقَرَّ**﴾ وثبت عندك ﴿**مَكَانَهُ**﴾ بعدما أتجلى عليه بذاتي، إن بقي على هويته التي هويته هو فيها قبل التجلي ﴿**فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ أي: فيمكنك أن تراني لهويتك ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**﴾ مدكوكًا مفتتًا متلاشيًا كأن لم يكن أصلاً حيث اضمحلت جميع تعيناته الباطلة ﴿**وَ**﴾ بعدما رأى الكليم ما رأى ﴿**خَرَّ**﴾ أي: سقط ﴿**مُوسَى**﴾ بعدما نظر نحوه فلم يره ﴿**صَعِقًا**﴾ حائرًا هائمًا قلقًا مغشيًا، كأنه انفصل عن لوازم هويته ﴿**فَلَمَّا أَفَاقَ**﴾ موسى عن ولهه وسكره

خطابه يا ليتني لو أن لي لسانا أزليًا من ألسنة القدم، لأصف به تلك الحلاوة؛ لكن لا يفهم مَنْ لَم يذق طعمه، ولمّا طاب ذقته من لذيذ خطابه سكر من شراب بحر وصاله، هاج شوقه إلى طلب مزيد القربة وكشف المشاهدة؛ فأطلق لسان البسط وخطا خطوات الانبساط وهتك ستر الحياء عن وجه المحبة، وغاص في بحر الجرأة، حتى كان حاله ما أخبر الله سبحانه عند بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾. غلب عليه مواجيد الوصالية فخرج من مشيمة الأمر وأسقط في مقام العشق والسكر رسوم الأدب فسكره استنطقه بطلب دنو الدنو وشهوده عين العين؛ لأن نسيم برد المشاهدة يحويه بلطائف الوصلة، فلم يبق له قرار ولم يجد من ساكن السكر مفرًا، وكيف يكون السكون للعاشق عن طلب مشاهدة المعشوق في فنائه؟ حيث دنا الشائق من المشوق. [العرائس].

(1) رواه مسلم (2067/4، رقم 2675)، والترمذي (596/4، رقم 2388) وقال: حسن صحيح، وأحمد (445/2، رقم 9748).

وانكشف من ربه بما انكشف أنه لا يرى الله إلا الله ﴿قَالَ﴾ مستحييًا منيبًا خائفًا مستنزهًا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أن يحيط بك أحد من مصنوعاتك ﴿تُبْتُ﴾ ورجعت ﴿إِلَيْكَ﴾ يا ربي بما اجترأت من سؤل ما ليس في وسعي وطاقتي ﴿وَ﴾ بعدما عرفتك الآن عرفانًا أكمل وانكشفت منك يا ربي ما لم أنكشف له من قبل ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143] الموقنين بعظمتك وجلالك؛ إذ لا اعتداد لإيماني من قبل.

ثم لما استحى موسى من الله وندم عن سؤله بلا استئذان منه سبحانه، تغمم وتحزن من اجترائه بما ليس في وسعه، أزال الله سبحانه ما عرض عليه من الندم والخجل حيث ﴿قَالَ﴾ سبحانه مناديًا: ﴿يَا مُوسَى﴾ المستخلَف من عندي ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ اخترتك ﴿عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي﴾ أي: بتحميل أحكامي وأوامري وتذكيري حتى توصلها إلى عبادي نيابة عني ﴿وَ﴾ خصصتك من بين الرسل ﴿بِكَلامِي﴾ أي: سماعه بلا كيف ولا حرف، وبلا واسطة مَلَك وسفير ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ تفضلاً عليك بقدر وسعك واستعدادك، ولا تبادر إلى سؤل ما لا طاقة لك ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:144] لنعمه، واصرفها على الوجه الذي أمرناك به من المصارف ووفقناك عليه، ولا تكن من الكافرين لنعمنا، المنصرفين عن أوامرنا وأحكامنا؛ لتفوز منا بالرضا الذي هو أحسن أحوال أرباب الكشف والشهود.

﴿وَكَتَبْنَا﴾ من جملة اصطفائنا وإنعامنا إياه إنا كتبنا ﴿لَهُ﴾ أي: أثبتنا لأجل تربيته وإرشاده ﴿فِي الأَلْوَاحِ﴾ أي: ألواح التوراة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يتعلق بتهذيب الظاهر والباطن ﴿مَّوْعِظَةً﴾ تذكرة وتبيانًا يتعظ بها هو ومن تبعه ﴿وَتَفْصِيلاً﴾ توضيحًا وتبيينًا متعلقًا ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لكل حكم من الأحكام المتعلقة بأمور معاشهم ﴿فَخُذْهَا﴾ أي: فقلنا له:خذها أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿بِقُوَّةٍ﴾ عزيمة صادقة وجزم خالص ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾ أيضًا ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ يعني: بعزائمها دون رخصها حتى تستعد نفوسهم لأن يفيض عليها من المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات التي هي عبارة عن الجنة المأوى والمرتبة العليا عند العارف، ولا تميلوا عنها وعن أحكامها حتى لا يلحقوا بزمرة الفساق المنحطين عن مرتبة الإنسانية ﴿سَأُرِيكُمْ﴾ في النشأة الأخرى أيها المائلون عن مقتضى الأحكام الإلهية التي هي صراط الله الأقوم ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:145] التي هي جهنم الحرمان وجحيم الخذلان.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ

لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: 146-147].

ثم قال سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ﴾ أي: أميل وأغفل ﴿عَنْ آيَاتِيَ﴾ الظاهرة في الآفاق والأنفس الدالة على توحيدي واستقلالي في التصرفات الكائنة في الآفاق، القوم ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ ويمشون خيلاً ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ويظلمون فيها ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم ﴿وَ﴾ هم من نهاية جهلهم المركوز في جبلتهم ﴿إِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ دالة على الصدق والصواب ﴿لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ عتوًا وعنادًا ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ الصدق والصواب ﴿لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ لعدم موافقة طباعهم ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ﴾ والضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ لميل نفوسهم نحوه بالطبع، كل ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الصرف والانحراف والأهواء الباطلة والآراء الفاسدة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ من غاية انهماكهم في الضلال ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا المنزلة على رسلنا ﴿وَكَانُوا﴾ من غاية جهلهم ﴿عَنْهَا﴾ وعن الامتثال بها والعمل بمقتضاها والتدبير في معناها ﴿غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:146] غفلة لا تيقظ لهم منها أصلاً، نبهنا بلطفك عن نومة الغافلين.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الظاهرة عن أوصافنا الذاتية في النشأة الأولى ﴿وَلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ أي: كذبوا برجوع الكل إلينا في النشأة الأخرى، أولئك الأشقياء المردودون هم الذين ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وضاعت وخسروا فيها في الأولى والأخرى ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ بإحباط الأعمال ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:147] أي: جزاء ما يقترفون ويكتسبون لأنفسهم من تكذيب الآيات والرسل المنبهين لها المبينين لمقتضاها.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ

أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾ [الأعراف: 148-151].

﴿وَ﴾ من جملة الأسباب الموجبة لإحباط أعمالهم: اتخاذهم العجل إلهًا، وذلك أنه ﴿اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ذهابه إلى الميقات عند ربه ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي ورثوها من القبط بتعليم السامري إياهم ﴿عِجْلًا﴾ صورة عجل، وبعدما أذابوا الحلي وصاغوها ألقى السامري عليها ما قبض من تراب حافر فرس جبريل فصارت ﴿جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾[1] صوت كصوت البقر، فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى فاتخذوها إلهًا، مع أنهم صاغوها بأيديهم من حليهم، أيأخذون العجل المصنوع إلهًا

---

(1) كأن القوم في طلب الحق غلب عليهم رعونات الطبيعة من جهة ما شموا بعض روائح القرب، فصار في قلوبهم حلاوة فباشرت تلك الحلاوة قلوبهم، ولم يكن غالبًا يفني صفات الإنسانية منها، فاختلط ذلك الحظ بحظوظ البشرية، فلمّا هاجت حلاوة البشرية غابت حلاوة القرب، وعشقه في عشق الإنسانية وحظ البشرية، فطلبت القلوب المطلوب بعد ذلك في كل منظور من الحدثان على صورة المخاييل، لأن حظوظ بشريتهم أورثت في قلوبهم الخيالات المختلفة فسقطوا عن رؤية التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث، وبقوا في طلب الخيال وبحثه عن كل شيء، فكل متحرك يتحرك لهم قبلوه بالمعبود من قصورهم عن كمال العشق وحقائق التوحيد، فكسا الحق سبحانه العجل كسوة من قهر ربوبيته امتحانًا للقوم، فوقعوا في حسن اللباس واحتشموه، واحتجبوا من رؤية القهر والامتحان، ولو خرجوا من أوائل الالتباس لأحرقوه كما أحرقه موسى ﷺ وكذا حال مَنْ لم يبلغ إلى درجة التوحيد، وبقي في رعونة العشق حتى يؤول حلاله إلى حد غار عليه التوحيد والجاه إلى القتل؛ لأنه بقي في رؤية غير الله، والمشرك في التوحيد وجب قتله في طريق المعرفة، ألا ترى أن الله سبحانه أمرهم بقتل أنفسهم بقوله: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. قال سهل: عجل كل إنسان ما أقبل عليه وأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد فناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا من بعد قتلهم أنفسهم. وقال الأستاذ: لم يظهر قلوبهم في ابتداء أحوالهم عن توهم الظنون، ولم يتحققوا بخصائص القدم وشروط الحدوث، فعثروا عن أقدام ذكرهم في وهاد المغاليط. ويقال: إن أقوامًا رضوا بالعجل أن يكون معبودهم، شمت أسرارهم نسيم التوحيد، هيهات لا ولا من لاحظ جبرائيل أو ميكائيل أو العرش والثرى أو الخلق والورى.

أولئك الهالكون في تيه الغفلة والنسيان.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: لم يعلموا ولم يتفطنوا ﴿أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: المصوغ المصنوع لا يكلمهم بكلامٍ دال على إصلاح حالهم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾ ويرشدهم ﴿سَبِيلاً﴾ أي: الخير والصواب حتى يستحق للعبودية، بل ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ معبودًا ظلمًا وزورًا ﴿وَكَانُوا﴾ في أنفسهم ﴿ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف:148] خارجين مجاوزين عن مقتضى العقل والنقل.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ظهر ندمهم عن فعلهم، واشتد فيهم تجهيل نفوسهم وتخطئة عقولهم، ولاح عندهم قبح صنيعهم هذا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿رَأَوْا﴾ وعلموا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ بهذه الغفلة القبيحة عن مقتضى العقل والنقل ﴿قَالُوا﴾ متضرعين مسترجعين خائفين، خجلين: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بسعة رحمته وجوده ﴿وَ﴾ لم ﴿يَغْفِرْ لَنَا﴾ ما جئتنا به ولم يتجاوز عنا ما فرطنا فيه ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:149] خسرانًا عظيمًا في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ بعدما وقع فيهم ما وقع، وسمع ما سمع صار ﴿غَضْبَانَ﴾ أي: استولى عليه غضبه حمية وغيرة ﴿أَسِفًا﴾ متأسفًا متحزنًا؛ لضلال قومه ﴿قَالَ﴾ مغاضبًا: ﴿بِئْسَمَا﴾ أي: بئس شيئًا ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾ أي: أبدعتم خلفي ﴿مِن بَعْدِي﴾ أي: من بعد ذهابي إلى ربي؛ لأزيد صلاحكم وإصلاحكم أيها المسرفون المفرطون فازددتم الضلال، واستوجبتم النكال ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ أيها الحمقى ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: عذابه وعقابه ﴿وَأَلْقَى﴾ من غضبه ﴿الأَلْوَاحَ﴾ التي كانت بيده من التوراة فانكسر منها واضمحل ما يتعلق بتفصيل الأحكام، وبقي المواعظ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون، أي: من شعر رأسه؛ من غاية غضبه وغيظه ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى نفسه؛ زجرًا له وتشددًا عليه كيف لا يحفظهم، ولا ينكر عليهم؛ حتى لا يضلوا ولا يكفروا باتخاذ العجل لها؟ ﴿قَالَ﴾ هارون معتذرًا متحزنًا: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ أضافه إلى الأم استعطافًا ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ حين أظهرت الإنكار عليهم، وأردت أن أصرفهم عمّا هم عليه، وصاروا بأجمعهم أعدائي، بل ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ لشدة غيظهم عليّ وعداوتهم معي، وأنت أيضًا تغضب عليّ وتجر رأسي، وهم يفرحون ويضحكون بغضبك عليّ وزجرك إياي ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ ولا تُفرح يا أخي ﴿بِيَ الأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي﴾ شريكًا ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:150] الخارجين عن مقتضى العقل والنقل.

ثمّ لمّا سمع موسى من هارون ما سمع ندم عن فعله وعن سوء الأدب مع أخيه،

لأنه أكبر منه سنًا، واسترجع إلى الله حيث ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ عمَّا صنعت مع أخي مع أنه بريء مما نسبت إليه ﴿وَ﴾ اغفر أيضًا ﴿لأَخِي﴾ فلم يتقاعد ويتقاصر في إنكار هؤلاء المضلين المتخذين لك شريكًا من أدنى مخلوقاتك ﴿وَأَدْخِلْنَا﴾ بفضلك وجودك ﴿فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:151].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[الأعراف:152-155].

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ﴾ المصوغ إلهًا بمجرد الخوار الذي صدر منه ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ وينزل عليهم في النشأة الأخرى ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يطردهم ويبعدهم عن ساحة عز حضوره ﴿وَذِلَّةٌ﴾ صغار وهوان ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ﴾ في النشأة الأولى والأخرى ﴿نَجْزِي المُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف:152] المشركين لنا غيرنا من مخلوقاتنا؛ افتراءً ومراءً.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قصدًا وخطأً ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ ورجعوا نحونا نادمين ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد توبتهم ﴿وَ﴾ الحال أنه قد كان توبتهم مقرونة بالإيمان بأن ﴿آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه، ورسله ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد ما جاءوا بالتوبة عن ظهر القلب ﴿لَغَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من الذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:153] يقبل توبتهم بعدما وفقتهم بها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي: سكن وذهب ﴿عَن مُّوسَى الغَضَبُ﴾ الذي استولى عليه إلى حيث ألقى ألواح التوراة، وأخذ شعر أخيه يجره ﴿أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾ المنكسرة المتلاشية وإن انكسر ما فيها تفصيل كل شيء ﴿وَ﴾ قد بقي منها ما ﴿فِي نُسْخَتِهَا﴾ أي: ما نسخ ورقم عنها سالمة عن الانكسار ﴿هُدًى﴾ أي: أوامر ونواهي توصلهم إلى توحيد الحق

إن امتثلوا به وقبلوا ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ تنجيهم عن الضلال إن اتصفوا بها، كل ذلك حاصل ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:154] أي: يخافون من الله؛ طلبًا لرضاه لا لغرض آخر من الرياء والسمعة، بل من طلب الجنة وخوف العذاب أيضًا.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك قصة الكليم حين ﴿اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾[1]

---

(1) الإشارة فيها: إن الله تعالى امتحن موسى ﷺ باختيار قومه، كما قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ ليعلم أن المختار من الخلق من اختاره الله الذي اختاره الخلق، وإن لله الاختيار الحقيقي؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:68] وليس للخلق الاختيار الحقيقي لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:68] ثم استخرج من القوم المختار ما كان موجبًا للرجفة والصعقة والمهالك وهو: سوء الأدب في سؤال الرؤية جهارًا، وكان ذلك مستور عن نظر موسى ﷺ متمكنًا في جبلتهم وكان الله المتولي للسرائر، وحكم موسى بظاهر صلاحيتهم فأراه الله تعالى إن الذين اختارهم يكون مثلك لقوله تعالى ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه:13]، والذي يختاره يكون كالقوم، فلما تحقق موسى ﷺ أن المختار من اختاره الله حكم بسفاهة القوم، وأظهر الاستكانة والتضرع والاعتذار والتوبة والإنابة والاستغفار والاسترحام، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف:155] وفيه إشارة أخرى: إن نار شوق الرؤية كما كانت متمكنة في قلب موسى ﷺ بالقوة، وإنما ظهرت بالفعل بعد أن سمع كلام الله تعالى، فإن من اصطكاك حجر القلب ظهرت شرر نار الشوق فاشتعل منه كبريت اللسان الصدوق وصعدت شعلة السؤال، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143]، كذلك كانت نار الشوق متمكنة في أحجاره قلوب العوام فباصطكاك زناد سماع الكلام ظهر شوق الشرر فاشتعل منه كبريت اللسان، ولما لم يكن اللسان لسان النبوة صعد منه دخان السؤال الموجب للصعقة والرجفة؛ والسر فيه أن يعلم موسى ﷺ وغيره إن قلوب العباد مختصة بكرامة إيداع المحبة فيها؛ لئلا يظن موسى أنه مخصوص به، ويعذره غيره عن تلك المسألة فإنها من غلبات الشوق فظهر عند استماع كلام المحبوب؛ ولهذا قال ﷺ: «ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه»(1) وبالأصبعين يشير إلى: صفات الجمال والجلال، وليس لغير الإنسان قلب مخصوص بهذه الكرامة، وإقامة القلب في أن يجعله مرآة صفات الجمال فيكون الغالب عليه الشوق والمحبة لطفًا ورحمة، وإزاغته في أن يجعله مرآة صفات الجلال فيكون الغالب عليه الحرص على الدنيا والشهوة قهرًا وعزة، فالنكتة فيه أن قلب موسى ﷺ لما كان مخصوصًا بالاصطفاء للرسالة والكلام دون القوم كان سؤاله للرؤية شعلة نار المحبة مقرونًا بحفظ الأدب على بساط القرب بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143] قدم عزة الربوبية وأظهر ذلة العبودية وكان سؤال القوم من القلوب الساهية اللاهية، فإن نار الشوق تصاعدت بسوء الأدب، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾

أي: اختار وانتخب موسى بإذن منا من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا﴾ فانتخب من كل سبط من الأسباط الاثني عشر ستة نفر فزاد على المبلغ اثنين، فأمر موسى بتقاعدهما فتخاصموا وتشاجروا في تعيينهما، إلى أن قال موسى: إن أجر من قعد مثل أجر من صعد، بل أكثر فقعد كالب ويوشع، وذهب موسى معهم، فلما دخلوا شعب الجبل وأرادوا الصعود غشيته غمام كثيف مظلم، فدخلوا الغمام وخروا سجدًا، فسمعوا يتكلم سبحانه مع موسى يأمره وينهاه، وهو يناجي مع ربه.

فلمّا تم الكلام وانكشف الغمام قالوا بعدما سمعوا كلامه سبحانه مستكشفين عن ذاته: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً ظاهرة، منكشفة ذاته لأبصارنا، كما انكشف كلامه لأسماعنا، فأخذتهم الرجفة؛ بسبب سؤالهم هذا ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الصاعقة النازلة من قهر الله وغضبه؛ لطلبهم ما ليس في وسعهم واستعدادهم ﴿قَالَ﴾ موسى مشتكيًا إلى الله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾ أي: لو تعلقت مشيئتك لإهلاكهم لِمَ لَمْ تهلكهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إسماعهم كلامك؟ ﴿وَإِيَّايَ﴾ أيضًا؛ أي: لِمَ لَمْ تهلكني؛ حتى لا تنسب إليّ إهلاكهم عند عوام بني إسرائيل وتشأمهم بي من غاية اضطرابه؟ ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ بالصاعقة الشديدة يا رب ﴿بِمَا فَعَلَ﴾ أي: بسبب سؤال سائل ﴿السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ صدر عنهم هفوة بلا علم لهم بعظمتك وجلالك وحق قدرك وعزك.

بل ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: هل هي ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ اختبارك، ابتلاؤك إياهم، بأن أسمعت لهم كلامك فأوقعتهم بهذه الفتنة؛ إذ أنت ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: بفتنتك ﴿مَن تَشَاءُ﴾ من عبادك، بأن اجترءوا بعد انكشافك عليهم نوع انكشاف إلى انكشاف أعلى منه وأجلى فضلوا وكفروا بلا علم لهم إلى مقتضى استعداداتهم ﴿وَتَهْدِي﴾ بها ﴿مَن تَشَاءُ﴾ بأن سكتوا عن السؤال مطلقًا، وفوضوا أمورهم كلها إليك ولا يسألون عنك ما لم يستأذنوا منك، والكل بيدك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ ومولي أمورنا، ومولى نعمنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما جرى علينا من المعاصي والآثام ﴿وَارْحَمْنَا﴾ برحمتك الواسعة تفضلاً علينا وامتنانًا، واعف عنا بفضلك وجودك

[البقرة:55] قدموا الجحود والإنكار وأخروا طلب الرؤية جهارًا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: 55] بظلمهم، فشتان بين صعقة موسى ﷺ وبين صعقة قومه، وإن صعقته كانت صعقة اللطف مع تجلي الربوبية، وإن صعقتهم كانت صعقة القهر عند إظهار العزة والعظمة، ولمّا كان موسى ﷺ في مقام التوحيد ثابتًا كان ينظر بنور الوحدة فيرى الأشياء كلها من عند الله تعالى، فرأى سفاهة القوم وما صدر منهم من آثار صفات قهره فتنة واختبارًا لهم. [التأويلات النجمية].

﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف:155] الساترين ذنوب العصاة المسرفين.

﴿۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:156-157].

﴿وَاكْتُبْ لَنَا﴾ يا ربنا ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ لا توقعنا في فتنتك ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ أيضًا حسنة توصلنا إلى رزق توحيدك ﴿إِنَّا﴾ بعدما تحققنا بعلو شأنك وسمو برهانك ﴿هُدْنَا﴾ أي: تبنا ورجعنا ﴿إِلَيْكَ﴾ من أن نسأل منك ما ليس لنا علم به، سيما بعدما يتعلق بذاتك ﴿قَالَ﴾ سبحانه متفردًا برداء العظمة والكبرياء: ﴿عَذَابِي﴾ ونكالي ﴿أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ من عصاة عبادي ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من المطيعين والعاصين وغيرهم ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ وأثبتها حتمًا ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ عن المحارم مطلقًا؛ طلبًا لمرضاتي ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ تطهيرًا لنفوسهم عن الشح المطاع، الموجب للقسوة والغفلة ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا﴾ أي: بجميعها ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:156] يوقنون ويمتثلون بمقتضاها.

وهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ المرسل بالتوحيد الذاتي ﴿النَّبِيَّ﴾ المتمم لمكارم الأخلاق ﴿الأُمِّيَّ﴾[1] المتحقق، المخصوص بالعلم اللدني الملقاة له من ربه بلا واسطة

---

(1) قال نجم الدين في «التأويلات»: إشارة إلى أن في أمته من يكون مستعدًا لإتباعه في هذه المقامات الثلاثة وهي: مقام الرسالة والنبوة: التي هي شركة بينه وبين الأنبياء والرسل، والمقام الأمي: الذي هو مخصوص به ﷺ من بين الأنبياء - عليهم السلام -، ومعنى الأمي: إنه كان أم الموجودات وأصلها سمي أمها، كما سميت مكة أم القرى؛ لأنها كانت مبدأ القرى وأصلها، وكما سمي أم الكتاب إما؛ لأنه مبدأ الكتب وأصلها، فأما إتباعه في مقام الرسالة فإنه يأخذ منه ما أتاه الرسول وينتهي عما نهاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:7]. فإن الرسالة تتعلق بأحكام الظاهر، والنبوة تتعلق بأحكام الباطن، فللعوام

كسب وتعليم من معلم، وهو ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ أي: جميع أهل الكتب ﴿مَكْتُوبًا﴾ في كتبهم بعثته ودينه، واسمه وحليته وجميع أوصافه ثابتًا ﴿عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ بأنه إذا بعث ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي يحرمونها على نفوسهم ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ التي يحللونها.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي: ثقلهم الذي يترهبون ويتزهدون فيه فوق طاقتهم، كقطع الأعضاء والجوارح التي يخطئون بها، وقطع موضع النجاسة من الثياب وغير ذلك ﴿وَ﴾ يضع أيضًا ﴿الأَغْلالَ﴾ أي: التكاليف الشاقة ﴿الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ حين ظهوره ودعوته ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: وقروه حق توقيره وتعظيمه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ تقويةً لدينه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ أي: القرآن ﴿الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ من عند الله تأييدًا له وتصديقًا ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، الموفقون من عنده باتباعه ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:157] المقصورون من عنده على الفلاح والفوز بالنجاح.

﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ

شركة مع الخواص في الانتفاع من الرسالة، وللخواص اختصاص بالانتفاع من النبوة، فمن أدى حقوق أحكام الرسالة في الظاهر يفتح له أحوال النبوة في الباطن، من مقام الأنبياء تنبئة الحق تعالى بحيث يصير صاحب الإشارات والإلهامات الصادقة والرؤيا الصالحة والهواتف الملكية، وربما يؤل حاله إلى أن يكون صاحب المكالمة والمشاهدة والمكاشفة، ولعل ما يصير مأمورًا بدعوة الخلق إلى الحق في المتابعة لا بالاستقلال، كما قال ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» يشير إلى: هذا المقام، وذلك أن المتقدمين من بني إسرائيل في زمن الأنبياء - عليهم السلام - لما وصلوا إلى مقام الأنبياء أعطوا النبوة - والله أعلم - وكانوا مقررين لدين رسولهم، حاكمين بالكتب المنزلة على رسلهم، فكذلك هؤلاء القوم كما قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:37]، وأما أتباعه في مقام أمته ﷺ فكذلك مخصوص بأخص الخواص من متابعيه، وهو أنه ﷺ رجع بالسير من مقام بشريته إلى مقام روحانيته الأولى، ثم بجذبات الوحي أنزل في مقام التوحيد، ثم اختطف بأنوار الهوية عن أنانيته إلى مقام الوحدة كما قال: «أنا بشر مثلكم يوحي إليّ إنما إلهكم إله واحد» [الكهف: 110] كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:8 - 9]، فقاب قوسين عبارة عن: مقام التوحيد، أو أدنى عن مقام الوحدة تفهم - إن شاء الله تعالى - فمن رجع بالسير في متابعته عن مقام البشرية إلى أن بلغ مقام الروحانية، ثم بجذبات النبوة في مقام التوحيد، ثم اختطف بأنوار المتابعة عن أنانيته إلى مقام الوحدة، فقد حظي بمقام أميته ﷺ.

وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأعراف:158-159].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل الهادي للكل، المرسل إلى كافة البرايا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة، الناسون عهد الله وميثاقه، المحتاجون إلى المرشد الهادي يهديكم إلى طريق الرشاد ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ أرسلني ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لأهديكم إلى توحيده الذاتي واعلموا أيها المجبولون على فطرة التوحيد سبحانه، هو العليم القدير ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ وما فيها إيجادًا وتصرفًا بالاستقلال والاختيار ﴿وَالأَرْضِ﴾ وما عليها كذلك وبالجملة: ﴿لاَ إِلَهَ﴾ أي: لا متصرف في الشهود، ولا مالك في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ المتصرف المستقل بالألوهية والوجود ﴿يُحْيِي﴾ ويظهر بلطفه من يشاء من مظاهره ﴿وَيُمِيتُ﴾ بقهره من يشاء، ومتى عرفتم أن الملك كله لله والتصرف بيده ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ﴾ المتوحد المتفرد بالألوهية ﴿وَرَسُولِهِ﴾ المنزل من عنده؛ ليبيّن طريق توحيده.

﴿النَّبِيِّ﴾ المخبر لأحوال النشأة الأولى والأخرى ﴿الأُمِّيِّ﴾ المكاشف ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي: يوقن ويذعن بتوحيد الله، ويصدق بجميع كلماته المفصلة المنزلة من عنده سبحانه من لدن نفسه القدسية بلا مدرس ومرشد، ومعلم منبه ﴿وَ﴾ إذا كان شأنه هذا ﴿اتَّبِعُوهُ﴾ أيها الطالبون لطريق الحق، القاصدون نحو توحيده ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:158] بمتابعته ﷺ ما تقصدون إليه من التوحيد الذاتي.

ثمّ قال سبحانه تنبيهًا على المؤمنين: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة مقتصدة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى توحيد الحق، ملتبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصدق المطابق للواقع؛ لنجابة فطرتهم واستقامة عقيدتهم ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:159] أي: بسبب الحق يقتصدون لا يفرطون، ولا يفرّطون في الأحكام أصلاً.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأعراف: 160].

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ أي: جزأناهم وصيرناهم ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ أضرابًا على عدد أبناء يعقوب ﴿أَسْبَاطًا﴾ لهم كل حزبٍ سبط لواحد منهم؛ لذلك صاروا ﴿أُمَمًا﴾ مختلفة، وإن كان الكل مسمى ببني إسرائيل ﴿وَ﴾ من جملة نعمنا إياهم: إنَّا ﴿أَوْحَيْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ أي: حين صاروا تائهين حائرين، عطاشًا هائمين ﴿أَنِ اضْرِب﴾ يا موسى ﴿بِّعَصَاكَ﴾ التي استعنت بها في الأمور ﴿الْحَجَرَ﴾ الذي بين يديك فضرب ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ أي: خرجت وجرت على الفور بلا تراخ ومهلة ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ جارية بضربة واحدة على عدد الأسباط والفرق؛ بحيث ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ من كل سبط ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ المخصوص لهم؛ لئلا يقع الخصومة والنزاع بينهم.

﴿وَ﴾ من جملة نعمنا إياهم: إنَّا ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ أي: أمرناه بأن يظل عليهم في التيه؛ لئلا يتضرروا من شدة الحر فيستريحوا ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ﴾ الترنجبين لشربهم؛ تبريدًا لمزاجهم ﴿وَالسَّلْوَى﴾ السماني؛ لغذائهم، وقلنا لهم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لتقويم مزاجكم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أولئك الخارجون عن أوامرنا ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:160] أي: يظلمون أنفسهم بما اقترفوا من المعاصي والآثام ويلقونها بذلك في عذاب الدنيا والآخرة، ومع قبح صنيعهم معنا راعيناهم وأنعمنا عليهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)﴾ [الأعراف:161-162].

﴿وَ﴾ من جملة ظلمهم على نفوسهم: إنهم ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ وأوصي إليهم إصلاحًا لحالهم: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: بيت المقدس ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي: من مأكولاتها المتسعة ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ بلا موافقة ومنع ﴿وَقُولُوا﴾ متضرعين إلينا، متوجهين نحونا: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي: سؤلنا منك يا مولانا: حط ما صدر عنا من الآثام وجرى علينا من المعاصي ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ سجدًا؛ أي: باب بيت المقدس ﴿سُجَّدًا﴾ متذللين واضعين جباهكم على تراب المذلة والهوان؛ تأديبًا وتعظيمًا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ أي:

جميعها إن امتثلتم ما أمرناكم بها، بل ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:161] منكم بالرضوان الأكبر منًا.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أنفسهم بالخروج عمًا أمرناهم ﴿قَوْلًا﴾ صادقًا صوابًا قلنا لهم؛ لإصلاح حالهم ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ على لسان رسلنا، بل حرفوها لفظًا ومعنى، كما مر بيانه في سورة البقرة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بسبب تبديلهم وتحريفهم ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عذابًا نازلاً من جانب السماء ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 162] أي: بشؤم خروجهم عن مقتضى أوامرنا وأحكامنا.

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾[الأعراف:163-166].

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة ظلمهم على نفوسهم: حيلهم وخداعهم في نقض العهد، إن شئت أن تعرف ﴿اسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ أي: سل خداعهم وحيلهم عن أهل القرية ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قريبة منه، قيل: إيلة، وقيل: طبرية الشام، وقيل: مدين، وقت ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ يتجاوزون عن حدودنا وعهودنا ﴿فِي السَّبْتِ﴾ أي: العهد الذي عهدوا معنا ألا يصطادوا، بل أخلصوا لعبادتنا والتوبة نحونا فابتليناهم بمحافظة العهد ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ المعهود المحرم ﴿شُرَّعًا﴾ متابعة متوالية.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ ولا يعهدون فيه ﴿لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ﴾ أي: مثل سبتهم، فاحتالوا بتعليم شياطينهم حياضًا وأخاديد، فأرسلوا الماء عليها في يوم السبت، واجتمعت الحيتان فيها واصطادوها يوم الأحد والإثنين؛ وبسبب خداعهم معنا واختلاقهم الحيلة لنقض عهدنا ﴿نَبْلُوهُمْ﴾ ببلاء المسخ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:163] بسبب فسقهم وخروجهم عن مقتضى العهد.

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: جماعة من صلحائهم، حين قال الصلحاء

للمحتالين المناقضين على وجه العظة والتذكير: لِمَ تحتالون وتخادعون مع الله كأنكم لم تخافوا من بطشه وانتقامه ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ أيها المذكرون المصلحون ﴿قَوْمًا﴾ منهمكين في الغفلة والضلال ﴿اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: أراد الله إهلاكهم وتعذيبهم بأشد العذاب بشؤم حيلهم وخداعهم هذا ﴿قَالُوا﴾ أي: المذكرون المصلحون تذكيرنا ونصحنا إياهم: ﴿مَعْذِرَةً﴾ منَّا ﴿إِلَى رَبِّكُمْ﴾ الذي أمرنا بنهي المنكر على وجه المبالغة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:164] أي: ونرجو من كرم الله أن ينتهوا بتذكيرنا عمَّا هم عليه من الغفلة.

﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ وأعرضوا عن ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: من العظة والتذكير ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ متعظين بما ذكروا به ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالإعراض عنه ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد فظيع ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:165] بسبب فسقهم وإعراضهم.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: فالحاصل أنهم لمَّا تكبروا عن امتثال أوامرنا واجتناب نواهينا ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ على لسان نبيهم داود: ﴿كُونُوا﴾ أيها المتكبرون المنهمكون في الغي والضلال ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[1] [الأعراف:166] صاغرين مهانين؛ لاستكباركم عن أوامر الله وتكليفاته، مع أنكم مجبولون على تحمل التكاليف التي هي من أمارات الإنسان فلمَّا امتنعوا أنفسهم عنها مُسخوا عن لوازم الإنسانية بالمرة، ولُحقوا بأخس الحيوانات وأرذل الأعاجم.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

---

(1) يشير إلى أن القرية الجسد الحيواني على شاطئ بحر البشرية وأهل قرية الجسد الصفات الإنسانية، وهي على ثلاثة أصناف: منها: صنف روحاني: كصفات الروح. وصنف: ما قلبي: كصفات القلب. وصنف: نفساني: كصفات النفس الأمارة بالسوء، وكل قد نهوا عن صيد حيتان الدواعي البشرية في سبت محارم الله، فصنف أمسك عن الصيد ونهي عنه وهو: الصفات الروحانية، وصنف أمسك ولم ينه وهو: الصفات القلبية، وصنف يحرمه وهو: الصفات النفسانية. [التأويلات].

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف:167-169].

﴿وَ﴾ اتل على من تبعك منهم، واذكر لهم يا أكمل الرسل: ويتنبهوا وقت ﴿إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: عزم وكتب على نفسه، كأنه أقسم ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ وليسلطنّ ﴿عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ مستمرًا دائمًا ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ يعلمهم ﴿سُوءَ العَذَابِ﴾ لذلك ما ترى يهوديًا في أقطار الأرض إلا عليه مذلة وهوان ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَسَرِيعُ العِقَابِ﴾ على من أراد عقابه ﴿وَإِنَّهُ﴾ أيضًا ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب وأخلص ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:167] يقبل توبته ويمحو معصيته.

﴿وَ﴾ من غاية إذلالنا إياهم ﴿قَطَّعْنَاهُمْ﴾ أي: فرقناهم ﴿فِي الأَرْضِ أُمَمًا﴾ فرقًا فرقًا ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ المؤمنون بالله وبملائكته وكتبه ورسله ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: الطالحون الخارجون عن مقتضى الإيمان ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بَلَوْنَاهُم﴾ أي: اختبرناهم وجربناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾ أي: بالعطاء والإنعام ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾[1] بالأخذ والانتقام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:168] رجاء أن يتنبهوا بنا فيرجعوا إلينا.

وبعدما بلوناهم بما بلوناهم ﴿فَخَلَفَ﴾ واستخلف ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد انقراضهم خلق ﴿خَلْفٌ﴾ خلفاء منهم يدعون أنهم ﴿وَرِثُوا الكِتَابَ﴾ أي: علم التوراة منهم، مع أنهم ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ أي: الدنيا مولعين بجمعها ﴿وَيَقُولُونَ

(1) قال نجم الدين كبرى: يعني: جعلنا الحسنات وهي: الطاعات والخيرات، والسيئات وهي: المعاصي والمظالم وسيلة الرجوع إلى الحق وقبول فيض النور، فأما الحسنات فبقدم الطاعات والخيرات يتقرب العبد إلى ربه، وأما السيئات فبقدم ترك المعاصي ورد المظالم يتقرب إليه، فقال تعالى: «من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا»، وقال: لن يتقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم، وعن بعض المشايخ أنه قال: خطوات وقد وصلت، وفيه معنى آخر: وبلوناهم بالحسنات؛ ليرجعوا إلينا بالشكر والسيئات؛ ليرجعوا بقدم الصبر، فبقدمي الشكر والصبر يرجع إلينا الأرواح والقلوب، وأيضًا: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ﴾، أي: بكثرة الطاعات ورؤيتها والعجب بها، كما كان حال إبليس، ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾، أي: بالمعاصي ورؤيتها والندامة عليها والتوبة منها والخوف والخشية من ربه، كما كان حال آدم ﷺ فرجع إلى الله تعالى وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23].

﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لن يأخذنا الله أبدًا بأخذها وجمعها ﴿وَ﴾ من غاية حرصهم ﴿إِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ﴾ بل أضعافه وآلافه ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ بلا مبالاة؛ اتكاءً على مغفرة الله مع أنهم لم يستغفروا إليه ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ﴾ الله المنزل في ﴿الْكِتَابِ﴾ الذي ادعوا علمه ووراثة، بل يؤخذ عليهم الميثاق في كتابهم ﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللهِ﴾ ولا ينسبوا إليه ﴿إِلَّا الْحَقَّ﴾ الصادق الثابت الذي ورد عليه الأمر من عنده.

﴿وَ﴾ كيف لم يعلموا أخذ الله ميثاقه مع أنهم ﴿دَرَسُوا﴾ من معلمهم ﴿مَا فِيهِ﴾ من الأحكام والمواعظ، والأوامر والنواهي؟! ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ من حطام الدنيا، ويجتنبون عن آثامها ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف:169] خيريتها، أولئك المنغمسون في قاذورات الدنيا ولذاتها وشهواتها مع أنها لا مدار لها، ولا قرار للذاتها ومشتهياتها.

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾[الأعراف:170-174].

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ أي: يتمسكون منهم ﴿بِالْكِتَابِ﴾ أي: بما أمرناهم في التوراة ونهينا فيه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ أي: داوموا وواظبوا على الميل إلينا على ما بيناهم فيها فعلينا أجرهم ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ﴾ ولا نهمل ﴿أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:170] الذين يصلحون ظواهرهم بالشرائع والأحكام المنزلة من عندنا، وبواطنهم بالإخلاص والتوحيد المسقط للإضافات مطلقًا.

﴿وَ﴾ اذكر وقت ﴿إِذْ نَتَقْنَا﴾ أي: قلعنا ﴿الْجَبَلَ﴾ من مكانه، ورفعنا ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يظل عليهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ يسقف فوق رءوسهم ﴿وَظَنُّوا﴾ من قبح صنيعهم ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ إلى أن قلنا لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ من مأمورات التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ عزيمة صادقة وعزم خالص في أوامره وأحكامه ﴿وَاذْكُرُوا﴾ أي: اتعظوا وتذكروا ﴿مَا فِيهِ﴾ من

الموعظة والتذكيرات ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:171] تنتهون عن قبائح أعمالكم ورذائل أخلاقكم.

﴿وَ﴾ نقض العهود والمواثيق، والإعراض عن التكاليف والمشاق ليس مما يختص هؤلاء المعرضين، بل من الديدنة القديمة لبني آدم وقت ﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِن بَنِي آدَمَ﴾ حين أخرجهم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ من ظهور آبائهم وأصلابهم على التوالد المتعارف ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: أولادهم بطنًا بعد بطن ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ أي: أحضرهم وأطلعهم ﴿عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أرواحهم الفائضة لهم، المنفوخة فيهم من روحنا، ثمّ قلنا لهم بعدما شهدوا منشأهم وعلموا أصلهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[1] الذي أوجدكم وأظهركم من كتم العدم بنفخ روحي فيكم؟

﴿قَالُوا﴾ بألسنة استعداداتهم: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾ بعدما أشهدتنا أنت ربنا، لا رب لنا سواك، ولا مظهر لنا غيرك فأخذ سبحانه منهم الميثاق حينئذٍ، وإنما أخذ منهم الميثاق على هذا؛ كراهة ﴿أَن تَقُولُوا﴾ على سبيل المجادلة والمراء حين أخذهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بجرائمهم الصادرة عنهم، المقتضية لنقض العهد: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أي: عن ربوبيتك واستقلالك فيها ﴿غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:172] غير عالمين بها ولا منبهين عليها.

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ لو لم يأخذ سبحانه العهد من جميعهم: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً﴾ ضعافًا ﴿مِّن بَعْدِهِمْ﴾ فنقلدهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ وتأخذنا يا ربنا ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:173] أي: بفعل آبائنا الذين أشركوا بك، مع أنّا لم نكن حينئذٍ من أصحاب الرأي؟! وأخذك بجرائمهم ظلم علينا؛ لذلك أخذ سبحانه الميثاق من

---

(1) ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: لأهل اللطف خطاب تعطف، ولأهل القهر خطاب تعظم، خاطب العارفين بتعريف المشاهدات، وخاطب الجاهلين بالقهر والامتحانات، فاعترفوا جميعًا بوحدانيته طوعًا وكرهًا، طوعًا لأهل العرفان، وكرهًا لأهل العماء والطغيان. ولولا خطابه وإنطاقه بالقدرة الأزلية ما قالوا جميعهم بلى إلا أهل شهود جماله، فلما خاطبهم فرح أهل محبته، فطاروا بأجنحة توحيده في هواء وحدانيته فرحًا وسرورًا بجماله، وتحيّر أهل الحجاب، فبهتوا وتاهوا في أودية قهره، ثم عظّم ميثاقه تعالى معهم بشهوده إيّاهم بقوله: ﴿شَهِدْنَا﴾: أخبر عن كشف نقاب الأزلية عن وجه السرمدية لأهل المعرفة؛ لئلا ينسوه طرفة عين إلى أبد الآبدين، وإن كانوا في حجب الامتحان؛ لأن العاشق يرى معشوقه في رؤية جميع البلاء، وكيف يحتجب المحبّ عن محبوبه، ومحبته محيطة بجميع وجوده.

جميع بني آدم؛ حتى لا يبقى لهم حجة عليه سبحانه.

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾ نبيّن ونوضح على وجه الخصوص والعموم ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا على اليهود ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:174] رجاء أن يتنبهوا فيرجعوا نحونا، ومع ذلك لم يرجعوا ولم يتنبهوا أصلاً.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [الأعراف:175-178].

.﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في الإعراض والإنكار ﴿اتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود يا أكمل الرسل ﴿نَبَأَ﴾ قصة الشخص ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ﴾ علم ﴿آيَاتِنَا﴾ العظام وأسمائنا الكرام حتى قدر وتمكن بسببها على أي شيء أراد، فأعرض عنا بمتابعة الهوى كهؤلاء الغواة ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: تجرد وعري من شرائف الآيات انسلاخ الحية من جلدها ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: تابعًا ﴿فَكَانَ﴾ بمتابعته ﴿مِنَ الْغَاوِينَ﴾[1] [الأعراف:175] المنهمكين في الضلال بحيث لا يرجى هدايته أصلاً كهؤلاء اليهود.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ أي: تعلق مشيتنا؛ لإهدائه إلى أقصى غايات التوحيد وأعلى مراتبه ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: بتلك الآيات ﴿وَلَكِنَّهُ﴾ لم يتعلق؛ لذلك ﴿أَخْلَدَ﴾ أي: انخفض ومال ﴿إِلَى الأَرْضِ﴾ الأنزل الأرذل ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ لينزل عليها، ومع ذلك يتمسك بها وأراد أن يتشبث بمقتضاها ﴿فَمَثَلُهُ﴾ في هذا التمسك والتشبث ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ حملاً موجبًا؛ لإلهائه واندلاع لسانه ﴿يَلْهَثْ﴾ يخرج لسانه بسببه ﴿أَوْ

(1) ذكر أنه تعالى أعطاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما انسلخ منه، لأن من رآه أحبه، ومن أحب استأنس به واستوحش مما سواه، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجًا بوجدان آياته، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه، واشتغاله بهواه وعداوة كليمه. البحر المديد (312/2).

تَتْرُكْهُ﴾ خفيفًا ولم تحمل عليه ما يوجب إلهائه ﴿يَلْهَث﴾ أيضًا؛ لرسوخ الديدنة القبيحة في ذاته ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكلب بعينه ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ﴾ يا أكمل الرسل لليهود ﴿الْقَصَصَ﴾ المذكورة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:176] ويتأملون فيما هم عليه من الإعراض والإنكار فيتنبهوا على قبح صنيعهم، وسوء فعالهم مع الله.

قيل: ذلك هو بلعام بن باعوراء، وقصته مشهورة، وقيل: أمية بن الصلت كان قد قرأ الكتب المنزلة ووجد فيها وصف النبي ﷺ، ورجا أن يكون هو، فلمّا بعث رسول الله ﷺ حسد وكفر وكان من الغاوين.

﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ﴾ أي: بئس المثل مثل القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وأعرضوا عنها منكرين عليها ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:177] أي: وما يظلمون بالإعراض والإنكار إلا أنفسهم؛ إذ عاد عليهم وباله ونكاله، ولكن لا يشعرون؛ لفساد قلوبهم وخبث طينتهم.

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ بأن يوفقه على إسماع كلمة الحق ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ إلى توحيده ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ بأن يضله عن سبيله بإنكار آياته وتكذيب رسله ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ البعداء والضالون ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:178] المقصورون على الخسران، لا يرجى ربحهم وهدايتهم أصلاً.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف:179-182].

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أوجدنا وأظهرنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ونيران الإمكان والحرمان ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ مع أن ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ هي مناط التكاليف ومحال الإيمان والإيقان، وهم ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ليحصل لهم مرتبة اليقين العلمي واللدني ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضا ﴿أَعْيُنٌ﴾ هي سبب مشاهدة الآثار والاستدلال منها على الأوصاف الموجدة لها، المرتبة على الذات الإلهي، وهم ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ليحصل

لهم مرتبة اليقين العيني.

﴿وَلَهُمْ﴾ أيضًا ﴿آذَانٌ﴾ وهي آلات؛ لسماع كلمة الحق ووسائل إلى اكتساب الفضائل المنبهة على ما في نفوسهم من الأسرار المكنونة الإلهية، وهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ليحصل لهم الترقي إلى مرتبة اليقين العيني إلى اليقين الحقي، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ الحمقاء الجهلاء، المتصفون بأوصاف العقلاء العرفاء ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾[1] في عدم الشعور والتنبه ﴿بَلْ هُمْ﴾ بسبب تضييع استعداداتهم ﴿أَضَلُّ﴾ من الأنعام بمراتب، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:179] المقصورون على الغفلة المؤبدة، المتناهون فيها أقصى الغاية.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها الفضلاء العرفاء، الموحدون أن ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التي تترتب عليها الصفات العليا، المترتبة عليها الآثار الحادثة في عالم الكون والفساد، والشهادة والغيب، والنشأة الأولى والأخرى ﴿فَادْعُوهُ﴾ سبحانه أيها الموحدون ﴿بِهَا﴾ وأسندوا الحوادث الكائنة إليها أولاً وبالذات ﴿وَذَرُوا﴾ أي: دعوا واتركوا أقوال ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون ويشركون ﴿فِي أَسْمَائِهِ﴾ بنسبة الحوادث إلى الأسباب أولاً وبالذات، واهجروا مذاهبهم، واعتزلوا عنهم وعن مجالستهم، واعلموا أن كل أحد ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ على مقتضى ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:180] إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ثم قال سبحانه كلامًا كليًا، جمليًا شاملاً على جميع الملل والأديان، فقال: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أظهرناهم على صورتنا ﴿أُمَّةٌ﴾ مستخلفة عناهم ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلينا، ملتبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَبِهِ﴾ أي: بالحق لا بغيره؛ إذ لا غير ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:181] يقسطون وينصفون في الأحكام.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا، المنزلة على رسلنا ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ سنستضلهم ونستزلهم قليلاً قليلا إلى أن نهلكهم بالمرة، وندخلهم في جهنم البعد

---

(1) في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب لتعيش مقصورة عليها. والأنعام جمع نعم بالتحريك وقد يسكن عينه وهي الإبل والشاة أو خاص بالإبل كذا في القاموس (بل هم أضل) بل للإضراب وليس إبطالا بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم وهو كونهم أضل من الأنعام طريقا فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجهد في جلبها ودعها غاية جهدها وهو ليسوا كذلك وهي بمعزل من الخلود وهم يتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها لا تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه.

وسعير الإمكان ﴿مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:182] ولا يفهمون كيف وقعوا فيها.

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الأعراف:183-186].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم في بطرهم وغفلتهم إلى حيث ازدادوا على نفوسهم من العتو والفساد الموجب لشدة العذاب؛ مكرًا عليهم وكيدًا ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ أي: مكري وخداعي مع العصاة الغواة، الضالين عن منهج الرشاد ﴿مَتِينٌ﴾ [الأعراف:183] محكم حيث لم يحسوا به أصلاً إلى أن أخذوا بأسوأ العذاب وأشد النكال.

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ المسرفين المسفهين لرسول الله ﷺ عنادًا ومكابرةً فقال:أما تستحيون من الله أولئك المسرفون، المفرطون في نسبته الجنون إلى من فاق على جميع العقلاء بالرشد والهداية؟ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ويتدبروا أنه ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ خفة عقل موجب للخبط، وما لم يفهموا من كلامه إلى أن صدر عنهم هفوة لا عن قصد، ويسمونه مجنونًا لذلك ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: بل ما هو ﷺ عند التحقيق ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ينذرهم بإذن الله ووحيه، ويخوفهم بما يخوفهم الله به ﴿مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:184] عظيم الشأن، ظاهر في أمر الإنذار.

رُوي أنه ﷺ صعد الصفا يومًا فدعاهم فخذًا فخذًا، يحذرهم عن بأس الله وبطشه فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون، فنزلت.

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع لهؤلاء المسرفين الذين ينسبون ما هو خارج عن مدركات عقولهم إلى الجنون: أينسبون جميع ما يخالف عقولهم إلى الجنون ويدعون استقلال العقل في العلوم المتعلقة في الأشياء كلها ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ ويتدبروا كيف تقصر وتدهش عقولهم ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ﴾ وكيفية نظمها وقصدها وترتيبها وتطبيقها، وما فيها من كواكبها وبروجها وحركاتها وأدوارها، وانقلاباتها صيفًا وشتاءً وربيعًا وخريفًا.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما عليها من تلالها ووهادها، وأنهارها وبحارها، ورياضها وأزهارها، وغرائبها وبدائعها المكنونة المتكونة فيها، بل ﴿وَ﴾ في جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ وأظهره من كتم العدم إظهارًا إبداعيًا ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: مما يطلق عليه اسم الشيء،

تدهش وتتحير في ظهور فحول العقلاء إلى حيث لم يفهموا كيفية ظهور ذرة صغيرة من ذرائر العالم، فكيف لميتها؛ لذلك قال ﷺ في دعائه: «اللهم أرنا الأشياء كما هي»[1]، وقال أيضًا ﷺ: «رب زدني تحيرًا»[2].

هذا في الآفاق الخارجة عنهم ﴿وَ﴾ أمَّا في أنفسهم فلم ينظروا ﴿أَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدر المسمى لهم، وهم لا يفهمونه، وإن اجتمع جميع العقلاء في تعيين أجل شخص واحد، ومع قصور نظرهم وسخافة عقلهم ينسبون الجنون إلى المكاشفين المناظرين بنور الله، المطالعين المشاهدين دائمًا صفاء وجهه الكريم، وهم الذين انخلعوا عن لوازم البشرية مطلقًا، وشقوا جلباب الناسوت رأسًا، وخرقوا الحجب المسدولة بالكلية وصاروا ما صاروا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، وبعدما سقط العقل عن درجة الاعتبار، واضمحل مدركاته عن الاعتماد فلا تعويل إلا على الوحي والإلهام الملقى من عند العليم العلام ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ من الأحاديث المهمة والموحى به ﴿بَعْدَهُ﴾ أي: بعد نزول القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 185] أي: المؤمنون المصدقون بالوحي والإلهام.

وبالجملة: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ الهادي إلى سبيل الرشاد ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ يرشده فعليك ألَّا تجتهد يا أكمل الرسل في إهدائهم، ولا تصغي أيضًا إلى أباطيلهم؛ إذ أمرهم مفوض إلى الله ﴿وَ﴾ كيف تجتهد وتسعى في إيمانهم؛ إذ هم قوم ﴿يَذَرُهُمْ﴾ ويتركهم الله باسمه المضل المذل ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ المتجاوز عن الحد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186] يترددون ويتحيرون إلى أن يأخذهم بما يأخذهم، دعهم وأباطيلهم فيها يترددون، وفي سكراتهم يعمهون.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف: 187-188].

---

(1) ذكره ابن عادل في تفسيره اللباب (13/7).

(2) حديث ذكره السادة الصوفية في كتبهم.

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ التي تخوفهم منها ومن شدة أهوالها وأفزاعها: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: في أي آن من الآنات وزمان من الأزمنة قيامها ووقوعها حتى نؤمن لها قبل قيامها؟ ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي: علم قيامها ﴿عِندَ رَبِّي﴾ مما استأثر بها سبحانه لا يطلع عليها أحد؛ بحيث ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أي: لا يظهرها ولا يكشف أمرها ﴿لِوَقْتِهَا﴾ الذي عيّن ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ هو من الغيوب الخمسة التي خصصها سبحانه لنفسه في قوله: ﴿عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ...﴾[1] [لقمان: 34] وإنما أخفاها وأبهَم وقتها، ولم يطلع أحدًا عليها؛ لأن الحكمة تقتضي ذلك؛ لأن سبحانه لو أظهر أمرها على عباده ﴿ثَقُلَتْ﴾ عظُمَت وشقت أمرها، واشتدت هولها ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ على أهلها وساكنيها من الملائكة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ عن من أسكنها وعاش عليها من الثقلين.

ولذلك ﴿لَا تَأْتِيكُمْ﴾ الساعة عند إتيانها ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾ فجأة وعلى غفلة؛ بحيث لا يسع ترك ما كنتم فيه من الأمور، كما أخبر النبي ﷺ: «إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه»[2]، وإنما ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ عن الساعة وقيامها لظنهم فيك؛ لنجابة طينتك ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ خبير لوقتها، عليم بشأنها، مذكر لها دائمًا، مفتش عن أحوالها وأهوالها مستمرًا ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ وقت ظهورها ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وفي خزانة قدره ولوح قضائه، وعالم سمائه وغيب ذاته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:

(1) الساعة عبارة عن: الساعة التي يظهر الله تعالى فيها آثار الصفة القهارية؛ لإفناء عالم الصورة وهو الملك ظاهر الكون كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:16] حين تطوى السماوات وتبدل الأرض ولا يبقى من الملك وأهله داع ولا مجيب، فيجيب هو سبحانه ويقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16]، وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دليل على أن للساعة ثقلاً من ظهور صفة القهر يضيق منها نطاق طاقة السماوات والأرض، وإنه مما استأثر الله به نفسه، وإنها هي الساعة التي يموت فيها الخلق؛ لأنه يقول ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾. وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف:187] معنى آخر من الإخفاء: وهو المنع منعت علمها عنهم، ومنه في حديث خليفة كتبت إلى ابن عباس أن يكتب إلي ويخفي عني؛ أي: يمسك عني بعض ما عنده مما لا أحتمله وعطس رجل عند النبي ﷺ فوق ثلاث فقال له: خفوت؛ أي: منعتا أن نشمتك بعد الثلاثة، والخفو: المنع. [التأويلات النجمية].

(2) أخرجه الطبري في التفسير (297/13).

187] أنه سبحانه مختص بها، لا يُطلع أحدًا عليها.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل لمن ظن بك أنك حفي عليم بسرائر الأمور ومخفياتها، خبير بحقائق الموجودات وماهياته؛ اعترافًا بالعبودية وسلبًا للاختيار عن نفسك: ﴿لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا﴾ أي: جلب نفع ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي: دفع ضر ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إيصاله إليّ من النفع والضر، ولا أعلم الغيب إلا ما أوحى الله إليّ ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ يعني: لو تعلق علمي بعواقب أموري ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ﴾ صرت إلى حيث ﴿مَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أصلاً ﴿إِنْ أَنَا﴾ أي: بل ما أنا ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذر بإذن ربي وعلى مقتضى وحيه إياي ﴿وَبَشِيرٌ﴾ أيضًا أبشر على مقتضى الوحي ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:188] بوحي الله وإلهامه.

﴿ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (192) ﴾ [الأعراف:189-192].

وكيف لا يكون الغيب مما استأثر الله به؛ إذ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم﴾ أي: أوجدكم وأظهركم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو أبونا آدم، وكان جسدًا لا علم له، ثمّ علمه من الأسماء ما تعلق إرادته به سبحانه بتعليمه إياه، ولم يعلم حقائقها ولميتها؛ إذ هي من المغيبات التي لم يُطلع أحدًا عليها ﴿وَ﴾ بعدما أظهرها ﴿جَعَلَ مِنْهَا﴾ أي: خلق من جنسها ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ويؤنس معها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أوقعها بإلهام الله إياه ﴿حَمَلَتْ﴾ وحبلت ﴿حَمْلاً خَفِيفًا﴾ أي: أدركت حملاً خفيفًا في بطنها ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: مضت عليها مدة فأدركت ثقلها، وأخبرت زوجها بثقلها فألهم بأنه ولد ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ إلى حيث اشتدت عليها حملها، وظهرت عندها أمارة حياة ما في بطنها ﴿دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا﴾ ولدًا سالمًا ﴿صَالِحًا﴾ لمؤانستنا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:189] لنعمه دائمًا.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ بعد صالح، وطالحًا بعد طالح، بطنًا بعد بطن ﴿جَعَلَا﴾ موضع الشكر ﴿لَهُ شُرَكَاءَ﴾ بإغواء الشيطان إياهما ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ من الأولاد فسمياهم بعبد الحارث وعبد العزى، وعبد المناة، بتعليم الشيطان إياهما ﴿فَتَعَالَى اللهُ﴾ المنزه

بذاته عن الشريك مطلقًا، سيما ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:190] هما وغيرهما من المشركين.

ثمّ لمّا لم يكن شركهما عن قصد واختيار، بل وسوسة الشيطان وإغوائه وبخ سبحانه عليهم؛ لينزجروا، وقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ جمعه باعتبار أولاده معنا ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ ويظهر ﴿شَيْئًا﴾ حقيرًا قليلاً، بل ﴿وَهُمْ﴾ أي: الأصنام والشركاء في أنفسهم ﴿يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:191] مخلوقون كسائر المخلوقات.

﴿وَ﴾ كيف يشركون الأصنام معنا في الألوهية والربوبية، مع أنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ أي: لعبدتهم ﴿نَصْرًا﴾ يدفع عنهم الأذى؛ لكونهم جمادات ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف:192] أي: بل لا يقدرون أن ينصروا أنفسهم بدفع ما يؤذيهم؛ لكونهم جمادات، ويكسرهم، فكيف لغيرهم؟.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف:193-195].

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون، الموحدون المشركين المصرين على الشرك ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ أي: الإسلام الموصل لهم إلى توحيد الحق ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لخبث طينتهم، بل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون المريدون إهداء هؤلاء الغواة ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ أي: دعوتكم إياهم إلى الإسلام ﴿أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف:193] ساكتون عن الدعوة، بل عن الالتفات إليهم مطلقًا؛ لشدة قساوتهم وغلظة غشاوتهم.

ثمّ قال سبحانه تبكيتًا للمشركين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون أيها الضالون المشركون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المتفرد بالألوهية، المتوحد بالربوبية ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي: هم مخلوقون أمثالكم، بل أسوء حالاً منكم؛ لكونهم جمادات لا شعور لها، كيف سميتوها معبودات تعبدونها كعبادة الله، وإن اعتقدتم إلهيتهم وتأثيرهم ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ بإنزال العذاب على مخالفيكم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ ألبتة؛ لكونكم عبادًا لهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف:194] في أنهم آلهة، فكيف تعتقدون أيها الحمقى إلهية هؤلاء الجمادات التي تنحتونها بأيديكم من الأحجار والأخشاب، والإله منزه عنهاه متعال عن

أمثالها، وأيضًا كيف تعتقدون تأثير هؤلاء؟!.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ فيؤثرون بسببها ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ والتأثير مسبوق بهذه القوى، كيف وشرط التأثير الحياة؟ ولا حياة لهم أصلاً، فكيف يؤثرون؟ وأنتم كيف تثبتون لهم التأثير، أفلا تعقلون؟ ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل تبكيتًا لهم وإلزامًا: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين تدعون مشاركتهم مع الله واستظهروا منهم ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ وامكروني بمظاهرتهم؛ بحيث لا أطلع بمكركم أصلاً ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف:195] تمهلون مدة حتى أتأمل فيه وأطلع عليه، وأشتغل لدفعه، وبالجملة: لا أبالي بولاية غير الله ونصره وحفظه إياي بكم وبمكركم، وبمكر شركائكم ومعاونيكم.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: 196-200].

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ﴾ وحافظي، ومولي جميع أموري ﴿اللهُ﴾ القادر القيوم ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن؛ لنصري وتأييدي ﴿وَ﴾ من غاية لطفه ﴿هُوَ﴾ سبحانه بنفسه ﴿يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:196] من عباده ويحفظهم من مكر الماكرين، سيما الأنبياء الذين هم في كنف جواره وحوزة حفظه، يحفظهم عن جميع ما يؤذيهم.

﴿وَ﴾ كيف لا يحفظهم سبحانه عن تأثير هؤلاء الأصنام ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أنتم أيها الضالون ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه وتستنصرون منهم، وهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف:197] أي: كيف ينصرونكم، وهم لا ينصرون أنفسهم لعدم استعدادهم وقابلياتهم.

﴿وَ﴾ من خبث طينتهم وشدة شكيمتهم وضغينتهم ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون أولئك المشركين الضالين ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ ودين الإسلام ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ ولا يقبلوا مع ورود هذه الدلائل الواضحة ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ ويسعون ويسمعون منك الأدلة القاطعة ﴿وَهُمْ﴾ من خبث طينتهم وجهل جبلتهم ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198] إلى أصنامهم، ولا يتأملون ولا يتفطنون أن ما ينسبون إلى هؤلاء من

الشفاعة والشركة وهم زائل وخيال باطل، وخروج عن مقتضى العقل الفطري، بل يصرون على ما هم عليه؛ عتوًا وعنادًا.

وإذا كان حالهم هذا وإصرارهم بهذه الغاية ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: اختر يا أكمل الرسل طريق العفو واللين، واترك الغضب والخشونة على مقتضى شفقة النبوة ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة القوم الذين تفرست منهم الرشد بنور النبوة والولاية ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:199] المصرين، وإن جادلوك جادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك أعلم منهم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم أيضًا بالمهتدين منهم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ ينخسنك ويشوشنك ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ المثير للقوى الغضبية والحمية الجاهلية ﴿نَزْغٌ﴾ وسوسة وإغراء يحملك على الغضب، ويخرجك عن مقتضى ما أمرت به من الحلم والملاينة ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من غوائله، وارجع إليه من وسوسته وتحايله يكفيك سبحانه مؤنة شروره وإغوائه ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته ﴿سَمِيعٌ﴾ لمناجاتك ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:200] بحاجاتك.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف:201-203].

ثم قال سبحانه تذكيرًا لنبيه وعظة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ من عبادنا كانوا ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ واستولى عليهم ﴿طَائِفٌ﴾ خاطر يطوف حول قلوبهم ﴿مِّنَ﴾ قبل ﴿الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ ما أمروا به ونُهوا عنه من عند الله ﴿فَإِذَا هُم﴾ بتذكير المأمور والمنهي ﴿مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:201] مميزون مواقع الخطأ فيحترزون منها، ويتعوذون إلى الله عمّا يغريهم إليه.

﴿وَ﴾ الذين لم يتقوا، بل هم ﴿إِخْوَانُهُمْ﴾ أي: إخوان الشياطين، إذا مسهم ما مسهم لا يتأتى بهم التذكر ولم يوفقوا عليه، بل ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي: الشياطين بالتزيين والتحسين، والوسوسة والإغراء إلى أن يوقعوا بهم ﴿فِي الْغَيِّ﴾ والضلال ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإيقاع فيه ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:202] بل يبالغون في إغوائهم وإغرائهم إلى حيث يردونهم بحال لا يرجى لهم الفلاح أصلاً.

﴿وَ﴾ من غاية انهماكهم في الغي والضلال، ونهاية غراقتهم فيه ﴿إِذَا لَمْ تَأْتِهِم﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِآيَةٍ﴾ اقترحوها منك؛ عنادًا ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: هل انتخبتها من الأقوال وأنشأتها كسائر منشآتك، أعجزت فيها؟ فإن أعجزت لِمَ لَمْ تطلبها من ربك على مقتضى دعواك، كما طلبت غيرها منه؟

﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ما أنا مختلق، بل رسول مبلغ ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ الذي هو مرسلي ومبلغي، ما لي صنع في نظمه وتأليفه، وبلاغته وفصاحته وإعجازه، بل ﴿هَذَا﴾ أي: القرآن وما فيه من الرموز والإشارات ﴿بَصَائِرُ﴾ للمستبصرين المستكشفين بمقتضى الودائع الفطرية التي أودعها الله في قلوب عباده، ومتى انكشفتم بودائعكم علمتم أنها ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى﴾ يوصلكم إلى ما جبلتم لأجله، وهو التوحيد والعرفان ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلة لكم من الله يوقظكم عن نومة الغفلة والنسيان، كل ذلك ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] [الأعراف:203] أي: يتحققون بمرتبة اليقين العلمي، ويطلبون الترقي منها إلى العين والحق.

حققنا بلطفك بحقيتك، وخلصنا من هويتنا الباطلة بفضلك وجودك يا أرحم الراحمين.

---

(1) ذكر سبحانه امتنانه على المؤمنين بما خاطبهم بمجموع كلامه القديم الذي أبنا ما عنده لهم من مذخور السعادات، وسني الكرامات، وعظيم الدرجات، ودعاهم به إلى أعمال ذكية، وأحوال شريفة، ومقامات عزيزة، وعرّفهم به أسمائه ونعوته وصفاته وذاته تعالى وأفعاله في انتظام صنائعه، وإعلام قدرته ويدلّهم به إلى المعرفة كل صفة من صفاته القديمة التي معرفتها معرفة ذاته تعالى، عرّف نفسه به للعارفين، وفتح بمفاتيحه كنوز غيبه للروحنيين، وكشف قناع الجهل بأنواره عن قلوب الغافلين والعالمين، وجذب بلطائفه قلوب المحبين والمشتاقين والعاشقين إلى مشاهدته ووصاله، ورتّب فيه مقامات العبودية ومعارف الربوبية، وذلك صدر منه بسابق علمه وقديم حكمه، ويهدي به إلى نفسه قلوب المؤمنين به، وذلك منه رحمة كافية للعموم والخصوص، وكان رحمته سبقت في الأزل لمَنْ خاطبه سبحانه بنعمة هدايته به إليه، وأي نعمة أعظم من إنزاله كلامه إلينا الذي يعتقنا من رق النفوسية، ويخلصنا من شهوات الشيطانية، ويهدينا بنور إلى أنوار الربانية، والحمد لله الذي أمنن علينا بفواتح أنعامه ولطائف إكرامه واصطفانا بخطابه، وجعل استماعنا محل استماع كلامه وقلوبنا أوطان بيانه وأسرارنا أوعية أنوار سلطانه وأرواحنا خزائن عرفانه، وعقولنا مشاهد برهانه وأبداننا مساقط شرائعه من قرآنه. قال بعضهم: أنزل الله كتابًا فيه هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب، وفرقانًا بين العدو والولي، لا يعلم معانيها إلا المؤمنين بمتشابهه والعاملون بأحكامه والتالون به أناء الليل والنهار فيه الفلاح لمَنْ طلب الفلاح، والنجاة لمَنْ رام النجاة، لا يهلك عليه إلا هالك ولا ينجوا به إلا ناجي.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف:204-206].

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم من أوصاف القرآن ما سمعتم ﴿إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ عندكم أو قرأتم أنتم ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ عن صميم قلوبكم، وتأملوا في معناه بقدر وسعكم وطاقتكم ﴿وَأَنصِتُوا﴾ أي: اسكتوا وأعرضوا عن مقتضيات سائر قواكم، ولا تلتفتوا إليها أصلاً ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:204] تنكشفون وتتحققون بما في نفوسكم من ودائع الله بسببه.

ثمّ خاطب سبحانه حبيبه ﷺ؛ لأن أمثال هذه الخطابات لا يسع إلا في وسعه وقابليته، فقال: ﴿وَاذْكُر﴾ أي: تذكر وتحقق ﴿رَّبَّكَ﴾ الذي أظهرك على صورته ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ إذ أنت ظاهره ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعًا متجنبًا، خائفًا عن غفلة الناسوت ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ إخفاءً من المحجوبين الجاهلين برتبتك، وغيرةً عليه سبحانه ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: بجميع أوقاتك التي جرى عليك على مقتضى بشريتك ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[1] [الأعراف:205] لتحققك في مقام الشهود.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ حصلوا وتمكنوا ﴿عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ﴾ لا يلتفتون إلى ما سواه، بل ﴿يُسَبِّحُونَهُ﴾ أي: ينزهونه ويقدسونه عمّا يصور لهم ويوهمهم منه سبحانه ناسوتهم ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:206] بمقتضى لاهوتهم منسلخين عن هوياتهم الباطلة بلا التفات منه إلى ما خيلتهم ناسوتهم أصلاً.

ربنا اكشف عنا بفضلك حجب ناسوتنا، وحققنا بفضاء لاهوتك بمقتضى لاهوتهم.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه نحو القبلة الأحمدية والمقصد الأحدية المحمدية - هداك

---

(1) فيه إشارة إلى أن الذكر القلبي يجب أن يداوم عليه ولا يزال الإنسان يستحضر جلال الله وكبرياءه بحسب الطاقة البشرية ليتنور جوهر النفس ويستعد لقبول الإشراقات القدسية فيضاهي سكان حظائر الجبروت. [تفسير النيسابوري (54/4)].

الله إلى سواء سبيله، وأوصلك إلى مقرك من التوحيد - أن تتوجه إلى فضاء قلبك وتتذكر ما فيه من ودائع ربك على وجه الخبرة والاستبصار، مجتنبًا عما يشوشك من غبار الأغيار، معيرًا بمعيار العبرة والاعتبار؛ بحيث لا يلهيك عنها وسوسة الشيطان المكار، وتعزيرات الدنيا الغرار الغدار، لا يتيسر لك هذا إلا بتذكر ما في كتاب الله من المواعظ والأخبار والآثار وامتثال ما فيه من الأوامر والنواهي والتدبر في سرائرها، واستكشاف حكمها وأسرارها.

عليك أن تتوسل في استرشادك من كتاب الله إلى أحاديث رسوله ﷺ؛ إذ هي مبيّنة له، كاشفة عن سرائره ومرموزاته، موضحة لما فيه من الغوامض، متكفلة لحفظ عقيدتك عن التزلزل والانحراف عن جادة الهداية، موصلة لك بقدر قابليتك إلى مسالك مسائل التوحيد.

فلك أن تواظب على الاستفادة ناويًا في استفادتك استخلاص نفسك عن ربقة التقليد، مستقبلاً في سلوكك إلى مقر المعرفة والتوحيد، مشمرًا ذيلك عن جميع ما يعوقك ويمنعك من لوازم بشريتك، ملتجئًا نحو الحق في جميع حالاتك، مستمدًا في سلوكك هذا عن أرباب الولاء الوالهين في مطالعة جمال الله، الواصلين إلى فضاء وحدته وبقائه منخلعين عن جلباب ناسوتهم بالكلية؛ بحيث لا يلتفتون إلى مقتضيات بشريتهم أصلاً إلا البدلاء وهم الحائرون الحاضرون الوالهون، الواصلون الفانون الباقون، المتبدلون المتحققون ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62].

ربنا اجعلنا بفضلك من خدامهم وتراب أقدامهم.

سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الأنفال

لا يخفى على ذوي الألباب المستكشفين عن لب التوحيد، المستنزهين عن قشوره إن من لم يترق ممن يتأتى منهم التكليف والسلوك في سبيل التوحيد عن المرتبة الحيوانية، ولم يصل إلى الدرجة العلية الإنسانية، ولم تثمر شجرة وجوده وظهوره ثمرة المعرفة التي غرست لأجلها، وظهرت لحصولها.

وبالجملة: لم يحيَ لحياة العلم اللدني الأزلي الأبدي، بل بقي على الجهل الجبلي الهيولاني، فهو ميت حقيقة، وإن كان حيًا صورة، ومع موتهم وجهلهم هذا لا يستنشقون سمات الروح ونفحات الحياة الطبيعة الطيبة من أنفاس الأنبياء المبعوثين؛ لإحيائهم بنفخ الروح الإلهي والنفس الرحماني المظهر لهوياتهم، المحيي لهياكلهم وماهياتهم من كتم العدم ولم يؤمنوا بهم، ولم يصدقوا فيما جاءوا به من عند ربهم، بل كذبوهم وقاتلوا معهم وأصروا على جهلهم، واستكبروا بمقتضى حميتهم الحيوانية الجاهلية، الساقطة المسقطة، الضالة المضلة.

لذلك صار دماؤهم مباحًا، وأموالهم فيئًا عند العارف المتحقق وتوحيد الحق، وهي بالجملة: من جملة أرزاق الله التي لم يضف إلى أحد من خلقه، ولم يقسم بين عباده؛ لذلك أخبر سبحانه نبيه ﷺ كيفية تقسيم أموال الفيء والغنيمة مخاطبًا له على وجه التعليم، فقال متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المقسم لأرزاق عباده على العمل القويم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لهم بإصلاح ما ظهر بينهم من المخالفة والنزاع بإغواء الشيطان الرجيم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوفقهم على ازدياد الإيمان والتصديق، سيما بأحكام كتابه الكريم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ

ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:1-4].

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: أصحابك لك أيها الرسول، المبعوث على الخلق العظيم ﴿عَنِ الأَنفَالِ﴾[1] أي: عن قسمة الغنائم، عبّر سبحانه عنها بالنفل، وهو في اللغة: عطية زائدة اشترطها الإمام لمن اقتحم على محل الخطر زيادة على سهمه؛ لأنها زائدة على سهام الغزاة المجاهدين، المقاتلين في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الحق طلبًا لمرضاته، وما يترتب عليه من أموال الدنيا بمنزلة النفل والعطية الزائدة على سهامهم التي هي المثوبة العظمى والمرتبة العليا عند الله.

﴿قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿الأَنفَالُ﴾ كلها ﴿لِلهِ﴾ ومن مال الله، وقسمتها مفوض إليه سبحانه ﴿وَ﴾ إلى ﴿الرَّسُولِ﴾ المستخلف منه، النائب عنه بإذنه ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ أيها المؤمنون عن مخالفة أمره وأمر رسوله ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: الحالة والعداوة التي وقعت بينكم بوسوسة الشيطان وإغوائه ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: انقادوا أمرهما ولا تتجاوزوا عن حكمهما ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:1] موقنين بتوحيد الله وتصديق رسوله ﷺ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون في الإيمان، المتحققون بمرتبة اليقين والعرفان، المصدقون بالرسل المبين لهم طريق التوحيد، هم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ﴾ الواحد الأحد، المتفرد بالألوهية، المتوحد بالربوبية ﴿وَجِلَتْ﴾ أي: خافت وترهبت، واضطربت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ من سطوة سلطنة عظمته وجلاله ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ الدالة على بسطته وكبريائه، النازلة على رسله وأنبيائه ﴿زَادَتْهُمْ﴾ تلك الآيات ﴿إِيمَانًا﴾ وتصديقًا وإذعانًا، ويقينًا وعيانًا وعرفانًا ﴿وَ﴾ هم من كمال يقينهم وعرفانهم ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره من الأسباب الناقصة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:2] أي: يتوصلون ويستعينون في

---

(1) الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤالهم عن حكمها، فقال الله تعالى: قُلْ لهم إنها للهِ مِلْكًا، ولرسوله ﷺ لحُكْمٍ فيها بما يقضي به أمرًا وشرعًا. قوله جلّ ذكره: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أجيبوا لأمر الله، ولا تطيعوا دَوَاعِيَ مناكم والحكم بمقتضى أحوالهم، وابتغوا إيثارَ رضاء الحقِّ على مراد النَّفْس، وأصلحوا ذات بَيْنِكم، وذلك بالانسلاخ عن شُحِّ النَّفْس، وإيثار حقِّ الغير على مَالَكُم من النصيب والحظِّ، وتنقية القلوب عن خفايا الحَسَد والحقد.

جميع الأمور لتحققهم وتمكنهم في مقام التوحيد المسقط للالتفات إلى غير الحق مطلقًا.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ أي: يديمون الميل إلى الله في جميع حالاتهم مراقبين لفيضه وجذب من جانبه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من كد يمينهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال:3] في سبيله؛ طلبًا لمرضاته.

﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المتحققون بمرتبة الإذعان والإيقان ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا مستقرًا بلا اضطراب وتزلزل ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ عظيمة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من درجات العلم والعين والحق ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ ستر لأنانيتهم وتعيناتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:4] معنوي بدلها، يرزقون بها فرحين عنايةً من الله؛ لأن من توجه نحو الحق، ومال إلى جانبه ميلاً مسقطًا للتوجه إلى الغير مطلقًا، وخرج عن لوازم الإمكان إلى حيث ينفق ويبذل جميع ما نسب إليه من أموال الدنيا إعراضًا عنها، مخرجًا محبتها من قلبها أعطى له سبحانه بدل إخلاصه من الرزق المعنوي ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنفال:5-8].

﴿كَمَا﴾ أعطاك يا أكمل الرسل حين ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ﴾ حين أخبرك جبريل ﷺ من إقبال عير مكة من قبل الشام، وفيها أبو سفيان ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَ﴾ الحال ﴿إِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال:5] خروجك.

ومن كمال كراهتهم ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ الصريح الذي هو الجهاد، سيما ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر لك بوحي الله إياك، ووعده النصر والظفر لك، وهم من غاية رعبهم حين خروجهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ مثل البهائم إلى المسلخ ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال:6] حيارى خائفين مرعوبين، مع أنهم كتب لهم الظفر

والغنيمة، والغلبة من عند ربهم.

وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام، وفيهم أبو سفيان مع أربعين من الفرسان ومعهم تجارة عظيمة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ، فأخبر به الرسول للمؤمنين فخرجوا مسرعين بلا عدة استقلالاً لهم وميلاً إلى أموالهم، فلمّا خرجوا من المدينة بلغ خبر خروجهم إلى العير فانصرفوا إلى الطريق، وأرسلوا خبرهم إلى مكة فاستغاثوا، فخرج أبو جهل مع جمع كثير فمضوا إلى بدر، وكان رسول الله ﷺ بوادي دفران، فنزل جبريل عليه السلام ثانيًا يعده إحدى الطائفتين؛ أي: العدو والعير، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، وإن كان رأيه إلى المقاتلة مع العدو.

فقال بعضهم: هلّا ذكرت لنا القتال؛ حتى نتأهب له، إنّا خرجنا للعير، فقال ﷺ: «**إن العير مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل**»[1]، فقالوا كارهين مرعوبين خائفين: يا رسول الله ﷺ عليك بالعير، ودع العدو فغضب ﷺ، فقال المقداد بن عمرو: يا رسول الله امض بما أمرك الله، فإنّا معك حيثما أحببت، لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا؟ إنّا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - مدينة بأقصى الحبشة - مضينا معك بلا تكاسل ومخالفة، فدعا ﷺ له خيرًا.

ثمّ قال ﷺ: اجتمعوا علي أيها الناس، يريد الأنصار القائلين حين بايعوه على العقبة أنهم براء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف ألّا يروا نصرته إلا على عدوهم بالمدينة، فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: قد آمنا لك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطينا على ذلك عهودًا ومواثيق على السمع والطاعة لما أمرت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت على البحر لخضنا معك بلا تخلف أتحسب أنّا إذا لاقينا العدو نتكاسل ونتساهل، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك.

ففرح رسول الله ﷺ، ونشطه قول سعد، ثمّ قال: «**سيروا على بركة الله، وأبشروا فإن الله سبحانه وعدني الآن إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم**»[2].

---

(1) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (10366).

(2) رواه الطبراني في «الكبير» (8/488).

﴿وَ﴾ اذكروا أيها المؤمنون وقت ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ﴾ بالوحي على رسوله ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ مغلوبة مقهورة ﴿أَنَّهَا لَكُمْ وَ﴾ أنتم حين سمعتم الوحي ﴿تَوَدُّونَ﴾ وتحبون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ أي: العير ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾[1] لأن أهلها قليل، ومالها كثير لا احتياج لكم إلى المقاتلة معهم؛ لقلتهم وعدم شركتهم ﴿وَيُرِيدُ اللهُ﴾ بمقتضى قهره وقدرته ﴿أَن يُحِقَّ﴾ أي: يثبت ويظهر ﴿الحَقَّ﴾ أي: التوحيد المطابق للواقع الذي هو الإسلام ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ الملقاة من عنده لملائكته حين أمرهم بإمداد حبيبه الذي بعثه؛ لإعلاء كلمة توحيده ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:7] أي: يستأصلهم إلى حيث لم يبق منهم من يستخلفهم، كل ذلك فضل من الله وامتنان على رسوله.

﴿لِيُحِقَّ الحَقَّ﴾ أي: الإسلام المحقق المطابق لما عند الله ﴿وَيُبْطِلَ البَاطِلَ﴾ المخالف لدين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال:8] المصرون على ما هم عليه قبل نزول الإسلام، ما أراد الله من تحقيق الحق وتمكينه، وإبطال الباطل وتخذيله.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال:9-11].

اذكروا أيها المؤمنون فضل الله عليكم ورحمته ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ حين اقتحم العدو وأنتم عزل قلائل، وهم متكثرون ذو عدد وعدد ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ ربكم مغيثًا قائلاً لكم على لسان نبيكم: ﴿أَنِّي﴾ بحولي وقوتي ﴿مُمِدُّكُم﴾ أي: معينكم ومغنيكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:9] على عددكم، يضربونهم من ورائهم، وأنتم

(1) أي: ذات الحرب (تكونُ لكم) وهي العير، فإنها لم يكن فيها إلا أربعون رجلاً، وتكرهون ملاقاة النفير لكثرة عَدَدِهِم، وعُددهم، (ويريد الله أن يُحق الحق) أي: يظهر الحق، وهو الإسلام، بقتل الكفار وهلاكهم في تلك الغزوة؛ (بكلماته) أي: بإظهار كلماته العليا، أو بكلماته التي أوحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالأمداد، أو بنفود كلماته الصادقة بهلاكهم، (ويقطع دابر الكافرين) أي: يستأصلهم ويقطع شوكتهم. انظر [البحر المديد (336/2)].

من قدامهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: إمدادكم أيها المؤمنون بملائكة السماء ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ لكم بفضلكم وكرامتكم عليهم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ في جميع ما وعدكم الله به ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المتحققون بمقام التوحيد ﴿مَا النَّصْرُ﴾ والغلبة والظفر ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر علىٰ كل ما أراد واختار ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع مقدوراته ومراداته ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:10] متقن في جميع أحكامه ومأموراته يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

اذكروا أيها المؤمنون فضل الله عليكم وامتنانه ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ ويغلب عليكم بلطفه ﴿النُّعَاسَ﴾ أي: النومة؛ إزالةً لرعبكم حين كنتم في سهر من خوف العدو؛ لتكون ﴿أَمَنَةً﴾ نازلة ﴿مِّنْهُ﴾ لتستريحوا وتطمئن قلوبكم ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ حين كنتمْ مجنبين بإغواء الشيطان وعدوكم على الماء، والشيطان يعيركم بجنابتكم، ويوسوس عليكم بأنكم تدعون الإمامة والولاية؟ كيف تخرجون غدًا تجاه العدو وأنتم مجنبين ودعواكم أن القتال والجهاد من أشرف العبادات؟ وبأمثال هذه الهذيانات يوقع بينكم الفتنة؛ لتقعدوا عن القتال، وأنتم أيضًا مضطربون بما معكم عليه من الجنابة، أنزل الله عليكم المطر ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ أي: بالماء، أبدانكم عن الجنابة الصورية، كما طهر قلوبكم بماء العلم اللدني ورشحات التوحيد من الجنابة المعنوية التي هي الكفر والنفاق.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُذْهِبَ عَنكُمْ﴾ بإنزال المطر ﴿رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: وسوسته وإيقاعه، وتخويفه من العطش وغيرها ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بإنزاله، إنه سبحانه يعين عليكم وينصركم حين اضطراركم؛ ليزداد وثوقكم به وبنصره، وعونه وإنجاز وعده ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:11] أي: بهذا الربط، أقدامكم على جادة التوحيد والتوكل إلى الله، والتفويض نحوه في جميع الأمور.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الأنفال:12-14].

اذكر يا أكمل الرسل، وذكر من تبعك فضل الله عليك وعلى أصحابك وقت ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ المأمورين؛ لعونك وإمدادك حين ازداد رعب أصحابك من اقتحام القتال، قائلاً لهم: ﴿أَنِّي﴾ بكمال حولي وقوتي ﴿مَعَكُمْ﴾ حاضر عندكم، شهيد عليكم ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في مكانهم تجاه العدو حتى يستدبروا؛ إذ ﴿سَأُلْقِي﴾ من كمال نصري وعوني للمؤمنين ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قلوب العدو ﴿الرُّعْبَ﴾ من المؤمنين فاستكثروهم واستدبروا منهم، ومتى استدبر العدو ﴿فَاضْرِبُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: أعاليها ﴿وَ﴾ إن وضعوا جننهم وأيديهم على أعناقهم؛ حفظًا لها ﴿اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:12] أي: جميع أصابعهم؛ لئلا يبقى لهم استعداد للقتال أصلاً؛ حتى لا يكروا عليكم.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: انهزامهم وانخذالهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: خاصموا وخالفوا مع الله ورسوله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ﴾ القادرَ المقتدر على كل ما أراد من القهر والانتقام ﴿وَ﴾ يخاصم ﴿رَسُولَهُ﴾ المؤيَّد من عنده؛ لتبليغ الأحكام استحق أنواع العقوبة والنكال من عنده ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:13] صعب الانتقام سريع الحساب على من خالف أمره وعادى رسوله.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: أنواع العقوبة والعقاب نازل على من تعدى حدود الله وكذب رسوله ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أيها المخالفون المصرون ما أعدّ لكم من العذاب ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ المصرين المتمردين ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال:14] يخلدون فيها أبد الآباد.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18) ﴾[الأنفال:15-18].

ثمّ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: إعلاء كلمة الحق وانتصار دينه، فعليكم ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أن تقاتلوا معهم، وإن كانوا ﴿زَحْفًا﴾

متكثرين بأضعافكم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾[1] [الأنفال:15] أي: لا ترجعوا منهم حين الالتقاء إلى أدباركم خائفين منهزمين حال كونهم بأضعافكم، فكيف إن كانوا مثلكم أو أقل منكم؟!.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾ منكم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إلى يوم ملاقاة العدو ﴿دُبُرَهُ﴾ أي: مدبرًا خائفًا ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ أي: قاصدًا بالاستدبار التحيز واللحوق. ﴿إِلَى فِئَةٍ﴾ ثابتة من المؤمنين؛ ليستعين بهم ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أي: رجع ولحق ﴿بِغَضَبٍ﴾ نازل ﴿مِّنَ اللهِ﴾ لمخالفة أمره وحكمه، وحكمته ﴿وَمَأْوَاهُ﴾ في النشأة الأخرى ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:16] مرجعه ومصيره.

وعليكم أيها المؤمنون ألّا تنسبوا القتل، بل جميع ما صدر منكم إلى نفوسكم مفاخرة ومباهاة، بل إن قتلتموهم صورةً ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ حقيقةً ﴿وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ لأن جميع الأمور الكائنة في الآفاق صادرة من الله أولاً وبالذات، ومن آثار أوصافه وأسمائه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أيها النبي المأمور برمي الحصا حين هجوم الأعداء على أصحابك ﴿وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ أي: أوجد سبحانه الرمي بيدك التي هي ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:10]؛ لذلك ترتب على رميك انهزامهم الذي يستبعدونه أنتم وهؤلاء أيضًا.

﴿وَ﴾ إنما رماهم سبحانه بما رمى ﴿لِيُبْلِيَ﴾ ويجرب ﴿الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ أي: بنعمة الغنيمة والظفر، هل يرجعون ويواظبون على شكر نعمه أم لا؟ ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع مناجاتهم الصادرة منهم على وجه الخلوص ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:17] بحاجاتهم التي يحتاجون إليها في معاشهم ومعادهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: ابتلاء الله بالبلاء الحسن، مختص بالمؤمنين ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المولي لأموركم ﴿مُوهِنُ﴾ مضعف ومبطل ﴿كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:18] ومكرهم وحيلهم التي يقصدون بها إهلاككم وإذلالكم.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ

---

(1) أي: لا تنهزموا من سطوات النفوس وغلبات صفاتها فتقعوا عن صراط مستقيم الطلب، وتستولي النفوس؛ وتنكسر القلوب وتضمحل صفاتها عند استيلاء صفات النفوس فتهلك القلوب، بل اثبتوا بالصبر عند صدمات النفوس فإن الصبر عند الصدمة الأولى. [التأويلات].

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:19-23].

ثمّ قال سبحانه على سبيل التهكم للكافرين الذين كانوا إذا أقبل عليهم المؤمنون للقتال يطوفون حول الكعبة متشبثين بأستارها، متضرعين مستفتحين من الله، قائلين: اللهمّ انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أيها الهالكون في تيه الضلال؛ لمقاتلة نبينا ومن تبعه من المؤمنين ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ بقتلكم وسبيكم؛ أي: غلبة المؤمنين عليكم ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ عن مقاتلتهم ومعاداتهم، وعن الاستفتاح لها، بل آمنوا كما آمن هؤلاء لنبينا عن ظهر القلب ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿وَإِن﴾ صالحوا معهم وآمنوا نفاقًا، ثمّ ارتدوا، بأن ﴿تَعُودُوا﴾ إلى مقاتلتهم ومعاداتهم ﴿نَعُدْ﴾ إلى نصرهم وتأييدهم إلى أن يستأصلوكم ويخرجوكم من دياركم.

﴿وَ﴾ لا تغتر بكثرة عددكم وعددكم؛ إذ ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ وترفع ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ التي تستظهرون بها ﴿شَيْئًا﴾ من غلبة المؤمنين وظفرهم ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فئتكم ﴿وَ﴾ كيف تغني فئتكم شيئًا منهم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:19] المجاهدين في سبيله؛ لإعلاء كلمة توحيده، ونصر دينه ونبيه ينصرهم ويعين عليهم.

ثمّ قال سبحانه مناديًا للمؤمنين توصيةً: وتذكروا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ إطاعة الله ﴿وَ﴾ إطاعة ﴿رَسُولَهُ﴾ المبلغ لكم أحكام الحق وشعائر دينه وتوحيده ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَوَلَّوْا﴾ أي: لا تتولوا معرضين ﴿عَنْهُ﴾ عن رسوله حتى لا تنحطوا عن رتبة الخلافة، وكيف لا تطيعون رسوله ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:20] كلمة الحق منه سمعًا وطاعةً؟!.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في عدم الإطاعة والانقياد له ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا﴾ كفرًا ونفاقًا: ﴿سَمِعْنَا﴾ ما تلوت علينا ﴿وَهُمْ﴾ من غاية بغضهم ونفاقهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:

21] سَمع إطاعة وتسليم، فكأنهم لم يسمعوا أصلاً، بل لا يتأتى منهم السماع لانحطاطهم عن رتبة العقلاء، ولحقوا بالبهائم في عدم الفطنة، بل أسوأ حالاً منها.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ﴾ عن استماع كلمة الحق عن ألسنة الرسل والإطاعة بها ﴿الْبُكْمُ﴾ عن التكلم بها بعدما فهموه، ولاحت عندهم حقيقتها، وبالجملة: هؤلاء هم ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:22] أي: ليسوا من زمرة العقلاء وإن ظهروا على صورتهم وشكلهم[1]. ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ﴾ أي: في استعداد هؤلاء السفهاء المنحطين عن مرتبة العقلاء ﴿خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾ كلمة الحق سمعَ طاعة ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ مع أنهم ليسوا مستعدين له ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ وانصرفوا؛ من خبث طينتهم عنها ﴿وَهُم﴾ في أصل فطرتهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:23] مجبولون على الأعراض، لا يرجى منهم الإطاعة أصلاً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[الأنفال:24-26].

ثمَّ قال سبحانه مناديًا للمؤمنين تذكيرًا لهم وتعليمًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: إجابة الله وإجابة رسوله ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ﴾ بامتثال مأموراته وأحكامه واجتناب نواهيه ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ سنته وآدابه وأخلاقه ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحده، باعتبار أن دعوة الرسول هي بعينها دعوة الحق ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من العلوم الدينية والمعارف الحقيقية المثمرة للمكاشفات والمشاهدات التي اضمحلت دونها نفوس السّوى

(1) أي: لا يعلمون لماذا خلقوا وما لهم من الاستعداد في طلب الكمال وانصرافهم في إفساد الاستعداد، فاعلم أن الإنسان خلق في أحسن تقويم قابلاً للتربية والترقي مستعدًا للكمال لا يبلغه الملك والقرب في بدء الخلقة دون الملك وفوق الحيوان، فبتربيته الشريعة يصير فوق الملك فيكون خير البرية وبمخالفة الشريعة ومتابعة الهوى يصير دون الحيوان فيكون شر البرية فيؤول حال من يكون خيرًا من الملك إلى أن يكون شر الدواب.

والأغيار مطلقًا، المورثة للحياة الأزلية والبقاء السرمدي التي لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى التي هي الانخلاع عن لوازم البشرية، ومقتضيات القوى البهيمية، ولا بدّ أن تكون إجابتكم وقولكم على وجه الخلوص والتسليم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يَحُولُ﴾ ويحجب ﴿بَيْنَ الْمَرْءِ﴾ المشخص بالهوية الشخصية، المتعين بالتعين العدلي ﴿وَقَلْبِهِ﴾ الذي يسع فيه الحق المنزه عن الإطلاق والتقييد، المبرئ عن الإحاطة والتحديد بالحجب الكثيرة فمادامت الحجب والأستار مسدولة بين المرء وقلبه لم يشم رائحة المحبة والولاء المؤدي إلى الفناء، المثمر للبقاء.

وانفتاح أبواب المحبة والولاء إنما يحصل بالإخلاص والتسليم والتفويض والتوكل والتبتل، والتوحيد المسقط للإضافات مطلقًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَنَّهُ﴾ أي: الشأن ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره بعد رفع الأظلال الهالكة والتعينات الباطلة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:24] ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَاتَّقُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿فِتْنَةً﴾ أي: معصية مسقطة للعدالة، مزيحة للمروءة مورثة للمصيبة الشاملة إثرها لعباد الله، مثل الطاعون المترتب على الزنا واللواط، والقحط المترتب على التخسير والتطفيف والاحتكار وغيرها من طرق الربا، مع أن أثرها ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أتوا بها ﴿مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ بل يعم الظالمين وغيرهم بشؤمهم؛ لأن غيرهم يداهنون معهم كأنهم راضون بفعلهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:25] صعب الانتقام، سريع الحساب على من خرج من مقتضى أمره ونهيه.

﴿وَاذْكُرُوا﴾ أيها المؤمنون نعمنا إياكم، وداوموا بشكرها وقت ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ يستضعفكم مَنْ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: أرض مكة - شرفها الله - ومن غاية ضعفكم وقلتكم ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ ويلتقطكم ﴿النَّاسُ﴾ عن وجه الأرض إلى حيث يستأصلكم بالمرة؛ من غاية ضعفكم وقلتكم ﴿فَآوَاكُمْ﴾ الله بحوله وقوته، وأعادكم إليها بعدما أخرجكم العدو منها ظلمًا وزورًا ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ بأن تغلبوا وتظفروا على عدوكم، وتخرجوهم منها مهانين مغلوبين مستضعفين ﴿وَ﴾ بعدما أيدكم وأظفركم سبحانه ﴿رَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي غنمتم منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26] رجاء أن تواظبوا شكر هذه النعم الجسام.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال:27-30].

ثمّ قال سبحانه على وجه العظة والتذكير تعليمًا للمؤمنين، مناديًا لهم؛ ليقبلوا بما أمروا ونهوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: أن ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ في امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَالرَّسُولَ﴾ في سننه وأخلاقه وآدابه التي وضعها فيما بينكم؛ لإصلاح حالكم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾[1] التي ائتمنتم فيها اعتمادًا وثقةً ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:27] قبح الخيانة من أنفسكم بلا احتياج إلى إنذار منذر، وإخبار مخبر، والخيانة في الأمانات إنما تنشأ من جلب المنفعة والحرص المفرط، وتكثير الميل إلى المال الصالح للعيال.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ اختبار وابتلاء لكم من ربكم يجربكم هل تضطربون في أمر المال والعيال، وتوقعون لأجلها في المهالك وإباحة المحرمات، وارتكاب الخيانات المسقطة للمروءات مطلقًا؟ أم تفوضون الأمور كلها إلى الله وترضون بما قضى عليكم، وقدر لكم في سابق علمه ولوح قضائه؟ ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع حالاتكم ﴿عِنْدَهُ﴾ وفي كنف حفظه وجواره ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:28] للمفوضين الذين رضوا بقسمة الله في جميع حالاتهم، ووفوا بما ائتمنوا من الأمانات مجتنبين عن الخيانة فيها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ وتحذروا عن محارمه ومحظوراته مطلقًا،

---

(1) قال في «التأويلات»: الأمانة: هي محبة الله تعالى، وخيانتها بتبديلها بمحبة المخلوقات، يشير إلى إن أرباب القلوب وأصحاب السلوك إذا بلغوا إلى أعلى مراتب المقامات والقربات ثم التفتوا إلى شيء من الدنيا وزينتها، وخانوا الله بنوع من التصنع، وخانوا الرسول بالتبدع وترك التتبع، وتتعدى الخيانة وآفاتها إلى الأمانة التي هي المحبة، فتسلب عنهم بالتدريج فيكون ركونهم إلى الدنيا وسكونهم إلى جمع المال حرصًا على الأولاد.

وتؤدوا الأمانات التي ائتمنتم بها من الأموال والشهادات بلا خيانة فيها، وتفوضوا أموركم كلها إليه مجتنبين ﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾ وينزل على قلوبكم تفضلاً وامتنانًا ﴿فُرْقَانًا﴾ ينور به قلوبكم إلى حيث تميِّزون الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والإلهام الإلهي من إغواء الشيطان وتقريره ﴿وَيُكَفِّرْ﴾ به ويمحو به ﴿عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: جرائمكم اللاتي مضت عليكم بالمرة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ويستر عنكم ذنوبكم مطلقًا؛ تفضلاً وامتنانًا ﴿وَ﴾ لا تتعجبوا من أفضاله هذا، ولا تستبعدوا منه سبحانه أمثاله، إن ﴿اللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:29] واللطف الجسيم على من توكل عليه، والتجأ نحوه في جميع حالاته على وجه الخضوع والخشوع.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل إنجاءنا وخلاصنا إياك وقت ﴿إِذْ يَمْكُرُ﴾ ويخدع ﴿بِكَ﴾ إهلاكك ومقتك ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: قريشًا شاوروا لأمرك في دار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ويحبسوك في دار ليس فيها منفذ ولا كوة يلقون منها طعامكم أحيانًا ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ مزدحمين؛ بحيث لم ينسب قتلك إلى معين منهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة محمولاً على عجل؛ ليقتلك القطاع ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَمْكُرُونَ﴾ أولئك الكفرة العصاة الطغاة لمقتك ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ الرقيب عليك؛ لإنجائك وخلاصك من أيديهم فغلب مكره سبحانه على مكرهم، وأخرجك من بينهم سالمًا ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لجميع محايلهم ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:30] أي: أشدهم وأقواهم تأثيرًا وقوةً.

وذلك أنهم حين سمعوا إيمان الأنصار تشاوروا على أظهرهم في أمره ﷺ، وارتفاع شأنه، وسطوع برهانه فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: أنا من نجد، سمعت اجتماعكم فأحضركم؛ لأعلم كيف تدبرون في أمر هذا الشخص الذي لو بقي زمانًا على هذا يُخاف عليكم من شره؟.

فقال أبو البحتري: رأيي أن تحبسوه في بيت، وتسدوا منافذه غير كوة يلقون إليه طعامه وشرابه حتى يموت، فقال الشيخ النجدي: بئس هذا الرأي، يأتيكم من يقاتلكم من قومه يخلصونه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو: رأيي أن يحملوه على جمل فيخرجوه من أرضكم، ولا يلحقكم ضرر بني هاشم، فقال الشيخ: يفسد قومًا آخر ويقاتلكم بهم أمَا رأيتم طلاقة لسانه وحلاوة كلامه، ووجاهة منظره؟.

فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلامًا وتعطوه سيفًا، فيضربون دفعة واحدة فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حروب قريش كلهم، فإن

طلبوا العقل عقلناه، فقال الشيخ: صدق هذا الفتى، واتفقوا على رأيه.

فأتى جبريل النبي - عليهما السلام - وأخبره الخبر وأمره بالهجرة فبيَّت ﷺ عليًا - كرم الله وجهه - على مضجعه متسجيًا ببرده، وخرج ﷺ مع أبي بكر ﷺ ومضيا إلى الغار وبات المشركون يحرسون عليًا - كرم الله وجهه - يحسبون النبي ﷺ، فلمّا أصبحوا ساروا ليقتلوه فرأوا عليًا، فقالوا: أين صاحبكم؟ فقال: ما أدري فاتبعوا أثره، فلمّا بلغوا الغار رأوا نسج العنكبوت على بابه، فقالوا: لو دخله لم يبق لنسج العنكبوت أثر، فمكث فيه ﷺ ثلاثة ثمّ خرج نحو المدينة.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال:31-33].

﴿وَ﴾ من مكرنا إياهم أنّا ختمنا على قلوبهم وسمعهم بختم القساوة والغفلة بحيث ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ مع أنهم عارضوا زمانًا، ثمّ عجزوا مع وفوره دواعيهم، فلمّا عجزوا عن إتيان مثله ﴿قَالُوا﴾ مكابرةً وعنادًا: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:31] أي: أكاذيبهم التي سطروها في دواوينهم؛ لتعزيز السفهاء.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَالُوا﴾ من غاية عتوهم وفرط انهماكهم في الغفلة والضلال، وإصرارهم على تكذيب القرآن والرسول: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا﴾ المفترى ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ الثابت النازل ﴿مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ بسبب تكذيبنا إياه ﴿حِجَارَةً مِّنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ﴾ واستأصلنا بها ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:32] مؤلم مفزع، وما هذا إلا مبالغة في تكذيب القرآن والرسول على سبيل التهكم.

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾[1] وإن استحقوا أشد العذاب والنكال والهلاك الكلي؛

---

(1) انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ﴾ إلخ، كيف جُعل الوجود النبوي، وحصول الاستغفار سببًا لارتفاع العذاب، وباعثًا على الأمان؟ فالأول: من الأسباب الآفاقية، والثاني: من الأسباب الأنفسية، فكما أن الورثة خلفاء الرسول ﷺ ونوابه، وبهم يحصل من الأمان ما يحصل به، وإن

بسبب تكذيبك وتكذيب كتابك ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يعني: مادمت فيهم وفي ديارهم ومكانهم، فإن عذبهم الله فقد أصابك مما أصابهم ﴿وَ﴾ إن أمكن تخليصك وإنقاذك حين تعذيبهم ﴿مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ وما أراد تعذيبهم واستئصالهم ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:33] أي: يتوقع منهم، من أخلافهم الإيمان والاستغفار في الاستقبال بخلاف الأمم الهالكة من قبل.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال:34-35].

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ أي: أيّ شيء يمنع تعذيب الله إياهم مع أنهم مستحقون للعذاب؟ وكيف لا يعذبون هؤلاء المستكبرون المعاندون ﴿وَهُمْ﴾ من شدة عتوهم وعنادهم ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون المؤمنين ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والطواف نحو البيت مدعين ولايته؟! ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: ليس لهم صلاحية الولاية في بيت الله؛ لخباثة كفرهم وفسقهم، وعدم لياقتهم ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ويتطهرون عن المعاصي والآثام مطلقًا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:34] عدم ولايتهم ولياقتهم لها، ومع ذلك يدعونها مكابرةً واستكبارًا وإن كان بعضهم يعلم ولكن يعاند.

﴿وَ﴾ بعدما لم يصلحوا لولاية البيت ﴿مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ ودعاؤهم ﴿عِندَ الْبَيْتِ﴾ المعدّ للتوجه والتقرب نحو الحق على وجه الخضوع والانكسار، والتذلل والافتقار ﴿إِلَّا مُكَاءً﴾ صفيرًا وصداء ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقًا وتبخترًا، مع أنهم يدعون ولايته ورعاية حرمته، وما ذلك إلا من أمارات الاستهانة والاستخفاف المستلزم للكفر

كان دونه؛ فكذا القلب بمنزلة الوجود المحمّدي في عالم الوجود بشرط أن يظهر على الصفة النبوية من التوجه إلى الله تعالى، والتبتّل إليه، فإذا بالإنسان الكامل وبظاهره يحصل الأمان لظاهر العالم وصورته، وبقلب الإنسان الكامل ونفسه؛ يحصل الأمان لنفسه، فهو أمان مطلق من الله تعالى في حق نفسه، وفي حق غيره.

﴿فَذُوقُوا العَذَابَ﴾ أيها المنهمكون في الضلال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكفُرُونَ﴾ [الأنفال:35] في النشأة الأولى والأخرى.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[الأنفال:36-37].

ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا الحق، وأصروا على الباطل عنادًا واستكبارًا إلى حيث ﴿يُنفِقُونَ أَموَالَهُمْ﴾ على وجه الصدقة للمتجيشين ﴿لِيَصُدُّوا﴾ ويمنعوا أهل الحق ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ إعلاءً للباطل على الحق، وترويجًا للضلالة على الهداية، وذلك يوم بدر ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ كثيرًا أيضًا على هذه النية؛ تتميمًا لغرضهم الفاسد ورأيهم الكاسد، فلا يصلون إلى مبتغاهم أصلاً وإن بالغوا في الإنفاق.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تنبهوا بعدم إفادتها ﴿تَكُونُ﴾ وتصير تلك الصدقة والإنفاق ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ متمكنة راسخة في قلوبهم، مورثة لحزن طويل؛ لتضييع المال بلا ترتب فائدة تبغونها ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ وهذا أعظم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن دينه ونبيه وكتابه ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:36] يساقون سوق البهائم والمسخ.

وإنّما يفعل بهم سبحانه هذا ﴿لِيَمِيزَ اللهُ﴾ الناقد البصير لأعمال عباده ﴿الخَبِيثَ﴾ المنغمس في الكفر والضلال ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الصافي عن شوب الكدر مطلقًا ﴿وَ﴾ بعد فصله وتمييزه ﴿يَجْعَلَ الخَبِيثَ﴾ جملة واحدة، بأن يضم ﴿بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ﴾ ويجمعه ﴿جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ﴾ ويطرحه بعد جمعه وتركيمه ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ الإمكان وجحيم الخذلان، وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المنغمسون في خباثة الكفر والطغيان ﴿هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال:37] المقصورون على الخسران الأبدي، المجبولون على الحرمان السرمدي، ليس لهم نصيب من مستلذات الجنان، وحظ من لقاء الرحيم الرحمن الكريم المنّان.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ

سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال:38-40].

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تبشيرًا لهم ووعدًا: لا ييأس من روح الله وسعة جوده ورحمته عمَّا هم عليه من الكفر والضلال، بل ﴿إِن يَنتَهُوا﴾ ويعرضوا عن الكفر والإلحاد نحو الباطل الزائغ، والميل إلى البدع والأهواء الفاسدة الكاسدة من تكذيب الكتب والرسل بالإيمان الخالص عن ظهر القلب، ورفع المنازعة والمخاصمة مع رسول الله ﷺ ومن تابعه ﴿يُغْفَرْ لَهُم﴾ ويعفى عنهم ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من الجرائم مطلقًا ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ على كفرهم ونزاعهم، ويرتدوا بعد إيمانهم وصلحهم ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:38] أي: الأمم الهالكة الذين كفروا بالله، وخرجوا على رسله فأصابهم ما أصابهم، كذلك يصيبهم مثل ما أصابهم فليتوقعوا.

﴿وَ﴾ بعدما خرجوا من عهدهم ونقضوا ميثاقهم، وارتدوا على أدبارهم ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ أي: المرتدين، واستأصلوهم ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ﴾ أي: توجد وتبقى ﴿فِتْنَةٌ﴾[1] بقية من شركهم مضلة لضعفاء الأنام ﴿وَ﴾ بعد استئصالهم وانقطاع شركهم وعرقهم ﴿يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ بالقتال عن شركهم وكفرهم، وأقروا بالإيمان والإطاعة فخلوا سبيلهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع بضمائرهم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في بواطنهم من الوفاق والنفاق ﴿بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 39] يجازيهم على مقتضى بصارته وخبرته.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا﴾ أي: لم ينتهوا بالقتال عن كفرهم، بل أصروا عليه وأخذوا أولياء من إخوانهم وشياطينهم، واستعانوا منهم بمقاتلتكم أيها المؤمنون لا تبالوا بهم

---

(1) الإشارة إلى كفرة النفوس الأمّارة بسوء أي: جاهدوها، وأميتوها حتى تتقلّص مزارع أنوار اليقين، ومرا بع سنا الإسلام والدين، ويتفرد القلب بنور الموحّد والتوحيد من كلّ خاطرٍ غير خاطر الحقّ، ويكون القلب كلّه مستغرقًا في بحار محبّته، والروح هائمة في أودية هويته، والعقل تائهًا في صحاري أزله وأبده، ولا يكون منها جميعًا نظرٌ إلى غيره. فإن النفس حجاب القهر بينها وبين بارئها، الذي هو منعم عليها بإلقاء محبّة وجهه فيها، ونصرها على نفوسها وهواها. [عرائس البيان].

ويمعاونيهم ومظاهريهم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على وجوه الانتقام ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ معينكم ومولي أموركم ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾ مولاكم ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال:40] نصيركم وظهيركم.

﴿ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال:41-42].

﴿وَ﴾ بعدما انتصرتم وظفرتم عليهم ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ منهم وأخذتم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي: مما يطلق عليه اسم الشيء حتى الخيط ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ أي: فاعلموا أن خمسه ثابت لله ﴿وَ﴾ يصرف من مال الله خمسه ﴿لِلرَّسُولِ﴾ المستخلف منه، النائب عنه ﴿وَ﴾ بعد انقراضه يصرف إلى الولاة المقيمين لحدود الله، وسهم آخر منه ﴿لِذِي الْقُرْبَى﴾ المنتمين إلى رسول الله ﷺ من بني هاشم وعبد المطلب.

﴿وَ﴾ آخر حق ﴿الْيَتَامَى﴾ الذين لا مال لهم ولا متعهد ﴿وَ﴾ آخر حق ﴿الْمَسَاكِينِ﴾ الذين أسكنهم الفقر والفاقة في زاوية الهوان والمذلة ﴿وَ﴾ آخر حق ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ المنقطعين عن الأوطان لمصلحة شرعية، فعليكم أيها الحكام أن تحافظوا على هذه القسمة ولا تتجاوزوا عنها ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ المستوي على العدل القويم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ بمقتضى جودنا ولطفنا من النصر والظفر على الأعداء والإمداد بالملائكة ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾ وحبيبنا ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ الفارق بين الحق والباطل والمحق والمبطل، وذلك ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي: الصنفان من الطرفين في بدر مع ضعف أهل الحق وقوة الكفار ﴿وَاللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من نصر ضعفاء الأولياء وانهزام أقوياء الأعداء ﴿قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:41].

اذكروا أيها المؤمنون ضعفكم ورثاثة حالكم وقت ﴿إِذْ أَنتُم﴾ مترددون ﴿بِالْعُدْوَةِ

الدُّنْيَا﴾ أي: على شفير الوادي التي هي أقرب إلى المدينة ولا ماء فيها، ورمالها تسوخ أرجلكم وأنتم راحلون ﴿وَهُم﴾ متمكنون ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أي: على شفير الوادي الأبعد من المدينة والماء عندهم ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير التي قصدتم نحوه قد كان بمكانٍ ﴿أَسْفَلَ﴾ وأبعد ﴿مِنكُمْ﴾ على ساحل البحر مقدار ثلاثة أميال، وأنتم حيارى بين الإقدام والإحجام.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وهم القتال في وقت معين بلا وحي من الله ووعد من جانبه ﴿لاخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم ألبتة؛ لضعفكم وقوتهم وهيبتهم ﴿فِي الْمِيعَادِ﴾ الذي وعدتم معهم؛ لرعبكم ورهبتكم منهم ﴿وَلَكِن﴾ جمع سبحانه بلطفه شملكم ومكنكم في مكانكم، وأمطر عليكم في ليلتكم ﴿لِّيَقْضِيَ اللهُ﴾ المولي لنصركم وغلبتكم ﴿أَمْرًا﴾ حكمًا مبرمًا ﴿كَانَ مَفْعُولاً﴾ عنده وإن لم يفعل بعد، وإنما فعل سبحانه بكم ما فعل من النصر والظفر بهم من القهر والقمع ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ من الكفار ﴿مَنْ هَلَكَ﴾ أي: مات وانخذل غيظًا ﴿عَن بَيِّنَةٍ﴾ واضحة شاهدتها ﴿وَيَحْيَى﴾ أيضًا من المسلمين ﴿مَنْ حَيَّ﴾ فرحًا ﴿عَن بَيِّنَةٍ﴾ واضحة لائحة انكشف بها ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَسَمِيعٌ﴾ لمناجاة كلا الفريقين ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:42] بنياتهم، يفعل من كل منهم على مقتضى علمه.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال:43-44].

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ﴾ أي: أعداءك ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ مما كانوا عليه؛ تشجيعًا لك ولأصحابك ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا﴾ وعلى شوكتهم التي هم فيها ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ وخيبتم ألبتة رهبةً وهيبةً ﴿وَ﴾ بعدما خيبتم ﴿لَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ أي: أمر القتال بعدما عرفتم كثرتهم وشوكتهم، بل تشرفون على الاستدبار والانهزام ﴿وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ﴾ أي: أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع بإنزال السكينة والوقار على قلوبكم؛ بسبب تلبيس التقليل ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال:43] يعلم مآل أمركم وعاقبته، لذلك لبَّس عليكم؛ ليجرئكم على القتال لإعلاء كلمة توحيده ونصر دينه.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا إمداد الله إياكم بتلبيس الأمر عليكم ﴿إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ أي: أعداءكم ﴿إِذِ التَقَيْتُمْ﴾ صافين من الطرفين ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ﴾ كما في منامكم ﴿قَلِيلاً﴾ لتستقلوهم وتجترءوا عليهم ﴿وَ﴾ يلبس أمركم عليهم أيضًا تغريرًا لهم ومكرًا؛ إذ ﴿يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى لا يبالوا بكم ويجمعكم؛ ولذلك قال أبو جهل حين تراءت الفئتان: إن محمدًا وأصحابه أكلة جذور، وإنما فعل سبحانه ما فعل من التلبيس على كلا الفريقين ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ﴾ عنده ﴿مَفْعُولاً﴾ حتمًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِلَى اللهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الأنفال:44] كلها؛ إذ منه بدأ وإليه يعود.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنفال:45-47].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: الاعتصام بحول الله وقوته عليكم ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ من الكفار ﴿فَاثْبُتُوا﴾ وتمكنوا تجاه العدو ولا تضطربوا، ولا تستدبروا ﴿وَ﴾ بعد استقراركم وثباتكم ﴿اذْكُرُوا اللهَ﴾ ذكرًا ﴿كَثِيرًا﴾ واستعينوا منه وتوكلوا عليه ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:45] تفوزون بالنصر والظفر، والغلبة والغنيمة إن أخلصتم النية.

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في جميع حالاتكم، سيما عند المقابلة ومقاتلة العدو ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ باختلاف الآراء والأهواء، بل فوضوا أموركم إلى الله ورسوله، وإن وقع النزاع والمخالفة بينكم ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ وتضعفوا فيفتر عزمكم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: دولتكم وهيبتكم التي ظهرت عليكم من نور الإسلام ﴿وَ﴾ بعدما سمعتم ما سمعتم ﴿اصْبِرُوا﴾ على مشاق الجهاد، ورابطوا قلوبكم إلى الله ورسوله ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:46] المرابطين المتمكنين، يعين عليهم وينصرهم.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون القاصدون نحو الجهاد ﴿كَالَّذِينَ﴾ أي: كالكفار الذين ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ يعني: مكة للقتال ﴿بَطَرًا﴾ مفاخرين مباهين بعددهم وعُددهم ﴿وَ﴾ يقصدون بذلك الخروج ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ ليثنوا بالشجاعة والسماحة ﴿وَ﴾ هم بمجرد هذا القصد الفاسد والنية الكاسدة ﴿يَصُدُّونَ﴾ أي: ينصرفون ويحرفون ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ الموضوع على العدل القويم، المسمى بالصراط المستقيم ﴿وَاللهُ﴾ المطلع

بجميع أحوالهم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ويؤملون من المخايل الفاسدة ﴿مُحِيطٌ﴾ [الأنفال:47] بعلمه الحضوري، يجازيهم عليها بمقتضى علمه وخبرته.

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال: 48-49].

﴿وَ﴾ من جملة ما يعين عليكم ويمد لنصركم: تغرير الشيطان وإغراؤه على أعدائكم إمدادًا لكم فيصير وبالاً عليهم، اذكروا ﴿إِذْ زَيَّنَ﴾ أي: حسن وحبب ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: عداوتهم وقتالهم معكم ﴿وَقَالَ﴾ الشيطان تحريضًا لهم على القتال ملقيًا في روعهم على سبيل الوسوسة، حتى خيلوا أنهم لا يغلبون أصلاً اعتمادًا على كثرة عددهم وعُددهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ فلكم اليد والغلبة ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ مجير لكم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾ أي: تلاقيا وتلاحقا فرأى اللعين من صفوف الملائكة ما رأى ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[1] أي: رجع قهقرى ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾ ومن

---

(1) قال نجم الدين في «التأويلات»: فيه إشارة إلى أن الشيطان عند استيلاء النفس وغلبات أوصافها وهواها يزين الدنيا وشهواتها وزخارفها للنفوس، ويعينها على طلبها واستيفاء لذاتها؛ ليضلها عن سبيل الله، فلمّا استولت القلوب والأرواح على النفوس، وانقادت النفوس لحزب الله انكسرت أوصافها وهواها، واطمأنت بذكر الله وطاعته يكون الشيطان مخالفًا لها بعد أن كان موافقًا ومحبًا ومعاونًا لها، فيفر منها ويتبرأ منها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:48] فلا يبقى له مدخل يدخل بها في النفوس ويوسوسها؛ لأنه يرى بنظر الروحاني على النفوس من القلوب أنوار الرباني ولو وقع على الشيطان منها تلألؤ يحرقه في الحال ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:48] وقد صدق الكذوب أنه يخاف من شدة عقاب الله تعالى، فإن عقابه ومضان بروق ضفة قهره لو وقع عليه لتلاشى، ولذلك كان من يفر من ظل عمر و«ما سلك عمر ﷺ فجًا إلا وسلك الشيطان فجًا آخر»؛ لئلا يقع عليه عكس نور ولاية عمر ﷺ فيحرقه، وقد علم الشيطان أنه من المعلنين المعاقبين، وإنما خوفه من الله من شدة عقابه؛ لأنه يعلم أن لا نهاية لشدة عقابه والله قادر على أن يعاقبه بعقوبة أشد من الأخرى، وفيه إشارة أخرى إلى أن خوفه من الله تعالى يدل على أنه غير منقطع الرجاء.

جواركم ﴿إِنِّي أَرَى﴾ من جنود السماء ﴿مَا لَا تَرَوْنَ﴾ ينزلون منها؛ لإمداد هؤلاء بإذن الله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ﴾ من قهره وغضبه ﴿وَاللهُ﴾ القادر على جميع وجوه الانتقام ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:48] أليم العذاب، لا نجاة للعصاة الغواة من عذابه وعقابه.

اذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: الذين لم يصفوا عن شوب الشبهة، ولم يصلوا إلى مرتبة الاطمئنان في الإيمان، حين خرجتم نحو العدو مجترئين مع قلتكم وكثرة عددكم: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ فألقوا أنفسهم إلى التهلكة بأيديهم بخروج ثلاثمائة عزل بلا عدة إلى زهاء ألف مستعدين، لا تبالوا أيها المطمئنون بالإيمان بهم وبقولهم، لا تفتروا وتضعفوا من هذياناتهم، بل توكلوا على ربكم وفوضوا الأمر إليه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ فهو حسبه ﴿فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ غالب في ذاته، قادر على إعانة من إستعان منه ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:49] متقن في فعله وأمره، ويأمر ما تستبعده العقول وتدهش فيه الأحلام.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال:50-53].

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الرائي وقت ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: يتوفاهم الملائكة، ويقتلهم يوم بدر حال كونهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ من يأتي منهم من أمامهم ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي: يضربون من خلفهم من يأتي من ورائهم ﴿وَ﴾ يقولون حين ضربهم وقتلهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المعاندون المعادون مع الله ورسوله ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:50] أي: أنموذج عذاب النار حتى تصلوا إليها، ولو رأيت حالهم حينئذٍ أيها الرائي لرأيت أمرًا فظيعًا فجيعًا.

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب والنكال في النشأة الأولى والآخرة إنما عرض عليكم أيها المسرفون ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بشؤم ما كسبتم لأنفسكم من الكفر والشرك ومعاداة الرسول والمؤمنين، وبمقدار ما اقترفتم بلا ظلم عليكم ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾

المستوي على العدل القويم ﴿لَيْسَ بِظَلاَّمٍ﴾ أي: ظالم ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال:51] الذين يظلمون أنفسهم باقتراف المعاصي والآثام، بل يجازيهم على مقتضى جرائمهم عدلاً منه سبحانه.

إذ دأب هؤلاء المصرين المعاندين ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: سنتهم وعملهم كعمل آل فرعون وسنتهم ﴿وَ﴾ كدأب القوم ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود ﴿كَفَرُوا﴾ أولئك البعداء الخارجون عن طريق الحق ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ المنزلة على رسله عتوًا وعنادًا كهؤلاء المصرين المستكبرين ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾ المنتقم منهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي كسبوها لنفوسهم كهؤلاء ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال ﴿قَوِيٌّ﴾ على الانتقام ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:52] على من خرج عن مقتضى أمره، بحيث لا يرفع عقابه شيء.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: حلول الغضب والنكال عليهم ﴿بِأَنَّ اللهَ﴾ المنعم المفضل ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ مبدلاً محولاً ﴿نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ ويبدلوا ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من مقتضيات العبودية والانقياد بالخروج عن حدود الله، ونقض عهوده وارتكاب نواهيه ومحظوراته، وتكذيب آياته ورسله كما غيرها قريش ﴿وَأَنَّ اللهَ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿سَمِيعٌ﴾ لما يقولون على الله وعلى رسوله حين بطرهم وغفلتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:53] بما يخفون في نفوسهم من الأباطيل.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال:54-56].

إذ دأب هؤلاء المسرفين المغيرين على ما هم عليه من المظاهرة والوفاق، والأخوة والقرابة ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ خلوا ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ على ديدنتهم وسنتهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كهؤلاء المكذبين ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ واستأصلناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بشؤم ذنوبهم بأنواع العذاب بالطوفان والريح، والخسف والكسف ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ المسرفين المبالغين في العتو والاستكبار في اليم؛ لاستغراقهم في بحر الغفلة والضلال ﴿وَكُلٌّ﴾ من أولئك الطغاة وهؤلاء الغواة ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

[الأنفال:54] أنفسهم بالخروج عن ربقة العبودية ورق الإطاعة والانقياد؛ لذلك جزيناهم بما جزيناهم وهل نجازي إلا الكفور؟!.

ثمّ قال سبحانه تسجيلاً عليهم بالكفر والضلال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ﴾ الحكيم المظهر المتقن في إظهارها ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وآياته ورسله، وأصروا عليه بلا تمايل منهم إلى الإيمان؛ لرسوخهم فيه ﴿فَهُمْ﴾ من خبث طينتهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال:55] أي: لا يرجى منهم الإيمان أصلاً.

عبّر سبحانه عنهم بلفظ الدواب؛ لانخلاعهم عن مقتضى الإنسانية الذي هو الإيمان والمعرفة مطلقًا فلحقوا بالبهائم، بل أسوأ حالاً منها، لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ [الأنفال:22، 55].

وإنما صاروا من شر الدواب؛ لأنهم ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل وأخذت مواثيقهم مرارًا ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ وما هي إلا من شدادتهم وخباثة طينتهم، وعدم فطنتهم لحكمة المعاهدة والمواثيق ﴿وَهُمْ﴾ من تركب جهلهم ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال:56] ولا يتركون الغدر والنفاق، ولا يوفون بالعهد والميثاق.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال:57-59].

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ وتظفرون عليهم ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم﴾ وفرق جمعهم، وشتت شملهم بحيث ينقطع منهم ﴿مَّنْ﴾ يأتي ﴿خَلْفَهُمْ﴾ من مظاهرهم ومعاونيهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بتشتيتك وتفريقك إياهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال:57] يتعظون وينتبهون من أمرك وتأييدك فيؤمنوا بك وبما جئت به.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ عاهدت معهم، وأخذت الميثاق عنهم ﴿خِيَانَةً﴾ ونقضًا من إمارات لاحت منهم وظهر عليهم ﴿فَانبِذْ﴾ واطرح ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أولاً عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ بلا عذر وخداع، وأظهر العداوة، وارفع المعاهدة على رءوس الملأ، ثمّ اخرج عليهم بالقتال؛ لئلا يؤدي إلى الخيانة والغدر ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتصف بالعدل القويم ﴿لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ [الأنفال:58] المخادعين الغادرين، سيما من المؤمنين الموحدين.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبك ﴿سَبَقُوا﴾ مضوا وانقرضوا على ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال:59] المؤمنين، ولا يضطرونهم إلى القتال فعليكم جمع العدة والتهيئة.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال:60-63].

﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1] أي: هيئوا لقتالهم من الآلات والأسباب ما يحتاجون في حرابهم، سيما آلات الرمي ﴿وَمِن﴾ جملة العدة: ﴿رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ أي: شد الفرس وارتياضه ليوم الحرب ما يفعله ويشده الأبطال المتشوقون إلى القتال ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ أي: بالأعداد والشد ﴿عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم الذين في حواليكم يقاتلونكم، ويخاصمون معكم جهرةً وعلانيةً؛ يعني: كفار مكة.

---

(1) قال البقلي: أعلم الله المؤمنين والعارفين الاستعداد لقتال أعداء الله، وسمّى آلة القتال القوة، وتلك القوة قوة الإلهية، التي لا ينالها العارف من الله إلا بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يُلبسه الله لباسًا من الله بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباس عظمته، ونور كبريائه وهيبته، ويغريه إلى الدعاء عليهم، ويجعله منبسطًا، حتى يقول في همّته وسرّه: إلهي خذهم، فيأخذهم بلحظة، ويُسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه، ويسلّي قلب وليّه، ويريحه من شرور معارضيه ومنكريه، وذلك سهمٌ رُمي بقوس الهمّة عن كنانة الغيرة، كما رمى نبي الله ﷺ إلى منكريه، حين قال: «شاهت الوجوه». وهذا الوحي من الله بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ سمعت أن ذا النون كان في غزو، وغلب المشركون على المؤمنين، فقيل له: لو دعوت الله، فنزله عن دابته وسجد، فهزم الكفار في لحظة، وأخذوا جميعًا، وأسروا وقُتلوا. وأيضًا اقتبسوا من الله قوة عن قوى صفاته لنفوسكم؛ حتى تقوّيكم في محاربتها وجهادها. قال أبو علي الروذباري: «القوة»: هي الثقة بالله. قيل: ظاهر الآية أنه الرمي بسهام القسي، وفي الحقيقة رمي سهام الليالي في الغيب بالخضوع والاستكانة، ورمي القلب إلى الحقّ، معتمدًا عليه، راجعًا عمّا سواه.

﴿وَ﴾ ترهبون به أيضا ﴿آخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ يعني: الذين ينافقون معكم ويظهرون إطاعتكم وإخاءكم ظاهرًا، ويريدون إهلاككم ومقتكم في بواطنهم ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ أي: عداوتهم؛ لإخفائهم وإظهارهم صداقتكم ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿يَعْلَمُهُمْ﴾ ويعلم عداوتهم ونفاقهم، ويجازيهم عليها ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ﴾ للأعداء والتجهيز ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصر دينه، وإعلاء كلمة توحيده ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه بأضعاف ما تصرفون وآلافه ﴿وَأَنتُمْ﴾ في إنفاقكم وإعدادكم ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:60] أي: لا تنقصون من جزائه ولا تخسرون، بل تربحون وتفوزون بما ترضى به نفوسكم، وبما لا تدركه عقولكم من الكرامة تفضلاً وامتنانًا.

﴿وَ﴾ بعدما أعددتم عددكم، وهيأتم أسباب الحرب ﴿إِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ أي: مال أعداؤكم للمصالحة والمعاهدة ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾[1] أي: مل وارض أيها الداعي للخلق إلى الحق تليينًا لهم وتلطيفًا معهم على مقتضى مرتبة النبوة والتكميل ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في جميع أمورك وثق به سبحانه، ولا تخف من مكرهم وخداعهم، فإن الله حسبك وظهيرك يحفظك من مكرهم وغدرهم ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال:61] بنياتهم وأعمالهم.

﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ بعدما صالحوا وعاهدوا ﴿أَن يَخْدَعُوكَ﴾ ويمكروا بك وبأصحابك فلا تبالوا بهم وبغدرهم وخداعهم ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ﴾ أي: كافيك وظهيرك، ومولى جميع أمورك ﴿اللَّهُ﴾ الرقيب عليك في جميع حالاتك، كيف لا يرقبك من مكرهم ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ﴾ وقواك، وأظفرك عليهم ﴿بِنَصْرِهِ﴾ بلا أعداء ورباط خيل ﴿وَ﴾ بعد تأييدك بنصره أيدك أيضا ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:62] بإيمانهم وإطاعتهم لك، وبذل مالهم ومهجهم لتقويتك وإعلاء دينك.

---

(1) وذلك إن النفس لما رأت صدق الطالب الصادق في الصدق شاهدت جده في الاجتهاد، وتحقق عندها ثباتها على مخالفتها، ومواظبته في العبودية، وتألفت مع الطاعات والعبادات، فتنور بأنوارها وتنقاد لأحكام الشريعة، وتزكى بتزكية الطريقة، وتتنسم روائح الحقيقة، وتطمئن إلى ذكر الله تعالى، فحينئذ يجوز مصالحتها على القيام بأداء الأوامر والنواهي والفرائض والسنن وترك الدنيا وزينتها وشهواتها على تبديل الصفات النفسانية الحيوانية بالأخلاق الروحانية الربانية، وألا يحمل عليها إصرًا من دوام المجاهدة والرياضة البدنية ولكن مع هذا لا يعتمد على النفس وصلحها، بل يكون الطالب متيقظًا محتاجًا متوكلاً على الله تعالى في مراقبتها؛ لئلا تخدعه وتمكر به. [التأويلات النجمية].

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بحيث ارتفع غشاوة الحمية وحجب التعصب عن ضمائرهم مطلقًا، وصاروا في محبتك ومودتك مستوية الأقدام، متحابين لله، منخلعين عن لوازم البشرية مطلقًا، مع كونهم في جاهليتهم على التغالب والتهالك بمقتضى الحمية الجاهلية والغيرة البشرية بحيث ﴿لَوْ أَنفَقْتَ﴾ وصرفت ﴿مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لائتلافهم واجتماعهم ﴿مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لشدة بغضهم ونفاقهم ﴿وَلَكِنَّ اللهَ﴾ المحول لأحوال عباده ﴿أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بمقتضى لطفه وجماله؛ لينصروك ويقبلوا دينك، ويصلوا إلى مرتبة اليقين والعرفان، ويتحققوا في مقر التوحيد ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع مراداته ومقدوراته ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:63] متقن في جميع أفعاله، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنفال:64-66].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيَّد من عند الله بالنصر والظفر على الأعداء ﴿حَسْبُكَ اللهُ﴾ المولي لأمورك ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ بإذن الله ومشيئته ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:64] الموقنين بتوحيد الله، الموفين بعهوده، الباذلين مهجهم في سبيله.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المظفر المنصور بنصر الله ﴿حَرِّضِ﴾ ورغب ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين ﴿عَلَى الْقِتَالِ﴾ في سبيل الله؛ لترويج توحيده، وقل لهم نيابةً عنا ووعدًا منا: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ مستقرون ثابتون تجاه العدو ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ منهم بتأييد منّا وعون ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ﴾ صابرة راسخة، متمكنة ﴿يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بإمدادنا إياكم إلى حيث يقاوم واحد منكم عشرة منهم، ذلك المغلوبية والانهزام إنما عرض عليهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال:65] أي: لا يصلون إلى مرتبة العلم اليقيني بالله وكتبه ورسله؛ حتى يترقوا منه إلى مرتبة العين والحق، بل يبقون على مرتبة الحيوانية مهانين مغلوبين مخذولين.

هذا في بدء الإسلام وضعف المسلمين وقلتهم، وبعدما ارتفع قدره وعلا رتبته

وكثر أهله، وانتشر في الآفاق قال سبحانه: ﴿الْآنَ﴾ أي: حين كثر عددكم وعُددكم، وثقل عليكم ما أمرتم ﴿خَفَّفَ اللَّهُ﴾ الميسر لأموركم أثقالكم ﴿عَنكُمْ وَعَلِمَ﴾ بعلمه الحضوري ﴿أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ تستثقلون بتحمل المأمور به، أمركم ثانيًا بقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ ثابتة ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ منهم ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1] ونصره وتأييده ﴿وَاللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 66] المتجملين في متاعب أمور الدين.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال:67-69].

ثمّ أشار سبحانه إلى سر جواز أخذ الفدية والجزية للرسل والأنبياء، ووقّته وسبّبه فقال: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِنَبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿أَن يَكُونَ لَهُ﴾ وفي يده ﴿أَسْرَىٰ﴾ من الكفار يفديهم على المال، ويخلي سبيلهم ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يجوز لهم أخذ الفدية إلى أن يكثر القتل ويذل الكفار، ويعز الدين ويغلب أهله إلى حيث اضطر المخالفون لتخليص نفوسهم إلى الفدية، مع أنه لا يتوقع منهم المنازعة والمخاصمة أصلاً، وصاروا مهانين مقهورين، ومتى لم يصلوا إلى هذه المرتبة لم يصح أخذ الفدية، وإذا كان أمر الفدية هكذا، كيف ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون بأخذها ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ ومتاعها وحطامها ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوالكم، المدبر لأموركم ﴿يُرِيدُ﴾ لكم ﴿الْآخِرَةَ﴾ وثوابها بأخذها، وما يترتب عليها من اللذات الروحانية، وأنتم

---

(1) قال في «التأويلات»: يعني: الغلبة والظفر ليس من قوتكم؛ لأنكم ضعفاء، وإنما هو بحكم الله الأزلي ونصره، وإلى الأقوياء وهم محمد ﷺ والذين معه أشداء على الكفار؛ لقوة توكلهم ويقينهم وفقه قلوبهم لا يفر واحد منهم من مائة من العدو كما كان حال النبي ﷺ ومن معه من أهل القوة، ما قال عباس بن عبد المطلب ﷺ: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلم أفارقه ورسول الله على بغلة بيضاء أهداها له فرقة بن بغامة المذامي، فلما التقى المسلمون بالكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق النبي ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، قال عباس ﷺ: وأنا أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ إرادة ألّا تسرع، وأبو سفيان أخذ ركاب رسول الله ﷺ، فلمّا كان رسول الله ﷺ ومن معه صابرين أولى قوة لم يفروا مع القوم.

تقصدون أن تستلذوا بحطام الدنيا ومزخرفاتها ﴿وَاللَّهُ﴾ المراقب لحالاتكم ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب فيما أراد لأجلكم ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:67] يريد لكم ما يليق بحالكم؟!.

﴿لَوْلا كِتَابٌ﴾ حكم وأمر ثابت نازل ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿سَبَقَ﴾ في سابق علمه بألا يأخذ المجتهد المخطئ بخطئه ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أصابكم ونزل عليكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ وافتديتم من أسارى بدر ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:68] مقدار ما فوتم من حكمة الله وأبطلتم حكمه.

روي أنه ﷺ أتى يوم بدر بسبعين أسيرًا فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب، فاستشار رسول الله ﷺ فيهم، فقال أبو بكر ﷺ: قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية يقوى بها أصحابك، وقال عمر ﷺ: اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر، فإن الله أغناك من الفداء فمكني من فلان؛ لنسب له، ومكن عليًا وحمزة من أخويهما، فلنضرب أعناقهم.

فقال رسول الله ﷺ: «مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ﷺ حيث قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:36]، ومثلك يا عمر مثل نوح حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:26]»[1] فخير أصحابه فأخذوا الفداء، فنزلت.

فدخل عمر على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله ﷺ أخبرني، فإن أجد بكاء بكيت وإلا تباكيت، فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه» لشجرة قريبة عنده، فقال ﷺ: «لو نزل العذاب لما برئ منه غير عمر وسعد بن معاذ»[2].

ومتى اجتهدتم في أخذ الفدية من الأسرى فأخذتم الفدية، وإن كان اجتهادكم خطأ ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ بعد إخراج الخمس وافتديتم من الأسرى؛ إذ هي من جملة الغنيمة

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (476/8)./

(2) أخرجه الطبري: 14 / 71. قال الحافظ ابن حجر في "الكافي الشاف" ص (71) : "ورواه الواقدي في المغازي من وجه آخر منقطع، بمعناه، وروى ابن مردويه من حديث ابن عمر رفعه: "لو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب"، وانظر: الأموال لأبي عبيد ص (136 - 137)، وتفسير البغوي - (ج 3 / ص 377).

﴿حَلالاً﴾ مستحلين مستبيحين ﴿طَيِّبًا﴾ خاليًا عن وصمة الشبهة؛ لاجتهادكم في أخذها ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ من المبادرة في الأمور، واحتاطوا فيها ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لأموركم ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنكم من المبادرة إلى الفدية ﴿رَحِيمٌ﴾ [الأنفال:69] أباح لكم ما أخذتم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾ [الأنفال:70-71].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المبعوث لتكميل الخلائق ﴿قُل﴾ على وجه العظة والتذكير بمقتضى شفقة النبوة والإرشاد ﴿لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللهُ﴾ المطلع لضمائركم واستعداداتكم ﴿فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيمانًا وإيقانًا، واطمئنانًا وعرفانًا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من حطام الدنيا، وهي اللذات الروحانية والكشوف والمشاهدات التي لا مقدار للذات الجسمانية دونها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما صدر عنكم من الكفر والعصيان ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده نحو توحيده ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم بعدما وفقهم للإيمان والإطاعة ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:70] يرحمهم بعدما رجعوا نحوه وأنابوا.

رُوي أنها نزلت في العباس ﷺ كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشًا ما بقيت فقال ﷺ: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك فقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث لي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم»، وقال العباس: وما يدريك؟ قال ﷺ:«أخبرني ربي»[1].

قال: أشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، فقال العباس ﷺ: فأبدلني الله خيرًا من ذلك إلى الآن عشرين عبدًا، إن أدناهم ليضرب عشرين ألفًا، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم؛ يعني: الموعود بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:70].

﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ أولئك الأسارى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بعدما عاهدت معهم وتلطفت بهم فلا

---

(1) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان (6/75).

تعجب من خيانته ونقضهم ﴿فَقَدْ خَانُوا اللهَ﴾ بالكفر والشرك، ونقض العهد والخروج عن مقتضى المأمور ﴿مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ﴾ أي: أمكنك ومكنك أولاً عليهم حتى انتقمت ﴿مِنْهُمْ﴾ يوم بدر بالقتل والأسر، فإن عادوا ورجعوا بالخيانة أمكنكم ثانيًا وثالثًا فلا تبال بهم وبخيانتهم فإن الله معينك وناصرك، يعصمك من مكائدهم ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لمخايلهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:71] بمجازاتهم يجازيهم على مقتضى علمه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) ﴾ [الأنفال:72].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأيقنوا بتوحيد الله ووجوب وجوده ﴿وَهَاجَرُوا﴾ عن بقعة الإمكان طالبين الترقي إلى المراتب العلية ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ منفقين لها؛ ليتجردوا عنها ويطهروا نفوسهم عن الميل والمحبة إليها ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ ممسكين لها عن مقتضياتها ومشتهياتها، باذلين ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ليتحققوا بمرتبة الفناء فيه؛ ليفوزوا ببقائه.

﴿وَالَّذِينَ﴾ تحققوا بمرتبة التوحيد وتمكنوا فيها ﴿آوَوا﴾ أي: مكنوا ووطنوا من يرجع إليهم، ويسترشد منهم من أهل الطلب والإرادة ﴿وَ﴾ بعد تمكينهم وتوطينهم ﴿نَصَرُوا﴾ وأعانوا عليهم بالتنبيهات اللائقة إمدادًا لهم، وبالواردات الغيبية والإلهامات القلبية والمكاشفات العينية ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، الوالهون في بيداء ألوهيته ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتناصرون ويتعاونون إلى أن يرتفع تعددهم وتضمحل كثرتهم، وسقط الافتراق والاجتماع عنهم، وانقطع السلوك والطلب، وفني السالك والسلوك والمسلك، وبقي ما بقي، لا إله إلا هو لا شيء سواه، وكل شيء هالك إلا وجهه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ إلى الفناء فيه ﴿مَا لَكُم﴾ أيها الواصلون ﴿مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ ويتشمروا السلوك مسلك الفناء ﴿وَ﴾ بعدما دخلوا باب الطلب ﴿إِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ﴾ واستعانوا منكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ أي: في سلوك طريق التفويض والانقياد ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ أي: لزم عليكم أن تنصروهم وتعينوا

عليهم؛ ليغلبوا على جنود القوى البهيمية، والشياطين الشهوية والغضبية ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ من جنود النفس اللوامة المطلعة لغوائل الأمارة الخبيثة ووخامة عاقبتها ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لجميع حالاتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من النصر والإعانة ﴿بَصِيرٌ﴾ [الأنفال:72] يجازيكم على مقتضى بصارته وخبرته.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال:73-75].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، ولم يتفطنوا سر سريان وحدته الذاتية السارية في جميع الأكوان، ولم يتنبهوا للفناء في ذاته، ومع ذلك كذبوا الرسل المنبهين، المبشرين المنذرين إصلاحًا لهم وإرشادًا، أولئك الأشقياء المردودون ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتعاونون ويتعاضدون في كفرهم وجهلهم ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: ألا تفعلوا ما أمرتم به من الموالاة والمواصلة، والنصر والمعاونة ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ سارية ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: طبيعة العدم ﴿وَ﴾ حدث فيها ﴿فَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:73] هو غفلة الأظلال عن الذات، والظل والصور عن ذي الصورة، والعكوس عما انعكس فيها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ أي: سلكوا وسافروا، وبعدما تحققوا باليقين العلمي ﴿وَجَاهَدُوا﴾ أي: ارتاضوا؛ أي: انخلعوا عن جلباب التعين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو الفناء فيه؛ ليتحققوا باليقين العيني ﴿وَالَّذِينَ آوَوا﴾ ووالوا أولياء الإرادة ﴿وَنَصَرُوا﴾ أرباب الطلب ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الواصلون المبرزون ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المتحققون، المثبتون في مرتبة اليقين الحقي ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا بلا دغدغة استكمال وانتظار، متقررًا في مقر التوحيد ومقعد الصدق عند مليك مقتدر ﴿لَّهُم﴾ بعد وصولهم إلى مقرهم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر لأنانيتهم التي كانوا عليها على مقتضى تعيناتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:74] من الكشف والشهود، نزلاً من عند العزيز العليم.

ثمّ بشّر سبحانه بما بشّر به من اقتفى أثركم أيها المكاشفون الواصلون، وسلك

سبيلكم من أصحاب الإرادة والطلب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ كما هاجرتم أيها الفائزون الواصلون ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ في سبيل الله وترويج دينه وسنته بأنفسهم وأموالهم كما جاهدتم أنتم ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المجاهدون الباذلون ﴿مِنكُمْ﴾ أي: من جملتكم وعدادكم، وأجرهم عند الله مثل أجركم، وهم إخوانكم وأرحامكم في الدين ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ وذووا المناسبات والقرابات في الدين والعرفان ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في الولاية والنصر، والمصاحبة والمؤاخاة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[1] أي: في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي على ذرائر الآفاق ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من رقائق المناسبات ودقائقها ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:75] بعلمه الحضوري، لا يعزب عن حضوره شيء.

---

(1) بيّن سبحانه أن ميراث الأولياء والصدّيقين من العلوم الغيبيّة، والحِكَم الغريبة، والأنباء العجيبة، وبيان المكاشفات والمشاهدات، وأسرار الجذبات، وأحكام المواجيد والواردات، ولطائف المقامات، والسير في المجاهدات لا يصل إلا إلى المريدين الصادقين، والطالبين الموفّقين، والقاصدين المودين، والمحبّين، والمستغرقين في أنوار الأذكار، والطيّارين من المشتاقين بأجنحة الأفكار؛ لأنهم في محاضر الولايات خرجوا برسم الأرواح جميعًا من معادن الأفراح، وأظهروا من أرحام العدم بتجلّي القِدم، ومَن لم يكن عنهم من أهل الدعاوي والمترسّمين، لم يصل إليه ميراث بلابل بساتين الملكوت، وعنادل رياض الجبروت. ولا يعرف ألحان تلك الأطيار إلا طير يطير بجناح الرسالة والمحبّة، والنبوّة، والولاية الأذى كيف وصف الله سبحانه خليفة ملكه سليمان صلوات الله عليه، حيث نشر فضائل ما مَنّ الله عليه، بقوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:16]. نُسب إليهم بطريق من هذه الطرق، فهو نسبهم في الولاية، وله منهم ميراث علوم الحقيقة، وأنّ الله سبحانه بيّن في كتاب الأزل، بقوله في كتاب الله قُسمت أرباب هذه المواريث. قال ﷺ في هذه الإشارة: «العلماء ورثة الأنبياء»؛ ورثوا علومهم بقدر حواصلهم وفهومهم وأحوالهم، وسرعة سيْرهم في الملكوت، واقتباسهم أنوار الجبروت، أولئك هم إلهيون، ورثوا نعيم مشاهدته، وهم فيها خالدون، ثم أثنى على نفسه أنه كان عالمًا في الأزل باختياره هؤلاء الصدّيقين بهذه الكرامات، محيطًا بعلمه على اصطلاحهم بعد إيجاده إيّاهم بوصف قبولهم هذه الكرامات، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: 32]، وبقوله في تمام السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: «عليم»: بما أبدى لهم من الاصطفائية الأزليّة، وما يبدو منهم من سيّئات طاعته، والزفرات في شوقهم إلى لقائه إلى الأبد، والله أعلم.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه نحو الفناء، المهاجر عن ورطة الغفلة والغرور، أن تقتفي في سلوكك هذا أثر أهل الهجرة والنصرة المرابطين قلوبهم لتوحيد الحق، الباذلين مهجهم في تقوية من ظهر عليه ﷺ وترويج دينه وسنته، المتخلقين بأخلاقه، المتعطشين بزلال مشربه المستظلين بظل روائه، المستمسكين بعروة ولايته، ولا يحصل لك هذا إلا بالركون والإعراض التام عن مقتضيات القوى البشرية ولوازم الطبيعة مطلقًا، كهؤلاء الكرام المنخلعين عن جميع ما يشوشهم من لوازم هوياتهم في معاشهم حتى عن الأهل والأوطان.

لذلك انكشف لهم من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات إلى حيث اضمحلت عن عيون بصائرهم ما سوى الحق مطلقًا، وصاروا فانين في الله، متحققين بمقام «**وبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش...**»[1]، ولك في عزيمتك هذا التشبث بكتاب الله الذي هو المرشد الحقيقي، وبأحاديث الرسول ﷺ وبكلمات المشايخ العظام - قدس الله أرواحهم - ولاسيما ذلك الاستمداد من قلوب البدلاء الوالهين، الحائرين بمطالعة وجه الله الكريم؛ إذ هم لاستغراقهم في بحر الشهود انخلعوا عن لوازم هوياتهم، وما لنا من حالاتهم إلا الحسرة والعبرة إن كنا من أهل الاعتبار والاستبصار.

ربنا اهدنا إليك بأي طريق شئت، إنك بفضلك وجودك تهدي من تشاء من عبادك وإنك على ما تشاء قدير.

---

(1) رواه البخاري (2384/5، رقم 6137)، وابن حبان (58/2، رقم 347)، والبيهقي (219/10، رقم 20769)، وأبو نعيم في «الحلية» (4/1).

سورة التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة التوبة

لا يخفى على من تمكن في مقر التوحيد وتوطن في مكمن الفناء والتجريد، خالصًا عن توهمات التخمين والتقليد، مستويًا على جادة اليقين والتحقيق، معرضًا عن كلا طرفي الإفراط والتفريط أن من لم يترق عن مرتبة الحيوانية ولم تثمر شجرة هويته ثمرة الإنسانية التي هي المعرفة والتوحيد، فهي والحيوانات العجم سواء في الرتبة بل أسوأ حالاً منها، ومتى لم يطع حكم المربي ولم ينقد لأمره لينقذه من جهله ويوصله إلى ما خلق لأجله، سيما إذا تعنت وتجبر واستكبر على من بُعث لتربيته، وأُمر لإرشاده وتكميله، بل كذبه وأنكر عليه وطغى على أمره، وأشرك به غيره - العياذ بالله - فقد حل قتله واستباح دمه على الموحدين المتمكنين الذين يبذلون أرواحهم في ترويج كلمة التوحيد ونصرة الدين القويم والشرع المستقيم.

لذلك فرض الجهاد والغزاء على أرباب الولاء المستمسكين بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها؛ ليكون غزاتهم مع الله في جميع حالاتهم وشهداؤهم أحياء عند ربهم يرزقون من موائد أفضاله ما لم تره عيونهم ولم تشهده نفوسهم؛ ولهذا ما خلا نبي من الأنبياء من لدن آدم إلى نبينا - صلوات الله عليه وعليهم أجمعين - على القتال والجهاد.

وكما فصل سبحانه بقص قصصهم وسيرهم في كتابه وأجمل البعض، وقال مخاطبًا لنبيه: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:78] والسر في وجوب القتال للأنبياء، والله أعلم أن بعثة الرسل والأنبياء؛ إنما هو لإصلاح أحوال العباد وإرشادهم إلى الخير والصواب في معادهم ومعاشهم.

وذلك لا يتصور إلا بعد ظهور الآراء الباطلة المتخالفة، المتداعية إلى أنواع الإخلال وتزاحم الأهواء الفاسدة المستلزمة للضلال والإضلال، وانتشار أنواع البدع والجدال ورفع هذه المفسدة وقمع أهلها، وقلع عرقها وأصلها، إنما هو باستئصال من تمسك بها وظهر عليها، ولا يتيسر ذلك إلا بالمقاتلة والمشاجرة؛ لذلك جرت سنته

سبحانه عليها وعدها من أفضل العبادات.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ [التوبة:1-3].

ثمّ لمّا كان المشركون المصرون على شركهم من أعدى الأعادي، وأشدهم غيظًا مع الله ورسوله، وكان عهودهم ومواثيقهم غير معول عليها في علم الله، تبرأ سبحانه منهم وأمر رسوله أيضًا بالتبري عنهم وعن عهودهم ومواثيقهم، فقال: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ أي: هذه براءة ونقض عهد وإسقاط ذمة، ورفع أمان كان بينكم أيها المؤمنون وبين المشركين، نزلت إليكم ﴿مِّنَ اللهِ﴾ المطلع على مخايل أهل الشرك أصالة ﴿وَ﴾ من ﴿رَسُولِهِ﴾ لتنبذوا وتطرحوا عهودكم ومواثيقكم ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] [التوبة:1].

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى في «التأويلات»: اعلم أن الحكمة من ترك كتابة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أول السورة براءة، وكتابتها في سورة النمل؛ ليعلم أنها آية مكررة في القرآن، وأنها أكثر مما أنزلت في أوائل السور؛ لتكون فاصلة بين الصورتين، ولتكون كل سورة متوجة بتاج اسم الله تعالى وصفة جماله وجلاله، فحيث نزلت كتبت، وحيث لم تنزل لم تكتب، فلما لم تنزل في أول براءة ما كتبت في أولها ونزلت في أول النمل وفي أثنائها كتبت في الموضعين جميعًا ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يشير إلى أن النفوس المتمردة المشركة التي اتخذت الهوى إلهًا وتعبدت صنم الدنيا فهادها الروح والقلب في أوان الطفولية، وعاهدها على ألا يجاهداها ولا يقاتلاها إلى حد البلوغ، وهي أيضًا لا تتعرض لهما لاستكمال القالب واستواء القوى البشرية التي بها يتحمل حمل الأمانة، واعيًا بأركان الشريعة وظهور كمال العقل الذي يستعد لقبول الدعوة وإجابتها، وبه يعرف الرسل ومعجزاتهم، وبه يثبت الصانع ويرى تعبده واجبًا لأداء شكر نعمه، وإن الله ورسوله بريء من تلك المعاهدة بعد البلوغ، فإنه وإن نقض عهد النفوس مع القلوب والأرواح؛ لأن النفس قبل البلوغ كانت تتصرف في المأكول والمشروب والملبوس؛ لتربية القالب ودفع الحاجة الماسة غالبًا وذلك لم يكن فقرًا جدًّا للقلب والروح، فأمّا البلوغ فزاد في تلك التربية بالمأكول والمشروب والملبوس الضروري الشهوة، ولمّا ظهرت الشهوة شملت آفتها المأكول والمشروب والنكوح واشتعلت نيرانها وأشعلت يومًا بيوم وفيها مرض القلب والروح وبعثت الأنبياء ولدفع هذا المرض وعلاجه، كما قال ﷺ: «بعثت
-

وعليكم ألا تبادروا ولا تفاجئوا إلى المقاتلة بعد نبذ العهد، بل أمهلوهم وقولوا لهم: ﴿فَسِيحُوا﴾ أي: سيروا أيها المسرفون ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: في أرضنا هذه آمنين بلا خوف ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ قيل: هي عشرون من ذي الحجة وتمام المحرم والصفر، وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر، واستعدوا في تلك المدة وهيئوا أسباب القتال فيها ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المصرون على الشرك يقينًا، وإن زعمتم غلبتكم علينا بمظاهرة إخوانكم واستعانة قبائلكم وعشائركم ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾ أي: لستم غالبين على الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء، المتفرد بالمجد والبهاء ﴿وَ﴾ اعلموا أيضًا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المنتقم من عصاة عباده ﴿مُخْزِي الكَافِرِينَ﴾ [التوبة:2] أي: مهينهم ومذلهم وإن أمهلهم زمانًا بطريق على تجبرهم وتكبرهم.

﴿وَ﴾ هذه أيضًا ﴿أَذَانٌ﴾ إعلام وتشييع، ونداء صدر عنه ﴿مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ بإذنه ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ المجتمعين من أقصى البلاد ﴿يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ لأن وقوف يوم عرفة كان يوم الجمعة؛ لذلك سمي به ﴿أَنَّ اللهَ﴾ أي: بأن الله المتعزز بالعظمة والكبرياء ﴿بَرِيءٌ مِّنَ المُشْرِكِينَ﴾ أي: من عهودهم ومواثيقهم، لا يؤمنهم بعد عامكم هذا ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أيضًا مأمور من عنده بالبراءة ونقض العهد وإسقاط الذمة، وبعد اليوم ارتفعت الهدنة وصار الأمر إما السيف وإما الإسلام.

﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ ورجعتم عمَّا أنتم عليه من الكفر والشرك إلى الإيمان والتوحيد ﴿فَهُوَ﴾ أي: إيمانكم ورجوعكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن الإسلام والإيمان، وأصررتم على الشرك والطغيان ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾ أي: لستم غالبين على جنوده ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وأصروا عليه، ولم يرجعوا عنه مع ورود الزواجر والخوارق ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:3] في النشأة الأولى بالقتل والسبي والإجلاء، وفي الآخرة بالحرمان عن رتبة الإنسان.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ

لرفع العادات وترك الشهوات».

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾ [التوبة:4-5].

ثمّ لمّا لم يصدر عن بعض المشركين شيء من أمارات النقض والإتيان، وعلامات المخالفة والمخادعة استثناهم الله سبحانه، وأمر المؤمنين بمحافظة عهودهم إلى انقضاء المدة المعلومة، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ﴾ بعد المعاهدة ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ مما عاهدوا عليه والتزموا حفظه، بل داوموا على حفظها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَمْ يُظَاهِرُوا﴾ ولم يعانوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم حفظًا لعهدكم وميثاقكم ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ أي: أنتم أولى بإيفاء العهد وإتمام مدته ﴿إِلَى﴾ انقضاء ﴿مُدَّتِهِمْ﴾ التي عاهدوا عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستوي على العدل القويم ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:4] الذين يواظبون على إيفاء العهود وحفظ المواثيق؛ حذرًا عن تجاوز حدود الله وعهوده.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ﴾ أي: انقضى ومضى ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ المأمورة فيها السياحة والأمن ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين على الشرك، الناقضين للعهد والميثاق ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في حل أو حرم مستأمنين أم لا ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: ائسروهم واسترقوهم، واستولوا عليهم ﴿وَ﴾ إن استحفظوا واستحصنوا ﴿احْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ﴾ لأخذهم وقتلهم ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ وممر من شعاب الجبال وشفار الوادي ﴿فَإِن تَابُوا﴾ ورجعوا عن الشرك، ومالوا إلى الإيمان ﴿وَ﴾ بعد إيمانهم ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ التي هي علامة إيمانهم وتصديقهم.

﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ التي تطهر قلوبهم عن أمارات النفاق ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ كسائر المسلمين تتذكروا، وتلتفتوا بما صدر عنهم من المخالفة والمقاتلة والشقاق فيما مضى ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من المعاصي والآثام ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:5] لهم يوصلهم إلى دار السلام بعدما أخلصوا الإنابة والرجوع.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ

رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [التوبة:6-7].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المناقضين الذين أمرت بقتلهم وأسرهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ وطلب منك جوارك؛ ليأمنه عما يؤذيه ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي: فعليك يا أكمل الرسل على مقتضى شفقة النبوة والرسالة أن تجيره وتؤمنه في جوارك ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ الهادي لعباده ويفهم سرائر دينك وشعائر شريعتك كأنه يطلع على حقيقته؛ لأن أصل فطرة كل أحدٍ وجبلته على الإسلام.

﴿ثُمَّ﴾ بعد حصول اليأس عن الإيمان من إيمانه وتنبهه ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[1] أي:

---

(1) قال العلامة البحر المحقق سيدي البيطار: اعلم - رحمك الله تعالى - أنه لم يكن بين الله تعالى وبين محمد ﷺ تثنية البتة، بل الأمر واحد، وذلك أن الحقيقة الإلهية باطن الحقيقة المحمدية، والحقيقة المحمدية ظاهر الحقيقة الإلهية، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ «أنا من الله والعالم مني» فالله تعالى واحد الذي منه محمد ﷺ فهو أوله وباطنه؛ إذ لا أصل للحقيقة المحمدية النورانية إلا الواحد تعالى وتقدس، وقد تجلى الواحد باسمه المحب فأحب نفس أن يعرف لنفسه، فأفاض من ذاته مرآة واحدية، فكانت المرآة حقيقة محمد ﷺ ، فرأى نفسه بتلك المرآة المحمدية، ففي الرتبة الأولى التي هي الكنز المخفي كان الواحد أولاً باطنا، ولما ظهرت له حقيقة نفس في مرآة محمد ﷺ ، التي هي من فيض ذاته صار الواحد آخرا ظاهرا، والواحد أولاً هو الواحد آخرا؛ لأنه لم يظهر في تلك المرآة إلا نفسه، كما أنك إذا ضربت الواحد في الواحد لم يخرج إلا واحد بعينه، ولهذا السر قال تعالى في محمد ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:10]. وقال تعالى ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تعظموا الرسول، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: الرسول ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحوا الرسول ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ، وشاهد هذا التوحيد أيضًا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:62] ولو كان بينهما تثنية لقيل: أحق أن يرضوهما وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24] ولم يقل دعواكم بالتثنية، فصحّ قوله ﷺ : «ومن رآني فقد رأى الحق»، فإن قلت: إنه قال: «لا تقولوا سيدًا إنما السيد الله» فلم يرض إلا باسم العبد قلت: إنما النهي من إطلاق اسم السيد على غير الله ولا غير، ألا ترى قوله: « أنا سيد الناس» وكيف لا، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:80]، ولما بايعوه على الأنفس والأموال نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: 111]، فهذا الشراء ليس شراء غائب من حاضر، بل هو شراء حاضر من حاضر . ومما قررناه

تدرك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:56] فالمعنى أن النبي قبلة لرؤية الله نفسه فيه؛ لأنه ما رأى واحديته إلا في مظهر محمد ﷺ الذي هو مرآة ظهور واحديته، فما رأى في محمد ﷺ سواه، وكذا الملائكة؛ لأنه أصلهم وهم جميعًا فرعه، فهو حقيقتهم لا السراج المنير لهم، وهذا معنى ما ورد أن الملائكة خُلقوا من النور، ولا نور في الوجود إلا محمد ﷺ فهو نور السموات والأرض أي: حَقيقة وجودهما، ثم أن الله تعالى نبّهنا أن نصلي عليه فنقول: « اللهم صلي على محمد» ونداأب على ذلك ليحصل لنا هذا الكشف،ويفتح لنا هذا السر فنرى نفوسنا هو ﷺ كما قال: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب:6] أي: ليس للمؤمنين أنفس، بل أنفسهم هو ﷺ ثم قال: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:6] والأزواج بلسان الإشارة جميع أسماء الله التي يظهر ﷺ بمعانيها من الحياة والعلم والقدرة، والسمع والبصر، والإرادة والكلام، في قراءة (وهو أبوهم) أي: الذات المطلقة، ومن الذات والأسماء تولّد العالم الصوري، فافهم.

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: 5] وهو أبونا عمومًا على الإطلاق، لا على الخصوص، ولهذا سلب الله عنه الأبوة المقيدة فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:40].

إذا فهمت ذلك فهمت قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:33]، وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:7]. فصلاتنا عليه أن نترك وجودنا إليه ونسلم الأمر إليه تسليمًا فلا نرى في جميع الوجود إلا محمدًا ﷺ ، وهذا مشهد صديقي، لذلك قال لابنته أم المؤمنين «عائشة» في شأن براءتها: «قومي فاشكري رسول الله»؛ لأنه أدرك معنى الصلاة والسلام عليه، ولم يكن هذا التحقق في ذلك الحال لبنته، فقالت: «لا أشكر إلا الله»، فإذا علمنا أننا هو عادت صلاة الله وملائكته، بل وصلاتنا عليه وتسليمنا عليه علينا، فعند ذلك ندرك ما أخبرنا الله به من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: ظلمات الشرك الخفي ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب:43] وهو محمد ﷺ ، فقد علمت أن معنى الصلاة والسلام على محمد ﷺ الوصلة التامة به والتحقق الذاتي من الله، ومن الملائكة ومنّا حتى نراه فرد الوجود وعين الشاهد والمشهود . إذا تقرر ذلك، وعلمت سر الواحدية التي أشرنا إليها أدركت سر قول الله: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:6]، ولم يقل في حقه كما قال في حق موسى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:164] إذ ليس بين الله ومحمد مكلم وكليم.

الا ترى قوله تعالى في حق القرآن العظيم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:40] فاثبت أن القرآن قوله، كما أن المنزل حقيقة ذاته وعينه، وذلك ثمرة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴾ [القلم:4]، ولهذا الخلق العظيم أمر أن يجير المشرك من باب صلة الرحم؛ لأن المشرك مظهر حقيقته فهو فرعه، وما أشرك إلا بالتوجه لصورة خاصة مقيدة، وتلك الصورة هي مظهر حقيقته، لكن المشرك بسبب جهله وحجابه عن تلك الحقيقة الواسعة لجميع المظاهر سُمي مشركًا؛ لأنه تقرّب بالمقيد المحصور إلى المطلق الذي لا يُحصر، وفي الحقيقة لا غير فأمر بإجارته والرفق به ليسمع منه كلام الله، ولم يقل تعالى: فأسمعه لعله يتذكر أو يخشى، بل قال: ﴿فَأَجِرْهُ﴾ إشارة إلى أنه المطلق المتصرف كيف يشاء.

ألا ترى ما وقع لابنه عمه أم هانئ أخت سيدنا عليّ بن أبي طالب - سلام الله عليه - لما دخل بيتها المشرك يوم فتح مكة، واستجار بها فجاء أخوها أبو تراب - سلام الله عليه - وهمّ بقتله، فشكت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ» فكما أنه ﷺ هو المالك فهو المملك أيضًا.

ألا ترى قوله «أهل بيتي أمان لأمتي» فهو كعبة الكعبة؛ لأن الكعبة من دخلها فهو آمن، وليس له أن يؤامن غيره.

فافهم ما أشرنا إليه - رحمك الله - وحيث في الدنيا كذلك، ففي الآخرة أعظم؛ لأنها أبلغ في ظهور سيادته المطلقة بلا استتار. فإن قلت: قد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:88] فإن عيسى ﷺ وكّل الأمر إلى الله، فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ إلا به [المائدة:118] والخليل قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:36] وموسى قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة:25]، ونوح قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فقال: [هود:45] فقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:46] فكيف أجاب محمد ﷺ وعليهم جميعاً وقرر إجارة أم هانئ، قلت: إن سيدنا محمد ﷺ هو السيد على الإطلاق والسيد لا يكون إلا متصرفًا على الإطلاق دون التقييد، ألا ترى ما حكاه الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف:88]، ثم قال: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [الزخرف: 89]، فاللائق أن يكون الخطاب من الله إليه لأنه لا يقول لربه: ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ فمن قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أفادنا أنه جعله هو صاحب الحق حتى طلب منه الصفح فإن قلت: ما الدليل الشافي من القرآن أنه عين صاحب الحق.

قلت: هو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:53]، ولم يقل: يا عباد الله فهو ﷺ ذاتي لا صفاتي، وحينئذ هو المجير على الإطلاق ، بل إنه يملك هذا المقام لمن أحب.

ألا ترى قوله لأخيه أبي تراب - كرم الله وجهه : «أنت قسيم الجنة والنار»، وأعجب من هذه العجائب كلها قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ

[الجاثية:14] أي: من أمتك بالتحقق بمقامك .

فمن هذا المعنى ما جرى للغوث الجيلي ﷺ حيث قال: رأيت امرأة كانت أرضعتني وقد أسود وجهها من العذاب فألبست لها النار صورة الجنة، ومن نوّر الله بصيرته وشَرح الله صدره في فهم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:17]، وفي قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:199] علم أنه صاحب العطاء المطلق لكل سائل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:10]، فافهم إن كنت من أهل الفهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

نكتة لطيفة وحكمة شريفة: أمر الله محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:6] فقوله: ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي: من الشرك؛ لأن ﴿ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13]، فيحتمل أنه ظلم للشريك، حيث جعله غير الحق، ولا غير، فالمشرك ظلم مرتبة الوجود المطلق؛ لأن مرتبة التوحيد وزعم الغيرية محال، ويحتمل أن الشرك ظلم عظيم من المشرك لنفسه حيث أنزلها منزلة الجهل، فزعم أنه يعبد غير الله ليقربه إلى الله زلفى، والحال أنه ما عبد إلا الله؛ لأن الله هو الظاهر في كل شيء، فكفّره أي: ستره وهو الوجود المطلق بالحكم العدمي الذي هو الشرك، وذلك محال، فلذلك السر قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:48] والمغفرة: هي الستر، والشرك عدم محض لا وجود له حتى يستره الله بل هو تخيل وهمي لا وجود له إلا في نفس المشرك لا في الخارج؛ لأن الله قضىٰ ألا يُعبد إلا إياه، ففي الحقيقة لا شرك في الوجود حتى يغفر؛ أي: حتى يستر؛ لأن الستر لا يكون إلا لأمر وجودي، والذي هو من أصله عدم كيف يستر؟! فالأمر الإلهي بقوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:6] يقتضي أن المصطفى ﷺ أُمر بالتوجه إلى المشركين المحجوبين حتى يجيرهم من شركهم، فيسمعون كلام من جميع مظاهر الله، وإذا كان أبو العباس المرسي ﷺ يأتيه الأعرابي يبول على ساقية فيوصله بالتوجه والهمة الجاذبة إلى الله، فلا عجب أن السيد المطلق يُوصل من استجار به إلى الله، ويسمعه كلام الله، ولهذه النكتة قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة:6] ولا مأمن له إلا حضرة السلام، وهو معرفة نفسه بأنه سالم من وجود السوى. فلذا قال: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف:89]، أي: أوصلهم إلى الحضرة السلامية، فكان يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام» ومن أراد أن يحقق ما قلناه فليتبصر بقوله ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» فليت شعري هل يُجاب دعاؤه أو لا؟ نعم والله يجاب دعاؤه ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:227]، والمراد بالظلم هنا: الشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13]، فإذا أقرّ الله

موضع أمنه ومحل قرانه تتميمًا للشفقة والمروءة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمن والمواساة والتليين المأمور ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ في غاية البعد عن الإيمان وما يترتب عليه من المؤاخاة والمواساة، وأنواع الخيرات والمبرات ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:6] أي: لا يطمعون ولا يتوقعون صدورها من أهل الإيمان، فمتى صدر منكم أمثال هذا عسى أن يتحاببوا ويتقربوا إليكم.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين على الشرك والعناد، المبالغين في العتو والاستكبار ﴿عَهْدٌ﴾ مقبول ﴿عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ إذ هم من غاية انهماكهم في كفرهم وضلالهم لا يلتفتون إلى الله ورسوله؛ لذلك لا يقبل منهم العهد والميثاق، بل أمرهم إمَّا السيف وإمَّا الإسلام.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ﴾ معهم ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإنهم وإن كانوا أيضًا من المشركين المصرين، إلَّا أن حرمة المسجد الحرام توجب إيفاء عهودهم ماداموا موقنين بها ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا﴾ واستحفظوا ﴿لَكُمْ﴾ عهدكم ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ بل أنتم أولى لرعاية حرمة المسجد الحرام ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:7] الذين يحفظون نفوسهم عن سوء الأدب مع الله في جميع أحوالهم، سيما رعاية حرمة بيته الحرام.

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ

عين المصطفى ﷺ بإجابة دعائه لهم بالهداية، سواء كان في الدنيا أو في الآخرة يعلمون أي منقلب ينقلبون، وما ينقلبون إلا إلى الوجود الإلهي المطلق السالم من السوى وهو المآل من الذي أمر ﷺ بالإبلاغ إليه، فهو ﷺ مظهر هداية الله على الإطلاق ومدلول اسم الله الهادي.

ألا ترى أنه لما قيل له: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:13] قبل من أهل الكتاب الجزية والخراج وأدخلهم كعبة أمانه المطلق، وحول شقاء من قال:﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:24] إلى السعادة بقوله: «لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر» وذلك تقرير لسعادتهم حين ولوج الجمل في سم الخياط ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن:39] ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:78].

وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التوبة: 8-10].

﴿كَيفَ﴾ يكون للمشركين معكم عهد أيها المؤمنون؟ وكيف تعتمدون على ميثاقهم ﴿وَ﴾ هم من غاية بغضهم وشدة شكيمتهم ﴿إِن يَظْهَرُوا﴾ ويظفروا ﴿عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ أي: لا يحافظوا ولا يراعوا في حقكم ﴿إِلًّا﴾ أي: عهدًا وميثاقًا ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ حقًا لازمًا يلتزمون رعايتها؛ كالحقوق التي جرت بين المتعاهدين، بل حالهم أنهم ﴿يُرْضُونَكُم﴾ ويعاهدون معكم ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ خداعًا ومداهنةً ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ عمّا صدرت على ألسنتهم من المعاهدة، بل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة:8] خارجون متمردون عن العهد مطلقًا، لا يتفوهون به أصلاً، فكيف أن يعهدوا؟!.

ومن غاية فسقهم وتمردهم، ونهاية توغلهم في الضلال ﴿اشْتَرَوْا﴾ واستبدلوا ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ المنزلة على رسوله، الدالة على توحيده مع وضوحها وسطوعها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: بدلاً حقيرًا، مبتذلاً مرذولاً، وهو اتباع الأهوية الباطلة والآراء الفاسدة التي ابتدعها المبتدعون بتسويلات شياطينهم ﴿فَصَدُّوا﴾ أي: أعرضوا وانصرفوا نفوسهم وأتباعهم؛ بسبب تلك الآراء ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: عن دين الله الموصل إلى توحيده ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية ضلالهم وإضلالهم ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:9] هذا العمل.

ومن سوء عملهم أيضًا وقبح صنيعهم أنهم من غاية بغضهم مع المؤمنين ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ ولا يراعون ﴿فِي﴾ حق ﴿مُؤْمِنٍ﴾ أي: واحد من أهل الإيمان وإن بالغ في ودادهم وإخائهم، ومحافظة عهودهم وذممهم ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أصلاً؛ لشدة شكيمتهم وقوة بغضهم وضغينتهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون المطرودون ﴿هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة:10] المقصورون على التجاوز عن حدود الله ومقتضى المروءة اللازمة للمرتبة الإنسانية؛ لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم.

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا

نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة:11-13].

﴿فَإِن تَابُوا﴾ ورجعوا إلى الإيمان بعدما بالغوا في العناد والاستكبار ﴿وَ﴾ بعد رجوعهم ﴿أَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ المصفية لبواطنهم عن الميل إلى غير الحق ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ المطهرة لظواهرهم عمّا يشغلهم عن الحق ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أنتم وهم سواء في سلوك طريق الحق والرجوع إليه ﴿وَ﴾ إنما ﴿نُفَصِّلُ﴾ ونوضح ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:11] ويصلون إلى مرتبة اليقين العلمي، ويريدون الترقي منها إلى اليقين العيني والحقي.

﴿وَإِن نَّكَثُوا﴾ ونقضوا ﴿أَيْمَانَهُم﴾ ونبذوا عهودهم ﴿مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وراء ظهورهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ بتصريح التكذيب والتقبيح في الأحكام والمعتقدات، والطاعات والعبادات ﴿فَقَاتِلُوا﴾ أيها الغزاة المرابطون قلوبكم مع الله ورسوله ﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ أي: صناديدهم ورؤساءهم؛ لأنهم ضالون مضلون، وإن تفوهوا بالعهد والميثاق لا تبالوا بهم وبعهودهم ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أصلاً؛ لتخمير طينتهم على الشرك والشقاق ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة:12] ويتنبهون؛ أي: سفلتهم الضالون عمّا عليه رؤساؤهم المضلون بعد انقراضهم.

ثمَّ قال سبحانه تحريضًا للمؤمنين على القتال على وجه المبالغة: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ﴾ بعد نقضهم الأيمان والعهود ﴿هَمُّوا﴾ أي: قصدوا واهتموا ﴿بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُم﴾ قوم ﴿بَدَءُوكُمْ﴾ بالمعاداة والمخاصمة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في بدء الإسلام حين تحدوا مع رسول الله بالمعارضة فأفحموا، والتجأوا إلى المقارعة والمشاجرة ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ منهم أيها المؤمنون في مقاتلتهم أن يلحقكم مكروه من جانبهم أم تداهنون معهم وتضعفون عنهم؟! وإن خشيتم عن لحوق المكروه وعروض المنكر ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ لأنه قادر على وجوه الانتقامات، فعليكم أن تخشوا من الله ومخالفة أمره وحكمه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:13] بالله وبأوامره ونواهيه.

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ

﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [التوبة:14-16].

وبالجملة: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ حيث وجدتموهم، فإنكم منصورون عليهم ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بأنواع العذاب من الأسر والقتل والإجلاء ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أي: يذلهم ويهينهم ما بقي منهم من ذرياتهم ﴿وَيَنصُرْكُمْ﴾ دائمًا ﴿عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ﴾ بقهرهم وإذلالهم ﴿صُدُورَ قَوْمٍ﴾ غرباء ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:14] حيث صارت قلوبهم مرضى من وعيدات أولئك الطغاة الغواة، المتجبرين المستكبرين.

﴿وَيُذْهِبْ﴾ بقتل أولئك الكفرة، وقمعهم واستئصالهم ﴿غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ أيما حدث وخدش في قلوب هؤلاء الغرباء المؤمنين الذين تركوا أوطانهم؛ لحب دين الإسلام من استيلاء الكفار وكثرة عددهم وعُددهم، وجاههم ومالهم ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾ أي: يصرف ويرجع من الباطل؛ بسبب قلعهم وقمعهم من في قلوبهم مرض من الأقاصي والأداني ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمخايلهم وأمراض قلوبهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:15] في علاجها ودفعها.

ثمّ قال سبحانه على وجه التشنيع للمؤمنين؛ تحريكًا لحمية الإيمان: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ ، ظننتم أيها المؤمنون الكارهون للقتال، المتقاعدون عن امتثال الأوامر الواقعة فيه ﴿أَن تُتْرَكُوا﴾ على ما أنتم عليه، ولا تؤمروا بالقتال من بعد ﴿وَ﴾ زعمتم زعمًا فاسدًا ﴿لَمَّا يَعْلَمِ اللهُ﴾ ولما يفصل ويميز بعلمه الحضوري ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ في سبيله مخلصين خالصًا لرضاه.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ﴾ ﴿وَلَا﴾ من دون ﴿رَسُولِهِ﴾ المستخلف منه، النائب عنه ﴿وَلَا﴾ من دون ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ المرابطين قلوبهم مع الله ورسوله ﴿وَلِيجَةً﴾[1] أي: بطانةً ومرجعًا يوالونهم ويفشون إليهم سرائرهم، بلى إن الله عليم

(1) بطانة، أي: جاهدوا وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يتخذوا من دونهم بطانة، أي أصحاب سرٍ يوالونهم ويبثون إليهم أسرارهم، بل اكتفوا بمحبة الله ومودة رسول الله والمؤمنين، دون موالاة من عاداهم. البحر المديد (388/2).

بجميع ما صدر عنكم من علامات الإخلاص وأمارات النفاق ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لجميع أحوالكم ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:16] أي: تتخيلون وتحضرون من التكاسل والتواني والإلجاء إلى الأعداء والرجوع إليهم في خلواتكم وأسراركم.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [التوبة:17-18].

ثم قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحَّ وجاز ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين على الشرك والعناد ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ﴾ المعدة لأهل الإيمان؛ ليعبدوا فيها حتى يتحققوا بمقام المعرفة والتوحيد حال كونهم ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ والشرك قولاً وفعلاً وشركهم منافٍ لتعميرها؛ إذ ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء الهالكون في تيه الضلال ﴿حَبِطَتْ﴾ أي: سقطت عن درجة الاعتبار ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الصالحة عند الله بحيث لا ينفعهم أصلاً؛ لمقارنتها بالشرك، بل ﴿وَ﴾ مآل أمرهم ﴿فِي النَّارِ﴾ المعدة لأهل الشرك والضلال ﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة:17] لا نجاة لهم أصلاً، سواء صدر عنهم الأعمال الصالحة أم لا.

بل ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ المعدة لخلاء العبادة والتوجه نحو الحق والمناجاة معه ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ وتحقق بمرتبة اليقين العلمي في توحيده ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الذي يصير الكل إليه ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ أي: أدام الميل والرجوع نحو الحق دائمًا ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ تخفيفًا وتطهيرًا لنفسها عن العلائق العائقة عن التوجه الحقيقي الحقي ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾ أي: لم يكن في قلبه خشية من فوات شيء أصلاً إلا من عدم قبول الله أعماله، ومن عدم رضاه سبحانه منه ﴿فَعَسَى﴾ وقرب ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء الأمناء، الباذلون جهدهم في طريق التوحيد، المشتاقون إلى فضاء الفناء ﴿أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:18] المتحققين في مقام الرضا والتسليم وإن وفقوا بالإخلاص من عنده.

اصنع بنا ما تحب أنت وترضى يا دليل الحائرين.

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة:19-22].

﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ أي: صيَّرتم وسوَّيتم أيها المشركون المعاندون المكابرون ﴿سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ مع كونهما صادرتين عنكم، وأنتم على شرككم وضلالكم ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ أي: كإيمان من آمن بتوحيد الله ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعدّ لجزاء الأعمال ﴿وَجَاهَدَ﴾ بماله ونفسه ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لإعلاء دينه وكلمة توحيده؟! كلا وحاشا ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ﴾ عملة السقاية وعمارة المساجد مع المؤمنين الموقنين بتوحيد الله المجاهدين في سبيله لنصرة دينه ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:19] الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه المنزلة على رسله وأنبيائه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: تحققوا بمرتبة اليقين العلمي بتوحيد الله ﴿وَهَاجَرُوا﴾ عن بقعة الإمكان طالبين مرتبة أعلى منها ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وطريق توحيده ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ أي: ببذل ما نسب إليهم من أمتعة الدنيا العائقة عن الوصول إلى فضاء الوحدة ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بمنعها عن مشتهياتها ومقتضياتها، طالبين إفناء أنانياتهم وهوياتهم في هوية الحق ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ﴾ وأعلى منزلة ومرتبة ماداموا سالكين سائرين ﴿وَ﴾ بعد وصولهم وانقطاع سلوكم ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء الواصلون ﴿هُمُ الفَائِزُونَ﴾ [التوبة:20] بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

لذلك ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ أي: باستعداداتهم الكامنة في عالم الأسماء والصفات ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ غير منقطعة، نازلة ﴿مِّنْهُ﴾ سبحانه ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ كلّت الألسن عن تفسيره وانحسرت العقول عن التعبير عنه ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ منتزهات متجددات حسب تجددات التجليات الحبية ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات المتجددات ﴿نَعِيمٌ﴾ أي: إمداد وفواتح ﴿مُّقِيمٌ﴾ [التوبة:21] دائم غير منقطع.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ مؤبدًا لا تأبيد أمد وزمان، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي على قلوب خلَّص عباده ﴿عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة:22] لهم، بحسب استعداداتهم وقابلياتهم بعدما انكشفوا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة:23-24].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: الاجتناب عن أهل الغفلة والغرور؛ حتى لا يسري ضلالهم إليكم، سيما أقرباؤكم النسبية ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أيها المهاجرون ﴿آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾ واختاروا ﴿الْكُفْرَ﴾ والشرك ﴿عَلَى الْإِيمَانِ﴾ والتوحيد ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ بعد ورود النهي ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المتخذون المضلون الضالون ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة:23] المتجاوزون عن مقتضى حكم الله ونهيه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمؤمنين الذين يقصدون موالاة أنسابهم: ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾[1] أي: أقاربكم وذووا أرحامكم

---

(1) قال في التأويلات: أي: النفوس، فإن بازدواج الأرواح والأشباح تولدت القلوب والنفوس منها، فالأرواح للقلوب بمثابة الآباء والنفوس بمثابة الإخوان، ثم اعلم أن لكل واحد من الروح والقلب والنفس كفرًا وإيمانًا مناسبًا لحاله، والكفر: هو الستر والحجاب، والإيمان: هو الشهود والكشف، فكفر بالروح من حجاب الأنانية الروحانية والبقاء مع الله تعالى، وإيمانه بالفناء عن أنانيته في الله وبقائه بالله، وكفر القلب: موته ومرضه وصممه وبكمه وعماه وهو الكفر الحقيقي، وإيمانه: سلامته عن هذه والعلل والآفات وإحيائه بالنور الساطع الرباني من كتابة الله فيه بقلم الكرم، به يشاهد الحق تعالى ويكاشف بصفاته وهو الإيمان الحقيقي ومعدنه القلب، وكفر النفس: انهماكها في شهوات الدنيا واستغراقها باستيفاء لذاتها وبقاء صفاتها الحيوانية والشيطانية، وإيمانها: بخروجها عن صفاتها الطبيعة الظلمانية إلى الأخلاق الروحانية الشرعية النورانية واطمئنانها بالذكر وأنسها مع الله، فربما تكون بعض هذه الخلقة مؤمنًا وبعضها كافرًا، فمعنى

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها بأيدكم ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ لمضي وقت ربحها ونمائها ﴿وَمَسَاكِنُ﴾ طيبة ﴿تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: ترضى بها نفوسكم، وتطيب بها قلوبكم ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ المحبوب في قلوب أوليائه ﴿وَرَسُولِهِ﴾ الذي هو حبيبه وخليله ﴿وَ﴾ من ﴿جِهَادٍ﴾ هو عبارة عن الاجتهاد ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ لتفوزوا بشرف الوصول والشهود ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: فعليكم أن تتربصوا وتنتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ﴾ المنتقم من المتخذين لغيره أولياء ﴿بِأَمْرِهِ﴾ الموجب لعذابه ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:24] الخارجين عن مقتضى ولائه وولايته.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [التوبة:25-27].

اذكروا أيها المؤمنون ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ الحفيظ الرقيب عليكم ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾ ومواقع ﴿كَثِيرَةٍ﴾ حين لا ينفعكم أحسابكم وأنسابكم شيئًا، لاسيما في حرابكم مع هوازن وثقيف ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ هو وادٍ بين مكة والطائف ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أن تكونوا مغلوبين؛ إذ أنتم اثنا عشر ألفًا، وعدوكم أربعة آلاف ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ حينئذٍ كثرتكم ﴿عَنكُمْ شَيْئًا﴾ من غلبة العدو مع قلتهم ﴿وَ﴾ صرتم من غاية رعبكم وخوفكم إلى حيث ﴿ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: مع وسعتها فلم تجدوا فيها مقرًا تمكنون عليها من غاية رهبتكم ﴿ثُمَّ﴾ أدى أمركم وخوفكم إلى أن ﴿وَلَّيْتُم﴾ ورجعتم ﴿مُّدْبِرِينَ﴾[1] [التوبة:25] صائرين ظهركم على العدو.

الآية يشير إلى أن القلوب المؤمنة لا ينبغي أن يتخذوا آباءهم الأرواح وإخوانهم النفوس أولياء، ولا يتركوا عداوتهم بترك الجهاد معهم.

(1) قال القشيري: يعني نَصَرَكم يومَ حُنَيْن حين تَفَرَّقَ أكثرُ الأصحاب، وافترت أنياب الكَرَّةِ عن نِقاب القَهر فاضطربت القلوبُ، وخانت القوى أصحابها، ولم تُغْنِ عنكم كَثْرتُكم، فاستخلص الله أسرارَكم - عند صدق الرجوع إليه - بِحُسْنِ السكينةِ النازلة عليكم ، فَقَلَّبَ اللهُ الأمرَ على

﴿ثُمَّ﴾ بعد انهزامكم وإدباركم ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المولي لأموركم ﴿سَكِينَتَهُ﴾ أي: رحمته الموجبة للقرار والوقار، والطمأنينة ﴿عَلَىٰ﴾ قلب ﴿رَسُولِهِ وَعَلَى﴾ قلوب ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين تمكنوا معه، واستقروا حوله؛ اتكالاً على الله واتفاقًا مع رسوله ﷺ ﴿وَ﴾ بتثبيت الرسول وتقرير من تبعه ﴿أَنزَلَ﴾ سبحانه نصرةً لنبيه من الملائكة ﴿جُنُودًا﴾ مجندة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ عيونكم ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنزولها عذابًا شديدًا من القتل والأسر والإذلال في النشأة الأولى والأخرى بأضعافها ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: ما لحقهم من أنواع الإذلال ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:26] المحاربين مع الله ورسوله.

رُوي أن رسول الله ﷺ خرج بعد فتح مكة، ثمَّ توجه نحو حنين؛ لقتال هوازن وثقيف مع عشرة آلاف من المهاجرين وألفين من الطلقاء، وكان العدو أربعة آلاف فأعجب المسلمين كثرتهم، فلمَّا التقوا، فقالوا: لن نُغلب اليوم؛ لأن العدو في غاية القلة فكره الله قولهم وإعجابهم هذا، فاقتتلوا قتالاً عظيمًا فغلب العدو عليهم، فولوا منهزمين فبقي رسول الله ﷺ مع شرذمة قليلة فأراد أن يقتحم على العدو، فأخذ عمه العباس بعنانه فنزل ﷺ وقبض قبضة من التراب ورمى نحو العدو، وذلك عند نزول الملائكة، فقال: «أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ، الآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ»[1] أي: التنور.

فأمر العباس أن يصيح على الناس المنهزمين فصاح: يا عبد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فكروا عنقًا واحدًا، فاستقبلوا قائلين: لبيك لبيك فصفوا خلف الملائكة وازدحموا، وهجموا على العدو، والريح من خلفهم ومن أمام عدوهم فانهزم العدو بنصر الله وتأييده ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عليهم ويوفق منهم ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ إيمانه من أولئك المنهزمين، فأتوا رسول الله ﷺ وآمنوا فأعطى ﷺ من سبى منهم بلا فدية ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لمن تاب وآمن ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:27] يقبل توبته، ويرحم عليه إن أخلص.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ

الأعداء، وخفقتْ راياتُ النصرة، ووقعت الدائرةُ على الكفار ، وارتدّتْ الهزيمةُ عليهم فرجعوا صاغرين.

(1) رواه الطبراني في «الكبير» (6/457).

بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة:28-29].

ثمّ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: أن تذبوا وتدفعوا أهل الشرك عن الحرم ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾ المنغمسون في خباثة الشرك والضلال ﴿نَجَسٌ﴾ يجب أن يُطهر بيت الله منهم ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ أي: سنة حجة الوداع ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ بسبب إخراجهم ومنعهم عن الحرم ﴿عَيْلَةً﴾[1] فقرًا وقلة زاد ومكتسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وسعة رزقه ﴿إِن شَاءَ﴾ ترفهكم واتساعكم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:28] في إتيانها عند الحاجة ومقدارها.

وبالجملة: ﴿قَاتِلُوا﴾ أيها الغزاة الحماة لدين الله المشركين ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ وتوحيده ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعدّ لجزاء الأعمال، وإن تفوهوا بالإيمان مداهنةً ونفاقًا لا تبالوا بإيمانهم ﴿وَ﴾ هم ليسوا مراعين مقتضى الإيمان؛ إذ ﴿لَا يُحَرِّمُونَ﴾ من المحرمات ﴿مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ بإذنه سبحانه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يَدِينُونَ﴾ ولا ينقادون ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾ المنزل على الحق؛ ليصلوا إلى مقر التوحيد، وإن كانوا يدعون أنهم ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: يدعون إتيانه إياهم؛ إذ هم ليسوا على مقتضى الكتاب، وإن ادعوا بهم وبادعائهم، بل قاتلوهم إلى أن تذلوهم وتصاغروهم ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ هي التي تجزى بها دينهم حمايةً له ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: حال كون إعطائهم

(1) أي: فقراء بسبب منع المشركين من الحرم، وكانوا يجلبون لها الطعام ، فخاف الناس قلة القوت منها، إذا انقطع المشركون عنهم، فوعدهم الله بالغنى بقوله: (فسوف يغنيكم الله من فضله) من عطائه وتفضله بوجه آخر، وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدرارا، وأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الطعام إلى مكة، ثم فتح عليهم البلاد ، وجلبت لهم الغنائم، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، وما زال كذلك إلى الآن، وقيده بالمشيئة؛ لتنقطع الآمال إلى الله، ولينبه على أنه متفضل في ذلك وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام. انظر [البحر المديد (394/2)].

صادرة منهم عن يد قاهرة غالبة عليهم ﴿وَهُمْ﴾ في حين الإعطاء ﴿صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29] ذليلون مهانون، يؤخذ من لحاهم، ويضرب في لهازمهم.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[التوبة:30-31].

﴿وَ﴾ بالجملة: خذوا الجزية منهم على وجه تضطروهم وتلجئوهم إلى الإيمان وكيف لا يقتل هؤلاء الكفرة المشركون؟! ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ﴾ منهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾[1] المنزه عن التزوج والازدواج، والأبوة والبنوة؛ إذ هي من لوازم البشر ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾ أيضًا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ تعالى عمّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ القول المهمل ﴿قَوْلُهُم﴾ دائمًا جاريًا ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وأن فرض مخالفة اعتقادهم قولهم فلا أقل: إنهم ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ ويشابهون قولهم هذا ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ بأمثال هذه المهملات، حيث قالوا: الملائكة بنات الله؛ لذلك ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾ وأهلكهم بأمثال هذه المقالات المهملة ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:30] أي: كيف يصرفون أيها الناكبون عن الطريق الحق الصريح إلى الباطل الزائغ الزائل؟!.

وبالجملة: ﴿اتَّخَذُوا﴾ من فرط جهلهم وخبث طينتهم ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ مستقلين في الوجود، ومتأصلين فيه ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ المنزه عن الشريك مطلقًا،

(1) قال في التأويلات: يشير إلى تهود النفس، وعزير القلب، وذلك لأن النفس خلقت من ملكوت العناصر الأربعة، وهي ظلمانية سفلية محجوبة عن الله تعالى، وهي ظلومة جهولة، والقلب خلق من الملكوت الأعلى، ولهذا السر هو بين أصبعين من أصابع الرحمن أي: بين صفتي اللطف والقهر والجمال والجلال، وهو نوراني علوي ومهبط أنوار الحق ومورد الواردات والمواهب الربانية ومعدن العلوم اللدنية ومظهر صفات اللطف والقهر ومنح علم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] انعكس من مرآة القلب آثار أنوار الواردات والمعارف الصادرة عن الحضرة على النفس المظلمة نورت وألهمت عن القلب بتلك المعارف والعلوم التي هي بمعزل عنها تقول القلب ابن الله كما قالت اليهود لمّا سمعت، والعلوم التي هي بمعزل عنها عزير ابن الله.

المستقل في الوجود، المتفرد فيه بلا وجود لغيره أصلاً، يعبدونهم كعبادة الله ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا أُمِرُوا﴾ في كتبهم التي يدعون بمقتضاها ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أحدًا صمدًا، فردًا وترًا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ ولا موجود ﴿إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:31] له من مصنوعاته وأظلاله.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة:32-33].

﴿يُرِيدُونَ﴾ بأمثال هذه المفتريات الباطلة ﴿أَن يُطْفِئُوا﴾ أي: يخمدوا ويستروا ﴿نُورَ اللهِ﴾ المتجلي في الآفاق، المتشعشع في الكائنات ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بشركهم الناشئ من أفواههم بلا سند من عقل أو نقل، أو كشف وشهود ﴿وَيَأْبَى﴾ أي: يمنع ﴿اللهُ﴾ المنزه عن التعدد مطلقًا أن يكون له شريك في الوجود ﴿إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ أي: سوى أن يتجلى بجميع أوصافه وأسمائه على من استخلفه من خلقه، فيتراءى منه جميع آثار أسمائه وأوصافه وأخلاقه، ألا وهو المظهر الكامل، الجامع المحمدي الذي اتحد دون مرتبته ﷺ قوسا الوجوب والإمكان، ودائرتا الغيب والشهادة.

لذلك قال ﷺ: «أنا أتمم مكارم الأخلاق»[1]، وقال أيضًا: «أنا سيد ولد آدم»[2] وقال أيضًا: «آدم ومن دونه تحت لوائي»[3]، وقال أيضًا: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن رآني فقد رأى الحق»[4].

ونزل في شأنه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:3] إلى غير ذلك مما دل وحدة مرتبته وإحاطتها على جميع المراتب؛ لذلك ختم به ﷺ أمر الرسالة والتشريع ﴿وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ [التوبة:32] الساترون ظهور الحق، المريدون إطفاء نور الوجود

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه مسلم (176/15)، وأبو داود (401/13).

(3) رواه أبو يعلى في «مسنده» (213/4)، والطيالسي (353/1).

(4) رواه البخاري (458/10)، ومسلم (236/12).

في المشكاة المحمدية، وكيف يريدون إطفاء نوره اللائح اللامع من المظهر الجامع المحمدي؟!.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ الهادي ﴿بِالْهُدَى﴾ العام الشامل لكافة البرايا ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: الرسول ودينه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على كل الأديان، وينسخ جميعها به؛ لابتناء دينه على التوحيد الصرف، الخالي عن شوب التنويه وشين الكثرة مطلقًا ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:33] ظهوره بالهداية العامة، ونسخ دينه جميع الأديان؛ لخبث باطنهم.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة:34-35].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، وتحققوا وتيقنوا ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ الموسوسين لضعفاء العوام، الملبسين لهم طريق الحق بالتغديرات المبتدعة من تلقاء نفوسهم، كالشيخوخة التي ظهرت في زماننا هذا، إنما غرضهم ومعظم مأمولهم ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ ويأخذون ﴿أَمْوَالَ النَّاسِ﴾ المنحطين عن زمرة أهل التحقيق ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ أي: بترويج الباطل الزائغ الذي ابتدعوها بلا مستند لهم.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ أي: يصرفون ويضلون أباطيلهم وتلبيساتهم ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام تلبيسًا عليهم وتغريرًا لهم؛ ليأخذوا الرشى منهم ويكنزوها ﴿وَ﴾ لم يعلموا أن ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي: يجعلونها مخزونًا محفوظًا من أي ملة كانوا ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طلبًا لمرضاته ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:34] مؤلم مفزع.

اذكر لهم ﴿يَوْمَ يُحْمَى﴾ أي: حين توقدون وتحرقون ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على تلك الذهب والفضة المخزونة المحفوظة نار، مع أنها موضوعة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وهذا مبالغة لشدة حمائه، وبعدما حميت إلى أن صارت جذوة نار ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾

ليوسموا بها ويعلموا على رءوس الأشهاد جزاء ما افتخروا بها في النشأة الأولى ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ ليتألموا بها أشد تألم، بدل ما يتلذذون بها أشد تلذذ ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾ بدل ما يستظهرون بها ويتعاونون بسببها، ويقال حين كيهم وتعذيبهم: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ وخزنتم ﴿لأَنفُسِكُمْ﴾ لتتنعموا بها وتسروا بجمعها وادخارها ﴿فَذُوقُوا﴾ اليوم وبال ﴿مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:35] بدل ما تتلذذون بها.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [التوبة:36-37].

ثم قال سبحانه تعليمًا للمؤمنين على ما ثبت عنده من الأيام والشهور؛ لتتميم مصالحهم ومعاملاتهم: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ على ما ثبت ﴿عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ﴾ أي: في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: حين أظهر سبحانه عالم الكون والفساد المقدر بمكيال الأيام والليالي المنقسمتين إلى الشهور والأعوام والأسبوع والساعات؛ إذ في أزل الذات لا صباح ولا مساء، ولا صيف ولا شتاء، ولا الشهور ولا السنون، فسبحان من تنزه عن التبديل والتحويل، وتقدس عن الظهور والبطون.

﴿مِنْهَا﴾ من تلك الشهور في كتاب الله ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، سميت بها؛ لأن الله سبحانه حرم فيها لعباده بعض ما أباح في الشهور الأخر كرامةً لها واحترامًا، فعليكم أيها المكلفون أن تواظبوا فيها على الطاعات، وتداوموا على الخيرات والمبرات، واجتنبوا عن الآثام والجهالات، وأكثروا فيها الأعمال الصالحات وتوجهوا نحو الحق في جميع الحالات، سيما في تلك الشهور المعدة للتوجه من عنده ﴿ذَلِكَ﴾ أي: تحريم الشهور الأربعة ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستقيم الموروث لكم من ملة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ

﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بالخروج عن مقتضى تحريمها وهتك حرمتها؛ حتى لا تستحقوا عذاب الله ونكاله.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ فيها إن قاتلوكم، ولا تبادروا وتسابقوا إلى قتالهم فيها وفي غيرها، بل إن بادروا على قتالكم قاتلوكم، واقتلوهم ﴿كَافَّةً﴾ أي: جميعًا ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ بلا ترحم وتوقيت ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المستوي على العدل القويم ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:36] الذين يحفظون نفوسهم عن هتك حرمة الله، قد حرمها الله لحكمة ومصلحة لم يطلعكم عليها.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ أي: تأخير حرمة الشهر المحرم إلى شهر آخر بدله من غير المحرمات ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ لأن خصوصية هذه الأشهر معتبرة في الحرمة، واستبدالها ازدياد في الكفر؛ لأن هتك الحرمة كفر، وتبديلها كفر آخر ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بسبب تبديلهم إضلالاً زائدًا على ضلالهم الأصلي؛ إذ ﴿يُحِلُّونَهُ﴾ أي: النسيء الذي يؤخرونه ﴿عَامًا﴾ سنة ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ آخر بلا رعاية خصوصية في التحريم، وليس غرضهم من هذا التحليل والتحريم إلا ﴿لِيُوَاطِئُوا﴾ ويوافقوا ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾ وهي الأربعة من غير التفات إلى خصوصية ﴿فَيُحِلُّوا﴾ بفعلهم وتبديلهم ﴿مَا حَرَّمَ اللهُ﴾ بخصوصه، وما ذلك إلا أن ﴿زُيِّنَ﴾ أي: حسن وحبب لهم ﴿لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: تحليلهم وتبديلهم القبيح ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده إلى صوب جنابه ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:37] الخارجين عن مقتضى مأموراته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة:38-39].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا﴾ ذا عرض ولحق ﴿لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لنصرة دينه وإعلاء كلمة توحيده ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ أي: تثاقلتم وتعاللتم وتباطأتم، وصرتم من غاية ثقلكم وتكاسلكم كأنكم تلزقون ﴿إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ﴾ أيها المستبطئون ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الدنية الحقيرة ومزخرفاتها الفانية بدلاً ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ ولذاتها الباقية ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والاستمتاع بها، والتلذذ بمستلذاتها ومشتهياتها ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾

أي: جنب لذاتها ودرجاتها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:38] مستحقر مسترذل، بل فانٍ مطلقًا، لا وجود لها أصلاً عند من كحل الله عين بصيرته، وأذهب عمى قلبه.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ بعدما أمرتم به ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ الله المنتقم منكم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ باستيلاء عدوكم عليكم، واستئصالكم بأفظع الوجوه وأفزعها ﴿وَ﴾ بعد إهلاككم ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ منكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ مطيعين لأمره، منقادين لحكمه؛ لينفروا في سبيله، كأهل اليمن والفرس ﴿وَ﴾ اعلموا أنكم بتكاسلكم وتقاعدكم عن القتال المأمور ﴿لَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ إذ هو منزه عن تقويتكم وإضراركم، وكفركم وإيمانكم ﴿وَاللَّهُ﴾ المنتقم على من خرج عن مقتضى أمره ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من صور الانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ [التوبة: 39] لا يخرج عن حيطة قدرته شيء.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي: إن لم تنصروا نبيه المؤيَّد من عنده ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ الرقيب عليه، اذكروا نصر الله إياه وقت ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أهل مكة من مكة حال كونه ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾[1] أي: ليس معه إلا رجل واحد، وهو أبو بكر ﷺ فذهبا نحو الجبل

---

(1) الوحدة الأزلية والخلوة الحبيبية، إذ لا يسعه ملك مقرب ولا نبي مرسل حين لا حين، وكان الله ولم يكن معه شيء فخلق ببديع فطرته أول ما خلق الله نور وجود حبيبه، فكان ثاني اثنين في غار الغيرة ومقام المعية، وله ﷺ مع الله وقت لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل إلى أن شرف الله تعالى أبا بكر ﷺ باختصاص هذين القائلين بتبعيته ﷺ؛ أعني: مقام ثاني اثنين ومقام العندية كما قال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:40]، وأنه تعالى متكلم به من الأزل إلى الأبد فدل على أن أبا بكر ﷺ كان مكرمًا في الأزل بهذه الكرامة وهو ثاني رسول الله ﷺ في جميع الأحوال، فكما أخرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرًا كان أبا بكر ثانيه فقط، فكذلك لمّا خرج من العدم كان أبو بكر ثانيه في عالم الأرواح، بل كان ثانيه في غار العدم، ولم يكن لأحد من الخلق هذا الاختصاص من معه غير أبي بكر ﷺ والذي يدل قوله ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، وكان أبو بكر ﷺ ثانيه في سباق الطلب والسير إلى الله

تعالى في الجاهلية، والذي يؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: «كنت أنا وأبو بكر كفرسي رهان فسبقته فتبعني، ولو سبقني لتبعته» وكان ثانيه في الإسلام دل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر:33] وكان ثانيه في إمامة المسلمين يدل عليه قوله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فلما كان أبو بكر ﷺ ثاني رسول الله ﷺ على الإطلاق في بدء الخلقة وفي خلال حياته في مقامات وأحوال كثيرة، فقد تعين أن يكون ثانيه بعد وفاته في الخلافة كما قاله ﷺ: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» والذي يؤكد قولنا في أن أبا بكر كان ثاني رسول الله ﷺ على الإطلاق، وأنه كان متعينًا للخلافة بعدما أورده الشيخ الفضل بن سهل في تصديق خلافة أبي بكر ﷺ فقال: إنه خير الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ، وإن خلافته حق واجب من الله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ حصل له في كل أمور رسول الله ﷺ أنه ثانيه فأطلق القول أنه ثاني اثنين، ولم يعلقه بأنه ثاني اثنين في الغار فيكون ثانيه بحضوره معه في الغار فيكون مخصوصًا بثانيه في الغار فقط، فلما قال: ﴿إِذْ هُمَا﴾ دل على عموم الحال حتى يقول دليل بأنه مخصوص بثانيه في الغار فقال ومن النبي ﷺ واجب في عظم الدين وهو بأصحابه في مقام رسول الله ﷺ مستخلف، وذكر فيه بإسناده إلى عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «ليؤم الناس أبو بكر» فقالت عائشة لحفصة: قولي له إن أبا بكر رجل رقيق، وإنه إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر: فليصل بالناس، فقالت حفصة: يا رسول الله إن أبا بكر رقيق، وإنه إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فقال: «يؤم الناس أبو بكر» وقالت: فأعدت ذلك، فقال: «مه إنكن لأنتن صواحب يوسف ليؤم الناس أبو بكر» وقال لما عورض رسول الله ﷺ وهو سهل الخلقة لين الجانب أجل وأغلظ لحضور الحق الذي لا يجوز غيره وهذا بيّن لا خفاء فيه، وقال دليل آخر أن خلافته حق لا يجوز غيره ما أخبرنا محمد بن بكر، وذكر إسنادها إلى عبد الله بن زمعة قال: لما اسْتُعِزَّ بالنبيِّ ﷺ وسلم وأنا عنده في نَفَر من الناس دعاه بلال إلى الصلاة، فقال رسولُ الله ﷺ: «مُرُوا أبا بكرٍ يُصلِّي بالناس»، قال: فخرجنا، فإذا عُمرُ في الناس، وكان أبو بكر غائبًا، فقلتُ: يا عمر، قم فصلِّ للناس، فتقدَّم فكبَّر، فلما سمع النبيُّ ﷺ صوتَه - وكان عمر رجلاً مِجْهَرًا- قال: فأين أبو بكر؟ يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر، فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس»، قال: لولا أنه حق لا يجوز غيره ما أعيدت تلك الصلاة ولولا أنه حق واجب ينظر بأبي بكر لكان في الناس غير عمر حضور وغيب، ويبعث إلى أبي بكر وهو غائب وتادى الصلاة؛ لأنه حضر وأمره رسول الله ﷺ وكانت الصلاة في ذلك الوقت خلافة رسول الله ﷺ ولو كان غير ذلك لم تجب الإعادة، فقد صلى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر والصحابة بأجمعهم خلف عبد الرحمن بن عوف وهم في مسيرهم إلى تبوك فجاز ولم يوجب إعادة، ولو لم يعد تلك الصلاة كانت الخلافة شرعًا لمن كان، فلما أعيدت تأكدت الخلافة، ثم ذكر دليلاً وكيدًا آخر بإسناده عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبا بكر وعمر» فلما قال «من بعدي» دل على أن الخلافة لهما حق، فأمره بالاقتداء بهما حق واجب، وقال: دليل وكيد آخر ثم ذكر بإسناده عن أنس بن مالك ﷺ قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فخرجت معه

فدخلا الغار، واقتفى العدو أثرهما فوصلوا الغار ﴿إِذْ هُمَا﴾ خبيئين ﴿فِي الْغَارِ﴾ فتحزَّن صاحبه من إدراك العدو، اذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ ﷺ في تلك الحالة ﴿لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ عن إدراكهم، ولا تيأس عن نصر الله وحفظه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الرقيب علينا حاضر ﴿مَعَنَا﴾ يكفينا مؤونة ضررهم.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ﴾ سبحانه بقوله ﷺ ﴿سَكِينَتَهُ﴾ أي: اطمئنانه وقراره ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على صاحبه ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ﴾ أي: ملائكة مستحفظين مستحصنين، حارسين له ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ عيونكم، مثل أولئك الجنود ﴿وَجَعَلَ﴾ سبحانه بنصره وتأييده إياه ﷺ ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ما يدعون ويخاصمون معه لأجله وترويجه ﴿السُّفْلَى﴾ أي: الأدنى الأنزل، لا يؤبه ولا يبالي بها أصلاً ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ أي: كلمة توحيده التي ظهر بها حبيبه ﷺ ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾ إذ الحق يعلو ولا يُعلى ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر على كل ما يشاء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب في نصر أوليائه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:40] في جميع أفعاله وتدبيراته.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ

فدخل حائطًا من حيطان الأنصار فدخلت معه فقال: يا أنس أغلق الباب فأغلقته، فإذا برجل يقرع الباب فقال: يا أنس افتح له وبشره بالجنة، وأخبره أنه يلي أمتي من بعدي فذهبت أفتح له لا أدري من هو فإذا هو أبو بكر فأخبرته بما قال النبي ﷺ»، وقال: دليل وكيد آخر ثم ذكر بإسناده عن سفينة قال: «بنى النبي ﷺ المسجد ووضع حجرًا، ثم قال لأبي بكر: ضع حجرك إلى جنب حجري، ثم قال لعمر: ضع حجرك إلى جنب حجر أبي بكر، ثم قال لعثمان: ضع حجرك إلى جنب حجر عمر، ثم قال: هؤلاء الخلفاء من بعدي»، ثم روى عن زيد بن وهب بإسناده قال علي ﷺ: استخلف رسول الله ﷺ أبا بكر في صلاتنا، واختاره لنا فرضينا لدنيانا من استخلفه رسول الله ﷺ لصلاتنا، ثم ذكر دلائل خلافته كثيرة يطول ذكرها، فتحقق أن أبا بكر ﷺ كان ثاني رسول الله ﷺ على الإطلاق في بدء الخلقة إلى أن كان ثانيه في القبر بعد وفاته، وثانيه فيما صب الله في صدره من أسرار النبوة كما قال ﷺ: «ما صب الله في صدري شيئًا إلا وصببته في صدر أبي بكر» وبذلك استحق أن يكون ثانيه في الخلافة من بعده، والذي يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة:40] يعني: على أبي بكر في الغار، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:40] وهي حقائق الإيمان، ودقائق العرفان، ودقائق الإيقان من سوابق الإحسان ولواحق العيان ولا يبعد أن إنزال السكينة كان على قلب النبي ﷺ والتأييد بالجنود له، ثم صب النبي ﷺ ما صب الله تعالى في صدره من حقائق السكينة والتأييد في صدر أبي بكر ﷺ بتصرف قوله: «لا تحزن إن الله معنا» فنزلت السكينة على أبي بكر وحصل له التأييد بقوله ﷺ: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما ليستحق بذلك كله أن يكون ثانيه في الخلافة. [التأويلات النجمية].

خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة:41-43].

﴿انفِرُوا﴾ أيها الغزاة المجاهدون في سبيل الله ﴿خِفَافًا﴾ نشطًا فرحانًا، منبسطين لمرتبة الشهادة ﴿وَثِقَالًا﴾ قاصدًا لأخذ الغنيمة والأحمال والأثقال من عدوكم، أو مشاة وركبانًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ لتهيئة الأسباب وإعداد السفر ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بتحمل المشاق والمتاعب ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لتفوزوا من عنده بالمثوبة العظمى والدرجة العليا التي لا درجة أعلى منها ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما أمرتم به من عند ربكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:41] الخير وتميزونه من الشر.

ثمّ قال سبحانه في حق المستخلفين عن القتال المأمور به، المستأذنين عن رسول الله ﷺ، المعتذرين له بالعذر الكاذب توبيخًا لهم وتقريعًا: ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما تدعوهم إليه يا أكمل الرسل ﴿عَرَضًا﴾ أي: متاعًا دنيويًا مما يشتهيه نفوسهم ﴿قَرِيبًا﴾ سهل الحصول ﴿وَ﴾ كان السعي في حصوله ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾ متوسطًا، أي: مساويًا نفعه لمشقة تحصيله ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ ألبتة طائعين لمصلحة ما يؤملونه من جلب النفع، لا لغرض ديني ونفع أخروي ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ﴾ المسافة، واشتدت ﴿الشُّقَّةُ﴾ أي: المشقة فيها، مع جزمهم بعدم الفائدة فيها بزعمهم الفاسد واعتقادهم الكاسد.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ معتذرين متمنين بلا موافقة قلوبهم بألسنتهم بعدما رجعت من غزوة تبوك: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ بالخروج استطاعة مالية أو بدنية ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ألبتة، مع أنهم قادرون مستطيعون بكلتا الاستطاعتين، وهم لخبث باطنهم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بهذا الحلف الكاذب، ويعرضونها على عذاب الله ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لمخايل هؤلاء المنافقين ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:42] في حلفهم وعذرهم هذا.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ ما جئت به من ترك الأولى ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[1] استأذنوك

---

(1) قال روزبهان: إن من سنة الله سبحانه إذا أراد أن يفتح كنزًا من كنوز غرائب علمه، ونوال قربه،

بالقعود؛ أي: هؤلاء المنافقين المتخلفين، المعتذرين بالأعذار الكاذبة ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ ويظهر ﴿لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الاعتذار والاعتدال ﴿وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ﴾ [التوبة:43] فيها على مقتضى نفاقهم الكامنة في نفوسهم.

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [التوبة:44-46].

﴿لَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي: ليس من عادة المؤمنين الاستئذان منك إلى الخروج نحو القتال مطلقًا، بل هم منتظرون دائمًا، متهيئون دائمًا أسبابهم، مترصدون إلى ﴿أن يُجَاهِدُوا﴾ في سبيل الله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ وينتهزون الفرصة بالمسابقة حين أمروا، فكيف أن يتأذنوا بالقعود وعدم الخروج، والمعذورون متألمون متحسرون يبكون في زاوية الحرمان، محزونون ملهوفون متأسفون؛ لذلك وعد لهم سبحانه من فضله درجة عظيمة ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:44] الذين يحفظون نفوسهم من مخالفة أمر الله وأمر رسوله بلا عذرٍ شرعي.

ولطائف وصلته على أحد من أحبائه وأصفيائه وأنبيائه، أوقعهم في محل الامتحان، وأجرى عليه زلة من زلل الحدثان؛ حتى يضيق صدره بالغيبة، ويذوق قلبه مرارة الفُرقة، وتذوق روحه من الندامة، ويطيع عقله مّن حشمة العتاب، ويزول شبحه من دار الاحتجاب، فيطلع الله شمس عزة جلاله من مطلع قلبه، ويتنسم صبح الوصال من مشرق روحه، وتبدو أنوار الصفات من روازن أسراره ، وتشرق سبحات الذات في أرض فؤاده، وتتنور مجامع عقله بظهور سنا أفعاله، فيرى العبد في البسط بعد القبض مشاهدة بديهية، ووصلة أبدية، وخطابًا سرمديًا يطير بأنوارها في الأزال والآباد، وتصير ذلته زلفى، وذنبه كشف وصلة، ويقابل الله من ذنبه لجميع حسنات العالمين؛ لأنه مصطفى في الأزل بمحبته، ومجتبى بنوال قربه في القِدم، وتكون سيئاته حسنات، وزلّاته زلفات؛ لأنه مختار الله في أرضه، وعروسه بين عباده، جميع حركاته تقع حسنة، وأفعاله تكون عند الله مستحسنة، وهكذا شأن الأحباب، المحب يعتذر لزلة حبيبه، ويعشق على غيرة معشوقه؛ لأن من كان حسنًا، فما يبدو منه أيضًا يكون حسنًا.

بل: ﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ﴾ بالقعود والتخلف ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وتوحيده ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعدّ لجزاء الأعمال ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لعدم اطمئنانها ورسوخها بالإيمان والتوحيد ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ المركوز في جبلتهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:45] يتحيرون، ويتذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ وقصدوا الوفاق مع المؤمنين كما أظهروا ﴿لَأَعَدُّوا﴾ وهيأوا ﴿لَهُ عُدَّةً﴾ أهبة وأسبابًا ﴿وَلَكِن﴾ لخبث باطنهم وانهماكهم في الضلال ﴿كَرِهَ اللَّهُ﴾ المطلع على قساوة قلوبهم ﴿انبِعَاثَهُمْ﴾ أي: اهتزازهم وتحركهم نحو القتال ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ لذلك وحبسهم، وأقعدهم في مكانهم بإلقاء الرعب والكسل في قلوبهم ﴿وَ﴾ كأنه ﴿قِيلَ﴾ لإسماعهم تضليلاً لهم وتغريرًا: ﴿اقْعُدُوا﴾ أيها المنهمكرن في الغفلة ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:46] من النساء والصبيان، والمرضى والزمناء.

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة:47-49].

وإنما ثبطهم سبحانه وكره نهوضهم؛ لأنه سبحانه علم منهم أنهم ﴿لَوْ خَرَجُوا﴾ معكم، وكانوا ﴿فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فسادًا بالغيبة والنميمة، وإيقاع الفتنة بينكم ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ أي: أسرعوا وأدخلوا ركائبهم ﴿خِلَالَكُمْ﴾ ليتخللوا فيكم وليفرقوا جمعكم؛ حتى يشتغلوا بالنميمة، وإذا ازدحم العدو هزموكم بتفريق جمعكم وتشتيت شملكم، وبالجملة: إنما ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون إيقاع الفتنة بينكم بأي وجه كان ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿فِيكُمْ﴾ وبينكم ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: ضعفة يسمعون قولهم ويقبلون نصحهم، ويرغبون إليهم ويطيعون أمرهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:47] الخارجين عن مقتضى أوامره سرًا وعلانية.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ أي: ليس هذا أول ابتغائهم وإيقاعهم، بل أوقعوا الفتنة ﴿مِن قَبْلُ﴾ وأرجفوا بهلاكك، وشتتوا شمل أصحابك ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾

أي: النصر والتأييد الثابت عنده، المقرر دونه سبحانه من نصر دينك وإعلائه، ونسخ الأديان كلها ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وإعلاء كلمته ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:48] من خبث باطنهم ظهور دينك وارتفاع شأنك، وسمو برهانك.

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المستأذنين المتخلفين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لك حين استأذنك بالقعود: ﴿ائْذَن لِّي﴾ إذ ليس لي قوة الخروج ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي: لا توقعني في الفتنة بالخروج؛ إذ إني أخاف على نفسي من الفتنة والعصيان لو خرجت، قل لهم يا أكمل الرسل توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: وقعوا في فتنة التخلف وظهور النفاق والشقاق باستئذانهم وقولهم هذا ﴿وَ﴾ استحقوا العذاب والنكال ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:49] في الدنيا والآخرة، ومن شدة شكيمتهم وغيظ قلوبهم معك يا أكمل الرسل.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة:50-52].

﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعض أسفارك وغزواتك ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفرة وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ وتزيد غيظهم ونفاقهم ﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ في بعضها ﴿مُصِيبَةٌ﴾ كسر وهزيمة ﴿يَقُولُوا﴾ تصحيحًا وتحسينًا لرأيهم الفاسد: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ وأصبنا فيه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: حين تخلفنا ﴿وَيَتَوَلَّوا﴾ عن مجمعهم الذي يتشامتون فيه بالمؤمنين تبجحًا ﴿وَهُمْ﴾ في رجوعهم وتفرقهم ﴿فَرِحُونَ﴾ [التوبة:50] مسروررون.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل للمتشامتين المنافقين على مقتضى كشفك وشهودك بربك: ﴿لَّن يُصِيبَنَا﴾ من الحوادث ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ﴾ المقدر للآجال والأرزاق، وجميع الأفعال والأحوال، والحوادث الجارية في عالم الغيب والشهادة ﴿لَنَا﴾ وخصصنا بها في حضرة علمه؛ إذ ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿مَوْلَانَا﴾ ومولي جميع أمورنا يصنع بنا على مقتضى ما ثبت في حضرة علمه بلا تبديل ولا تغيير ﴿وَ﴾ ما لنا إلا الرضا بما جرى علينا

وسيجري من القضاء؛ لذلك ﴿عَلَى اللهِ﴾ لا على غيره من الأسباب والوسائل؛ إذ مرجع الكل إليه، كما أن مبدأه منه أولاً بالذات ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:51] بتوحيد الذات، وسريان سر الوحدة على صفائح المكونات.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ أي: ترقبون وتنتظرون ﴿بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي: العاقبتين الحميدتين اللتين كل منهما محض خير، إمَّا النصرة وإمَّا الشهادة إذ وعدنا الله من فضله بهما ﴿وَنَحْنُ﴾ أيضًا ﴿نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ على مقتضى وحي الله وإلهامه ﴿أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ﴾ نازل ﴿مِّنْ عِندِهِ﴾ بلا دخل منا وصنع من كسف أو خسف وزلزلة وغيرها ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ من القتل والأسر، والإجلاء والإذلال ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وانتظروا لما وُعد لنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة:52] أيضًا لما أوعدتم به؛ حتى ننظر كيف يجري حكم الله ومشيته؟.

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة:53-55].

﴿قُلْ﴾ للمنافقين المتخلفين الذين يريدون إعانتك بالمال بدل الخروج إلى الجهاد: لن ينفعكم إنفاقكم عند الله سواء ﴿أَنفِقُوا طَوْعًا﴾ طائعين ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ كارهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ لأن الإنفاق إنما يقبل من المؤمنين الصالحين المخلصين ﴿إِنَّكُمْ﴾ بسبب كفركم ونفاقكم مع الله ورسوله ﴿كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة:53] لا يقبل منكم الصدقات مطلقًا؛ لعدم مقارنتها بالإيمان.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ أي: ليس عدم قبول نفقاتهم وصدقاتهم عند الله ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ المتوحد بذاته، وأشركوا له ما هو من مصنوعاته ﴿وَبِرَسُولِهِ﴾ بتكذيبه، وعدم إطاعته وانقياده ﴿وَ﴾ علامة كفرهم ونفاقهم: إنهم ﴿لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ الفاصلة الفارقة بين الكفر والإيمان ﴿إِلَّا﴾ يأتونها مداهنةً ﴿وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ مبطئون مؤخرون بلا انبعاث قلبي وداعية شوقية ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَا يُنفِقُونَ﴾ ما ينفقون ﴿إِلَّا وَهُمْ

كَارِهُونَ﴾ [التوبة:54] كراهة قلبية؛ لأنهم لا يتوقعون ترتب الثواب عليها؛ لعدم إيمانهم بيوم الجزاء والثواب والعقاب.

ومتى تحقق كفرهم ونفاقهم ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي: كثرتها وتفاخرهم بها؛ لأنها من أسباب العذاب والنكال عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ المنتقم منهم ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بجمعها وحفظها ونمائها، وارتكاب المحن والشدائد في تحصيلها ﴿وَ﴾ من كثرة محبتهم لها وحرصهم عليها ﴿تَزْهَقَ﴾ وتزول ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ وقت حلول الأجل ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:55] محجوبون عن توحيد الله والإيمان.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة:56-59].

﴿وَ﴾ من جملة نفاقهم: إنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ بالحلف الكاذب ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي: من جملتكم وزمرتكم يفرحون بفرحكم وسروركم، ويتغممون بحزنكم ومصيبتكم ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفرهم وشركهم المركوز في قلوبهم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[1] [التوبة:56] يخافون أن تفعلوا بهم فعلكم مع المشركين، فاضطروا إلى المداهنة والنفاق فأظهروا الإسلام؛ حفظًا لدمائهم وأموالهم، وهم مضطرون على إظهار الإيمان، ومن غاية تذللهم واضطرارهم.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ منيعًا من الحصون والقلاع ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ في شعاب

---

(1) قال في التأويلات: فهم كذلك من سطوات قهرهم عند غلبات الأنوار الروحانية، فإن النفس وصفاتها لما انعكست عليها أنوار الفيض الرباني عن مرآة القلب انكسرت ظلمة طبيعتها وانخمدت نار شهواتها، فتفرع من فنائها وهلاكها بالكلية، فتلتجئ إلى الروح والقلب والسر وتخدعهم بالحلف كما خدع إبليس آدم وحواء بالحلف كقوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:21] ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:22]، فتريد النفس أن تدلي الروح والقلب بغرور.

الجبال ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ جحرًا يمكنهم الإنجحار والاستتار فيه ﴿لَوَلَّوْا﴾ وانصرفوا-ألبتة ﴿إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:57] يسرعون، كالفرس الجموح ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يعينك وينصرك ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: قسمة الغنائم، ويتردد حولك حين القسمة طامعًا ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ بينهما أو شيئًا يعتد به ﴿رَضُوا﴾ منك، وأثنوا عليك شكرًا لإعطائك ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا﴾ لعدم استحقاقهم؛ وبسبب تخلفهم ونفاقهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة:58] يفاجئون بالغيظ والسخط إظهارًا لما في قلوبهم من الأكنة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ كانوا مؤمنين كما ادعوا ﴿رَضُوا﴾ في تقاسيم الغنائم وغيرها على ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ وأعطاهم من فضله؛ إذ هو الحكيم في قسمة أرزاق عباده على تفاوت درجاتهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ المستخلف له، الملهم من عنده ﴿وَقَالُوا﴾ من كمال إخلاصهم وتفويضهم كسائر المؤمنين: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ المدبر الكافي لأمورنا يكفينا علمه بنا ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ﴾ المكفل لأرزاقنا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وسعة لطفه وجوده ما يكفينا ﴿وَ﴾ سيعطينا ﴿وَرَسُولُهُ﴾ النائب عنه بإذنه من الغنائم والصدقات ما يشبعنا ويغنينا ﴿إِنَّا﴾ بعدما آمنا بالله، وتحققنا بتوحيده بإرشاد رسله ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الباقي بالبقاء الأزلي السرمدي لا إلى غيره من الأظلال والأموال والمزخرفات الفانية ﴿رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: 59] ليرزقنا من فوائد رزقه المعنوي، وفوائد توحيده الذاتي؛ أي: هم لو رضوا كما رضي المؤمنون الموقنون، واعترفوا كما اعترفوا لكان خيرًا لهم وأشد تثبيتًا وتقريرًا في قلوبهم.

﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:60-61].

ثم بيّن سبحانه مصارف الصدقات فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ أي: الزكوات يصرف ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ وهم الذين لا مال لهم ولا مكسب لهم من الحرث وغيره، كأنه يكسر فقار ظهرهم الفاقة والاحتياج ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ الذين لهم مكسب وصنعة، لكن لا تفي لعيالهم

كأن الاحتياج أسكنهم في زاوية المسكنة والهوان ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: الساعين لجمعها وإيصالها إلى مصارفها ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الذين قرب عهد إسلامهم، يجب على المسلمين مؤانستهم ومواساتهم؛ ليقروا على الإيمان ﴿وَ﴾ يصرف منها أيضًا ﴿فِي الرِّقَابِ﴾ أي: فكها من الرق وتحريرها، وهو من أهم مهمات الإسلام ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ الذين استغرق أموالهم في ديونهم ولم تفِ لأدائها، يُصرف إليهم منها؛ ليؤديها.

﴿وَ﴾ يُصرف منها سهم ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لتجهيز جيوش أهل الجهاد وتهيئة أسبابهم وعُددهم؛ إذ هو من أهم مهمات هذا الدين ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الذي انقطع عن الأهل والمال لمصلحة شرعية، إنما جرى هذه القسمة لهؤلاء المستحقين ﴿فَرِيضَةً﴾ صادرة ﴿مِّنَ اللهِ﴾ مقدرة من عنده؛ ليحافظ المؤمنون عليها ﴿وَاللهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصارف الصدقات ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:60] في صرفها إياهم تقويةً لهم وإمدادًا.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ ويسيئون الأدب معه ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في حقه افتراءً واستهانةً: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: سمع كله ليس له دربة ودراية وتعمق في المعارف والحقائق، بل يسمع منَّا ويجري على ما سمع بلا تفتيش وتدبر ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: إنما أذن لكم لا أذن شر وفتنة، بل ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ إن صدر عنكم ما يتعلق بأمور دينكم، موافقًا لما أمر الله به يقبله منكم؛ لأنه ﷺ ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ أي: يقر ويصدق بوحدانيته ﴿وَيُؤْمِنُ﴾ أيضًا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين فيما أتوا به من الأعمال والأقوال الصادرة عن الإخلاص ﴿وَ﴾ كيف لا يكون الرسول أذن خير؛ إذ هو كله ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي: شفقة وعطف ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ وأخلصوا في إيمانهم؟! ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ﴾ بأي وجه كان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:61] في النشأة الأخرى؛ جزاءً لما أتوا به من إيذاء رسوله.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ

﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾ [التوبة:62-66].

ومن جملة نفاق المنافقين وشقاقهم: إنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ لتسليتكم وتلبيسكم أيها المؤمنون على ما صدر عنهم من التخلف والتقول على سبيل العذر ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ أي: لترضوا عنهم وتقبلوا عذرهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ الملهم من عنده بمخايلهم وأباطيلهم ﴿أَحَقُّ﴾ وأليق ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ أي: رسوله أحق بالإرضاء والمراضاة، وحد الضمير؛ لأن إرضاء الرسول مستلزم لإرضاء الله، بل هو عين إرضائه سبحانه عند من ارتفع سبل التعدد عن عينه، وغشاوة الكثرة عن بصره ﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:62] بالله وبحقية رسوله.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ ويفهموا أولئك المتخلفون، المؤذون لله ورسوله ﴿أَنَّهُ﴾ أي: الشأن ﴿مَن يُحَادِدِ﴾ ويشاقق ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويتعد حدود الله ويخالف أمر رسوله ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ جزاءً لما اقترف من المعاداة، فيكون ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ لا ينجو منها أصلاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الخلود في جهنم الحرمان ﴿الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:63] والهلاك الدائم.

ومن شدة نفاقهم وشقاقهم ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ المصرون على الكفر الكامن في قلوبهم، المظهرون للإيمان استهزاءً ومداهنةً ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين ﴿سُورَةٌ﴾ طائفة من الكلام ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ وتخبرهم ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكفر والنفاق فحينئذٍ فعلوا ما فعلوا بالمشركين المجاهرين ﴿قُلِ﴾ لهم تهديدًا وتقريرًا: ﴿اسْتَهْزِءُوا﴾ بالمؤمنين، وامضوا على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم منكم ﴿مُخْرِجٌ﴾ مظهر ﴿مَّا﴾ كنتم ﴿تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:64] منه، وهو إنزال السورة؛ لإفشاء حالكم.

﴿وَ﴾ كيف لا ينتقم الله عنهم ﴿لَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾ أي: لئن سألتهم وأخذتهم حين استهزءوا بك وبأصحابك وقت مرورهم عليك في غزوة تبوك قائلين: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات، فألهمت به فدعوتهم، وقلت لهم: قلتم كذا وكذا؟ فقالوا: لا والله ما كنا في أمرك وأصحابك في شيء، بل ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بالأراجيف مزاحًا؛ ليهون السفر علينا ﴿قُلْ﴾ لهم بمقتضى

علمك إياهم، بوحي الله وإلهامه توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَبِاللهِ﴾ المنزه ذاته عن أن يستهزئوا ﴿وَآيَاتِهِ﴾ البريئة عن النقص ﴿وَرَسُولِهِ﴾ المطهر عن شوب الكذب ﴿كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:65] أيها الحمقى فتربصوا، وانتظروا حتى يستهزئ الله بكم.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بالأعذار الفاسدة، ولا تحلفوا بالحلف الكاذب، إنكم ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ وأظهرتم بإيذاء الرسول والطعن في دينه ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بعدما أظهرتم الإيمان فارتفع الأمان عنكم بفعلكم هذا فلحقتم بالمشركين، فنفعل بكم ما نفعل بهم ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بعدما تابوا عمّا صدر عنهم، ورجعوا إلى الله نادمين خاشعين عن ظهر القلب ﴿نُعَذِّبْ﴾ بالقتل والأسر، والإجلاء والإذلال ﴿طَائِفَةً﴾ أخرى منكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة:66] مصرين على ما هم عليه من الكفر والنفاق، وإيذاء الرسول والتخلف عن أمره بلا توبة وندامة.

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [التوبة:67-69].

فعليكم أيها المؤمنون أن تعذبوهم ذكرًا أو أنثى؛ إذ ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ المصرون على النفاق أصالة ﴿وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ المصرات عليه تبعًا ﴿بَعْضُهُم﴾ ناشئ ﴿مِّن بَعْضٍ﴾[1] يتظاهرون ويتعاونون في نفاقهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ على عكس المؤمنين ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الخيرات والمبرات كلها، وما ذلك إلا أنهم ﴿نَسُوا

(1) يعني: طينة نفوسهم وجبلة قلوبهم من جنس واحد وأرواحهم متقاربة في صف واحد من صفوف الأرواح؛ إذ هي جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، فمعاملاتهم من نتائج خصوصية أرواحهم السفلية بالنسبة إلى الأرواح العلوية فمن نتائج خصوصيتها.

﴿اللَّهَ﴾ المظهر الموجد لهم بالإعراض عن حكمه وإيذاء رسوله المبين لأحكامه ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ الله أيضًا، ولم ينظر إليهم بنظر الرحمة ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المصرين على النفاق، المتمردين عن الوفاق ﴿هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:67] المقصورون على الخروج عن مقتضى أمر الله وحكمه.

لذلك ﴿وَعَدَ اللهُ﴾ المنتقم القادر على أنواع الانتقام ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾ المجاهرين بلا تفاوت ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لا نجاة لهم منها أصلاً، بل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿هِيَ﴾ أي: النار ﴿حَسْبُهُمْ﴾ أي: محسبهم وقرينهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ أي: طردهم وأبعدهم عن سعة رحمته ﴿وَلَهُمْ﴾ بسبب طرد الله إياهم ولعنه ﴿عَذَابٌ﴾ عظيم فوق عذاب جهنم ﴿مُقِيمٌ﴾ [التوبة:68] دائم غير منقطع، يتألمون طرد الله إياهم ويتعذبون، ولا عذاب أعظم من حرمان الوصول إلى جنة الحضور.

وأعوذك بك منك، لا ملجأ لنا غيرك.

وبالجملة: مثلكم أيها المتمردون المنهمكون في الكفر والضلال، المصرون على النفاق والعناد، المعادون مع الله ورسوله ﴿كَالَّذِينَ﴾ أي: كمثل الكفرة الذين مضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ بطرين مفتخرين بما عندهم من حطام الدنيا ومزخرفاتها، بل هم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ وقدرة ﴿وَأَكْثَرَ﴾ منكم ﴿أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي: نصيبهم وحظهم مما قدر لهم من لذات الدنيا وشهواتها، واستكبروا على من أرسل عليهم لتكميلهم وإرشادهم.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُم﴾ أيضا ﴿بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ﴾ أي: أخذتم وشرعتم في الأباطيل وتكذيب الرسول والمعاداة معه، وقصد إيذائه وقتله وقتل من آمن له ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ وشرعوا في حق أنبيائهم ورسلهم، انظروا إلى وخامة عاقبتهم، كيف استؤصلوا فانتظروا لمثله، بل بأشد منها؟! وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المردودون عن منهج الرشاد والسداد ﴿حَبِطَتْ﴾ أي: هلكت واضمحلت، وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ التي عملوها؛ لتفيدهم وتنفعهم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ فلم ينفعهم أصلاً لا في الأولى ولا في الأخرى؛ لعدم مقارنتها بالإيمان ـ وتصديق الرسول ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ الضالون عن طريق الحق ﴿هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [التوبة:69] المقصورون على الخسران، المقضيون بالحرمان والخذلان.

وبالجملة: مثلكم أيها المنافقون كمثلهم، بل أنتم أسوأ حالاً منهم؛ إذ نبيكم الذي

كذبتم به أعلى رتبة من جميع الأنبياء.

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) ﴾ [التوبة:70-71].

﴿أَ﴾ يصر المنافقون على النفاق والشقاق و﴿لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ﴾ أي: خبر إهلاك القوم ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كيف يهلكهم الله بظلمهم وذنوبهم مثل ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ كيف استؤصلوا بالطوفان ﴿وَعَادٍ﴾ بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بالبعوض ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ أي: قوم شعيب أهلكوا بالنار النازلة عليهم من السماء يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قرى قوم لوط هلكوا بالزلزلة وإمطار الأحجار إلى حيث يجعل عاليها سافلها، كل من أولئك الهالكين ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة الدالة على صدقهم ودعواهم فكذبوهم؛ عنادًا ومكابرةً، فلحقهم ما لحقهم بشؤم تكذيبهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: لم تكن من سنته سبحانه الانحراف عن القسط إلى حيث يؤدي إلى الظلم؛ إذ هو سبحانه مستوٍ على العدل القويم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة:70] بالخروج عن مقتضى العدل الإلهي الموضوع، فيهم من قبل الحق بنيابة رسله.

ثم لمّا ذكر سبحانه أحوال المنافقين والمنافقات، ومظاهرتهم ومعاونتهم عقب أحوالهم بأحوال المؤمنين جريًا على السنة المستمرة، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ الموقنون بتوحيد الله، المصدقون لرسله ﴿وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ الملحقات بهم، المتفرعات عليهم ﴿بَعْضُهُمْ﴾ في الأمور الدينية ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالمظاهرة والموالاة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ على مقتضى ما وصل إليه من رسلهم ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة المصفية لبواطنهم عن الميل إلى غير الحق ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المطهرة لظواهرهم عن الاشتغال بما سواه سبحانه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُطِيعُونَ اللَّهَ﴾ في جميع

حالاتهم إطاعة تفويض وتسليم ﴿وَ﴾ ينقادون ﴿رَسُولَهُ﴾ في جميع ما جاء به ودعا إليه ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المفوضون أمورهم إلى الله، المنقادون لرسوله ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ﴾ الرقيب عليهم من فضله ولطفه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على جميع ما أراد بهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:71] متقن في جزائهم حسب أعمالهم واستعدادهم لذلك.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة:72-74].

﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والمكاشفات المتجددة حسب تجددات التجليات الإلهية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، لا يتحولون عنها أصلاً ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: مقرًا في مقام التوحيد، خاليًا عن وصمة الكثرة، طاهرًا عن لوث السّوى والأغيار مطلقًا ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ﴾ بالجملة: ﴿رِضْوَانٌ﴾ وقبول ﴿مِّنَ اللهِ﴾ المستوي على العدل القويم، بحيث لا يسخط لهم أصلاً؛ لتحققهم بمقام التخلق بأخلاقه سبحانه، بحيث لا يبقى لهم شائبة انحراف عن صراطه المستقيم الذي هو صراط الله الأقوم الأعدل ﴿أَكْبَرُ﴾ من جميع ما ذكر من قبل من الدرجات العليّة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرضا من الله، والقبول من جانبه ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:72] واللطف الجسيم لأرباب الولاء، الواصلين إلى مرتبة الفناء فيه سبحانه والبقاء ببقائه، لذلك وعلوا من عنده بما لا يمكن التعبير عن كنهه إلا كوشف به وشوهد.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ الهادي لعباد الله إلى تلك المرتبة بإذن الله ﴿جَاهِدِ الكُفَّارَ﴾[1] المتمردين على الإطاعة والانقياد لإرشادك وتكميلك ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يحيلون ويخدعون معك في إظهار الإيمان، وهم في سرهم وباطنهم على شركهم وكفرهم الأصلي متقررون ثابتون ﴿وَ﴾ بعدما أصروا على نفاقهم وشقاقهم ﴿اغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ حسب إصرارهم وإعراضهم ﴿وَ﴾ لا تبال بهم؛ إذ ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنقلبهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان في الدنيا والآخرة ﴿وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ [التوبة:73] مصير أولئك المحرومين المطرودين عن ساحة عز القبول.

ومن جملة نفاقهم وكفرهم: إنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ﴾ كذبًا ومينًا، إنهم ﴿مَا قَالُوا﴾ من الطعن في كتاب الله وتكذيب رسوله ﷺ ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ﴾ أي: كلمة الطعن والتكذيب المستلزم للكفر، فحلفوا على عدم القول كذبًا ﴿وَ﴾ هم في أنفسهم ﴿كَفَرُوا﴾ بالحق وأعرضوا عنه ﴿بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ أي: انقيادهم وتسليمهم؛ أي: اختاروا الكفر بعدما أظهروا الإسلام ﴿وَ﴾ لا يقتصرون على إظهار الكفر فقط، بل ﴿هَمُّوا﴾ وقصدوا ﴿بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ من قتل الرسول ﷺ والاقتحام عليه بغتة في الليل بلا علم من أصحابه، أو هموا بإخراجه ومن معه من أصحابه من المدينة ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وقصدوا إهلاك رسول الله ﷺ وإخراجه ﴿إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ﴾ أي: أصحاب رسول الله ﷺ بفتح أبواب الرزق والمكاسب ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بإعطاء الغنائم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ ففي مقام الشكر وإظهار المنة ينكرون له، ويكفرون نعمه وبعدما وقع ما وقع.

---

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى القلب الذي له بناء من مقام الأنبياء، ويأمره بالجهاد مع كفار النفس وصفاتها، وهذا مقام المشايخ أن يجاهدوا مع نفوسهم أو نفوس مريديهم كما قال ﷺ: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته» فأمر بالجهاد مع كافر النفس وصفاتها بسيف الصدق، فجهاد النفوس بمنعها عن شهواتها واستعمالها في حمل الشريعة على خلاف الطبيعة، فالنفوس بعضهما كفار لم تسلم أي: لم يستسلموا للمشايخ في تربيتها في هداها بالدعوى إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعضها المنافقون وهم الذين أدعوا الإرادة والاستسلام إلى المشايخ في الظاهر، ولم يوفوا بما عاهدوا عليه فجهادها بإلزامها مقاساة شدائد الرياضات في التزكية على متمثل أمر الشيخ ونواهيه ولو يرى عليها الإباء والامتناع فلا ينفيها إلا التشديد والغلظة.

وقال التستري: جاهد نفسك بسيف المخالفة وحملها حمولات الندم، وسيرها في مفاوز الخوف، لعلك تردها إلى طريق التوبة والإنابة، ولا تصح التوبة إلا من متحير في أمره، مبهوت في شأنه، واله القلب مما جرى عليه.

﴿فَإِن يَتُوبُوا﴾ عمّا صدر عنهم توبة صادرة عن محض الندامة والإخلاص ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عند الله، يغفر لهم ويعفو عن زلتهم ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا﴾[1] ويعرضوا عن التوبة، ويصروا على ما هم عليه من الكفر والنفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللهُ﴾ المنتقم منهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلمًا فجيعًا ﴿فِي الدُّنْيَا وَ﴾ بالقتل والسبي والإجلاء والإذلال، وأنواع العقوبات في ﴿الآخِرَةِ﴾ بأضعاف ما في الدنيا وآلافها؛ لانحطاطهم عن المرتبة الإنسانية، وقبول التكليفات الإلهية المقتضية لإظهار الحكمة والكرامة المودعة في هياكلهم ﴿وَ﴾ إن استظهروا واستنصروا من أوليائهم ﴿مَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ بعد انتشار دين الإسلام في أقطارها ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يعينهم ويولي أمورهم ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [التوبة:74] ينصرهم من بأس الله وعذابه.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة:75-80].

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين ﴿مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ مالاً، وأعطانا رزقًا كثيرًا ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ منها للفقراء المستحقين ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾ بالبذل والإنفاق، وأداء

(1) قال الجنيد رحمه الله: لو أقبل صديق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة فإن ما فاته أكثر مما ناله، فأما عذابه في الدنيا فبسلب الصدق والرد على باب الطلب وإرخاء الحجاب وذله وتقوية الهوى وتبديل الإخلاص بالرياء، والحرص على الدنيا وطلب الرفعة والجاه، وأما عذابه في الآخرة فباشتعال نيران الحسرة والندامة على قلبه المعذب بنار القطيعة وهي نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

الشكر ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة:75] الشاكرين المنفقين؛ طلبًا لمرضاة الله.

﴿فَلَمَّا آتَاهُم﴾ الله ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ ما طلبوا منه ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾ ومنعوا حق الله منه ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن امتثال أمر الله وإطاعة رسوله ﴿وَهُم﴾ قوم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة:76] عادتهم الإعراض عن إطاعة الله ورسوله؛ لخبث طينتهم.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله بسبب فعلهم هذا ﴿نِفَاقًا﴾ راسخًا متمكنًا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مستمرًا ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي: الله سبحانه في يوم الجزاء، فيجازيهم على مقتضى نفاقهم وشقاقهم أسوأ الجزاء؛ ذلك ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ من الصدق والصلاح، والشكر والفلاح، ونقضوا عهده ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:77] أي: وبكذبهم حين العهد والميثاق بلا موافقة من قبلهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ حين همُّوا إلى القول الكذب مع الله ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿سِرَّهُمْ﴾ أي: إخلافهم الوعد من حصول المطلوب ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: مناجاتهم معه لا عن إخلاص ناشئ من محض المعرفة والإيمان بالله، والإقرار بربوبيته؛ لرسوخ الكفر والشرك في جبلتهم ﴿وَ﴾ لم يعلموا أيضًا ﴿أَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة:78] لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فمن آمن بتوحيده وإحاطة علمه وقدرته، كيف خرج عن أمره وإطاعته؟.

ومن المنافقين المصرين على النفاق والشقاق مع المؤمنين، هم ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ويستهزئون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوعين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي﴾ إعطاء ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ خصوصًا المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ﴾ من الصدقة ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: يبذلون مقدار طاقتهم؛ طلبًا لمرضاة الله ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ أولئك اللامزون المستهزئون ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من الذين بذلوا جهدهم في أمر الصدقة ﴿سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾ في الآخرة؛ مجازاة على سخريتهم هذه ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:79] بدًل لذتهم بسخريتهم.

وذلك أنه ﷺ حثَّ المؤمنين يومًا على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار وقال: لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة آلاف، وأمسكت لعيالي أربعة، فقال ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت، وفيما أمسكت»[1].

---

(1) رواه ابن أبي عاصم (592/2، رقم 1301).

وأتى عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، وجاء عقيل الأنصاري بصاع تمر، فقال: بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر، وتركت صاعًا لعيالي، وأتيت بالآخر، فأمره ﷺ أن ينثره على الصدقات تبركًا، فلمزهم المنافقون، فقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، ولقد كان الله ورسوله غنيين عن صاع عقيل، ولكنه أحب أن يعد نفسه مع المتصدقين فنزلت.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل لهؤلاء اللامزين المستهزئين، المستسخرين من المؤمنين بإنقاذهم من العذاب أو تخفيفه ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ سواء عند الله في انتقامهم وعذابهم، بل ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لا مرة ولا مرتين، بل ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ ألبتة؛ لعظم جرمهم وفسقهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: عدم غفرانهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ﴾ وأشركوا معه غيره في الألوهية، مع أنه منزه عن الشريك مطلقًا ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: كذبوا برسوله، وبما جاء به من عند ربه، واستهزءوا بالمؤمنين المصدقين له، المتصفين في سبيل الله ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:80] عن مقتضى أوامر الله ونواهيه المسيئين الأدب مع الله ورسوله والمؤمنين.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:81-85].

ثم قال سبحانه: ﴿فَرِحَ﴾ المنافقون ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ عن رسول الله، المتخلفون لأمره، المتمكنون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي: بمكان قعودهم ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللهِ﴾ حين خرج إلى غزوة تبوك ﴿وَ﴾ ما ذلك؛ أي: قعودهم واستقرارهم بعد رسول الله ﷺ في مكانهم، إلا أنهم ﴿كَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لخبث باطنهم وقسوة قلوبهم ﴿وَقَالُوا﴾ أيضًا للمؤمنين تقريرًا وتكسيلاً: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي: لا

تجاهدوا ولا تقاتلوا في الصيف حتى لا تضعفوا أنتم ومواشيكم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان التي استوجبتم بها بتخلفكم وقعودكم عن الجهاد ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾[1] وأبلغ إحراقًا وإيلامًا ﴿لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:81] ويفهمون ما هي وكيف هي لم يختاروها على حر الدنيا.

﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ أولئك المتخلفون، الهالكون في العذاب المؤبد، والوبال المخلد ﴿قَلِيلاً﴾ في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ لما لحقهم بعد خروجهم منها من أنواع العذاب والنكال ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:82] فيها من الجرائم العظائم والمعاصي، والآثام.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ﴾ وردك من غزوتك هذه؛ أي: غزوة تبوك ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من المستخلفين، المستأذنين الذين قعدوا في المدينة بلا عذر، وبعدما قصدت غزوة أخرى ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ تلافيًا لما مضى ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ﴾ إلى الجهاد ﴿أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أصلاً ﴿إِنَّكُمْ﴾ قوم ﴿رَضِيتُم بِالْقُعُودِ﴾ والتخلف ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بلا عذر بل عن عذر وخديعة ﴿فَاقْعُدُوا﴾ دائمًا ﴿مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة:83] المعذورين من النساء والصبيان، والزمنى والمرضى.

﴿وَ﴾ متى ظهر لك حال أولئك الغواة، الطغاة الهالكين في البغض والنفاق ﴿لَا تُصَلِّ عَلَى﴾ ولا تدعُ لـ ﴿أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ أي: بعد ورود النهي أصلاً ﴿وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ لتستغفر له ﴿إِنَّهُمْ﴾ من خبث بواطنهم ﴿كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ في حال حياتهم ﴿وَمَاتُوا﴾ على الكفر أيضًا ﴿وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة:84] مجبولون على الفسق في أصل فطرتهم.

﴿وَ﴾ بعدما تحقق عندك، وظهر كفرهم وفسقهم ﴿لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ﴾ التي هي وبال عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ﴾ المضل المذل لعصاة عباده ﴿أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ بأنواع الحوادث والمصيبات ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ وميلهم ومحبتهم منوطة بها ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:85] بالله، غير معتبرين معترفين بألوهيته وربوبيته.

---

(1) قاله بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً لهم. قال ابن جزي: قائل هذه المقالة رجل من بني سليم، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك في الحر. البحر المديد (2 /431).

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [التوبة:86-90].

﴿وَ﴾ من شدة نفاقهم وبغضهم مع الله ورسوله ﴿إِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن ناطقة ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أيها المكلفون ﴿بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ في سبيله ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ﴾ والسعة ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: صناديدهم وعظماؤهم؛ خوفًا من أموالهم وأنفسهم ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا﴾ ودعنا ﴿نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:86] المعذورين الغير القادرين.

وبالجملة: ﴿رَضُوا﴾ أولئك الغواة مع قوتهم وسعتهم ﴿بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي: الضعفاء الفاقدين للقوة والسعة ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿طُبِعَ﴾ وختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بالكفر والضلال ﴿فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:87] قبح ما جاءوا به من المخالفة والقعود مع أولئك المعذورين، ولذلك لم يأتوا بالمأمور، ولم يتمثلوا به.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ امتثلوا لأمر الله، وانقادوا لحكمه سمعًا وطاعة، لذلك ﴿جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ في سبيل الله؛ ابتغاءً لمرضاته وتثبيتًا في دينه ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ المؤمنون المجاهدون ﴿لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾[1] والمثوبات العظمى، والدرجات العليا عند الله ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة:88] الفائزون من عنده بما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وبالجملة: ﴿أَعَدَّ اللهُ﴾ المجازي لخلص عباده ﴿لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المجاهدين،

(1) قال في التأويلات: وهذه الخيرات على نوعين: خيرات تتعلق بالعبد وأعماله وهي الحسنات أخرى مع أنهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وخيرات تتعلق بمواهب الحق؛ يعني: لمساعي العبودية نالوا خيرات الربوبية.

المرابطين قلوبهم مع الله ورسوله، الباذلين مهجهم في سبيله ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات علمية وعينية وحقية ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أنهار الشهود والكشوف والواردات والإلهامات، لا دفعة ولا دفعات، بل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:89] واللطف العميم لهؤلاء المختصين بالعناية الأزلية والسعادة السرمدية.

﴿وَ﴾ متى جاءت ونزلت سورة ناطقة بالقتال والجهاد ﴿جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ بالأعذار الكاذبة ومَنْ في قلوبهم مرض ﴿مِنَ الأَعْرَابِ﴾ الذين لا اطمئنان لهم في الأيمان ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ بالقعود وعدم الخروج إلى الجهاد ﴿وَقَعَدَ﴾ المصرون ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ من غير مبالاة بأمر الله وإطاعة رسوله، لا تبالِ بهم وبمخالفتهم وكذبهم؛ إذ ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ بعد افتضاحهم وظهور نفاقهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:90] في الدنيا والآخرة، لا نجاة لهم أصلاً.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) ﴾ [التوبة:91-93].

ثم قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ الفاقدين استطاعة الحرب، ولو كانوا أصحاء، كالنسوان والصبيان والشيوخ ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ الفاقدين الاستطاعة بعروض العوارض، كالعمى والعرج والزمانة وغيرها ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ للزاد والسلاح والمركب وغيرها ﴿حَرَجٌ﴾ أي: إثم ومعصية في قعودهم وتخلفهم ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: أخلصوا في الإيمان والإطاعة بالله ورسوله بلا مرض في قلوبهم، ودعوا للمجاهدين والغزاة خيرًا، وأحسنوا مع أهل بيتهم وأطفالهم وفعلوا معهم خيرًا إن استطاعوا ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ القاعدين المعذورين مع الله ورسوله، والمؤمنين ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ في المعاتبة والحرج، فضلاً عن العقاب الأخروي؛ إذ هم من جملتهم وزمرتهم ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾

[التوبة:91] يجازيهم على قعودهم هذا خيرًا؛ لكونهم معذورين فيه.

﴿وَلَا﴾ حرج ولا عقاب أيضًا ﴿عَلَى﴾ المؤمنين المخلصين ﴿الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ﴾ حين صمم عزمك إلى الخروج ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على الخفاف المرفوعة، والنعال المخصوفة، كمعقل بن يسار وصخر بن خنساء وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن زيد وعبد الله بن مغفل، وهم البكاؤون، وعبد الله بن كعب الأنصاري وغيرهم، حتى يبلغوا مكان العدو ﴿قُلْتَ﴾ لهم: ﴿لَاۤ أَجِدُ مَاۤ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا﴾ وانصرفوا من عندك آيسين ﴿وَأَعْيُنُهُمْ﴾ حين توليهم ﴿تَفِيضُ﴾ وتسيل ﴿مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ وأسفًا ﴿أَلَّا يَجِدُوا﴾ لئلا يجدوا ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:92] حتى يبلغوا المعركة ويحضروا الوغى، فهؤلاء أيضًا لا عتاب لهم ولا عقاب، بل يرجى لهم الأجر الجزيل من الله؛ لإخلاصهم وأسفهم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة والمعاقبة، وأنواع العذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ بالقعود معتذرين ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ مستطيعون قادرون بالجسد والمال، غاية ما في الباب أنهم ﴿رَضُوا﴾ من خبث باطنهم ومرض قلوبهم ﴿بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾. المعذورين الغير المستطيعين ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿طَبَعَ اللَّهُ﴾ المذل المضل لأهل الغفلة والعناد ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بالجهل والضلال ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:93] جهلهم وضلالهم حتى يتسببوا لإزاحتها وإزالتها.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة:94-96].

ومع ذلك ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ أولئك المستأذنون، المستطيعون ﴿إِلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ من غزوتكم هذه ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بالأعذار الكاذبة، الغير المطابقة للواقع تسلية لكم وتغريرًا؛ تتميمًا لنفاقهم ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل تعليمًا للمؤمنين في مقابلة

أعذارهم: ﴿لاَّ تَعْتَذِرُوا﴾ مراءً ومداهنةً، إنا ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ ونصدق ﴿لَكُمْ﴾ سيما ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ﴾ المطلع لضمائركم، وما يجري في صدوركم بالوحي على رسوله ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ التي تكتمونها في نفوسكم من الشر والفساد، وبالنسبة إلينا وإلى نبينا ﴿وَ﴾ كيف تعتذرون عن جرائمكم وتلبسونها ﴿سَيَرَى اللهُ﴾ الناقد البصير ﴿عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ فتفضحون على رءوس الأشهاد ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وتحاسبون عنده عليها ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ويظهر عليكم مفصلاً ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:94] في النشأة الأولى، فيجازيكم على مقتضى علمه.

ومن جملة نفاقهم وتلبيسهم: إنهم ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾ يقسمون ﴿بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ﴾ ورجعتم مشتكيًا معاتبًا ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عن قعودهم وتخلفهم، إنما عرضهم من الحلف الكاذب تغريركم وتلبيسكم ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وعن عتابهم، ولا تسألوا عن مخالفتهم وقعودهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وعن عتابهم قبل حلفهم وتلبيسهم، ولا تلتفتوا إليهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿رِجْسٌ﴾ جبلتهم على الخباثة والنجاسة لا تقبل التطهير بالتأديب أصلاً ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ أي: مرجعهم ومنقلبهم في النشأة الأخرى ﴿جَهَنَّمُ﴾ الطرد والخذلان ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:95] في النشأة الأولى من الكفر والنفاق، والإصرار على الشرك والشقاق.

وإنما ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ حين شكواكم وعتابكم ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ وتقبلوا إخلاصهم ومودتهم وتكونوا معهم كما كنتم ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بمجرد حلفهم الكاذب، وتغريرهم الفاسد، لا يغني رضاكم عنهم شيئًا من سخط الله عليهم ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع لما في ضمائرهم من الأكنة والنفاق ﴿لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 96] الخارجين عن مقتضى الأوامر والنواهي الواردة؛ لتطهير النفوس الخبيثة عن أرجاس الطبيعة، وتصفيتها عن أدناس الأخلاق الذميمة، العائقة عن الوصول إلى مقر التوحيد.

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ

﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:97-100].

ثم قال سبحانه: ﴿الأَعْرَابُ﴾ أي: أهل الوبر المترددون في البوادي، المنهمكون في الغي والضلال والعتو والفساد ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل المدر المستأنسين مع العقلاء، المستفيدين منهم ﴿وَ﴾ لشدة شكيمة أولئك الأعراب وجهلهم، وعدم قابليتهم ﴿أَجْدَرُ﴾ أي: أحق وأليق ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ أي: بألا يعلموا ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ المدبر المصلح لأحوال عباده ﴿عَلَى رَسُولِهِ﴾ النائب عنه، المتكلف لإرشاد عباده بإقامة حدوده المنزلة من الأوامر والنواهي المستلزمة؛ لتأديبهم في معاشهم ومعادهم؛ إذ هم في غاية البعد عن الهداية والصلاح وتحمل التكاليف الإلهية ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ باستعداداتهم الكامنة فيهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:97] في إلزام التكليف عليهم.

﴿وَمِنَ﴾ منافقي ﴿الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ أي: يعد ويحسب ﴿مَا يُنفِقُ﴾ بأمر الله في سبيله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامةً وخسرانًا؛ لعدم إيمانه واعتقاده بترتب الثواب عليه، بل إنما ينفق رياءً وتقيةً ﴿وَ﴾ من خباثة باطنه ﴿يَتَرَبَّصُ﴾ أي: يترقب وينتظر ﴿بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي: نوائب الزمان الدائرة عليكم؛ لينقلب الأمر ويتحول الحال، ويخلص من الإنفاق بالنفاق، بل يدور ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ على عكس مرامهم دائمًا متجددًا، مستمرًا ﴿وَاللهُ﴾ الرقيب عليهم ﴿سَمِيعٌ﴾ لمناجاتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة:98] بنياتهم وحاجاتهم تدير عليهم ما يتربصون بكم من الدوائر.

﴿وَمِنَ﴾ مخلصي ﴿الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ أي: يوقن ويذعن بتوحيده ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي: يصدق باليوم الآخر المعد لجزاء الأعمال، وترتب المثوبات بالقربات والصدقات ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ في سبيل الله ﴿قُرُبَاتٍ﴾ ونيل مثوبات ورفع درجات ﴿عِندَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: بسبب استغفاره ودعائه له ﴿أَلَا إِنَّهَا﴾ أي: ما يتصدقون بها أولئك المؤمنون، المخلصون، المتقربون ﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ وسبب وصولهم إليه ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ﴾ الموفق لهم، الرقيب عليهم ﴿فِي﴾ سعة ﴿رَحْمَتِهِ﴾ وجوده بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوالهم ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنه من

المعاصي قبل إيمانهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:99] لهم، يقبل منهم بعد إيمانهم وإخلاصهم ما يتقربون به لمرضاته.

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ في الإيمان، المبادرون إلى التصديق وقبول الأحكام ﴿الأَوَّلُونَ﴾[1] الأقدمون بمتابعة الرسول ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين هاجروا من مألوفات نفوسهم ومتشهيات طباعهم إلى الفناء في الله ﴿وَالأَنصَارِ﴾ الأبرار الذين سلكوا نحو الحق بالرياضات والمجاهدات الشاقة المزيحة لدرن التعلقات ورين الإضافات، المانعة من التوجه الحقيقي.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم﴾ واقتفوا أثرهم من أهل الطلب والإرادة ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ أي: بلا تمايل إلى الرياء والسمعة والعجب، أولئك المبروورن، المقبولون ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ لتحققهم بمرتبة الإخلاص والتسلم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لإيصالهم إلى مقر التوحيد وفضاء الفناء المثمر للبقاء الأبدي والحياة السرمدية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ سبحانه في حوزة حمايته وروضة بقائه ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ من العلوم والمعارف ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:100] واللطف الجسيم لأهل العناية من أرباب الولاية والمحبة، المنخلعين عن جلباب ناسوتهم مطلقًا.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

(1) قال البقلي: أي :السابقون بالأرواح قبل الكون إلى مشاهدة الأزل، بنعت المحبّة والمعرفة والشوق حين أوجدها الحقّ من مكمن الغيب، وأحضرها لديه على جزائر النور، ومجالس السرور، فلا يزال طائرات بأجنحة الرضا في فضاء البقاء بنعت الفرح بالمُنى. فإذا تلبّست بأشباحها، طلبت أماكنها ومعادنها، فأبصرت بنورها مراد تجلّي القِدم، فسبقت إليها، وسكنت بسبيل الاستقامة في طريق المعرفة بطلب زيادة الزُلْفات، وحقائق الوصلات.

قال ابن عطاء: «السابق»: من سبق له في الأزل حُسن عنايته، فيظهر عليه في وقت إيجاده أنوار تلك السابقة، فإنه ما وصل إليه أحد، إلا بعد أن سبق له في الأول منه لطفٌ وعناية.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة:101-104].

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أيها المؤمنون ﴿مِّنَ الأَعْرَابِ﴾ الساكنين في البوادي قوم، هم ﴿مُنَافِقُونَ﴾ معكم، وإن أظهروا المودة والإخاء، والإيمان على طرف اللسان، لا تبالوا بإيمانهم، ولا تغفلوا عن خدعهم ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضًا قوم ﴿مَرَدُوا﴾ أي: رسخوا ﴿عَلَى النِّفَاقِ﴾ ومن شدة نفاقهم وتمرنهم عليه صاروا بحيث ﴿لاَ تَعْلَمُهُمْ﴾ أيها المتصف بالفراسة الكاملة من غاية تلبيسهم وإخفائهم، بل ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونعلم ما في ضمائرهم من الخيالات الفاسدة ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ في الدنيا ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة بتفضيحهم وإظهار ما في قلوبهم من الأكنة والشقاق، ومرة بقتلهم وسبيهم وإجلائهم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:101] هو حرمانهم وانحطاطهم عن المرتبة الكاملة الإنسانية التي هي مرتبة الخلافة والنيابة الجامعة لجميع المراتب الكونية والكيانية.

﴿وَ﴾ من أهل المدينة قوم ﴿آخَرُونَ﴾ ليسوا من المصرين على النفاق، المتمرنين فيه، بل ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم من المخالفة والبغض والطعن والاستخفاف، والغيبة حين خلوا مع المنافقين المتمرنين، وهم وإن صدر عنهم الإيمان والإخلاص، لكنهم ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا﴾ من الإخلاص والرضاء، والتسليم ﴿وَ﴾ عملاً ﴿آخَرَ سَيِّئًا﴾ وهو اتفاقهم مع المنافقين في خوضهم وطعنهم، وبذلك انحطوا عن رتبة المخلصين في جميع حالاتهم ﴿عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يوفقهم على التوبة والندامة، ويقبل منهم توبتهم بعدما أخلصوا فيها ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب وندم عن ظهر القلب ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:102] يقبل توبتهم إن أفرطوا.

﴿خُذْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: من أموال هؤلاء المذنبين التائبين، النادمين عمّا صدر عنهم من المخالفة حين أذنوا لك أن تخرج منها ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن أدناس الطبيعة المولعة لحب المال والحرص في جمعها ونمائها ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: تصفي بواطنهم عن الشواغل العائقة عن اللذات الروحانية ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واستغفر لذنوبهم، وادع لهم بالدعاء الخير ﴿إِنَّ صَلاَتَكَ﴾ والتفاتك بحالهم ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: سكينة لقلوبهم ووقار وطمأنينة، وسبب لتقررهم وتثبتهم على جادة التوحيد

والإيمان ﴿وَاللهُ﴾ المراقب عليهم في حالاتهم ﴿سَمِيعٌ﴾ لإخلاصهم ومناجاتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة:103] بنيّاتهم وحاجاتهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أولئك التائبون، النادمون، المخلصون، المتضرعون نحو الحق على عفو زلاتهم وتقصيراتهم ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوالهم ﴿هُوَ﴾ بلطفه وفضله ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ بعدما وفقتهم عليها، ويتجاوز عن سيئاتهم ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾[1] من أموالهم؛ أي: يقبلها منهم تطهيرًا لقلوبهم عمّا يشوشهم من رذائل هوياتهم وتعيناتهم؛ ليتشمروا نحو الحق مخفين ﴿وَ﴾ لم يعلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المتفضل لعباده ﴿هُوَ التَّوَّابُ﴾ الرجاع لهم عن مقتضيات نفوسهم نحو جنابه ﴿الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:104] عليهم يوصلهم إلى بابه إن أخلصوا في سلوكهم وتوجههم.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة:105-108].

﴿وَقُلِ﴾ يا أكمل الرسل للمخلفين من الأعراب: ﴿اعْمَلُوا﴾ ما شئتم من الكفر والنفاق ﴿فَسَيَرَى اللهُ﴾ الرقيب عليكم ﴿عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ بوحيه سبحانه وإلهامه ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ بتبليغه ﴿وَ﴾ اعلموا أيها الغواة المجرمون ﴿سَتُرَدُّونَ﴾ للحساب والجزاء ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ أي: السرائر والخفيات التي تسترونها من الكفر والمعاصي ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: التي تعلنون بها ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ سبحانه على التفصيل ﴿بِمَا كُنتُمْ

(1) أي: خُذ ما يتعلق بحظوظ أنفسهم، حتى لم يبق بينهم وبين الله حظّ النفس، وأيضًا أي: باشر أموالهم بأخذ الصدقات للفقراء؛ حتى تصل بركة يدك إلى أموالهم، وتطهر بلطف يدك نفوسهم من المعاصي وجميع العذاب، وتطهر قلوبهم من حبّ ما سوى الله.

تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:105] من طغيان نفوسكم، ويجازيكم عليها.

﴿وَآخَرُونَ﴾ من المتخلفين بعدما تنبهوا بقبح صنيعهم ﴿مُرْجَوْنَ﴾ مؤخرون، منتظرون ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ وحكمه، وصاروا مترددين بين الخوف والرجاء فيما فعل الله معهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ أخذًا على ما صدر عنهم بمقتضى عدله ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ويوفقهم على التوبة بمقتضى فضله وسعة رحمته، وجوده ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لخفيات صدورهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بإخلاصهم ونيّاتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:106] في فعله بهم بعد علمه بحالهم.

﴿وَ﴾ من أشدهم كفرًا ونفاقًا، وأغلظهم بغضًا وشقاقًا، هم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ تلبيسًا وتغريرًا ﴿مَسْجِدًا﴾ قاصدين في بنائه ﴿ضِرَارًا﴾ مضرةً وسوءًا لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: اشتدادًا وزيادة فيه؛ لأنهم يقصدون بإنشائه وبنائه قتل رسول الله والمؤمنين فيه ﴿وَ﴾ قصدوا أيضًا ﴿تَفْرِيقًا﴾ وتشتيتًا ﴿بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المجتمعين في مسجد قباء ﴿وَ﴾ بالجملة: إنما يبنونه ﴿إِرْصَادًا﴾ أي: ترقبًا وانتظارًا ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهو أبو عامر، الراهب الذي حارب مع المؤمنين ﴿مِن قَبْلُ﴾ يوم حنين فانهزم، فهرب إلى الشام؛ ليذهب إلى قيصر، فيأتي بجنوده، وهم منتظرون لمجيئه.

﴿وَ﴾ بعدما ظهر نفاقهم وخداعهم بوحي الله وإلهامه على رسوله ﴿لَيَحْلِفُنَّ﴾ وليقسمن بالأيمان الغليظة ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي: ما قصدنا ببنائه ﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ والخير، وهي الصلاة المقربة نحو الحق والذكر والتسبيح والتوسعة على المؤمنين، وازدياد شعائر الإسلام ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ومحايلهم ﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 107] في حلفهم.

وإذا عرفت يا أكمل الرسل حالهم وحلفهم، وسوء قصدهم وفعالهم ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للتوجه والصلاة؛ لكونه مبنيًا على الخداع والتزوير ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ وبني ﴿عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ عن محارم الله وخالصًا لرضاه ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ بني، وهو مسجد قباء ﴿أَحَقُّ﴾ أي: أليق وأولى ﴿أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ للصلاة والميل نحو الحق؛ إذ ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ مؤمنون كاملون في الإيمان ﴿يُحِبُّونَ﴾ دائمًا ﴿أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ عن المعاصي والآثام، ويتوجهوا نحو الحق برفض الشواغل ونقض العوائق والعلائق ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع بنياتهم ﴿يُحِبُّ

﴿المُطَهِّرِينَ﴾[1] [التوبة:108] القاصدين تطهير ذواتهم عن التوجه إلى ما سوى الحق المطلق، بل عن هوياتهم وتعيناتهم الباطلة.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:109-111].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ ووضع ﴿بُنْيَانَهُ عَلَى﴾ قاعدة محكمة وركن شديد، هي ﴿تَقْوَى﴾ أي: تحفظ وتحصن ﴿مِنَ اللهِ﴾ أي: غضبه وسخطه ﴿وَ﴾ طلب ﴿رِضْوَانٍ﴾ ومثوبة عظيمة، ومنزلة رفيعة منه ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: على طرف واد جوفه السيول والأمطار فسقط البعض، وأشرف على السقوط والانهدام البعض الآخر، فوضع عليه بناءه ﴿فَانْهَارَ بِهِ﴾ وسقط معه ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: الوادي الغائر، الهائر، المملوءة من نار الحرمان والخذلان ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لخلّص عباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:109] الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه.

ومن شدة غيظهم وخبث باطنهم ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ يورث ويزيد ﴿رِيبَةً﴾ شكًا وريبًا متزايدًا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مترشحًا فيها ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بنيران الحسرة، وتفتتت وتلاشت بأهوال العذاب إلى حيث لا يتأتى منها الإدراك ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بمخايلهم الكامنة في صدورهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:110] في جزائها وانتقامها.

---

(1) «الطهارة»: طهارة الأسرار من الخطرات، وطهارة الأرواح من الغفلات، وطهارة القلوب من الشهوات، وطهارة العقول من الجهلات، وطهارة النفوس من الكفريّات، وطهارة الأبدان من الزلّات، ومَن أحبّه الله في الأزل، يُطهّره في الدنيا مما يشغله عن الله طرفة عين، فإن المحبُّ لا يترك حبيبه في شيءٍ يُضرُّ به، قال سهل: الطهارة على ثلاثة أوجه: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذِكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية.

ثم قال سبحانه تبشيرًا للمؤمنين الباذلين مهجهم في سبيل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتفضل بالفضل العظيم واللطف الجسيم ﴿اشْتَرَى﴾ واستبدل ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الفانية في أنفسها، المعدومة المبذولة في سبيله سبحانه في النشأة الأولى ﴿وَأَمْوَالَهُم﴾ المصروفة فيه أيضا ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ الباقية واللذة المستمرة الدائمة، بدلها لذلك ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أولئك المتمثلون بحكم الله، المصدقون لوعده ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ أعداءه، فيستحقون المثوبة التي وعد الغزاة المجاهدين ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ ويصلون إلى درجة الشهداء الذين هم أحياء عند الله يُرزقون من موائد أفضاله، فرحون يوعدون من عنده سبحانه ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ بلا خلف فيه ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا مثبتًا ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ المنزلة من عنده ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ ووفى العهود استحق ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ الوعد الموعود ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ أي: افرحوا واربحوا أيها المؤمنون ﴿بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ مع ربكم، بأن استبدلتم الفاني الزائل بالباقي المستمر الدائم ﴿وَذَلِكَ﴾ الموعود لكم ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:111] المعد لأرباب العناية.

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [التوبة:112-115].

وهم ﴿التَّائِبُونَ﴾ النادمون على ما جرى عليهم من المعاصي، المحافظون عليها بلا مراجعة أصلاً ﴿الْعَابِدُونَ﴾ بالعزائم الصحيحة والإخلاص التام ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الشاكرون، الصارفون ما أعطاهم الحق من النعم إلى ما أمرهم من المصارف ﴿السَّائِحُونَ﴾ السائرون، السالكون في سبيل الحق؛ لازدياد المعارف والحقائق ﴿الرَّاكِعُونَ﴾ المتواضعون، المنكسرون لجميع مظاهر الحق؛ تعظيمًا لشأنه ﴿السَّاجِدُونَ﴾ المتذللون، الواضعون جباههم على تراب المذلة؛ خضوعًا وانقيادًا، ميلاً

ودعاءً ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن عقلاً وشرعًا بالقلب واللسان، وجميع الجوارح ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المستقبح عقلاً وشرعًا لجميع ما ورد النهي به ﴿وَ﴾ بالجملة: هم ﴿الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ الموضوعة بين أرباب التكليف القابلين، المستعدين لسلوك طريق التوحيد ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:112] الموصوفين بهذه الصفات الجميلة باللذات التي لا يمكن وصفها بلسان التعبير من لدن حكيم خبير.

ثم قال سبحانه على طريق النهي عمومًا: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحّ وجاز ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ الأمي الهاشمي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معه، وأخلصوا فيه ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا﴾ ويشفعوا ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ بتخفيف العذاب ودخول الجنة ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ من النسب؛ إذ لا عبرة لقرابة النسب، بل القرابة المعتبرة هي قرابة الحسب والإيمان، سيما ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ موتهم على الكفر والجاهلية ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:113] أي: ملازموها وملاصقوها، لا نجاة لهم منها؛ لإصرارهم على موجبها.

﴿وَ﴾ لا يرد على هذا استغفار إبراهيم لأبيه؛ إذ ﴿مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ على سبيل الشفاعة والشفقة، والعطف الموجب لها، بل ما هو ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ وعهد ﴿وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ حين أراد أن يخرجه من الكفر والشرك، بأن يستغفر له ما تقدم من ذنبه إن آمن فاستغفر قبل الإيمان إنجازًا لوعده ليلين قلبه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ وظهر عنده ﴿أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ مصر على كفره، مطبوع على قلبه ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ واسترجع إلى الله منيبًا؛ لاجترائه واستغفاره في حق أبيه، مع عدم العلم باستعداده وتوفيق الله إياه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ مع كونه متحققًا بمقام الخلة مع الله ﴿لَأَوَّاهٌ﴾[1] كثير التأوه والتحزن عن أمثال هذه الجرأة ﴿حَلِيمٌ﴾ [التوبة:114] كثير الشفقة والمرحمة على أهل الغفلة؛ لظهوره على مقتضى اللطف والجمال.

---

(1) قال في التأويلات: الأوّاهُ المتبرئ من المخلوقات؛ لكثرة نيل المواجيد والكرامات، فيكون لضيق البشرية تولاه مولاه، فمهما ورد له وارد الحق ضاق عليه نطاق الخلق فيتأوه عند تنفس القلب المضطر من الخلق إلى الحق ويفر من الخلق ويفر إلى الحق ملحًا من جلدة الإنسانية منفردًا للفردانية متوحدًا للوحدانية، حليم عمّا أصابه من الخلق للحق، فلا رجوع من الحق إلى الخلق بحال من الأحوال، كما قال لجبريل ﷺ: ابتلاه الله به في الهوى، لما ألقى بالمنجنيق إلى النار عند قوله: «ألك حاجة» كيف أرجع من الحق في تلك الحالة لمقال: أما إليك فلا.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا كَانَ اللهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ ويسميهم ضلالاً وفساقًا ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ للإيمان والإسلام ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم﴾ وينبه عليهم ﴿مَا يَتَّقُونَ﴾ ويحذرون من المحارم والمعاصي؛ لامتناع تكليف الغافل، ثم بعد ارتكاب المحذور به يسميهم ما يسميهم، ويأخذهم منتقمًا عليهم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يتعلق بصلاحهم وإصلاحهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة:115] لا يعزب عن علمه شيء، فعليكم أيها المؤمنون أن تفوضوا أموركم كلها إلى الله.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة:116-118].

﴿إِنَّ اللهَ﴾ المستقل بالألوهية والوجود ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ وما فيها من الكواكب والنجوم ﴿وَالأَرْضِ﴾ وما عليها، وكذا ما بينهما ﴿يُحْيِي﴾ ويظهر بلطفه متى تعلق إرادته ﴿وَيُمِيتُ﴾ يعدم ويخفي بقهره متى شاء ﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها المؤمنون الموقنون بتوحيد الله ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ الواحد، الأحد، الصمد الذي ليس معه شيء، ولا دونه حي ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [التوبة:116] ينصركم عليها.

﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي: وفقه على التوبة بعدما صدر عنه إذن المخالفين، المستأذنين المعتذرين بالأعذار الكاذبة؛ تغريرًا له وتلبيسًا عليه، مع عدم علمه بحالهم ﴿وَ﴾ تاب أيضًا على ﴿الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ نحو تبوك حين خرج إليها ﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ وأيام القحط؛ إذ ليس لهم في تلك السفر زاد ولا راحلة ولا ماء، حيث يتعاقب عشرة على بعير، وقسيم تمر بين اثنين في يوم، وشرب الفظ والفرث من شدة العطش، لذلك تمايل على المخالفة ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ﴾ وقرب ﴿يَزِيغُ﴾ ويميل عن المتابعة ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ من قلة الصبر، وكثرة المقاساة والأحزان ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ووفقهم على التوبة مما أخطروا ببالهم، وتخيلوا في خيالهم ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه

﴿بِهِمْ﴾ بعدما علم استعداداتهم وقابلياتهم ﴿رَءُوفٌ﴾ عطوف، يعفو عمّا صدر عنهم وقت الاضطرار ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:117] يقبل عنهم ما جاءوا به من الإنابة والاستغفار.

﴿وَ﴾ أيضًا تاب سبحانه ﴿عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ عن غزوة تبوك بلا عذر؛ هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وصاروا من عدم التفات رسول الله والمؤمنين إليهم بعدما أمرهم الرسول ألا يتكلموا معهم خمسين ليلة ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: مع وسعتها وفسحتها ﴿وَ﴾ صاروا من الأعراض إلى أن ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ واشتد عليهم الأمر، وانسد أبواب التدابير مطلقًا، فاضطروا في أمرهم، والتجأوا نحو الحق مخلصين ﴿وَظَنُّوا﴾ بل كوشفوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ﴾ ولا مفر ﴿مِنَ اللهِ﴾ أي: من غضَبه وسخطه ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ إذ ليس بغيره وجود حتى يلجأ إليه، لذلك قال ﷺ في أمثال هذه المضائق: «أعوذ بك منك»[1].

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أخلصوا في الإنابة والرجوع وفوضوا أمورهم إليه سبحانه ﴿تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: أقدرهم ووفقهم على التوبة ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ويرجعوا إلى الله نادمين على ما صدر عنهم من المخالفة، فيغفر لهم ويعفو عن زلاتهم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح الموفق ﴿هُوَ التَّوَّابُ﴾ الرجاع لعباده نحو جنابه حين صدر عنهم المعاصي ﴿الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118] لهم يرحمهم، ويقبل توبتهم عند رجوعهم متضرعين مخلصين.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (121) ﴾ [التوبة:119-121].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم التقوى عن محارم الله ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ عن

(1) رواه النسائي في «الكبرى» (499/1)، وابن خزيمة (101/3).

مخالفة أمره ﴿وَكُونُوا﴾ في السراء والضراء ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:119] المصدقين لرسوله، المتابعين له في جميع أموره.

واعلموا أنه ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحَّ وجاز ﴿لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ﴾ يسكن ﴿حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ المترددين في بواديها ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ حين خرج إلى القتال، واقتحم على الأعداء ﴿وَلَا﴾ يصح لهم أن ﴿يَرْغَبُوا﴾ ويميلوا ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ لحفظها وصيانتها ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ بل يجب عليهم أن يفدوا نفوسهم، ويكفلوا في صيانته وحفظه ﷺ، وحيث اقتحم ﷺ فلهم المبادرة والمسابقة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما وجب عليهم من تحمل المشاق والمتاعب، والإسراع إلى الاقتحام، والإقدام عليها ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم متى خرج ﷺ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي: عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ألم من أنواع الآلام ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي: مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء دينه وكلمة توحيده.

﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا﴾ ولا يدوسون مكانًا ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ مرورهم عنه ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ من القتل والأسر، والغلب والنهب ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ﴾ عند الله ﴿عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ موجب للمثوبة العظمى والدرجة العليا، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المحسن المتفضل لخواص عباده ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:120] الذين يحسنون الأدب مع الله، ويعبدونه كأنهم يرونه ومع رسوله، المستخلف منه، النائب عنه.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ هؤلاء المحسنون ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ في سبيل الله؛ طلبًا لمرضاته ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ تجاه العدو حين أمرهم الله ورسوله ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ في ديوان حسناتهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ بها جزاء ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:121] أي: مثل جزاء أحسن أعمالهم.

﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ

رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:122-125].

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وما استقام لهم وناسب بحالهم ﴿لِيَنفِرُوا﴾ عن أماكنهم وبلادهم ﴿كَافَّةً﴾ بحيث تخلو بلدانهم عن الحفظة والحراس ﴿فَلَوْلَا﴾ وهلا ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ إلى الرسول ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾[1] ويتعلموا شعائره وما يتعلق به من الأدب ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ بذلك ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ ويقيموا لهم ما يتعلمون من شعائر الإسلام ومناسك الدين القويم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:122] عن منهيات الدين، ويتصفون بمأموراته، ويصلحون عقائدهم بها فيؤمنوا ويوقنوا بالله، ويتدينوا بدينه.

ومن معظم شعائر الإسلام: القتال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ ويقرب منكم في حواليكم وحواشيكم ﴿مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ وليضيقوا ويشددوا عليهم ﴿وَلْيَجِدُوا﴾ ويشاهدوا ﴿فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ تشددًا وتصبرًا على القتال، وجرأةً وتهورًا عليها فيخافوا منكم، فيتركوا عنادهم، ولا تبالوا بكثرة عددهم وعددهم، واجترئوا عليهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة التامة الكاملة ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:123] الذين يحفظون حدود ما أنزل الله عليهم فتوكلوا عليه، وامتثلوا بمأموره إن كنتم موقنين.

﴿وَ﴾ كيف لا تقاتلون ولا تشددون أيها المؤمنون على الغواة المستهزئين الذين ﴿إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من عندنا مشتملة على تكميل دينكم، وزيادة إيمانكم ويقينكم ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لأصحابه ورفقائه له من خبث باطنه وركاكة فطنته؛ استهزاءً وسخريةً: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ﴾ استحقارًا لها ﴿إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

---

(1) قال نجم الدين: ليتفقهوا في السير إلى الله تعالى، والسير بالله، والسير في الله، وأمّا رحلة المعنى فلمّا كان حال إبراهيم ﷺ قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، فهو السير من القالب وصافته إلى القلب وصفاته، ومن القلب وصفاته إلى الروح إلى التخلق بأخلاق الله بقدم فناء أوصافه، وهو السير إلى الله، ومن أخلاق الله إلى ذات الله بقدم فناء ذاته بتجلي صفات الله وهو السير بالله، ومن أنانيته إلى هويته ومن هويته في ألوهيته إلى أبد الآباد وهو السير في الله بالله من الله، وتقدس فقال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أي: فهلا نفر من كل قوم وقبيلة وبلدة وقرية، ﴿مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ من خواصهم ومستعديهم للطلب، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي: ليتعلموا السير إلى الله من السائرين الواصلين إليه.

بالله وبجميع ما نزل من عنده؛ لإصلاح أحوال عباده ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ بعدما تأملوا فيها، وتدبروا في مرموزاتها ﴿إِيمَانًا﴾ يقينًا واطمئنانًا ﴿وَهُمْ﴾ بعدما أطلعوا على مطلعها ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:124] بنزولها.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو التعامي عن آيات الله ومقتضى إشاراته، ورموزه ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ هذه ﴿رِجْسًا﴾ كفرًا وشركًا متضمنًا ﴿إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ الأصلي وكفرهم الجبلي، وصاروا منغمسين منهمكين بالكفر والضلال ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:125] مصرون على كفرهم فلحقوا بشياطينهم الذين مضوا قبلهم، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾ [التوبة:126-129].

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ﴾ من خباثة بواطنهم ورجاسة نفوسهم ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يقتلون ويصابون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً﴾ بلية ﴿أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بليتين؛ لتلين قلوبهم بها، ويتنبهوا فيتوبوا ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ إلى الله من كفرهم، ولا يرجعون نحوه بالإيمان؛ ليقبل عنهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة:126] بها؛ أي: يتذكرون ويتفطنون بها، بل يصرون ويعاندون.

﴿وَ﴾ من جملة إصرارهم وعنادهم: إنهم ﴿إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ مفضحة لهم، مفصحة بما عليهم من النفاق والشقاق، ونقض العهود والميثاق ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يتغامزون بعيونهم، ويقولون استهزاءً وتهكمًا: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من هؤلاء المؤمنين ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ من عنده مريدين النفاق والشقاق بأضعاف ما كانوا عليه؛ بسبب تفضيحهم بهذه السورة، لذلك ﴿صَرَفَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان وجادة التوحيد ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:127] أي: لا يفهمون لذة الإيمان، ولا يتخلقون على نشأة التوحيد والعرفان، مثل الموحدين.

لذلك ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها الأعراب ﴿رَسُولٌ﴾ بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة، منتشئ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ وجنسكم، ومن غاية شفقته ومرحمته لكم ﴿عَزِيزٌ﴾ شاق شديد ﴿عَلَيْهِ﴾ ﷺ ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: عنتكم ولقاءكم المكروه؛ إذ هي من أمارات الكفر والشرك، وعدم الإطاعة والانقياد بأوامر الله ونواهيه، مع أنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على إيمانكم وإسلامكم وإصلاح حالكم؛ إذ هو ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين، الموحدين، المخلصين ﴿رَءُوفٌ﴾ عطوف، مشفق ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:128] يرحمهم ويرضى عنهم؛ لخروجهم عن ظلمة الكفر بنور الإيمان.

وكن في نفسك يا أكمل الرسل على الوجه المذكور ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا، وانصرفوا عنك وعن الإيمان بك وبدينك وكتابك ﴿فَقُلْ﴾ في نفسك ملتجئًا إلى ربك: ﴿حَسْبِيَ اللهُ﴾ الرقيب علي، يكفيني مؤنة خصومتهم عني؛ إذ ﴿لاَ إِلَهَ﴾ يُرجع إليه في الوقائع، ويُلجأ نحوه في الخطوب ﴿إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ﴾ لا على غيره؛ إذ لا غيره حق في الوجود ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ﴿وَ﴾ كيف لا أتوكل عليه وأرجع إليه؛ إذ ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:129] أي: مربيه، والمستوي عليه بالاستقلال والإحاطة، والاستيلاء التام؛ إذ لا شيء في الوجود سواه، وكل شيء هالك إلا وجهه.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب المشمر لسلوك طريق الفناء، كي تصل إلى فضاء البقاء - شكر الله سعيك وهداك إلى غاية مبتغاك - أن تقتفي في تشمرك هذا أثر من نبهك عليها وهداك إليها، وهو الذي اختاره الله واصطفاه من بين خليقته؛ لتكميل بريته، وأظهره على صورته، وخلقه بجميع أخلاقه، لذلك اتخذه حبيبًا وجعله على سائر الأنبياء إمامًا ونقيبًا.

وتشبث بأذيال لطفه فعلاً وقولاً وشيمةً، صارفًا عنان عزمك إلى سرائر جميع ما جاء به من عند ربه؛ لإرشاد عباد الله، وما سمح به من تلقاء نفسه - صلوات الله عليه وسلامه - من الرموز والإشارات التي استنبطها من كلامه، وفاضت عليه بوحي الله وإلهامه؛ لصفاية استعداده الذي صار به مرآة لتجليات الحق وشئونه وتطوراته، وخليفة الله في أرضه وسمائه، وما التقط من كلماته وإشاراته الأولياء الوارثون منه، المقتفون أثره - قدس الله أرواحهم - وما ورد عليهم من تفاوت طبقاتهم في طريق التوحيد من

المواجيد والملهمات الغيبية، المنتشئة من النفحات الإلهية والنفسات الرحمانية، الناشئة من التجليات الجمالية والجلالية، المتفرعة على الشئون والتطورات الكمالية.

وبالجملة: لا بدَّ لك أن تفرغ همتك عمَّا سوى الحق مطلقًا، ولا يتيسر لك هذا إلا بمتابعة المحققين بمقام الكشف والشهود، الواصلين إلى مقام المراقبة والمشاهدة، والاستفادة منهم ومن ملتقطاتهم وارداتهم حتى يمكن لك التمكن في مكمن الفناء، والتقرب في مقر البقاء، وحينئذٍ يصح لك أن تقول بلسان حالك ومقالك: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.

جعلنا الله من عباده المفوضين، المتوكلين الذين يتخذون الله وقايةً ووكيلاً، ويجدونه وليًا وحسيبًا.

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة يونس عليه السلام

لا يخفى على المنجذبين نحو التوحيد الإلهي من طريق السلوك والمجاهدة، ورفض الشواغل وقطع العلائق، ونفي الخواطر والوساوس، وإسقاط الأوهام والخيالات المستندة إلى الهويات الجزئية، المستلزمة للغيرية والامتياز والاستقلال في الوجود، وما يترتب عليه من الآثار والإضافات أن السلوك من هذا الطريق لا يتم إلا بالاستمداد والاسترشاد من أهل الخبرة والاستبصار، وأرباب الكشف والاعتبار الواصلين إلى مقر التوحيد من جادة المجاهدة ومحجة الفناء، المقتضية للموت الإرادي عن لوازم الهوية البشرية مطلقًا.

وبالجملة: إن الكاملين المكملين، العارفين بأمارات الطريق وموانعه، وأن قضية الحكمة وأمر المناسبة الإلهية الواقعة بين الأوصاف الذاتية تقتضي أن يكون بين المفيد والمستفيد علاقة وارتباط؛ إذ لا يمكن الاستفادة من أي شخص كان، لا بدَّ من المناسبة والعلاقة المصححة للإفادة والاستفادة في هذا الطريق الآمن، جذبه الحق بنفسه، وأخلع عنه جلباب ناسوته مطلقًا، وصار هو هو، بل ارتفعت الهوية واضمحلت الموضوعية والمحمولية أيضًا عن بصر شهوده ونظر بصيرته، فهم تحت قباب العز ولواء العظمة والكبرياء، وسرادقات المجد والبهاء، وليس عندهم سلوك وسالك ومسلك، وقصد ومقصودهم لا يصرفون سوى الحق، ولا يعرفهم أيضًا سوى الحق، كما نطق به الحديث القدسي، لذلك ما يرى هؤلاء إلا به وفيه.

وأمَّا أهل الطلب والإرادة، المندرجون في سلوك طريق الفناء، المتعطشون بزلال التوحيد والبقاء فلا بدَّ لهم أن يتشبثوا ويتوسلوا بذيل من أيده الحق؛ لتكميل العباد وإرشادهم إلى مبدئهم ومعادهم، وهم الأنبياء الذين جبلوا على النفوس القدسية، المطهرة عن الكدورات الأنسية والعلائق البشرية، العائقة عن الفناء في هوية الحق، ثم الأولياء الوارثون منهم، الواصلون بمتابعتهم إلى مرتبة التوحيد والعرفان التي هي الفناء في ذاته.

والمحجوبون المجبولون على الغفلة، المنهمكون في الغي والضلال يتعجبون عن إرشاد الأنبياء والأولياء عباد الله إلى فضاء توحيده، وينكرون لياقتهم للنبوة والرسالة؛ إنما هو لجهلهم بدقائق المناسبات ورقائق الارتباطات الواقعة بين الحق والإنسان الكامل، ويقيسون أحوال الأنبياء والأولياء إلى أحوال آحاد الناس، ولم يتفطنوا أن أفضل البشر أفضل من أفضل الملائكة؛ لتحققهم في مرتبة الخلافة والنيابة الإلهية بجمعيتهم دونهم؛ لعدم جمعيتهم.

لذلك ردّ الله سبحانه على هؤلاء الجهلة بما هم عليه من التعجب والإنكار، ووبخهم بما وبخهم؛ لينبه المؤمنين على ما هو الحق، فقال متيمنًا باسمه العظيم، ومخاطبًا على رسوله الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر بمقتضى أوصافه وأسمائه الكامنة في وحدة ذاته فيتراءى، متكثرة بكثرة أسمائه وصفاته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على جميع مظاهره بالإمداد الدائم المتجدد، وحسب تجدد تجلياته الذاتية الحبية ﴿الرَّحِيمِ﴾ على خلاصة مظاهره وزبدة مكوناته التي هي الإنسان الجامع لجميع مراتب المظاهر بالنبوة العامة والولاية التامة، الشاملة لكلتا مرتبتي الأول والآخر، والظاهر والباطن، في المبدأ والمعاد باعتبار النشأتين.

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤﴾ [يونس:1-4].

﴿الر﴾[1] أيها الإنسان اللبيب، الرشيد، اللائق للرسالة العامة، والرئاسة الكلية

(1) الألف عين الوحدانية، واللام عين الأزلية، والراء عين الربوبية من عين الوحدانية، تجلّى بالألف لقلوب الموحدين والمنفردين من الحدثان، ليفنوا في سبحات الألوهية، وتجلّى من عين الأزلية -

الكاملة الشاملة على كافة البرايا ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المنزلة في هذه السورة ﴿آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ [يونس:1] أي: بعض آيات الكتاب الإلهي الذي هو حضرة علمه ولوح قضائه، ناطقة بالصدق والصواب على مقتضى الحكمة المتقنة الإلهية، نازلة من عنده؛ لتصديقك وتأييدك يا أكمل الرسل في تبشيراتك وإنذاراتك، ونبوتك ورسالتك وإرشادك لأهل الغي والضلال.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ الناسين بطلان هوياتهم ﴿عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ ألهمنا من محض فضلنا وجودنا ﴿إِلَى رَجُلٍ﴾ ناشئ ﴿مِّنْهُمْ﴾ وظهر من جنسهم وبني نوعهم ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ المنهمكين في الغي والضلال بمقتضى أهوية هوياتهم الباطلة، وماهياتهم العاطلة، تعجبًا ناشئًا عن محض الغفلة والنسيان، والإعراض عن الحق، والانحراف عن طريق التوحيد وجادة الإسلام ﴿وَبَشِّرِ﴾ منهم أهل المحبة والولاء؛ يعني: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأيقنوا برسالتك وإرشادك بوحدة ذات الحق واستقلاله في الوجود، وما يترفع عليه من الأسماء والصفات، والآثار المترتبة عليها، والشئون المتجددة بها ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأن لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: إقدام صادق، وقدم راسخ ثابت في جادة التوحيد،

باللام لأرواح العارفين لتطيره بأجنحة أنوار القدم في القدم، وتجلّى من عين الربوبية بالراء؛ لأسرار المحبين ليستأنسوا بحسن الصفات، ويشتاقوا إلى مشاهدات الذات، سقى الموحدين رحيق الأنانية بأقداح الألف من بحار الوحدانية، فخرجوا بنعت الاتحاد، وسقى العارفينْ عقار العشق بأقداح اللام من أنهار الجمال، فخرجوا بنعت الاتصاف والهين، وسقى المحبين عروق الوداد بأقداح الراء من عيون أنوار الربوبية، فخرجوا بنعت الحيرة هائمين. وأيضًا: الألف آلاؤه للصادقين، واللام ألطافه للمقربين، والراء رحمته على التائبين. قال الحسين: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وقد وقع لي إنما يكون في سورة يونس من الغرائب والعجائب والقصص والأمثال جمعها في ثلاثة أحرف في الألف واللام والراء، ونبّه بها قلب نبيه ﷺ بإشارة الأحرف الثلاثة فكفى له ذلك؛ لأن بينه وبين الله رموزًا وإشارات، لا يطّلع عليها جميع الخلائق، فلذلك يحتاجون إلى نزول سورة كاملة. وأيضًا: خاطبه بأحسن الأسماء مواساة وتربية، أشار بالألف: يا آدم الثاني ؛ لأن الألف أول الحروف من آدم، وأشار باللام: يا لطيف، وأشار بالراء: يا رحيم، كما قال: يا ﴿طه﴾ يا ﴿يس ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ أي: هذه الأبناء آيات صفاتية أزلية التي كنت حكيمًا، وعالمًا بما في القدم والأزل، أيضًا أي: تلك علامات ما ألهمنا روحك في الأزل، فنعرفك بها مكان خطاب الأول، إن القرآن محكم بحكم الأزلية، وحججه البالغة بأمر الربوبية، والدعاء إلى العبودية من فهمه صار حكيمًا بحكمته. وقيل: أي فيه علامات قبول الحكماء لهذا الخطاب.

وإرادة خالصة.

وصاروا ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من السابقين المقربين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثم لمّا ظهر أمر الرسالة وعلا قدره، وشاع دينه وكثر أتباعه ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ المصرون على الشرك والفساد من خبث طينتهم، وشدة بغضهم وشكيمتهم بعدما أبصروا منه خوارق عجزوا عنها، سيما القرآن الكامل في الإعجاز البالغ أعلى مراتب البلاغة: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المدعي للنبوة والرسالة ﴿لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:2] ظاهر متفرد في فن السحر، وحيد في عصره فيه، ومن قرأ السحر أراد به القرآن المعجز لجمهور البلغاء مع توفر دواعيهم في معارضته، وصاروا من عجزهم بحيث لم يقدروا على إتيان أقصر آية منه.

وكيف يعارضون مع رسوله والكتاب المنزل من عنده سبحانه؟! ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: قدر ببسط عكوس أسمائه، ومد أظلال أوصافه ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات التي هي الأعيان الثابتات ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: عالم الطبيعة القابلة للانعكاس منها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: ستة جهات؛ إذ يتوهم الامتداد والأبعاد، والأقطار فيها ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ بلا توهم التراخي والزمان والمهلة، على ما يقتضيه لفظة «ثم»، «بل» بلا أين وكيف وكم؟.

﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ المعروش المبسوط من انعكاس أسمائه وأوصافه ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أي: الحوادث الكائنة بالاستقلال ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ من المظاهر والمصنوعات ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ وإمضاء مشيته، وإنفاذ قضائه ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ أي: الموصوف المتفرد، المتوحد في ذاته بالألوهية، المستقل في آثاره وتدبيراته بالربوبية ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي: مربيكم وموجدكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ حق عبادته حتى تعرفوه حق معرفته ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:3] وتتفكرون وحدة ذاته، وعظمة أسمائه وصفاته أيها العقلاء المجبولون على التفكر والتذكر في آلاء الله ونعمائه؟!.

وكيف لا تتفكرون آلاءه؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير معه سبحانه في الوجود ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾[1] كما وعدكم بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس:23]،

(1) قال في التأويلات: أي: جرى الميثاق على أن يكون رجوع القبول والمردود إلى حضرته: فأمّا المقبول: فرجوعه إليه بجذبات العناية التي صورتها خطاب: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]،

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية:25]، ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:35] إلى غير ذلك من الآيات.

﴿وَعْدَ اللهِ﴾ الذي لا يخلف ميعاده أصلاً ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا لازمًا بلا تغيير وتبديل، وكيف لا يكون وعده حقًّا؛ إذ هو قادر على جميع المقدورات والمرادات، ومن كمال قدرته ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ﴾ ويظهره من العدم إظهارًا إبداعيًا بلا سبق مادة ومدة، ثم يعدمه؛ إظهارًا لقدرته أيضًا ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ في النشأة الأخرى؛ لإظهار أسرار تكليفاته التي كلف بها عباده في النشأة الأولى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيده، وصدقوا رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة من عنده بألسنة كتبه ورسله ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل القويم، وتفضل على من تفضل عنايته منه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأشركوا له شيئًا من مظاهره ﴿لَهُمْ﴾ في يوم العرض والجزاء، بعدما يحاسبوا ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ بدل ما يتلذذون بالأشربة المحرمة في النشأة الأولى ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 4] بالله، ويكذبون رسله؛ عنادًا وإصرارًا، وكيف يكفرون بالله أولئك الحمقى، العمي، الهالكون في تيه الغفلة والضلال، وظلمة الجهل وسوء الفعال؟!.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [يونس:5-8].

وحقيقتها: انجذاب القلب إلى الله لقاء، ونتيجتها: غروب النفس عن الدنيا، واستواء الذهب والدر عندها، وانزعاج القلب عمّا سوى الله تعالى، واستغراق الروح في بحر الشوق والمحبة، والتبرؤ عمّا سوى الله، وهيمان السر وحيرته في شهود الحق ورجوعه عن الخلق، وأمّا المردود: فرجوعه بغير اختياره مغلولاً بالسلاسل والأغلال يسحبون في النار على وجوههم وهي صورة صفة قهر الله، ومن نتائج قهر الله تعلقاته بالدنيا وما فيها، واستيلاء صفات النفس عليه من الحرص والبخل والأمل والكبر والغضب والشهوة والحسد والحقد والعداوة والشره، فإن كل واحدة منهما حلقة تلك السلاسل وغل من الأغلال يسحبون إلى النار.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ ليكون دليلاً على كمال ظهوره وإشراقه، وجلائه وانجلائه ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ منيرًا في ظلمات الليل؛ ليكون دليلاً على إنارته وإضاءته سبحانه في مشكاة التعينات وظلمات الهويات ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ أي: للقمر ﴿مَنَازِلَ﴾ في السموات؛ تسهيلاً لكم في أموركم ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ التي تحتاجون إليها في معاملاتكم وتجاراتكم وحرثكم، كما قدر منازل نور النبوة والولاية في مشكاة الأنبياء والأولياء الوارثين منهم؛ لتقتبسوا أنوار الإيمان المزيحة لظلم الكفر والعصيان من مصابيح أولئك الأمناء الكرام، وتتوسلوا بهم إلى أن تستضيئوا بضياء الشمس الحقيقي التي لا أفول لها أصلاً.

ثم قال سبحانه ترغيبًا لعباده، وتنبيهًا لهم على أصل فطرتهم: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: ما أظهر وأوجد سبحانه ما أظهر في عالم الغيب والشهادة، حسب أسمائه وأوصافه إلا بالحق الثابت الصريح بلا احتياج إلى الدلائل والشواهد؛ إذ لا شيء أظهر من ذاته سبحانه حتى يجعل دليلاً عليه، وإنما ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ المنبهة عليها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:5] يتحققون بمرتبة اليقين العلمي؛ ليترقوا منها إلى اليقين العيني والحقي، وأما المحجوبون فهم من عداد البهائم والأنعام، لا يرجى منهم الفلاح؛ لخباثة طينتهم ورداءة فطرتهم.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ﴾ وإيلاجه في النهار ﴿وَالنَّهَارِ﴾ وإيلاجه في الليل ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي﴾ أوضاع ﴿السَّمَوَاتِ﴾ من الأمور المقتضية لاختلافهما ﴿وَالأَرْضِ﴾ من المكونات الكائنة فيها على مقتضى تربية العلويات وتدبيراتها ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات، وشواهد لائحات دالة على قدرة القادر الحكيم المتقن في أمره وفعله ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:6] عن قهر الله، ويلتجئون إليه سبحانه عن غضبه وسخطه.

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والوعيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لإنكارهم إعادتنا إياهم في يوم الجزاء؛ لنجزيهم وفق ما عملوا ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المستعار بلا التفات إلى دار القرار ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي: أسكنوا ووطنوا نفوسهم بلذاتها وشهواتها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ لقساوة قلوبهم وغباوة فطنتهم ﴿عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:7] ذاهلون مع وضوحها وظهورها.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء، المعزولون عن مقتضى العقل المستفاد من العقل الكل ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:8] من الكفر والعصيان، ومخالفة

الفعل المفاض.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١١ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٢ ﴾ [يونس:9-12].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد، وبالعكس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وتوحيده ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة من عنده؛ لإصلاح أحوالهم ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى فضاء توحيده ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ ويقينهم العلمي ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ أي: جداول المعارف والحقائق المنتشئة من بحر التوحيد، من صبغة باليقين العيني والحقي ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس:9] أي: هم مخلدون في مستلذاتهم الروحانية.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ ومناجاتهم مع ربهم، بعدما انقطعوا عن السلوك والتكميل: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾[1] أي: اللهم إنَّا ننزهك تنزيهًا، ونقدسك تقديسًا عن جميع ما يليق بجناب قدسك ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ أي: ترحيب بعض أرباب الدرجات مع بعض على تفاوت مراتبهم ﴿سَلامٌ﴾ وتسليم؛ لتحققهم بمقام الرضا ومقعد الصدق ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ بعد وصولهم إلى غاية مأمولهم: ﴿أَنِ الْحَمْدُ﴾ والمنة والثناء ﴿لِلَّهِ﴾ المنعم المفضل ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:10] يربيهم بأنواع اللطف والكرم تفضلاً منه

---

(1) قال روزبهان: لو ألهموا حمد الحق في أوائل الأنفاس لسقطت عنهم الدعاوى، لكنهم لم يزالوا يركضون في ميادين الجهل إلى أن فتح لهم طريق الحمد، فلما فتح لهم طريق الحمد سقطت عنهم الدعاوى، فرجعوا إلى رؤية المنة، فكانت آخر دعواهم أن قالوا: الحمد لله رب العالمين فرضُوا الكل به، ورجعوا بالكلية، فأنطقهم لما أنطقهم به من المنطق المحمود.

سبحانه وامتنانًا.

ثم قال سبحانه حثًا لعباده إلى الرجوع والتوجه نحوه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ حين استعجلوه؛ لغرض من الأغراض ﴿اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ أي: كاستعجال الخير لهم حين طلبوا، أو دعوا لأجله ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ يعني: انقرض مدة حياتهم بحلول أجلهم بدعائهم، ولكن أمهلناهم؛ رجاء أن يستغفروا منهم من يستغفر، وبالجملة: ﴿فَنَذَرُ﴾ ونترك المصرين ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ورضوا بالحياة الدنيا واقتصروا عليها، وأنكروا يوم الجزاء واللقاء ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ المتجاوز عن الحد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [يونس:11] يترددون؛ إمهالاً لهم وتهويلاً لعذابهم.

﴿وَ﴾ من شدة عمههم وطغيانهم ﴿إِذَا مَسَّ﴾ وعرض ﴿الْإِنسَانَ الضُّرُّ﴾ أي: ما يضره من مرض مؤلم وأمر مفجع مفزع ﴿دَعَانَا﴾ مشتكيًا إلينا، باثًا شكواه عندنا، ملقيًا ﴿لِجَنبِهِ﴾ إن لم يقدر على غيره ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ متضرعًا متفجعًا مستكشفًا ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ وعجلنا له مراده تجاوز عنا وعن أمرنا، ولم يلتفت إلينا أصلاً، وصار من شدة عمهه وغفلته ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ﴾ كشف ﴿ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت ﴿زُيِّنَ﴾ أي: حبب وحسن ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المنهمكين في الغي والضلال ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس:12] من مخالفة أمر الله، ومخاصمة رسوله والمؤمنين المتابعين له، والإصرار على ما هم عليه من العتو والعناد.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يونس:13-17].

ثم قال سبحانه مهددًا مقسمًا: ﴿وَ﴾ الله يا أهل مكة ﴿لَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿الْقُرُونَ﴾ الماضية ﴿مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: حين ظلموا مثل ظلمكم، وخرجوا عن إطاعة الله وإقامة حدوده مثل خروجكم ﴿وَ﴾ هم أيضًا أمثالكم، قد ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالبراهين القاطعة، والحجج الساطعة الدالة على صدقهم؛ إنما جاءهم ليمتنعوا عمّا هم عليه من الظلم والفساد ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أي: أولئك الأمم ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ لهم، ويصدقوهم فيما جاءوا به أمثالكم، بل كذبوهم وأصروا لهم على ما هم عليه، بل زادوا عليها؛ عنادًا ومكابرةً، فأخذناهم بظلمهم، وأهلكناهم بإصرارهم بعدما نبهنا عليهم فلم يتنبهوا ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس:13] المصرين على الجرم مع ورود الزواجر والروادع.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إهلاكهم واستئصالهم ﴿جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾[1] أي: استخلفناكم، فهم خلفائه ﴿فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ مختبرين، مبتلين أمثالهم ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:14] أتعملون الخير فيجازيكم خيرًا، أم تعملون الشر فيجازيكم شرًا، مثل ما جزيناهم؟.

﴿وَ﴾ هم كانوا من شدة انهماكهم في الغفلة والضلال ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: مع كونها مبينات لأحوال النشأة الأخرى وأهوال عذابها ونكالها ﴿قَالَ﴾ الكافرون: ﴿الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ بل ينكرون الحشر والنشر، والثواب والعقاب، وجميع ما يترتب على النشأة الأخرى، فكيف لقاءنا فيها ﴿ائْتِ﴾ أيها الداعي من عند ربك ﴿بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ القرآن إن أردت أن نؤمن لك ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وغيّر بعض آياته المشتملة على الإنذارات والتخويفات الشديدة، فإنا لا طاقة لنا بها.

إنما يقصدون بقولهم هذا استهزاءً وسخريةً برسول الله، واستخفافًا بكتاب الله

---

(1) خلفاء الأرض نواب الأنبياء وورثة الرسل، وهم أهل الاستقامة والتمكين والجمعية، الذين يخاطبهم الله في كل نفس بلسان الولاية، ويورثهم خطابه الآداب السنية، والأعمال الزكية والأخلاق الكرامية، والأسوة الحسنة، ثم يورثهم هذه الأحكام بالأنس بالذكر، والخوض في الفكر، والسير بالقلوب في أنوار الغيوب، والطيران بالأرواح في عالم الأفراح، وإيواء الأسرار إلى سرادق المجد، فيرون بعد ذلك في حضرة القدس مجالس الأنس، ويشربون من بحار محبته، ويشتاقون إلى لقائه، ويعشقون بوجهه، ويرونه لظهور الصفات وكشوف الذات كفاحًا، ويسمعون منه تعالى كلامًا صرفًا، فيرجعون بعد ذلك إلى دعوة الخلق إلى الله بألسنة الموعظة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ حدود الله عليهم. [العرائس].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿مَا يَكُونُ﴾ أي: ما يصح ويجوز ﴿لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ وأحرفه ﴿مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ على مقتضى أهويتكم الفاسدة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي: ما أتبع وانتظر ﴿إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ وليس في وسعي وطاقتي سوى الاتباع والانتظار، وكيف أتصرف فيه ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ بمجرد استماع قولكم هذا العصيان على نفسي، فكيف ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ بقصد التبديل والتغير؟ ﴿رَبِّي﴾ استوجبت ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس:15] كما استوجبتم بسوئكم هذا على سبيل الاقتراح والإلحاح.

﴿قُل﴾ أيضًا لهم إلزامًا وتبكيتًا: ﴿لَّوْ شَاءَ اللهُ﴾ أي: لو تعلق مشيئته غير هذا المتلو ﴿مَا تَلَوْتُهُ﴾ أنا، وما أوحاه علي، وما أجراه على لساني ﴿عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ﴾ وأعلمكم على لساني، ولكن تعلق بمشيئته بهذا فأوحاه وأجراه ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ مدة أربعين سنة ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل وحي القرآن بلا تلاوة وإدراء وإعلام ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [يونس:16] وتستعملون عقولكم في هذا الأمر، ولا تدبرون وتدربون فيه مع أنكم متدربون بأساليب الكلام، متبالغون فيه أقصى الغاية.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ ونسب إليه ما لم يصدر عنه؛ افتراءً ومراءً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ التي صدرت عنه، ونزلت على رسله وأنبيائه؛ لإصلاح أحوال عباده، وإرشادهم مبدأه ومعاده، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:17] المفترون عليه بالأباطيل الزائفة، المكذبون كلامه المنزل من عنده على رسله.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (18) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (20) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21)﴾ [يونس:18-21].

وكيف يفلحون ويفوزون بالفلاح ﴿وَ﴾ هم من شدة ضلالهم ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ المتوحد بذاته، المستقل بالوهيته ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾؟! لأنهم ليسوا من

ذوي القدرة والإرادة، بل من جملة الجمادات المعطلة التي لا شعور لها أصلاً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من كمال غفلتهم وضلالهم: ﴿هَؤُلاءِ﴾ الأجسام والتماثيل العاطلة ﴿شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ﴾ ينقذوهم من بأس الله وبطشه إن تحقق وقوعه ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تسفيهًا وتحميقًا: ﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾ وتخبرون بقولكم هذا ﴿اللهَ﴾ العالم بالسرائر والخفايا ﴿بِمَا لاَ يَعْلَمُ﴾ من الأمور الكائنة لا ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ من الكوائن فيها، مع أنه سبحانه لا يعزب عن حيطة علمه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:18] من الأوثان والتماثيل التي لا شعور لها أصلاً، مع أنها من أدون المظاهر، وأخس المخلوقات، وبالجملة: ما قدروا الله أولئك الحمقى حق قدره، لذلك نسبوا إليه ما هو منزه عنه، تعالى عمَّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ﴾ المجبولون على مظهرية الحق، المنعكسون من أظلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ملتجئة إلى الله، مقتبسة من أنوار تجلياته ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ أي: الأظلال الهالكة باختلاف صور الأسماء المتقابلة، والأوصاف المتضادة المتخالفة حسب الشئون والتجليات المتجددة في الكمالات المترتبة عليها ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ لتسويتهم وتعديلهم في النشأة الأخرى ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بالعدالة والقسط ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:19] في هذه النشأة بلا تأخير إلى أخرى، لكن الحكمة المتقنة الإلهية تقتضي تأخيرها، ولذلك أخرت أمرهم وحسابهم وعذابهم؛ لئلا يبطل سر التكاليف والأوامر والنواهي.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ بعدما اقترحوا عنه بالآيات ولم تنزل: ﴿لَوْلا﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ من الآيات المقترحة، مع أنه دعواه أن الله قادر على جميع المقدورات والمرادات، لا يخرج عن حيطة قدرته شيء ﴿فَقُلْ﴾ في جوابهم: بلى، إن الله قادر على جميع المقدورات، ومن جملة مقترحاتكم، إلا أن في عدم إنزالها وإنجاحها حكمة غيبية ومصلحة خفية، لا يعلمها إلا هو ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ﴾[1] كله ﴿لِلَّهِ﴾ وفي حيطة حضرة

---

(1) قال الشيخ كبرى: يشير إلى معنيين: أحدهما: إن الغيب هو عالم الملكوت الذي ينزل منه الآيات، ويظهر منه للمعجزات بإنزال الله تعالى وإظهاره فهو لله وبحكمه ينزل الآيات منه متى شاء كما شاء، ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ [يونس:20] فإنه ينزلها، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس:20] أي: لينزلها، والثاني: إن الغيب هو عالم الغيب فهو الله وهو الذي قدر الأشياء بحكمته ومشيئته، فإن اقتضت

علمه ﴿فَانتَظِرُوا﴾ بتعليق إرادته بمقترحاتكم ﴿إِنِّي مَعَكُم﴾ أيضًا بلا تفاوت بيني وبينكم في عدم الاطلاع على غيبه ﴿مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:20].

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للمسرفين: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ خلاصًا ونجاةً ﴿مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ واضطرتهم إلى الرجوع والتوجه نحونا ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ أي: ما جاءوا بعد نزول الرحمة إلى المكر والخديعة مع نبينا، والطعن ﴿فِي آيَاتِنَا قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لضمائركم ومخايلكم ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ وأشد تدبيرًا وانتقامًا على مكركم وخداعكم، أعد لكم عذاب مكركم، وأشهد عليكم الملائكة، كما قال: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الموكلون عليكم، المراقبون لأحوالكم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ في صحائف أعمالكم ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس:21] وتحيلون مع الله ورسوله.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس:22-23].

وكيف لا يراقبكم ويحافظ عليكم ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ أي: يمكنكم على السير والسياحة ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ليجرب إخلاصكم وتقواكم، ورسوخكم في الإيمان ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ أي: السفن ﴿وَجَرَيْنَ﴾ الجواري ﴿بِهِم﴾ أي: بمن في السفن ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ معتدلة، موافقة لسيرها ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ ويجريها على مرادهم ﴿جَاءَتْهَا﴾ بغتة ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب، مزلزلة لها ﴿وَ﴾ من شدة هبوبها وتحريكها البحر ﴿جَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ مثل الجبال الرواسي ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: جانب وجهة ﴿وَظَنُّوا﴾ من غاية ارتفاع الأمواج المتوالية المتتالية ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أسباب

الحكمة والمشيئة الأزلية بإنزال آية من آياته وأوصاف ملتمسكم فإنه سينزل ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ لإنزالها.

الإهلاك فتقع عليهم وتستأصلهم، وحينئذٍ ﴿دَعَوُا اللهَ﴾ ملتجئين متضرعين ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: مقتصرين الإطاعة والانقياد له؛ إذ لا تعارضه حينئذٍ الأهواء الفاسدة والآراء الباطلة، قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ يا ربنا بفضلك وجودك ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ البلية المحيطة بنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس:22] لنعمك المتذكرين دائمًا لجودك وكرمك.

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ﴾ إجابةً لدعائهم، وكشفنا لضرهم وبلائهم ﴿إِذَا هُمْ﴾ يفاجئون إلى الكفران ويسارعون إلى الطغيان، حيث ﴿يَبْغُونَ﴾ ويطلبون الفساد ﴿فِي الأَرْضِ﴾ المعدة للعبادة والصلاح ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ أي: بلا رخصة شرعية، بل عن بغي وعناد، التفت سبحانه من الخطاب إلى الغيبة؛ تنبيهًا على بعدهم وطردهم عن ساحة عز الحضور، لذلك أبعدهم بالغيبة بعدما قربهم بالخطاب.

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسين نعمة الإنجاء والخلاص عن ورطة الهلاك ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ وكفرانكم الذي فاجأتم به، بدل الشكر والإطاعة في النشأة الأولى وبال عائد ﴿عَلَى أَنفُسِكُم﴾ في النشأة الأخرى؛ إذ ﴿مَّتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: التمتع بلذاتها وشهواتها، والركون إلى مزخرفاتها قليل حقير ونزر يسير، لا ينبغي للعاقل أن يترك الباقي لأجل الفاني، واللذة الروحانية الدائمة المستمرة للذة الجسمانية المتناهية القصيرة ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا؛ إذ لا غير معنا ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومصيركم رجوع الأظلال والأضواء والعكوس إلى الشمس ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ أي: نخبركم ونعمل بكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:23] أي: بمقتضى عملكم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس:24-25].

وبالجملة: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: شأنها وحالها العجيبة التي كنتم تغترون

بها، وتميلون إليها وتفتخرون بمزخرفاتها ومموهاتها، وأمتعتها وأبنيتها ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ﴾ واشتبك ﴿بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ أي: ترابها المنبتة للنبات، وحصل من اختلاطها ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾ من أنواع البقول والحشائش ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: شرعت لتربيتها ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: تزينت بأنواع التزيينات.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ﴾ متمكنون ﴿عَلَيْهَا﴾ وعلى جمعها وحصادها، وأخذ غلاتها ﴿أَتَاهَا﴾ بغتة ﴿أَمْرُنَا﴾ بإهلاكها واستئصالها ﴿لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ قبل صلاحها، بل مقطوعًا من أصلها إلى حيث ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ ولم تنبت فيها منها شيء ﴿بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾ ونمثل ﴿الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:24] ويستعملون عقولهم بإدراك الممثل والممثل به، وبعد تعلقهم وتفكرهم يتنبهون أن الدنيا وحياتها ما هي إلا سراب غدار غرار، وبرق بلا قرار، من اغتر بغرورها هلك عطشى الأكباد، ومن استنار بنورها ضل عن طريق الرشاد.

﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده ﴿يَدْعُو﴾ جميع عباده؛ إذ أصل فطرتهم وجبلتهم على التوحيد ودين الإسلام ﴿إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾[1] أي: مقر التوحيد الذي من تمكن فيه سلم من جميع الآثام، وسلم أمره إلى العليم العلام، القدوس السلام ﴿وَ﴾ بعد دعوته جميع الأنام ﴿يَهْدِي﴾ ويوفق ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من خلّص عباده ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:

---

(1) يدعو أزلاً وأبدًا عباده إلى دار السلام وهي العدم صورة وظاهرًا، وعلم الله وصفته؛ يعني: وحقيقة، وإنما سمي العدم والعلم دار السلام؛ لأن العدم كان دارًا قد سلم المعدوم فيها من آفة الحجب الروحانية والجسمانية والعلم دار قد سلم المعلوم فيها من آفة الإثنينية والشركة في الوجود وهي دار الوحدانية؛ وأيضًا لأن السلام هو الله تعالى، والعلم صفته القائمة بذاته فالله تعالى بفضله وكرمه يدعو عباده أزلاً من العدم إلى الوجود ومن العلم وهو الصفة إلى الفعل وهو الخلق ويدعوهم أبدًا من الوجود إلى العدم، ومن الفعل إلى العلم فدعاهم من العلم إلى الوجود بالنفخة، وهي قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29]، ودعاهم من الوجود إلى العدم، والعلم بالجذبة وهي قوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، ولما دعا النبي ﷺ بالجذبة إلى علم الله الأزلي الأبدي، قال: قد علمت ما كان وسيكون؛ وذلك لأنه صار عالمًا بعلم الله لا بعلم نفسه وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:113] وإنما علمه ذلك العلم حين قال له: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد:19] أي: فاعلم بعلم الله الذي دعيت بالجذبة إليه لا إله في الوجود إلا الله، فإن العلم الإلهي محيط بالوجود كله كما قال: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق:12] فأنت بعلمه محيط بالوجود كله، فتعلم حقيقة أن ليس في الوجود إله غير الله. [التأويلات].

25] موصل إلى توحيده، وهو دين الإسلام المنزل على خير الأنام تتميمًا لحكمة التكاليف المنزلة من عنده، وتمييزًا بين أهل الضلال والهداية من عباده، وأصحاب الجنة والنار بطبقاتهم.

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾ [يونس:26-30].

لذلك قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في هذه النشأة مع الله ورسله، وامتثلوا جميع ما جاء من عنده في كتبه؛ تعبيرًا وانقيادًا، إيمانًا واحتسابًا ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة العظمى والدرجة العلا، بدل إحسانهم في الدنيا؛ عدلاً من الله ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ عليها، وهي رضوان الله منهم غايةً وتفضلاً ﴿وَ﴾ صاروا من صفاء عقائدهم وإحسانهم مع الله ﴿لاَ يَرْهَقُ﴾ ويلحق ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ غبار الغفلة والندامة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ صغار وهوان من التواني والتكاسل في احتمال التكاليف الإلهية ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء، المقبولون عند الله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب الفضل والعناية ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:26] جزاءً بما كانوا يعملون من الخيرات والمبرات.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من طغيان نفوسهم، ولم يلتفتوا إلى ما أمرهم الحق، وهداهم إليه رسله، يجيزون على مقتضى ما اقترفوا ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ عدلاً منه سبحانه ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغطاهم غبار المذلة والخذلان، بدل ما اكتسبوا من البغي والعدوان ﴿مَّا لَهُم﴾ حينئذٍ ﴿مِّنَ اللهِ﴾ أي: من عذابه وعقابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ حافظ يحفظهم، أو شفيع يشفع لهم ويخفف عنهم، بل صاروا من ظلمة كفرهم وفسقهم ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ سترت وأحيطت ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ في غاية الظلمة لعدم استنارتهم بنور الإيمان والعمل الصالح ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء، الهالكون في تيه الغي

والضلال ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ المعدة لأهل الغفلة والأهواء ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 27] جزاءً بما كانوا يكسبون من الكفر والمعاصي.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: كلا الفريقين ﴿جَمِيعًا﴾ في يوم العرض والجزاء ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بنا غيرنا من التماثيل والأصنام: الزموا ﴿مَكَانَكُمْ﴾ واستقروا عليها ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ حتى تسألوا عمّا أجرمتم ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ فرّقنا وفصلنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: رفعنا رابطة العابدية والمعبودية التي بها وصلتهم وارتباطهم ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾ مخاطبين إياه مشافهةً؛ برءة لنفوسهم: ﴿مَّا كُنتُمْ﴾ أيها الضالون، المنهمكون في الغي والضلال ﴿إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس:28] بعلمنا وأمرنا؛ إذ لسنا من ذوي العلم وأولي الأمر، بل تعبدون أنتم أهواءكم وشياطينكم الكامنة في نفوسكم قد افتريتم علينا ونسبتم بنا؛ عنادًا ومكابرةً.

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ اليوم وفيما مضى ﴿شَهِيدًا﴾ على ما جرى ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هو أعلم بعلمه القديم ﴿إِن كُنَّا﴾ أي: إنّا كنّا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ أي: توجهكم ورجوعكم إلينا ﴿لَغَافِلِينَ﴾ [يونس:29] إذ لم نخلق من ذوي الشعور والإدراك في نشأة الاختبار حتى نضلكم ونستعبدكم.

وبالجملة: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: حين أُحضروا للسؤال والجواب، والجزاء والحساب ﴿تَبْلُو﴾ أي: تختبر وتتفطن ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَّا أَسْلَفَتْ﴾ وكسبت فيما سبقت ﴿وَ﴾ بعد تفطنهم وتنبههم ﴿رُدُّوا﴾ جميعًا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد للجزاء؛ إذ هو ﴿مَوْلَاهُمُ﴾ ومولى أمورهم ﴿الْحَقِّ﴾ وما سواه من الآلهة الكاذبة الباطلة، ومع بطلانها ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: غاب عنهم وضاع عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:30] ظلمًا وزورًا، وسموهم آلهة وشفعاء، ولم يبقَ إلا الله الواحد القهار، ولو كوشفوا بوحدة الحق في جميع الأحيان والأحياز لتحققوا بتوحيده دائمًا بلا توقف إلى يوم القيامة، إلا أنهم لانهماكهم في الغفلة والضلال لم يتنبهوا في النشأة الأولى.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ

يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس:31-35].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر توحيد الحق، واستقلاله في الآثار والتدبيرات الواقعة في الأقطار إلزامًا لهم وتبكيتًا: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بإمطار الأمطار، وتصعيد البخار ﴿وَالأَرْضِ﴾ بالإنبات والإخراج ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾ ويستطيع أن يخلق ﴿السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ اللتين هما من أعظم أسباب حفظكم وحضانتكم ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ﴾ الحيوان السوي ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي: النطفة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: النطفة الجامدة من الحيوان ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ في عالم الأسباب والمسببات ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ اضطرارًا لغاية ظهوره ووضوحه، لا يمكنهم أن يكابروا: ﴿اللهُ﴾ المدبر لجميع الأمور الكائنة في الآفاق والأنفس؛ إذ من غاية ظهوره لا يعاندون، ولا يكابرون ﴿فَقُلْ﴾ لهم بعدما اعترفوا بالله المدبر لجميع الكوائن والفواسد؛ توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [يونس:31] وتحذرون من بطشه وانتقامه، تشركون له ما لا يسمع ولا يضر، ولا يغني من الحق شيئًا.

﴿فَذَلِكُمُ﴾ الذي اعترفتم به، هو ﴿اللهُ﴾ المتوحد، المستحق للألوهية والمعبودية؛ إذ هو ﴿رَبُّكُمُ﴾ أي: مربيكم ومدبر أمركم؛ لأنه ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت، الحقيق بالحقية ﴿فَمَاذَا بَعْدَ﴾ وحدة ﴿الْحَقِّ﴾ مما اتخذتم آلهة ظلمًا وزورًا ﴿إِلَّا الضَّلالُ﴾ الباطل ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:32] أي: فكيف تصرفون وترجعون إلى غيره من الأظلال الهالكة، وتنسبونها إلى الألوهية والربوبية.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما ثبت الربوبية والألوهية للحق سبحانه ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: ثبتت وتمت صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا من عبادة الله ظلمًا وعدوانًا ﴿أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:33] أي: لا يوقنون بالله، ولا يصلون إلى مرتبة التوحيد أصلاً، لا علمًا ولا عينًا.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ أي: في وسعهم وقدرتهم ﴿مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ أي: يوجده ثم يعدمه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ كما هو شأن الإله، المنفرد بالألوهية ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس:34] أي: كيف

تشكون وتصرفون عن جادة التوحيد بالميل إلى هؤلاء التماثيل الزائفة، العاطلة المعطلة.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا تبكيتًا وإلزامًا: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى﴾ طريق ﴿الْحَقِّ﴾ وصراط مستقيم، موصل إلى توحيده، فإن بهتوا ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وطريق توحيده من يشاء من عباده، ويوصله إلى مرتبة حق اليقين ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي: اليقين الحقي ﴿أَحَقُّ﴾ أي: أليق وأحرى ﴿أَن يُتَّبَعَ﴾ أي: يطاع وينقاد له ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّي﴾ بنفسه إلى شيء أصلاً ﴿إِلَّا أَن يُهْدَى﴾ فاهتدى إن كان من أهل الاستهداء كبعض آلهتكم، مثل عزير وعيسى ﴿فَمَا﴾ عرض ولحق ﴿لَكُمْ﴾ أيها العقلاء، المعزولون عن مقتضى العقل ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس:35] بالوهيتهم وشركتهم، مع أن بديهة العقل يأبى عن ذلك.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)﴾ [يونس:36-41].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثر المشركين في إشراك هؤلاء المنحطين عن درجة الاعتبار مع الله المنزه عن الشريك مطلقًا ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ وتخمينًا ناشئًا من تخيلات فاسدة، وتوهمات كاسدة من إنشاء الآثار إلى ظواهر الأسباب، مع الغفلة عن المسبب الموجد لها، و﴿إِنَّ الظَّنَّ﴾ والتخمين الذي تشبثوا وتمسكوا به ﴿لَا يُغْنِي﴾ ولا يفيد ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ الصريح الذي هو مناط الإيمان والاعتقاد ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع مخايلهم ﴿عَلِيمٌ﴾ خبير بصير ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس:36] على مقتضى ظنونهم وخيالاتهم وأوهامهم، فيجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

وبعدما نبه سبحانه على بطلان اعتقاداتهم وظنونهم وجهالاتهم، أراد أن ينبه أن

مستند أهل الإيمان الذي هو القرآن الموضح لهم طريق التوحيد والعرفان ليس كذلك، فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾[1] المنزل على خير الأنام، المبين لهم قواعد دين الإسلام ﴿أَن يُفْتَرَى﴾ ويخيل أنه صدر ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ العليم الحكيم، وكيف يصدر هذا من غير الله؛ إذ هو في أعلى مراتب البلاغة، ونهاية درجات الإعجاز؟! لصدوره عن الحكمة المتقنة الإلهية التي كلت الأفهام دونها، وعجزت المدارك والآلات عن دركها، فلا يتوهم صدوره عن غير الله أصلاً ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقًا، كما نزل من عنده في الكتب السالفة، بل هو أعلى حكمة، وأتم به فائدة منها ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ الذي من علمه ولوح قضائه، وبالجملة: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه نازل ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:37] ليس في وسع بشر أن يأتي بمثله.

أيشكون نزوله على رسول الله ﷺ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ واخترعه من عنده، ونسبه إلى الله ترويجًا وتعظيمًا؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: بعدما شككتم أنه من عند الله، بل جزمتم بأنه من عند غيره ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ قصيرة ﴿مِّثْلِهِ﴾ في الفصاحة ورعاية المقتضيات والحكم والمطابقات، ووجوه الدلالات والتمثيلات، والتشبيهات والمجازات والكنايات ﴿وَ﴾ إن عجزتم أنتم ﴿ادْعُوا﴾ واستظهروا ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ واستوثقتم به ﴿مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:38] في دعواكم أنه من كلام البشر مفترى على الله.

ثم لمّا أفحموا على الإتيان، وعجزوا عن المعارضة، ومع ذلك لم ينصفوا، أو لم يقروا بأنه معجز ليس من كلام البشر ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ بادروا إلى الرد والتكذيب ﴿بِمَا﴾ أي: بشيء ﴿لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ ولم يعلموا ويفهموا ما فيه من قرائحهم ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ من معلم وملهم، بل كابروا في تكذيبه بلا سند عقلي ونقلي ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل تكذيبهم هذا ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم وكتبهم التي جاءوا به ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:39] الخارجين عن مقتضى الأوامر،

---

(1) يعني وما كان ينبغي لهذا القرآن أن يختلف ويفتعل لأن معنى الافتراء الاختلاق والمعنى ليس وصف القرآن وصف شيء ممكن أن يفترى به على الله؛ لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر وذلك أن كفار مكة زعموا أن محمدًا ﷺ أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق فأخبر الله ﷻ أن هذا القرآن وحي أنزل الله عليه وأنه مبرأ من الافتراء والكذب، وأنه لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى. انظر [تفسير الخازن (3 /398)].

المبادرين إلى تكذيب الله وتكذيب كتبه ورسله، وما جرى عليهم من المصيبات الهائلة، فانتظر يا أكمل الرسل لهؤلاء المكذبين، المكابرين أمثالها.

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المكذبين المكابرين ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، ويصدق بإعجازه في نفسه ويصر على التكذيب؛ عنادًا ومكابرةً ﴿وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ لغلظ غشاوته، وشدة قساوته وشكيمته ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:40] المكذبين المعاندين الذين يفسدون في الأرض بأنواع الفسادات.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وأصروا على تكذيبك، مع وضوح دلائل صدقك ﴿فَقُل﴾ تبريًا وتنزيهًا: ﴿لِّي عَمَلِي﴾ أنا أُجزى بما أعمل ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ تُجزون أنتم أيضًا بما تعملون ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾ منكرون له ﴿وَأَنَاْ﴾ أيضًا ﴿بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:41] بأضعاف براءتكم، فانتظروا بجزاء أعمالكم، وأنا أيضًا أنتظر بجزاء عملي حتى يأتي وقت الجزاء.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يونس:42-46].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ استهزاءً، وأنت تلتفت إلى أسماعهم، وتبالغوا فيه؛ ليتعظوا، وهم لا يسمعون ولا يفقهون؛ لأكنة قلوبهم وصمم أسماعهم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ وتجتهد في إصغائهم وإسماعهم ﴿وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:42] لجهلهم المركوز في جبلتهم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ويعاين دلائل نبوتك ويشاهد أماراتها، ومع ذلك ينكر بك وبنبوتك ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ وتقدر على أسماعه ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ مجبولين بأنهم ﴿لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [يونس:43] لتعامي بصائرهم وأبصارهم، وقساوة قلوبهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ﴾ المستوجبين

للعذاب والنكال ﴿شَيْئًا﴾ مما لحقهم منه ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ﴾ الناسين صرف ما أنعم الله لهم إلى ما خلق لأجله ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:44] بصرفها إلى خلاف ما حكم الله وأظهره له، لذلك استحقوا المقت والانتقام.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: أهواله المتطاولة، وشدائده المترادفة المتتالية إلى حيث يصور عندهم مدة حياتهم في الدنيا ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾ فيها ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ لطول ذلك اليوم وشدة أهواله ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: وهم يعرف بعضهم بعضًا هذا في أول النشر، ثم يشتد عليهم الأمر ويرتفع التعارف والالتفات، ويصير كل منهم رهينة ما كسبت، وبالجملة: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وخاب خيبة عظيمة ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ في الآخرة، وأصروا على ما هم عليه من اقتراف المعاصي، ولم يلتفتوا إلى الأنبياء والذي جاءوا به من عند الله؛ لإصلاح أحوالهم في مبدئهم ومعادهم ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أيضًا ﴿مُهْتَدِينَ﴾ [يونس:45] بطريق الصلاح والصواب من تلقاء نفوسهم بلا إرشاد مرشد.

﴿وَ﴾ لقصورهم عن الرشد والهداية بلا مرشد مهدي ﴿إِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ بالهداية والإرشاد، والسلوك في سبيل الصواب والسداد ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل وصولهم إلى فنائك؛ ليسترشدوا منك، ويستهدوا من زلال هدايتك، ويسترشحوا من رشحات فيضك وجودك ليصفوا من كدر هوياتهم ورين أنانياتهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جميعًا، ضالاً وهاديًا، رجوع الأظلال إلى الشمس ﴿ثُمَّ﴾ بعد رجوعهم ﴿اللَّهُ﴾ المظهر لهم من كتم العدم؛ لحكمية العبودية والعرفان ﴿شَهِيدٌ﴾ مطلع حاضر بعلمه الحضوري ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس:46] من المعرفة والضلال، والإيمان والطغيان يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا

كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس:47-53].

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: فرقةٍ وطائفة ﴿رَسُولٌ﴾ مرسل من عند الله على مقتضى حكمته وحكمه؛ ليهديهم إلى توحيدهَ ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ والعدل الموضوع من عند الله لإصلاح أحوال عباده ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:47] في يوم الجزاء، ولا ينقصون من أجور أعمالهم بل يجازون مقدار ما يقترفون من المعاصي.

﴿وَ﴾ من خبث بواطنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ لك مستنكرًا عليك، مستهزئًا معك يا أكمل الرسل: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي ادعيت إتيان العذاب فيه عين وقته ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿صَادِقِينَ﴾ [يونس:48] في هذه الدعوة، مصدقين لمن يدعي الصدق فيه.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ ولا أقدر أن أكتسب عليها ولها ﴿ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وقدره في سابق قضائه، ومتى لم أقدر على أحوال نفسي، فكيف لي قدرة على استعجال ما في مشيئة الله في غيبه وتعيين وقته؟ مع أنه لم يأذن لي، ولم يوح إلي من عنده سوى أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم سواء كانوا محقين أو مبطلين ﴿أَجَلٌ﴾ معين، ووقت مقدر، مقرر في علم الله ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ الذي عيَّنه الحق؛ لإهلاكهم فيه لا يمكن التخلف فيه إذن لا استعجال ولا استخار ﴿فَلاَ يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:49] أي: لا يمكنهم طلب التأخر لمحةً وطرفةً؛ إذ الساعة مصروفة إلى مطلق الزمان؛ ليدفعوا الضر، ولا يمكنهم أيضًا طلب التقديم؛ ليجلبوا النفع، بل الأمر حتم في وقته، لا يتجاوز عنه أصلاً، فانتظروا فسيجيء أجلكم ووقتكم، وينجز وعدكم.

ومتى كان الأجل مبهمًا، ولم يمكن لأحد أن يعين وقته ﴿قُلْ﴾ لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني أيها المجرمون المستعجلون للعذاب والنكال ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا﴾ أي: حال كونكم بائتين في الليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حال كونكم مترددين فيها، وعلى أي شأن وكل حال يصعب عليكم أمره؛ إذ هو يفزعكم ويفجعكم، وإذا كان حالكم عند نزوله وحلوله هذا ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ سبحانه من طوله؛ إذ كله مكروه ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:50] المستحقون لأنواع العقوبة والعذاب، أتنكرون وتكذبون له

وتصرون على ما أنتم عليه من الكفر والشرك إلى وقت حلول العذاب؟!.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ ونزل ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ ولم ينفعكم الإيمان حينئذ؛ إذ قيل لكم حينئذ من وراء سرادقات العز والجلال: ﴿آلآنَ﴾ أيها الضالون المكذبون آمنتم ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ كُنتُم﴾ من شدة إنكاركم وإصراركم ﴿بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس:51] استهزاء وسخرية.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالله بالخروج عن مقتضى أوامره وتكذيب رسله: ﴿ذُوقُوا﴾ بدل ذوقكم واستلذاذكم بتكذيب الرسل، والاستهزاء بهم ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ المستمر الدائم الذي لا ينقطع أبد الآباد ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ به ﴿إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس:52] في النشأة الأولى من الجرائم العظام والمعاصي والآثام.

﴿وَ﴾ بعد تبليغك إليهم مآل أمرهم وعاقبة حالهم، أنهم ﴿يَسْتَنبِئُونَكَ﴾ ويستخبرونك على مقتضى أكنتهم المستكنة في قلوبهم: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: ما أخبرت به من الوعيدات الهائلة؛ يعني: أجد هو أم هزل وتخويف؟ ﴿قُلْ﴾ مبالغًا في تحقيقه وتقريره: ﴿إِي وَرَبِّي﴾[1] أقسم بربي ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ ثابت محقق عندي بوحي الله وإلهامه، لا شبهة في وقوعه وثبوته ﴿وَمَا أَنتُم﴾ بأمثال هذه الشبهات الواهية والظنون والجهالات ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:53] مسقطين العذاب النازل عليكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (54) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (57)

---

(1) يعني ويستخبرونك أحق هو؟ قل: (إي وربي)، ويعني بلى وربى إنه لحق. فقال جدي: لئن كنت صادقًا، فإنكم تملكون إحدى وسبعين سنة، ولقد بعث الله ﷻ في بني إسرائيل ألف نبى كلهم يخبرون عن أمتك ولم يخبرونا كم تملكون حتى أخبرتنا أنت الآن، ثم قال جدي لليهود: كيف ندخل في دين رجل منتهى ملك أمته إحدى وسبعون سنة، فقال عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه: وما يدريك أنها إحدى وسبعون سنة؟ فقال جدى: أما ألف فى الحساب فواحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون سنة، فضحك رسول الله ﷺ فقال جدي: هل غير هذا؟ فقال النبى ﷺ: «نعم، ﴿المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾» [الأعراف:1-2]. [تفسير مقاتل (1 /4)] بتحقيقنا.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (58)﴾ [يونس:54-58].

﴿وَ﴾ كيف تسقطون عذاب الله عنكم لو فرض ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ وخرجت عن مقتضى أوامر الله ونواهيه ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خزائن ما فيها جميعًا ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ بل بأضعافه وآلافه لو فرض قبول الفدية منها ﴿وَ﴾ بعد افتدائهم هذا ﴿أَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: بهتوا حين عاينوا العذاب وأهوالها، وندموا عما افتدوا بمقابلته، وآيسوا عنها مطلقًا ﴿وَ﴾ لم ينفعهم الفدية أصلاً بل ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ الإلهي ومقتضى حكومته وحكمته ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:54] في جزاء ظلمهم وكفرهم، وكيف يتصور الظلم من الله؛ إذ الكل من أظلال أوصافه وأسمائه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ وحيطة قدرته وعلمه ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَ﴾ ما ظهر في ﴿الْأَرْضِ﴾ من الكائنات والفاسدات يعذب به من يشاء عدلاً منه، ويرحم على من يشاء فضلاً ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعد لعباده من الثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ محقق ثابت لا محالة؛ إذ لا يجري الخلف في وعده أصلاً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لقصور فهمهم، وقلة تدبرهم في أحكامه المبرمة وحكمته المتقنة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:55] حقية وعده، ولا يؤمنون بها جهلاً وعنادًا.

وكيف يشكون ويرددون أولئك المصرون المعاندون في سعة قدرته، وتستبعدون منه إنجاز ما وعده، إذ ﴿هُوَ يُحْيِي﴾ أي: يظهر، ويوجد بالتجلي الحبي أولاً هياكلهم وأشباحهم مع أنهم لم يكونوا شيئًا مذكورًا ﴿وَ﴾ بعد إظهارهم وإحيائهم ﴿يُمِيتُ﴾ ويعدم بالتجلي القهري على ما هم عليه من العدم ﴿وَ﴾ كيف لا يقدر على إعادتهم أحياء للجزاء والحساب بعد إماتتهم؛ إذ هم بجميع أمورهم وأحوالهم ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير في الوجود سواه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [يونس:56] رجوع الأضواء والأظلال إلى الشمس.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسين المنشأ الأصلي والوطن الحقيقي ﴿قَدْ جَاءَتْكُم﴾ لإيقاظكم وانتباهكم ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ وتذكير ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: تشفيه لغليلكم وأكنتكم المستكنة في صدوركم ﴿وَهُدًى﴾ هاديًا لأرباب الغاية والوصول إلى مقر التوحيد ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عامة شاملة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:57] من أصحاب البر والتقوى فعليكم أن تتعظوا وتتذكروا بأحكامه، وتتأملوا في رموزه وإشاراته، وتدربوا في مفاتحه ومطالعه، حتى تتكشفوا منه بقدر وسعكم وطاقتكم ما تتكشفوا، والله الهادي.

إلى جنابه من يشاء من عباده وهو العزيز الحكيم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن تبعك إرشادًا لهم وتذكيرًا: ﴿بِفَضْلِ اللهِ﴾ وحسن قبوله وشرف عزه وحضوره ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ الواسعة المتسعة لجميع مظاهره فليتشرفوا ولينكشفوا ﴿فَبِذَلِكَ﴾ التلذذ والحضور الحقيقي ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ بدل ما لم يتلذذوا ولم يفرحوا بالمستلذات الجسمانية الفانية المتناهية ﴿هُوَ﴾ أي: فرحكم وسروركم الروحاني ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:58] من أهوية نفوسكم ومقتضيات هوياتكم إن كنتم موقنين مخلصين.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس:59-61].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم﴾ أي: أخبروني كيف كفرتم في ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ لَكُم﴾ لمعاشكم وتقوية مزاجكم ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ مسوق إليكم محصل بأسباب سماوي مباح لكم ﴿فَجَعَلْتُم﴾ من تلقاء أنفسكم ﴿مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً﴾ أي: حرمتم بعضه وحللتم بعضًا آخر بلا ورود شرع ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتقريعًا: ﴿اللهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ بهذه التفرقة والقسمة ﴿أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:59] بنسبتها إليه.

﴿وَمَا ظَنُّ﴾ أي: أي شيء ظن أولئك المفترون ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ بأنهم لم يجازوا ولم يؤاخذوا ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ على افترائهم على الله ما لم يصدر عنه، بل إنهم مؤاخذون على جرأتهم على الله وافترائهم به، سيما بعد ورود الزواجر والروادع من الآيات الدالة على امتناعهم عنها فلم يمتنعوا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ بإنزال الكتب وإرسال الرسل المنبهين على ما هو الأصلح لهم وأليق بحالهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ بجهلهم وخبث باطنهم ﴿لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [يونس:60] نعمه بل ينكرون ويكفرون بها عنادًا ومكابرة.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون رسالتك ووحيك من الله وتأييدك من عنده سبحانه؛ إذ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ وأمر من ادعاء الرسالة من الله والتشريع من جانبه بلا إذن منه ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ مدعيًا نزوله من عنده بلا وحيه وإنزاله ﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ﴾ أنتم أيضًا ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ صالح أو طالح، خير أو شر ﴿إِلاَّ كُنَّا﴾ بذاتنا وأوصافنا وأسمائنا ﴿عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ حضراء رقباء، مطلعين على جميع ما جئتم به وقت ﴿إِذْ تُفِيضُونَ﴾ أي: تخوضون وتقصدون الشروع ﴿فِيهِ﴾ أو الذب عنه ﴿وَ﴾ كيف لا نطلع عليها ولا يحيط علمنا بها وشهودنا إياها؛ إذ ﴿مَا يَعْزُبُ﴾ أي: لا يغيب ويبعد ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ ومربيك أيها المظهر الجامع لجميع المراتب الكونية والكيانية والمتخلق بجميع الأخلاق الإلهية ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ كائنةٍ ﴿فِي﴾ أقطار ﴿الأَرْضِ وَلاَ﴾ كائنة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وفضائها ﴿وَ﴾ كيف يعزب ويغيب عن حيطة علمه شيء؛ إذ ﴿لاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ﴾ المقدار ﴿وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:61] ظاهر الإبانة والظهور بالنسبة إلى أرباب الولاء، الباذلين أرواحهم في طريق الفناء، المستغرقين في بحر الوحدة، الفانين عن هوياتهم بالمرة.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس:62-66].

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ﴾ المنخلعين عن لوازم البشرية بالكلية المنسلخين عن مقتضيات أهوية نفوسهم رأسًا ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62] إذ الخوف والحزن إنما هي من لوازم الطبيعة ومن ارتكاب مقتضياتها.

وبعدما انسلخوا عنها وتجردوا عن لوازمها وفانوا في هوية الحق وصاروا ما صاروا، لم يبقَ فيهم مبدأ الخوف والحزن والأمن والسرور؛ إذ لا يتصف الفاني بأمثال هذه الأضداد، وهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله في بداية سلوكهم؛ أي: تحققوا بمقام اليقين

العلمي ﴿وَ﴾ بعد تمكنهم وتقررهم فيه ﴿كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:63] ويحذرون من سطوة سلطنة صفاته الجلالية لانغماسهم بشواغل أهوية الهويات وانهماكهم بعلائق التعينات.

ثمَّ لما استخلصوا منها بالإخلاص والإخبات الصادق ﴿لَهُمُ البُشْرَى﴾ عند الله بالفوز العظيم ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ إذ هم تحققوا بمقام العبودية وتقرروا في مقر التوحيد، ووصلوا إلى ما أظهرهم الحق لأجله وهو المعرفة والشهود ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ التامات الناطقة بالكرامة والبشرى ﴿ذَلِكَ﴾ التبشير الشامل للنشأتين ﴿هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [يونس:64] واللطف الجسيم لأهل العناية من أرباب القبول.

﴿وَ﴾ بعدما تحققت يا أكمل الرسل بولاية الله واتصفت بولائه وفزت بما فزت ﴿لاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الباطل بالكفر والإشراك بالله وتكذيب كتابه، ومنه أنزل إليه، ولا تغتم بتهديدهم إياك ولا تبالِ مفاخرتهم وخيلاءهم بالمال والجاه عليك ﴿إِنَّ العِزَّةَ﴾ المعتبرة العظيمة ﴿للهِ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال، المتوحد بنعوت الكمال والجمال ﴿جَمِيعًا﴾ لا يعتد بعزة هؤلاء الغواة والعصاة، وسيخذلهم الله عن قريب بالقهر والانتقام، وينصرك عليهم بالغلبة والاستيلاء؛ إذ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم الكاذبة الباطلة ﴿العَلِيمُ﴾ [يونس:65] بنياتهم الفاسدة يجازيهم على مقتضى علمه، وينتقم عنهم وفق خبرته.

قل يا أيها النبي الهادي لمن يدعي ربوبية الأظلال الهالكة وألوهية التماثيل الباطلة تنبيهًا لهم وإيقاظًا عن غفلتهم: كيف تدعون أيها الحمقى شركة المصنوع المفضول مع الصانع القديم الحكيم؟! ﴿أَلَا إِنَّ للهِ﴾ أي: تنبهوا أيها المسرفون الجاهلون بقدر الله المتوحد المتفرد بذاته، المتجلي في الآفاق بأسمائه وصفاته، مظاهر ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ من الثقلين، وهم مع فضلهم وشرفهم وعلو شأنهم لا يستحقون الألوهية والربوبية ﴿وَ﴾ كيف يستحق أولئك الجمادات الساقطة عن درجة الاعتبار لذلك ﴿مَا يَتَّبِعُ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ﴾ في ألوهيته مستحقين للعبادة كعبادته إلا الزور الباطل والزائغ الزائل بل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتعبون هؤلاء الضالون المشركون ﴿إِلاَّ الظَّنَّ﴾ والتخمين الناشئ من جهلهم وغفلتهم عن سر هوية الحق في المظاهر كلها؛ لذلك حقروها في مظهر دون

مظهر ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾[1] [يونس:66] أي: ما هم في ادعائهم وحصرهم هذا إلا كاذبون آفكون إفكًا عظيمًا، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس:67-70].

كيف تغفلون عن الله أيها الجاهلون، وكيف تشركون معه غيره أيها المحجوبون ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ بكمال قدرته وحكمته لباسًا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ وتستريحوا من المتاعب ﴿وَ﴾ جعل لكم ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لتهتدوا إلى مطالبكم في أمور معاشكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الجعل والتقدير ﴿لآيَاتٍ﴾ عظام ودلائل جسام على كمال قدرته ومتانة حكمه وحكمته وتوحده في ألوهيته، وتفرده في ربوبيته واستقلاله في التصرف بلا مظاهرة أحد ومشاركة ضد وند ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس:67] سمع تدبر وتدرب واستكشاف تام بعزيمة صادقة صافية عن شوب الغفلة والذهول.

ومن كثافة حجبهم وغشاوة قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ما قدروا الله حق قدره؛ لذلك نسبوا إليه ما هو منزه عنه سبحانه؛ حيث ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾

---

(1) قال الشيخ حقي (160/13): يكذبون فإن الخرص الكذب وكل قول بالظن والتخمين سواء طابق الواقع أم لا، قال الراغب: كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص سواء كان ذلك مطابقًا للشيء أو مخالفًا له من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل الخارص في خرصه، وكل من قال قولاً على هذا النحو يسمى كاذبًا، وإن كان مطابقًا للقول المخبر به، كما حكى عن قول المنافقين في قوله تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله) إلى قوله: (إن المنافقين لكاذبون) يقول الفقير: إسناد المشيئة إلى الله إيمان وتوحيد إن صدر من المؤمن وإلا فكفر وشرك لأنه من العناد والمعصية والجهل بحقيقة الأمر فلا يعتبر.

وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، كيف يكون له ولد ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته عن التعدد مطلقًا، ليس لغيره وجود أصلاً، بل ﴿لَهُ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ظهر عليها سبحانه حسب أسمائه الحسنى وصفاته العليا على مقتضى التجلي الحبي اللطفي بلا انصباغ لها بالكون والتحقق بل بالانعكاس؟ ﴿إِنْ عِندَكُم﴾ أي: ما عندكم أيها الجاهلون بمعرفة الله وحق قدره ﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾ حجة وبرهان ﴿بِهَذَا﴾ الادعاء الكاذب والقول الباطل، بل تتكلمون به افتراء ومراء ﴿أَتَقُولُونَ﴾ وتفترون أيها المفترون ﴿عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [يونس:68] ولا تدركون لياقته لجنابه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا للمكذبين المفترين كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ وينسبون ﴿عَلَى اللهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [يونس:69] ولا يفوزون في النشأة الأخرى بمرتبة التوحيد التي هي معراج أهل الكمال، بل يحصل لهم بافترائهم هذا ﴿مَتَاعٌ﴾ أي: تمتع قليل ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ من الرئاسة والجاه ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿ثُمَّ﴾ بعد تيقنهم وكشفهم فيها ﴿نُذِيقُهُمُ العَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ بدل ما يتلذذون في النشأة الأولى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:70] أي: بسبب كفرهم وشركهم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (71) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (73)﴾ [يونس:71-73].

﴿وَاتْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ تذكيرًا وتعريضًا ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: قصته مع قومه وقت ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ حين استعظموا أمره وقصدوا إهلاكه عنادًا ومكابرة: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه على مقتضى شفقة النبوة ﴿إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي: شق وعظم ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ فيكم، وحياتي بينكم ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إياكم ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على توحيده واستقلاله في ألوهيته وربوبيته ﴿فَعَلَى اللهِ﴾ لا على غيره؛ إذ لا غير معه ولا شيء سواه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ أي: وثقت به وفوضت أمري إليه ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ أي: فعليكم أن

تجمعوا ﴿أَمْرَكُمْ﴾ وتدابيركم في قتلي وإهلاكي ﴿وَ﴾ مع ذلك ادعوا ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ مستظهرين لهم في دفعي ﴿ثُمَّ﴾ بعد تدبيركم واستظهاركم بهم أظهروا عليّ بحيث ﴿لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ أي: لم يبقَ فيه ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ سترة تغتمون بها وتحزنون بسببها، بل رتبوا أمركم على ما تقتضيه نفوسكم وترتضيه عقولكم ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ واصرفوا نحوي ما هيأتم ودبرتم من الأسباب الموجبة لإهلاكي ﴿وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ [يونس:71] أي: لا تمهلوني طرفة بل امضوا على ما أنتم عليه من قتلي وإهلاكي، فإني لا أبالي بكم وبتدابيركم وظهرائكم؛ إذ الله حسبي وعليه توكلي وبه اعتمادي واعتصامي، أذكر لكم بإذنه وأعظكم بوحيه.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وانصرفتم عن تذكيري ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: ليس بسبب توليكم وإعراضكم سؤالي منكم الجعل حتى يشق عليك إعطاؤه فانصرفتم وأعرضتم، بل ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي: ما أجري وجعلي ﴿إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ الذي أمرني به ﴿وَأُمِرْتُ﴾ من عنده ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:72] المسلمين الأمور كلها إليه، المنقادين لحكمه وقضائه؛ إذ الكل منه بدأ وإليه يعود.

ومع ذلك النصح والشفقة والتليين التام المنبعث عن محض الحكمة، والحجج والبراهين الدالة على صدقه في دعواه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ عنادًا ومكابرة، وأصروا على تكذيبه عتوًا واستكبارًا، فأخذناهم بالطوفان؛ لانهماكهم في الغي والطغيان ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن﴾ آمن ﴿مَّعَهُ﴾ من الغرق محفوظين ﴿فِي الْفُلْكِ﴾[1] التي نحتها بيده بوحي الله إياه وتعليمه، وهم قد استهزؤوا معه حين اشتغل بتربيتها ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: أصحاب الفلك ﴿خَلاَئِفَ﴾ من الهالكين، وهم ثمانون مؤمنون بالله مصدقون لرسوله ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس:73] المكذبين لنذيرهم؟ وإلى أين أدى إنكارهم واستكبارهم؟ فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ

(1) يعني في القبضة والأسر وهبت رياح الكرم على المريدين الذين هم في الطريق وفرحوا بما يلحقهم من العناية والرعاية جاءتها ريح عاصف أتت عليهم من موارد القدرة، ما أفناهم عن صفاتهم، وحيرهم في طريقهم، وجاءتهم أمواج القهر، وقهرهم عملهم. [العرائس].

وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:74-78].

﴿ثُمَّ﴾ لما ازداد أولئك الخلفاء الناجون، وتشعبوا أممًا وأحزابًا ودار عليهم الأدوار فصاروا منصرفين عن طريق الحق، مائلين عن سبيل الرشاد ﴿بَعَثْنَا﴾ لإصلاح أحوالهم ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد نوح ﴿رُسُلاً﴾ منهم كل واحد من الرسل ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة والمعجزات الساطعة القاطعة المثبتة لدعواهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: فما تيسر لهم وصح عندهم وثبت لديهم أن يؤمنوا ويصدقوا ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل بعثة الرسل، بل أصروا على ما هم عليه، واعتادوا له بلا تغيير وتبديل لتركب جهلهم المركوز في جبلتهم وخباثة طينتهم ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ﴾ ونختم بختام الغفلة والنسيان ﴿عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس:74] المجاوزين عن حدود الله، الراسخين على التجاوز والعدوان.

﴿ثُمَّ﴾ لما عتوا منهم من عتوا وأخذنا منهم من أخذنا ﴿بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ أي: بعد أولئك الرسل الماضين ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ الذي هو أخوه وظهيره ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ المبالغ في العتو والعناد إلى حيث ادعى الربوبية لنفسه بقوله: أنا ربكم الأعلى ﴿وَمَلَئِهِ﴾ المؤمنين له المعاونين لشأنه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على استقلالنا في الآثار وتفردنا في الألوهية والربوبية وعلى صدق رسولنا في جميع ما جاء به من عندنا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الانقياد، واستقبلوا بالتكذيب والعناد ﴿وَ﴾ هم في سابق علمنا ﴿كَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ [يونس:75] بأعظم الجرائم مستحقين بأشد العذاب؛ لذلك أظهروا ما في استعداداتهم وقابلياتهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ﴾ الحقيق بالاتباع والانقياد ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ بعدما عارضوا معه وقابلوا بمعجزاته ما قابلوا ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم وعنادهم بدل ما صدقوه وآمنوا له بعد ظهور أمره وشأنه: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به هذا الساحر الكذاب ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس:76] عظيم ظاهر فائق على سحر جميع السحرة.

﴿قَالَ مُوسَى﴾ بعدما سمع قولهم هذا يسأل عن إيمانهم، متحسرًا متحزنًا على

مقتضى شفقة النبوة، موبخًا لهم على وجه الفطنة والتذكير: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ أيها الحمقى ﴿لِلْحَقِّ﴾ الصريح الثابت الصحيح ﴿لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ لإصلاح حالكم ليورث في قلوبكم تصديقًا لوحدانية ربكم: إنه سحر باطل ﴿أَ﴾ ما تستحيون من الله ولا تنصفون وتقولون: ﴿سِحْرٌ هَذَا وَ﴾ الحال أنه ﴿لاَ يُفْلِحُ﴾ ولا يفوز بالخير ﴿السَّاحِرُونَ﴾ [يونس:77] وهذا خير كله عاجلاً وآجلاً، وفوز بالفلاح والنجاح.

﴿قَالُوا﴾ على سبيل المكابرة بعدما سمعوا من موسى قوله ونصحه: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ أيها الساحر الكذاب ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ وتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿وَ﴾ اشتهيت أن ﴿تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ والعظمة ﴿فِي الأَرْضِ﴾ التي كنا عليها مستقرين ﴿وَ﴾ اذهبا إلى حيث شئتما ﴿مَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:78] مصدقين منقادين.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)﴾ [يونس:79-86].

﴿وَ﴾ بعدما أفحموا عنه براهينهما وحججهما، وعجزوا عن معجزاتهما صمموا العزم لمعارضتهما؛ حيث ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ آمرًا لأعوانه وأنصاره: ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس:79] ماهر كامل فيه، فأرسلوا شُرَطًا لجميع أهل السحر، فأجمعوا واجتمعوا وجاءوا على فناء فرعون مجتمعين، ثمّ عينوا الوقت والموعد، فخرجوا إليه ليعارضوا معهما.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ الميقات والموعد، قالوا لموسى تحقيرًا له وتهوينًا لأمره: ألقِ ما جئت به من السحر ﴿قَالَ لَهُم مُوسَى﴾ مستعينًا بالله من عنده متوكلاً عليه: ﴿أَلْقُوا﴾ أيها المغترون المكذبون ﴿مَا أَنْتُم مُلْقُونَ﴾ [يونس:80].

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما جاءوا به من السحر واستحسنوا من فرعون واستأملوا منه الجعل الكثير وجزموا الغلبة ﴿قَالَ مُوسَى﴾ بعدما رأى ما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ أيها المفسدون المعاندون ﴿السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع مخايلكم ﴿سَيُبْطِلُهُ﴾ عن قريب، ثمّ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فانقلبوا هنالك صاغرين ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:81] منهم؛ لانهماكهم في الإفساد والإسراف، المصرين على العتو والعناد.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ الثابت من عنده ويقرره في مكانه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: بأوامره ونواهيه وآياته ومعجزاته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[1] [يونس:82] المحرومون عن نور الإيمان والتوحيد ذلك التثبيت والتقرير.

ثم لما ظهر أمر موسى وشاع غلبته وفاق معجزاته على ما جاءوا به من السحر والشعبذة ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ منهم بعد ظهور صدقه بين أظهرهم ﴿إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن﴾ شبان ﴿قَوْمِهِ﴾ أي: بني إسرائيل، وسبب توقفهم بعد الدعوة أنهم ﴿عَلَى خَوْفٍ﴾ وخطر عظيم ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ الذين يجتمعون حولهم من القبط ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ ويصول عليهم ليقتلهم ﴿وَ﴾ كيف لا يخافون أولئك المظلومون؟! ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ المتناهي في العتو والاستكبار ﴿لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ غالب قاهر على جميع من فيها ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:83] بالاستيلاء والبسطة والكبرياء إلى حيث تفوه من غاية كبره بـ: أنا ربكم الأعلى.

﴿وَ﴾ بعدما رأى موسى توقف قومه في أمر الإيمان بعد وضوح البرهان ﴿قَالَ مُوسَى﴾ على وجه العظة والتذكر، وتعليم التوكل والتفويض الذي هو أقوى شعائر الإيمان، مناديًا لهم ليقبلوه عن ظهر القلب: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أراد به بني إسرائيل ﴿إِن كُنتُمْ

---

(1) الإشارة: الأكوان كلها عند أهل التحقيق شعوذة سحرية ، خيالية كخيال السحر الذي يظهره المشعوذ، تظهر ثم تبطن، وليس في الوجود حقيقة إلا الواحد الأحد الفرد الصمد، فهي ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، وهي أيضاً أشبه شيء بالظلال، والظلال لا وجود لها من ذاتها، وإنما تابعة لشواخصها، ولذلك قالوا: ظلال الأشجار لا تعرق السفن عن التّسيار، فظلال الأكوان وأجرامها لا تعوق سفن الأفكار عن التسيار في بحار معاني الأسرار، بل تغيب عن ظلال حسها إلى فضاء شهود معانيها، فالعارف لا يحجبه عن الله شيء؛ لنفوذه إلى شهود أسرار الربوبية في كل شيء، والله تعالى أعلم. انظر [البحر المديد (3 /11)].

آمَنتُم بِاللهِ﴾ الرقيب الحسيب لعباده ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ في جميع أموركم وحالاتكم ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:84] مسلمين أموركم إليه، منقادين لحكمه، وما جرى عليكم من قضائه.

ثم لما سمعوا مقالة موسى تأثروا منها وتذكروا ﴿فَقَالُوا عَلَى اللهِ﴾ المتولي لأمورنا ﴿تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بلطفك وهدانا إلى توحيده ﴿لاَ تَجْعَلْنَا﴾ بحولك وقوتك ﴿فِتْنَةً﴾ أي: محل فتنة ومصيبة ﴿لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:85] الذي قصدوا أن يتسلطوا علينا ويفتنوا بنا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ التي وسعت كل شيء ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس:86] القاصدين ستر الحق بأباطيلهم الزائغة، الكائدين الماكرين مع من توجه نحوك ورجع إليك.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس:87-89].

﴿وَ﴾ بعدما أخلصوا في تضرعهم وتوجههم إلينا ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ أصالة ﴿وَأَخِيهِ﴾ تبعًا ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ أي: خذا مباءة؛ أي: مسكنًا ومبيتًا ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ﴾ وأمر لهم أن يبنوا ﴿بُيُوتًا﴾ فيها ﴿وَ﴾ بعدما بنيتم بيوتًا ﴿اجْعَلُوا﴾ أي: كل واحد منكما ومنهم ﴿بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ ومسجدًا توجهون فيها إلى الله وتتقربون نحوه ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ فيها أي: أديموا الميل والتوجه نحو الحق مخبتين خاشعين مخلصين ﴿وَ﴾ بعدما واظبوا على ما أمروا واستقاموا عليه مخلصين ﴿بَشِّرِ﴾ يا موسى الداعي لهم إلى الحق ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:87] المتوجهين نحوه بالنصرة على الأعداء في الدنيا، والكرامة العظيمة في النشأة الأخرى، والفوز بالوصول إلى فناء المولى.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ بعدما تفرس القبول والإجابة للدعاء، داعيًا على الأعداء: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ﴾ بفضلك وجودك ﴿آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً﴾ يتزينون بها ﴿وَأَمْوَالاً﴾ يميلون إليها

ويفتخرون بها ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولم يشكروا لنعمك بل يكفروا بها يا ﴿رَبَّنَا﴾ وإنما افتخروا وباهوا بحطامهم ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ ضعفاء المؤمنين المتلونين الذين لم يتمكنوا في مقر اليقين ولم يتوطنوا في موطن التمكين ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: امحها واتلفها؛ لئلا يتمكنوا على تضليل عبادك بها ﴿وَاشْدُدْ﴾ ختمك وطبعك ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا﴾ ولا ينكشفوا بالإذعان والقبول ﴿حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ﴾ المعد لهم لكفرهم وإصرارهم ﴿الأَلِيمَ﴾ [يونس:88] المؤلم في غاية الإيلام حين رأوا المؤمنين في سرور دائم ولذة مستمرة وجنة نعيم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه مبشرًا لموسى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ ووقع مناجاتكما في محل القبول، ثنّى الضمير؛ لأن هارون يؤمن حين دعا ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة ولا تفتروا في أمركما هذا، والزما الصبر؛ إذ الأمور مرهونة بأوقاتها ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ﴾ في الاستعجال والاستسراع ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 89] الأدب مع الله في إلحاحهم واقتراحاتهم في طلبه الحاجات.

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يونس:90-95].

﴿وَ﴾ بعدما تمرنوا بالصبر واستقاموا على ما أُمروا مخبتين، فازوا بما ناجوا وطلبوا مؤملين حين ﴿جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ﴾ أي: عبرناهم من البحر سالمين، وذلك حين هم فرعون وملاه أن يكبوا على بني إسرائيل ويستأصلوهم بالمرة، فأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ليلاً فأسرى بهم، فأخبروا فخرجوا على الفور، فأدركوهم

على شاطئ البحر فأوحينا إلى موسى بضرب العصا فضرب، فانفلق وافترق فرقًا، فعبروا سالمين، فلمّا أبصروا انفلاق البحر وعبورهم سالمين ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ فاقتحموا في البحر بلا مبالاة وتأمل ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ ظلمًا وزورًا، علوًا واستكبارًا، فاجتمع البحر وعاد على ما كان فغرقوا ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ﴾ أي: فرعون ﴿الْغَرَقُ﴾ وآيس من حياته وجزم ألا نجاة له أصلاً ﴿قَالَ﴾ في حالة الاضطرار، مصرخًا صائحًا باكيًا، راجيًا الخلاص بمجرد الإقرار: ﴿آمَنتُ﴾ واعترفت ﴿أَنَّهُ﴾ أي: بأنه ﴿لاَ إِلَهَ﴾ يعبد بالحق ﴿إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:90] المنقادين لما جاء به رسوله.

وحين تفوه بها، هتف هاتف من وراء سرادقات العز والجلال قائلاً: ﴿آلآنَ﴾ أيها الطاغي الغاوي الباغي آمنت حين انقرض وقت الإيمان وانقضى زمانه ﴿وَقَدْ﴾ أخذت على ما ﴿عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ في مدة حياتك ﴿وَكُنتَ﴾ في زمان طغيانك وعصيانك الذي هو زمان الإيمان والعرفان ﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:91] بأنواع الفسادات لا من المؤمنين؟!.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ لا ينفعك إيمانك ﴿نُنَجِّيكَ﴾ نخرجك من البحر ﴿بِبَدَنِكَ﴾ بلا روح ونسقطك على الساحل عريانًا ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ من المتجبرين المتكبرين ﴿آيَةً﴾ زاجرة وعبرة رادعة عن العتو والعناد، صارفة عن الجور والفساد ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ الناسين عهودنا وميثاقنا الذي عهدنا معهم في لوح قضائنا ﴿عَنْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على أخذنا وانتقامنا ﴿لَغَافِلُونَ﴾ [يونس:92] مثلك أيها الطاغي.

﴿وَ﴾ بعدما أهلكنا فرعون وملأه ﴿لَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أي: مكنّا وأسكنا ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: مقعد صدق وموضع ثبوت واستقرار وتمكين على ما تقتضيه نفوسهم وترتضيه عقولهم ﴿وَ﴾ بعد تمكينهم وتوطينهم ﴿رَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[1] أي: أطياب

(1) قال في التأويلات: أي: من الفيض الرباني الفائض الروح العلوي بأنهما خلقا متصفين بصفات الروح، وما يلي إلى عالم العلوي من الحضرة من صفة الرحمانية فيفيض من الروح على القلب؛ لأن القلب من الروح بمنزلة العرش من الرب وهو محل استواء صفة الرحمانية من الرب يعني: محل ظهوره هذه الصفة الاختصاصية بقبول فيض هذه الصفة أولاً، كذلك مستوى عرش القلب وهو قابل الفيض الروحانية أولاً، فكل ما فاض من صفة الرحمانية على الروح يفيض الروح على القلب والسر.

الأغذية والفواكه ولذائذها ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمر دينهم قبل نزول الكتاب، بل هم متفقون مجتمعون على ما بلغهم رسولهم وهداهم إليه ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وأنزل عليهم الكتاب، فاختلفوا فيه وتفرقوا فرقًا وتحزبوا أحزابًا، وانحرفوا عن طريق الحق وحرفوا الكتاب، سيما نعتك وحليتك وأوصافك يا أكمل الرسل ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ ويحكم عليهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:93] أي: يفصل بينهم، ويميز محقهم من مبطلهم بالإثابة والعقاب.

﴿فَإِن كُنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي شَكٍّ﴾ وريب ﴿مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ في كتابك من قصصهم وأخبارهم ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ وارجع إليهم لإزالة شكك وحل شبهتك، وتفحص عنهم حتى تنكشف لك ويتحقق عندك ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن﴾ عند ﴿رَّبِّكَ﴾ الصريح المطابق للواقع ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ﴾ فيه ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:94] إذ ليس هذا محلاً للشك والارتياب؛ إذ ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:42] لأنه تنزيل من حكيم عليم.

وبعدما سمعت ما سمعت ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ﴾ ألبتة ﴿مِنَ﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على كمال قدرته ومتانة علمه وحكمته ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس:95] الساقطين عن مرتبة الخلافة، النازلين عن درجة أهل المعرفة والتوحيد.

وأمثال هذه الخطابات والعتابات من الله العليم الحكيم لحبيبه الذي ظهر على الخلق العظيم، وتمكن على الصراط المستقيم، إنما هو حث وترغيب للمؤمنين على ملازمة كتاب الله ومحافظة أوامره ونواهيه، وتثبيت لهم في إيمانهم وتصديقهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: 96-100].

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ﴾ أي: ثبتت وجرت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل في

سابق علمه ولوح قضائه في كفرهم وشركهم ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:96] بدعوتك وتبليغك إليهم الآيات الرادعة الزاجرة والبراهين الساطعة القاطعة.

بل ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ اقترحوها لم يؤمنوا؛ لشدة شكيمتهم وكثافة غشاوتهم ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس:97] المعد لهم من عند العزيز العليم، فاعرض عنهم يا أكمل الرسل ودعهم وأمرهم، فإنَّا ننتقم منهم.

﴿فَلَوْلاَ﴾ أي: فهلا ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من القرى التي أُهلكوا بظلمهم ﴿آمَنَتْ﴾ حين حلول العذاب عليهم، وظهر أماراته كما آمن فرعون حين غشية اليم ﴿فَنَفَعَهَا﴾ في تلك الحالة ﴿إِيمَانُهَا﴾ ونُجي به عن العذاب ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ حين ظهر عليهم أمارات العذاب ولاح علامات الغضب الإلهي، وأخلصوا لله مخبتين خاضعين ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ﴾ الذي يفتضحون به ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لو لم نكشف ﴿وَ﴾ بعدما كشفنا العذاب عنهم ﴿مَتَّعْنَاهُمْ﴾ بأنواع التمتع مترفهين ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [يونس:98] أي: حين حلول الأجل.

وذلك أنه لما بعث يونس إلى «نينوى» قرية من قرى الموصل، كذبوه واستهزءوا به فوعدهم العذاب بعد ثلاث أو أربعين، فلما قرب الموعد خرج من الأفق سحاب غليظ وغيم أسود ودخان شديد، فغشي قريتهم، فهابوا هيبة عظيمة، فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه وهموا إلى الإنابة والتضرع، فلبسوا المسوح وخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرَّقوا بين كل والدة وولدها، وحنَّ بعضها إلى بعض فصرخوا، وتضرعوا إلى حيث علت الأصوات والضجيج، وأظهروا الندامة وأخلصوا التوبة، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء، يوم الجمعة.

﴿وَ﴾ لا تستبعد يا أكمل الرسل أمثال هذه الألطاف من الله الغفور الرحيم ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ وتعلق إرادته بالإيمان من على الأرض ﴿لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يبقَ على وجه الأرض كافر أصلاً بل يؤمنهم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين بلا اختلاف وتفرقة، لكن قضية الحكمة تقتضي الاختلاف والافتراق، والكفر والإيمان، والحق والباطل، والهداية والضلال؛ ليظهر سر التكليفات والتحميلات الواردة من الله على ألسنة رسله وسر المجازاة في النشأة الأخرى، وحكمة خلق الجنة والنار وجميع الأمور الأخروية ومتى جرت حكمة الله على هذا ﴿أَفَأَنْتَ﴾ يا أكمل الرسل من كمال حرصك على تكثير المؤمنين ﴿تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ وتلجئهم إلى الإيمان ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

[يونس:99] جميعًا، مع أن بعضهم مجبولون على الكفر، ولم يتعلق إرادة الله ومشيئته بإيمانهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي: ما تيسر ووسع في وسعها وطاقتها ﴿أَن تُؤْمِنَ﴾ بالله باختيارها ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ وتوفيقه وإقداره، فعليك يا أكمل الرسل ألا تجهد نفسك في إهداء من أراد الله إضلاله؛ لأنك ﴿لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:56] وهو العزيز الحكيم ﴿وَ﴾ من حكمته أنه ﴿يَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ أي: الخذلان والحرمان ﴿عَلَى﴾ الكافرين ﴿الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:100] أي: لا يستعملون عقولهم التي هي مناط التكاليف إلى ما خُلق لأجله، ولا يتفكرون ويتأملون في الآثار الصادرة من القادر المختار حتى ينكشفوا بتوحيده.

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يونس:101-105].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على مقتضى مرتبة النبوة؛ تهييجًا لهم وتحريكًا على استعدادهم وقابليتهم: ﴿انظُرُوا﴾ أيها المجبولون على النظر والتأمل ﴿مَاذَا﴾ أي: أي شيء وذات ظهر بحسب أسمائه وصفاته ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات والغيوب والشهادات ﴿وَ﴾ إن كان ﴿مَا تُغْنِي﴾ وتكفي ﴿الآيَاتُ﴾ الدالة على وحدة الذات المتجلي في جميع الكوائن والجهات ﴿وَالنُّذُرُ﴾ المبين للآيات، المنبهين على مدلولاتها ﴿عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:101] أي: لم يتعلق إرادة الله بإيمانهم وتوحيدهم وعرفانهم.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون أولئك المتمردون على الإيمان ﴿إِلاَّ مِثْلَ﴾ ما وقع على أمثالهم من الخسف والكسف والغرق وغير ذلك من المعايب التي وقعت في ﴿أَيَّامِ﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإن عارضوا معك بمثل ما

عارضت معهم مثل ما سلف من أسلافهم مع أنبيائهم ورسلهم ﴿قُلْ﴾ لهم تبكيتًا وإلزامًا: ﴿فَانتَظِرُوا﴾ لمقتي وهلاكي ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:102] لكن لمقتكم وهلاككم، فالأمر بيد الله وقبضة قدرته ومشيئته.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أهلكنا الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل وإصرارهم على الكفر والشرك ﴿نُنَجِّي﴾ مما أصابهم ﴿رُسُلَنَا﴾ الذين أرسلناهم إليهم ﴿وَ﴾ ننجي أيضًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بنا وصدقوا رسلنا وانقادوا بما جاءوا به ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إنجائنا إياهم ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ تفضلاً منا وامتنانًا على عبادنا ﴿نُنجِ﴾ جميع ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [يونس:103] المنقادين لرسلنا المتدينين بديننا، وعلى ذلك جرت سنتنا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمترددين في أمرك ودينك المتمردين عن إطاعتك وانقيادك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ﴾ وريب ﴿مِّن دِينِي﴾ الذي هو أسدّ الأديان وأصحها وأشملها وأشرف الملل وأكملها؛ إذ هو مرجع كل الأديان كما هو مبدؤه؛ لابتنائه على توحيد الذات التي اضمحلت دونها جميع الكثرات، ومع ظهور فضله وكماله ووضوح حجته وبرهانه وعلو شأنه أنتم تشكون فيه فأنا أحق أن أشك فيما أنتم عليه وعبدتم إليه ﴿فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ لقصورهم عن المعبودية وعدم استحقاقهم للألوهية والربوبية ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: أعدمكم ومعبوداتكم بعدما أظهركم وإياهم من العدم ﴿وَأُمِرْتُ﴾ من عنده ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:104] الموقنين لتوحيده المنقادين لحكمه.

﴿وَ﴾ أيضًا أمرت من عنده ﴿أَنْ أَقِمْ﴾ واستقم ﴿وَجْهَكَ﴾ أي: بوجهك الذي هو يلي الحق ﴿لِلدِّينِ﴾ الذي أنزل إليك لإصلاح حالك حال كونك ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً على

---

(1) قال المحقق روزبهان: إن الرسل وأتباعهم من المؤمنين محفوظون بنور عنايته عن اقتحام قهره عليهم، نجّا الأنبياء والمرسلين من حجاب الخطرات، ونجّا العارفين من حجاب الشهوات، ونجّا المؤمنين من غارات إبليس وسلب الشياطين إيمانهم برعايته القديمة المقرونة بمحبته الأزلية إياهم؛ لأن من أحبّ أحدًا حفظه عن مهالك البعد منه. ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ منا، وننجي المؤمنين من قهرنا الأنبياء في عين الجمع، وهم في عين التفرقة، هم في الذات، وهم في الصفات، وكان ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ نجاة العارفين؛ لأنا اصطفيناهم في الأزل بالكرامات والولايات، ومن اصطفيناه حقًّا علينا الوفاء بما أخبرنا عن نفسنا في حقه.

جميع الأديان الباطلة والآراء الفاسدة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لاَ تَكُونَنَّ﴾ بعدما ظهر عليك حقية دينك ﴿مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ [يونس:105] الذين يدعون الوجود لغير الله ويشركون معه سبحانه وتعالى عنادًا ومكابرةً.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس:106-109].

﴿وَ﴾ متى عرفت حقيقة الحال وظهر عندك جلية المقال ﴿لاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ﴾ الواجب وجوده ﴿مَا لاَ يَنفَعُكَ﴾ من الموجودات الباطلة والأظلال الزائلة ﴿وَلاَ يَضُرُّكَ﴾ أيضًا؛ إذ لا أثر لها من ذاتها ولا وجود لها من نفسها ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ وادعيت وجود غير الحق ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:106] الذين يظلمون على الله بادعاء الوجود والأثر لغيره.

﴿وَ﴾ كيف تدعي وتثبت لغيره وجودًا وأثرًا ﴿إِن يَمْسَسْكَ اللهُ﴾ الرقيب عليك ويصيبك ﴿بِضُرٍّ﴾ يسوءك ويحزنك ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ﴾ ولا يدفع عنك ضرره ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ إذ لا شيء سواه ولا إله إلا هو ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يسرك تفضلاً عليك وامتنانًا لك ﴿فَلَا رَادَّ﴾ ولا دافع ﴿لِفَضْلِهِ﴾ عنك ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالفضل والحسنى ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ﴾ لا يمنع فضله جرائمهم وعصيانهم؛ إذ ﴿هُوَ الغَفُورُ﴾ لذنوبهم بعد استغفارهم ورجوعهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ [يونس:107] عليهم يقبل توبتهم ويتجاوز عن سيئاتهم.

﴿قُلْ﴾ يا من بُعث لكافة البرايا وأُرسل إليهم بالتوحيد الذاتي الذي ختم به أمر التشريع والإرسال والإنزال، بلغ إليهم ما جئت به من ربك، مناديًا عليهم ليقبل بقبوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المكلفون بالعبادة والعرفان ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ﴾ الصريح ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو الإسلام المبين لشعائر المعرفة والتوحيد ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ بالإسلام إلى التوحيد ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ ويكتسب الهداية لها ونال ثوابها إليها ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ ولم يهتدِ

بنور الإسلام ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ويقترف الضلالة لنفسها، فعاد وبالها عليها، قل لهم أيضًا: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس:108] حفيظ، كفيل لأموركم ضمين لها، بل ما أنا إلا بشير ونذير أبلغكم ما أرسلت به، فلكم الخيار وعليكم الإختيار.

﴿وَاتَّبِعْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ من ربك وامضِ عليه، وبلغ الناس ﴿وَ﴾ لا تبالي بإعراضهم وتكذيبهم، بل ﴿اصْبِرْ﴾ على أذاهم وتحمل مكروهاتهم، ولا تفتر عن دعوتك إياهم ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ المتولي لأمورك بنصرك وغلبتك عليهم بالقتال وبنسخ دينك جميع الأديان وبنشره في جميع الأقطار ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس:109] إذ هو مطلع على سرائر الأمور وخفاياها، قادر على جميع الانتقام لمن أراد مقتك وأعرض عنك.

ربِّ احكم بالخير والحسنى ووفقنا على متابعة سيد الورى.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لتحقيق الحق، العازم على طريق التوحيد والعرفان، المستكشف عن رموز أهل الكشف وأرباب المحبة والولاء - أنجح الله آمالك، ويسر الله مآلك ويصونك عما عليك - أن تحافظ على شعائر دين الإسلام الذي هو الحق الصريح المنزل على خير الأنام بالعزيمة الصحيحة الخالصة عن شوب الرياء والسمعة، الصافية على قدر الغفلة والهوى، وتلازم الاستفادة والاسترشاد من كتاب الله وأحاديث رسوله - صلوات الله عليه وسلام - وما سمحت به أكابر الصحابة، سيما الحضرة الرضوية المرتضوية وأولاده الكرام - سلام الله عليهم وكرم الله وجوههم - والتابعين لهم بإحسان - رضوان الله عليهم أجمعين - وما جاد به المشايخ العظام والأماجد الكرام، أنار الله براهينهم، وقدس أسرارهم.

وكن في عزمك هذا متوجهًا إلى قبلة التوحيد وكعبة الذات مائلاً عن الأديان الباطلة والآراء الفاسدة، مصفيًا قلبك عن إمارات الكثرة والتعدد إلى حيث ارتفع عنك الالتفات إلى نفسك وشأنك حتى يحل عليك الحيرة المغنية لهويتك في هوية الحق المسقطة لتعينك رأسًا، ولا يتيسر لك هذا إلا بالركون عن لوازم الطبيعة والخروج عنها وعما يترتب عليها من اللذات الوهمية والمشتهيات البهيمية التي هي مقتضيات التعينات العدمية والتشخصات الهيولانية.

ومتى صفت سرك وسيرتك عن أمثال هذه المزخرفات العائقة عن الاستغراق في

بحر الذات، فزت بما فزت، وصرت بما صرت، وحكم الله عليك بالخير والحسنى وأسكنك عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، وليس وراء الله مرمى، لا حول ولا قوة إلا بالله، هو يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

تم بحمد الله تعالى الجزء الأول من مخطوط تفسير شريف لحضرة سلطان العارفين الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة هود عليه السلام

لا يخفى على ذوي البصيرة والاستبصار وأولي الخبرة والاعتبار من المنقطعين نحو الحق، المتأملين في كشف غوامض أسرار توحيده بقدر الاستطاعة والاقتدار بتوفيق من الحكيم القدير، المجبولين على الحكمة والتدبير من لدن حكيم خبير، أن مبنى الأمر ومناط هذا الشأن العظيم الذي هو التوحيد والعرفان إنما هو على العبودية والتذلل التام والانكسار المفرط المفضي إلى إفناء الهويات الباطلة في هوية الحق الحقيق بالحقية وفناء التعينات العدمية فيها، وذلك لا يحصل إلا بمتابعة الرسول البشير والنذير، المؤيد من عند العليم القدير، ليرشدهم ويهديهم بالتوجه والتبتل إلى اللطيف الخبير؛ إذ مرجع الكل إليه كما أن مبدأه من عنده ومصدره لديه ومعاده عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود:6].

لذلك أخبر سبحانه لرسوله المبعوث على كافة الخلق، المبين لهم طريق الرشاد في كتابه المنزل عليه بعد إحكام آياته وتفصيلها؛ تأييدًا له وتقوية لأمره، ليهدي به التائهين عن جادة التوحيد، المنصرفين نحوها بمتابعة الشيطان المريد، فقال متمنيًا باسمه العظيم ومخاطبًا على رسوله الكريم: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي أحكم آيات كتابه الدالة على توحيد ذاته لتكون موصلة إليه سبحانه لمن تمسك بها ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عباده بتفصيل تلك الآيات تسهيلاً عليهم وتوضيحًا ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يأمرهم بالعبادة والتذلل ليتحققوا بمرتبة حق اليقين الذي هو الصراط المستقيم.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ [هود:1-6].

﴿الر﴾ أيها الإنسان الأحق الأليق لإعلاء لواء لوازم أنوار الألوهية وارتفاع رايات رموز أسرار الربوبية بين الأنام بالبيان والتبيان هذا ﴿كِتَابٌ﴾ أنزل إليك لتأييدك في أمرك، مصدق لما في الكتب السالفة جامع لأحكامها ﴿أُحْكِمَتْ﴾ ونظمت ﴿آيَاتُهُ﴾ أشد تنظيم وأبلغ إحكام وإتقان بحيث لا يعرضه خلل واختلال لا في معناه ولا في لفظه؛ لذلك عجزت عن معارضته جميع أرباب اللسن والفصاحة مع وفور وعيهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد إحكامه لفظًا ومعنى ﴿فُصِّلَتْ﴾ وأوضحت فيه من المعارف والحقائق والأحكام المتعلقة بالعقائد والعلوم اليقينية، والقصص المشيرة إلى العبر والمواعظ والأمثال المشعرة إلى الرموز والإشارات ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ متقن في أفعاله ﴿خَبِيرٍ﴾[1] [هود:1] يصدر عنه الأفعال على وجه الخبرة والاعتبار.

وحكم فيه ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ أيها المجبولون على العبادة في الفطرة الأصلية ﴿إِلاَّ اللهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، الذي أوجدكم من كتم العدم باستقلاله إيجادًا إبداعيًا، وقل لهم يا أكمل الرسل تبشيرًا وتنبيهًا: ﴿إِنَّنِي﴾ مع كوني من جملتكم ﴿لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من الله المتوحد بذاته بأمره ووحيه ﴿نَذِيرٌ﴾ أنذركم عما يبعدكم عن الحق، حتى لا تستحقوا عذابه وعقابه ﴿وَبَشِيرٌ﴾ [هود:2] أبشركم ما يقربكم إلى جنابه، حتى تستحقوا الفوز العظيم من عنده.

---

(1) قال في التأويلات: ﴿الر﴾ يشير بالألف: إلى الله، وباللام: إلى جبريل، وبالراء: إلى الرسول؛ يعني: ما أنزل الله مع جبريل إلى الرسول، ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ يعني: القرآن كتاب أحكمت بالحكم آياته، كقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:151] فالكتاب: هو القرآن، والحكمة: هي الحقائق والمعاني والأسرار التي أدرجت في آياته، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: بينت لقلب العارفين تلك الحقائق والحكم ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ [هود:1] أودع فيها بالحكمة البالغة التي لا يقدر غيره أبدًا عليها فيها، وهذا سر من أسرار إعجاز القرآن، ﴿خَبِيرٍ﴾ [هود:1] على تعليمها من لدنه لمن يشاء من عباده كقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف:65] يشير إلى أن القرآن ظهرًا يطلع عليه أهل اللغة.

﴿وَ﴾ حكم فيه أيضًا ﴿أَنِ اسْتَغْفِرُوا﴾ واسترجعوا في فرطاتكم ﴿رَبَّكُمْ﴾ الذي أوجدكم على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وتوصلوا به بعد رفع حجب الأنانية عن البين، وكشف سدل التعينات الوهمية عن العين ﴿يُمَتِّعْكُمْ﴾ بعد اضمحلال رسومكم وتلاشي هوياتكم في هويته بالرزق المعنوي والغذاء الحقيقي من عنده ﴿مَتَاعًا حَسَنًا﴾ على مقتضى نشأته وأوصافه وأسمائه وتطورات تجلياته الجمالية والجلالية ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو الطامة الكبرى التي انقهرت دونها توهمات الأظلال وتخيلات السوى والأغيار.

﴿وَ﴾ بعد تسييركم وتنزيلكم من عالم الغيب متنازلين إلى عالم الشهادة لاقتراف الحقائق والمعارف، وترجيعكم منها إليها متصاعدين إظهارًا لقدرته وبسطته ﴿يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ أي: ليؤتِ ويعط كلاً من ذوي العناية الموفقين على الهداية التي جبلوا لأجلها ﴿فَضْلَهُ﴾ أي: حقه وجزاءه، أي: قبل منهم ما اكتسبوا من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات وأقرهم في النهاية على مقر نزلوا منه في الهداية ﴿وَ﴾ قل لهم يا أكمل الرسل إمحاضًا للنصح: ﴿إِن تَوَلَّوْا﴾ وتعرضوا وتنصرفوا أيها المجبولون على التكليف عن مقتضى إنذاري وتبشيري ﴿فَإِنِّي﴾ من غاية إشفاقي لكم وتحنني نحوكم ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:3] أي: نزول العذاب يوم العرض الأكبر الذي أشرقت فيه شمس الذات إلى حيث اضمحلت الأظلال والعكوس مطلقًا، ونودي من وراء سرادقات العز والجلال بلا تزاحم الأظلال والأغيار: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ وأجيب أيضًا من ورائها: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16].

واعلموا أيها الأظلال المقهورة ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتجلي في الآفاق بالاستقلال والاستحقاق ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ورجوعكم رجوع الظل إلى ذي الظل والعكوس إلى ما انعكس منها ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه في ذاته قاهر فوق عباده ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من صور العذاب والانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ [هود:4] لا يخرج عن حيطة قدرته شيء، ولا يعزب عن علمه معلوم، مما جرى عليهم من الأحوال.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ أي: المحجوبون الغافلون من غاية جهلهم وغفلتهم عن الله ﴿يَثْنُونَ﴾ أي: يقطعون وينحرفون ﴿صُدُورَهُمْ﴾ عن الميل إلى الحق والتوجه نحوه طالبين ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أي: يستروا ويخفوا من الله ما تكمن صدورهم من الإعراض عن الحق بأوامره ورسله ﴿أَلَا﴾ إنهم لم يعلموا ولم يتفطنوا أن الله المطلع بجميع ما

جرى في ملكه يعلم منهم ما جرى عليهم وظهر منهم ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يطلبون التدثر والتغطي وقت رقودهم في مضاجعهم، بل ﴿يَعْلَمُ﴾ منهم ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بأفواههم ومشاعرهم، وكيف لا يعلم سبحانه ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود:5] وبما هو مكنون فيها من السرائر والضمائر.

﴿وَ﴾ كيف يستبعد أمثال هذا من حيطة حضرة علمه؛ إذ ﴿مَا مِن دَابَّةٍ﴾ تترك ﴿فِي الأَرْضِ﴾ مثلاً ﴿إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ المتكفل لأرزاق مظاهره ومصنوعاته ﴿رِزْقُهَا﴾ أي: ما تعيش وتتقوم به ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَعْلَمُ﴾ منشأها ومصدرها في عالم الغيب، ويعلم أيضًا ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: محل قرارها وبقائها في عالم الشهادة، ومقدار ثباتها واستقرارها فيها ﴿وَ﴾ يعلم أيضًا ﴿مُسْتَوْدَعَهَا﴾[1] ومرجعها في عالم الغيب بعد انقضاء النشأة الأولى، وبالجملة: ﴿كُلٌّ﴾ من الأحوال والأطوار والنشأة الطارئة عليها بحيث لا يشذ شيء منها محفوظ مثبت ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:6] هو حضرة علمه ولوح قضائه، فكيف تنكرون أيها المنكرون إحاطة علمه، وتستخفون منه شيئًا من مخايلكم؟!.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى في التأويلات: يعلم الذي تؤل إليه عند استكمال صورتها ومعناها المستودع فيها، وللإنسان خاصة يعلم مستقر روحه في عالم الأرواح أكان في الصف الأول، أو في الثاني، أو في الثالث، أو في الرابع، فإنه جاء في معنى حديث النبي ﷺ أنه قال: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» إن الأرواح كانت في أربعة صفوف: كان في الصف الأول: أرواح الأنبياء وأرواح خواص الأولياء، وفي الصف الثاني: أرواح الأولياء وأرواح خواص المؤمنين، وفي الصف الثالث: أرواح المؤمنين والمسلمين، وفي الصف الرابع: أرواح الكفار والمنافقين، ويعلم مستودع روحه عنه استكمال مرتبة كل نفس منهم من دركات النيران، ودرجات الجنات إلى مقدر صدق عند مليك مقتدر.

كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود:7-11].

﴿وَ﴾ أني يعزب ويغيب عن علمه شيء؟! ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: أظهر وأبدع ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: العلويات والسفليات اللتين هما بمثابة الآباء والأمهات والفواعل والقوابل لنشأتكم وظهوركم ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ليحيط بالجهات كلها ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ﴾ أي: مجلاه ومحل بروزه على الماء، وتشعشع تجلياته قبل ظهور هذه المظاهر والمكونات ﴿عَلَى المَاءِ﴾ أي: على الحياة الحقيقية الخالية عن التغيرات والانقلابات المتوهمة من التعينات العدمية والتشخصات الهيولانية، وإنما أظهرها على هذا التمثال وأوجدها على هذا المنوال ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم أيها الأظلال والعكوس ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وقبولاً، وأتم توجهًا ورجوعًا، وأكمل تحققًا ووصولاً في يوم الجزاء.

﴿وَ﴾ بعدما نبههم الحق على ما هو الحق، وأوجدهم على فطرة الفطنة والذكاء بمبدئهم ونشأتهم الأصلية ﴿لَئِن قُلْتَ﴾ يا أكمل الرسل تذكيرًا لهم وإصلاحًا لحالهم: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ﴾ للحساب والجزاء وتنفيذ الأعمال، فعليكم أن تتهيأوا لها وتدخروا لأجلها حتى لا تؤاخذوا ولا تعاقبوا ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم من كمال غفلتهم وقسوتهم بعدما سمعوا منك قولك هذا: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما الذي تقول به هذا الرجل إن وقع وتحقق ﴿إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود:7] عظيم؛ إذ إحياء الموتى من العظام الرفات لا يتصور إلا بالسحر الخارق للعادات، فإن وقع فهو في غاية العظمة ونهاية الغرابة.

﴿وَ﴾ بعدما استوجبوا لأسوأ العذاب واستحقوا لأليم العقاب بكفرهم وإنكارهم ﴿لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ﴾ المعد لهم؛ أي: إتيانه ﴿إِلَى أُمَّةٍ﴾ أي: جماعة من الأيام والأوقات ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾ قلائل ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ مستهزئين مستسخرين من غاية جهلهم وإنكارهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي: يمنعه عن إتيان ما يدعيه من العذاب ووقوع ما يعد به من الأخذ والبطش ﴿أَلاَ﴾ تنبهوا أيها المؤمنون وتذكروا ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب، واعلموا يقينًا أن العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ حينئذ، ساقطًا عن ذمتهم، بل نزل عليهم ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ حتمًا ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود:8] من العذاب الموعود

وقت إنذار الرسول.

﴿وَ﴾ من غاية لطفنا وجودنا إلى الإنسان، ونهاية إحساننا معه وتفقدنا لحاله ﴿لَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ﴾ المجبول على النسيان والكفران وأعطيناه ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ ونعمة تسره وتفرج همه ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ ومنعناها عنه؛ إظهارًا لقدرتنا وكمال بسطتنا ﴿إِنَّهُ﴾ من قلة تصبره وغاية ضعفه وتكسره ﴿لَيَئُوسٌ﴾ قنوط من فضلنا ورحمتنا ﴿كَفُورٌ﴾ [هود:9] لما وصل إليه من نعمتنا.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ وأنعمنا عليه ﴿نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي: أعجزته وأزعجته ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ مفتخرًا مباهيًا بطرًا ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ﴾ المؤلمة المحزنة ﴿عَنِّي إِنَّهُ﴾ من غاية غفلته عن المنعم ﴿لَفَرِحٌ﴾ بطر فرحان ﴿فَخُورٌ﴾ [هود:10] مغرور مفتخر بما في يده من النعم، مشغول بها عن شكرها وأداء حقها.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما أصابهم من السيئات المملة المؤلمة، واسترجعوا إلى الله لكشفها ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وواظبوا على الخيرات والحسنات وداوموا على الإيثار والصدقات؛ شكرًا لما أنعمنا عليهم ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء الصابرون عن البلاء، الشاكرون على النعماء ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: ستر ومحو لذنوبهم التي مضت عليهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود:11] هو الرضاء منهم تفضلاً عليهم وامتنانًا.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود:12-16].

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا أكمل الرسل من غاية ودادك إيمانهم ومحبتك متابعتهم ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ من عندنا، مشتملاً على توبيخهم وتقريعهم وزجرهم وتشنيعهم؛ كراهة أن يركنوا عنك وينصرفوا عن متابعتك ﴿وَضَائِقٌ﴾ أي: بسبب ما يوحى إليك

﴿بِهِ صَدْرُكَ﴾ مخافة ﴿أَن يَقُولُوا﴾ حين أظهرت عليهم بما أوحيت به: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ بدل هذه التوبيخات والتقريعات من عند ربه ليتابع الناس له ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ مصدق لنبوته ورسالته ليطيعوا ويؤمنوا له طوعًا بلا كلفة، لا تبالِ يا أكمل الرسل بهم وبقولهم ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ بلغ ما أنزل إليك من إنذارهم وتخويفهم، ولا تلتفت إلى ردهم وقبولهم، وتوكل على دينك وثق به، فإنه يكفي عنك مؤنة شرورهم وضررهم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنهم ﴿وَكِيلٌ﴾ [هود:12] عليهم يعلم منهم ما هو مستوجب العقوبة والعذاب، وما هو قوي للنوال والثواب، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته، أو لم يكف بتصديقك القرآن المعجز لأرباب اللسن والبيان في تشددهم في المعارضة والمقاتلة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ مكابرة وعنادًا: ﴿افْتَرَاهُ﴾ واختلقه من تلقاء نفسه ونسبه إلى الوحي ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل حين نسبوك إلى الافتراء والاختلاق: ﴿فَأْتُوا﴾ أيها المكابرون المعاندون ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: مثل أقصر سورة من سور القرآن ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ مختلفات على ما زعمتم مع أنكم أحق باختلافها؛ لكثرة تمرنكم وتزاولكم في أمر الإنشاد والإنشاء، وتتبع كلام البغاء والتعود بممارسة القصص والقصائد، وإن عجزتم عن اختلاقها بأنفسكم، فاستظهروا بإخوانكم ومعاونيكم ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ واتفقوا معهم في اختلاقها ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود:13] في ظنكم هذا.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ولم يأتوا بما تحديتم لهم ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون واطمأنوا وتيقنوا ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ وبكمال قدرته وإرادته، لا يمكن لأحد من مظاهره ومصنوعاته أن يأتي بمثله ويعارض معه، وكيف لا يعارض معه؛ إذ لا شيء سواه ﴿وَأَن لَّا إِلَٰهَ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:14] منقادون لحكمه مسلمون أموركم كلها إليه، مخلصون مطمئنون، متمكنون في جادة التوحيد، بل أنتم أيها الموحدون المحمديون هكذا.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير: ﴿مَن كَانَ﴾ بارتكاب الأعمال واحتمال شدائدها ومتاعبها ﴿يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ المزخرفة التي تترتب عليها من الأموال والأولاد ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ لأجلها ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:15] أي: لا ينقص شيء من أجور أعمالهم في النشأة الأولى إن كان غرضهم مقصورًا عليها، محصورًا بها.

وأمّا في النشأة الأخرى ﴿أُوْلَئِكَ﴾ القاصرون المقصرون هم ﴿الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ أي: لم يبقَ لهم مما يترتب على أعمالهم فيها ﴿إِلاَّ النَّارُ﴾ إذ حسناتهم توفى إليهم في النشأة الأولى ولم يبقَ لهم إلا توفية السيئات، وليس توفية السيئات إلا بالنار وما يترتب عليها من العذاب والآلام ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿حَبِطَ﴾ وضاع واضمحل ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: في النشأة الأولى من الخيرات والمبرات بإرادتهم الأمور الدنيوية لأجلها ﴿وَ﴾ صار بعدم إصلاحهم وعكس مرادهم ﴿بَاطِلٌ﴾ فاسد مقتضى ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:16] من الصالحات فيها، وإن ظهر على صورة الصالحات.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [هود:17-19].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[1] أي: تظنون وتحسبون أن من انكشف له برهان واضح وكشف صريح وشهود محقق من قبل ربه، وتحقق بمقام التوحيد، وبسريان وحدة الذات في جميع الكائنات والفاسدات ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَتْلُوهُ﴾ يطرأ عليه ويجري على لسانه ﴿شَاهِدٌ﴾ ناطق بتصديقه نازل ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من عند ربه؛ امتنانًا له وتفضلاً عليه، يريد ويقصد من أفعاله وأعماله الصادرة عنه ظاهرًا مثل ما أراد أولئك المحجوبون المستورون عن الحق، وإحاطته وشموله واستقلاله في الآثار الظاهرة في

(1) قال ابن عجيبة في «البحر المديد»: أي: من شهد مقام الله ﷻ بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زُين له سُوء عمله، واتبع هواه، فآثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده. وقال الورتجبي: تقدير الآية على وجه الاستفهام: أفمن كان على بينة من ربه؛ كمن هو في الضلالة والجهالة؟ أفمن كان على معرفة من ربه، وولاية وسلامة وكرامة، وكل عارف إذا شاهد الحق سبحانه بقلبه وروحه، وعقله وسره، فأدرك فيض أنوار جماله، وقربه، يؤثر ذلك في هيكله حتى يبرز من وجهه نور الله الساطع، ويراه كل صاحب نظر.

الآفاق، كلا وحاشا ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:9] وما يتذكر إلا أولو الألباب.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون شهادة القرآن على تصديق خير الأنام؛ إذ ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل القرآن جاء ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ من قبل مصدقًا له في دعواه وصار من عموم حكمه ﴿إِمَامًا﴾ أي: قدوة لقاطبة الأنام ﴿وَرَحْمَةً﴾ شاملة للخواص والعوام؛ لإهدائهم إلى دار السلام ﴿أُوْلَئِكَ﴾ أي: أهل التوراة، وهم الذين يؤمنون بها ويمتثلون بما فيها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بحقية القرآن لكونه مذكورًا في التوراة المنزل عليهم ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: القرآن وبحقيته ﴿مِنَ الأَحْزَابِ﴾ المتحزبين مع المحرفين للتوراة، المنحرفين عن جادة الإيمان ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ لا بدّ أن يرد عليها على مقتضى العدل الإلهي ﴿فَلاَ تَكُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ شك وارتياب ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من ورودهم عليها إنجازًا لوعده ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ النازل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لا بدّ أن يتحقق وقوعه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لانهماكهم في الغفلة وغلظ حجابهم عن الله ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [هود:17] بحقيته وحقية وعده وإنجازه الموعود؛ لذلك حرفوا ما جاء من عنده في كتابه، وزادوا عليه ما لم يجيء منه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ عمدًا، وحرف كتابه بتنقيص شيء منه أو زيادة عليه ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المحرفون المجترئون على الله بتبديل آياته ﴿يُعْرَضُونَ﴾ في يوم العرض الأكبر ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ويسألون عما فعلوا بكتاب الله، فينكرون ويستنزهون أنفسهم عنه ﴿وَيَقُولُ الأَشْهَادُ﴾ من أعضائهم وجوارحهم إلزامًا لهم: ﴿هَؤُلاءِ﴾ المسرفون المعاندون ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وحرفوا كتابه افتراء ومراء، ظلمًا وعدوانًا، وبعد إشهاد هؤلاء الأشهاد، نودي من وراء سرادقات العز والجلال؛ تفضيحًا لهم وتخذيلاً على رءوس الأشهاد: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ﴾ وطرده وإبعاده عن سعة رحمته ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:18] المجاوزين عن مقتضى حكمه وحكمته عنادًا ومكابرة.

وهم ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون عبادِ الله ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ الذي هو الشرع المنزل من عنده على أنبيائه ورسله بالعدالة والتقويم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يريدون أن يحدثوا فيها عوجًا وانحرافًا؛ ليصرفوا ويرتدوا منها أهلها بعد إيمانهم بها وانقيادهم إليها فاستحقوا العذاب والنكال الأخروي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُم بِالآخِرَةِ﴾ المعدة

للجزاء والانتقام ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود:19] منكرون لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود:20-24].

﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المسرفون المفترون على الله، المفرطون في تحريف كتابه ﴿لَمْ يَكُونُوا﴾ من أهل الإعجاز حتى صاروا ﴿مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ كل من تحدى معهم ويعارضهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ حتى ينصروهم ويحفظوهم عن عذاب الله إياهم إن تعلق إرادته بتعذيبهم في الدنيا، وإنما أمهلهم وأخر عذابهم إلى يوم الجزاء؛ ليقترفوا من موجباته وأسبابه أكثر مما كانوا عليه، حتى يدوم وبالها لأجلهم، بل ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ العَذَابُ﴾ لأنهم بسبب إعراضهم عن الحق ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ لأن في آذانهم وقرًا عن استماعه ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:20] لتعاميهم عن أبصار آثاره ودلائله.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ المعزولون عن استماع كلمة الحق وإبصار علاماته هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالافتراء على الله بما لا يليق بجنابه بإشراك مصنوعاته معه في استحقاق العبادة ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ضَلَّ﴾ وغاب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [هود:21] من الآلهة الباطلة، ولم يبقَ لهم سوى الندامة والخسران.

لذلك ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ [هود:22] المقصورون على الخسران والحرمان، ألا ذلك هو الخسران المبين!.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وفوضوا أمورهم كلها إليه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى جنابه ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ أي: تضرعوا له مطمئنين خاشعين ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون الصالحون، المصالحون الخاشعون المخبتون ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ﴾ التي هي دار السعداء ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود:23] دائمون مطمئنون متمكنون لا

خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ﴾ أي: المؤمن والكافر في السعادة والشقاوة والهداية والضلال ﴿كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾[1] كل مع نقيضتها ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ كل من النقيضين ﴿مَثَلاً﴾ أيها العقلاء ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:24] التفاوت والتفاضل حتى تتنبهوا وتتفطنوا.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [هود:25-28].

﴿وَ﴾ من عدم تذكر الإنسان وتوغله في الغفلة والنسيان ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ الناجي عما سوى الحق، المنجي للهالكين في تيه الضلال ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾ حين ظهر عليهم أمارات الكفر والعصيان، ولاح فيهم علامات الظلم والطغيان قائلاً لهم على وجه العظة والنصيحة: ﴿إِنِّي﴾ من غاية إشفاقي وعطفي ﴿لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أنذركم من طول العذاب ونزول غضبه بسبب ظلمكم وكفركم ﴿مُّبِينٌ﴾ [هود:25] مظهر مبين لكم ما يوجب تعذيبكم من أفعالكم وأعمالكم الدالة على كفركم وشرككم.

فعليكم أيها المسرفون المفرطون ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا﴾ ولا تتوجهوا ﴿إِلَّا اللهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، الذي لا شريك له ولا شيء سواه، ولا تشركوا به غيره ﴿إِنِّي

---

(1) فمثل الكافر كمن جمع بين العمى والصمم، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو لعطف الصفات، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط، وبمن هو أصم فقط والمؤمن بضدهما، فهو تمثيل للكافرين بمثالين، قاله ابن جزي. وقال البيضاوي: يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى؛ لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصامه عن استماع كلام الله، وتأبيه عن تدبره معانيه. أو تشبيه المؤمن بالسميع والبصير؛ لأن أمره بالضد ، فيكون كل منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة. البحر المديد (3 /40).

﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ لو أشركتم بالله وكفرتم به ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود:26] مؤلم مفزع، كأن ألم العذاب يسري في زمانه لفظاعته وشدته.

ثم لما سمعوا قوله وفهموا مراده استكبروا عليه واستبعدوا أمره ﴿فَقَالَ الْمَلأُ﴾ أي: الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ مستكبرين عليه مستهزئين له: ﴿مَا نَرَاكَ﴾ يا نوح ﴿إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ كيف تدعي الرسالة والنيابة عن الله والوحي من جانبه ﴿وَ﴾ مع ذلك لا شوكة ولا استيلاء لك ولا قوة بسبب المكر والأعوان والأنصار حتى تدعي الرئاسة علينا؛ إذ ﴿مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ﴾ منا ﴿إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي: أدنانا وأسافلنا عقلاً وجاهًا وسعة ومالاً ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ يظهر رذالتهم للناظرين في أول الفكر والنظر بلا احتياج إلى تعمق وتدبر ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَرَى لَكُمْ﴾ أيها السفلة والأرذال تابعًا ومتبوعًا ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ زيادة في العقل والمال والجاه والرئاسة حتى نتبعكم ونقبل قولكم ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ﴾ ونعتقدكم ﴿كَاذِبِينَ﴾ [هود:27] في دعواكم، مفترين فيه، طالبين الرئاسة بسببه بلا إظهار معجزة وبينة واضحة.

﴿قَالَ﴾ نوح متحسرًا آيسًا منهم، قنوطًا عن إيمانهم بعدما سمع منهم ما سمع: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه بعد يأسه على مقتضى شفقة النبوة ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ جئت لكم ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ واضحة دالة على صدقي في دعواي نازلة ﴿مِّن رَّبِّي﴾ لتأييدي وتصديقي ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿آتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ تفضلاً وامتنانًا، مشعرة بنجابتي وطهارتي وصدقي في قولي وتذكيري ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ أي: خفيت واشتبهت ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الدلائل والشواهد مع وضوحها وسطوعها ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ بها ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:28] منكرون غير ملتفتين إليها، ولا متأملين فيها وفي إشاراتها ورموزها.

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

﴿٣٣﴾ [هود:29-32].

﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي وإرشادي إياكم وإهدائي لكم ﴿مَالاً﴾ جعلاً وأجرًا ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي: ما أجري ﴿إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ الذي أمرني به وبعثني لتبليغه ﴿وَ﴾ إن أردتم أن أطرد من معي من المؤمنين فاعلموا أني ﴿مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وليس في وسعي طردهم وكيف أطردهم ﴿إِنَّهُم﴾ من غاية سعادتهم وصلاحهم ﴿مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ الذي وفقهم على الإيمان والهداية، فيخاصمون مع طاردهم وينتقمون عنه ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ﴾ من خبث باطنكم ﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود:29] تنكرون لقاء الله وحوله وقوته وإعانته للمظلوم وانتقامه للظالم الطارد.

﴿وَيَا قَوْمِ﴾ المكابرين المعاندين في طلب طرد المؤمنين الموقنين ﴿مَن يَنصُرُنِي﴾[1] ويدفع عني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللهِ﴾ وبطشه وانتقامه ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ ابتغاء لمرضاتكم ومواساة لكم بلا إذن وارد من قبل الحق، ووحي نازل من عنده ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[2] [هود:30] أيها المجبولون على العقل المفاض، المستلزم للتوحيد والعرفان لينكشف الأمر عنكم، وتعرفوا وخامة عاقبة التماسكم طرد المؤمنين وتوفيقكم الإيمان عليه.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ مدعيًا بعدم طرد المؤمنين الفاقدين حطام الدنيا ﴿عِندِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ فأغنيهم بها، لذلك لم أطردهم ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: لا أدعي الاطلاع على غيوب أحوالهم في مآلهم حتى يكون سبب ودادي لهم ﴿وَلاَ أَقُولُ﴾ لكم مباهاة ومفاخرة: ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا: ما أنت إلا بشر مثلنا ﴿وَلَا أَقُولُ﴾ أيضًا ﴿لِلَّذِينَ﴾

---

(1) قال في التأويلات: أي: من يمنعني من عذاب الله وقهره إن منعت البدن من الطاعة والعبودية، واقتصر على تجرد يقين النفس وتخلقها بأخلاق الروح كما هو معتقد أهل الفلاسفة وأهل الإباحة بأن يقولوا: إن أصل العبودية معرفة الربوبية وجمعية الباطن والتحلية بالأخلاق الحميدة، فلا عبرة للأعمال البدنية كذبوا الله ورسوله فضلوا وأضلوا كثيرًا، وإن القول ما قال المشايخ: الظاهر عنوان الباطن، وقال النبي ﷺ: «لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يستقيم لسانه حتى تستقيم أعماله» يعني: أركان الشريعة على جوارحه.

(2) وفي التأويلات أيضًا: أن جمعية الباطن واستقامة الإيمان من نتائج استعمال الشريعة في الظاهر، والجمعية الحقيقية في الباطن هي المتولدة من الأنوار المودعة في أركان الشرع يسري إلى الباطن عند استعمال الشريعة في الظاهر وإن الله تعالى أودع النور في الشرع والظلمة في الطبع، وإنما بعث الأنبياء ليخرجوا الخلق من ظلمات الطبع إلى نور الشرع.

أي: للمؤمنين الذين ﴿تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: استرذلتموهم، وتقولون في حقهم: ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ﴾ ويعطيهم ﴿اللهُ خَيْرًا﴾ في الدنيا والآخرة؛ إذ حالهم ومآلهم من الغيوب التي استأثر الله بها ولم يطلعني عليها؛ إذ ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من الإخلاص والرضا، وما لي علم بحالهم إلا بوحي الله وإلهامه، ولم يوحَ إليَّ شيء من أحوالهم، وإن تفوهت عنهم وعن أحوالهم بلا وحي ﴿إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:31] المجترئين على الله في ادعاء الاطلاع على غيبه رجمًا به.

وبعدما سمعوا من نوح عليه السلام ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم وعنادهم: ﴿يَا نُوحُ﴾ نادوه استهانة واستحقارًا ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ وخاصمتنا بالمقدمات الكاذبة الوهمية ﴿فَأَكْثَرْتَ﴾ علينا ﴿جِدَالَنَا﴾ وبالغت فيها وتماديت ﴿فَأْتِنَا﴾ أيها المكثر المفرط ﴿بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب، فإنا لن نؤمن بك ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود:32] في دعواك.

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾ [هود:33-37].

﴿قَالَ﴾ نوح متأسفًا متحزنًا، آيسًا من إيمانهم: يا قوم لست بآتٍ بموعدٍ حتى تعجزوني وتضطروني وتستهزئوا بي، بل ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي: بالعذاب الموعود ﴿اللهُ﴾ المنتقم منكم ﴿إِن شَاءَ﴾ انتقامكم وتعلق إرادته لهلاككم ﴿وَمَا أَنتُم﴾ حين غضبه سبحانه عليكم ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود:33] الله في فعله وأخذه؛ إذ هو القاهر فوق عباده، بل أنتم حينئذٍ عاجزون ومضطرون مقهورون.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ﴾ اليوم ﴿نُصْحِي﴾ لئلا يلحقكم ما سيلحقكم حين حلول العذاب ﴿إِنْ أَرَدتُّ﴾ وأحببت ﴿أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ لأحفظكم ﴿إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: لا ينفعكم نصحي اليوم إن تعلق إرادة الله ومشيئته في سابق علمه لإغوائكم، بل ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ ومولي أموركم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [هود:34] في

جميع أموركم وحالاتكم.

أتريد يا نوح نصحهم وإشفاقهم، وهم لا يقبلون منك ﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: اختلقه من عنده ونسبه إلى الوحي ترويجًا ﴿قُلْ﴾ لهم حين قالوا لك هذه مجاراة عليهم ومماراة: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ واختلقت ما جئت به ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي: وبال أمري ونكاله ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود:35] وتنسبون إلي من الجرائم.

﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في العتو والفساد والإصرار على ما هم عليه من الجور والفساد ﴿أُوحِيَ﴾ وألهم ﴿إِلَى نُوحٍ﴾ حين ظهر عليهم أمارات الإنكار، ولاح علامات الاستخفاف والاستكبار ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ﴾ لك أبدًا بعد هذا ﴿مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ لك قبل هذا، فاقنط عن إيمانهم، ولا تجتهد في نصحهم وإهدائهم ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تغتم من إهلاكهم ونزول العذاب عليهم إنهم مهلكون ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود:36] من الإعراض والإنكار والعتو والاستكبار.

﴿وَ﴾ بعدما حصل لك اليأس والقنوط من إيمانهم ﴿اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ لحفظك ولمن آمن معك من الغرق ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بكنفنا وجوارنا وحفظنا وحصاننا ﴿وَوَحْيِنَا﴾[1] لك كيف تصنعها وتشيدها ﴿وَ﴾ بعدما صنعت ما صنعت ﴿لَا تُخَاطِبْنِي﴾ ولا تناجِ معي ﴿فِي﴾ إنجاء القوم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالمكابرة والعناد ونبذوا وراء ظهورهم ما جئت به من الهداية والرشاد ﴿إِنَّهُم﴾ بسبب انهماكهم في الغفلة والغرور ﴿مُّغْرَقُونَ﴾ [هود:37] مهلكون حتمًا، لا نجاة لهم أصلاً.

---

(1) قال البقلي: في هذه الكلمة إشارة عين، وذلك استعارة عين الربوبية من عيون الأزلية، ليبصر بها حقائق الصنوع في علم الله، فيصنع الفلك بمنقوشه على نقش خاتم علم ملك الأزل أي: اصنع الفلك بعيني كما كنت أردت وجود السفينة في الأزل، وذكر الأعين، وهذا إشارة إلى عيون الصفات التي معادن أنوارها حقائق الذات أي: لتصف عينك في صناعة الفلك بأعين الصفاتية لترى بها ما أردنا من هيئتها وتركيبها، وذلك موجودٌ في كلامه على لسان نبيه ﷺ، حيث حكى عن الله سبحانه بقوله: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»، وأيضًا: فيه تقاضا جريان العبودية في مشاهدة الربوبية كقوله ﷺ: «أنْ تعبدَ الله كأنك تراه»، وأيضا أي: كن في عيون رعايتنا وحفظنا، ولا تكن في رؤية عملك والاعتماد؛ فإن من نظر إلى غيري احتجب بغيري عني، قال بعضهم: أسقط عن نفسك تدبيرك، واصنع ما أنت صانع من أفعالك على مشاهدتنا دون مشاهدة نفسك، ومشاهدة أحد من الخلق، وقال بعضهم: اصنع الفلك، ولا تعتمد عليه؛ فإنك بأعيننا رعاية وكلاءة، فإن اعتمدت على الفلك وكلت إليه وسقطت عن أعيننا.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣﴾ [هود:38-43].

﴿وَ﴾ بعدما أوصاه الحق وأمره، شرع ﴿يَصْنَعُ الفُلْكَ﴾ بتعليم جبرائيل عليه السلام إياه بإذن الله ﴿وَ﴾ كان ﴿كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ﴾ طائف ﴿مِّن قَوْمِهِ﴾ حين اشتغل بالفلك ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ واستهزءوا به؛ لكونه في باديةٍ لا ماء فيها، وقالوا على سبيل التهكم: صرت نجارًا بعدما كنت نبيًا ﴿قَالَ﴾ لهم نوح المكشوف عنده مآل ما أمر الحق له: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ الآن لجهلكم بسر صنيعنا ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ حين كنا على الفلك وأنتم غرقى ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:38] اليوم منا.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:39] وتدركون وبال ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وحان أجلنا الذي أجلنا لمقتهم وهلاكهم ﴿وَفَارَ﴾ أي: نبع حينئذٍ ﴿التَّنُّورُ﴾ المعهود في حضرة علمنا، نبع ماء الطوفان، وبعد فوران التنور وغليانه وأطلعت عليه امرأته فأخبرته إياه ﴿قُلْنَا﴾ له تفضلاً عليه وامتنانًا: ﴿احْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ أي: من جنس ما يعيش في الهواء ﴿اثْنَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى ﴿وَ﴾ احمل أيضًا عليها ﴿أَهْلَكَ﴾ أي: جميع أهل بيتك ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ﴾ منا في سابق قضائنا بأنه كان من الكافرين المغرقين ﴿وَ﴾ احمل أيضًا عليها ﴿مَنْ آمَنَ﴾ لك من قومك ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا آمَنَ مَعَهُ﴾ من قومه ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40] قيل: كانوا تسعة وسبعين وزوجته المسلمة وبنوه الثلاثة: سام وحام ويافث

ونساؤهم، واثنان وسبعون رجلاً من غيرهم.

روي أنه ﷺ أتم السفينة وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين، وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في أسفلها الدواب والوحوش، وفي أوسطها الإنس، وفي أعلاها الطير.

﴿وَ﴾ بعدما نبع التنور وانتشر الماء وانبسط على الأرض ﴿قَالَ﴾ نوح بوحي الله إياه: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أي: صيروا في جوفها متمكنين، واستقروا عليها قائلين متيمنين: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ إذ هو سبحانه بحوله وقوته ﴿مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ حيث أراد إجراءها وإرساءها ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بلطفه وأوصاني بصنعها ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن استغفر له ﴿رَّحِيمٌ﴾ [هود:41] يقبل توبته ويمحو زلته وينجو عن عذابه، فركبوا مسمين متيمنين.

﴿وَهِيَ﴾ أي: السفينة ﴿تَجْرِي بِهِمْ فِي﴾ خلال ﴿مَوْجٍ﴾ وهو ما ارتفع من الماء من شدة الريح عالٍ ﴿كَالْجِبَالِ﴾ الشامخ ﴿وَ﴾ حينئذ ﴿نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ المسمى بكنعان ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ من أبيه؛ أي: اعتزل عنه وانصرف عن دينه، فرآه بين الماء، فتحرك عطف الأبوة فصاح عليه: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ صغره للشفقة والترحم ﴿ارْكَب مَّعَنَا﴾ لتنجو من الغرق ﴿وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود:42] حتى لا تغرق.

﴿قَالَ﴾ ابنه مستنكرًا عليه: ﴿سَآوِي﴾ والتجئ ﴿إِلَى جَبَلٍ﴾ عالٍ ﴿يَعْصِمُنِي مِنَ﴾ إغراق ﴿الْمَاءِ﴾ بشموخه وعلوه ﴿قَالَ﴾: يا بني ﴿لاَ عَاصِمَ﴾ ولا ينجي ﴿الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ المبرم وحكمه المحكم ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ الله وأنجاه؛ إذ لا عاصم غيره ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿حَالَ بَيْنَهُمَا﴾ أي: بين نوح وابنه ﴿الْمَوْجُ﴾ العظيم ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[1] [هود: 43] أي: صار ابنه من الغرقى الهالكين.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه أدّب نبيه نوحًا ﷺ هاهنا عرفه سابق العلم في غرقهم وهلاكهم؛ ليعرف طريق الدعاء ومكانه، وعرف أنه سبق بالدعاء عليهم، وقيل: ذلك ولم يقبل هاهنا؛ لأن دعاء الأول موافق القدر، والعارف المجاب إذا دعا على أحدٍ بعد ذلك، ألا ترى إلى قول ذي النون ﷺ حيث دعا على أهل سمايته كيف كانوا يغرقون، فقال بعد ذلك: إلهي تبت، ألا أدعو على أحد من عبادك بعد ذلك، وفيه وصف رقة قلب نبيه ﷺ عليهم بعد احتمال جنونهم وأذيتهم، وهكذا يكون شأن الصادقين، قال ذو النون: إن كنت قد أبليت في الأزل بشيء من العناية فقد نجوت، وإلا فإن النداء والدعاء لا ينقذ الغرقى.

ٱلْجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود:44-49].

﴿وَ﴾ بعدما انبسط الماء على وجه الأرض، وعلا على أعالي الجبال وأقلال الرواسي وهلك من عليها ﴿قِيلَ﴾ من وراء سرادقات العز والجلال مناديًا آمرًا على الأرض والسماء مثل النداء على ذوي العقول المكلفين المبادرين إلى امتثال الأوامر: ﴿يَا أَرْضُ﴾ النابعة للماء المخرجة له ﴿ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ أي: انشقي ما نبع عنك من الماء ﴿وَيَا سَمَاءُ﴾ الماطرة الهامرة ﴿أَقْلِعِي﴾ وأمسكي ماءك ولا تمطري؛ إذ يمطر الماء مثلما نبع من الأرض ﴿وَ﴾ بعد ورود الأمر الإلهي ﴿غِيضَ المَاءُ﴾ ونقص بنشف الأرض وإمساك السماء ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ الموعود الذي هو إهلاك الكفار وإنجاء المؤمنين ﴿وَ﴾ بعد انقضاء المأمور وإنجاز الموعود ﴿اسْتَوَتْ﴾ السفينة واستقرت ﴿عَلَى الجُودِيِّ﴾ جبل بالموصل، وقيل: بالشام، وقيل: أو آمل.

روي أنه عليه السلام ركب السفينة عاشر رجب، ونزل عليها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم، فصار سُنة له على من بعده، وهو يوم عاشوراء ﴿وَ﴾ بعد إهلاك أولئك العصاة الغواة الكفرة ﴿قِيلَ﴾ من قبل الحق: ﴿بُعْدًا﴾ أي: مقتًا وهلاكًا ﴿لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:44] الخارجين عن مقتضى الوحي الإلهي، المكذبين لرسله، وطردًا لهم عن ساحة عز الحضور بحيث لا يرجى قربهم أصلاً.

﴿وَ﴾ بعدما وقع ما وقع ﴿نَادَى﴾ وناجى ﴿نُوحٌ رَّبَّهُ﴾ باثًا له شكواه في حق ابنه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي﴾ أيضًا ﴿مِنْ أَهْلِي﴾ وأنت بفضلك وعدتني بإنجاء أهلي ﴿وَإِنَّ

وَعْدَكَ﴾ الذي به ﴿الْحَقُّ﴾[1] الصدق لا خلف فيه ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود:45] أي: أقسطهم وأعدلهم بأحكام جميع الحكام راجع إليك.

﴿قَالَ﴾ سبحانه مجيبًا له مزيلاً لشكواه: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ﴾ بسبب اعتزاله عنك وعن دينك ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إذ لا قرابة ولا ألفة بين المؤمن والكافر، وكيف يكون من أهلك ﴿إِنَّهُ﴾ من غاية فسقه وفساده ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ كأنه مغمور فيه مجسم منه لا يرجى صلاحه أصلاً ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِ﴾ متعرضًا معترضًا علي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لوروده علي ﴿إِنِّي أَعِظُكَ﴾ وأذكر لك ﴿أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود:46] أي: كونك بذهولك عما نبهت عليك بالاستثناء السابق؛ يعني ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: 40].

﴿قَالَ﴾ نوح معتذرًا إلى ربه، مستحييًا منه: ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ بعد ظهور خطئي وذلتي ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ﴾ بعد هذا ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي﴾ زلتي وسوء أدبي ﴿وَ﴾ لم ﴿تَرْحَمْنِي﴾ بفضلك وجودك ﴿أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:47] خسرانًا مبينًا.

﴿قِيلَ﴾ من قبل الله بعدما غاض الماء واستوت السفينة وانكشفت الأرض ويبست: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ﴾ انزل من السفينة أنت ومن معك وما معك مقرونًا ﴿بِسَلاَمٍ﴾ أي: سلامة ونجاة وأمن ناشئ ﴿مِّنَّا﴾ عليك تفضلاً وامتنانًا ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ أي: خيرات ومبرات كثيرة نازلةٍ منا ﴿عَلَيْكَ﴾ أصالة ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ تبعًا، سماهم أممًا

---

(1) وذلك أن الله تعالى لمّا أراد بحكمته أن ينزل الأرواح المقدسة العلوية من أعلى عليين جواره، وقربه إلى أسفل سافلين القلب قالت أرواح الأنبياء والأولياء وخواص المؤمنين: يا ربنا وإلهنا تنزلنا من أعلى مقامات قربك إلى أسفل دركات بعدك، ومن عالم البقاء إلى عالم الفناء، ومن دار السرور واللقاء إلى دار الحزن والبلاء، ومن منزل التجرد والتواصل إلى منزل التوالد والتناسل، ومن رتبة الاصطفاء والاجتباء إلى مرتبة الاجتهاد والابتلاء، فوهبهم الله من عواطف إحسانه بأن تنجيهم وأهليهم مُن ورطات الهلاك، فكان من قضية حكمته أن يكون لنوح ﷺ أربعة بنين: ثلاثة منهم مؤمنون وواحد كافر، فكذلك حكم أن يكون للروح أربعة بنين: ثلاثة منهم مؤمنون وهم: القلب والسر والعقل، وواحد كافر وهو النفس، فكما كان ثلاثة من بني نوح معه في السفينة، وكان واحد في معزل منه، فكذلك ثلاثة من بني الروح معه كانوا معه في سفينة الشريعة وكان واحد وهو كافر النفس في معزل منه من الدين والشريعة، فلما أشرف ولده الكافر على الغرق في بحر الدنيا وطوفان الآخرة. [التأويلات].

باعتبار المآل ﴿وَ﴾ من ذرية من معك ﴿أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ ونربيهم في النشأة الأولى بأنواع النعم ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا﴾ في النشأة الأخرى بسبب كفرهم وفسقهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:48] مؤلم بدل ما يتلذذون بنعم الدنيا، ويكفرون بها.

﴿تِلْكَ﴾ أي: قصة نوح عليه السلام ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: بعض أخباره ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ تعليمًا لك وتذكيرًا لأمتك ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ﴾ بالدراسة والتعليم ﴿مِن قَبْلِ هَذَا﴾ الوحي والإنزال، وإن طعن المشركون لك ونسبوك إلى الكذب والافتراء ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذياتهم، وكن في تبليغك على عزيمة صحيحة ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ الحميدة والأجر الجزيل في النشأة الأخرى ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:49] الذين يحفظون نفوسهم عن الميل إلى البدع والأهواء، ويصبرون على المكاره والأذى، حتى يتحققوا بمقام الرضا ويفوزوا بشرف اللقاء.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53)﴾ [هود:50-53].

﴿وَ﴾ بعدما تناسل قوم نوح وتكاثرت أمم منهم، فاستكبروا عن طريق التوحيد واتخذوا الأصنام والأوثان آلهة، أرسلنا ﴿إِلَى عَادٍ﴾ العادين عن طريق الحق، المتجاوزين عن صراط التوحيد ظلمًا وعدوانًا ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ليهديهم إلى طريق الحق وصراط مستقيم ﴿قَالَ﴾ بعدما أوحينا إليه وأذنا له بتذكير قومه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه تحننًا وإشفاقًا على ما هو مقتضى الإرشاد ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لا إله إلا هو واعتقدوا ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾ يعبد بالحق ويرجع إليه ما في الأمور ﴿غَيْرُهُ﴾ إذ لا موجود سواه ولا إله إلا هو ﴿إِن أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم بعدما ظهر الحق باتخاذ الأوثان آلهة غيره ﴿إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ [هود:50] مبطلون في اتخاذها افتراء ومراء.

﴿يَا قَوْمِ﴾ اسمعوا قولي واتعظوا به وامضوا بمقتضاه واقبلوا نصحي؛ إذ ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ولا أطلب منكم عوضًا، بل أنا مأمور بالتبليغ والتذكير من عند

العليم الخبير ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: بعثني بالإرشاد والإهداء، أتشكون في أمري وترددون في شأني وتذكيري ونصحي؟ ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [هود:51] وتستعملون عقولكم في أفعالكم القبيحة وأعمالكم الفاسدة الناكبة عن طريق الاعتدال الذي هو صراط الله الأقوم الأعدل؟!.

﴿وَ﴾ بعدما ازدادوا الإصرار والاستكبار، أخذهم الله بعقم الأرحام والأمطار فاضطروا، قال هود ﷺ: ﴿يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾[1] من فرطاتكم وهفواتكم، واطلبوا المغفرة والنجاة منه ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾ واسترجعوا ﴿إِلَيْهِ﴾ نادمين مخلصين ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم﴾ بأمر الله تفضلاً وامتنانًا ﴿مِّدْرارًا﴾ أمطارًا كثيرة على سبيل التتابع والإدرار ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ أي: يضاعف أولادكم التي هي قوة ظهوركم ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَتَوَلَّوْا﴾ على الله حال كونكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ [هود:52] معرضين عنه وعن رسله مصرين على ما أنتم عليه.

﴿قَالُوا﴾ بعدما سمعوا منه ما سمعوا: ﴿يَا هُودُ﴾ نادوه استحقارًا له واستكبارًا

---

(1) قال البقلي: استغفروا من جنايات الأسرار، وتوبوا إليه لطلب الأنوار ترك النظر إلى الأغيار قدم الاستغفار على التوبة؛ لأن الاستغفار تقديسٌ، والتوبة تخليصٌ، الاستغفار من الزلل، والتوبة من الغفل. سُئل سهل بن عبد الله عن الاستغفار؟ فقال: هو الإجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، ثم الاستغفار، والاستغفار بالظاهر، والإنابة بالقلب، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها. وقال بعضهم: استغفروا ربكم عن الدعاوى، وتوبوا إليه من الخطرات المذمومة. وقال يوسف: استغفار العام من الذنوب، واستغفار الخاص من رؤية الأفعال دون رؤية المنة والفضل، واستغفار الأكابر من رؤية كل شيء سوى الحق لما بلغت في ذكر التفسير، إلى هاهنا سألني بعض أهل الصحبة عن حقائق استغفار العارفين؟ فقلت: استغفارهم عن كون وجودهم مع كون الحق، وعن تقصيرهم في المعرفة عن إدراك حقائق صفات معروفهم، وعن دعوى الأنانية في السكر في مقام صحوهم، وعن غاشية عين العبودية في مشاهدة الربوبية. ألا ترى إلى قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»، ومن جملة استغفاره ﷺ في هذا المقام استغفار من رؤية وجوده وجود الحق، وعن رؤية مشاهدة الالتباس في رؤية مشاهدة صرف الوحدانية، وعن خواطر الأنانية. ثم بيّن أنه تعالى يجازيهم بعد رجوعهم مما سوى الحق إلى الحق بالتمتع بلقائه ووصاله والفرح بجماله أبد الآبدين بقوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ المتاع الحسن أنوار المواجيد على الدوام، وصفاء الأحوال على السرمدية، وسنا الأذكار وحلاوة الأفكار، ونزول حقائق الكواشف، وظهور لطائف المعارف، والفرح برضوان الله ولين العيش في مشاهدة الله، ما أحسن هذا المتاع منا في منّ الدنيا لقاؤك مرة! فإن نلتها استوفيت كل مناتيا.

عليه ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ واضحة مثبتة لدعواك حتى نقبل منك قولك ﴿وَ﴾ بعدما لم تجيء إلينا بالبينة الملجئة ما كنا نعتقدك صادقًا صدوقًا ثقة حتى نقبل قولك بلا بينة، اترك ما أنت عليه من الدعوة الفاسدة؛ إذ ﴿مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ التي وجدنا آباءنا لها عاكفين ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ أي: عن مجرد دعواك بلا بينة ودليل ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:53] مصدقين لك بلا شاهد وبينة.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود:54-58].

بل ﴿إِن نَّقُولُ﴾ أي: ما نقول في حقك ﴿إِلاَّ اعْتَرَاكَ﴾ أي: سوى هذا القول وهو أنك أصابك ورماك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ جنون وخفة عقل واختلال حال، وكنت أنت تسيء الأدب معهم، وتذكرهم وتهيجهم بما لا يليق بجنابهم، ولذلك أصابوك واستخفوا عقلك، وبعدما سمع هود ما سمع، آيس من إيمانهم وهدايتهم ﴿قَالَ﴾ مبرئًا أولاً لنفسه من الشرك، إمحاضًا للنصح: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ﴾ العالم بسري وإعلاني وخفيات إسراري ﴿وَاشْهَدُوا﴾ أنتم أيضًا أيها الهالكون في تيه الغفلة والغرور على ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود:54] الله الواحد الأحد الصمد الذي ليس له شريك في الوجود أصلاً من الأظلال الهالكة والتماثيل الباطلة المتخذة ﴿مِن دُونِهِ﴾ آلهة سواه ﴿فَكِيدُونِي﴾ أي: فعليكم أيها الحمقى المنحطين عن زمرة العقلاء بعدما سمعتم قولي وحققتم براءتي أن تمكروني وتصيبوني أنتم وشركاؤكم ﴿جَمِيعًا ثُمَّ﴾ بعد اليوم ﴿لاَ تُنظِرُونِ﴾ [هود:55] أي: لا تمهلون في أمري ولا في مكري.

﴿إِنِّي﴾ بعدما ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لا أبالي بكم وبشركائكم، ولا

تحزن لمكرهم ومكركم بعدما أتمكن بمقر التوحيد؛ إذ ﴿مَا مِن دَابَّةٍ﴾[1] يتحرك على الأرض ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه بذاته ﴿آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي: وجودها التي تلي الحق يقودها ويتصرف بها كيف يشاء حسب إرادته اختيارًا ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ في جميع شئونه وتطوراته ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:56] لا عوج له أصلاً.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولوا وتعرضوا عما جئت به من ربي ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ واجتهدت في تبليغه وبذلت وسعي فيه، فاعلموا أنه لا يبالي الله في إعراضكم وإصراركم، بل إن شاء يستأصلكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ليتعظوا

(1) قال المحقق البقلي: دعا الجمهور بلسان التوحيد إلى منازل التفريد؛ ليدخلوا إلى مرابع الرضا، ويجلسوا على مساند الصفا، وينظروا في مرآة الأقدار مباصر الأنوار، لتطمئن أسرارهم في جريان التقدير، بما رأوا من سوابق القسمة، وأوائل الحكمة لكل دابة رزق عليه بقدر حوصلتها، فرزق الظاهر للأشباح، ورزق المشاهدة للأرواح، ورزق الوصلة للأسرار، ورزق الرهبة للنفوس، ورزق الرغبة للعقول، ورزق القربة للقلوب، ورزق الملائكة الخوف والذكر، ورزق الجن الزجر والوعيد، ورزق الحيوان روح العنصر، ورزق الحشرات خطرات التسبيح، ورزق السباع اقتحام ظلام عظمة الأفعال، ورزق الطيور الفرح والتهليل، ورزق الإنسان الذي تعيش به هو فيض الفعل وروح الفعل، ونور الصفة وشهود سنا الذات على الأسرار، وهو تعالى بلطفه يعلم مصارف الجميع من أفعاله وصفاته وذاته لمّا قال: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: مستقر الأرواح أنوار ذاته، ومستقر القلوب أنوار صفاته، ومستقر العقول أنوار أفعاله، مستودع العقول العبادات، ومستودع القلوب المشاهدات، ومستودع الأرواح المكاشفات، ومستقر الأشباح أكناف الآيات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قبور المجاهدات، ومستقر العقول الأذكار ومستودعها الأفكار ومستقر القلوب المحبة، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المعرفة، ومستقر الأرواح التوحيد، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ الفناء في الموحد مستقر الجميع أصلاب العدم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أنوار القدم. قيل: قرأ يوسف بن الحسين هذه الآية، ثم قال: ندب الله عباده جميعًا إلى التوكل والاعتماد، فأبوا بأجمعهم إلا اعتماد على عواري ما ملكوا إلا فقراء المهاجرين، ثم جرت تلك البركة في الفقراء الصادقين إلى من ترسم بهم من الصوفية، فالخلق أبوا الاعتماد على الأسباب، وأبت هذه الطائفة أن تعتمد على غير المسبب، وهو من أشد المناهج. قيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ ظاهر إسلامه، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ باطن إيمانه. وقيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ من الخلق، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ من الحق. وقيل: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الطاعات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الأحوال. يقال: مستقر العابدين المساجد، ومستقر العارفين المشاهد. ويقال: النفوس مستودع التوفيق من الله، والقلوب مستودع التحقيق من قِبَل الله. قيل: القلوب مستودع المعرفة، والمعرفة وديعةٌ فيها، والأرواح مستودع المحبة، فالمحاب ودائعُ فيها، والأسرار مستودع المشاهدات، فالمشاهدات ودائع الله

ويعتبروا منكم ﴿وَ﴾ أنتم بإعراضكم عنه سبحانه ﴿لاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ من الأضرار، لا بالله ولا بي ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ من كمال جوده وسعة رحمته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ كائن في حيطة جوده ووجوده ﴿حَفِيظٌ﴾ [هود:57] رقيب قريب.

﴿وَلَمَّا﴾ تمادوا في الغفلة والإعراض، وبالغوا في الإصرار والاستكبار ﴿جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالريح، فعصفت عليهم السموم، وكانت تدخل من أنوفهم وأفواههم فقطعت أمعاءهم فهلكوا، ولما أخذناهم بما أخذناهم ﴿نَجَّيْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿هُودًا﴾ الداعي لهم إلى سبيل الحق ﴿وَ﴾ نجينا أيضًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ تفضلاً عليهم وامتنانًا ﴿وَ﴾ ما اقتصرنا على إنجائهم، بل ﴿نَجَّيْنَاهُم﴾ كرامة منا إياهم ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود:58] معد لأولئك الكفرة في النشأة الأخرى.

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [هود:59-62].

﴿وَتِلْكَ﴾ العصاة الغواة المقهورون بقهر الله وغضبه ﴿عَادٌ﴾ المبالغون في العتو والعناد ﴿جَحَدُوا﴾ من غاية غفلتهم وغرورهم ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنزلة على ألسنة رسله ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ بالتكذيب والاستحقار لاستلزام الواحد تكذيب الجميع ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ من غاية جهلهم ونهاية بغضهم مع الله ورسله ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ مبالغ في التجبر والتكبر ﴿عَنِيدٍ﴾ [هود:59] متناه في المكابرة والعناد، فتركوا متابعة الداعي لهم إلى سبيل الرشاد.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ﴾ أي: صاروا متبوعين للطرد والتخذيل في النشأة الأولى والأخرى ﴿أَلَا﴾ تنبهوا يا أولي الأبصار والاعتبار ﴿إِنَّ عَادًا﴾ المعاندين ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ نعمه وجحدوا توحيده ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ طردًا وتخذيلاً وتبعيدًا عن ساحة عز الحضور ﴿لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود:60] أردفه بعطف البيان للتمييز

عن عاد إرم.

﴿وَ﴾ بعدما انقرضوا وانقهروا بما انقهروا أرسلنا ﴿إِلَى ثَمُودَ﴾ حين ظهروا بالكفر والشقاق والانصراف عن منهج الرشاد باتخاذ الأوثان آلهة ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ لأنه أولى وأليق لإرشادهم وإهدائهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4] ولا تشركوا به شيئًا؛ إذ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ موجد مظهر لكم من كتم العدم ﴿غَيْرُهُ﴾ بل ﴿هُوَ﴾ بذاته وأسمائه وأوصافه الذاتية والفعلية ﴿أَنشَأَكُم﴾ وأظهركم ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ بامتداد أظلال أسمائه ورش نوره ﴿وَ﴾ بعدما أظهركم منها ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ﴾ واستبقاكم ﴿فِيهَا﴾ ورباكم بأنواع اللطف والكرم عليها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ واسترجعوا إليه على ما فرطتم في حقه ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ مخلصين نادمين عسى أن يقبل منكم ويعفو عن زلاتكم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ لكم يعلم توبتكم وإخلاصكم فيها ﴿مُّجِيبٌ﴾ [هود:61] يجيب دعوتكم ويعفو زلتكم.

﴿قَالُوا﴾ بعدما سمعوا دعوته وتذكيره: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ أي: مستشارًا ومؤتمنًا، واعتقدناك سيدًا ذا رشد ﴿قَبْلَ هَٰذَا﴾ الزمان فالآن صرت أخرق ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: نهيتنا عن عبادة معبودات آبائنا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿إِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾ وترددٍ عظيم ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من توحيد الإله المعبود بالحق وإبطال آلهتنا التي وجدنا آباءنا لها عابدين، ﴿مُرِيبٍ﴾ [هود:62] ذي ريبة متهية إلى كمال الارتياب، مع أنك لم تأت ببينة معجزة تلجئنا إلى تصديقك.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود:63-68].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ جئت لكم ملتبسًا ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾

واضحةٍ دالة على صدق ما ادعيت نازلةٍ ﴿مِّن﴾ عند ﴿رَّبِّي﴾ لتصديقي وتأييدي ﴿وَ﴾ الحال أني قد ﴿آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوة ورسالة تامة، مؤيدة بأنواع المعجزات ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ ويمنعني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ في تبليغ رسالته وإظهار ما أمرني بظهوره وأوصاني بنشره ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ حين ابتلائي وأخذ الله إياي بعصياني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود:63] على تخسير وتخذيل على تخذيل.

﴿وَ﴾ بعدما آيس عن إيمانهم قال: ﴿يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ دالة على صدقي في دعواي وتأييد الله إياي ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾ مسلمة بلا منع وإباء ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ لأجل الماء والكلأ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ ويلحقكم بعدما أصبتموها بسوء ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود:64] أجله وحلولهن، وبعدما ظهرت الناقة بين أظهرهم وأكلت كلأهم وشربت ماءهم فتضرروا منها وشاوروا في أمرها وتقرر رأيهم إلى قتلها ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ وهلكوها ظلمًا وزورًا ﴿فَقَالَ﴾ صالح بعدما وقع الواقعة الهائلة: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ أي: عيشوا فيها بعدما خالفتم حكم الله وآتيتم بما نهيتم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة، فوادعوا فيها وتوادعوا، واعلموا أن ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ﴾ أوحي إلي من ربي ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:65] أي: غير منسوب إلى الكذب، بل مصدق متيقن فلا تشكوا.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب المهلك بعد انقضاء الأيام الثلاثة التي ظهرت فيها علاماته من اصفرار في وجوههم في اليوم الأول، واحمرارها في الثاني، واسودادها في الثالث ﴿نَجَّيْنَا﴾ من فضلنا وجودنا ﴿صَالِحًا﴾ الذي صلح نفسه وأصلح نفوسهم، فلم يقبلوا إصلاحه، بل أفسدوها بأنفسهم ﴿وَ﴾ نجينا أيضًا منهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وصلحوا بإصلاحه ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ نازلة ﴿مِّنَّا﴾ على قلوبهم؛ ليوفقوا بها على قبول دعوته والإيمان به، وبسبب إيمانهم نجوا من خزي النشأة الأخرى ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أيضًا ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل الموفق لهم على الإيمان والإذعان ﴿هُوَ الْقَوِيُّ﴾ المحصور على القوة والقدرة؛ إذ لا حول ولا قوة إلا به ﴿الْعَزِيزُ﴾ [هود:66] الغالب على إمضائه وإنفاذه حيث أراد وشاء.

﴿وَ﴾ بعدما أنجاهم الله بلطفه ﴿أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالعتو والفساد ﴿الصَّيْحَةُ﴾ الهائلة التي وعدها الله لإهلاكهم ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ بعدما سمعوا الصيحة في أثناء الليل ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ التي صاروا متمتعين فيها ﴿جَاثِمِينَ﴾ [هود:67] جامدين ميتين.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ ولم يسكنوا ﴿فِيهَا﴾ أصلاً، ونادى عند وقوع الواقعة الهائلة أصحاب الاعتبار والاستبصار: ﴿أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ بكفران نعمه وتكذيب رسله ﴿أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود:68] عن سعة رحمة الحق في النشأة الأولى والأخرى.

وبعدما انقرض أولئك الهالكون حدث بعدهم قوم لوط المبالغون في الغفلة القبيحة عقلاً ونقلاً، المصرون عليها إلى أن أخذناهم بما أخذناهم.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود: 76-69].

﴿وَ﴾ حين أردنا أخذهم ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة المأمورون لإهلاك قوم لوط ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ والبشارة بالولد بعدما آيس هو وزوجته عن التوالد والتناسل ﴿قَالُوا﴾ له حين لاقوه: ﴿سَلامًا﴾ أي: نسلم سلامًا عليكم ترجيبًا منا عليك ﴿قَالَ سَلامٌ﴾ عليكم دائمًا مستمرًا أيها المستحقون للتحية والترحيب ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ وسكن بعد نزولهم إلى ﴿أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:69] مشوي؛ ضيافة لهم ونزلاً لقدومهم ووضع بين أيديهم، فانصرفوا عنه ولم يمدوا أيديهم نحوه.

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ ولا يتناولون منه كما هو عادة المسافرين ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي: أنكر منهم عدم أكلهم؛ لأن الامتناع من الطعام دليل على قصد المكروه لصاحبه ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أي: أضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوفًا ورعبًا حتى أحسوا منه الخوف وعلامات الرعب ﴿قَالُوا﴾ تسلية وتسكينًا: ﴿لاَ تَخَفْ﴾ منا ﴿إِنَّا﴾ وإن كنا من أهل الإنذار والإهلاك ﴿أُرْسِلْنَا إِلَى﴾ إهلاك ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:70] ما لنا معك شغل.

﴿وَ﴾ حين قالوا له ما قالوا ﴿امْرَأَتُهُ﴾ أي: سارة حاضرة ﴿قَائِمَةٌ﴾ لخدمة

الأضياف ﴿فَضَحِكَتْ﴾ بعدما سمعت قولهم فرحًا وسرورًا؛ لأنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لوطًا، فإني أعلم أن البلاء ينزل على هؤلاء المسرفين ﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾ أي: سارة تفضلاً وامتنانًا ﴿بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ﴾ ولده ﴿يَعْقُوبَ﴾ [هود:71] أبا الأنبياء.

﴿قَالَتْ﴾ بعدما سمعت التبشير مستحية مستغربة: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ أي: يا هلكتي وفضيحتي ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ قد مضت علي تسع وتسعون سنة ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ فانيًا ابن مائة وعشرين سنة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: التوالد بيننا ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:72] غريب خارق للعادة إن وقع.

﴿قَالُوا﴾ إزالة لشكها وتعجبها: ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ أي: تستبعدين ﴿مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة أمثال هذا؛ أي: التوالد بين الهرمين تفضلاً وامتنانًا مع أنها ﴿رَحْمَةُ اللهِ﴾ أي: أنواع فضله وجوده ﴿وَبَرَكَاتُهُ﴾ أي: خيراته الكثيرة النازلة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يا أهل بيت الخلة والنبوة ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه في ذاته ﴿حَمِيدٌ﴾ يفعل ما يوجب الحمد له ﴿مَّجِيدٌ﴾ [هود:73] محسن كثير الإحسان والإنعام المستجلب لأنواع المحامد والأثنية.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي: الخوف والرعب بتسلية الرسل إياه ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بما لا ترقب له فيه أخذ ﴿يُجَادِلُنَا﴾ أي: يجادل مع رسلنا ويناجي معنا ﴿فِي﴾ حق ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:74] وأخذنا إياهم.

وما حمله على المجادلة والمناجاة في حقهم إلا فرط إشفاقه ورقة قلبه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ في نفسه ﴿لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام، كظيم الغيظ والغضب ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه والتأسف من الذنب الصادر عنه ﴿مُّنِيبٌ﴾ [هود:75] رجاع إلى الله في جميع حالاته، فقاس حالهم على نفسه، فأخذ يجادل في حقهم.

قال الرسل بوحي الله إياهم: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ المتحقق بمقام الخلة ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الجدال، وانصرف عن مدافعة كلام الله المبرم ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وثبت منه سبحانه الحكم بهلاكهم حتمًا مبرمًا، ولا تنفعهم مجادلتك وممانعتك ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ﴾ عن قريب ﴿عَذَابٌ﴾ حتم ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[1] [هود:76] بتقويتك وحمايتك.

---

(1) فيه دلالة على أن القضاء المبرَم لا يُردُّ، وهو القضاء الغير المعلّق، وإليه الإشارة بقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾ [البقرة:217]؛ فإن مفهومه

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: 77-83].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ على أشكال مرد ملاح صباح متناسبة الأعضاء، وهم لا يرون أمثالهم في الصباحة واللطافة وكمال الرشاقة ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي: ساء مجيئهم على هذه الأشكال لوطًا ومن آمن معه ﴿وَضَاقَ﴾ جيئتهم على هذه الصورة البديعة ﴿بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: شق على لوط والمؤمنين أمر حفظهم وحضانتهم؛ لأنهم علموا قبح صنيع قومهم لو علموا جيئتهم قصدوا لهم مكروهًا، واشتد عليهم أيضًا مدافعتهم وإخراجهم؛ لأنهم نزلوا ضيافًا، فاضطر لوط في أمرهم وشأنهم وتحير ﴿وَقَالَ﴾ متأوهًا متأسفًا متضجرًا: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: 77] شديد مظلم في غاية الشدة والظلمة.

﴿وَ﴾ بعدما أُخبر القوم بنزولهم ﴿جَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ متجسسين ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي:

أنهم لا يستطيعون أن يردُّوا المخلصين الراسخين عن دينهم، وإن ركبوا في ذلك، مَتْن كل صعب وذلول، لِما إن الله كتب في حقهم السعادة فلا يتغيَّر بحال من الأحوال، وأمَّا القضاء المعلَّق فبخلاف ذلك، وتحقيقه أن كلاً من السعادة والشقاوة؛ إمَّا أصلية أو عارضة، فالأصلية لا يُعارضها عارض، وإن عارضها، فالمآل إلى السعادة والشقاوة؛ لأن الأبد مرآة الأزل، فلا تزال صورة الأزل منعكسة في مرآة الأبد فالمؤمن الأصلي لا يضرُّه الكفر العارضي، فإنه مكتوب في علم الله أنه مؤمن، وكذا في بطن الأم؛ فإن بطن الأم ناظرة إلى علم الله، فهما لوحان متوافقان، وكونه مكتوبًا في اللوح المحفوظ: إنه كافر لا يضرُّه؛ لأنه لوح المحو والإثبات.

يطوفون حول بيته سريعًا، ويطلبون فرصة الدخول عليهم، ويحتالون لدفع لوط والمؤمنين وهم قوم خبيث ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا﴾ من نهاية خباثتهم ﴿يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الخارجة عن مقتضى العقل والنقل والمروءة، وحين اضطر لوط من ترددهم وتبخترهم، ولم يرَ في نفسه مدافعتهم ومقاومتهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ لهم من غاية غيرته وحميته في حق أضيافه: ﴿هَؤُلاءِ﴾ الإناث ﴿بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ إن أردتم الوقاع ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ المنتقم الغيور عن تفضيحي ﴿وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ ولا تخجلوني في ضيفي ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ﴾ أيها المجبولون على فطرة الإدراك ﴿رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:78] ذو مروءة وعقل كامل.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه مبالغين مقسمين: والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يقينًا ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ميلٍ وحظٍ، بل إنما عرضت بناتك علينا لنترك أضيافك ﴿وَإِنَّكَ﴾ أيضًا ﴿لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:79].

ولما اضطر لوط مسارعتهم ومماراتهم ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا إلى الله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أدفع بها حزني وخزي أضيافي لأدفعكم بتوفيق الله ﴿أَوْ آوِي﴾ وأرجع حين ظهور عدم مقاومتي ومدافعتي معكم ﴿إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:80] هو حفظ الله وكنف جواره وحصن حضانته.

ثم لما رأى الرسل اضطرار لوط واضطرابه؛ إذ هو يغلق على أضيافه باب بيته فيجادل مع قومه، يتكلم معهم، وبعدما امتدت مجادلته معهم، قصدوا أن يثقبوا الجدار فاشتغلوا بالثقب والنقب ﴿قَالُوا﴾ أي: الرسل بعدما بلغ ألم لوط غايته: ﴿يَا لُوطُ﴾ لا تغتم ولا تضطرب في أمرنا ولا تهلك نفسك غيرة وغيظًا ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أبدًا؛ أي: لن ينالوا بإضرارنا حتى اضطررت من أجلنا، ذرنا معهم، واخرج من بيننا وبينهم، وخرج لوط مفتحًا باب بيته، فدخلوا على الرسل بالفور، فضرب جبرائيل عليه السلام بجناحه فأعماهم، فانقلبوا صائحين صارخين: النجاء النجاء فإن في بيت لوط سحرة.

وبعدما خرجوا فاقدين أبصارهم، قال الرسل أمرًا للوط: ﴿فَأَسْرِ﴾ أي: سر ليلاً ﴿بِأَهْلِكَ﴾ أي: بمن آمن معك ﴿بِقِطْعٍ﴾ أي: بعد مضي طائفة ﴿مِّنَ اللَّيْلِ وَ﴾ بعدما خرجتم ﴿لاَ يَلْتَفِتْ﴾ ولا ينظر ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الخارجون ﴿أَحَدٌ﴾ خلفه حين سمع حنينهم وأنينهم وتشدد العذاب عليهم ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ فإنها تلتفت حين سمعت الصيحة، فخرجوا على الوجه المأمور، فنزل عليهم العذاب بعد خروجهم بالفور،

فصاحوا صيحةً عظيمةً، ولم يلتفت أحد من الخارجين إلا امرأته، فلما سمعت التفتت، وصاحت:واقوماه! فأصيب بلا تراخٍ ومهلةٍ ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشأن والأمر في علمنا أنها ﴿مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ فلما سمع لوط ما سمع، استسرع إلى مقتهم من كمال ضجرته منهم، قالوا له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ أي: موعد هلاكهم صبح هذه الليلة ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ﴾ أيها المستعجل ﴿بِقَرِيبٍ﴾ [هود:81].

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ على رسلنا بإهلاكهم ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: جعل الرسل بإقدارنا وتمكيننا إياهم قريتهم ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾[1] أي: يقلبون عليهم بيوتهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَمْطَرْنَا﴾ من جانب السماء ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على أماكنهم وقراهم ﴿حِجَارَةً﴾ تنحجر ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ وهو معرب من سنك كل ﴿مَّنضُودٍ﴾ [هود:82] ممتزج منضد بعضها على بعض ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة مقدرة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ وفي حضرة علمه ولوح قضائه لأمثال هذه البغاة الغواة الهالكين في تيه الغفلة والغرور.

﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: أمثال هذه البليات والمعيبات ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدود الله وأوامره ونواهيه ﴿بِبَعِيدٍ﴾ [هود:83] غريب حتى يستغرب في حقهم.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ

---

(1) إذا طاب عيش العارفين بجمال معروفهم، وسكنوا بمواساة لطائف قربه، واستأنسوا بنرجس مودته، وورد وصلته وياسمين نور صحبته، واطمأنوا في مكانات كشوف غرائب الملك والملكوت، وأمنوا من بليات الامتحان، هاج غيرة القدم عليهم، وأقلعهم طوارقات القهر، والقتهم إلى منازل الامتحان، وجعلت أعالي قلوبهم وأحوالهم أسافل نفوسهم وشهواتها، حتى يعرفوا أن ساحة الكبرياء منزهةً عن الأنس والوحشة والوجود والعدم، والمريدون إذا استكبروا على المشايخ يقلب الله مواجيدهم بطر النفوس ومجاهدتهم اتباع شهواتهم، الويل لمن كان هكذا المسلم عليهم أحجار البعد، نعوذ بالله منها، وسماتها تواتر العصيان، والخروج على أطيار بساتين الرحمان، وهذا جزاء من خرج على سادته ومشايخه، [العرائس].

ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:84-87].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين المعتبرين من ذوي الاستبصار والاعتبار وقت؛ إذ أرسلنا ﴿إِلَى مَدْيَنَ﴾ حين بالغوا التطفيف والتخسير في المكيلات والموزونات ﴿أَخَاهُمْ﴾ ومن شيعتهم ﴿شُعَيْبًا﴾ المتشعب منهم، ليكون أدخل في نصحهم وأجهد في إهدائهم وإرشادهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ موصيًا لهم، متحننًا على وجه الشفقة والنصيحة ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ليس له شريك في الوجود والألوهية والربوبية وتيقنوا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ مظهر لكم ولجميع ما ظهر وبطن غيبًا وشهادة ﴿غَيْرُهُ﴾ بل الألوهية محصورة إليه، مقصورة له؛ إذ لا شيء سواه، ولا يستحق للعبادة إلا هو ﴿وَ﴾ عليكم أيها المأمورون من عنده بالاعتدال والاقتصاد في جميع الأخلاق والأفعال والأحوال أن ﴿لَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ لبني نوعكم ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: سعة ورفاهية غاية لكم وتفضلاً عليكم، فعليكم أن تزيدوها وتديموها بالشكر والإنصاف والانتصاف على مقتضى ما أُمرتم به من عند ربكم، وإن لم تعلموا مني ونصحي ولم تقبلوا قولي ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ من غيرة الله وكمال قهره وسطوته ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود:84] فيه عذابه على جميع أهل الزيغ والضلال، المنحرفين عن جادة الاعتدال.

﴿وَ﴾ بعدما قدم عليهم المنهي للعناية والاهتمام بشأنه، أردفه بالمأمور؛ للتأكيد والمبالغة وزيادة التقرير والإحكام، كأنه استدل عليه لمزيد إشفاقه وكمال مرحمته، فقال: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إن أردتم خير الدارين ونفع النشأتين ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ على عباد الله؛ أي: لا تزيدوا عليها ولا تنقصوا منها؛ إذ الطرفان كلاهما مذمومان، بل أوفوهما ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَبْخَسُوا﴾ ولا تنقصوا ﴿النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ في حال من الأحوال ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: 85] أي: لا تظهروا عليها بالخداع والحيف والبخس والتطفيف.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ التي قدرها في سابق حضرة علمه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ومزيد مما لكم من تطفيفكم وتنقيصكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله وبتدبيراته وتقديراته ﴿وَ﴾ اعلموا يا قوم إني ﴿مَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود:86] يحفظكم عن جميع ما لا يعنيكم، بل أنا مبلغ ما أُرسلت به إليكم، فلكم الامتثال والتوفيق من الله الكبير المتعال.

ثم لما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ مستهزئين متهكمين: ﴿يَا شُعَيْبُ﴾ المدعي دعوة الخلق إلى الحق ﴿أَصَلاتُكَ﴾ الكثيرة التي تصليها في خلواتك ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أي: تأمرك صلواتك أن نترك أفعالنا التي كنا عملنا بها في ازدياد أموالنا حسب إرادتنا واختيارنا ﴿إِنَّكَ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿لأَنتَ الْحَلِيمُ﴾ ذو الحلم والكرم، ولا تعجل في الانتقام ﴿الرَّشِيدُ﴾ [هود:87] العاقل، لا تتكدر بمثل هذه الأوهام، قالوا له هذا استهزاء وسخرية.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ [هود:88-91].

﴿قَالَ﴾ شعيب بعدما تفرس بنور النبوة باستهزائهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ الساعين للباطل المصرين عليه ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ جئت لكم ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ مصدقة ناشئة ﴿مِّن﴾ قبل ﴿رَّبِّي﴾ معجزة لجميع ما يقابلني ويعارضني ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿رَزَقَنِي مِنْهُ﴾ أي: من عنده سبحانه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ معنويًا وصوريًا وروحانيًا وجسمانيًا، فهل يليق بمثلي أن يفتري عليه، وينسب إليه مراء ما لم يوحَ من عنده كذبًا وبهتانًا ﴿وَ﴾ اعلموا أيضًا أني ﴿مَا أُرِيدُ﴾ بنهيي لكم عن التطفيف والتبخيس ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ فيما أنتم عليه وأرجع بنفسي ﴿إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ لأستبد وأتخصص به، وهو إفساد وميل عن جادة الله الحق وصراط الله الأقوم، فكيف يميل الموحد المؤيد إلى أمثال هذا، بل ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ أي: ما أريد ﴿إِلاَّ الإِصْلاحَ﴾ مقدار ﴿مَا اسْتَطَعْتُ وَ﴾ ما أنا متكفل للصلاح أيضًا ومدع الاستقلال به ﴿مَا تَوْفِيقِي﴾ أي: إقداري وتمكيني وحولي وقوتي ﴿إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ إذ لا حول ولا قوة بالأصالة إلا بالله لذلك ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: وثقت والتجأت ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1]

---

(1) قال في التأويلات: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فيما اختصني به في الأزل، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فيما قدر لي لا إلى

[هود:88] أرجع وأتوجه في جميع ما رجوت؛ إذ هو مولاي ومولي أموري وعليه اعتمادي واعتضادي.

﴿وَ﴾ بعدما تفرس منهم المصيبة والمراء المفرط، قال على مقتضى المحبة والشفقة وإرخاء العنان: ﴿يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي: لا يحملنكم بغضي وعداوتي على الجرائم المستجلبة لأنواع العذاب والنكال، إني أخاف عليكم ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ بسبب جرائمكم وعصيانكم ﴿مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ﴾ مثل ما أصاب ﴿قَوْمَ هُودٍ أَوْ﴾ مثل ما أصاب ﴿قَوْمَ صَالِحٍ﴾ وبالجملة: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ﴾ وقصة استئصالهم وإهلاكهم وتقليب أماكنهم عليهم ﴿مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:89] متمادٍ في البعد إلى حيث يحصل لكم الذهول عنه لقرب عهدهم.

﴿وَ﴾ يا قوم ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ الذي أظهركم من العدم من جميع فرطاتكم ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: اخلصوا في إنابتكم ورجوعكم، ولا تغتموا بعد إخلاص التوبة بما جرى عليكم من الجرائم ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ يقبل توبتكم ويعفو عن زلاتكم ﴿وَدُودٌ﴾ [هود:90] يحبكم ويرحمكم ويتفضل عليكم.

ويعدما بالغ في نصحهم وإرشادهم ﴿قَالُوا﴾ تسفيهًا عليه وتخويفًا: ﴿يَا شُعَيْبُ﴾ نادوه على سبيل الاستهزاء والاستحقار ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ ونفهم ونعقل ﴿كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: بعض هذياناتك التي تكلمت بها ﴿وَإِنَّا﴾ أي: وإن لم نفهم بعض كلماتك لابتنائها على الخبل والخرق ﴿لَنَرَاكَ﴾ في بادي الرأي ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾ في غاية الضعف والحقارة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْلا رَهْطُكَ﴾ أي: عشائرك وأقوامك ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ بالحجارة ألبتة بسبب هذاياناتك وذكرك آلهتنا بالسوء، ودخلك على أفعالنا مع أموالنا ﴿وَ﴾ اعلم يقينًا إنك بنفسك ﴿مَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:91] بل عزتك عندنا بسبب رهطك لكونهم إخواننا في الدين، فلا نريد أذاهم بقتلك، وإلا فلا نبالِ بك وبرحمتك.

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى

غيره، والتوكل على ثلاثة أوجه: توكل المبتدئ: وهو ترك الأسباب في طلب المعاش. وتوكل المتوسط: وهو ترك طلب المعاش في طلب العيش مع الله. وتوكل المنتهي: وهو استهلاك الوجود في وجود الله وإفناء الاختيار في اختيار الله؛ ليبقى في هويته بلا هو متصرفًا في الأسباب به، ولا يرى التصرف والأسباب إلا لمسبب الأسباب.

بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود:92-95].

وبعدما آيس شعيب عليه السلام من إيمانهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه هنا تهكمًا بخلاف ما مضى؛ إذ قد آيس عن صلاحهم بالمرة ﴿أَرَهْطِي﴾ وأقوالي ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ﴾ الذي أوجدكم من كتم العدم، فعززتموهم وراعيتم جانبهم ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أي: الله سبحانه وأوامره ونواهيه وإطاعة رسوله ﴿وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: منبوذًا وراء ظهوركم، بل رجحتم جانب المصنوع على جانب الصانع ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المفاسد ﴿مُحِيطٌ﴾ [هود:92] بعلمه إحاطة حضور لا يغيب عنه شيء، فيفصلها عليكم ويجازيكم بها.

﴿وَيَا قَوْمِ﴾ الناكبين عن طريق الحق المصرين على الباطل ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ وعلى مقتضى مرتبتكم ونشأتكم أي عمل شئتم ﴿إِنِّي﴾ أيضًا ﴿عَامِلٌ﴾ على شأني ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أنتم وأنا أيضًا ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويرديه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ منا بالله وبسر ربوبيته وتوحيده ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ أي: انتظروا وترقبوا بالعذاب والنكال ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود:93] منتظر.

﴿وَلَمَّا جَاءَ﴾ ونفذ ﴿أَمْرُنَا﴾ بإهلاكهم ﴿نَجَّيْنَا﴾ وأخرجنا أولاً من بينهم ﴿شُعَيْبًا﴾ الناجي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وامتثلوا بما أُمروا به من عندنا ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ نازلة ﴿مِّنَّا﴾ إياهم تفضلاً ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم حين صاروا في فراشهم بائتين ﴿الصَّيْحَةُ﴾ الهائلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ﴾ التي كانوا مترفهين فيها ﴿جَاثِمِينَ﴾ [هود: 94] جامدين جثومهم وأجسادهم بلا روح.

وصاروا ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ ولم يسكنوا ﴿فِيهَا﴾ فصاح عليهم من صاح من أرباب الفطنة والعبرة: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:95].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ

فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾ [هود:96-101].

وبعدما انقرض أولئك الطغاة الغواة المنهمكين في الغي والضلال، المفسدين في الأرض بأنواع الإفساد والإضلال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ حين حدث على الأرض أمثال أولئك الهالكين بل أسوأهم حالاً وأقبحهم شيمة وخصالاً وأشدهم بغضًا وشكيمة على الحق وأهله، عبدنا ﴿مُوسَى﴾ المخصص من عندنا بتكليمنا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا واستقلالنا في ملكنا وملكوتنا ﴿وَسُلْطَانٍ﴾ أي: أيدناه من عندنا بحجة واضحة وبرهان ﴿مُبِينٍ﴾ [هود:96] ظاهر الدلالة على صدقه في دعواه عند من له أدنى مسكة.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الذي هو رأس أهل الضلال ورئيسهم إلى حيث تبعوه بالألوهية من غاية عتوه واستكباره ﴿وَمَلَئِهِ﴾ المعاونين له في أمره وشأنه، ثم لما أمهلنا زمانًا على غروره ورفعنا قدره في هذه الدنيا مسرورًا؛ تغريرًا عليه ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ من على الأرض ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ وامتثلوا بمقتضاه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود:97] هادٍ إلى الحق، موصل إلى مقصد التوحيد، بل هو غار موصل إلى نار الخذلان وسعير الحرمان.

إذ هو بنفسه ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي: يتقدم عليهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التي انكشفت فيها السرائر واضمحلت الأوهام ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ مثل إيرادهم على ماء نيل في دار الدنيا، شبه حالهم في النشأة الأخرى بحالهم في النشأة الأولى، لذلك عبر عنه بالإيراد ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود:98] ونار الخذلان وجحيم الحرمان.

﴿وَ﴾ هم من غاية خبثهم وفسادهم ﴿أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ النشأة ﴿لَعْنَةً﴾ دائمة مستمرة ﴿وَ﴾ يلعنون أيضًا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بأضعاف هذه اللعنة، وبالجملة: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ﴾ أي: العون والعطاء ﴿الْمَرْفُودُ﴾ [هود:99] أي: المعان والمعطى رفدهم التي هي طردهم في الدارين ولعنهم في النشأتين.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى﴾ وأخبارهم وما جرى عليهم ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ بالوحي يا أكمل الرسل ليكون عبرة لك ولمن تبعك مشاهدة وتذكيرًا ﴿مِنْهَا﴾ أي: من تلك القرى ﴿قَائِمٌ﴾ جدرانها بلا سقوف ﴿وَ﴾ منها ما هو ﴿حَصِيدٌ﴾ [هود:100] مدروس مندك، كالزرع المحصود، عفت آثاره واندرست أطلاله.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكهم وتخريب ديارهم ﴿وَلَكِن﴾ هم ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ باتخاذ مصنوعاتنا آلهة أمثالنا مستحقة للعبادة، ظنًا منهم أن آلهتهم تنفعهم لدى الحاجة وتشفعهم وقت الشفاعة ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ أي: كفت ودفعت عنهم ﴿آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ ظلمًا وزورًا ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئًا قليلاً من القضاء ﴿لَّمَّا جَاءَ﴾ أي: حين جاء ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وحين نزل عذابه وحل عقابه إياه، بل ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ آلهتهم حين حلول العذاب عليهم ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: 101] أي: هلاك وتخسير؛ لأنهم بسبب عبادة هؤلاء صاروا مطرودين عن سعة رحمة الله وجوده.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود:102-109].

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت يا أكمل الرسل ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أي: انتقامه وبطشه ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي: حين أخذ أهلها بظلمهم وعصيانهم ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ خارجة عن مقتضى الأمر الإلهي ونهيه، وبالجملة: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ﴾ للمسرفين الخارجين عن حيطة حدوده ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿شَدِيدٌ﴾ [هود:102] في غاية الشدة؛ لكونهم مبالغين في

الإصرار والاستكبار.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصص الأمم الهالكة ﴿لَآيَةً﴾ عظة وعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ وحساب الله إياه فيها على رءوس الأشهاد ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[1] [هود:103] شهد فيه الجميع للجميع بل الأعضاء والجوارح على صاحبها.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي: اليوم الموعود ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:104] أي: لانقضاء مدة قصيرة.

اذكر يا أكمل الرسل عظة وتذكيرًا لمن تبعك ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم الموعود الهائل ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ فيه ﴿نَفْسٌ﴾ ولا يشفع شافع؛ لشدة هوله وفزعه ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: بإذن الله وإقداره إياها ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: بعض الناس من الموقوفين في المحشر ﴿شَقِيٌّ﴾ خرج من الدنيا على الشقاوة ووخامة العاقبة ﴿وَ﴾ منهم ﴿سَعِيدٌ﴾ [هود:105] خرج منها على السعادة وحسن العاقبة.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ في الدنيا وخرجوا منها على الشقاوة ﴿فَفِي النَّارِ﴾ أي: هم في النشأة الأخرى داخلون في النار ومضطربون فيها؛ إذ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود:106] أي: إخراج النفس من شدة الحرارة، وشهيق؛ أي: رده؛ يعني: حالهم فيها كحال من استولت عليه الحرارة على قلبه وضيق الأمر عليه، فيردد نفسه كما في سكرة الموت، وذلك من شدة كربهم وآلمهم ولكونهم متناهين في الشقاوة في دار الدنيا، لا ينقطع عذابهم فيها أصلاً.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: ما تحقق الجهتان الحقيقيتان؛ أي: الفوق والتحت ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: تعلق إرادته ومشيئته لإخراج بعض منها كفساق المؤمنين ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:107] أي: له الاختيار التام في جميع مراداته ومقدوراته، ومن جملتها: إخراج بعض العصاة من النار.

---

(1) قال يحيي بن معاذ: الأيام منها يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موجود، ويوم محدود، فاليوم المفقود: أمسك؛ فإنك على ما فرطت فيه، واليوم المشهود يومك فتزوّد منه ما استطعت، واليوم المورود: لا تدري هو لك أم أنت له لعلّه ليس من أيامك، وهو غدك فلا تشغل به ولا تهتم له، واليوم الموعود: فاجعله من بالك، واذكره على كل أحوالك، واعمل له فإنه آخر أيامك، ويوم ممدود: يوم يقوم الناس لرب العالمين، فانظر لنفسك لوقوف ذلك.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ في الدنيا، وخرجوا على السعادة منها ﴿فَفِي الْجَنَّةِ﴾ أي: هم في النشأة الأخرى في الجنة التي هي منازل السعداء الآمنين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ متنعمين فيها مترفهين بأنواع النعم الجسام ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وتعلق إرادته بإعلامها، وهو الانكشاف الذاتي والتجلي الشهودي، وذلك لمن يعطى ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1] [هود:108] أي: غير مقطوع؛ إذ لا انقطاع للتجليات الذاتية ولا للذاتها المرتبة عليها بالنسبة إلى الفائزين بها، جعلنا الله من خدامهم.

وبعدما تبين حال السعداء المقبولين والأشقياء المردودين ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك وتردد ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون، ألا يستجلب عليهم العذاب والنكال كما استجلب على أسلافهم؛ إذ هم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ﴾ وأسلافهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فسيلحقهم مثل ما لحقهم؛ لأن اشتراك الأسباب يوجب اشتراك المسببات ﴿وَإِنَّا﴾ وإن أمهلناهم زمانًا في الدنيا ﴿لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ وحظهم من العذاب في الآخرة مثلهم ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود:109] من عذابهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿110﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿111﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿112﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴿113﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿114﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿115﴾﴾ [هود:110-115].

---

(1) الإشارة: السعادة على قسمين: سعادة الظاهر، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففي الدنيا بالراحة من التعب، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب، وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان، واليقين والاطمئنان في حضرة الشهود والعيان، وفي الأخرة بدوام النظر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. البحر المديد (75/3).

﴿وَ﴾ كيف لا نوفي العذاب على المشركين ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من عظيم جودنا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة حين فشا الجدال والمراء والكفر والفسوق بين بني إسرائيل واضمحلت العدالة الإلهية بالكلية ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ مثل اختلافهم في كتابك الذي هو أفضل الكتب علمًا وإحاطة، وأجمعهم حكمًا، وأشملهم معرفة، وأكملهم حقيقة وكشفًا ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في أنظار هؤلاء الكفرة وإمهالهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ﴾ أي: حكم وفرق ﴿بَيْنَهُمْ﴾ الآن، بحيث يتميز المحق من المبطل، فليلحق المبطلين وبال ما صنعوا، فهلكوا كما هلكوا ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفار قومك، من غاية انهماكهم في الغفلة وتماديهم في العناد والاستكبار ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ أي: من أمر القرآن مع أنهم عارضوا معه مرارًا فأفحموا ﴿مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود:110] موقع للريب والشك للخرفاء المنحطين عن التأمل في مرموزاته والتدريب في إشاراته.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ أي: كلاً من المؤمنين المحقين والمبطلين الكافرين، والله ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ ويوفرن عليهم بلا زيادة وتنقيص؛ إظهارًا للقدرة الكاملة والعدالة التامة الشاملة ﴿رَبُّكَ﴾ الذي أظهرهم من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أجورها وجزاءها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر والصلاح والفساد والعبادة وتركها ﴿خَبِيرٌ﴾ [هود: 111] على وجه الحضور، لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية.

ومتى تلطفت يا أكمل الرسل بخبرة الحق وحضوره، وتنبهت تنبيهًا وجدانيًا حضوريًا وانكشفت بها انكشافًا عينيًا شهوديًا ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ أي: فاعتدل في أوصافك وأفعالك وأقوالك ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ من ربك بوحيه عليك وإلهامه إليك، وأمر أيضًا بالعدالة والاستقامة ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ وآمن لك واتخذ طريقك مسلكًا إلى الحق ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لاَ تَطْغَوْا﴾ أي: لا تميلوا ولا تخرجوا أيها المتحققون بحقية التوحيد واستقامة صراطه ولا تنحرفوا عن سبيل السلامة التي هي جادة الشريعة المصطفوية أصلاً ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من جميع الأعمال الموجبة للعدالة والانحراف ﴿بَصِيرٌ﴾ [هود:112] لا يخفى عليه شيء.

ولصعوبة الامتثال بهذه الآية الكريمة قال ﷺ: «شيبتني سورة هود»[1].

---

(1) رواه ابن سعد (435/1)، وأبو يعلى (102/1، رقم 107)، والطبراني في «الأوسط» (16/8، رقم

وقال أيضًا ﷺ: «هذه الآية قصمت ظهور أنبياء الله وأوليائه»(1).

﴿وَلاَ تَرْكَنُوا﴾ أي: لا تميلوا ميلة ولا تلفتوا التفاتًا قليلاً أيها المستوون على صراط الله، المستقيمون لجادة عرفانه ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: خرجوا عن حدود الله الموضوعة لإصلاح أحوال عباده ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ بأدنى الميل والالتفات ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ ينقذونكم من النار لو توالونهم أو تداومون الميل إليهم ﴿ثُمَّ﴾ اعلموا أنكم لو اخترتم موالاة الظلمة واتخذتموهم إخوانًا كسائر المؤمنين ﴿لاَ تُنصَرُونَ﴾ [هود:113] ولا تنقذون من النار، فعليكم ألا تتخذوا الكفار أولياء من دون المؤمنين.

﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ أي: أدم الميل والركون إلى الله بجميع الأعضاء والجوارح في جميع الأوقات والحالات، سيما ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ أي: قبل الطلوع وقبل الغروب، فإنهما وقتان محفوظان عن وسوسة الأوهام، خاليان غالبًا عن الشواغل ﴿وَ﴾ عليك أن تختلس لتوجهك ﴿زُلَفًا﴾ أي: ساعات ﴿مِّنَ﴾ آخر ﴿اللَّيْلِ﴾ قريبة بالنهار، فإن إقدامك عليها وإقامتك لها حسنات، خصوصًا في تلك الساعات الخالية عن وساوس الخيالات ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ﴾ الخالية عن الرياء والرعونات ﴿يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وتصفي صاحبها عن كدر الغفلات ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر بالاستقامة على المتعظين، الذين يذكرون الله في السراء والضراء ويتعظون بجميع ما جرى عليهم من الخصب والرخاء، إنما هو ﴿ذِكْرَى﴾ وعظة وتذكرة شافية ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود:114] الله في عموم أحوالهم وحالاتهم.

وبالجملة: ﴿وَاصْبِرْ﴾ على أذاهم واكظم غيظك، فإن الصبر على الأذى من أعظم الحسنات ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ [هود:115] سيما على من أساء عليه.

﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ

8269) قال الهيثمي (37/7): رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله رجال الصحيح ويأتي في سورة الواقعة، ورواه أبو يعلى إلا أن عكرمة لم يدرك أبا بكر.

(1) لم أقف عليه.

قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:116-119].

﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ اللاتي خلون ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ وفيها ﴿أُوْلُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي: ذوو رأي ونهية وفضل وتدبير ﴿يَنْهَوْنَ﴾ برأيهم وتدبيرهم ﴿عَنِ الْفَسَادِ﴾ الواقع ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ولكن ما أبقينا عليها منهم ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من عقلائهم، ليتبع لهم العوام فينجوا من الآثام ﴿وَ﴾ مع ذلك لم يتبعوا حتى ينجوا، بل ﴿اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالعرض على عذاب الله والخروج عن مقتضى حدوده بـ ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: المترفهة المتنعمة من ذوي اللذات والشهوات، فاهتموا بتحصيل أسبابها ﴿وَكَانُوا﴾ بميلهم إلى الهوى واللذات ﴿مُجْرِمِينَ﴾ [هود:116] مستحقين لأنواع العقوبات.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ أي: ليس من سنته وجري عادته ﴿لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ بشرك وكفر صدر عنهم ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:117] أي: والحال أن أهلها مصلحون على الأرض لا مفسدون فيها؛ يعني: لا يأخذهم سبحانه بمجرد حق الله بلا انضمام حقوق العباد إليه، بل إنما أخذهم الله حين فشا الفسوق والمراء، وظهر الفساد والجدال بين العباد.

كيف ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ من غاية لطفه لعباده ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:118] متفقة على التوحيد بلا مخالفة منهم.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ وجعل فطرته على صرافة التوحيد ﴿وَلِذَلِكَ﴾ التوحيد والعرفان ﴿خَلَقَهُمْ﴾ وجبلهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ بوضع الاختلاف بين استعدادات عباده حسب تجلياته وشئونه على مقتضى أوصافه وأسمائه المتقابلة بحسب الكمال ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ التي أُعدت للأشقياء المردودين المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية والقسط الحقيقي ﴿مِنَ الجِنَّةِ﴾ أي: الشياطين ﴿وَالنَّاسِ﴾ التابعين لهم

والمقتفين أثرهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾[1] [هود:119] أي: منهما جميعًا.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:120-123].

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كل قصة ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ العظام من جملة ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ﴾ ونقرر على التوحيد ﴿فُؤَادَكَ﴾ إذ بكل قصة من القصص المذكورة ينشرح صدرك للتوحيد ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: الشهود والانكشاف التام خاصة ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:120] الذين يصدقونك ويقتفون أثرك.

---

(1) إن الله سبحانه حفظ الأوقات على أهل المشاهدات والمحاضرات، ووسمها بوظائف الطاعات لهم ليصلوا بالمجالسات والمحاضرات والمراقبات والطاعات إلى معالي الدرجات والقربات؛ لأنَّ من حضر بقلبه وروحه وعقله مجالس الذكر والمراقبة يصل سره إلى رؤية المشاهدة أحد طرفي النهار؛ لأن كثرة الفترة والزلة والغفلة يكون بالنهار حتى يكونا ذاهبين بما جرى بينهما من الغفلات بما فيها من صفاء الأذكار وجولان الأفكار، وأخذ طرفًا من الليل، وهو أولها لبقاء صفاء الوقت، وحلاوة الذكر والطاعة، وحرقة الوجد، ولهب القلب، ولذة الأنس إلى النهار، ولا يترك صاحبها عاقلاً، وإنْ كان نائمًا، فإذا وصل أوقات الليل بأوقات النهار ووصل أوقات النهار بأوقات الليل بنعت عد الأنفاس، ونفي خواطر الوساوس، تذهب أنوارها غبار الخطرات، وظلمة المعارضات، وهيجان الطبيعيات البشريات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾: إنَّ حسنات أنوار المشاهدات تذهب سيئات المعارضات، وتذهب حسنات كشف الجمال سيئات الخيال، وتذهب حسنات التوحيد والمعرفة والفهم سيئات الظن والوهم، ولا يعرف ما وصفنا إلا أهل الذكر من المريدين، وأهل المراقبة من المحبّين، وأهل الرعاية من العارفين، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ قال أبو عثمان: الأوقات والساعات جُعلت علامات الأذكار أوقاتًا للتيقظ والاعتبار، فمن مرت عليه أحواله وأوقاته وساعاته في غفلة، فليتيقن بموت القلب؛ لأنه مطالبٌ في كل وقت من أوقاته، إما بفريضة أو سنة أو أدب. قال الواسطي: أنوار الطاعات تذهب بظلم المعاصي. قال بعضهم: رؤية الفضل تسقط عن العبد رؤية العمل. قال أبو عثمان: حسن الظن بالخلق يذهب بالأمنة والغيبة، ويورث الشفقة والنصيحة والرحمة، وذلك موعظة لمن يوفق له ويؤهل.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بك وبدينك وبكتابك مماراة لهم ومباهلة ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي عمل شئتم ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ [هود:121] على مكانتنا وشأننا بتوفيق الله.

﴿وَانتَظِرُوا﴾ بأي شيء انتظرتم ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود:122] العلم عند الله.

إذ ﴿وَلِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: الإطلاع عليهما وعلى مكنوناتهما ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ إذ لا شيء ولا أمر إلا هو ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ حق عبادته ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ حق التوكل والتفويض ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل المحيط علمه بجميع ذرائر الأكوان إحاطة حضور ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: 123] من الإخلاص في العبادة والتبتل والتوكل والتفويض والرضاء والتسليم.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المأمور بتهذيب الأخلاق من الرذائل، والأوصاف من الذمائم، والأوصاف والأفعال من القبائح، والأقوال من الكواذب، والأطوار من المخالفة المنافية لصرافة التوحيد أن تستقيم بعزائمك هذه على الوجه المأمور لنبيك الذي هو قبلة لجميع مقاصدك بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:112] أي: فاعتدل بجميع ما صدر عنك، فلك أن تقتفي أثره ﷺ في جميع حالاتك من امتثال الأوامر واجتناب النواهي وتهذيب الأخلاق؛ إذ هو ﷺ زبدة أرباب التوحيد الواصلين بمقعد الصدق ومنزل التفريد، والسابقون واللاحقون كلهم يقتبسون من مشكاة أنواره ﷺ.

فعليك أيها المستعد المستشرد من الكلام المجيد أن تضبط جميع أحوالك على الاستقامة والاعتدال، وتجتنب عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، وتستعيذ بالله عن مداخلة الرياء والسمعة المنافيين للإخلاص.

واعلم أن خير قرينك في طريقك هذا الرضا والتسليم والتفويض إلى العزيز العليم، ولك العزلة عن الخلطة والانخراط في سلك أهل الثروة والغفلة، والقناعة بالكفاف والعزوبة بالعفاف.

وعليك ألّا تفرق خاطرك وهمك في أمور دنياك ولو لحظة حتى لا تورثك همًا كثيرًا وحزنًا طويلاً؛ إذ المسافر في منزله لا يتصرف إلا مقدار مقيله، أمَا تسمع قول

النبي ﷺ الأديب الأريب: «**كن في الدنيا كأنك غريب**»[1]؟!.

أو: «**اشدد حيازيمك للموت والرحيل كأنك عابر سبيل**»[2].

وبالجملة: لا تغتر بحياتك في دار الغرور، وعد نفسك من أصحاب القبور، فإنه دأب أهل السرور، ديدنة أرباب الحضور.

---

(1) رواه البخاري في «صحيحه» (267/21).

(2) رواه الطبراني في «الكبير» (84/1)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (175/6) بنحوه.

سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة يوسف عليه السلام

لا يخفى على من تأمل في صور الرؤيا وتدبر في كيفية ظهورها وانمحائها سريعًا وعدم استقرارها كالبرق الخاطف، أن الوجود الخيالي ألطف الموجودات وأرقها وأصفاها عن كدر الهيولى، وأشبهها بالتجليات الإلهية المتجددة المتشعشعة دائمًا، إلا أن الآثار الغيبية التي هي منزوعة عنها، مأخوذة منها ستوجد ألبتة، كذلك وجب العبور عنها والتعبير بها، ولهذا صار الرؤيا الصالحة جزءًا من سبعين جزءًا من أجزاء النبوة، إلا أن المطلعين عليها والمتأملين فيها ممن حصنه الله بالنفوس القدسية والمرتبة الحدسية المتفرعة على التمرين والرسوخ في سر سريان الوحدة الذاتية، المتجلية على ذرائر المكونات، وفي كيفية رقائق المناسبات والارتباطات الواقعة بين أجزاء المظاهر وجزئياتها، إنما هو في غاية الندرة وبواسطة ذلك صارت كمالاتهم اللائقة لنشأتهم كلها بالفعل، وصاروا بذلك مستحقين للخلافة والنيابة الإلهية.

ومنهم يوسف الصديق - صلوات الرحمن عليه وسلامه - أحاط بحضرة الخيال إلى حيث لم يشذ عن تعبيره صورة من صور الرؤيا، كما أخبر عنه الحق سبحانه في هذه السورة ويفصح عنه التواريخ والآثار المروية عن النبي المختار ﷺ، لما أراد سبحانه أن يشير إلى مرتبته وينبه على نبيه بعلو شأنه ورتبته، ذكر قصته في كتابه تتميمًا لسعة دائرة كمال حبيبه ﷺ، والمقتفين أثره من خلص أولياء الله؛ لينال كل منهم إلى ما قدر الله لهم من حظوظ المراتب، فقال متيمنًا باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بكمالاته على حضرة الخيال ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعباده بالعبور عنها على صور الهياكل العينية والتمثال ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم إلى كيفية ظهوره بالتفصيل والإجمال.

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف:1-6].

﴿الر﴾ أيها الإنسان الكامل اللائق، الرشيد لرفع لواء سرائر الربوبية ورموز التوحيد، وتمييز أجل لباب الرؤيا والروايات الواردة لتبيينه عن قشورها ﴿تِلْكَ﴾ العبر والأمثال والقصص والآثار المذكورة لك فيما يتلى عليك يا أكمل الرسل لتأييدك وارتفاع شأنك ﴿آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ﴾ [يوسف:1] الذي هو حضرة علمنا المشتمل على جميع مراداتنا ومقدوراتنا.

﴿إِنَّا﴾ من مقام جودنا ولطفنا ﴿أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا﴾ منظمًا على صور الألفاظ والعبارات، مترجمًا عما عليه الأمر في حضرة علمنا الحضوري ﴿عَرَبِيًّا﴾ أسلوبه عناية منا إليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:2] معناها وتطلعون على مرموزاتها وإشاراتها وتطرحون عقولكم الموهوبة لكم لكشف سرائرها وخفياتها.

﴿نَحْنُ﴾ من كمال لطفنا معك ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل، تأييدًا لأمرك وتعظيمًا لشأنك ﴿أَحْسَنَ القَصَصِ﴾[1] استماعًا وأكملها انتفاعًا وأشملها عبرة وأتمها

---

(1) إنَّ الله سبحانه لما أراد أن يوقع عنقاء همَّته إتعاب قوسينية إلى شبكة عشق زينب، وسقاها من مشارب سواقي الالتباس زلال بحر تجلى صفة الجمال بأقداح الأفعال، رأى قدس همته عن علل الإنسانية في ذلك، وغيرته على معهد مشاهدة الأزل تسلّى قلبه بهذه القصة التي هي مطية رواحل أسرار العاشقين والوامقين، وهو تعالى بجوده واختياره له سيادة الكونين ورسالة العالمين يواسيه لئلا يضيق صدره في محل الامتحان، لأنَّ امتحان بالعشق الإنساني مراقي مشاهدة جمال الآزال والآباد ليسير في ميادين القدم والأبد بمراكب العشق، فإنَّ بالعشق بلغوا إلى العشق، وحسن القصة بيان عشق الإنساني في مراتب الأرواح العاشقة، وطيرانها من هذه المقامة إلى عشق الألوهية، ومشاهدة الأزلية. فقد بيَّن تعالى أن قصة العاشق والمعشوق أحسن القصص لما فيها من الأمثال والعبر، والذوق والشوق، والفراق والوصال، والبلاء والعناء، وشأن يوسف ﷺ كله عَشِقَ به أبوه، وهكذا كل من رآه، لأن حسن جمال القديم ألبس وجهه، وكان مرآة الله في بلاد الله تجلّى الحق منها للعباد. وكيف لا يكون أحسن القصص؟! وهذه القصة قديمة أزلية، وكل حسن في العالم هي معدٌ بها، ومنها صدر كل الحسن والمستحسن، ومن

فائدة وأعمها عائدة؛ إذ الفطن اللبيب استفاد منها من العبر والتذكيرات والرموز والإشارات ما يكفي مؤونة سلوكه في أمر دينه لو كان من ذوي الرشد وأهل الخبرة والبصيرة، وإنما علمناه لك ونبهناه عليك ملتبسًا ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ أي: بإيحائنا وإنزالنا ﴿إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ المخبر عن المغيبات المكنونة في حضرة علمنا ﴿وَإِن كُنتَ﴾ في نفسك ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل وحينا وإلهامنا إياك ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف:3].

اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾[1] حين بلغ الحلم وترقى من الطفولية: ﴿يَا أَبَتِ﴾ ناداه تحننًا إليه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في المنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ من الكواكب العظام ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أيضًا معهن ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:4] واضعين جباههم على تراب المذلة عندي تعظيمًا وترحيبًا - جمعها جمع العقلاء باعتبار ما يؤول إليه ويؤول به - ثم لما تفرس أبوه من الرؤيا ما تفرس، بادر إلى نهيه عن الإفشاء والانتشار لإخوته حيث ﴿قَالَ﴾ له قبل أن يشتغل بتأويلها وتعبيرها: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ صغره؛ تلطفًا له وإشفاقًا عليه وتخوفًا من كيد إخوته ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ ولا تذكر

كمال حسنها أنّه تعالى أخرجها من تحت التكليف، ولم يذكر في قصة العاشق والمعشوق الأمر والنهي، كأنها خير الوصال وأثر الجمال، ومثل لعشاقه معه.

(1) جمع الله في اسم يوسف ﷺ أربعة حرف: الياء، والواو، والسين، والفاء، والياء: يسار ملكه، والواو: وضاحة وجهه، والسين: اطلاعه على أسرار الغيب بحسن تأويل الرؤيا والمكاشفات، والفاء: وفاءه في عهد الرسالة، فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في يوسف ﷺ سمي يوسف ﷺ، وأيضًا كان فيه خالص العبودية والحزن في شوقه إلى جمال الربوبية.

قال بعضهم: سُمِّيَ يوسف بيوسف ﷺ؛ لأن الأسيف العبد، وتعبد يوسف، ويقال: لحزنه، والأسف الحزن. جئنا إلى معنى رؤياه: رؤياه: أول مقام المكاشفة؛ لأن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات، فإذا قويت الحال تصير الرؤيا كشفًا، وبين الرؤيا والمكاشفات مقامات ذكرتها في الكتاب المكاشفة، وافهم رزقك الله فهم معاني المكاشفات أن الله سبحانه مثّل عالم الملكوت مما فيها مع أسرار الجبروت بنيران الكواكب والشموس والأقمار. وأيضًا: مثّل بها أحكام أكابر الأنبياء والأولياء، فالشمس مثل الذات، والقمر مثل الصفات، والكواكب مثل الأوصاف والنعوت والأسماء، وليس غرضي هاهنا بيان أشكال المكاشفات برقتها، لكن أقول بعون الله وتأييده نبذة مما كوشف ليوسف ﷺ: كان يوسف ﷺ آدم الثاني؛ لأن عليه كان من كسوة الربوبية ما كان على آدم، فرأت الملائكة على آدم ما رأت، فسجدوا له كلهم، وهاهنا سجد له أشراف الأنبياء، وهم خيرٌ من الملائكة، وكيف لا يسجدون لهما، ومن وجههما تتلألأ الأنوار القدوسية، وجلال السبوحية. [عرائس البيان].

﴿رُؤْيَاكَ﴾ التي رأيتها ﴿عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ لئلا يحسدوا لك من ارتفاع شأنك ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ بإغواء الشيطان إياهم ويحتالوا لمقتك وهلاكك؛ حسدًا لك ولعلو شأنك ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ المغوي المضل ﴿لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف:5] ظاهر العداوة، محيل عظيم، يعاديهم في لباس الصداقة ويفسدهم في صورة الإصلاح.

ثم لما سارع يعقوب عليه السلام بالنهي عن الانتشار والإفشاء تحذيرًا وتخويفًا له من كيد إخوته، اشتغل بتأويل رؤيته، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إراءتك هذه الرؤيا وتخصيصك بها ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: ينتخبك من بين الناس ويخصك بالرئاسة العظمى والمرتبة العليا، وهي النبوة والنيابة الإلهية ﴿وَ﴾ بعدما يجتبيك ويصطفيك ﴿يُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي: يخصصك بعلم الرؤيا وتعبيرها إلى حيث انكشف لك حضرة الخيال انكشافًا تامًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ﴾ بواسطتك ﴿عَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي: بنيه وأحفاده ومن ينتمي إليه وإن سفل ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ﴾ أي: جديك ﴿مِن قَبْلُ﴾ في سالف الزمان؛ يعني ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أعطاهما من الإنعام والأفضال ما لم يعطِ أحدًا من الخلة والإنجاء والإنقاذ والفدية والخلاص، وغير ذلك من النعم الجسام ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع اللطف والكرم ﴿عَلِيمٌ﴾ بعلمه الحضوري لاستعدادات عباده على مقتضى ما ثبت في لوح قضائه إجمالاً ﴿حَكِيمٌ﴾ [يوسف:6] في صورة تفضيله على وفق إجماله، لا يشذ عن حيطة علمه شيء.

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يوسف:7-12].

واعلم يا أكمل الرسل أنه ﴿لَقَدْ كَانَ فِي﴾ قصة ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ وما جرى بينهم من الحيل والمخادعات وإسقاط المروءة والخيانات، والإنابة والرجوع منها إلى الله في الخلوات، وإظهار العدم والاستحياء من الله، ومنه يوسف وأبيه ﴿آيَاتٌ﴾ دلائل

واضحات، وشواهد مفصحات عن أسرار التوحيد ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف:7] لو تأملوا في رموزها وإشاراتها واعتبروا منها[1].

اذكر لهم يا أكمل الرسل: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ أي: إخوة يوسف حين بثوا الشكوى من أبيهم في خلواتهم، حاسدين على يوسف وأخيهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين، أضافوه لكونه من أمه ﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ يؤانس معهما ويتحنن إليهما ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ فرقة ذوو قوة وكفاية تستحق وتليق أن يحبنا ويلتفت إلينا، وبالجملة: ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ في تفضيل المفضول وترجيح المرجوح ﴿لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:8] ظاهر المخالفة للعقل والعرف.

فعليكم أيها الإخوان أن تتأملوا في أمر أبيكم، وتتشاوروا لمقت يوسف وهلاكه حتى لا يلحق العار عليكم ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ حتى ييأس أبوكم منه ويقبل إليكم بالكلية ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ بعيدة عن العمران غاية البعد حتى ينساه أبوه، وحينئذ ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي: يخص ويخلص لكم مواجهة أبيكم خاليًا عن أغياركم، ويقتصر حينئذ التفاته وتحننه نحوكم ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ﴾ أي: بعد فقد يوسف عن نظر أبيكم وغيبته من عنده ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف:9] لخدمته وصحبته ومؤانسته، أو المعنى بأن تتوبوا بعدما صدر عنكم هذه الجريمة، ولتكونوا من بعده قومًا صالحين تائبين.

وبعدما تشاوروا في مقت يوسف وطرحه وطرده ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو يهوذا وكان أحسنهم رأيًا: ﴿لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ إذ نحن من عترة الأنبياء، لا يليق بنا قتله بلا رخصة شرعية ﴿وَ﴾ إن أردتم أن تدفعوه من عند أبيكم ﴿أَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ الذي على متن الطريق ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ أي: يأخذه ويذهب ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: بعض السائرين في أقطار الأرض، الواردين على الماء، فلا طريق لكم لطرده وطرحه سوى هذا ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف:10] قاصدين جازمين أن تفعلوا معه ما يبعده عن وجه أبيه.

وبعدما سمعوا من يهوذا ما سمعوا واستقرار رأيهم على رأيه، فأخذوا يحتالون

---

(1) قال البقلي: آيات يوسف سواطع نور الحق من وجهه، وظهور علوم الغيب في قلبه، ومعرفته بذات الله وصفاته، وكريم الآية ونعمائه ولطيف أفعاله وصنائعه، وما وضع الله في النفس الأمارة من عظيم قهر شهواتها، واستيلاء هواها، وفترتها وشرتها، ودقائق خدعتها، ولطيفة ما بينها وبين طبائع الشياطين، وحسن عاقبته، وبلوغه إلى أهل التمكين، وما بدا من إخوته من الغيرة والفرقة، وهذه البراهين تذكرة وتبصرة للمريدين والمحبين العارفين.

ويمكرون؛ لينالوا ما قصدوا، فاجتمعوا يومًا عند أبيهم تحننًا عليه وتواضعًا ﴿قَالُوا﴾ له على سبيل الشكوى وإظهار الحزن: ﴿يَا أَبَانَا﴾ نحن بنوك وخادموك، ويوسف أخونا وقرة عيننا وقوة ظهرنا ﴿مَا لَكَ﴾ أي شيء من السوء منا عرض لك ووصل إليك ﴿لاَ تَأْمَنَّا﴾ أي: لا تجعلنا أمناء مشفقين ﴿عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا﴾ في أنفسنا ﴿لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف:11] مشفقون حافظون مريدون الخير له.

ثم لما تفرسوا بأن أثر كلامهم في أبيهم، ولاح منه أمارات الرضا والتسليم، أخذوا في المكر حيث قالوا متضرعين إليه متحنين نحوه: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ نخرج إلى الصحراء مستنشقين ﴿يَرْتَعْ﴾ ويتفكه من أنواع الفواكه ﴿وَيَلْعَبْ﴾[1] بأنواع اللعب من الاستباق والانتضال؛ تفريجًا له وتفريحًا للقلب ﴿وَ﴾ لا تخف من أن يلحقه مكروه ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف:12] بجمعنا من المكروهات.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ

(1) قال في التأويلات: رضي يعقوب بلعبهم لا جرم ابتلي بما ابتلي، فاللعب خلقنا، وقيل: خدعوا أباهم بميعاد لذيذ، ثم فرقوا به بينه وبين والده، فينبغي للمؤمن أن يعتبر ولا ينخدع بما يخدع بالشيطان من المواعيد واللذائذ الباطلة، وقد قيل: أعدت شيء مشتغل بالدنيا، والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك ملأ فيه ولا يدري إلى أي الدارين مصيره، وقيل أيضًا: أكرم الله أربعة من الصبيان في حال صبيانهم:

الأول: عيسى ﷺ كما قال في حقه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:48] ومما حكي من حكمته قوله: معاشر الحواريين لا تجعلوا اليوم همكم، عند كل يوم همه. والثاني: يحيى ﷺ كما قال في حقه: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:12]، ومما روي من حكمة أنه قال: من حي بالموافقة فإنه لا يموت بالمخالفة، فإن كنت اليوم حيًا بالمخالفة تكن غدًا ميتًا بالعقوبة، وإنما لقن الحكمة كما حكي؛ ولهذا ندب الآباء إلى تعليم الصبيان أمور دينهم في صباهم؛ ليعتادوها ويشبوا عليها. والثالث: سليمان ﷺ أكرم في صباه بالفهم كما قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:79]. والرابع: يوسف ﷺ أوتي الحكمة في صباه فقوى سره لاحتمال البنيان، فأهل الولاء يحتملون أعباء البلاء، وقيل: البئر موضع الهلكة، ولمّا وصل إليها بركته صارت موضع السلامة والنار موضع الحرقة، فلمّا وصل إليها حشمة الخليل انقلبت بإذن الله نزهته وروضته، والغار كان محل الوحشة، فلمّا وصل إليها حشمة المصطفى ﷺ صار مزار الأولياء، كذلك القبر محل الوحشة، فإذا وضع فيه من صحبته التوحيد والمعرفة والطاعة انقلب روضة من رياض الجنة كما قال: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:89].

(١٣) قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ (١٧) وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾ [يوسف:13-18].

ثم لما بالغوا وألحوا ﴿قَالَ﴾ أبوهم: ﴿إِنِّي﴾ من شدة محبتي وشوقي إليه، وتحنني وعطفي نحوه ﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ مفارقته ﴿أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ مع ذلك ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ لأن أرضنا مذئبة ﴿وَأَنتُمْ﴾ لشدة شغلكم على الرتع واللعب ﴿عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف:13] حينئذٍ، ذاهلون عن حضانته وحفظه.

﴿قَالُوا﴾ على سبيل الاستبعاد والاستنكار مقسمين؛ تغريرًا عليه وتأكيدًا لمكرهم وخداعهم: والله ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة أقوياء ذوو عدة وعُدة وقدرة وقوة ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف:14] ضعفاء ذليلون مغبونون، قالوا ذلك على سبيل التشدد وإظهار الجرأة والشجاعة، كأنهم يستدلون على عدم وقوع المحذر به.

﴿فَلَمَّا﴾ احتالوا وبالغوا في الحيلة والمكر إلى أن ﴿ذَهَبُوا بِهِ﴾ أي: بيوسف إلى الصحراء، فاشتغلوا بضربه وشتمه والقهر عليه وأنواع العذاب والعقاب، وكادوا أن يقتلوه ظلمًا وزورًا، قال لهم يهوذا: أنتم عهدتم ألا تقتلوه، فما هذه المبالغة والاشتداد، أمَا تستحيون من الله؟ ﴿وَ﴾ بعدما قال لهم يهوذا هذا ﴿أَجْمَعُوا﴾ واتفقوا ﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ ويطرحوه ﴿فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ وهو جب معروف مشهور بجب يوسف، على ثلاثة أميال من صفد يعقوب، قريب من جسر يقال له: جسر يعقوب بفرسخ تقريبًا، فقربوه على الجب وعزموا إلقاءه فيها، فتعلق يوسف بشفير البئر، فربطوا يديه ونزعوا عنه قميصه؛ ليلطخوه بالدم الكذب، فألقوه مربوطة يديه على الماء وكان فيها صخرة عظيمة جلس عليها عريانًا قلقًا، حائرًا، حزنًا، مضطربًا، مستوحشًا ﴿وَ﴾ بعدما ألقوه وقضوا الوطر أزلنا عنه وحشته وكربه بأن ﴿أَوْحَيْنَا﴾ من مقام لطفنا وجودنا ﴿إِلَيْهِ﴾: لا تغتم أيها الصديق من صنيع هؤلاء الغواة الهالكين في تيه الحسد والعناد، إنَّا بمقتضى كرمنا

وإحساننا لنفضلك عليهم ونمكنك على انتقامهم إلى حيث ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ وتحدثنهم معاتبًا عليهم، منتقمًا منهم ﴿بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ معك وحيلتهم ومكرهم مع أبيك ﴿وَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:15] أنك يوسف؛ لعلو شأنك وارتفاع قدرك وسلطانك، اصبر أيها الصديق على أذاهم في الحال، فإن لك السلطنة والسطوة عليهم في المآل.

﴿وَ﴾ بعدما فعلوا بيوسف ما فعلوا ﴿جَاءُوا أَبَاهُمْ﴾ ملتبسين محتالين ﴿عِشَاءً﴾ في آخر اليوم ﴿يَبْكُونَ﴾[1] [يوسف:16] صائحين، صارفين، فزعين؛ تغريرًا على أبيهم.

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ليس كل بكاء يكون حقًا فقد يبكي الظالم كما في قصة يوسف وإخوته وجاءت امرأة إلى القاضي أبي هاشم وهي تبكي فقال له: هذه ضعيفة تبكي، فقال: ليس كل من بكى صدق، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ فالبكاء على وجوه:
الأول: بكاء الحياء، وهو كان لآدم ﷺ بكى مائتي سنة بعد الذلة حياءً من الله تعالى، وحكي أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: «يا ابن آدم أين الشكر على العطاء؟ فإن لم يكن فأين الرضاء بالقضاء؟ فإن لم يكن فأين الصبر على البلاء؟ فإن لم يكن فأين النفي عند الهوى؟ فإن لم يكن فأين الوفاء لإله السماء؟ فإن لم يكن فأين البكاء على الجفاء؟». والثاني: بكاء الخجلة، وهو لداود ﷺ بكى أربعين سنة، ثم ملأ كفه دمعًا ودفعها إلى السماء فقال: «يا رب أما ترحم دمعي؟ فأوحى الله تعالى إليه تذكر دمعك وتنسى ذنبك، فغشي عليه خجلاً مما قاله»، وفي حديث غريب: أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبكي كلما ذكرتك [ففيض] بكائي خجلاً من الله تعالى، فهل ينفعني ذلك؟ فقال ﷺ: «كل قطرة منها تطفئ بحورًا من النار». والثالث: البكاء خوفًا من النار، فقال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ [التوبة:82] وحكي أن يحيى بن زكريا - عليهم السلام - كان على المنبر يومًا فقال: أتاني جبريل آنفًا فقال: إن في النار دركة يقال لها: سكران فيها جبل يقال له غضبان لا ينجوا منها إلا الباكون من خشية الله، ثم بكى حتى غشي عليه وسقط من الكرسي، فما أفاق إلا بعد ثلاثة أيام، وقيل لبعضهم: ما يغنيك لا تخف، وقال: ولو أن الله تعالى أوعدني بعصيانه، الحبس في الحمام لكنت خائفًا به كيف، وقد قال: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ [النبأ:21] والرابع: البكاء من هيبة الله وهو بكاء الأنبياء، وكما قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [مريم:58]. والخامس: بكاء الشوق وهو لشعيب ﷺ حكي أنه بكى حتى أظلمت عيناه ثلاث مرات، وحكي أنه كانت لامرأة بنت صغيرة تبكي أبدًا، فجاءت والدتها إلى الحسن البصري - رحمة الله عليه - فعرضت بنتها والتمست أن يحضرها، فجاء الحسن فقال لها: يا جارية إن لعينك عليك حقًا، قالت: إن عيني إن كانت تصلح لرؤية الله فألف مثلها في سبيله، وإن لم تكن أهلاً لذلك فدعها تعمى، فقام الحسن وقال: جئت واعظًا فوقعت بما أوعظ. والسادس: بكاء فوت الطاعة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ [التوبة:92] والسابع: بكاء الحيلة، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾

فلما سمع يعقوب صياحهم اضطرب فقال: ما لكم؟ وأين يوسف؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نتسابق بالعدو والرمي واستمر تسابقنا ومالنا ﴿وَ﴾ قد ﴿تَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ لحفظها، فغفلنا عنه بغرور السباق ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وكنت نظرت من أول الأمر فوقع ﴿وَ﴾ نحن نعلم ﴿مَا أَنتَ﴾ يا أبانا ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ أي: مصدق ﴿لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف:17] فيما أخبرنا لك؛ لسوء ظنك بنا وفرط محبتك بيوسف.

﴿وَ﴾ بعدما تفرسوا منه الإنكار والاستبعاد ﴿جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ﴾ معه ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ يعني: جاءوا مثبتين لدعواهم بدم كذب ملطخ على قميصه، مفترين على الذئب بأنه أكله، وبعدما جاءوا بالقميص الملطخ، طلب منهم أبوهم، فألقاه على وجهه فبكى بكاء فظيعًا فجيعًا، وتمادى في البكاء زمانًا طويلاً حتى احمر وجهه من الدم الملطوخ به، ثم كشف القميص فرآه لم يمزق، فقال: ما رأيت ذئبًا أحلم من هذا الذئب، أكل ابني ولم يمزق قميصه! ثم ﴿قَالَ﴾ متوجهًا إليهم: ما جئتم به معتذرين عليَّ ليس بمطابق للواقع ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ سهلت ويسرت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ بإلقاء الشيطان وتعليمه إياكم لتعتذروا به عليّ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أجمل علي فيما ابتليت ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى﴾ احتمال ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:18] بألسنتكم أيها المسرفون؛ إذ لا طاقة في تحمله إلا بعون الله وإقداره.

[يوسف:16] فالإخوة كانوا يبكون احتيالاً شوقًا إلى الله، فشتان ما بين البكائين قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:18] فحكي أنه لمّا رأى يعقوب القميص قال: فلئن كان كما قلتم كان الذئب مشفقًا على القميص فلبسته أشفق على يوسف كما أشفق على القميص، فلئن كنتم صادقين فاذهبوا فخذوا الذئب وأتوني به، وكان يهوذا رجلاً إذا صاح على أسد سقط من هيبته، فأخذوا ذئبًا ولوثوا مخالبه بالدم وأتوا يعقوب به مشدود اليد والرجل، فقال: خلوه فخلوه، فقال يعقوب: يا رويبل سله لم أكل يوسف، فسأله فلم يجبه، فقال يعقوب: لم لا تجيبه؟ فقال: يا نبي الله أن بنيك عقوك وعصوك، ونحن نُهينا أن نكلم العصاة، فقال: لم لا ترحم يوسف وفجعتني به؟ فقال: بعزة الله ما أكلت يوسف وإني مظلوم مكذوب علي، وأني غريب من بلاد مصر جئت لأهل قرابة لي ها هنا أنا لا أحوم حول غنمك فكيف أكل ابنك؟ فقال يعقوب: فمن فعل فقال الله لا يهتك سر خلقه، فإنا لا أهتك سرهم، ولمّا رأى يعقوب القميص صحيحًا مؤخرًا غير مخرق رجا أن يكون يوسف حيًا، فكذا حال المؤمن وإن تلوث بخطاياه فما دام لباس الإيمان صحيحًا فالرجاء باق.

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف:19-22].

﴿وَ﴾ بعدما مضى ثلاثة أيام على الإلقاء ﴿جَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رفقة وقفل عظيم يسيرون من مدين إلى مصر، فنزلوا قريب الجب ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الذي كان يرد الماء للاستقاء، وهو مالك بن ذعر الخزاعي ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي: ألقاها لإخراج الماء، فتدلى بها يوسف، فأخرجها فرآه ﴿قَالَ﴾ مستبشرًا فرحانًا: ﴿يَا بُشْرَى﴾ تعالي فهذا أوانك؛ إذ ﴿هَذَا﴾ الذي خرج بالدلو بدل الماء ﴿غُلَامٌ﴾ صبيح مليح في غاية الصباحة والملاحة ﴿وَ﴾ بعدما أخرجوه ومن معه من رفقائه ﴿أَسَرُّوهُ﴾ وأخفوا أمره من البعض الآخر ليكون ﴿بِضَاعَةً﴾ لهم وقت وصولهم إلى مصر، ليشروه ويقسموا ثمنه ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لمخايل عباده ﴿عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:19] أي: يقصدون عمله ويسرون في نفوسهم.

وبعدما اطلع أخوة يوسف على قدوم السيارة ونزولهم على الجب تسارعوا نحوهم ليبيعوه لهم حتى يتخلصوا منه بالكلية، فوصلوا الجب ولم يجدوه وبادروا إلى القفل فتجسسوه، فوجدوه عندهم، فقالوا لهم: هذا عبدنا قد أبق منا، إن اشتريتم نشريه على ما رضيتم، وأقر يوسف على الرقية ولم ينكر عليهم؛ خوفًا من القتل ﴿وَشَرَوْهُ﴾ بعدما اعترف بالرقية وباعوه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ مبخوس منقوص ﴿دَرَاهِمَ﴾ لا دنانير ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أي: قليلة ﴿وَ﴾ إنما شروه بها؛ لأنهم ﴿كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: 20] الراغبين المعرضين عنه، لذلك باعوه بها.

ولما اشتراه مالك بن ذعر من إخوته بما اشتراه، ذهب به إلى مصر بضاعة، فلما وصلوا إلى مصر وأراد أن يبيعه، فسلمه إلى النخاس فباعه ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن ملك مصر، واسمه: قطفير أو أطفير، حين

ذهب به إلى بيته ﴿لامْرَأَتِهِ﴾ زليخا أو راعيل: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ وأحسني حاله ومعاشه، وتلطفي معه بأنواع اللطف والشفقة، إني أتفرس منه الرشد والنجابة ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا﴾ بعقله ورشده وكفايته وتدبيره ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ يستخلف منا؛ لأنه كان عقيمًا فأراد أن يتبناه ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما عطفنا عليه العزيز بعد قهر إخوته وفرقة أبيه وأخيه وغربته من وطنه، ووحشته في غيابة الجب وذلة رقبته ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: جعلناه متصرفًا ذا قدرة واختيار في أرض مصر، ليتصرف فيها بالرشد التام والقدرة الكاملة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ وننبه عليه ﴿مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ الواقعة في عالم الكون والفساد طريق الرشد والعدالة؛ ليصل بها إلى الاعتدال الحقيقي ﴿وَاللهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ المراد له، المتعلق بمصالح بعض عباده ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:21] غلبته واستقلاله في أمره وتصرفه في ملكه، لذلك اشتغلوا بخلاف مراده والسعي في إبطاله كإخوة يوسف، فلم يصلوا إلى ما قصدوا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: كمال عقله وقوته وأوانه ما بين الثلاثين والأربعين ﴿آتَيْنَاهُ﴾ إنجازًا لما وعدنا عليه في سابق علمنا وقضائنا ﴿حُكْمًا﴾ أي: حكومة بين الناس مقارنة بين العدل والقسط ﴿وَعِلْمًا﴾ بسرائر الأمور ورقائق المناسبات ومن جملتها تعبير الرؤيا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إيتائنا إياه من الفضائل والفواضل المقدرة له في لوح القضاء ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:22] الذين يحسنون الأدب معنا في جميع حالاتهم اتقاء منا وتوجهًا إلينا.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف:23-25].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل اتقاء يوسف الصديق من الله وقت اشتعال نار الشهوة في عنفوان الشباب، حين ﴿رَاوَدَتْهُ﴾ أي: خادعته والحت عليه بالوقاع ﴿الَّتِي﴾ أي: الامرأة التي ﴿هُوَ﴾ أي: يوسف ﴿فِي بَيْتِهَا﴾ وهي سيدته له حاكمة عليه، وهي زليخا

امرأة العزيز، واحتالت عليه أن يخرجه ﴿عَن﴾ نزاهة ﴿نَّفْسِهِۦ﴾ ونجابة فطرته، وهي العصمة والعفاف إلى ما تهوى نفسها وهو الوقاع والسفاح ﴿وَ﴾ بالغت في ذلك المكر والاحتيال إلى أن ﴿غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾[1] السبعة يومًا عليه وخلت معه في بيته ﴿وَقَالَتْ﴾ متحننة عليه معرضة نفسها إليه: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي: بادر يا يوسف إلى التعانق والجمع معي ﴿قَالَ﴾ يوسف على مقتضى نجابة النبوة وطهارة الفطرة بإلهام الله إياه مع سورة شهوته ووفور أمن ميله؛ اتقاءً من محارم الله ورعاية لحق من أحسن إليه: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله معاذًا والوذ نحوه أن يعصمني عن أمثال هذه الغفلة الذميمة والديدنة القبيحة سيما مع من يربيني ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: زوجك سيدي ﴿رَبِّي﴾ يربيني بأنواع اللطف

---

(1) قال في التأويلات: ليكون نظر يوسف إليها، وكذا إذا أكرم عبدًا أغلق عليه أبواب الشهوات واللذات، ونفرة عن الخلق حتى يكون جملة نظره مقصورة على أموره، وقيل: غلقت هي الأبواب؛ ليكون يوسف معها ويخلو للشهوة، والله تعالى فتح له باب العصمة؛ ليخرج طاهرًا نقيًا من بين ذلك ليعلم أن الباب الذي يغلقه المخلوق يسهل، والباب الذي يغلقه الله لا يفتحه أبدًا أحد، قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر:2] ولمّا رد يوسف بتهمة وهمية أيد من الله تعالى أيد في الله بالعصمة؛ ليعلم أن من جاهد في الله أيد بتوفيقه كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:69]. وقيل: كانت الحكمة في ذلك أن الملائكة قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30] فابتلوا بهاروت وماروت، وموافقته المرآة من غير مراودة منها، وعصم يوسف مع حسنه وجمال المرآة ومراودتها ليكرمه بالعرض على الملائكة، ويعلمهم أنه يعلم ما لا تعلمون، كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30] والنكتة فيه أنه لمّا التجأ في ابتداء الأمر إلى الله واستعاذ به أعاذه وعصمه، فينبغي للمؤمن أن يفزع في ابتداء هوله إليه ليعيله، وكذا ينبغي أن يكون أمر المؤمن في إشارة رضاه الله أغلب من إشارة هوى نفسه، فقد قيل خمسة أشياء من أعجب العجائب: أحدها: أن الله تعالى [مهد ويسر] للخلق ما في الأرض، ثم إنهم يبخلون برغيف. والثاني: إنه أمدهم بنعمه، قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:53]، ثم إنهم استعملوها في خدمة عدوه. والثالث: إنه يغيث لمن استغاث، وهم يفزعون إلى مخلوق ضعيف لا ينفع ولا يضر في إلا بإغاثة الله تعالى إياه كذلك. والرابع: إنهم يرجون ثوابه، ثم يعملون للخلق. والخامس: إنه خالقهم ورازقهم وملكهم، وتمر إليه كل أمورهم وهو مطلع عليهم، ثم أنهم يستحيون عنه في ضعيف مثلهم ولا يستحيون منه. وقيل لمّا اجتمع يوسف والمرآة في موضع واحد صاح الشيطان فرحًا، قال: ظفرت به، فرد فرحه بعصمة الله، ولمّا وصل موسى إلى البحر وكان وراءه فرعون وجنوده فرح الشيطان وقال: البحر أمامهم والسيوف وراءهم ولم يدر أن النجاة كانت حظهم من الله تعالى، فكذلك أمر المؤمن وقت النزع إن أيد بعناية لن يضره من شيطان ونجا من المخاوف على مراغمة الشياطين عصمنا الله في شرهم.

والكرم، سيما ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وأوصى لك بإحساني، فكيف أسيء في مقابلة إحسان محسني، ومولي أمري ومولي نعمي ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ﴾ ويفوز ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:23] بالخير والحسنى، لو خرجوا من مقتضى الأمر الإلهي، سيما بالإساءة في معاملة الإحسان.

﴿وَ﴾ بعدما رد يوسف عليها أمرها ﴿لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾[1] أي: قصدت زليخا

---

(1) قال روزبهان: خالص الحقيقة في هذا المعنى في تلك الهمتين، إن همّة زليخا سبقت على همّة يوسف ﷺ، وحسن يوسف ﷺ سبق بجذب قلب زليخا وهمَّتها إلى معدنه؛ لأنَّ عشق زليخا وحسن يوسف صفتان صادرتان من المعدنيين الأزليين، وهما صفة جمال القدم ومحبة الأزل، فلمَّا هاجت همَّة زليخا بعد انجذاب قلبها إلى معدن عشق يوسف ﷺ هاجت أيضًا همة يوسف ﷺ إلى أهلية عشقها وحسنها وهمتها، فصارت الهمتان بعضها من بعض، فهاجت همة الجوهر إلى الجوهر، والفطرة إلى الفطرة، والطبيعة إلى الطبيعة، والإنسانية إلى الإنسانية، والروحاني إلى الروحاني، والإلهي إلى الإلهي، فصارت جميعها بوصف الهمتين متحيرة، حتى صار شخصهما، وسوادهما، وخيالهما، وعقلهما، وقلبهما، وروحهما، وسرهما واحدًا في واحدٍ. .. فكيف نتهم الهمتين، وأصل الجوهر نور الإرادة، وأصل الفطرة فعل الإرادة، وأصل الطبيعة مباشرة القدرة؛ لكن الصورة وأصل الإنسان وجود معجون القهر الروحاني مباشرة اللطف، وإلهي تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، فترقى الهمة من أصل الجوهر إلى نور الإرادة، ومن أصل الفطرة إلى فِعل الإرادة، ومن أصل الطبيعة مباشرة القدرة، ومن أصل الإنساني إلى وجود معجون القهر، وذلك سر النفس الأمارة، ومن أصل الروحاني إلى مباشرة اللطف، ومن أصل إلهي إلى تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، ففي عين الجمع أصل العشقين، والهمتين من معنى تجلي الذات والصفات والأفعال، فإذا علمت ذلك فترى شخصهما شخصًا، وروحهما روحًا، وقلبهما قلبًا، وهمتهما همة، وسرهما سرًا، وكلهما كلاً، وذلك الكل صدر من الكل، وذلك الكل علة العلل، ومعلل الأشياء ومكون الكون أصل الأصول، فمن يدم وغرائب حقيقة قدس المعرفة في الإشارة، إشارة منه بدأت، وإليه تعود بيني وبينك، أينازعني، فأدفع بلطفك أنني من البين يا صاحب الهمة ، إذا تجلى من فعله لفِعله بوصف الفعل صار العشق مع الشهوة، وإذا تجلت الصفة بالصفة بوصف الصفة صار العشق مع شهوة الروحاني بلا شهوة الإنساني، وإذا تجلى الذات للذات بوصف الذات صار العشق بوصف العشق الأزلي المقدَّس عن حركات أسرار جميع الشهوات؛ لأن عشقه أزلي بلا علة، فأول همة حركة الفعل إلى الفعل، وهناك موضع الامتحان والفتنة المخالفة الأمر، وأوسط الهمة تجلي الصفة إلى الصفة، فهناك مقام الالتباس، ونهايتها تجلي الذات للذات، وهناك مقام القدس والطهارة من الامتحان، فإذا كان يوسف ﷺ في بدايتها ووسطها كان في محل العتاب، فإذا تجلت الذات للذات سلبه أنوار الذات من المقامين، ولولا ذلك لبقي في بحر الامتحان وعتاب الرحمن.

وتعلقت به إرادة واختيارًا لتصل إلى مرادها منه ﴿وَهَمَّ﴾ يوسف أيضًا ﴿بِهَا﴾ على مقتضى بشريته مع أنه لا إرادة له لمرادها ولا اختيار؛ إذ الكف عن المنهي لا بدَّ وأن يكون عند القدرة عليه وإلا لم يكن ممدوحًا ولا مستوجبًا للمثوبة والقربة ﴿لَوْلَا أَن﴾ أي: أنه ﴿رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي: دليله الواضح الدال على قبح الزنا وإساءة المحسن بإلقاء الله إياه وإلهامه في قلبه، لهلك بنيران طغيان القوة الشهوية، لكن رآه بإراءة الله إياه، فأبى وامتنع ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فعلنا معه وألهمنا إليه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ في مقابلة الإحسان والفحشاء بدل العصمة والعفاف ﴿إِنَّهُ﴾ أي: يوسف الصديق ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:24] الخالصين عن رين البشرية وشين شهوتها وغضبيتها، المنزهين عن مقتضيات القوى البهيمية مطلقًا.

وبعدما غلب على يوسف الاتقاء عن محارم الله على مقتضى البرهان الذي رآه بإراءة الله إياه، بادر إلى الفرار منها، وقصد أن يخرج وقصدت أيضًا أن تمنعه عن الخروج ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي: تسابقا نحوه يسبقها يوسف فأخذت ذيل قميصه ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ أي: شقت ذيله ﴿مِن دُبُرٍ﴾ لأنها في عقبه، ففتح يوسف الباب، فخرجا متعاقبين مضطرين ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي: صادفا زوجها ﴿لَدَا الْبَابِ﴾ وعنده ﴿قَالَتْ﴾ مسرعة باكية على سبيل الشكاية: ﴿مَا جَزَاءُ﴾ أي: أي شيء مكافاة ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي: قصد الزنا معها مكرهًا ﴿إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾ أي: غير أن يقيد ويدخل في السجن ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف:25] مؤلم أشد من السجن.

وإنما فعلتها وبادرت إلى الشكوى متباكية؛ لتظهر براءتها وعصمتها عند زوجها وتحمل الخطأ على يوسف؛ لتنتقم عنه أو تلينه وتضطره على نجاح مرادها، مع أنها قد شغفها حبًا ولم تصبر عنه لحظة.

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف: 26-29].

﴿قَالَ﴾ يوسف مستحيًا من ربه: يا سيدي ما لي في ذلك خطأ ﴿هِيَ﴾ بنفسها

﴿رَاوَدَتْنِي﴾ أي: خادعتني ﴿عَن نَّفْسِي﴾ وبعدما تعارضا عند السيد ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ هو صبي في المهد أبهم في الشهادة وأجمل؛ لأنه كان ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وابن عمها أو ابن خالها فقال الشاهد: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ﴾ أي: قميص يوسف ﴿قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: شق من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ زليخا ﴿وَهُوَ﴾ أي: يوسف ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف:26] في دعوى البراءة والتنزيه ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي: خلف ﴿فَكَذَبَتْ﴾ هي في دعوى العصمة والعفة ﴿وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:27] فيما ادعى من العفة والبراءة.

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ السيد ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ تفرس إلى براءته وطهارة ذيله مع أن الشاهد أيضًا ليس من أرباب الولاية؛ إذ هو صبي رضيع في المهد لم يتكلم إلا بهذا فكوشف من نجابته وعفته ما كوشف، فتوجه نحو زوجته ﴿قَالَ﴾ مقرعًا عليها معرضًا: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: ما وقع ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ وحيلتكن أيتها المحتالات ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ﴾ ومكركن أيتها الماكرات المفسدات ﴿عَظِيمٌ﴾[1] [يوسف:28] من كيد الشيطان ومكره؛ لأن الشيطان يستعين ويستمد منكن وقت اضطراره.

ثم لما انكشف الأمر من عند العزيز، وجزم بطهارة ذيل يوسف ونجابة طينته، بادر إلى ستره وإخفائه؛ خوفًا من الفضيحة، فقال مناديًا ليوسف أولاً لصدقه وطهارته: ﴿يُوسُفُ﴾ أي: يا يوسف ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ التكلم واكتمه في سرك، فقد ظهر عندي صدقك وبراءتك ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾ يا راعيل أو زليخا ﴿لِذَنبِكِ﴾ في هذا الأمر ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:29] المتعمدين القاصدين على الجريمة القبيحة الدنيئة الشنيعة، جمعه جمع الذكور للتغليب.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ

---

(1) قال الشبلي: على من لم يصحبه من ربه توفيق الرعاية، فأمّا من كان بعين الحق كيف يلحقه كيد كائد، فلما فشي الخبر وكثرت الملامة، وسمعت نساء البلد هاجت سرهن؛ لأنّ أزواجهن كانت متألفة بروح زليخا، وهن جميعًا مع روح يوسف ﷺ فتقاضى سرهن حقائق الخبر، وتفتيش الأمر ليذقن ما ذاقت زليخا فاحتلن، وقلن ذكر ملامتها.

هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف:30-32].

﴿وَ﴾ بعدما شاع أمرهما وانتشر قصتهما بين الأنام ﴿قَالَ نِسْوَةٌ﴾[1] جماعة من النساء من صناديدهن ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ على وجه التشنيع والتقريع: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ﴾ تخادع وتحتال ﴿فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ طلبًا لمواقعته إياها ومجامعته معها؛ لأنها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: دخل عن جميع شغاف قلبها وشقوقه، فصار قلبها ممتلئًا بمحبته وعشقه؛

---

(1) قال في التأويلات: قيل: أحببن ثلاث نسوة ثلاثة من المؤمنين فنلن أكبر مما طلبن: الأولى: أحبت امرأة العزيز يوسف ﷺ فنالت من بركته المعرفة، فيحكى أن هؤلاء النسوة اللاتي قطعن أيديهن قلن ليوسف وهو في السجن: أحب سيدتك التي اشترتك وإن أردتنا فنحن لك، فيقول يوسف: معاذ الله لا أعصي الله وإن بقيت في السجن، ولمّا علم عزيز مصر أن امرأته عشقت يوسف حلف أنه لا يخرج من السجن مادام حيًا، فتفكرت المرأة وقالت: شاب حديث السن ويخاف عقوبة الله فأنا أولى أن أخاف، فآمنت واشتغلت بعبادة الله تعالى. الثانية: آسية امرأة فرعون أحبت موسى فنالت ببركة موسى الجنة ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم:11]. الثالثة: خديجة - رضي الله عنها - أحبت محمدًا ﷺ قبل النبوة نالت بركة الهداية بالإسلام، فمحبة أولياء الله سبب لنيل الرحمة فما ظنك بمحبة الله تعالى. وقيل أيضًا: هؤلاء النسوة أصابتهن النعمة والمحنة، فالنعمة نعمة الضيافة، والمحنة قطع الأيدي، ثم كن تنسين الكل عند رؤية يوسف، فكذا المؤمن تصيبه النعمة والمحنة في الدنيا، وفي القبر يرى الوحشة، وفي القيامة يرى الأحوال، وعلى الصراط يرى أنواع عذاب جهنم، وفي الجنة يرى ألوان نعمها، فإذا أكرم برؤية الله تعالى نسي الكل وشغله عن كل نعيم، قال الحسن: لو يبقى أهل الجنة في الرؤية على حالتهم لا يخطر ببالهم شيء. وقيل: هؤلاء النسوة يحملن ما أصابهن في مشاهدة يوسف، وكذا المرء يتحمل مؤنة الزوجية بمشاهدة الأهل والولد فكيف لا يتحمل مدعي المحبة الله تعالى مشقة بلائه طمعًا في مشاهدته؟. وقيل: هؤلاء النسوة لمّا شغلن بجمال يوسف قطعن أيديهن ولم يحسن بذلك، فلمّا أفقن وجدن ألم القطع والتلوث بالدماء وبقيت الحسرة عليهن، فكذا طالب الدنيا يتعب نفسه بطلبها ويتحمل المشاق في جمعها ويبتلى بذلك ولا يحس بآلامها، ثم عند انقطاع الأنفاس يفيق من سكرته ويرى ديوانه مسودًا بالسيئات وعمره ضائعًا في الزلات ويبقى في غصص الحسرات نعوذ بالله منها، وقيل: أكمل الله تعالى ليوسف ثلاثة أشياء الحسن كما روي أنه أعطي ثلثي الحسن، وحكي أنه في سنة الجدب كانوا ينظرون إليه فيشبعون، وكانت رؤية عذابهم وكانوا لا يحسون بألم الجوع في مشاهدته، وأكمل له المحبة أيضًا فجمع له بين فراق الوالد وغصة الغربة ومشقة الجب والحبس والابتلاء بالنسوة، وأكمل له العصمة حتى عصم مع شدة السيئات، وشره الشهوة، وجمال النسوة، وإمكان انتهاز الفرصة، والتمكن من قضاء الشهوة في الخلق.

لذلك راودته فامتنع عنها وأفضحها ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا﴾ بقبح فعلها وسوء صنيعها ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف:30] من لحوق العار وفشو الفضيحة، سيما مع الرقيق وكسر عرض العزيز بين الأنام.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راعيل ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ وغيبتهن وتخطئتهن خفية ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ قواصد؛ ليدعوهن على سبيل الضيافة ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ﴾ أي: هيأت لكل واحدة منهن في بيتها ﴿مُتَّكَأً﴾ على حدة ليتكئن عليها على ما هو عادة بلدتهم، ووضعت عند كل متكأ طبقًا من الفواكه مثل الكمثرى والتفاح وغيرهما ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ﴾ أي: على عدد رءوسهن ﴿سِكِّينًا﴾ في غاية الحدة والمضاء، وبعد تهيئة أماكنهن على الوجه المذكور جئن وجلسن عليها واشتغلن بأكل الفواكه وتنقية قشورها بالسكين ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿قَالَتِ﴾ راعيل ليوسف: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فخرج ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: كبرن الله برؤية جماله وحسنه البديع وبهائه؛ إذ يتشعشع ويلمع ضوء وجهه على الجدار مثل الشمس والقمر.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت يوسف الصديق عليه السلام ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر»[1].

ومن كمال حيرتهن على حسنه وجماله بهتن بأجمعهن ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالسكاكين أي: كل بسكينها ﴿وَ﴾ بعدما أفقن ﴿قُلْنَ﴾ مستبعدات مستغربات: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي: تنزه ذاته أن يعجز عن خلق مثله، غير أنه ﴿مَا هَذَا﴾ الهيكل المرأي ﴿بَشَرًا﴾ إذ لا نرى بشرًا على هذه الصورة ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: بل ما هذا المشاهد المحسوس ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:31] نجيب مجسم من الروح لا من الطين.

وبعدما تفرست راعيل منهن ما تفرست من كمال الحيرة والحسرة والوله والهيمان برؤيته ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ﴾ أي: فهذا ذلك العبد الكنعاني ﴿الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ أي: في مراودته والافتتان به وبمحبته ﴿وَ﴾ لما رأت راعيل ما رأت من نفسها بل أشد منها، أقرت عندهن ما فعلت معه؛ لتستعين منهن ويحتلن في تليين قلبه، فقالت متحسرة: ﴿لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ مرارًا كثيرة ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ وأبى عن القبول من كمال عفته وعصمته ﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ أي: ما أنا آمر به من المواقعة والمجامعة،

(1) أخرجه الطبري في «تهذيب الآثار» (267/2) بنحوه.

ولم يقبل قولي ولم يقضِ حاجتي ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي: ليسجننه ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف:32] الذليلين المهانين، الباقين في السجن مدة مديدة.

فلما قالت راعيل ما قالت وأقسمت، التفتن بأجمعهن على إعانتها وإنجاح مرادها منه وألحن، واقترحن على يوسف بقبول قولها والإتيان بمطلوبها إلحاحًا بليغًا، بل أضمرن في أنفسهن كل منهن إتيانه عليهن بمقتضى النساء.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يوسف:33-37].

وحين رأى يوسف اتفاقهن واجتماعهن على منكر، ناجى ربه من شرهن وتعوذ نحوه من فتنتهن حيث: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم والعصمة والعفاف ﴿السِّجْنُ﴾ الذي أوعدتني به هذه المرأة ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ وآثر عندي ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ هؤلاء البغيات ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ﴾ أي: وإن لم تصرف بفضلك وعصمتك ﴿عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ ولم تحفظني من مكرهن، بإلقاء البرهان الفعلي والكشفي في سري ﴿أَصْبُ﴾ أي: أمِل وأتحنن نحوهن على مقتضى القوى البهيمية ﴿إِلَيْهِنَّ وَأَكُن﴾ حينئذ ﴿مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:33] المتابعين لشيطان الشهوة، الخارجين عن مقتضى العقل المفاض من المبدأ الفياض.

وبعدما أخلص في مناجاته وأبر في رجوعه وعرض حاجاته ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ ما ناجاه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ وحفظ عن مكرهن ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاة عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ [يوسف:34] بحاجاتهم منها.

﴿ثُمَّ بَدَا﴾ أي: ظهر ولاح ﴿لَهُم﴾ للعزيز وأصحابه ﴿مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾ أي: بعد رؤيتهم علامات الصدق وأمارات العصمة والعفاف، سيما شهادة الطفل الذي

شهد بطهارته وصدقه، مع أنه لم يعهد من أمثال هذا، فتشاوروا في أمره وتأملوا في شأنه، فاستقر رأيهم ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف:35] لئلا يلحق العار عليهم ولا ينتشر بين الأنام صدقه وعصمته وقبح صنيعها وفاحشة فعلها، بل يحسبون أنه مجرم وراعيل متهمة؛ لذلك حملوا الجرم عليه، ورموه افتراءً، فأدخلوه السجن انتقامًا وجزاء.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾ أي: يوسف ﴿السِّجْنَ﴾ في تلك المدة ﴿فَتَيَانِ﴾ من أعوان الملك شرابيه وخبازه بتهمة اتُهما بها، فلما رأيا منه الرشد والنجابة وصفاء الصورة والمعنى ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ وهو الشرابي مستعيرًا عنه حاكيًا عما مضى: ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ في المنام ﴿أَعْصِرُ﴾ ماء العنب ليصير ﴿خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ﴾ وهو الخباز: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ على طبق ﴿تَأْكُلُ﴾ وتنهش ﴿الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: أخبرنا بما يؤول إليه ويعبر به رؤيانا ﴿إِنَّا نَرَاكَ﴾ في بادئ الرأي ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:36] المصلحين لمفاسد الأنام وتحمل ما يشكل عليهم، ومن جملتها تعبير الرؤيا.

ثم لما تفرس يوسف منهم الإخلاص وحسن الظن بالنسبة إليه، بادر قبل الاشتغال بالتعبير إلى تمهيد مقدمة دالة على التوحيد والإيمان والمعرفة والإيقان، منبهة على استقلال الحق الحقيق بالحقية في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وجميع آثاره الحادثة في الكائنات والفاسدات، حيث ﴿قَالَ﴾ أولاً ﴿لَا يَأْتِيكُمَا﴾ في المستقبل ﴿طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ لسد الجوعة وتقويم المزاج ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ وأخبرتكما ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ وتبيين ماهيته وكيفية تأثيره وتوليده من الأخلاط وتقويته للمزاج ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ بمدة ﴿ذَلِكُمَا﴾ أي: تعبير رؤياكما وتأويل طعامكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ أي: من جملة الأمور التي علمني ربي من لدنه بأن أطلعني على رقائق المناسبات ودقائق الارتباطات، والازدواجات الواقعة بين أجزاء العالم وجزئياتها على التفصيل المشروح، المثبت في الأعيان الثابتة وعالم الأسماء والصفات المنبسطة على ظواهر الأكوان ﴿إِنِّي﴾ بعدما انكشف الغطاء عن بصري وارتفع الحجب عن بصيرتي ﴿تَرَكْتُ﴾ بتوفيق الله وإلهامه ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ ذوي حجب ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وتوحيده واستقلاله في الوجود ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿هُم بِالآخِرَةِ﴾ أي: في النشأة المعدة لجزاء ما جرى عليهم في هذه النشأة ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف:37] منكرون.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف:38-41].

﴿وَاتَّبَعْتُ﴾ في سلوكي طريق التوحيد ﴿مِلَّةَ آبَائِي﴾ وأجدادي ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا﴾ أي: ما صح وجاز لنا معاشر النبياء ﴿أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ﴾ المتوحد بذاته وأوصافه وأسمائه، المستقل في وجوده وحقيته ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لا وجود له أصلاً سوى العكسية والظلية ﴿ذَٰلِكَ﴾ الشهود والانكشاف ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ الذين أُرسلنا إليهم وبُعثنا بينهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ الناسين حقوق نعم الله ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:38] نعمة الإرسال وبعثة الرسل، ولا يواظبون على أداء شكرها.

ثم لما مهد يوسف لصاحبه طريق التوحيد ونبه عليهما السلوك عليه، أشار إلى دعوتهما إليه على سبيل التدريج كما هو دأب الأنبياء، فقال مناديًا لهما ليقبلا على قبول قوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ الساكنين فيه، المصاحبين معي ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ متكثرون في العدد، متماثلون في عدم القدرة والاختيار ﴿خَيْرٌ﴾ عندكم وأحق لعبادتكم وانقيادكم ﴿أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد في ذاته، المستقل في ألوهيته وربوبيته، المستغني في ذاته عن المظاهر مطلقًا ﴿الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:39] الغالب على جميع السوى والأغيار.

واعلما أيها الأخوان أن ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أنتما ومن على دينكما في مصر من عبدة الآلهة الباطلة ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله الواحد الأحد الصمد، الذي لا شريك له في الوجود أصلاً ﴿إِلَّا أَسْمَاءً﴾ مطلقة على الأظلال معدومة، وعكوسًا موهومة ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ من تلقاء نفوسكم آلهة ومعبودات، مع أنه ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المنزل للكتب والمرسل للرسل ﴿بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: بشأن آلهتكم من حجة وبرهان عقلي ونقلي حتى تكون تمسكًا لكم في اتخاذكم هؤلاء التماثيل آلهة مستحقة للعبادة

والإطاعة ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ أي: ما الحكم المطلق والاستحقاق التام للإطاعة والانقياد وعبادة العباد ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء، المتفرد بالجلال والبقاء، المتوحد في البسطة والاستيلاء؛ إذ هو المستحق بالعبادة، المستقل بالربوبية؛ لأنه في ذاته هو ولا شيء سواه، ولا إله إلا هو مع ﴿أَمَرَ﴾ فيما أنزل من الكتب على أنبيائه ورسله ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ ولا ترجعوا أيها الأظلال الهالكة والعكوس الباطلة ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إذ به وبامتداد أظلال أوصافه وأسمائه ظهرت أشباحكم، ولاحت تماثيلكم وأرواحكم، فلا رجوع لكم إلا ﴿ذَلِكَ﴾ أي: طريق التوحيد، هو ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الأقوم والأعدل، الذي لا عوج فيه أصلاً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لكثافة حجتهم وغلظ غيظتهم وأغشيتهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:40] ولا يفهمون سر سريان الوحدة في الكثرة، فحُجبوا بالمظاهر المتكثرة عن الوحدة الظاهرة فانصرفوا عن طريق الحق إلى الباطل ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

ثم لما دعاهما إلى الإيمان والتوحيد، ونبه عليهما طريقه، اشتغل بتعبير رؤياهما، فقال مناديًا لهما أيضًا: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ وهو الشرابي ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ﴾ أي: سيده وملكه ﴿خَمْرًا﴾ على ما كان عليه بلا احتياج إلى تأويل ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ هذا ما ظهر لي في تأويل رؤياه بتوفيق الله إياي، وبعدما سمعا منه التأويل قالا: كذبنا فيما قلنا لك واستعبرنا منك، قال يوسف عليه السلام: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:41] أي: حكم حكمًا مبرمًا على الوجه الذي ذكر في حضرة علم الله ولوح قضائه؛ لأن الأمر الذي جرى على لسان الأنبياء لا بدّ أن يقع؛ إذ لا جريان للكذب وعدم المطابقة في ألسنة الأنبياء والرسل.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:42-44].

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الشرابي: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ

رَبِّكَ﴾[1] أي: اذكر حالي لملك عند ملاقاتك، وقل له أن رجلاً سُجن بلا جرم صدر عنه، وأوصاه به على طمع أن يستخلصه ويستكشف عن أمره، ولم يستثن مع أن المناسب بحاله ورتبته العلية الاتكال على الله، والتبتل نحوه بلا التفات إلى الغير أصلاً، والرضا بما جرى عليه من القضاء، والتصبر على هجوم البلاء وتزاحم المكروهات، فضلاً عن أن يستمد بلا استثناء، وذلك قبل الوحي ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ للناجي ﴿ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: ذكر حال يوسف عند الملك حين جلس في مجلسه وسقى له خمرًا ﴿فَلَبِثَ﴾ وبقي يوسف بسبب ترك الاستثناء والاستخلاص من المصنوع الأرذل الأنزل والاستعانة منه ﴿فِي السِّجْنِ﴾ بعد لبثه خمسًا ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:42] أي: سبعًا بعد الخمس؛ مجازاة عليه وانتقامًا عنه، كما قال ﷺ: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل: اذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعًا بعد الخمس»[2].

﴿وَ﴾ بعدما لبث في السجن بضعًا هيأ سبحانه سببًا بأن ﴿قَالَ الْمَلِكُ﴾ وهو ريان بن الوليد لأصحابه يومًا: ﴿إِنِّي أَرَى﴾ في المنام ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ﴾ أرى أيضًا ﴿سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ﴾ سبعًا ﴿أُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ قد التفقن على السبع الخضر فغلبن عليها، فجمع من في ملكه من أهل التنجيم والتكهين وجميع العلماء والصلحاء وعرضها عليهم وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي﴾ في رؤياي؛ أي: عبروها وأولوها ﴿فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:43] أي: إن كنتم من أهل التعبير والصور والعبرة والاعتبار.

فلما سمعوا قوله وتأملوا في رؤياه ﴿قَالُوا﴾ بأجمعهم متفقين: هذه ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي: أباطيل صورتها المتخيلة وخالطتها تخليطًا إلى حيث لا يقبل التعبير والتأويل أصلاً ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ﴾ الباطلة ﴿بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف:44] معبرين.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿45﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا

---

(1) قال التستري (235/1): حكي أن جبريل ﷺ دخل على يوسف في السجن، فقال له جبريل: يا طاهر ابن طاهر، إن الله تعالى أكرمني بك وبآبائك، وهو يقول لك: يا يوسف، أما استحييت مني حيث استشفعت إلى غيري، فوعزتي لألبثنك بضع سنين قال: يا جبريل، هو عني راض؟ قال: نعم، قال: إذن لا أبالي.

(2) ذكره النسفي في مدارك التنزيل (70/2).

الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾ [يوسف: 45-49].

﴿وَ﴾ بعدما عجز الملأ عن تعبير رؤيا الملك، واجتمعوا على أنها أضغاث أحلام ﴿قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من صاحبي السجن، وهو الشرابي الموصى له بالذكر فنسي ﴿وَادَّكَرَ﴾ بهذا التقريب ما أوصى له يوسف ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد مدة مديدة ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:45] فأرسله الملك ودخل عليه، فقال: يا ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾[1] الصدوق في تأويل الرؤيا ﴿أَفْتِنَا﴾ وعبر لنا ﴿فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ ملتفتةً إلى سبعٍ أخر ﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ عبر لي هذه الرؤيا ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ﴾ بتأويلها ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ الذين عجزوا عن تعبيره وصيروه من الأباطيل والتخليطات الساقطة عن درجة التغيير والتأويل ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:46] تأويله ويفحمون عما يقولون؛ إذ الرؤيا للملك، وهم جعلوها من قبيل الأضغاث، وأنت إذا عبرتها أرجو أن تتخلص من هذا السجن.

﴿قَالَ﴾ يوسف مؤولاً للرؤيا مدبرًا فيه طريق المعاش؛ لئلا يضطروا في تدبيره: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ على ما هو دأبكم وعادتكم ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ﴾ واتركوه ﴿فِي سُنْبُلِهِ﴾ أي: فعليكم أن تدخروا ما حصدتم في سني الخصب بأن تتركوه في سنبله ولا تفرقوه منه ولا يدوسوه؛ لئلا يقع فيه السوس ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا

(1) قال البقلي: سماه الصدِّيق في دعواه علم الغيب، ومكاشفته، وعلم بأنبائه العجيبة، صادق في مكاشفة الذي استقام الصديقية فيه، وذلك تابع أنوار الإيقان والعرفان بعد كشف أنوار التجلّي في قلبه، ووصف هذا استواء الحال، واستقامة الإعمال. قال أبو حفص: الصدِّيق الذي لا يتغير عليه باطن أمره من ظاهره. قال بعضهم: الصدِّيق هو الصادق قولاً وفعلاً وعزمًا وزينةً وعقدًا. وقال بعضهم: الصدِّيق الذي لا يخالف قوله فعله، ولا حاله عمله. قال ابن الفرحي: الصدِّيق كأبي بكر ﷺ الذي يبذل الكونين في رؤية الحق؛ لمَّا قال النبي ﷺ: «ما أبقيت لنفسك؟ قال الله ورسوله».

﴿تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:47] في تلك المدة.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد انقضاء سني الخصب والرخاء ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ ذوي جدب وعناء، لا ينبت فيها الزرع وفي تلك المدة ﴿يَأْكُلْنَ﴾ أي: أهلها جميع ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ وادخرتم لهن في سني الخصب ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف:48] أي: تحرزونه وتحفظونه للبذر.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد انقضاء السبع الشداد ﴿عَامٌ﴾ ذو بركة ورخاء ﴿فِيهِ يُغَاثُ﴾ ويمطر ﴿النَّاسُ﴾ بعدما مُنعوا القطر مدة مديدة ﴿وَ﴾ صار الناس من كمال الخصب ﴿فِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:49] الأدم من العنب والخرنوب وأنواع الحبوب.

كل ما جاء به يوسف عليه السلام من التأويل والتدبير مستند إلى الوحي والإلهام والعلم بدقائق المناسبات الواقعة بين ذرائر الأكوان.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)﴾ [يوسف:50-53].

﴿وَ﴾ لما سمع الشرابي من يوسف ما سمع، تسارع إلى الملك وأخبره ما سمع من التعبير ﴿قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ فأرسل من يحضره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ ليخرجه من السجن ﴿قَالَ﴾ يوسف: لا أخرج من السجن ما لم يظهر براءتي وعصمتي وطهارة ذيلي وكمال عفتي مما يرمونني ويسجنونني بسببه ﴿ارْجِعْ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ وسيدك ﴿فَاسْأَلْهُ﴾ أن يكشف عن أمره وما جرى عليّ من ظلم أولئك المفترين، سيما ليسأل: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وما شأنهن معي ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بكمال العصمة والعفة ﴿بِكَيْدِهِنَّ﴾ ومكرهن الذي قصدن معي ﴿عَلِيمٌ﴾ [يوسف:50] على التفصيل الذي يخفون في نفوسهن، يجازيهن في يوم الجزاء على مقتضى علمه.

ثم لما رجع الرسول إلى الملك وأخبر عن حاله ومقاله، بادر الملك إلى إحضار

أولئك النسوان فحضرن ﴿قَالَ﴾ الملك منتقمًا عنهن، مفتشًا عما جرى بينهن وبين يوسف: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ وشأنكن أيتها الماكرات المحتالات ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ﴾ وخادعتن بأنواع الحيلة والخداع ﴿يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ وأي شيء ظهر منه من أمارات الفساد وعلامات الفسوق حتى تجترئن بمراودته؟! ﴿قُلْنَ﴾ بأجمعهن بعدما سمعن كلام الملك واستفساره على وجه الانتقام: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أي: فعلة ذميمة وديدنة قبيحة باعثة لنا إلى مراودته، سوى أنا رأيناه على صورة عجيبة وحسن بديع، مِلْنا إليه وأردنا مخالطته فاستعصم من كمال عفته ونجابة طينته، ثم ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ عند الملك بعدما بدا ما أخفت وفشا ما سترت، مقرة مقررة لطهارة ذيله: ﴿الآنَ حَصْحَصَ﴾ أي: لاح وظهر ﴿الْحَقُّ﴾ وارتفع عنه الحجب وانكشف الأستار ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ بعدما شغفني حبه وأزعجني ميله ﴿وَإِنَّهُ﴾ في ذاته وأقواله وأفعاله ﴿لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:51] المبرئين المنزهين عما افترينا عليه ورمينا به.

ثم لما انكشف أمره عند الملك وثبت براءته، أرسل الرسول إليه ثانيًا ليخرجه من السجن، قال يوسف على مقتضى الحكمة الصادرة من ألسنة الأنبياء؛ توطينًا لنفس العزيز وتسلية له، ليجزم أنه ما أساء الأدب معه في السر والعلانية ﴿ذَلِكَ﴾ الكشف والتفتيش إنما هو ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز يقينًا ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ حين انغلاق الأبواب السبعة، وأنا مع زوجته فكيف في غيرها ﴿وَ﴾ ليعلم العزيز أيضًا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع ما جرى على عباده ﴿لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف:52] أي: لا يوصل أهل الخيانة إلى ما يقصدون إليه بكيدهم وحيلتهم، بل يفضحونهم بها على رءوس الأشهاد في الأولى والأخرى.

ثم قال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ﴾ وأنزه ﴿نَفْسِي﴾ عن الفرطات والغفلات والخواطر القبيحة والديدنة الشنيعة على مقتضى القوى الشهوية واللذة البهيمية، وكيف أبرئ وأنزه ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ المركوزة في الجبلة الإنسانية ﴿لأَمَّارَةٌ﴾ مائلة بالطبع ﴿بِالسُّوءِ﴾[1] والفساد

(1) قال في التأويلات: يعني: خلقت النفس على جبلة الأمارية بالسوء طبعًا حين خليت إلى طبعها لا يأتي منها إلا الشر ولا تأمر بالسوء، ولكن إذا رحمها ربها ونظر إليها بنظر العناية يقبلها من طبعها ويبدل صفاتها، ويجعل أماريتها مبدلة بالمأمورية وشريرتها بالخيرية، فإذا تنفس صبح الهداية في ليلة البشرية وأضاء أفق سماء القلب صارت النفس لوامة تلوم نفسها على شر فعلتها، وندمت على ما صدر عنها من الأمارية بالسوء، فيتوب الله عليها فان الندم توبة، وإذا طلعت

متوجهة نحوه إذا خلى وطبعها ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: حفظها الله من كمال رحمته وشفقته من طغيانها ووسوسة الشيطان إليها ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بالعصمة والعفاف ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عني من الخواطر النفسانية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:53] يرحمني بفضله ويعصمني بلطفه عما يبعدني من كنفه وجواره.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف:54-57].

﴿وَ﴾ بعدما فتش الملك عن أحواله وما جرى عليه، ثبت عنده أمانته وديانته ورعاية حقوق سيده ورشده في الأمور، سيما في التعبيرات والتأويلات، وصدقه في جميع الأقوال الصادرة عنه ﴿قَالَ الْمَلِكُ﴾ متحننًا عليه متشوقًا للقياه: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ سريعًا ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾ أي: أجعله خالصًا ﴿لِنَفْسِي﴾ ليكون أنيسي وجليسي ومولي أمري وظهيري في تدابير الأمور، فحضروه عنده وسلم على الملك ترحيبًا وتعظيمًا ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ وأخذ بحمد الملك وثنائه ودعائه على اللغة العبرية، قال الملك:ما هذا اللسان؟

قال:هذا لسان آبائي وأجدادي، وكان الملك يتكلم على سبعين لغة، فكلم معه بجميعها، فأجاب جميعها وأحسن فيها، فتعجب الملك منه وقال: أريد أن أسمع تأويل رؤياي منك مشافهة، فحكاه وبين وجوه المناسبات بين التعبيرات والسنوات المجدبة والمخصبة وكيفية الانتقالات والتعبيرات على مقدار فهم الملك وتأويلات السنابل الخضر واليابس على الوجه الذي أُلهم وأوحي، فازداد الملك محبة ومودة لذلك ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومرتبة علية ومنزلة رفيعة ﴿أَمِينٌ﴾ [يوسف:54] مؤتمن على جميع أمورنا، فلك التصريف في ملكنا كيف تشاء.

شمس العناية من أفق الهداية صارت النفس ملهمة إذ هي تنورت بأنوار شمس العناية فألهمها نورها فجورها وتقواها، وإذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية وأشرقت الأرض بنور ربها صارت النفس مطمئنة مستعدة لخطاب ربها بحذبة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 28].

وبعدما رأى يوسف عليه السلام ألّا محيص له عنه، ولا بدّ له من ارتكاب أمر من أمور الملك ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر ﴿إِنِّي﴾ بإقامة هذا الأمر ﴿حَفِيظٌ﴾ بوجوه محافظة أي جنس من الأجناس ﴿عَلِيمٌ﴾ [يوسف:55] بطرق تدابيرها والتصرف فيها.

قيل: اتفق وفاة قطفير - هو سيد يوسف - في تلك الليالي، وكان هذا المنصب له لذلك طلبه، وتزوج زليخا زوجته التي قد شغفها حبًا، فوجدها عذراء وولد يوسف منها أفرايم وميشا.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت من القصة ﴿مَكَّنَّا﴾ قدرنا ﴿لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر بعدما أدخلناه رقيقًا مهانًا وصيرناه مسجونًا مدة متطاولة ورفعنا مكانته فيها إلى حيث ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ أي: يتنعم ويترفه ﴿مِنْهَا﴾ أي: من نواحيها وبلادها ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ تهوى نفسه ويميل إليها طبعه؛ إذ من سنتنا أنا ﴿نُصِيبُ﴾ ونوفي ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ التي وسعت كل شيء ﴿مَن نَّشَاءُ﴾ من خلص عبادنا المجبولين على فطرة توحيدنا السالكين سبيل الإنابة والرجوع إلى فضاء فنائنا ﴿وَ﴾ بالجملة: إنا ﴿لاَ نُضِيعُ﴾ أي: لا نهمل ولا نقص ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:56] الذين يحسنون الأدب مع الله في جميع حالاتهم وشئونهم ولا يغفلون منه طرفة ولا يلتفتون إلى غيره لمحة، ولا يخطرون ببالهم سواه خطرة، هذا حالهم في النشأة الأولى.

﴿وَ﴾ الله ﴿لأَجْرُ﴾ النشأة ﴿الآخِرَةِ﴾ المعدة لهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ منها بالأضعاف والآلاف ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله عن ظهر القلب وصميم الفؤاد ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف:57] عن محارم الله طلبًا لمرضاته وقيامًا بحسن آدابه، رجاء من ثوابه وخوفًا من عقابه.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف:58-62].

﴿وَ﴾ حين استوزر الملك يوسف عليه السلام وأقامه في ضبط الممالك وقيام أمور الناس من التدبيرات المتعلقة بأمور معاشهم من تكثير الغلات والزراعات حتى دخلت السنون المجدبة، وكانت البيوتات والمغلات مملوءة بأنواع الحبوبات، ثم لما أحاط الجدب جميع بلاد المصر والشام وعم البلوى في جميع الأماكن والجهات، اضطر الناس إلى أن يلتجئوا إلى باب العزيز؛ ليستغلوا منه ويسدوا رمقهم؛ لذلك ﴿جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ من الكنعان ليستغلوا ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ بأجمعهم ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ بالفور، وسألهم عن الوطن والمصلحة، فقالوا: نحن أولاد يعقوب جُدبنا الآن، واضطررنا إلى أن جئنا نستقوت من جاه العزيز ولا يحصل من الغير مطلقًا.

ثم قال لهم يوسف: أنتم بأجمعكم أبناء رجل واحد؟ قالوا: نعم إن لأبينا اثني عشر ابنًا، عشرة من زوجة واثنان من زوجة أخرى، ونحن تلك العشرة وواحد من الاثنين، قد هلك في الصحراء، والآخر عند أبينا يؤانس معه ويدفع به وحشة ابنه؛ إذ هو محبوب له مرغوب عنده ﴿وَهُمْ﴾ مع طول صحبتهم معه ومجالسته عنده ﴿لَهُ مُنكِرُونَ﴾[1] [يوسف:58] لا يتفقهون ولا يتنبهون فكيف يعرفونه.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ الخدام بإذن العزيز ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾ وهيأوا أرحالهم فأرادوا أن يشدوا، دخلوا على العزيز للتوديع ﴿قَالَ﴾ لهم العزيز: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ليدل على صدقكم ونجابة أصلكم ﴿أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ وأتمه لكم ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف:59] أحسن ضيافتكم مثل ما أحسنت.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ أي: بأخيكم بنيامين ﴿فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ أي: فاعلموا ألَّا

---

(1) قال في التأويلات: قيل: إنما أنكروا؛ لأنهم كانوا قد جفوه، والجفاء يورث الوحشة ويذهب الألفة، ويورث المخالفة ويذهب الموافقة، ويورث المحاربة ويذهب المسالمة، ويبعد ولا يقرب، وينكر المعروف، ولمّا صفوا تحت سريره فكان بلسان الحال ناداه انظروا ماذا فعلتم بيوسف؟ وماذا صنع الله به؟ أنتم أهنتموه والله أعزه، وأنتم جعلتموه في الجب والله جعله على سرير الملك؛ ليعلم العالمون أن العزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران:26]، وقيل: إن يوسف جعل في الجب ثم في السجن، فلم يعرضه الله تعالى في تلك الحالة على إخوته، ولمّا توجه بتاج الملك عرضه عليهم؛ وكذا أمر المؤمن يكون نطفة ثم علقة ولا يعرض في هذه الأحوال، فإذا تمت خلقته وكملت صورته أظهر وعرض، ثم إذا توفاه يعرض للإتيان أماته وأقبره، فإذا أعاد خلقه عرضه مكرمًا بلباس التوحيد متوجًا بتاج الملك كما قال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم:85].

كيل لكم عندي بعد اليوم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف:60] ولا تدخلوا داري؛ إذ أنتم حينئذٍ قوم كاذبون.

وبعدما سمعوا منه كلامًا موحشًا، وتفرسوا أنهم لو لم يأتوا بأخيهم لما اكتال لهم العزيز ولم ينزلهم، فكيف أن يحسن معهم ويضيفهم؟ ﴿قَالُوا﴾ له معتذرين: إن له أبًا شيخًا كبيرًا، محزونًا، آسفًا يتسلى به ﴿سَنُرَاوِدُ﴾ ونجتهد مقدار طاقتنا ﴿عَنْهُ أَبَاهُ﴾ ونخدع به بأنواع الخداع حتى نأتي ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف:61] ألبتة وجوهًا من الخداع لإتيانه.

﴿وَ﴾ بعدما هيأوا للسفر وأرادوا أن يرحلوا ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَانِهِ﴾ أي: خدامه وأعوانه: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ التي أتوا بها وهي الأدم والنعال في رحالهم على وجه لا يشعرونها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ وقت ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ ورجعوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ وبعد رؤيتهم البضاعة آيسوا ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بعد ذلك ﴿يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف:62] بأخيهم لو رجعوا.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يوسف:63-66].

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا﴾ من مصر ﴿إِلَى أَبِيهِمْ﴾ حكوا ما جرى بينهم وبين العزيز من الحكايات التي مضت، ثم طلبه منهم ما يصدقهم ويشهد لهم واضطرارهم من الشاهد وأمرهم العزيز بإحضار أخيهم بنيامين؛ ليكون مصدقًا لهم، ثم بعدما بسطوا الكلام عند أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ بعد اليوم لو لم ترسل معنا بنيامين ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ ليكون مصدقًا لنا عند العزيز وبعد تصديقه إيانا ﴿نَكْتَلْ﴾ لجميعنا ﴿وَ﴾ لمَ لمْ ترسله معنا ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف:63] من طرق المكروه عليه؛ إذ نحن عصبة ذوو قدرة وقوة؟!.

﴿قَالَ﴾ لهم أبوهم متأسفًا متحزنًا: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ واجعلكم وقاية له ﴿إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ فَاللَّهُ﴾ الرقيب على عباده في جميع حالاتهم ﴿خَيْرٌ﴾ لهم ﴿حَافِظًا﴾ أي: من جهة الحضانة والحفظ ﴿وَهُوَ﴾ في ذاته ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:64] إذ رحمُ الكل يرجع إليه؛ لأنه الرحيم بالذات، ورحمُ غيره إنما يتشعب من رحمه.

وبعدما ألحوا مع أبيهم واقترحوا له بإرسال أخيهم بنيامين، وتفرسوا منه أنه لم يرضَ بإرساله، خرجوا من عنده محزونين ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ التي جاءوا بها ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ التي اشتروا بها الكيل ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ ندموا وتحزنوا، ثم رجعوا إلى أبيهم شاكين مشتكين ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾ إنا نجزم بمنع الكيل لو نكرر ﴿مَا نَبْغِي﴾ أي: أي شيء نفعل وندبر ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ على وجه لا نطلع عليها إلا الآن، فجزمنا ألَّا كيل لنا إن عدنا إليه مرة أخرى بلا إتيان أخينا، ونكون عند العزيز من الكاذبين الصاغرين ونسأل منك يا أبانا من كمال كرمك وجاهك أن ترسل معنا أخانا؛ ليصدقنا عند العزيز ﴿وَ﴾ بعد تصديقه إيانا ﴿نَمِيرُ﴾ ونحمل العطايا من عنده ﴿أَهْلَنَا﴾ أي: لأجلهم ﴿وَنَحْفَظُ﴾ في الذهاب والإياب ﴿أَخَانَا وَنَزْدَادُ﴾ بسببه ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: حمله؛ إذ من سنة العزيز أن يحمل لكل منا بعيرًا ﴿ذَلِكَ﴾ الكيل الذي جئنا به ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف:65] قليل لا يفي لمعاشنا إلى وقت الخصب ما لم نزد.

ثم لما بالغوا في سؤالهم واقترحوا الإسعاف ما طلبوا ﴿قَالَ﴾ لهم أبوهم معاتبًا عليهم: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ﴾ أي: بنيامين ﴿مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: يمينًا وقسمًا أثق به وأعتمد عليه ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ ألبتة بلا خلف ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ نوع من البلاء من إلمام العدو وغيره ﴿فَلَمَّا﴾ اضطروا إلى ما طلبه أبوهم منهم ﴿آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ فرضي بإرسال بنيامين معهم ضرورة ثم ﴿قَالَ﴾ أبوهم تأكيدًا وتغليظًا وتفويضًا لأمره إلى ربه: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لجميع حالات عباده ﴿عَلَى مَا نَقُولُ﴾ ويجري بيننا ﴿وَكِيلٌ﴾ [يوسف: 66] أي: رقيب حفيظ، يفعل بنا على مقتضى علمه وخبرته.

ثم لما رضي يعقوب عليه السلام بإرسال ابنه بنيامين، فشدوا وخرجوا من عنده، وصى لبنيه أن يتفرقوا عند الدخول إلى مصر، ولا تدخلوا كوكبة واحدة؛ خوفًا منهم أن يعانوا؛ إذ هم ذوو جمال وبهاء، كان الناس يتعجبون منهم حيث انصرفوا مجتمعين.

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُم مِّنَ

ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف:67-69].

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا﴾ على البلدة ﴿مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ مجتمعين ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾[1] فرادى، حتى لا تتضرروا من العيون اللامة ﴿وَ﴾ اعلموا أني ﴿مَا أُغْنِي﴾ وأدفع بقولي لكم هذا ﴿عَنكُم مِّنَ﴾ قضاء ﴿اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ﴾ أي: ما الحكم والأمر ﴿إِلَّا للهِ عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الأظلال ﴿تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ﴾ في كل الأمور

---

(1) قال في التأويلات: قال: هذا الافتراق بقي في بني إسرائيل، انفلق البحر لهم اثنتي عشرة فلقة كما قال: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ﴾ [الشعراء:63]، وقال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾ [الأعراف:160] وقال: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة:60] وقال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:12] وقال في حق المؤمنين: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:63] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:45] وقال: ﴿إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:35] وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:71] فلا ينبغي للمؤمنين أن يتفرقوا؛ بل ينبغي أن يكونوا كنفس واحدة يشد بعضهم بعضًا، وقيل: أربعة نفر أمروا بدخول أربعة أبواب كما قال: ﴿وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: 189] وذلك لموافقة الشرع ومخالفة الهوى، وأمروا إخوة يوسف بدخول أبواب مصر؛ لكمال النفقة وحسن المقال: ﴿لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف:67] وأمروا الكفرة بدخول أبواب النار لإظهار العقوبة والنكال كما قال: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الزمر:72] وأمر المؤمنون بدخول الجنان بكمال الكرامة وإظهار النوال كما قال: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:49]، وقيل: أربعة أبواب فتحت لأربعة نفر لأربعة أشياء فتحت أبواب النعمة للغافلين؛ للاستدراج والإمهال كما قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:44]، وفتحت أبواب السماء على قوم نوح للخزي والنكال كما قال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر:11]، وفتحت أبواب النار على الكفار للعقوبة وللسلاسل والأغلال كما قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر:73]، وفتحت أبواب الجنان على المؤمنين للفضل والأفضال كما قال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَرًا﴾.

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:67] إذ لا رجوع للكل إلا إليه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ مصر ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ متفرقين من أبواب متعددة ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم﴾ ويدفع تدبير أبيهم ﴿مِّنَ﴾ قضاء ﴿اللهِ﴾ الذي قدر لهم ﴿مِن شَيْءٍ﴾ إذ الأمر والقضاء لله ولا معقب لحكمه ﴿إِلَّا﴾ يعني: سوى ما كان ﴿حَاجَةً﴾ تختلج ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ بالوصية لأبنائه تفاؤلاً وتفريجًا ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: يعقوب عليه السلام ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ كامل مفاض له من لدنا، متعلق بما لا مرد لقضائنا، لذلك قال: وما أغني عنكم من الله من شيء ﴿لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بطريق الوحي والإلهام إياه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الجهل والنسيان ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:68] أن قضاءنا لا يرد، وأن الحذر لا يغني عن القدر؛ لذلك أصاب بهم ما خافوا عنه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ مع بنيامين، أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على سماطٍ، فبقي بنيامين وحيدًا، فبكى وتأوه متحسرًا، وقال: لو كان أخي يوسف حيًا لما بقيت وحيدًا، ولما رأى يوسف حنينه وبكاءه ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ وزجع نحوه وضم نفسه إلى نفسه، وأجلسه على سماطه، ثم أمر يوسف أن ينزلوهم كل اثنين بمنزل واحد، فبقي بنيامين لا ثاني له، فاغتم حينئذٍ أشد اغتمام، فذهب به يوسف إلى منزله، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: فمن يجد مثلك أخًا، غير أنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل.

ثم لما رأى يوسف زيادة همه وحزنه وكثرة تأسفه وغمه ﴿قَالَ﴾ لا تحزن ولا تغتم ﴿إِنِّي﴾ بشخصي ﴿أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف بن يعقوب وراحيل، قد احتال عليّ أخوتك وخادعوني بأنواع الحيل والخداع إلى أن فرقوا بيني وبينك وبين أبي مدة مديدة حسدًا، فأنقذني الله عن مكرهم وكيدهم، وخلصني عن قيد الرقية والسجن وأنواع المحن ورفع قدري ومكانتي وشرفني برؤيتك، وأعطاني من المكرمات ما لا يحصى ﴿فَلاَ تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزن يا أخي ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:69] معي ومعك من أنواع الصغار والهوان وأصناف الأذيات.

ثم لما قرت عينا بنيامين بوجه يوسف وسر قلبه لقياه بعدما آيس وقنط، قال: يا أخي لا أفارقك أبدًا، قال يوسف: لا يتيسر هذا إلا بعد أن أتهمك بتهمة، فآخذك لأجلها إن رضيت، قال: رضيت بأي تهمة اتهمتني بها.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ

إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 70-76].

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ على الوجه المعهود وشدوا رحالهم ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ أي: أمر يوسف للخدمة أن يجعلوا السقاية التي بها يكال، وهي من الفضة، وقيل: من الذهب ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين، وبعدما شدوا الرحال ودعوا مع العزيز جميعًا، فخرجوا عقبها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما خرجوا من البلدة ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: صاح عليهم صائح من قبل العزيز: ﴿أَيَّتُهَا العِيرُ﴾ أي: القفل إلى أين تمشون؟ ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: 70] مدبرين.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ أي: على الصائحين، مضطربين خائفين: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ [يوسف:71] أيها الفاقدون المتفقدون؟.

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ﴾ أي: الآنية التي يصاع ويكال بها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من المكيل ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف:72] ضمين أتكفل أن أتفحص من رحله.

﴿قَالُوا﴾ مضطربين، مقسمين، مستبعدين: ﴿تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ أيتها الخدمة والعزيز ﴿مَّا جِئْنَا﴾ عندكم وفي أرضكم ﴿لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ﴾ سيما السرقة، فإنها من أعظم الفسادات ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف:73] أصلاً، إذ نحن أولاد الأنبياء ولا يليق بنا أمثال هذا.

﴿قَالُوا﴾ أي: الشرطة والخدام: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي: أي شيء جزاء السارق منكم ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف:74] في دعوى البراءة والنزاهة؟.

﴿قَالُوا﴾ أي: إخوة يوسف: ﴿جَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء السارق ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ

﴿فَهُوَ﴾ نفسه وشخصه ﴿جَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء سرقته بأن يسترق سنة، وكان جزاء السارق في دين يعقوب استرقاق سنة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما قلنا ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: 75] السارقين في دين أبناء يعقوب عليه السلام.

ثم لما أفتوا بما أفتوا أخذوا بالتفتيش والكشف ﴿فَبَدَأَ﴾ الزاعم ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ أي: بتفتيشها وتفحصها ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين ﴿ثُمَّ﴾ بعدما استقصى الكل واستقرأها تفشيًا ﴿اسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: السقاية ﴿مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ لئلا يظن أنهم يدسونها في رحله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل كيد يوسف لأخذ أخيه بنيامين ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ في أخذه من يد إخوته وخلاصه من الرق والسجن، وكدنا له أيضًا في أخذ أخيه من إخوته بفتواهم أيضًا، إذ ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز له ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ بجرم السرقة ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: ملك مصر؛ إذ في دينه الضرب وأخذ ضعف ما سرق ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هذا الحكم المخصوص في دين الملك، وألهمه ليوسف بنفاذه أو يحكم في هذه المسألة على دين آبائه، أو كان الملك أسلم بيده، ودخل بدين آبائه على ما نُقل ﴿نَرْفَعُ﴾ ونعلو ﴿دَرَجَاتٍ﴾ أي: مراتب ومنازل ﴿مَّن نَّشَاءُ﴾ من عبادنا، بزيادة الفضائل والكمالات والحقائق والمعارف ﴿وَ﴾ لا يبعد منا أمثال هذا؛ إذ ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:76] أعلى منه لا إلى نهاية؛ إذ لا انقطاع لتجددات التجليات أصلاً، لذلك قال سبحانه: «ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي»[1] أي: في شوقي وتجلياتي.

﴿ ۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف:77-80].

ثم لما شاهدوا استخراج الوعاء من رحل بنيامين اضطربوا اضطرابًا شديدًا

---

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (10/91).

وتحزنوا حزنًا غليظًا ﴿قَالُوا﴾ مغاضبين عليه مريدين مقته: ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ هذا اللئيم، فلا تعجبوا منه؛ إذ هي من ديدنة أخيه سرت عليه ﴿فَقَدْ سَرَقَ﴾ مثله ﴿أَخٌ لَّهُ﴾ أكبر منه ﴿مِن قَبْلُ﴾ في أوان طفوليته يريدون يوسف.

قيل: ورثت عمة يوسف من أبيها منطقة إبراهيم، وكانت تحضن يوسف وتحبه، فلما شب أراد يعقوب انتزاعه منها، فلم ترض العمة، فشدت المنطقة على وسطه ثم أظهرت ضياعها، فتفحص عنها فوجدتها مشدودة في وسطه، فتحاكموا فصارت أحق به في دينهم.

فلما سمع يوسف منهم ما سمع ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ وكتمها ﴿يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ولم يظهر الإنكار عليهم بل أضمر حيث ﴿قَالَ﴾ في نفسه وسره: ﴿أَنتُمْ﴾ أيها المسرفون ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: خصلة ومنزلة وشأنًا ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:77] وتشرحون بألسنتكم افتراء ومراء.

ثم لما جزم العزيز بأخذ أخيه على جريمة السرقة واسترقاقه إلى سنة ﴿قَالُوا﴾ متضرعين متذللين منادين له على وجه الخضوع راجين من قبوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أدام الله عزك ﴿إِنَّ لَهُ﴾ أي: لهذا المفسد السارق ﴿أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السن والمرتبة؛ إذ هو نبي من الأنبياء، ضرير من فراق ابنه الهالك، يتسلى قلبه ويزول وحشته لمؤانسته هذا المسرف، مع أنا حلفنا معه وآتيناه موثقًا عظيمًا أن نرجع فيه ﴿فَخُذْ﴾ من جاهك وإحسانك ﴿أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أي: بدله بواحد منا لنخدم في بابك، وأطلقه لنذهب به إلى أبيه الضرير الضعيف؛ لئلا يستوحش ولا نحنث في حلفنا ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] [يوسف:78] المتعودين للإحسان، المتمرنين فيه، فتمم علينا وعلى الشيخ الضعيف

(1) قال روزبهان: أي: ممّن يعفو عمّن ظلمه. وأيضًا: أي: من المشاهدين الملكوت، والمكاشفين لهم أنوار الجبروت. وأيضًا: أي: من العالمين بحل مشكلات الغيوب، وعجائبات القلوب. وأيضًا: من العارفين بدقائق الأحوال، وحقائق الإجمال. قال ابن عطاء: من المائلين إلى الفقراء بالإحسان إليهم، والقعود معهم والأنس بهم. وقال أبو بكر بن طاهر: إنا نراك من المحسنين، لا ترد عذر معتذر. وقال بعضهم: إنا نراك من المحسنين إلى من أساء إليك، وهو من شرائط الإيمان.

وقال بعضهم: أي: العالمين بعلم الرؤيا. وقال أبو بكر الورّاق: الراجعين إلى الله في النوائب والمحن.

وقال يوسف بن الحسين: التاركين حظك لحظوظ إخوانك. وقال الجنيد: العارفين حقائق الأمور.

إحسانك وامتنانك.

﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ يعني: نعوذ بالله أن نأخذ غير السارق بدله ظلمًا لمصلحتكم ﴿إِنَّا﴾ وإن فعلنا مثل ما التمستم منا كنا ﴿إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف:79] خارجون عن حدود الله بلا إذن شرعي.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ ومن تبديله ﴿خَلَصُوا﴾ وخرجوا من عنده ﴿نَجِيًّا﴾ متناجين في نفوسهم بأن ما عليه العزيز هو الحق؛ لأن أخذ البريء بدل المجرم ظلم صريح، ثم لما صمموا العزم إلى الرجوع وآيسوا من بنيامين ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ رأيًا وسنًا، وهو روبيل أو شمعون: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ أيها المسرفون ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ عظيمًا وعهدًا وثيقًا ﴿مِّنَ اللهِ﴾ القادر المقتدر على أنواع الغضب والانتقام أن ترجعوا به ﴿وَ﴾ أيضًا لم تستحيوا من الله ولم تتذكروا ﴿مِن قَبْلُ﴾ في سالف الزمان ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِي﴾ حق ﴿يُوسُفَ﴾ من الإذلال والزجر التام والألم المفرط والإلقاء في الجب وبيعه رقيقًا، وغير ذلك من أنواع الأذيات معه، وأنتم ما استحييتم من الله، تدعون وراثة الأنبياء وتنسبون أنفسكم إليهم وبعد اللتيا والتي فعلتم بأخيه أيضًا هذا ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: لا أزول عن أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي﴾ بالخروج منها ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف:80].

﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾ [يوسف:81-86].

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا﴾ بسرقته ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أيقنا أنه سارق، وما علمنا إلا بالمشاهدة والإحساس بأن استخرج صاع الملك من رحله، وإنا ﴿وَ﴾ إن كنا حفيظًا له رقيبًا عليه عما يعرضه ويشينه لكن ﴿مَا كُنَّا

﴿لِلْغَيْبِ﴾ المستور عنا ﴿حَافِظِينَ﴾ [يوسف:81] إذ لا اطلاع لنا على سره.

﴿وَ﴾ إن لم تقبل يا أبانا قولنا ﴿اسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: أهلها ﴿الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ لدى الحوامل وتهيئة الأسباب ﴿وَ﴾ أسهل من ذلك اسأل ﴿الْعِيرَ﴾ أي: القفل ﴿الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ إذ هم رفقاؤنا معنا حين سرق ابنك وأخذوه، مع أنا اجتهدنا كثيرًا أن يؤخذ منا واحد بدله لم يقبلوا منا، وقالوا:ما نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، وإن مضينا على مقتضى مقترحكم نكون من الظالمين بأخذ البريء بدل الجاني، مع أن يهوذا أو روبيل قد تخلف عنا خوفًا من الحنث واستحياء منك ﴿وَ﴾ الله يا أبانا ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف:82] فيما حكينا لك عما جرى علينا مما تم.

ثم لما سمع يعقوب ما سمع تأسف وتأوه وبكى كثيرًا ﴿قَالَ﴾ من أين يعرف العزيز أن السارق يؤخذ لسرقته ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زينت وحسنت ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أن تفرقوا ابني عني ظلمًا وزورًا كما فرقتم أخاه فيما مضى ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: أمري صبر جميل؛ إذ الصبر أجمل مني فيما فرطتم في ابنيَّ أيها المسرفون المفسدون ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ المطلع بحالي وحزني بمقتضى لطفه وسعة جوده ورحمته ﴿أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ أي: يوسف وأخيه وكبيركم المتخلف عنكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته ﴿هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمناجاة عباده ونيلهم إلى حاجاتهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:83] في أفعاله على مقتضى مصالح عباده.

﴿وَ﴾ بعدما سمع منهم أبوهم ﴿تَوَلَّى﴾ وانصرف وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ مغاضبًا عليهم مشتكيًا إلى ربه من فعالهم ﴿وَقَالَ﴾ من شدة حزنه وكآبته ونهاية ضجرته على مفارقة ابنيه: ﴿يَا أَسَفَى﴾ أي: يا حزني وشدة بلائي ويا حسرتي وحرقة قلبي وكبدي، وبالجملة: يا هلكتي تعالي؛ إذ لم يبقَ بيني وبينك ما يبعدني عنك ويبعدك عني ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ خصه بالذكر لأنه عمدة محبته وزبدة مودته، مع أنه يتردد في حياته ويجزم بحياة الأخيرين ﴿وَ﴾ لما تمادى ألمه وتطاول حزنه وأسفه ﴿ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ﴾ كثرة ﴿الْحُزْنِ﴾ قبل فقدان هذين الابنين وبعد فقدانهما ﴿فَهُوَ﴾ نفسه ﴿كَظِيمٌ﴾ [يوسف:84] مملوء من الحزن والبلاء كأنه مجسم منها، متجرع الغصص والألم من بنيه.

ثم لما رأى الناس ما رأوا منه من قلة الأكل والشرب وذوبان الجسم ونقصان القوى البشرية والسهر المفرط واستمرار الأسف والحزن ﴿قَالُوا﴾ متعجبين من حاله مقسمين على هلاكه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ أي: لا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ على هذا المنوال ﴿حَتَّى

تكُونَ حَرَضًا﴾ مريضًا مهزولاً مدقوقًا مشرفًا على الهلاك ﴿أَوْ تكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾ [يوسف:85].

ثم لما بالغوا في منعه عما عليه من الكآبة والحزن والتأوه والبكاء ﴿قَالَ﴾ في جوابهم مستنكرًا عليهم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ أي: ما أبث وأنشر شكواي ﴿وَحُزْنِي﴾ المفرط الخارج عن التصبر ﴿إِلَى اللهِ﴾ المطلع لما في قلبي من الحرقة والألم؛ رجاء أن يزيل عني ما يؤذيني ويوصلني بلطفه وجوده إلى ما يسرني ويفرج عني ﴿وَ﴾ اعلموا أيها اللائمون المبالغون في منعي أني بإلهام الله ووحيه إليّ ﴿أَعْلَمُ مِنَ﴾ كرم ﴿اللهِ﴾ وسعة جوده وفضله ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:86] أنتم أيها اللائمون، بل إنما حملني الله وأزعجني على بث الشكوى ونشر النجوى معه وإظهار التذلل والخشوع والتضرع والخضوع نحوه، حتى لا أقنطه عن ملاقاة يوسف ولا أترك المناجاة مع الله لأجله وإن تطاولت المدة.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:87-90].

ثم لما استروح يعقوب من روح الله واستنشق من نسمات رحمته، نادى بنيه نداء مرحمة وإشفاق؛ ليقبلوا إليه بعدما آيسوا عنه وعن عطفه؛ إذ بالغوا في سوء الأدب معه وإيقاعه بأنواع المحن والشدائد، فقال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا﴾ إلى مصر مرة أخرى ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ أي: تفحصوا وتطلبوا أصالة ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ بنيامين تبعًا ﴿وَلَا تَيْأَسُوا﴾ أي: لا تقنطوا يا بني ﴿مِن رَّوْحِ اللهِ﴾ وتنفيسه تفريجًا لهم؛ إذ نحن معاشر الأنبياء لا يليق بنا اليأس والقنوط عن كرم الله وجوده في حال من الأحوال ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ﴾ أي: لا يقنط ﴿مِن رَّوْحِ اللهِ﴾ وكمال قدرته وسعة جوده ﴿إِلَّا القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ [يوسف:87] الساترون بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق السارية المتجلية في الآفاق،

الفائضة عليهم سجال الفضل والكرم على مقدار قابلياتهم واستعداداتهم.

فعليكم ألا تقنطوا من الله في حال من الأحوال، بل اعتقدوا أن له التصرف والقدرة التامة والإرادة الكاملة على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم لما صمموا العزم بالخروج إلى مصر كرة أخرى بإذن أبيهم وخرجوا من عنده وساروا إلى أن وصلوا مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف ﴿قَالُوا﴾ أولاً: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي: الجدب وشدة الجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ قليلة رديئة ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ وتممه لنا من جاهك وإحسانك ﴿وَ﴾ قالوا ثانيًا: ﴿تَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ برد أخينا لنرده إلى أبيه المحزون، فإنه قد أشرف على الهلاك من شدة الحزن والأسف ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المجازي عن أعمال عباده ﴿يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف:88] المؤمنين منهم جزاءً حسنًا، لا جزاء أحسن منه.

ثم لما سمع يوسف من أسف أبيه وشدة كربه وكآبته وابيضاض في عينيه وهزال جسمه وإشرافه على الانهدام والانخرام، شرع يظهر أمره عليهم حيث ﴿قَالَ﴾ تفضيحًا لهم وتقريعًا: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ أيها المفسدون قبح ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ من الزجر والإذلال والضرب والشتم وأنواع المكروهات والمذمومات، سيما ما شريتموه بثمن بخس دراهم معدودة لتبعدوه عن وجه أبيه، وتطردوه عن ساحة عز حضوره ﴿إِذْ أَنتُمْ﴾ قوم ﴿جَاهِلُونَ﴾ [يوسف:89] بألّا مرد لقضاء الله، ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فاجتهدتم لهدم بناء الله وتغيير مراده ورد قضائه مبارزة عليه وخروجًا بين يديه.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ مخبتين خاضعين متذللين بعدما عرفوه مستفهمين على سبيل التقرير والتثبيت: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أيها العزيز ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ بن يعقوب الذي فعلتم به ما فعلتم ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ بنيامين من أبي وأمي ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بأنواع الكرم والإحسان، ووقانا عما قصدتم علينا من السوء والإذلال وأنواع الوبال والنكال ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ﴾ عن محارم الله وعما لا يرضى به الله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على ما جرى عليه من القضاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ الرقيب المطلع لأحوال عباده ﴿لَا يُضِيعُ﴾ أي: لا يهمل ولا ينقص ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:90] الذين يحسنون الأدب مع الله ويعبدونه كأنهم يرونه.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يوسف:91-95].

ثم لما ظهر عليهم ما ظهر من الفضيحة والشناعة وأنواع الندامة والكآبة ﴿قَالُوا﴾ متضرعين، مستحيين، متذللين، مقسمين على سبيل التثبيت والتقرير: ﴿تَاللَّهِ﴾ يا أخانا ﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ﴾ واصطفاك ﴿عَلَيْنَا﴾ وأراك في المنام ما أراك من سجود الشمس والقمر والكواكب المعتبرة، وكفاك هذا دليلاً على نجابتك واختيارك علينا، مع أن أبانا قد علم منك ما علم من الرشد وكمال العلم والفضل؛ لذلك آثرك علينا محبة وعطفًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِن كُنَّا﴾ أي: إنّا كنا ﴿لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:91] إذلالك وإرادة إهلاكك وضربك وإيذائك، وفي إبطال إرادة الله ومشيئته وكمال حكمته وقدرته، وفي إيذاء أبينا بمفارقتك عنه وإيقاعه بأنواع البليات والنكبات إلى حيث ابيضت كريمتاه من فراقك، فالآن الأمر بيدك وإنّا مجرمون، معترفون بأنواع الجرائم، فلك الاختيار، وعلينا الحسرة والندامة وأنواع الكآبة والسآمة.

ثم لما رأى يوسف منهم ما رأى من الندامة المفرطة والخجل والخذلان وأنواع الخيبة والخسران ﴿قَالَ﴾ لهم؛ تسلية عليهم وتزكية لنفسه بمقتضى نجابة طينته: ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ أي: لا تقريع ولا توبيخ ﴿عَلَيْكُمُ﴾ مني في حال من الأحوال سيما ﴿الْيَوْمَ﴾ الذي أنتم تعتذرون فيه وتستعفون عني، فاعلموا أني عفوت لكم ما لي من الحقوق عليكم، وأبرأت ذمتكم عنها، بل ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بعدما استغفرتم إليه مخلصين ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه في ذاته ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:92] لأن رحمَ جميع الرحماء من ظل رحمته التي وسعت كل شيء.

وبعد تسليتهم وعفوهم وإخزاء الرعب عن خواطرهم، أمرهم بالذهاب إلى أبيهم المحزون؛ ليخلص عما عليه من الحزن المفرط، فقال: ﴿اذْهَبُوا﴾ يا إخوتي ﴿بِقَمِيصِي هَذَا﴾ - وهو عليه - فأخرجه ولفه بلا تنقية وغسل ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ﴾ أي:

يرجع ويصير ﴿بَصِيرًا﴾ بعدما كان فاقد العينين ﴿وَ﴾ بعد أن يصير بصيرًا صحيحًا سويًا ﴿أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾ أي: جميع ما ينسب إليكم من النسوان والذراري والخدم والحشم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف:93].

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي: القافلة من عمران مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن في صحبته من المؤمنين له: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[1] [يوسف:94] وتسفهوني أيها الحضار، وتنسبوني إلي نقصان العقل والخرف لصدقتموني.

﴿قَالُوا﴾ أي: الحاضرون: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ﴾ بتذكير يوسف وكثرة تحضيره ببالك ﴿لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف:95] أي: ضلالك الذي كنت عليه زمانًا مستمرًا، وهو وإن سفهه الناس تزايد وجدانه، ويترقى ساعة فساعة.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:96-100].

---

(1) قال نجم الدين كبرى: يحكى أن ريح الثوب لم يجدها الإخوة ووجدها يعقوب؛ لأن الإخوة كانوا عاقين لوالديهم، وكان الثوب من الجنة فلم يجدوا ريحه، ثم بعد ذلك رحموا وغفروا وقيل لم يجدوا ريح الثوب؛ لأنهم ما احترموا يوسف، بل هتكوا حرمته فلا جرم لم يجدوا ريحه كما لا يجد غير التائب ريح التوبة في الآخرة، وقيل: كان ليوسف قميص المحبة ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:18]، وقميصه الفتنة ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف:25] وقميصه البشارة، ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ [يوسف:93] ولمّا كان يوم البلاء تباغضوا، ولمّا كان يوم الفرح توادوا واستبشروا وتنافسوا أنهم يذهب بالقميص ويبشر يعقوب به، هكذا قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:140] فسبحانه من عزيز حميد فقال: لما يريد بقلب الدهور ويحدث الأمور بعد الأمور.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وهو يهوذا مع القميص ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ على الوجه المأمور ﴿فَارْتَدَّ﴾ أي: عاد ورد فجأة ﴿بَصِيرًا﴾ كما كان في سالف الزمان، فشكر الله وحمده، وسجد له سجدة خضوع وخشوع وتذلل تام، ثم رفع رأسه من سجوده ﴿قَالَ﴾ لبنيه ولحضار مجلسه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ حين لمتوني بالأسف والحزن وكثرة المناجاة مع الله لملاقاة يوسف ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ﴾ كرم ﴿اللهِ﴾ وسعة جوده ورحمته ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:96] أنتم أيها اللائمون.

ثم لما سر يعقوب عليه السلام وخلص من الشدائد والمحن وقر عيناه ﴿قَالُوا﴾ أي: بنوه منادين له متضرعين إليه: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ التي كنا نعمل معك ومع من أحببته واخترته علينا ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ فعلنا من الجرائم العظام والمعاصي والآثام ﴿خَاطِئِينَ﴾ [يوسف:97] جاهلين عن عواقبها وما يؤول إليها؛ إذ هو من قضاء الله إيَّانا ولا مرد لقضائه.

ثم لما تفرس يعقوب عليه السلام منهم الإخلاص والإنابة التامة والرجوع عن ظهر القلب ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ في ذاته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده بعدما أخلصوا ﴿الرَّحِيمُ﴾ [يوسف:98] لهم يقبل توبتهم.

سوَّف أمر استغفارهم إلى ملاقاة يوسف والمشورة معه، يدل عليه ما رُوي أن يعقوب استقبل القبلة قائمًا يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمِّن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين حتى نزل جبريل عليه السلام، فقال: إن الله قد أجاب دعوتك في حق أبنائك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة.

ثم لما صمموا عزم الرحيل إلى مصر شدوا ركابهم، وساروا حتى وصلوا إلى قربها، سمع يوسف بقدومهم، وخرج إلى استقبالهم مع الملك وجنوده وجميع أهل مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ ووصلوا إليه ﴿آوَى إِلَيْهِ﴾ أي: اعتنق وضم يوسف ﴿أَبَوَيْهِ﴾ إلى نفسه وواسا معهما ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف:99] عن نكبات الجدب والقحط وأذيات الرحيل.

﴿وَ﴾ بعدما دخلوا على بيته ﴿رَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ تعظيمًا لهما وتوقيرًا ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي يجلس هو عليه، وهو يقوم بين يديهما ﴿وَ﴾ بعدما تمكن أبواه على عرشه ﴿خَرُّوا﴾ أي: هما وبنوهما ﴿لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: خروا لشكر لقياه وشرف حضوره لله سجود شكر وخضوع.

ولما رأى يوسف سجودهم تذكر ما رأى في المنام في أوان الصبا ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ في سالف الزمان ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ صدقًا محققًا مطابقًا للواقع ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ ربي بأنواع الإحسانات ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ بعدما كنت فيه مدة مديدة ﴿وَ﴾ أعظم منه أنه ﴿جَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي: البادية البعيدة ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾ وأوقع ﴿الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ بأنواع الإيقاعات والوساوس ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿لَطِيفٌ﴾ مدبر كامل وموفق كافل ﴿لِّمَا يَشَاءُ﴾ من الأمور ويريد إصلاحه ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ﴿هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بعلمه الحضوري لمصالح عباده ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:100] المتقن في أفعاله على مقتضى ما تعلق بعلمه وإرادته.

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يوسف:101-104].

ثم دعا يوسف ﷺ لنفسه وناجى مع ربه مناجاة صادرة عن محض الحكمة والذكاء والفطنة بقوله: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بلطفك وفضلك بأنواع التربية والنعم إلى حيث ﴿قَدْ آتَيْتَنِي﴾ وأعطيتني ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ الظاهر أي: الحكومة المتعلقة بعالم الشهادة ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي: العبور من الحوادث الكائنة في عالم الشهادة إلى ما في عالم الغيب من الصور المقتضية إياها ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: عالم الأسماء التي انعكست منها هذه الأظلال الهالكة الشهادية ﴿أَنتَ﴾ بذاتك بعدما تحققت بتوحيدك وانكشفت به، ورفعت الحجب بيني وبينه ﴿وَلِيِّي﴾ ومولى أموري وحامل أسراري ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أي: في النشأة الأولى والأخرى ﴿تَوَفَّنِي﴾ اقبضني ﴿مُسْلِمًا﴾ مسلمًا مفوضًا جميع أموري إليك ﴿وَأَلْحِقْنِي﴾ بلطفك ﴿بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:101] الذين أصلحوا نفوسهم في النشأة الأولى والأخرى حتى يفوزوا من عندك بشرف اللقيا.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من قصة يوسف وما جرى بينه وبين إخوته وبين امرأة العزيز

وغير ذلك من الوقائع الهائلة، الواقعة على يوسف وعلى أبيه وأخيه من حسد إخوتهما ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: من الإخبارات التي سترت عنك يا أكمل الرسل ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: نعلمك بالوحي والإلهام، ومحقق مسلَّم عند ذوي العقول ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ وعندهم وفي جمعهم وقت ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[1] [يوسف: 102] أي: يقصدون المكر والخداع مع يوسف وأبيه، بعدما شاوروا كثيرًا في إهلاك يوسف وإبعاده من عند أبيه واستقرار رأيهم بعد تكرر المشاورة على ما فعلوا به واتفقوا عليه، وما أنت أيضًا من أهل الإملاء والنسخ أن تضبط قصصهم من التواريخ، ولا من أهل التعلم المستفيد من الغير، بل ما هو إلا وحي يوحى إليك من عندنا.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ الذين يترددون بين يديك ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ بإيمانهم وإذعانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:103] لك مصدقين لما جئت به من عند ربك.

﴿وَ﴾ ما عرض لهم ولحق لنفوسهم من الغفلة لم يقبلوا ما قلت لهم؛ إذ ﴿مَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغ ما جئت به من عند الله ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعلٍ ومال من حطام الدنيا كما يفعله حملة الأخبار ومتفقهة الزمان والمتشيخة من أهل التلبيس، بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هذا القرآن وما فيه من العبر والأحكام والقصص المستلزمة لأنواع المواعظ والتذكيرات ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عام، وفائدة جليلة شاملة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف:104].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ

(1) (وَهُمْ يَمْكُرُونَ) به ويبغون له الغوائلَ حتى تقف على ظواهر أسرارِهم وبواطنها وتطّلع على سرائرهم طرّاً وتحيط بما لديهم خُبراً، وليس المرادُ مجردَ نفي حضورِه ﷺ في مشهد إجماعِهم ومكرِهم فقط، بل في سائر المشاهدِ أيضاً، وإنما تخصيصُه بالذكر لكونه مطْلَعَ القصة وأخفى أحوالِها كما ينبيء عنه قوله : وهم يمكرون ، والخطابُ وإن كان لرسول الله ﷺ لكنِ المرادُ إلزامُ المكذبين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك إذ عدمُ سماعِك ذلك من الغير وعدمُ مطالعتِك للكتب أمرٌ لا يشك فيه المكذّبون أيضاً ولم تكن بين ظَهرانيهم عند وقوعِ الأمر حتى تعرِفه كما هو فتبلّغَه إليهم، وفيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم، وفيه أيضاً إيذانٌ بأن ما ذكر من النبأ هو الحقُّ المطابقُ للواقع، وما ينقُله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه يعني أن مثلَ هذا التحقيقِ بلا وحي لا يتصوّر إلا بالحضور والمشاهدة وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي. انظر: [تفسير أبي السعود (3 /474)].

تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:105-108].

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي: كثير ﴿مِّنْ آيَةٍ﴾ دالة على وجود الصانع وتوحيده واستقلاله في التصرف في الآثار كائنة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات، أو عالم الأسماء والصفات وعالم الطبيعة المنعكسة منها ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ مرور غفلة وذهول ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:105] لا يعتبرون منها ولا يتأملون فيها وفي رموزها وإشاراتها، وذلك من كمال توغلهم في الكثافة والحجب الظلمانية، ونهاية تدنسهم بأدناس الطبيعة الهيولانية.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿مَا يُؤْمِنُ﴾ ويوقن ﴿أَكْثَرُهُم بِاللهِ﴾ المستغني في ذاته عن جميع المظاهر، المستقل بوجوده بحيث لا وجود لغيره أصلاً ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106] مشتركون من مصنوعاته في استحقاق العبادة ما لا وجود له في نفسه أصلاً.

أيغفلون أولئك المسرفون عن مكر الله؟! ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ عن كمال قدرته على الانتقام ولم يخافوا ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ وترسل عليهم ﴿غَاشِيَةٌ﴾ أي: عقوبة هائلة نازلة ﴿مِّنْ عَذَابِ اللهِ﴾ في هذه النشأة تغشيهم وتحيط بهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ الموعودة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:107] أماراتها وعلاماتها؟!.

وإن أصروا على كفرهم وإشراكهم باللهو، عدم الالتفات بك وبقولك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل مجاراة عليهم: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي: الدعوة إلى التوحيد وإعداد الزاد ليوم المعاد طريقي، وأنا بُعثت لأجلها ﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾ أي: إلى توحيده كافة عباده ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ تامة فائضة عليّ من عنده سبحانه ﴿أَنَا﴾ أي: أدعو أنا لمقتضى الوحي والإلهام ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ من خيار أمتي بوسيلة إرشادي وإهدائي إليهم ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ أي: أنزهه تنزيهًا تامًا عن معتقدات أهل الزيغ والضلال في حقه سبحانه ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:108] أي: أبرئ نفسي عما هم عليه من الشرك المنافي للتوحيد.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ

أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:109-111].

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ أيها المبعوث للكل ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ مثلك من جنس البشر ﴿نُوحِي إِلَيْهِم﴾ أي: نخصهم بالوحي والإلهام؛ لنجابة طينتهم في أصل خلقتهم مع أنهم ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: من جملة ما يسكنون فيها ﴿أَ﴾ يصرون هؤلاء المعاندون على تكذيبك، معللين بقولهم الباطل: ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴿فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾ كذبوا الرسل المبعوثين لهم مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل تكذيبهم إياك حتى يعتبروا منها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَدَارُ الآخِرَةِ﴾ المعدة للفوز والفلاح ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: للمؤمنين الذين يحفظون نفوسهم عما حذرهم الله منها ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:109] أيها المسرفون المكذبون بها خيريتها، مع أنكم مجبولون من زمرة العقلاء، وهم أيضًا أمثالكم أيها المسرفون المكابرون.

وإن تمادوا في الغفلة والإصرار على التكذيب مدة مديدة ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ﴾ وقنط ﴿الرُّسُلُ﴾ المبعوثون إليهم بل ﴿وَظَنُّوا﴾ من طول الإمهال وعدم الأخذ والبطش ﴿أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ يقينًا، وصاروا كأنهم قد أخلف عنهم الوعد الذي وُعدوا به من جانب الحق، وبعدما ازداد يأسهم وقنوطهم، قد جاءهم نصرنا الذي وعدناهم وعذابنا الذي قد أوعدنا به أممهم، وبعدما جاء أخذنا إياهم ﴿فَنُجِّيَ﴾ ونخلص ﴿مَن نَّشَاءُ﴾ إيمانه بنا وبرسلنا وانقياده إياهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ الذي قد وعدنا به ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:110] الذين أجرموا علينا بتكذيب رسلنا وكتبنا، وإن طالت مدة الإمهال.

ثم قال سبحانه تنبيهًا وحثًا لعباده على ما في كتابه من الإشارات: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصص الأنبياء المذكورين في القرآن سيما قصة يوسف عليه السلام ﴿عِبْرَةٌ﴾ اعتبار واستبصار ﴿لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ الذين يتأملون ويتعمقون في لب الكلام، ويعرضون عن قشوره، ﴿مَا كَانَ﴾ القرآن ما ذكر فيه من القصص والأحكام ﴿حَدِيثًا﴾ مختلقًا ﴿يُفْتَرَى﴾ به إلى الله افتراءً ومراءً ﴿وَلَكِن﴾ وحي نزل من عند الله ليكون ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي

﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهية؛ أي: مصدقًا أحكامها وآثارها ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ احتيج إليه في الدين من الأمور المتعلقة؛ لتهذيب الظاهر والباطن ﴿وَهُدًى﴾ من تمسك به وعمل بما فيه أمن من الضلال ﴿وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:111] أي: يعملون ويصدقون بمقتضاه.

خاتمة السورة[1]

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى في «التأويلات»: من العبر والمواعظ والفوائد في هذه القصة: إنه قال: لقد كان في يوسف وإخوته فلم ينقطع الوصلة بينهم بالجفاء الذي وقع منهم؛ لبقاء أصل الدين في مؤاخاته بخلاف ابن نوح، فإنه قال في حقه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:46] ولا في إخوة يوسف عزموا على أن يتضرعوا إلى الله إلى التوبة والإنابة، كما أخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ [يوسف:9] قال بعض المفسرين: وأمَّا كنعان فلم يعزم على الالتجاء إلى الله تعالى، بل ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود:43]، ومنها: روي أنه ابتلي بذلك الفراق؛ لأن امرأته حين وجدت ريح قدرهم فسألت عن يعقوب من ذلك الطعام فقال: اذهبي إلى بيتك مشاهدي إليك، ثم نسي وعدهم فابتلي بذلك الفراق، وقيل: ببيدائه ذبح عجلاً بحضرة أمه فينبغي أن يعتبر ويحر زمن أمثال ذلك. ومنها: إنه أظهر لبنيه زيادة محبة ليوسف فحملهم ذلك على أن فعلوا ما فعلوا، فينبغي أن يعتبر المؤمن ويسوي بين أولاده جهده في المحبة وأن لم يمكنه فليكتم ذلك عنهم، ولذلك يستحب في شرعنا التسوية بين الأولاد في العطاء. ومنها: ألّا يأمن من نزغات الشيطان في حال من الأحوال، فإنهم كانوا من أبناء النبي ﷺ ومع ذلك نزغ الشيطان بينهم. ومنها: اجتناب الجسد إذا حملهم الحسد على فعلهم ذلك. ومنها: إن المحبة سبب البلاء، فمن ادّعى المحبة فليستعد للبلاء. ومنها: ألّا يوثق بكل أحد، ولا يؤتمن على أحد، ائتمن يعقوب بنيه على ابنه فأصابه منهم ما أصاب. ومنها: إن الأولاد فتنة، ولقد روي في القصة أنه التمس من الله أن يرسله، فيعمد إلى الصحراء فلم يرد أن يمسكه. ومنها: فضيلتي الصبر، فلقد صبر يعقوب فنال الفرج، وصبر يوسف فنال الملك والمراد، وصبرت زليخاء فبلغت المقصود. ومنها: فضيلة الحلم، فلقد حلم عنهم حين قدر عليهم وقال: ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾. ومنها: إن الإقرار بالذنب سبب العفو، فإنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ قابلهم بأنه قال: ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾. ومنها: من يريد الله رفعه فلن يضره كيد كائد، فلقد كادوا ليوسف فلم يمكنهم دفع رفعته ﴿واللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ ولقد كاد الكفار رسولنا ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال:30] فلم يدفعوا مراد الله فيه، فكذلك المؤمن إذا كان معه عناية الله لم يضره كيد جني ولا كيد أنسي به، ونسأل الله تعالى ألّا يخلبنا عن عنايته ورعايته بفضله وكرمه فهم بموعظتها، وقال رويم: همت زليخاء بالمعصية، وهم يوسف بالرجوع إليها في الفرار منها، وذلك قوله ﷺ: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ قال ابن عطاء: لولا أن رأى برهان ربه أي: واعظًا من قلبه، وهو قوله ﷺ: «واعظ الله في قلب كل مؤمن». وقال

الجنيد: تحرك طبع البشرية في يوسف ولم يعدوه طبع العادة والعبد في تحريك الخلقة غير مذموم، وفي مقالة المعصية ملوم، وذكر الله على يوسف همه على طريق المحمدة لا على طريق المذمة. وقال أبو عثمان: ما كان هم بها إلا هم شفقة عليها، ودعا إلى الله في قطع تلك الهمة الدنية عنها كيف يكون هم يوسف غير ذلك أو هم أنها بدا والله تعالى يقول: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف:24]، فكانت الفحشاء مصروفة عنه كيف يبقى عليه موضع هم دوني. قال الشيخ كبرى ﷺ: همت به زليخاء هم النفسانية الهوائية، لكن بمناسبة وقضاء الربانية، وهم بها يوسف هم ائتلاف الروحانية لمناسبة أحكام الأزلية بينهما بالزوجية، فإن كان هم زليخاء هم العاشقين بالمعشوق وكأنهم يوسف هم الزوج بزوجته لولا أن رأى برهان ربه وهو وارد رباني يرد على قلب نوراني مؤيد بروح من عالم الأنبياء الذي يحكم على الغيب بعلم تأويل الأحاديث فأنبأه أنه زوجته، ولكن ما قال: بعد وقت الازدواج فهم بسائق والزجر لعدم انقضاء مدة كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف:24] والسوء شغل البضع بنكاح الغير، والفحشاء المباشرة قبل النكاح. قال الجنيد: سئل السّري ما علامة المحبة قال: ما ذكره الله في كتابه (قد شغفها حبًا)، قال: ألا يرى جفاء الحبيب جفاء، بل يرى جفاؤه وفاء. وقال الشبلي: علامة الصدق في المحبة استواء المحبة في الشدة والرخاء، وقال سمنون: الشغاف في المحبة امتلاء القلب منها حتى لا يكون لشيء عندها فيه مكان، وقال الشبلي: الشغاف نهاية العشق. وقال جعفر: الشغاف مثل القيم أظلم قلبها عن النظر في غيره والاشتغال بسواه. وقال بعضهم ﷺ: الشغاف جلد رقيق على وجه حبة القلب وهو مبلغ غاية عشق المخلوق، فلا يتجاوز عشق المخلوق الشغاف وجه القلب هي مبلغ عشق الخالق، فيجاوز الشغاف ويبلغ حبة القلب. قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ [يوسف:31] يشاهدن حسنًا غير موضع الشهوة مؤيدًا بعصم النبوة فأكبرنه. وقال أبو سعيد الخراز: المحب من يكون في حال المشاهدة غائبًا عن حسه فانيا عن نفسه لا يحسن بما يجري عليه. قال مخلوف: في رؤية مخلوقًا لم يتألم بقطع اليد ولم يحس به وأنتم تتألمون مما يصيبكم من أثقال المحبة بالحقيقة. قال سهل: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون:24] ما هذا إلا ملك في أخلاقه بشر في صورته. قال محمد بن علي بن زين العابدين- سلام الله عليهم-: ما هذا بأهل أن يدعي إلى المفاسد بل مثله يكرم، وينزه عن مواضع الاعتراضات لكرم أخلاقه ولطف شمائله. وقال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53] بالنفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري على طبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها محمد عن سوء المطالبة، فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنانه النفس وغفل عن الرعاية الأدب، فمهما أماتها فهو شريك في مرادها. وقال الجنيد: من أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه والعبودية ملازمة الأدب والطغيان سوء الأدب. وقال سهل: خلق الله النفس، وجعل طبعها بالجهل، وجعل الهوى أقرب الأشياء إليها، وجعل الهوى الباب اللذي منه الهلاك. وقال الواسطي: النفس ظلمة وسراجها سرها، فمن لم يكن له سر فهو ظلمه أبدًا. وقال سهل: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ ليس لها في

الأخلاق نصيب. وقال الشيخ ﷺ: إن النفس خلقت أمارة بالسوء، فإذا أرحمها ربها جعلها مأمورة، وبنور الرحمة مستورة، وبالواردات الربانية مقهورة، وبنظر العناية منظورة، وذنوبها مغفورة، وأخلاقها المذمومة محمودة، وعلى العبودية مطمئنة، ولجذبات الإلهية قابلة، وإلى ربها راجعة راضية مرضية في زمرة خواص العباد داخلة، ولجنة جوار الحق مستلهمة، وبسطوات تجلي صفات الجمال والجلال فانية، وبصفة بقاء الله باقية. وعن محمد بن كعب القرطبي عن الإمام علي بن أبي طالب- عليه السلام- قضي القضية فقال رجل من ناحية المسجد: يا أمير المؤمنين ليل القضاء كما قضيت، قال: كيف هو؟ قال: هو كذا أو كذا، قال: صدقت وأخطأت ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:76]. قال بعضهم في قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [يوسف:76] بالعلم، وقيل: بالتقوى، وقيل: بنزع الشهوات والأهواء عنه، وقيل: بالاستقامة، وقيل: بالمكاشفة والمشاهدة، وقيل: بالفراسة الصادقة، وقيل: بالمعرفة والتوفيق، وقيل: بإجابة الدعاء، وقيل: بالإقبال على الآخرة والإعراض عن الدنيا، وقيل: بمعرفة مكائد النفس. وقال الجنيد: رفع درجات في يشاء بإسقاط الكونين عنه ورفعه عن الالتفات إلى الأحوال والمقامات؛ ليكون خالصًا لنا بلا علة. وقال بعضهم ﷺ: نرفع درجات من نشاء بالبقاء بعد الفناء؛ ليكون فانيًا عن وجوده المجازي باقيًا بوجوده الحقيقي. وقال بعضهم في قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فوق كل ذي معرفة عارف إلى أن ينتهي المعرفة إلى المعروف، فيسقط الأوصاف ويبقى حقًا محضًا. وقال بعضهم: العلوم تتفاوت على مقدار الصنائع والتعليم إلى أن ترى من يتلقف العلم من الحق ورزق العلم اللدني، فذلك العالم بالعلم اللدني الذي لا عالم فوقه في الخلق. وقال الشيخ ﷺ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ في المنقول والمعقول ﴿عَلِيمٌ﴾ هو عالم بالله. وقال بعضهم: الصبر الجميل الذي ليس فيه إظهار الشكور والإحساس للبلوى. وقال الشيخ ﷺ: الصبر جميل إن ترى البلاء جميلاً من الجليل، والصبر يدفع البلاء إلى الخليل. وقال الجنيد في قوله: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [يوسف:84] وقال: يا أسفًا على يوسف أعرض عنهم لما لم يجد من عندهم الفرج ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ لم يترك في هذا النفس الواحد بقيا حتى أوحى الله تعالى إليه أن يا موسى على غيري ذلك الصبر الجميل الذي وعدتنا في نفسك أبنائي، وقد أخذنا منك واحدًا، وأبقيناك عشرًا وأنت مع هذا تظهر الشكوى وتقول: صبر جميل. قال ابن عطاء: بكاء يعقوب وتأسفه لفقد الألفة، وذلك أنه لما لقي يوسف ﷺ زاد في البكاء، فقال: يا أبت أتبكي عند الفراق وعند التلاقي، قال: ذلك بكاء حرقة القلوب وهذا بكاء الدهش. وقال أبو سعيد القرشي: أوحى الله تعالى إلى يعقوب تتأسف على غيري وعزتي لأخذن عينك ولا أردهما إليك حتى تنساه. وسئل أبو سعيد القرشي لِم لم يذهب عين آدم وداود من هول بكائهما وذهبت عين يعقوب؟ قال: لأن بكاءهما كان من خوف الله، وبكاء يعقوب كان على فقد ولده فحفظا وعوتب. وقيل: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:84]، وقال: بكاء الأحزان؛ يعمي العيون، وبكاء الشوق يجلي العيون، وقال أيضًا: الطبيب الحاذق من يأخذ الدواء من الداء الذي يعقوب عمى بفقد يوسف فلم يبصر الآباء بإلقاء الثوب على وجهه. قال الشيخ ﷺ: ما كان بكاء يعقوب

عليك أيها المستبصر، الخبير المسترشد، البصير - بصّرك الله بعيوب نفسك،

-

وتأسفه على فقد صورة يوسف، وإنما كان على خوف فقد قلب يوسف في يوسف، وابيضت عيناه من الحزن على هذا المعنى ألا ترى أنه لما ألقيَ على وجهه بقميص يوسف كيف ارتد بصيرًا؛ لأنه شم في قميصه رائحة سلامة قلبه، فكما أنه كان عماه من حزن فقد قلب يوسف كان بصره من سرور وسلامة قلب يوسف. قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كان علمه الله كان حقيقة وعلمكم به علم استدلال. وقال الجنيد في قوله: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ﴾ [يوسف:87]، تحقق رجاء الراجين عند تواتر النعم وترادف المصائب؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ﴾ [يوسف:87] والنبي ﷺ يقول: «أفضل العبادة انتظار الفرج». قال أبو عثمان في قوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف:101]، قال بما كان يجري عليه في حالتي السراء والضراء وهذا هو الملك. قال ابن عطاء: الملك هو احتياج حساده إليه وقال بعضهم هو القناعة فيه. قال الشيخ ﷺ: هو أراه البرهان أخبرهم بها ليملك نفسه وينهاها به عن الهوى. وقال الصادق في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أوقف حكم عباده تحت مشيئته إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، وإن شاء قربهم، وإن شاء بعدهم؛ لتكون المشيئة والقدرة له لا لغيره. وعن سهل في قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ قال: أمتني وأنا مسلم إليك أمري معرض إليك شافي لا يكون لي إلى نفسي مجال ولا تدبير في سبب من الأسباب. وقال: الدينوري: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ في إصلاحهم لمجالسك وحضرتك، وأسقطت عنهم الخلق، وأزلت عنهم رعونات الطبع. قال أبو صالح: من العبّاد من زين الله تعالى ظاهره بآداب الخدمة، ونور باطنه بنور المعرفة. وجعله راحة للخلق سعد ببركته من قصده، وما يؤمن من أكثرهم بالله إلا وهم مشركون. قال الواسطي: وهم مشتركون في ملاحظة الخواطر والكرامات، وقال بعضهم: وما يؤمن أكثرهم باللسان إلا وهم مشركون عند نزول النوائب في الرجوع إلى سواه، والاعتماد فيه على ضعيف مثلهم وفي قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108]. قال ابن عطاء: أدعوكم إلى من تعودتم من النعم والأفضال والبر والنوال على الأفعال، وهو الله الذي لم يزل ولا يزال تبارك العزيز المتعال. وقال بعضهم: فرّق بين من دعا إلى الله وبين من دعا إلى سبيل الله؛ فمن دعا إلى الله يدعو الخلق إليه به لا يكون فيه حظ لنفسه، ومن دعى إلى سبيل الله يدعوهم بنفسه إليه لذلك كثرت الإجابة لمن يدعوا إلى سبيله لمشاكلة الطبع، وقل من يجيب لمن يدعو إلى الله؛ لأن فيه مفارقة الطبع والنفس، وقال بعضهم: البصيرة من لباس الأرواح، وليس لها من الأجسام حظ. وقال الواسطي: على بصيرة أيقن الله أنه ليس إليه من الهداية شيء. وقال ابن عطاء: منهم: من اتبع الجزء على الظاهر، ومنهم: من اتبعه على الحقيقة، والتحقيق فذلك الذي قال الله تعالى: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:108]، لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب. قال الصادق: لأولي الأمر أو مع الله وقال ابن عطاء: عبرة لمن اعتبر وعظة لمن اتعظ في آن، أن النفس ليست بمحل الأمن والاعتقاد عليها، وصلى الله تعالى على محمد وآله أجمعين.

وجنبك عن غوائلها - أن تعتبر من القصة التي ذكرت في هذه السورة، وتحترز عن المكائد المذكورة فيها والمخادعات المصرحة بها والمرموزة إليها، وتصفي أمارة نفسك عن مبادئها وتبرئها حسب طاقتك وقدر وسعك وطاقتك وقوتك عما يؤول إليها ويؤدي نحوها، وتشمر ذيل همتك لتهذيب ظاهرك وباطنك عما يعوقك عن سلوك طريق التوحيد المفضي إلى اضمحلال الرسوم وانقهار التعينات العدمية والأظلال الهالكة، المؤدية إلى الكثرة والتنويه، الحاجبة عن صرافة الوحدة الذاتية بالنسبة إلى ذوي الحجب الكثيفة والغشاوة الغليظة.

وعليك أن تتوجه بوجه قلبك إلى إفناء لوازم تعيناتك الباطلة، وهوياتك العاطلة التي هي شياطين طريقك نحو الحق المنزه عن التغيير والتبديل، المقدس عن الانقلاب والتحويل؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، ولا يفتره كر الدهور ومر الزمان، بل ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29]، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:26].

وبالجملة: بعدما فنيت عن وجوه تعيناتك رأسًا، يبقى وجه ربك الذي لا انقلاب له أصلاً ذو الجلال الذاتي والأزلي، والإكرام الأبدي السرمدي.

جعلنا الله ممن أيده الحق لسلوك طريق الفناء، ووفقهم لإفناء ما يعوقهم عن شرف اللقاء، إنه سميع مجيب.

سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الرعد

لا يخفى على من ترقى عن مرتبتي العلم والعين بلا تلوين، وتحقق على مرتبة حق اليقين، مع تثبيت وتمكين أن الآثار الغريبة والتدابير العجيبة الكائنة في عالم الكون والفساد إنما تصدر عن ذاتٍ متصفة بجميع أوصاف الكمال، منزهةٍ عن نقص الحدوث والزوال، مستقلةٍ في تصرفاتها بلا مزاحمة ضد وند ومظاهرة معاون وممد؛ إذ لا وجود لغيره ولا ثبوت لسواه أصلاً.

فدلت الأفعال المتقنة والآثار المحكمة والنظام المحسوس المشاهد على هذا الضبط البديع على وحدة فاعلها عند من تشبث بأذيال العقل المستدل.

وأمّا أهل الكشف والشهود، والمستغرقون في مطالعة جمال الله وجلال الله لا يرون في الوجود إلا هو؛ ولذلك لا يسندون الآثار والأفعال والحركات والسكنات والحوادث الكامنة مطلقًا إلا إليه أولاً وبالذات، بلا رؤية الأسباب والوسائل، بل إنما يرونها ويعتقدونها من لوائح تجلياته وأشعة شئونه وتطوراته؛ لذلك نبه سبحانه في كتابه على عباده مخاطبًا لحبيبه على أن التدابير الكائنة إنما تستند إليه تعالى، وتصدر عنه بالاستقلال، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي على ظواهر الكائنات بأنواع التدبيرات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده في النشأة الأولى بوفور العطيات ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم في النشأة الأخرى بأعظم المثوبات وأرفع الدرجات.

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الرعد:1-3].

﴿المر﴾[1] أيها الإنسان الكامل اللبيب اللائق لملاحظة رموز آثار التوحيد اللائح عن غرته الغراء مقتضيات لوامع الرشد والرضا عما جرى عليه القضاء ﴿تِلْكَ﴾ السورة المنزلة إليك ﴿آيَاتُ الكِتَابِ﴾ الجامع للكتب المنزلة أي: من جملة آياته ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ قبل نزولها ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ من الآيات النازلة كلها ﴿الحَقُّ﴾ المطابق للواقع، النازل من عند الحكيم العليم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لانهماكهم في الغفلة والنسيان ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد:1] أي: لا يصدقون ولا يعتقدون بحقيته وحقية منزله.

وكيف لا يعتقدون حقيته أولئك الحمقى المعاندون؛ إذ هو ﴿اللهُ﴾ المبدئ المبدع الرفيع البديع ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات معلقًا ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ واسطين يعتمدن عليها ظاهرًا كما ﴿تَرَوْنَهَا﴾ في بادئ النظر؛ لتكون أسبابًا ووسائل للسفليات ﴿ثُمَّ﴾ لما رفعها وصور بها على أبلغ النظام وأبدعها ﴿اسْتَوَى﴾ باسمه الرحمن ﴿عَلَى العَرْشِ﴾ أي: على عروش جميع الكائنات بالإظهار والإبراز وأنواع التدبيرات المتعلقة لحفظها وبقاء نظامها ﴿وَسَخَّرَ﴾ من بينها ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لتتميم التدبير ﴿كُلٌّ﴾ منها ﴿يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يدور دورة معينة شتاءً وصيفًا، ربيعًا

---

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه تجلي من فعله الخاص لفعله العام؛ فأجاد من بين الفعلين حروفًا جعلها صادق أسرار الصفات والذات، وأخبار الغيب، وغيب الغيب؛ فوضع في الألف سر الألوهية لنفسه، وسر الأنانية لصفوة توحيده، ووضع في اللام سر أزليته لنفسه، وسر لطفه وفي ظهوره بوصف الأزل لأهل التباسه من أهل عشقه وشوقه، ووضع في الميم سر محبته في هواء أزليته لطلب ألوهيته، ووضع في الراء أنور ربوبيته،وجعلها مرآة لعبوديته عبادة؛ فيرون منها لطائف صفاته وروح ملكوت قدسه؛ فلمّا انحسرت الأرواح من طلب الألوهية وجعلت إلى معادن أنوار الربوبية، وسكنت جمادات من مرآة حرف الراء من رحمته الكافية ورأفة الشافية من كل شيء دون الله؛ فالألف صندوق الألوهية لا ينفتح إلا لأهل الأنائية في التوحيد، واللام صندوق نور الأزلية والجمال ولا ينفتح إلا لأهل الوله في شوقه، والميم صندوق محبته الأزلية ولا ينفتح إلا لأهل محبته؛ فالراء صندوق نور ربوبيته ولا ينفتح إلا لسلاك عبوديته الذين مرادهم منه نفسه لا غير.

قال الشبلي: ما من حرف من الحروف إلا وهو يسبح الله بلسان ويذكره بلغة بكل لسان منها حروف، ولكل حرف لسان وهو سر الله في خلقه الذي يقع زوائد المفهوم وزيادة الأذكار.

وقال الحارث المحاسبي: إن الله لما خلق الأحرف دعاها إلى الطاعة؛ فأجابت على حسب ما حلاها الخطاب وألبسها، وكانت الحروف كلها على صورة الألف إلا أن ألف بقيت على صورته وحليتها التي بها ابتدأت، ثم من سنّة الله سبحانه أن وضع ما تكلم به من الأسرار في لباس الحروف على رأس كل صورة.

وخريفًا؛ لإصلاح ما يتعلق بمعاشهم وحفظهم، وبالجملة: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ على ما ينبغي ويليق بلا فتور وقصور ﴿يُفَصِّلُ﴾ لكم ﴿الآيَاتِ﴾ ويوضح لكم الدلائل والشواهد الدالة على توحيده ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:2] أي: رجاء أن تتفطنوا وتتيقنوا بموجدكم ومربيكم.

﴿وَ﴾ كيف لا تتفطنون أيها المجبولون على فطرة الفطنة والذكاء ﴿هُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ وفرشها مبسوطة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وجبالاً شامخات؛ لتكون أوتادًا لها ﴿وَأَنْهَارًا﴾ منتشئة منها، جارية على وجه الأرض؛ لإنبات ما تقتاتون وتتقوتون بها ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ لتكون سببًا لدوامها وبقائها ولإنضاجها وإصلاحها ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يلبس الليل بالنهار لتسكين البرودة، والنهار بالليل؛ لتسكين الحرارة؛ ليحصل الاعتدال في طبيعة الهواء المنضج ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الحكم والتدابير ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل واضحاتٍ وشواهد لائحات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:3] ويتأملون في حكم الصانع الحكيم والمدبر العليم.

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد:4-6].

﴿وَ﴾ أيضًا من بدائع قدرته وغرائب حكمته أنه حصل ﴿فِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ متماثلة في الطبيعة والمزاج ﴿وَ﴾ حصلت في بعضها ﴿جَنَّاتٌ﴾ وبساتين ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَ﴾ في بعضها ﴿زَرْعٌ وَ﴾ في البعض ﴿نَخِيلٌ﴾ مختلفة أنواعها بعضها ﴿صِنْوَانٌ﴾ أي: نخلات متكثرة، أصلها واحد ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: متفرقات الأصول مع أنها كلها ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ﴾ مع وحدة طبيعة الأرض والماء ﴿نُفَضِّلُ بَعْضَهَا﴾ أي: بعض الثمرات ﴿عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾ لأن بعضها ضار وبعضها نافع، وبعضها حلو وبعضها حامض، إلى غير ذلك من التفاوت والاختلافات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾

الاختلاف مع وحدة طبيعة القابل ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظام ودلائل جسام على حكمة الصانع الحكيم ومتانة فعله ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:4] ويستعملون عقولهم في التفكير بمصنوعات الحق والتدبير بمبدعاته ومخترعاته.

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا أكمل الرسل إنكار الكفار حشر الأجساد مع وضوح دلائله وسطوع براهينه ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: فعليك أن تتعجب من قولهم - هذا حال كونهم مستفهمين مستبعدين على سبيل التعجب - أننا ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ وعظامًا رفاتًا ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ كلا وحاشا أن نعود أجسامًا إنسانًا بعدما صرنا كذلك ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء المعزولون عن منهج الرشاد هم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الذين أوجدهم وأظهرهم من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة، ورباهم بأنواع التربية مع أن إعادتهم أيسر من إبدائهم وإبداعهم ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الضالون المقيدون بسلاسل الطبيعة في النشأة الأولى صار ﴿الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ في النشأة الأخرى، دائمًا مستمرًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد:5] أبد الآباد.

﴿وَ﴾ من قبح صنيعهم ونهاية غفلتهم عن الله وانتقامه وغيرته ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ المهددة بها والموعدة عليها، أي: يطلبون منك يا أكمل الرسل استعجال إتيانها استهزاءً واستنكارًا ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الموعودة لهم على تقدير إيمانهم ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِمُ﴾ على أمثالهم من الأمم الهالكة ﴿الْمَثُلَاتُ﴾ أي: القصاصات والعقوبات التي صارت أمثالاً يضرب بها، وحالهم يكفي مؤنة استعجالهم واستهزائهم لو تأملوا ﴿وَ﴾ هم من غاية إصرارهم وكفرهم وإن استحقوا ما يستعجلونه على أقبح الوجوه، لكن أمهلهم الله الحكيم العليم زمانًا بمقتضى جوده ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الحليم الرحيم ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ سترٍ وعفو ﴿لِّلنَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: مع ظلمهم على أنفسهم باستجلاب عذاب الله إياها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أيضًا على مقتضى عدله وقهره ﴿لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد:6] وسريع الحساب على من خرج من ربقة إطاعته استكبارًا واستنكافًا.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ

وَمَنْ جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:7-11].

﴿وَ﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم معك يا أكمل الرسل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبدينك وبكتابك: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ اقترحناه بها ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ إن كان نبيًا مثل الأنبياء الماضين، لا تبال يا أكمل الرسل بهم وبكفرهم وقولهم هذا ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مخبر بما جئت به من عند ربك، لا مهد مصلح، وإنما عليك البلاغ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:7] وهو الله سبحانه، إن تعلق إرادته بهدايتهم يهديهم؛ إذ هو عالم بسرائرهم وضمائرهم، وما جرى عليهم وما يؤول أمرهم إليه.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ من النطفة المصبوبة ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي: تنقصها منها وفقًا لفضلاتها ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ عليها لتنميتها وتصويرها ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[1] [الرعد:8] أي: حصول كل كائن عنده إنما هو بمقدار مخصوص من مادة معينة ومدة مقررة، لا ينقص منها ولا يزيد عليها.

والإطلاع عليها وعلى كيفيتها وكمياتها مما استأثر الله به في غيبه؛ إذ هو بذاته سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ أي: الذي غاب عنا أنيته ولميته ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: التي خفي علينا لميته، وكيف لا يعلم الغيب والشهادة؛ إذ هو ﴿الْكَبِيرُ﴾ بذاته ﴿الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9] أي: المنزه في صفاته عن الاتصاف بصفات كلا العالمين ولوازمهما.

وإن كان كل منها من أظلال أوصافه الذاتية وأسمائه الحسنى ﴿سَوَاءٌ﴾ عنده سبحانه في حيطة حضرة علمه المتعلق بأحوال المكونات ﴿مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾ وأخفاه وأضمره في نفسه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ وأظهره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ أي: مستتر

---

(1) قال البقلي: أي: بقدر، وعزوا بشرف، إذ الكل منه يبدوا، وقدرها من قدره، وشرفها من شرفه، وأيضا أي كل شيء عنده لفظات بيد قدرته، ولها حد ومقدار؛ لأن من أوصاف الحدثين الحدود والنقصان، أي كل شيء محدود مقدور لإجلال قدر القدم.
قال الإمام الحسين: كل ربط بحده، وأوقف معرفته، فلا يجاوز قدره إلا من يعدو طوره.
قال بعضهم: كل شيء بوزن ومقدار، ومن لم يزن نفسه ولم يطالع أنفاسه فهو في حيز الغافلين، ومن لم يعرف مقداره وقدر عظيم النعمة عنده أعجب بنفسه، أو بما يبدو منها.

متغط ﴿بِاللَّيْلِ﴾ ومن هو ﴿وَسَارِبٌ﴾ بارز ظاهر ﴿بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد:10] أي: لا يشغله سبحانه شأن عن شأن، ولا يحجب عليه الأستار والسدول، ولا يعين عليه البروز والظهور؛ إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

إذ ﴿لَهُ﴾ سبحانه بالنسبة إلى كل شيء من الأشياء حتى الذرة والخطرة والطرفة واللمحة ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ من الأوصاف الإلهية مسميات بالملائكة يعقبن عليها متواليات متتاليات محيطات ﴿مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ﴾ عما لا يعنيه وينافره ويؤذيه، وما هو إلا ﴿مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ إياهم وتعلق إرادته ومشيئته لحصانته وحفظه على مقتضى لطفه وجماله ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لأمور عباده، المصلح لأحوالهم ﴿لاَ يُغَيِّرُ﴾ ولا يبدل ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والعافية والرفاهية والفرح والسرور ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ ويبدلوا ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من محاسن الأخلاق ومحامد الأوصاف إلى المعالج والمذائم بترك أوامر الله وارتكاب نواهيه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِذَا أَرَادَ اللهُ﴾ المطلع لسرائر عباده واستعداداتهم ﴿بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ ناشئا من خباثة طينتهم ﴿فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: لا يمكن لأحد من خلقه رد إرادته ﴿وَ﴾ كيف يرد مراده سبحانه؛ إذ ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:11] يولي أمورهم ويرجعون إليه في الوقائع والخطوب.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرعد:12-15].

كيف يرجعون إلى غير الله ويستردون مراده سبحانه مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ بغتة ويورث منه فيكم ﴿خَوْفًا﴾ من أن تصابوا به ﴿وَطَمَعًا﴾ بما هو مستتبع له من المطر ﴿وَ﴾ أيضا ﴿يُنْشِئُ﴾ من الأبخرة المتصاعدة ﴿السَّحَابَ﴾ المتراكم من الأبخرة ﴿الثِّقَالَ﴾ [الرعد:12] بالمياه المتكثرة،

﴿وَ﴾ حين إراءة البروق وإنشاء السحب ﴿يُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾ المتكون من اصطكاك

الأبخرة والأدخنة المحتبسة بين السحب المتراكمة ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي: بحمد الله، بإلقاء الملائكة الموكلين عليه، المعاقبين الممدين له ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أيضًا يسبحون بحمده ﴿مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: من خوف الله وسطوة جلاله وقهره ﴿وَ﴾ أيضا ﴿يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الكائنة من الأبخرة والأدخنة المحترقة بالأجزاء النارية ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ إهلاكه وقتله زجرًا له وانتقامًا عليه ﴿وَهُمْ﴾ من غاية ضعفهم وعدم قدرتهم وقوتهم ﴿يُجَادِلُونَ﴾ ويكابرون ﴿فِي﴾ توحيد ﴿اللَّهِ﴾ وفيما جاءت به رسله من عنده من الأوامر والنواهي المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى ﴿وَ﴾ الحال أن لكمال قدرته وبسطته وسلطنته القاهرة وجلاله ﴿هُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾[1] [الرعد:13] صعب المكايدة والانتقام لمن جادل معه وكذب رسله بالباطل.

لكن ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي: قبولها وإجابتها وإنجاحها لمن دعا بها، مخلصًا في دعائه وتوجهه نحو الحق ﴿وَ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله من الأصنام والأوثان ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ قليل مما يطلبونه، بل ما مثلهم في دعوة الأصنام ودعائهم إياهم ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ أي: كمثل عطشان بسط كفيه إلى الماء يدعوه ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ ويرويه ﴿وَ﴾ الحال إنه غائر عميق ﴿مَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ وبسبب ذلك زاد عطشه وحرقة قلبه وزفرة صدره، كذلك المشركون يدعون إلى أصنامهم؛ ليشفعوا لهم ويصلوا إلى مرامهم، وهم جماد لا يقدرون على الاتصال والقبول أصلاً ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ الساترين بأباطيلهم وأوثانهم نور الحق الحقيق بالحقية، الوحيد في الألوهية، الفريد بالعبودية ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: 14] خسران وحرمان وخذلان وبطلان.

﴿وَ﴾ كيف يتوجه ويدعي لغير الحق، مع أنه لا إله إلا الله، هو ولا شيء سواه؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ المتأصل في الوجود، المتصف بالقيومية، لا لغيره من الأظلال الهالكة في

---

(1) أي: في ذاته وصفاته يشير به إلى أن أهل الخذلان في ذات الله وفي صفاته مثل الفلاسفة والحكماء اليونانية الذين لم يتابعوا الأنبياء، وما آمنوا بهم، وتابعوا العقل دون السمع، وبعض المتكلمين من أهل الأهواء والبدع هم الذين أصابتهم صواعق القهر، واحترقت استعداداتهم في قبول الإيمان؛ فظلوا يجادلون في الله هل هو فاعل مختار أو موجب بالذات لا بالاختيار؟ ويجادلون في صفات الله هل للذاته صفات قائمة به أم هو قادر بالذات، ولا صفات له؟. [التأويلات].

أنفسها ﴿يَسْجُدُ﴾ أي: يتذلل ويتضرع ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات المسمى بالأعيان الثابتة ﴿وَ﴾ من في ﴿الأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة من الصور والهياكل المنعكسة من الأسماء والصفات ﴿طَوْعًا﴾ أي: طائعين راغبين عن خبرة واستبصار ﴿وَكَرْهًا﴾ كارهين عن حيرة وضلال ﴿وَ﴾ أيضًا يسجد له ﴿ظِلالُهُم﴾ أي: لوازم هوياتهم وما يترتب عليها ملتبسين ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أي: أول الظهور والبروز ﴿وَالآصَالِ﴾ [الرعد:15] أي: وقت الانمحاء والانقضاء.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد:16-17].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن عاند الحق وجادل مع أهله مكابرة، مستفهمًا على سبيل التبكيت والإسكات: ﴿مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: موجدهما ومظهرهما من كتم العدم ومربيهما بأنواع التربية والكرم؟ ﴿قُلِ﴾ أيضًا أنت في جواب سؤالك؛ إذ هم معزولون عن التنطق بكلمة الحق؛ إذ ختم الله على قلوبهم وأفواههم: ﴿اللهُ﴾ أي: الموجد والمربي، هو الله المستقل بالألوهية والربوبية، ثم بعدما ظهر الحق ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَفَاتَّخَذْتُم﴾ أيها الجاهلون بالله وحق قدره ﴿مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ معبودات من جنس مصنوعاته، سيما أدونها وهي الجمادات التي ﴿لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فضلاً لغيرهم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل توبيخًا وتقريعًا: أيها الجاهلون المعزولون عن مقتضى العقل الفطري ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى﴾ الفاقد للبصر ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ الواجد لها؟ ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ﴾ أي: الأعدام الهالكة في نفسها ﴿وَالنُّورُ﴾ الوجود المتشعشع في ذاته؟ ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ أولئك الحمقى العمي الهالكون في تيه الغفلة والضلال ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن المثل والمثال ﴿شُرَكَاءَ﴾ مثله ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ وأوجدوا

لخلقه وإيجاده ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: حتى اشتبه عليهم وتشابه خلقهم لخلقه، سبحانه عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل إرشاد وتكميلاً: ﴿اللَّهُ﴾ المستجمع لصفات الكمال بأسرها والمربي لجميع الكائنات برمتها ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مظهرها وموجدها بالاستقلال بلا مظاهرة ومشاركة ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿الْوَاحِدُ﴾ المستقل في الوجود ﴿الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:16] للأغيار الهالكة في أنفسها، المنعكسة من أظلال أسمائه وأوصافه، الباقية في صرافة عدميتها الأصلية.

ومن إشفاقه ومرحمته على عباده أن ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من العالم الروحاني ﴿مَاءً﴾ أي: ماء الإيمان والعرفان ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي: امتلئت النفوس القابلة بقدر ما يسع في استعداداتها منها، فسالت بعدما امتلئت ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾[1] أي: ارتفع على مياه المعارف والحقائق زبد التقليدات الحاصلة

---

(1) شبَّه الله سبحانه أنزل الماء من السماء إلى الأودية بما نزل من مياه بحار أنوار ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله إلى قلوب الموحدين والعارفين والصديقين والمكاشفين والمشاهدين والعاشقين والمشتاقين والمحبين والموقنين والمخلصين والمتعبدين والمريدين، وكما يحتمل الأودية بضعفها، وقوتها وضيقها، وبسطها ماء المطر، فكذلك تلك القلوب تحتمل مياه أنوار قاموس الكبرياء من الذات والصفات والأوصاف والنعوت والأسماء والأفعال بقدر حواصلها، وأقدار استعدادها من المحبة والمعرفة والتوحيد، وكما أن قطرات الأمطار يكون في الأودية سيلاً؛ فتحمل المسيل زبدًا وحثالة، وما يكون مانعًا من جريان السيل في الأودية؛ فكذلك يكون تواتر أنوار تجلي الحق يكون سيل المعارف والكواشف؛ فتسيل من جداول القلوب أنهار العيوب، فتحتمل من أوصاف البشرية، وما دون الحق الذي يمنع القلوب من روية الغيوب؛ فيذهب به عن صحاري القلوب وقيعانها التي هي أصدافهم العالية في طلب جواهر الحكم من بحار المشاهدة، فتصير بعد ذلك صافية مقدسة من زبد الرياء والسمعة والشك والشرك والنفاق والخواطر المذمومة، فيبقى القلوب في بحر المشاهدة سابحة في نور الأزل والأبد بلا علاقة، ومانع من العرش إلى الثرى، وذلك من بركة تجلي مشاهدة الله سبحانه التي بدت من الحق بلا واسطة ولا سبب، كما أن المطر ينزل من السماء بلا سبب من أسباب الخلق، ولا بعلة طلبهم بل محض فيض فياض القديم الأزلي على الذي ارتضى برضاه من أهل رضوانه في الأزل؛ فمياه تلك البحار في أودية تلك القلوب، بعضها من بحر الذات، وبعضها من بحر الصفات، وبعضها من بحر الأسماء، وبعضها من بحر الأوصاف، وبعضها من بحر النعوت، وبعضها من بحر الأفعال، فالذي من بحر الذات يجري في أودية قلوب الموحدين والعارفين والمنفردين والمتجردين، ويذهب بما في قلوبهم من أوصاف الحدوثية، وينبت أوراق ورد الربوبية من هناك يدعون الاتحاد، ويولهون في الانبساط، وأما الذي من بحر الصفات؛ فيجري على قلوب العاشقين والمحبين والمشتاقين، ويذهب منها أوصاف النفوسية، وحثالة الطبيعة، وينبت فيها

من رسوب القوى البشرية، وغش الطبيعة تسقطها على الأطراف وتصفيها عن الكدورة مطلقًا ﴿وَ﴾ مثل ذلك الزبد الباطل يحصل ﴿مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها حين أرادوا ذوبانها ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: طلب اتخاذها منها ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ آخر من الأواني وآلات الحرب ﴿زَبَدٌ﴾ فاسد باطل في نفسه ﴿مِثْلُهُ﴾ الزبد الأول.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ لهم؛ لكي يتنبهوا ويتفطنوا فيتبعوا الحق ويجتنبوا عن الباطل، ثم بيَّن لهم سبحانه مآلهم توضيحًا وتقريرًا بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ المرتفع على الماء ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: يضمحل ويتلاشى بالجفاف كما أن زبد التقليدات يسقط ويضمحل بإشراق نور اليقين ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من مياه المعارف والحقائق ﴿فَيَمْكُثُ﴾ ويستقر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة القابلة لانعكاس أشعة الأسماء والصفات الإلهية لينبت فيها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:17].

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

نرجس الأنس وياسمين القدس، ومن هناك يدعون السكر والهيجان والمواجيد، وأما الذي من بحر الأوصاف والنعوت؛ فيجري على أودية قلوب الموقنين والمشاهدين والمكاشفين، ويذهب منها غبار الخطرات وزبد الهواجسات، وينبت فيها رياحين الدقائق والحقائق. وأما الذي من بحر الأسماء؛ فيجري على أودية قلوب المخلصين والمتعبدين، ويذهب منها وسواس الشيطان والميل إلى الحدثين، وينبت فيها زهر الحكمة والفطنة. وأما الذي من بحر الأفعال؛ فيجري على أودية قلوب المريدين، ويذهب منها زبد الشهوات، وينبت فيها شقائق المعاملات وعبر المراقبات؛ فسبحان الذي خصّ كل قلب من قلوب هؤلاء بمورد من موارد ألطافه، ومشرب من مشارب أعطافه. [العرائس].

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد:18-22].

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ﴾ فطلبوا منه ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة العظمى والمرتبة العليا معتقدين إفاضتها وإعطاءها إياهم ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ مثل ما استجاب أهل الحق ولم يعتقدوا مثل ما اعتقد أولئك المحقون لم ينالوا نصيبهم وحظهم ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾ ملك ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من الزخارف والأموال ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ بل أضعافه وأمثاله ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ لنيل ما نالوا لكن لم ينالوا، بل ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن عز القبول ﴿لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ يحاسبون على جميع ما صدر عنهم من النقير والقطمير ويؤاخذون عليها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الخذلان والطرد والحرمان ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد:18] مهد أولئك الضالين عن منهج الرشاد.

أينكر المشرك المتمرد عن متابعتك وقبول دينك؟ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ ويصدق ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لتأييدك من الكتاب الجامع لما في الكتب السالفة من الأوامر والنواهي والأمثال والرموز والإشارات هو ﴿الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع بلا شك وارتياب فيه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ عن إبصار ما يرى في الآفاق من المبصرات، بل أشد عمى منه؛ لأنه فاقد البصيرة؛ إذ لا يمكن إدراك الأمور الدينية والمعارف اليقينية إلا بها ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتفطن بسرائر كتاب الله ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد:19] المستكشفون عن لب الأمور، المعرضون عن قشوره.

ولا يحصل ذلك إلا بالبصيرة وهم ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الذي عهدوا معه حين رش رشحات نور الوجود على أراضي استعداداتهم ﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد:20] الوثيق، بل يحفظونه ويواظبون على حفظه دائمًا.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ ويتصفون بعموم ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ من المأمورات والمرضيات والمعارف والحقائق والخصائل الجميلة والأخلاق الحميدة ﴿أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ﴾ عن ارتكاب المنهيات والمحظورات والذمائم من الأطوار والأخلاق ﴿رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ﴾ من الله وعن مخالفة أمره ومقتضى نهيه ﴿سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:21] ورداءة المنقلب والمآب.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ إذا أصابتهم مصيبة وأحاطتهم بلية ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ وطلب مرضاته، مسترجعين إليه سبحانه، متضرعين نحوه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أداموا الميل والتوجه إليه في جميع الأحوال والأزمان ﴿وَأَنفَقُوا﴾ للفقراء المستحقين ﴿مِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ﴾ ووفقناهم وأقدرناهم لكسبها وجمعها ﴿سِرًّا﴾ أي: على وجه لا يشعر الفقير منفعة؛ لئلا يتأذى بالمن والأذى ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ على وجه يشعر به؛ لكي يبالغ المنفق في التذلل والانكسار بحيث لا يتوهم المنة أصلاً ﴿وَ﴾ أيضًا الذين ﴿يَدْرَءُونَ﴾ أي: يدفعون ويسقطون ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: بالخصلة الحميدة والخلق المرضي ﴿السَّيِّئَةَ﴾ أي: الذميمة من الخصائل والأخلاق ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء الأولياء، ذوو العهد والوفاء والخوف والرجاء، الصابرون على البلاء، الراضون بما جرى عليهم من سوء القضاء، المتوجهون إلى المولى في السراء والضراء، المنفقون لرضاه من عندهم للفقراء، حصل ﴿لَهُمْ﴾ حين كانوا في النشأة الأولى ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:22] الأخرى، أي: ما يحصل فيها من اللذات والمثوبات ورفع الدرجات ونيل المرادات.

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾ [الرعد:23-28].

ومن جملتها: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: دار إقامة وخلود ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ هم أصالة واستحقاقًا ﴿وَ﴾ يدخل أيضًا بشفاعتهم وتبعيتهم ﴿مَن صَلَحَ﴾ لصحبتهم ورفاقهم ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ومن ينتمي إليهم ﴿وَ﴾ حين استقروا وتمكنوا فيها يزورهم ﴿الْمَلائِكَةُ﴾ ترحيبًا وتعظيمًا ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد:23] من أبواب الجنة.

قائلين: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ أيها الفائزون بالفلاح والنجاح ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ في دار الابتلاء لأنواع المحن والبلاء ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:24] أي: منزلكم ومنقلبكم في دار القرار وعواقب أموركم فيها من الفرح الدائم والسرور المستمر.

ثم بين سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب عواقب حسن الأبرار بقبح أحوال

الأسرار وخاتمة عواقبهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ﴾ الذي عهدوا معه في بدء الوجود وأصل الفطرة ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ مع وثاقته وأحكامه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَقْطَعُونَ﴾ ويتركون ﴿مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ ويحافظ عليها ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بأنواع الفسادات من الظلم والزور والافتراء والمراء والمكابرة مع الأنبياء والأولياء، وسوء الظن مع أرباب المحبة والولاء ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المعزولون عن ساحة عز القبول ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الطرد والحرمان والرد والخذلان في النشأة الأولى ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد:25] ورداءة المرجع والمآب في النشأة الأخرى.

ثم لما افتخر أهل مكة بما عندهم من الأمتعة والزخارف وبأهوائها، واستحقروا فقراء المؤمنين وشنعوا عليهم، ردَّ الله عليهم بكلام ناشئ عن محض الحكمة فقال: ﴿اللهُ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿يَبْسُطُ﴾ أي: يكثر ويوسع ﴿الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده في النشأة الأولى ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقبض وينقص على من يشاء إرادة واختيار؛ حكمة منه وتدبيرًا ﴿وَ﴾ هم بمفاخرهم ومباهاتهم بحطام الدنيا قد ﴿فَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المستعارة التي لا قرار لها ولا ثبات بل ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وما يترتب عليها من اللذات الفانية والمشتهيات الغير الباقية ﴿فِي﴾ جانب حياة ﴿الآخِرَةِ﴾ وما يترتب عليها من اللذات الدائمة والمثوبات الباقية ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد:26] قليل حقير، لائق به ولا يلتفت إليه.

﴿وَ﴾ من خبث طينتهم ورداءة فطرتهم ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبكتابك وبدينك: ﴿لَوْلا﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ملجئة لإيماننا ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ مع أنه يدعي التأييد منه، ومع شغفه لإيماننا ﴿قُلْ﴾ لهم:ما عليّ إلا البلاغ ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ على مقتضى علمه وعدله لمن أراد إضلاله وانتقامه ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ على مقتضى جوده ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:27] إليه من ظهر القلب؛ إذ كل ميسر لما خلق له.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الحق ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ أي: تسكن وتستقر من دغدغة التقليد الباطل والتلوين المضمحل الزائل ﴿بِذِكْرِ اللهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل في الوجود بلا اضطراب وتعدد وتردد، فقد اضمحلت وتلاشت عن صحائف خواطرهم نقوش الاعتبار والسوى مطلقًا ﴿أَلَا﴾ أيها الطالبون إلى مرتبة الكشف والشهود ﴿بِذِكْرِ

اللهِ﴾ المسقط للإضافات ﴿تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] [الرعد:28] وتتمكن في مقام الحضور وتستريح عن تشاويش الأوهام.

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد:29-31].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في أوائل سلوكهم وطلبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى مطلوبهم ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ الفوز بالفلاح والنجاح ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد:29] وهو التحقق بمقام الكشف والشهود.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إرسالنا الرسل على الأمم الماضية على مقتضى سنتنا القديمة ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي أُمَّةٍ﴾ منحرفة عن طريق الحق، وليس

---

(1) يعني: أهل الهداية هم الذين آمنوا، ولتعلم أن القلوب أربعة:

قلب قاس: وهو قلب الكفار والمنافقين فاطمئنانه بالدنيا وشهواتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد:26] واطمأنوا بها.

وقلب ناس: وهو قلب المسلم كقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:115] فاطمئنانه بذكر الله؛ كقوله تعالى بالتوبة ونعيم الجنة؛ كقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:122].

وقلب مشتاق: وهو قلب المؤمن المطيع، فاطمئنانه بذكر الله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد:28].

وقلب وجداني: وهو قلب الأنبياء وخواص الأولياء فاطمئنانه بالله وصفاته كقوله تعالى لخليله ﷺ في جواب قوله: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:260] بإراءتك بأي كيفية إحياء الموتى إذا تجلى لقلبي بصفة محبتك فأكون يحيي الموتى؛ ولهذا إذا تجلى الله تبارك وتعالى على قلب العبد تطمئن به، فينعكس نور الاطمئنان من مرآة قلبه على نفسه فتصير النفس مطمئنة أيضًا فتستحق بجذبات العناية، وهي خطاب ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]. [التأويلات].

إرسالك عليهم ببدع ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أمثالهم مائلون عن طريق الحق وسواء السبيل، وإنما أرسلناك ﴿لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ﴾ وتبلغهم ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من المعارف والحقائق والآداب والأخلاق المرضية المقبولة في جنابنا، المودعة في استعدادات عبادنا؛ ليفوزوا بها سعة رحمتنا وجودنا ﴿وَهُمْ﴾ لانهماكهم في الغفلات والشهوات ﴿يَكْفُرُونَ﴾ وينكرون ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾ الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمنكرين الغافلين تنبيهًا عليهم وتبليغًا، وإن كانوا من الحمقى الهالكين في تيه الغفلة والنسيان ﴿هُوَ رَبِّي﴾ وربكم ومولى أمري وأموركم ﴿لَا إِلَهَ﴾ في الوجود يعبد له ويرجع إليه في الوقائع ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الواحد الأحد، الصمد الفرد، الذي لا شريك له ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الأظلال ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأسباب والوسائل ﴿مَتَابِ﴾ [الرعد:30] أي: مرجعي ومعادي.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ بمثابة لو قرأت ﴿سُيِّرَتْ﴾ وتحركت ﴿بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن مكانها الأصلي وأندكت ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾ أي: انصدعت وانشقت ﴿بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ عند قراءته عليهم واستماعهم له ﴿بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ﴾ أي: القدرة الكاملة والحول التام والقوة الغالبة في الأمور المذكورة ﴿جَمِيعًا﴾ له سبحانه، إن تعلق إرادته ومشيئته لكان ألبتة مع ذكر ما ذكر من الأمور، لم يؤمنوا به ولم يقبلوه منك؛ لشدة شكيمتهم وكمال قسوتهم ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ ولم يقنط ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن إيمان أولئك المدبرين المعاندين، مع ظهور أمارات الكفر عليهم وعلامات الإنكار عنهم، سيما بعدما سمعوا في حقهم من الله ما سمعوا، ولم يعلم هؤلاء المؤمنون ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ وتعلق إرادته بهداية الكل ﴿لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فلم يهدهم لعدم تعلق إرادته بهداية البعض ﴿وَ﴾ لا تقنطوا أيها المؤمنون عن نصر الله إياكم على أعدائكم ولا تيأسوا عن روحه؛ إذ ﴿لاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصروا على الكفر عنادًا واستكبارًا ﴿تُصِيبُهُم﴾ وتدور عليهم ﴿بِمَا صَنَعُوا﴾ أي: بصنيعهم هذا وإصرارهم عليه ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية هائلة تقرع أسماعهم، وتضطربهم اضطرابًا شديدًا ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ وتنزل الداهية العظيمة في أحوالهم ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ومساكنهم لتدور عليهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ الذي وعده لنبيه بأن ينتقم عنهم ويعذبهم عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالفتح والظفر عليهم، وفي الآخرة بأنواع العقاب والنكال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المؤيد لأنبيائه، المنجز لما

وعدهم من إهلاك أعدائهم ﴿لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد:31].

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد:32-35].

ثم لا تحزن يا أكمل الرسل من استهزائهم وسخريتهم معك، ولا تبالِ بعمههم وسكرتهم وبطرهم واستهتارهم بمالهم وجاههم ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أشد من استهزاء هؤلاء معك ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ وأمهلت ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: للمستهزئين الذين كفروا حتى انهمكوا في الغفلة وتوغلوا فيها بطرين فرحين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ فجأة واستأصلتهم بغتة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد:32] مع أولئك؟ ومع هؤلاء أشد من ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿أَ﴾ ينسى الحساب ويترك العقاب ﴿فَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾[1] أي: مطلع محاسب ورقيب حافظ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ من النفوس الخيرة والشريرة ليحيط ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿وَ﴾ لاسيما الشر الذي ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ﴾ الأحد المنزه عن الشريك والولد ﴿شُرَكَاءَ﴾ فوق واحدة من أظلاله ومصنوعاته، مع أنه

---

(1) هو تعالى قائم على كل نفس قدر قوتها حمل أثقال ربوبيته، وأنوار عظمته وتربية جوده وحفظه وعنايته؛ فمن نفس قام عليه بفعله، ومن نفس قام عليه بصفته من حيث كشف الصفة لها وكشف نوْر الفعل لها، ومن نفس قام عليها بالذات من حيث كشف سبحات الذات لها؛ فإن كسبت النفس عبوديته؛ فهي في مشاهدة أنوار فعله، وإن كسبت النفس محبته؛ فهي في رؤية أنوار صفاته، وإن كسبت معرفته وتوحيده في رؤية سحاب أنوار ذاته؛ فإن قصرت للنفس الأول في عبوديته بالتفاتها إلى حظها أخذها الحق بعقوبة المجاهدة، وإن قصرت النفس الثاني في محبته بأنها استلذت محبته، ووقفت باللذة عنه أخذها الحق بأن وقعها في بحر النكرة، لكن الأخذ هاهنا الزيادة معرفتها لأنه سبحانه مشفق على النفس العارفة، وهو تعالى أخذ هذه النفوس قائم بنعت حفظ أنفاسها في طلبها الحق. [عرائس البيان].

سبحانه تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿قُلْ﴾ لهم تبكيتًا عليهم وإلزامًا لهم: ﴿سَمُّوهُمْ﴾ أي: تلك الشركاء بأسماء، وصفوهم بصفات يستحقون بها الألوهية والربوبية ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ وتخبرونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأسماء وصفات لا يعلمها في الأرض، بل لا يعلمها في السماء ﴿أَم﴾ سموهم ﴿بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ مجازًا بلا اعتبار المعنى الحقيقي فيهم، وبالجملة: هم عاجزون عن الكل ساكتون عنها ﴿بَلْ﴾ إنما ﴿زُيِّنَ﴾ وحسن ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا ﴿مَكْرُهُمْ﴾ أي: تمويههم وتلبيسهم مع علمهم ببطلانها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: قصدوا إعراض ضعفاء المؤمنين عن طريق الحق، وما هو إلا من غيهم وضلالهم في أصل فطرتهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ وأراد إضلاله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:33] يهديهم ويوفقهم إلى سبيل الرشاد.

بل ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بغفلتهم عن معرفة الله واللذات الروحانية مع عدم شعورهم بها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ حين انكشف الحال وارتفع الحجب ﴿أَشَقُّ﴾ وأصعب ﴿وَ﴾ كيف لا يكون عذاب الآخرة أشق؛ إذ ﴿مَا لَهُم﴾ فيها ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: عذابه وانتقامه ﴿مِن وَاقٍ﴾ [الرعد:34] أي: حافظ شفيع يشفعهم ليخفف عنهم ويحفظهم من عذابه.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ المتحفظون نفوسهم عن ارتكاب المعاصي والآثام، المتمثلون بما أمروا من العقائد والأحكام ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لإجرائهم أنهار المعارف والحقائق على أراضي استعداداتهم؛ لإنبات ثمرات الكشوف والشهود ﴿أُكُلُهَا﴾ من الرزق المعنوي والأغذية الروحانية ﴿دَائِمٌ﴾ غير منقطع ﴿وَ﴾ كذا ﴿ظِلُّهَا﴾ الذي تستريحون فيه دائم غير زائل، لا انقطاع لها أصلاً كأظلال الدنيا ﴿تِلْكَ﴾ الجنة التي وصفت بما وصفت ﴿عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي: عاقبة أمر المؤمنين الذين اتقوا عن محارم الله ﴿وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على ارتكاب المعاصي والشهوات البهيمية ﴿النَّارُ﴾ [الرعد:35] المعدة لهم بدل لذاتهم وشهواتهم السيئة.

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا

﴿عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾

[الرعد:36-39].

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ واتبعناهم النبي، المبين لهم ما فيه من الأوامر والنواهي ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: في كتابهم الجامع لما في كتبهم؛ لأنهم يجدونه موافقًا مطابقًا لكتبهم ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ﴾ من هؤلاء المتحزبين في أمر القرآن ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي: الآيات الناسخة لبعضها أحكام كتبهم، قل لهم: إنما نُسخ ما نُسخ من الأحكام الجزئية على مقتضى سنة الله في نسخ بعض الأحكام الجزئية الثابتة في الكتب السابقة بأحكام الكتب اللاحقة، وليس هذا ببدع، وأمّا العقائد الكلية المصونة عن طريان النسخ والتبديل، فهي المتفق عليها بين جماهير الأنبياء؛ لذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ الواحد الأحد، الصمد، الحقيق بالحقية، المستقل في الألوهية والربوبية ﴿وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ﴾ من أظلاله ومصنوعاته وبمقتضى أمره ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال الهالكة في إشراق شمس ذاته ﴿أَدْعُو﴾ دعاء مؤمل متضرع خاشع خاضع ﴿وَ﴾ كيف لا أدعو؛ إذ ﴿إِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد:36] أي: منقلبي ومرجعي، رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إنزالنا للأمم الماضية كتابًا بعد كتاب ناسخًا لبعض ما فيها على مقتضى الأزمان والأقوام كذلك ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن، إليك يا أكمل الرسل ﴿حُكْمًا﴾ مبينًا للقضايا على مقتضى الحكمة المتقنة ﴿عَرَبِيًّا﴾ مناسبًا بلسانك ولسان قومك يسهل لهم الاسترشاد والاستهداء به، ناسخًا لبعض ما في الكتب السالفة ﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ أنت بنفسك ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ أي: أهواء أهل الكتاب وإن كانت قبل النسخ هدى سيما ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ﴾ في كتابك ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾ بنسخها وبصيرورتها هوى ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ﴾ من غضبه وانتقامه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أمرك بالاستخلاص والاستشفاع ﴿وَلاَ وَاقٍ﴾ [الرعد:37] يحفظك ويمنعك من مقته.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ﴾ مثلك ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا

وَذُرِّيَّةً﴾[1] مثل أزواجك وأولادك، فلا يقدح في نبوتهم أزواجهم وأولادهم، فكيف يقدح في نبوتك مع أنك أفضل منهم ﴿وَ﴾ أيضًا أرسلنا رسلاً من قبلك ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ مقترحة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ووحيه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ ووقت يسع فيه أمر من الأمور الكائنة والفاسدة ﴿كِتَابٌ﴾ [الرعد:38] نازل من عنده ناطق بوقوع ما كان ويكون فيه.

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ وينسخه على مقتضى حكمته وإرادته ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما أراد إثباته ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:39] أي: لوح القضاء والقدر المتوالية، المتتالية على مقتضى الأوصاف الذاتية الإلهية والتجليات اللطفية والقهرية والجلالية والجمالية.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد:40-43].

﴿وَ﴾ بالجملة: لا تفرح يا أكمل الرسل ﴿إِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي: إن تحقق إراءتنا لك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من الإهلاك والإجلاء والقهر والغلبة ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: لا تغتم أيضًا أن تحقق توفينا لك قبل رؤيتك بما نعدهم من العذاب والنكال بل ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ﴾ أي: ليس في وسعك وطاقتك ﴿الْبَلَاغُ﴾ بما أمرت بتبليغه ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:40] والجزاء بمقتضاه عاجلاً وآجلاً.

﴿أَ﴾ ينكرون حسابنا إياهم وانتقامنا عنهم ﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ التي شاعت فيها كفرهم ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ وأرجائها حتى ضاقت عليهم بإظهار دين

---

(1) يشير إلى أن الرسل لما جذبتهم العناية في البداية رقتهم من دركات البشرية الحيوانية إلى درجات الولاية الروحانية ثم رقتهم منها إلى معارج النبوة والرسالة الربانية في النهاية فلم يبق فيهم من دواعي البشرية وأحكام النفسانية ما يزعجهم إلى طلب الأزواج بالطبيعة والركون إلى الأولاد بخصائص الحيوانية؛ بل جعل لهم رغبة في الأزواج والأولاد على وفق الشريعة بخصوصية إطلاقه في إظهار صفة الخالقية. [التأويلات].

الإسلام وإكثار أهله ﴿وَاللهُ﴾ المدبر على مقتضى الحكمة ﴿يَحْكُمُ﴾ بحكم مبرم ﴿لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أصلاً ليبدله ويغيره ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [الرعد:41] صعب الانتقام على من أراد تغيير حكمه وتبديله.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مع أنبيائهم المبعوثين إليهم مثل مكر هؤلاء الماكرين معك يا أكمل الرسل، فلحقهم ما لحقهم وهم غافلون عن مكر الله ﴿فَلِلَّهِ﴾ المطلع لعواقب الأمور ﴿المَكْرُ﴾ المعتد به ﴿جَمِيعًا﴾ إذ ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ونفع وضر، فينتقم هو عنها على مقتضى علمه ﴿وَ﴾ هم وإن غفلوا عن مكر الله وما يترتب عليه من الوبال ﴿سَيَعْلَمُ الكُفَّارُ﴾ المصرون على الكفر والضلال ﴿لِمَنْ﴾ من الفريقين ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:42] أي: العاقبة الحميدة في النشأة الأخرى.

﴿وَ﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم معك يا أكمل الرسل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بدينك وكتابك؛ أي: رؤساؤهم وصناديدهم: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ من عند الله مثل سائر الرسل؛ لذلك ما نتبعك ونؤمن بك وبكتابك ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كفى الله بي شاهد لإثبات رسالتي وادعائي النبوة؛ إذ أيدني بالمعجزات القاطعة والبراهين الساطعة ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾[1] [الرعد:43] من أصحاب اللسن والفصاحة وأرباب الفطنة والذكاء، المتأملين في مرموزات الكتاب، المتنعمين في استكشاف سرائره، لو تأملوا فيه حق تأمل وتدبر، لم يبق لهم شائبة شك وتردد في أنه ما هو من جنس كلام البشر، بل ما هو إلا وحي يوحى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا

---

(1) قال البقلي: يعني: علم إشارات الله من أزله في كتابه، يعني لطائف الحروف المتشابهة المشيرة إلى دقائق أسراره وملكوته وحقائق جبروته، أي من علم الكتاب ولهم سر الخطاب بلا واسطة من حيث الكشف والإلهام والمشاهدة والكلام، متحققًا في هذه مشاهدته وشاهدته وشاهد آيات رسله نائب أنبيائه وسفير الحق إلى خلقه، له لسان العجائب من علوم الإلهية وغرائب حقائق الربوبية، وله لسان الخصوص من المعرفة والتوحيد، وله لسان خصوصية الخصوصية من بيان النعوت والأسماء والأوصاف والصفات وأبناء الغيب، وغيب الغيب والفِراسات الصادقة، والآيات الواضحة. قال ﷺ في وصفهم: «إنَّ في أمتي محدِّثين مكلِّمين، وإنَّ عمر منهم». وله لسان العموم في علم المقامات من الصدق والإخلاء، والفرق بين الإلهام والوسواس والرياضات والمجاهدات وبيان عيوب النفس ومداواتها، وهو لسان الحق في العالم إذا نطق نطق الحق؛ لأن الحق نطق به.

لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب القاصد لاستكشاف سرائر المرتبة الجامعة المحمدية التي اتحد عندها قوسا الوجوب والإمكان، واتصل دونها الغيب والشهادة أن تتأمل في القرآن المنزل عليه من عند ربه على مقتضى نشأته وكمال استعداده وعزة شأنه، وتتدبر حق التدبر في مرموزاته بقدر وسعك وطاقتك، وإن كان الاطلاع على غوره من المستحيلات سيما بالنسبة إلى ذوي الاستعدادات الضعيفة حتى يشهد لك ذوقك ووجدانك برسالته ونبوته وهدايته إلى توحيد ربه وإرشاده إلى سبيل الحق، ولا يتيسر لك هذا إلا بعد تصفية ظاهرك عن الشواغل الحسية والعلائق الدنياوية مطلقًا، وباطنك عن التقليدات والتخمينات الموروثة لدرن الجهالات ورين الخيالات الموقعة لأنواع الشبهات والترددات.

وبالجملة: لا يحصل لك هذا إلا بعد تحققك في مرتبة الموت الإرادي وخروجك عن مقتضى هويتك مطلقًا.

جعلنا الله ممن أيده الحق لسلوك طريق توحيده، ووفقه إلى سواء سبيله بمنِّه وجوده.

سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة إبراهيم عليه السلام

لا يخفى على ذوي الاستبصار وأولي الفهم والاعتبار من المستكشفين المستنيرين بلوامع نور الوجود المتشعشعة والمتجلية على صفائح المكونات الغيبية والشهادية أن حكمة إرسال الرسل وإنزال الكتب إنما هو لإخراج أصحاب الجهالات والغفلات عن ظلمات الضلالات ومهاوي التقليدات والتخمينات إلى نور اليقين وفضاء العرفان؛ ليتنبهوا على شأنهم في منشئهم ومآلهم وحالهم، في مبدئهم ومعادهم ويتفطنوا، يتيسر لهم سلوك طريق التوحيد المنجي عن غياهب الشكوك وظلمات الأوهام، ويحصل لهم الترقي من المرتبة الأنزل الأدنى إلى الأرفع الأعلى؛ لذلك خاطب سبحانه حبيبه بما خاطب وأنزل عليه ما أنزل؛ تأييدًا له وتتميمًا لإرشاد عباده إلى توحيده.

فقال متيمنًا باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي بالكمالات اللائقة على صدور أنبيائه لتكميل من آمن لهم من عباده وإهدائهم إلى طريق توحيده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم بإرسال من هو من جنسهم، ليسهل لهم الاستفادة والاسترشاد منه بلا كلفة ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بإنزال الكتاب الجامع لجميع شعائر سلوكهم في مبدئهم ومعادهم ليدوم فيما بينهم.

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم:1-4].

﴿الر﴾ أيها الإنسان الكامل الأحق الأليق للوامع لوائح رموزات رقائق الربوبية بأن تنزل على قلبك بطريق الوحي والإلهام، فتذيعه بين الأنام على سبيل الإرشاد والتكميل هذا ﴿كِتَابٌ﴾ جامع لجميع لوامع رقائق الربوبية ودقائق لوائح الألوهية، مناسب مطابق لمرتبتك الجامعة ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ تأييدًا لك في أمرك ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾[1] الناسين المقام الأصلي والمنزل الحقيقي ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الإمكانية الطبيعية الهيولانية ﴿إِلَى النُّورِ﴾ البحت الخالص عن شوب المادة والمدة، وليس إخراجك إياهم إلا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم في أصل استعداداتهم وفطرتهم بأنواع اللطف والكرم، ووفقهم على قبول ما جئت به من عند ربهم ليوصلهم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ﴾ الغالب في أمره على مقتضى قدرته وإرادته على الوجه الأقوم الأعدل ﴿الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:1] في فعله؛ لخلوه عن كلا طرفي الإفراط والتفريط.

وكيف لا يكون صراطه مستقيمًا وأفعاله معتدلاً مقتصدًا؛ إذ هو ﴿اللَّهِ﴾ المستجمع لجميع الكمالات ﴿الَّذِي لَهُ﴾ تكوين ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الكواكب السيارات والثوابت على النمط البديع والتركيب العجيب ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ من العناصر والمركبات على أقوم الأمزجة وأعدله ﴿وَوَيْلٌ﴾ أي: طرد وتبعيد عن مرتبة التوحيد ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الساترين شمس الحق الظاهر بالعدالة التامة والاستحقاق بغيوم الأظلال الباطلة والعكوس العاطلة ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:2] هو مسخهم وتبديلهم عن كمال مظهرية الحق وخلافته إلى مرتبة الحيوانات العجم، بل إلى مرتبة الجمادات التي هي أنزل المراتب ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:179].

وهم ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ المستعارة التي لا مداد لها ولا قرار؛ إذ هي أظلال في ظلمة عكوس عاطلة ﴿عَلَى الآخِرَةِ﴾ أي: على الحياة الأخروية التي هي بقاء سرمدي وحياة أزلية لا انقضاء لها أصلاً ﴿وَ﴾ هم مع اختيارهم وترجيحهم الحياة الفانية على الباقية ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو الإيمان بالله

---

(1) قال الأستاذ: أقسم بهذه الحروف: إنّه لَكِتَابٌ أُنزِل إليك لتُخرِجَ الناس به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومنْ ظُلماتِ الشَّكِّ إلى نور اليقين، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع، ومن ظلمات دَعَاوَى النَّفْسِ إلى نورِ معارفِ القلب، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجَمْعِ بإذن ربهم وبإرادته ومشيئته، وسابِقِ حُكْمِه وقضائه إلى صراط رحمته، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد، تفسير القشيري (24/4).

وبرسوله وكتابه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون أن يحدثوا فيها مع استقامتها انحرافًا ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن طريق الحق، الساعون في الباطل مكابرة وعنادًا ﴿فِي ضَلَالِ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم:3] عن الهداية بمراحل بحيث لا يرجى هدايتهم أصلاً؛ لأنهم مجبولون على الضلالة والغواية في أصل فطرتهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ من الرسل على أمة من الأمم ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أي: ما أرسلناه إلا للغة موافقة بلغة قومه؛ ليفقهوا حديثه ويفهموا لسانه ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ طريق التوحيد، ويجنبهم عن خلافه وما عليه، وفي وسعه إلا البلاغ ﴿فَيُضِلُّ اللهُ﴾ المضل المذل لعباده ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إضلاله وإذلاله على مقتضى قهره وجلاله ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَهُوَ﴾ في ذاته ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما أراد وشاء إرادة واختيار ﴿الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم:4] المتقن في فعله على مقتضى إرادته.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم:5-7].

ثم ذكر سبحانه قصة إرسال موسى إلى قومه حين فشا الجدال والمراء بينهم وانحرفوا عن طريق الحق؛ ليتعظ به المؤمنون ويعتبروا، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿مُوسَى﴾ المؤيد ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الباهرة مثل: العصا واليد البيضاء وسائر المعجزات الظاهرة على يده، وقلنا له ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ الضالين عن سواء السبيل بمتابعة الأهوية الفاسدة ﴿مِنَ﴾ أنواع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ الطارئة عليهم من الكفر والفسوق والعصيان والتقليدات والتخمينات الناشئة من الأوهام والخيالات، المنبعثة عن الكثرة المستدعية للأنانية التي هي الظلمة الحقيقية ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الحقيقي الذي هو صرافة التوحيد والوحدة الذاتية المسقطة لجميع الإضافات والكثرات ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ أيضًا ﴿بِأَيَّامِ اللهِ﴾ التي مضت على الأمم الهالكة من أمثال هذه الأفعال المورثة لأنواع الظلمات؛

لعلهم يعتبروا عن سماعها وينصرفوا عما هم عليه من القبائح والذمائم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في ذكر تلك الوقائع الهائلة والبليات العظيمة ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: دلائل واضحات وعبر ﴿لِكُلِّ﴾ مؤمن معتبر من أمثاله خائف من بطش الله ﴿صَبَّارٍ﴾ على ما جرى عليه من قضائه ﴿شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:5] مبالغ في الشكر على ما وصل إليه من آلائه ونعمائه.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ حين أراد تعديد نعم الله عليهم وإحسانه إليهم؛ ليستحيوا عن مخالفة أمره وترك طاعته وعبادته ﴿اذْكُرُوا﴾ أيها المغمورون بنعم الله ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وقوموا لشكرها؛ أداء لحق شيء منها سيما ﴿إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حين ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ ويقصدون لكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: أفضحه وأقبحه ﴿وَ﴾ هو أنه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ قمعًا وقلعًا لعرقكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ توبيخًا وتقريعًا عليكم ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ﴾ نازل ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إذ هو بإقدار الله إياهم ﴿عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم:6] لا بلاء أعظم منه.

والإنجاء عن أمثال هذا البلاء من أعظم النعماء، فعليكم أن تواظبوا لشكره ﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا ﴿إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: أعلمكم إعلامًا بليغًا، وأوصاكم وصية عظيمة تتميمًا لتربيتكم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾[1] على ما أُعطيتم من النعم العظام وقمتم لأداء حقها ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وأضاعفنكم بأمثالها وأضعافها ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ في مقابلة الإحسان والعطاء، فلا يلحق علي أثر كفرانكم، بل ﴿إِنَّ عَذَابِي﴾ ونكالي على من صرف عن أمري وخرج عن إطاعتي وانقيادي ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:7] مبرم محكم لا يندفع أصلاً، فعليكم أن تلازموا الشكر وتجانبوا عن الكفران.

---

(1) قال ابن عطاء: لئن شكرتم هدايتي لأزيدنكم خدمتي، ولئن شكرتم خدمتي لأزيدنكم مشاهدتي، ولئن شكرتم مشاهدتي لأزيدنكم ولايتي، ولئن شكرتم ولايتي لأزيدنكم رؤيتي.
وسُئِل ابن عطاء عن قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: إذا وردت الأشياء إلى مصادرها من غير حضور منك لها فقد تم الشكر. وقال الجوزجاني: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم القرب، ولئن شكرتم القرب لأزيدنكم الأنس. وقيل: إني خلقتكم لأزيدنكم الأنس بعد الوحشة، والقرب بعد البعد والحضور بعد الغيبة. قال الواسطي: ذكر الزيادة حجبهم عن الحقيقة، ثم كشفت الحقيقة لأقوام متواجدين.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم:8-10].

﴿وَ﴾ بعدما فرغ عن التعديد والتذكير ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَى﴾ قولاً ناشئًا عن محض الحكمة والرزانة على مقتضى نور النبوة والولاية: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ أيها الغافلون عن كمال استغناء الله وعلو شأنه وسمو سلطانه ﴿أَنتُمْ﴾ بأجمعكم، بل ﴿وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لا يزن في جنب استغنائه سبحانه بمقدار جناح بعوضة ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿لَغَنِيٌّ﴾ في ذاته عما سواه من أظلاله مطلقًا ﴿حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:8] بمقتضيات أوصافه وأسمائه.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها التائهون في تيه الغفلة والغرور ﴿نَبَأُ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ لمثل ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ من الأمم الهالكة ﴿لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ﴾ المطلع لجميع ما كان ويكون، لا يعزب عن حيطة حضرة علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء حين ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ المبعوثون إليهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات، والمعجزات الباهرات المثبتة لرسالاتهم، فدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وأمروهم بالمعروفات ونهوهم عن المنكرات ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ مشيرين إليها من غاية إنكارهم واستهزائهم ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا﴾ أي: اعترفنا بالكفر بأفواهنا، كأنهم أخبروا عن كفرهم بالجملة الماضية تحقيقًا وتقريرًا لما هم عليه من الكفر والطغيان ﴿بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ من عند ربكم وكيف نؤمن لكم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الإله الواحد، الأحد الصمد المتصف بجميع صفات الكمال، الموجد المظهر للكائنات ﴿مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم:9] موقع للريب المؤدي إلى الإنكار؛ إذ المتصف بهذه الصفات لا بدَّ أن يكون أظهر من الشمس، مع أنه أخفى من كل شيء،

بل لا وجود له أصلاً.

﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ﴾ على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَفِي اللَّهِ﴾ الظاهر المتجلي في الآفاق بالاستقلال والاستحقاق ﴿شَكٌّ﴾ وتردد مع كونه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: موجدهما ومظهرهما من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة، إنما ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى توحيده بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ بعضًا ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وهو ما بينكم وبينه سبحانه؛ إذ حق الغير لم يسقط ما لم يعف صاحب الحق عنه ﴿وَ﴾ بعد دعوتكم ﴿يُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم الجزاء؛ ليهيئ كل منكم زاد يومه هذا على الوجه المأمور المبين في الكتب المنزلة على الرسل، وبعدما سمعوا من الرسل ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ مستنكرين عليهم، مستهزئين لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تأكلون وتشربون وتفعلون جميع ما نفعل ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأمثال هذه الحيل والتزويرات الباطلة ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وأسلافنا من الآلهة والأصنام، وإن صدقتم في دعواكم ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم:10] أي: بحجة واضحة لائحة نقترحها منكم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:11-12].

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مسلمين منهم المشاركة في الجنس: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ نشارك لكم في جميع أحوال البشر وأوصافه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ المنعم المفضل ﴿يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بمقتضى جوده وإحسانه بفضائل مخصوصة وكرائم غير شاملة على تفاوت مراتبهم واستعداداتهم المثبتة في علم الله ﴿وَ﴾ أما أمر مقترحاتكم فإنه ﴿مَا كَانَ﴾ أي: صح وجاز ﴿لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ تقترحون ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه ووحيه وإقداره إن تعلق إرادته بصدورها منا ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره من الأسباب والوسائل العادية ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم:11] الموحدون المفوضون أمورهم كلها إلى الله أولاً وبالذات، ولا يعتقدون الحول والقوة إلا بالله المستقل في ذاته وأوصافه وأفعاله.

﴿وَ﴾ بعدما آيسوا عنهم وعن صلاحهم اشتغلوا إلى تزكية نفوسهم ﴿مَا لَنَا﴾ أي: أي عذر عرض لنا ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ﴾ المصلح لأحوالنا، فلِمَ لَمْ نتخذه وكيلنا وكفيلنا؟ ﴿وَ﴾ الحال أنه سبحانه بمقتضى لطفه وجماله ﴿قَدْ هَدَانَا﴾ وأوضح لنا ﴿سُبُلَنَا﴾ التي نسلك بها نحو توحيده وعرفانه، وإن ما جرى علينا من المنافع والمضار إنما هو من عنده وبمقتضى مشيئته وإرادته ﴿وَ﴾ الله بعدما تحققنا بمقام التوحيد، وتمكنا في مقر التجريد والتفريد ﴿لَنَصْبِرَنَّ﴾ على جميع ﴿عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ بالرد والإنكار وغير ذلك من الاستهزاء وسوء الأدب، وكيف لا نصبر؛ إذ الكل بيده سبحانه ويحيطة حضرة قدرته وإرادته، إنما وصل إلينا ابتلاء منه سبحانه إيانا واختبارًا ﴿وَ﴾ بعدما تحقق وبيّن أن الكل من عنده ﴿عَلَى اللهِ﴾ المستقل في جميع التصرفات والأفعال في كل الأمور والأحوال ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:12] الموحدون، المفوضون أمورهم كلها إليه؛ لذلك بذلوا مهجهم في طريق التوحيد وإعلاء كلمته.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17)﴾ [إبراهيم:13-17]

﴿وَ﴾ بالجملة: أدى أمر استكبارهم واستنكارهم وتكذيبهم إلى أن ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ حين بالغوا في دعوتهم وإهدائهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ أيها المزورون الملبسون ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾ إجلاء وإخراجًا على وجه الإهانة والإذلال ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ منصفين ملجئين ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ التي هي ملة آبائكم وأسلافكم ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ حين اشتد الأمر إليهم واضطروا من ظلمهم وطغيانهم، قائلاً لهم على سبيل الوعد والتبشير: لا تبالوا أيها الرسل المبلغون كلمة الحق إليهم من تهديداتهم وتشنيعاتهم، ولا تخافوا من شوكتهم وصولتهم نحن أقوى منهم ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ونستأصلن ﴿الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم:13] الخارجين عن ربقة إطاعتكم وانقيادكم.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ ونقررنكم ﴿الأَرْضَ﴾ التي هم يريدون إخراجكم منها مهانين

صاغرين ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: إهلاكهم واستئصالهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إهلاك العدو وإيراث الأرض والديار ﴿لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي﴾ أي: للمؤمنين الموعدين الخائفين عن قيامي وحفظي واطلاعي لجميع أحوال عبادي، وبسبب خوفهم هذا لا يخرجون عن مقتضى نهيي وأمري ﴿وَ﴾ مع ذلك الخوف ﴿خَافَ وَعِيدِ﴾[1] [إبراهيم:14] أي: عن وعيدي في يوم الجزاء بأنواع العذاب والنكال.

ومن غاية خوفهم ورعبهم عن الوعيدات الأخروية استعدوا لها، وهيأوا أسباب النجاة منها، جعلنا الله ممن هيأ أسباب أخراه في أولاه ﴿وَ﴾ كيف لا ينصرهم الحق ولا يهلك عدوهم؛ إذ هم ﴿ٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ واستنصروا من الله، وطلبوا الفتح والنصرة على أعدائهم، مفوضين أمورهم كلها، مسلمين نفوسهم وأرواحهم على قضائه؛ لذلك فتح سبحانه عليهم ونصرهم على عدوهم ﴿وَخَابَ﴾ خيبة أبدية وخسر خسرانًا سرمديًا ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ متكبر متجبر على الله وعلى عباده ﴿عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم:15] مبالغ في العتو والعناد مع أنبيائه ورسله.

ومع ذلك لا يقتصر عليهم بالعذاب العاجل، بل ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ أي: وراء العذاب الدنيوي ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان والطرد والحرمان ﴿وَيُسۡقَىٰ﴾ فيها حين اشتد زفرتهم ﴿مِن مَّآءٖ﴾ أي: مائع كالماء ﴿صَدِيدٖ﴾ [إبراهيم:16] أي: قيح سائل من جراحات أجساد أهل النار.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ بتكلف واضطراب ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يقارب أن يجري على حلقه؛ للزوجته وحرارته والتصاقه ﴿وَ﴾ لعدم إساغته وجوازه ﴿يَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي: يأتيه ويتوجه نحوه أسباب الموت من كل عضو من أعضائه؛ لوصول أثر اشتداده ورداءته وبشاعته كل جزء من أجزاء بدنه حتى أصول شعره، فتقشعر من هوله كما يشاهد عند شرب الأدوية الرديئة الكريهة الرائحة واللذة مثل: السقمونياء والحنظل وغير ذلك ﴿وَ﴾ مع إتيان أسباب الموت من جميع الأعضاء ﴿مَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾ حتى يخلص من العذاب، بل ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي: عقيب سقيه على هذا الوجه ﴿عَذَابٌ

(1) أي: قيامه للحساب بين يدي في القيامة، أو قيامي على عبادي، وحفظي لأعمالهم، واطلاعي على سرهم وعلانيتهم، أو خاف عظمة ذاتي وجلالي، (وخاف وعيد) أي: وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفار. البحر المديد (3 /192).

غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:17] من أنواع العذاب.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) ﴾ [إبراهيم:18-21].

ثم قال سبحانه كلامًا جمليًا شاملاً لجميع أصحاب الضلال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع النعم، فيكفرون النعم والمنعم جميعًا متى لم يصلوا إلى مرتبة توحيده وعرفانه، ولم يؤمنوا به حتى يصلوا بالسلوك والمجاهدة إليه، شأنهم العجيب وحالهم الغريبة فيما يتلى عليكم أنه ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الحسنة من الصدقة والعتق والصلة وغير ذلك من الأعمال المقربة إلى الحق إن كانت غير مقرونة بالإيمان والمعرفة ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ذو رياح شديدة عاصفة فطار بها الرماد إلى حيث لم يبق في مكانه أثر منه، أي: مثلهم وشأنهم في كون أعمالهم محبطة يوم القيامة كمثل ذلك الرماد بحيث ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ لدى الحاجة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من الأعمال المنجية المخلصة ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ قليل حقير، فكيف بالكثير العظيم منها؟! ﴿ذَلِكَ﴾ الإحباط والهباء وعدم النفع ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:18] بمراحل عن الهداية والفوز بالفلاح، وما ذلك إلا لعدم مقارنتها بالإيمان والعرفان، ولتكذيب الرسل المبينين لهم طريق التوحيد والإيقان.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المستبعد لإحباط أعمال أولئك الكفرة المعاندين مع الله ورسله ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر، المقتدر بالقدرة التامة الكاملة بحيث لا ينتهي قدرته أصلاً ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أظهرهما وأوجدهما من كتم العدم على وجه الإبداع والاختراع ﴿بِالْحَقِّ﴾ الثابت المطابق للحكمة البالغة الكاملة بحيث ما ترى فيها من فطور وفتور، يشاهد أهل البصائر والاعتبار هذا النمط البديع والنظام العجيب فينكشفوا منها إلى مُبدئها ومُنشئها، ومع ذلك ﴿إِن يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها المائلون عن

طريق الحق الناكبون عن مقتضى حكمته بمتابعة أهوية نفوسكم ومقتضيات هوياتكم الباطلة ﴿وَيَأْتِ﴾ بدلكم ﴿بِخَلْقٍ﴾ آخر ﴿جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:19] مستبدع مستحدث؛ ليواظبوا على طاعته ويداوموا على مقتضيات حكمته.

﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من الله أمثال ذلك؛ إذ ﴿مَا ذَٰلِكَ﴾ وأمثاله ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المتعزز بالمجد والبهاء والعظمة والكبرياء والبسطة والاستيلاء ﴿بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:20] متعذر أو متعسر؛ إذ لا يتعسر على قدرته المقدور، ولا يتعذر عليه شيء من الأمور.

﴿وَ﴾ كيف يتعسر أو يتعذر عليه شيء من الأشياء؛ إذ الكل ﴿بَرَزُوا﴾ أي: ظهروا ورجعوا في النشأة الآخرة ﴿لِلَّهِ﴾ المظهر المبرز لهم من كتم العدم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين؛ إذ لا يخرج عن حيطته شيء ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ من ذوي الاستعدادات الضعيفة حين أخذوا بجرائمهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عليهم في النشأة الأولى بالرئاسة والعقل التام، وادعاء الفضل والكمال إلى حيث جعلوا نفوسهم مبتدعين لهم حيث قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في دار الدنيا، وأنتم ناصحون لنا، آمرون بتكذيب الرسل وأنواع الفواحش والقبائح الممنوعة بألسنة الرسل ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ اليوم حين أُخذنا على ما أمرتمونا ﴿مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أي: دافعون مانعون ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ المنتقم منا ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: بعض من عذابنا ونكالنا؟! ﴿قَالُوا﴾ أي: المستكبرون بعدما عاتبهم الضعفاء: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن أضلنا باسمه المضل، فأضللناكم، فالآن نحن وأنتم ضالون ظالمون مؤاخذون ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ وعليكم ﴿أَجَزِعْنَا﴾ عن شدة العذاب والنكال ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على مُقاساته وأحزانه ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:21] أي: مخلص ومناص.

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [إبراهيم:22-23].

﴿وَقَالَ الشَّيطَانُ﴾ أي: الأهوية الفاسدة المفسدة لهم في نشأتهم الأولى مصورة على صورة الشيطان المغوي ﴿لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح المدبر لأحوال عباده ﴿وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ﴾ هذا اليوم الذي به تؤاخذون فيه ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ ضلالاً وإغراء لكم بخلافه ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ما وعد به ربكم مع أن إنجازه مقطوع به لاشك فيه أصلاً، واتبعتم قولي مع أنه غرور وإضلال لا يرجى إنجازه مني أصلاً وأنتم جازمون به ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ حجة مرجحة وأدلة ملجئة ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ أي: سوى أن دعوتكم على مقتضى أهويتكم وأمنيتكم التي تقتضيها هويتكم وماهيتكم، ومع ذلك ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ وصدقتم قولي بلا تردد ومماطلة طوعًا ورغبة.

﴿فَلاَ تَلُومُونِي﴾ اليوم ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ الباعثة الداعية على متابعتي مع جزمكم بمكري وعداوتي ﴿مَّا أَنَاْ﴾ اليوم ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: مغيثكم ومعينكم، وإن ادعيت فيما مضى تغريرًا وتلبيسًا ﴿وَمَا أَنتُم﴾ أيضًا ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ إذ انكشف الحال وانقطعت علاقة المحبة بيننا، وصارت كل نفس رهينة بما كسبت ﴿إِنِّي﴾ اليوم بعد انكشاف السرائر والضمائر ﴿كَفَرْتُ﴾ أي: تبرأت وأنكرت ﴿بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي﴾ أي: بإشراككم معي في إشراك الله الواحد الأحد الصمد، الذي لا شريك له أصلاً ﴿مِن قَبْلُ﴾ في دار التلبيس والتزوير والإغواء والتغرير ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضيات أوامر الله ونواهيه عدوانًا وزورًا ﴿لَهُمْ﴾ اليوم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:22] مؤلم أشد الإيلام.

ثم بيّن سبحانه على مقتضى سنته المستمرة بعدما بين أحوال الهالكين المنهمكين في تيه العتو والعناد، وفظاعة أمرهم في يوم الجزاء مآل المؤمنين الناجين عن تغريرات الدنيا الدنية وتسويلات الشياطين الغوية فيها.

فقال: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله وتصديق كتبه ورسله ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي هي نتائج الإيمان ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ لتنبت في أراضي استعداداتهم وقابلياتهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من المكاشفات والمشاهدات الخارجة عن طوق البشر، ومع ذلك ﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: برضاه وتوفيقه وتيسيره ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من قبل الحق بلسان الملائكة حين ملاقاتهم ﴿فِيهَا سَلاَمٌ﴾ [إبراهيم:23]

لأنهم مسلمون منقادون مسلمون أمورهم كلها إلى الله.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾ [إبراهيم:24-27].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المعتبر الخبير البصير ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿مَثَلًا﴾ لينتبهوا منه بأن شبه ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هي كلمة التوحيد القائلة المفصحة بالا وجود لسوى الحق ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ هي النخلة التي ﴿أَصْلُهَا﴾ وعروقها ﴿ثَابِتٌ﴾ في الأرض بحيث لا يقلعها ولا يشوشها الرياح أصلاً ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أي: أفنانها وأغصانها مرتفعة ﴿فِي﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ﴾[1] [إبراهيم:24].

(1) قال الشيرازي: أشار سبحانه إلى كلمة القديمة التي تكلم بها في اصطفائيته أهل معرفته طلبت كلمته، وهي أطيب الطيبات باصطفائيته أهل الولاية، وتلك الكلمة القديمة شجرة الصفات أصلها ثابت في القدم وفروعها في سماء البقاء، وتلك الشجرة منزهة عن ثغائر الحدثان وعن التبديل بطوارق القهريات، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ مياه تلك الشجرة من بحار حسن العناية الأزلية والإرادة القديم، تؤتي أكلها ثمرات تجليها بالأرواح المحبين والعارفين والموحدين كل حين تفيض فيض أنوارها على أفئدة الصديقين وعقول المقربين؛ فأكل تلك الشجرة ثمرات تجلي جميع الصفات والذات تربي بها قلوب الأولياء والصديقين، فثمرة مشاهدة الذات يورث لقلوب الموحدين التوحيد والتفريد والفناء والبقاء والصحو والمحو والحياة والوله، وثمرات الصفات يورث لفكر العارفين على قدر تجليها؛ فكل صفة يورث لها حقيقة من تلك الصفة؛ فميراث صفة العظمة الهيبة والخواف والإجلال، وميراث الكبرياء والبهتة والخجل والحياء، وميراث الجلال الخشية والخضوع، وميراث الجمال المحبة والشوق والعش، وميراث العلم المعرفة بالعلوم اللدنية، وميراث القدرة الكرامات، وميراث نور السمع استماع أصوات هواتف الغيب، وميراث نور البصر الفراسات الصادقة ورؤية الغيب وغيب الغيب، وميراث نور الخطاب والكلام والإطلاع على الأسرار والوله والهيمان في الأنس والمناجاة، وميراث الحياة وحياة القلب بالرب وحياة العقل بنور القلب وحياة الروح بروح الوصال، وميراث رؤية القدم والبقاء الزفرات والعبرات والمواجيد والصعقات، وميراث رؤية أنوار الحكمة ببطون الأفعاليات ودقائق المقامات وحقائق المقامات وإدراك نور شواهد الآيات في

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ أي: ثمارها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ من الأحيان المعينة للإثمار ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: بإرادته ومشيئته؛ يعني: كما أن النخلة تنمو وتثمر بسبب أصلها الثابت في الأرض وفرعها المرتفع نحو السماء، ويحصل منها الثمر وقت حصولها، كذلك الكلمة الطيبة التوحيدية المستقرة، أصلها في أراضي الاستعدادات الفطرية المرتفعة أغصانها وأفنانها نحو سماء العالم الروحاني، المثمرة لثمرات المكاشفات والمشاهدات، القالعة القامعة لأشواك الكثرات، الناشئة من الإضافات العدمية ﴿وَ﴾ لا حاجة لأولي البصائر والألباب، المنكشفين بصرافة الوحدة الذاتية إلى أمثال هذه التنبيهات، بل ﴿يَضْرِبُ

كل ذرة في مرائي الأفاق، وميراث ثمرة الإرادة صدق العبودية وإخلاص المحبة ويسهل له جميع المرادات مادام متصفًا بالإرادة، ومَنْ أكل ثمرًا من ثمار تلك الشجرة يحي بحياة الأبدية، ويبقى في أنوار الأزلية لا يطرأ عليه بعد ذلك طوارق الفناء، وأيضًا الكلمة الطيبة كلمة ألهمت في قلوب أحبائه، تلك الكلمة شجرة المعرفة أصلها ثابت في ارض القلوب وفرعها في سماء الأرواح ومياه تلك الشجرة من بحر كشف المشاهدة، تؤتي أكلها كل حيث بإذن ربها من أنواع المقامات والحالات والكشوفات والكرامات والفِراسات وحركتها في بستان الوصلة من جائحات الوسواس والهواجس، وأيضًا تلك الشجرة الطيبة كلمة التوحيد التي غرسها الحق في أرض بساتين الأرواح وأصلها هناك ثابت بالتوفيق، وفرعها في سماء القرب، وسقاها من سواقي العناية يرويها المعرفة وأغصانها المحبة، وأوراقها الشوق، وثمرها العشق، وحارسها الرعاية، ومزرعها الكفاية، ونهارها الأنس تؤتي أكلها كل حين في جميع الإفقاس من لطائف العبودية، وعرفان أنوار الربوبية ساكن ظلها العقول، وظلها من ظلال الجمال، وهذه الثمرات في أواني كمالها مرفوعة على خوان المشاهدة والقربة. قال ابن عطاء: الكلمة الطيبة قوله: «لا إله إلا الله» على التحقيق، والشجرة الطيبة هي التي تظهر أسرار الموحدين عن دنس الأطماع بالثقة بالله، والانقطاع إليه عما سواه.

قال محمد بن على: الشجرة الطيبة الإيمان أثبتها الله في قلوب أوليائه، وجعل أرضها التوفيق، وسماءها العناية، وماءها الرعاية، وأغصانها الكفاية، وأوراقها الولاية، وثمارها الوصلة، وظلها الأنس؛ فأصلها ثابت في قلب الولي، وفرعها في السماء ثابتة بالمريد من عند الجبار؛ فالأصل يربي الفرع بدوام الإشفاق والمراقبة، والفرع يهدي إلى الأصل ما يجتنبه من محل المشاهدة والقرب، هكذا أبدا قلب المؤمن وفؤاده.

قال أبو سعيد الخراز: خزائن الله في السماء الغيوم، وخزائنه في الأرض القلوب؛ لأن الله خلق قلب المؤمن بيت خزائنه، ثم أرسل ريحًا فهبت فيه فكنسته من الكفر والشرك والنفاق، ثم أنشأ سحابة فأمطرت فيه، ثم أنبتت شجرًا، فأثمرت الرضا والمحبة والشكر والصفوة والإخلاص والطاعة وهو قوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

﴿اللهُ﴾ المطلع لسرائر استعدادات عباده ﴿الأَمْثَالَ﴾ المذكورة ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين عهودهم ومواثيقهم مع الله بُحجب تعيناتهم المستتبعة للإضافات والكثرات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:25] رجاء أن يتذكروا ما نسوا من أمثال هذه الأمثال.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر المستتبعة لأنواع الفسوق والعصيان، المخالفة لجادة التوحيد ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي الحنظلة التي ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أي: أخذت تنمو جثتها ﴿مِن فَوْقِ الأَرْضِ﴾ بلا استحكام عرقها في الأرض وتعمقها؛ لذلك ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1] [إبراهيم:26] إذ أدنى الرياح يقلبها كيف يشاء؛ يعني: كما أن الشجرة الخبيثة الغير المستقرة يقلبها الرياح كيف يشاء كذلك اعتقادات الكفرة والفسقة المقلدة يقلبها أدنى رياح الشكوك والشبهات، وتوقعهم في مهاوي الأوهام والخيالات.

وبالجملة: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ أي: بالإقرار المطابق للاعتقاد ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: حيث بذلوا أرواحهم لإعلاء كلمة الحق ولا ينصرفون عنها ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ أيضًا بحيث لا يتلعثمون ولا يضطربون يوم العرض الأكبر، بل في البرزخ أيضًا عند سؤال المنكر والنكير ﴿وَ﴾ كما يثبت المؤمنين بالإيمان كذلك ﴿يُضِلُّ اللهُ﴾ المذل المضل ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الذين خرجوا عن ربقة العبودية عنادًا واستكبارًا؛ أي: يثبتهم على الضلال إلى حيث لا يفوزون بالفلاح أصلاً، بل صاروا خالدين في النار أبد الآباد ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَفْعَلُ اللهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:27] من الإهداء والإضلال، والإعزاز والإذلال.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

(1) قال القشيري: (44/4): والشجرة الخبيثة هي الشِّرْكُ اجتُثَّ من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد، ليس له أصل صحيح، ولا برهان موجب، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شُبَهٌ وأباطيل وضلال، تقتضي وساوس وتسويلاتٍ ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة.

وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:28-34].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي إلى الظالمين المسرفين ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ﴾ الفائضة عليهم من محض فعله وعطائه؛ ليشكروا له ويواظبوا على أداء حقه ﴿كُفْرًا﴾ أي: يصرفونها كفرانًا لها إلى البغي والطغيان على الله وعلى خلَّص عباده، مع أن المناسب صرفها إلى إعلاء كلمة الله ونصر دينه ونبيه ﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَحَلُّوا﴾ وأدخلوا نفوسهم ﴿قَوْمَهُمْ﴾ التابعين لهم المعاندين لكفرهم ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:28] أي: الهلاك والخسار.

يعني: ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلون فيها أذلاء مهانين مقهورين، لا نجاة لهم منها أصلاً ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم:29] والمقر مقرهم الذي هو جهنم الطرد والخذلان.

ومن خبث بواطنهم ﴿وَ﴾ شدة شكيمتهم ﴿جَعَلُوا للهِ﴾ المتوحد في ذاته ﴿أَندَادًا﴾ شركاء من أظلاله ومصنوعاته ﴿لِّيُضِلُّوا﴾ ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ الذي هو دين الإسلام الموصل إلى توحيد الله ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ أيها المسرفون بما أنتم عليه من الكفر والعناد ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ ومآل أمركم ﴿إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم:30] المعدة لتخذيلكم وجزائكم.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بجميع ما جئت به إليهم من أمور الدين سيما الصلاة المصفية لبواطنهم والزكاة المزكية لظواهرهم كذلك: ﴿يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أي: يديموها في الأوقات المفروضة فيها ﴿وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ على المستحقين ﴿سِرًّا﴾ بلا سبق سؤال ﴿وَعَلانِيَةً﴾ بعد السؤال، استعدوا أيها الطالبون للنجاة لأخراكم في أولاكم، وأعدوا زاد عقباكم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ ليتدارك المقصر بالإنفاق والصدقة بعض تقصيراته ﴿وَلَا﴾ يقبل فيه ﴿خِلالٌ﴾ [إبراهيم:31] أي: شفاعة من خليل حميم يشفع للجرائم والتقصيرات.

وكيف لا تستعدون بعدما أمركم الله بإعداده ووفق أسبابه عليكم؛ إذ ﴿اللهُ﴾ الموفق لعباده أسباب معادهم هو المدبر المصلح ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات المعدة للإحاطة ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: السفليات القابلة للفيض ﴿وَأَنزَلَ﴾ أي: أفاض ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ﴾ أنواع ﴿الثَّمَرَاتِ﴾ لتكون ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ مقومًا لمزاجكم، مبقيًا لحياتكم؛ لتواظبوا على طاعة الله وإعداد زاد يوم المعاد ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أي: السفن الجارية ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بمشيئته وإرادته؛ لتسيروا معها إلى حيث شئتم وتتجروا بها وتربحوا ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ أيضًا ﴿الأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم:32] الجارية على بسيط الأرض؛ ليسهل لكم إخراج الجداول منها للحراثة والزراعة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ أيضا ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينِ﴾ مختلفين في سيرهما شتاء وصيفًا خريفًا وربيعًا؛ لإنضاج ما تحرثونه وتزرعونه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم:33] لسباتكم ومعاشكم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿آتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[1] بلسان استعداداتكم وقابلياتكم من متممات نفوسكم ومكملات إدراككم ﴿وَ﴾ بلغ إنعامه سبحانه إياكم في الكثرة إلى حيث ﴿إِن تَعُدُّوا﴾ وتحصوا ﴿نِعْمَتَ اللهِ﴾ الفائضة عليكم لتربيتكم ﴿لاَ تُحْصُوهَا﴾ أي: لا يسع لكم إحصاؤها من كمال كثرتها ووفورها، فلكم أن تواظبوا على شكرها وأداء حق شيء منها، وإن كانت القوة لا تفي بأدائها، لكن قليلاً منكم يشكرون نعمه ﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ المجبول على الغفلة والنسيان في أصل فطرته باعتبار قوى بشريته وبهيميته

(1) قال الشيرازي: إن الله تعالى أعطاك أكبر ما في خزانته وأجله وأعظمه من غير سؤال وهو التوحيد؛ فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤال؛ فاجتهد أيها العبد أن لا يكون سؤالك إلا منه، ولا رغبتك إلا به، ولا رجوعك إلا إليه؛ فإن الأشياء كلها له فمَنْ شغله بغيره عنه فقد قطع عليه طريق الحقيقة، ومَنْ شغله به جعل الأشياء كلها طوع يديه؛ فتنقلب له الأعيان ويقرب له البعد؛ فيمشي حيث أحب، ويخبر عمّا أراد، وهذا من مقامات العارفين. وقال بعضهم: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء؛ فكيف إذا تتابعه النعم. قيل: أجلّ النعمة استواء الخلقة، وإلهام المعرفة، والذكر من بين سائر الحيوان، ولا يطيق القيام بشكرها أحد. وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه، حيث ظن أن شكره يقابل نعمة كفّار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البدء والعافية. وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله عليكم بمحمد ﷺ لا تحصوه، بأن جعل السفير فيما بينكم وبينه السفير الأعلى والواسطة الأدنى.

﴿لَظَلُومٌ﴾ أي: مظلوم محزون عند الشدة وهجوم البلاء ﴿كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:34] مبالغ في الكفران والنسيان وقت الفرح والسرور.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم:35-39].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذ قَالَ﴾ جدك ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ حين ناجى مع الله بعدما عمر مكة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا البَلَدَ﴾ التي تأمرني بتعميرها؛ يعني: مكة ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن وأمان من تخريب العدو وتغييرها ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ أي: بعدني ﴿وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:35] بتسويلات الأهوية الفاسدة والشياطين المضلة.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي: الأوثان والأصنام بإظهارك بعض الخوارق عليها ﴿أَضْلَلْنَ﴾ وصرفن ﴿كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ عن جادة توحيدك ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ بعدما دعوتهم إلى توحيدك ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وعلى ملتي وديني ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ولم يقبل قولي وأصر على ما هو عليه ﴿فَإِنَّكَ﴾ بمقتضى جودك وفضلك ﴿غَفُورٌ﴾ قادر على العفو والمغفرة عن جميع المعاصي ﴿رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:36] ترحمهم بمقتضى سعة رحمتك وحلمك.

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعضًا منها وهو إسماعيل وبنوه ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ إذ هي حجرية لا زرع فيها ولا حرث ﴿عِندَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ﴾ سمي به؛ إذ حرمت فيه المقاتلة والصيد والتعرض والتهاون مطلقًا حفظًا فيه؛ لذلك لا يزال معظمًا مكرمًا يهابه الجبابرة، وإنما أسكنتهم عنده؛ ليكنسوا بيتك من الأقذار، ويصفوه من الأكدار ﴿رَبَّنَا﴾ إنما أسكنت ذريتي عند بيتك ﴿لِيُقِيمُوا﴾ ويديموا ﴿الصَّلَاةَ﴾ المقربة نحو جنابك وفناء بابك ﴿فَاجْعَلْ﴾ بمقتضى فضلك وجودك ﴿أَفْئِدَةً﴾ أي: وفدًا كثيرًا وقفلاً ﴿مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي﴾ أي: تميل وتتوجه ﴿إِلَيْهِمْ﴾ من الجوانب ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ﴾

أنواع ﴿الثَّمَرَاتِ﴾ المهداة إليهم من البلاد البعيدة، يأتي بها الزوار والتجار ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:37] نعمتك ويواظبون على طاعتك وخدمة بيتك عن فراغ القلب.

﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ من حوائجنا ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي: ما لنا علم به؛ إذ أنت أعلم بحوائجنا منا؛ إذ علمك بنا وبجميع مظاهرك حضوري ذاتي، ولا علم لنا بذاتنا كذلك، بل نحن عاجزون عن إدراك أنفسنا كعجزنا عن إدراك ذاتك يا مولانا، لذلك قال ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»(1) ﴿وَ﴾ كيف يخفى عليك حوائجنا؛ إذ ﴿مَا يَخْفَى﴾ ويستر ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المحيط بكل الأشياء ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لذلك ظاهر ﴿فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:38] وكيف خفي عليه شيء؛ إذ هو عالم بها، مظهر لها، لا يعزب عنه شيء منها.

﴿الحَمْدُ﴾ والمنة ﴿لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي﴾ من يخلفني ويحيي اسمي حين آيست؛ إذ بلغ سني ﴿عَلَى﴾ كمال ﴿الكِبَرِ﴾ والهرم ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ روي أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحاق لمائة واثنتي عشرة سنة ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع الكرم وشرفني بخلعة الخلة والحلم ﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم:39] الذي صدر عن لسان استعدادي ومجيبه بطلب من يخلفني ويقوم مقامي.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم:40-43].

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾ على وجه الخضوع والخشوع والتبتل والإخلاص ﴿وَ﴾ اجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أيضًا من يقيمها على الوجه المذكور ﴿رَبَّنَا﴾ استجب مني ﴿وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم:40] في حقي وحق أولادي.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ بفضلك؛ إذ لا أملك لنفسي ضرًا ولا نفعًا ﴿وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعًا، واعف بمقتضى جودك عن زلتي وزلاتهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ﴾

---

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (208/10).

[إبراهيم:41] وينشر الديوان، ويحاسب كل على ما كسب من العصيان.

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ﴾ يا أكمل الرسل ﴿اللهَ﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفياته ﴿غَافِلاً﴾ ناسيًا ذاهلاً ﴿عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن حدود الله بإمهالهم زمانًا، بل ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ويسوّف عذابهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ﴾ وتتحير ﴿فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم:42] وصاروا من شدة الهول والمهابة لا يقدرون على أن يطرفوا عيونهم، بل تبقى مفتوحة حائرة كعيون الموتى، كأنهم قد انقطعت أرواحهم عن أجسادهم.

وهم مع هذه الحيرة والدهشة ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين نحو المحشر، حيارى سكارى ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها نحو السماء، مترقبين لنزول البلاء، مدهوشين هائمين بحيث ﴿لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لشدة ولههم وهيمانهم ﴿وَ﴾ في تلك الحالة ﴿أَفْئِدَتُهُمْ﴾ وقلوبهم التي هي محل الأمان والخيالات ﴿هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:43] أي: خالية، لا يخطر ببالهم شيء مطلقًا وإن كانت لا تخلو عن الأخطار أبدًا.

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [إبراهيم:44-46].

﴿وَ﴾ متى سمعت يا أكمل الرسل أهوال يوم القيامة وأحوال الأنام فيها ﴿أَنذِرِ النَّاسَ﴾ الناسين عهود الحق ومواثيقه التي عهدوا معه في بدء فطرتهم أي شيء يفعلون ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ في اليوم الموعود، وحينئذٍ انقطعت أسباب النجاة وتدبيرات الخلاص ولا يسع لهم التدارك أصلاً ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بتكذيب الله وتكذيب رسله حين رأوا العذاب، مناجين متضرعين متمنين: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾ أي: أعدنا وأرجعنا إلى الدنيا وأمهلنا فيها ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: أيام قلائل ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ ونقبلها عن ألسنة رسلك ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ ونصدقهم بجميع ما جاءوا به من عندك فيقال لهم على سبيل التهكم والتقريع: ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا﴾ أيها الظالمون المسرفون ﴿أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في دار الدنيا بطرين مغرورين ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم:44]

أي: ما لنا وبال ولأموالنا زوال، وما لنا عن أماكننا ارتحال وانتقال.

﴿وَ﴾ مع قولكم هذا ويمينكم عليه ﴿سَكَنتُمْ﴾ وتمكنتم أيها المسرفون المفرطون ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ قبلكم أمثالكم مثل: عاد وثمود وهم أيضًا، مقسمين بما أقسمتم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ وظهر عندكم الآن ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وكيف انتقمنا عنهم واستأصلناهم ﴿وَ﴾ صار أمر إهلاكهم من الفضاحة إلى أن ﴿ضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:45] لتعتبروا عن حالهم وتتركوا أفعالهم؛ لئلا تُنتقموا أمثالهم، ومع ذلك لم تعتبروا ولم تتركوا، فالآن تصابون وتؤاخذون بأشد مما أصيبوا وأُخذوا.

﴿وَ﴾ لا يفيدكم اليوم المكر والحيلة كما لا يفيد لهم مكرهم حين أخذهم؛ إذ ﴿قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ الذي خيلوه دلائل قاطعة وظنوه براهين ساطعة ﴿وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: لم يفهموا أن عند الله سبحانه ما يزيل مكرهم وحيلهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في المتانة والقوة ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم:46] إذ لا يعارض فعله ولا ينازع حكمه، بل له الغلبة والاستيلاء والتعزز والكبرياء.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:47-52].

وإذا كان الأمر كذلك: ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ﴾ القادر المقتدر على كل ما أراد وشاء ﴿مُخْلِفَ﴾ إنجاز ﴿وَعْدِهِ﴾ الذي وعد به ﴿رُسُلَهُ﴾ من إهلاك عدوهم وتعذيبهم بأشد العذاب ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على جميع مراداته ومقدوراته ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:47] شديد على من أراد انتقامه وبطشه من أعدائه نصرة على أوليائه.

قل لهم يا أكمل الرسل: لا تغتروا عن إمهال الله إياكم أيها المسرفون في دنياكم؛ إذ ينتقم عنكم ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ﴾ وتغير تغييرًا كليًا، بأن دكت الجبال دكًا وصارت مسوى لا عوج لها ولا أمتًا، وصارت ﴿غَيْرَ الأَرْضِ﴾ التي كانت قبل هذا ﴿وَ﴾ طويت

﴿السَّمَوَاتُ﴾ المحسوسة، وانتثرت الكواكب، وكورت الشمس، فصارت أيضًا غير تلك السماوات، وبالجملة: تضعضعت أركان العالم وتغيرت أوضاعها وأشكالها واضمحلت آثارها وتلاشت أجزاؤها، وتداخلت أرجاؤها وأقطارها ﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: ظهروا وخرجوا أي: الأموات من أجداث أجسادهم بعد خلع تعيناتهم وجلباب هوياتهم ﴿لِلَّهِ﴾ المظهر لهم الظاهر فيهم ﴿الْوَاحِدِ﴾ في ذاته وصفاته وأحواله وجميع شئونه وتجلياته، المستقل في وجوده ﴿الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:48] للأغيار والسوى مطلقًا.

﴿وَتَرَى﴾ حينئذٍ ﴿الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ الذين أجرموا بالله بإثبات الوجود لغيره وإسناد الحوادث إلى أسبابها العادية ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مقيدين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم:49] أي: سلاسل التقليدات والتقييدات وأغلال التعينات والتخمينات.

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قمائص تعيناتهم وتشخصاتهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: من غرابيب الظلمة العدمية، وهو في اللغة: دهن الأبهل والعرر، كالزفت أسود في غاية السواد، متن نتنه في غاية الكراهة ﴿وَتَغْشَى﴾ أي: تستر ﴿وُجُوهَهُمُ﴾ التي تلي الحق ﴿النَّارُ﴾ [إبراهيم:50] أي: نار البعد والحرمان وسعير الخذلان والخسران.

وما ذلك؛ أي: انتقامهم وأخذهم إلَّا ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ الحكيم العليم المتقن في أفعاله ومأموراته ومنهياته وجميع تدبيراته ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ متعينة بتعين مخصوص ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ وامتثلت ما أُمرت به ونُهيت عنه أو أعرضت ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الرقيب على عباده، المطلع لجميع أفعالهم ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم:51] يحاسبهم ويجازيهم على مقتضى حسابه عدلاً منه.

﴿هَذَا﴾ أي: ما ذكر من أوصاف يوم القيامة وأهوالها وأفزاعها ﴿بَلَاغٌ﴾ أي: تذكرة كافية وموعظة وافية ﴿لِّلنَّاسِ﴾ الذين نسوا طريق التوحيد وأعرضوا عنها بعروض الغفلة لهم، فليتعظوا ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾[1] عن المعاصي والإجرام حتى لا يؤاخذوا عليها،

---

(1) إن قلت: هذا الإنذار داخل في البلاغ؛ فهو تكرار.
قلت: إن البلاغ إنما هو بالنسبة إلى الأحكام العملية الداخلة تحت الأوامر الإلهية، والإنذار بالنظر إلى المنكرات الداخلة تحت النواهي؛ لأن الإنذار إعلام وتخويف، ولا تخويف إلا حيث العصيان، وفعل المنهي، والمخوّف به؛ هو العذاب الجسماني والروحاني، وأمّا الجسماني بإحراق النار الصورية، وأمّا الروحاني فهو بإحراق النار المعنوية؛ وهي تجلِّي الجلال، ومن آثاره؛ البعد والقطيعة، فكما أن أهل الجمال مقرّبون؛ لينظروا إلى الجمال الإلهي؛ فكذا أهل

وليجتنبوا عن الشرك ولا يركنوا إليه ﴿وَلِيَعْلَمُوا﴾ عموم العباد إيمانًا وإذعانًا ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يُعبد بالحق ويُرجع إليه إلى أن ينكشفوا بالحقيقة الحقية ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ خصوصًا ﴿أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم:52] الناظرين بنور الله، الفانين به، الباقين ببقائه.

جعلنا الله ممن ذكر له فتذكر، وتحقق في مقر التوحيد وتقرر.

خاتمة السورة[1]

الجلال مبعدون؛ ليُحجبون عنه كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:15]، ثم هذا البعد اعتباري؛ لعدم ظهور آثار القرب، وإلا فالله قريب من عباده أينما كانوا، وأمّا هم فمنهم قرباء، ومنهم أقارب، ومنهم أباعد على طبقات مختلفة بحسب كشفهم، واحتجابهم، ودخل تحت التبليغ، والإنذار دعوة الجن، وإنذارهم أيضًا، والفرق بينهم، وبين الإنس: إن الإنس مُبشَّرون، كما أنهم منذرون، وأمّا الجن: فمنذرون فقط، دلّ عليه قوله تعالى حكاية: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:31] حيث خصّ الإجارة بالذكر، وطوى ذكر الإدخال في الجنات.

(1) قال في التأويلات: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم:1] قال جعفر عهد خصصت به فيه بيان سالف الأمم وأحوالهم ونجاة أمتك عنهم ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ [إبراهيم:1] من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة البدعة إلى نور السنة ومن ظلمات النفوس إلى أنوار القلوب، وقال أبو بكر بن طاهر: من ظلمة الظن إلى أنوار الحقيقة، قال أبو جعفر: من ظلمة رؤية العقل إلى نور رؤية العقل.

وفي قوله تعالى: ﴿اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [إبراهيم:2] قال الواسطي: الكون كله له، من طلب الكون فاته المكون ومن طلب الحق فوجده سخر له الكون بما فيه.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:3] قال أبو علي الجورجاني: من أحب الدنيا حرم عليه الآخرة، ومن طلب الآخرة حرم عليه طريق النجاة، ومن طلب طريق النجاة حرم عليه رؤية فضل الله، ومن طلب طريق رؤية الفضل حرم عليه الوصول إلى المتفضل.

قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:7] سُئل ابن عطاء عن هذه الآية قال: إذا وردت الأشياء إلى مصادرها من غير حضور منك لها تقديم الشكر، وقال الجوزجاني: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم الأنس، وقال الحريري: كمال الشكر في مشاهدة العجز عن الشكر.

وروي عن داود ﷺ قال: «يا رب كيف أشكرك وشكري لك تجديد نعمة منك عليّ؟ قال: يا داود الآن شكرتني»، قال ابن عطاء: لئن شكرتم هدايتي لأزيدنكم خدمتي، ولئن شكرتم خدمتي

لأزيدنكم مشاهدتي، ولئن شكرتم مشاهدتي لأزيدنكم ولايتي، ولئن شكرتم ولايتي لأزيدنكم رؤيتي، وعن جعفر الصادق ﷺ قال: إذا سمعت النعمة الشكر تأهبت للمزيد.

قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:7] ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:8] قال الواسطي: ليس الإيمان يقرب إلى الحق ولا الكفر يبعد عنه، لكن جرى به الأمر في الأزل بالسعادة والشقاوة فظاهر الإيمان والكفر إعلام الحقائق والحقائق القضاء الذي سبق الدهور لا الأزمان.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [إبراهيم:19] قال سهل: خلق الأشياء كلها بقدرته وزينها بعلمه وأحكمها بحكمه، فالناظر من الخلق إلى الخالق يتبين له من الخالق عجائب الخلقة، والناظر من الخلق إلى الخلق يكشف له عن إشارة أنوار حكمته وبدائع متعته. وقال ابن عطاء: الكلمة الطيبة قوله: لا إله إلا الله على التحقيق، والشجرة الطيبة هي التي تطهر أسرار الموحدين عن دنس الأطماع بالتعبد لله والانقطاع إليه عما سواه، وقال محمد بن علي الباقري: الشجرة الطيبة الإيمان أنبتها الله تعالى وجعل أرضها التوفيق، وسماؤها العناية، وماؤها الرعاية، وأغصانها الكفاية، وأوراقها الولاية، وثمارها الوصلة، وظلها الأنس فأصلها ثابت في قلب المؤمن، وفرعها في السماء ثابت بالمريدين عند الجبار، فالأصل يرد الفروع بدوام الإشفاق والمراقبة والفرع يهدي إلى الأصل بالخشية من محل الشهادة والقرب هكذا أبدًا قلب المؤمن وفؤاده.

قال أبو سعيد الخراز: وخزائن الله في السماء الغيوب وخزائنه في الأرض القلوب؛ لأن الله تعالى جعل قلب المؤمن بيت خزائنه، ثم أرسل ريحًا فهبت فيه فكنه عن الكفر والشرك والنفاق؛ لأن الله تعالى جعل قلبًا ثم أنبت شجرة فأثمرت الرضا والمحبة والصفوة والإخلاص والطاعة وهو قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:24] وذكر كل شيء من الدنيا إذا لم يكن لها حظ من الآلاء جف والشجر الذي في قلب المؤمن يجف إذا لم يسقها بماء التوبة ثم بماء الرحمة من فوق فيكون طريًا شهيًا ثم يأتيه ثلاثة أشياء: طريق العبودية في النفس، وطريق المحبة في القلب، وطريق الذكر في السر فخدمة النفس الطاعة، وخدمة القلب النية، وخدمة السر المراقبة على الدوام، ثم يمطر عليها أمطار على النفس مطر الهداية، وعلى اللسان مطر اللطافة، وعلى القلب مطر العظمة، وعلى السر مطر النعمة، وعلى الروح مطر الكرامة، فينبت مطر اللسان الشكر والثناء، ومن مطر النفس الطاعة، ومن مطر القلب الصدق والصفاء، ومن مطر السر الشوق والحياء، ومن مطر الروح الرؤية والبقاء. قال محمد بن علي: الشجرة الخبيثة اللسان ما لم يقطعها المؤمن بسيوف الخوف فإنها تثمر أبدًا الكلمة الخبيثة، وقال بعضهم: الشجرة الخبيثة النفاق وهي التي لا تقر قرارًا حتى تهوي صاحبها في النار. وقال ابن عطاء: الشجرة الخبيثة الغيبة والبهتان وهما يفتحان على الإنسان باب الكذب والهجاء، وقال جعفر: الشجرة الخبيثة الشهوات وأرضها النفوس وماؤها الأمل وأوراقها الكسل وثمارها المعاصي وغايتها النار. وقال الواسطي في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم:27] الإيمان أي: فإن حقيقة مضاد الروح الإيمان وإيمان محبة عن ظلمات الروح وذلك استثناء من استثناء في إيمانه كيف يأمنه العبد وهو لا يخلف الميعاد ويثبت الله الذين أمنوا على مقدار المواجيد يكون الخوف والأمن ولم ينزع عن أحدٍ الخوف ولا انقلب منه أحد الخطيئة، وما من أحد يسعى إلا يخاف عقباها أي: عقبى سعيه فمن يثبت بالقول الثابت في الحياة الدنيا تسقط عنه تلك المخاوف وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم:32] قال الصادق: وسخر لكم السموات بالأمطار، والأرض بالنبات، والبحر أن يتخذ تنورًا وسحرًا.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [إبراهيم:33] تدوران عليك وتوصلان إليك منافع السموات والنبات والزروع وسخر لكم قلب المؤمن لمحبته ومعرفته وخاصة الله من العباد القلوب لا غير؛ لأنها موضع نظره ومستودع أمانته ومعرفة إفاضة أسراره. قال يحيى بن معاذ في قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:34] إن الله أعطاك أكبر ما في خزانته وأجمله وأعظمه أعطاك من غير سؤالك وهو التوحيد فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤالك؟! فاجتهد أيها العبد ألا يكون سؤالك إلا منه ولا رغبتك ولا رجوعك إلا إليه فإن الأشياء كلها له فمن شغل بغيره فقد تقطع عليه طريق الحقيقة، ومن شغل منه جعل الأشياء كلها طوع يده فتنقلب الأعيان ويقرب له البعيد ويمشي حيث أحب ويجري كما أراد، وهذا من مقامات العارفين. وقال بعضهم في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:34] أي: عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء فكيف إذا تتابعت النعم؟! وقيل: أجل النعم استواء الخلقة وإلهام المعرفة والذكر من بين سائر الحيوان ولا يطيق القيام لشكرها أحد، وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه شيطان، إن شكره يقابل نعمه كفار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البداية والتعاقب، وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله بمحمد ﷺ لا تحصوها بأن جعل السفر فيما بينه وبين السنة الأعلى والواسطة الأولى. وقال ابن عطاء: أجل النعم رؤية معرفة النعم ورؤية التقصير في القيام لشكر النعم، وقال: النعمة أزلية كذلك يجب أن يكون الشكر أزليًا، واعلم أن لك نفسًا وقلبًا وروحًا فنعمة النفس الطاعة، ونعمة القلب اليقين، ونعمة الأرواح الحكمة، ونعمة المحبة الذكر، ونعمة المعرفة الألفة والنفس في أبحر الطاعات تتنعم والقلب في أبحر النعم، والمعرفة في بحر القربة والعيان يتنعم. وروي عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم:35] يعني: أفئدة العارفين اجعلهم آمنين من الشرك آمنين من قطيعتك.

وقوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم:37] قال: ارزقهم شكر ما أوليتهم من معرفتك، ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:35] أي: نعبد الهوى. قال الدنيوري: مجارية الأصنام مختلفة، فمنهم من صنمه نفسه، ومنهم من صنمه ماله، ومنهم من صنمه ولده، ومنهم من صنمه أقاربه، ومنهم من صنمه زوجته ومنهم من صنمه ضيعة، ومنهم من صنمه صلاته وزكاته وحجه وصيامه، ومنهم من صنمه حاله، والأصنام مختلفة وكل واحد من الخلق مربوط بصنم من هذه الأصنام والتبرؤ هو ألا يرى الإنسان لنفسه خلاقًا ولا مجالاً لا يعبد من أفعاله

شيئًا ولا يسكن من حاله إلى شيء، رافعًا على نفسه باللوم في جميع ما يبدو منها من الخير والشر غير راضٍ به، وقال جعفر: لا تردني إلى مشاهدة الخلة ولا ترد أولادي إلى مشاهدة النبوة. وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ [إبراهيم:35] قال: إن الله أمر إبراهيم ﷺ ببناء الكعبة فلما بناها قال: ﴿ربَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة:127] فأوحى الله إليه: «يا إبراهيم أمرتك ببناء البيت وخصصتك من الأنبياء بذلك، ومننت عليك ووفقتك لما وفقتك له ، ودفعت عنك النار، فقيل له: ألا تستحي أن تمن عليَّ وتقول: ربنا تقبل منا، فثبتت منتي عليك وذكرت رؤية فعلك ومنتك» فمن أجل ذلك قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:35] قال: إن نفسي أشد صنم وشرها إذا تابعت هواها واشتغلت بحظها فاشغلها بك واقطعها عما سواك. وقال الجنيد: وامنعني وبني أن نرى لأنفسنا وسيلة إليك، عند الافتقار، وقال ابن عطاء: الأصنام الخلة والركون إليها وهي خطرات الغفلة وحجاب الخلة، وقال أيضًا: هي النفس لأن لكل نفس صنمها من الهوى إلا من ظهر بأنواع التوفيق. وقال في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم:36] لما ذهب فمن استبشر رأفة للمؤمنين قيل له: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ قال في قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ [إبراهيم:36] لم يطع ولكن قال: فإن من صفتك الغفران والرحمة وليس على العباد.

وقال في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:37] من انقطع عن الخلق بالكلية صرف الله إليه وجوه الخلق وجعل مودته في صدورهم ومحبته في قلوبهم وذلك من دعاء الخليل لما انقطع بأهله عن الخلق والأقارب والأسباب دعاهم فقال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:37]. وقال الخواص في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم:38] ما نُخْفِي من حبك وما نعلن من شكرك، وقال ابن عطاء: ما نخفي من الأحوال وما نعلن من الأدب، قال أبو عثمان: طهر سرك وأعمر باطنك وأصلح خفيات أمورك، فإن الله لا يخفى عليه شيء وهو الذي يعلم ما نخفي وما نعلن. وقال أحمد بن خضرويه: لو أذن الله لي في الشفاعة ما بدأت إلا بظالمي، قيل له: فكيف؟ قال: لأني قلت بظالمي لم أقله بوالدي، قيل: وما ذلك؟ قال: لعن الله تعالى في قوله: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم:42]

وقال بعض المتقدمين: الظلم على ثلاثة أوجه: ظلم مغفور، وظلم محاسب، وظلم غير مغفور، فالظلم المغفور: ظلم الرجل نفسه، والظلم المحاسب: ظلم أخاه، والظلم الذي لا يغفر: هو الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:43] قال ابن عطاء: هذه صفة قلوب أهل الحق ألا ترى أن الهوى قائم بالمشيئة والإرادة غير قائمة بعلائق فوقهما كذلك قلوب أهل الحق متعلقة به لا يقر إلا معه ولا يسكن إلا إليه ليس في قلوبهم محل لغير الله لا يساكن هوى الله ومثل قلوبهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:88] لا يلتفت إلى سواه ولا له قرار مع غير الله.

وفي قوله ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم:45] قال أبو عثمان: مجاورة

عليك أيها اللبيب المتذكر لمرتبة الأحدية التي هي ينبوع بحر الوجود أن تتذكر وتتعظ بمواعظ الكتاب الإلهي من مواعيده وإنذاراته وحكمه وأسراره؛ لتتفطن بتطوراته وتجلياته، وشئونه في مراتب تنزلاته؛ حتى يسهل لك التيقظ من المنامات العارضة والغفلات الطارئة عليك من الإضافات الحاصلة بين الشئون والتجليات المبعدة عن صرافة الوحدة الذاتية، ويتيسر لك الوصول إلى منبع جميع الأسماء والصفات، المستتبعة لأنواع الكثرات، ومرجع جميع الكائنات والفاسدات المترتبة عليها.

فاعلم أيها الطالب القاصد لسلوك طريق الهداية الموصلة إلى صفاء التوحيد الذاتي أن التوجه إليها والوقوف على أماراتها لا يتيسر إلا بعد تنبيه منبه نبيه، وإرشاد مرشد كامل خبير بصير.

لذلك جرت عادة الله، واستمرت سنته السنية على إرسال الرسل والأنبياء المؤيدين بالكتب والصحف؛ لتمكن لهم إرشاد الناقصين المنحطين عن درجة التدبر والتدرب في غوامض طرق العرفان ومغالق مسالك التوحيد، ومع ذلك لا يتيسر لهم إلا البلاغ من التبليغ والتوفيق، إنما هو من عند العزيز العليم.

وأكملُ الرسل نبينا ﷺ، وأفضلُ الكتب القرآن الجامع المنزل عليه، الناسخ لجميع ما نزل قبله من الكتب؛ لذلك قال سبحانه على سبيل العموم: ﴿هَٰذَا﴾ [إبراهيم: 52] أي: القرآن ﴿بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:52] أي: كامل في التبليغ والإرشاد لقاطبة الأنام إلى توحيد الملك العلام، فلك أن تتأمل فيه وتتذكر به على الوجه المأمور؛ لتتمكن في مقعد الصدق عند الملك الغفور.

الفساق وأهل المعاصي من غير فسق الكافر ومعصيته مستقرة في القلب؛ لأن الله تعالى ذم قومًا من عباده، وقال: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم:45] ولم يعذر من أقام فيها، وقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء:98] ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:52] ذلك لما يظهر من كشف حقائقه من بني آدم من أحبائه وأوليائه؛ لأن الأرض والسماوات لا تصير لما يظهر عن الأبدان من أنوار الحق، وقال جعفر: موعظة الحق وإنذار لهم ليجتنبوا أقران السوء ومجالسة المخالفين، فإن القلوب إذا تعودت مجالسة الأضداد تدنس، وقال بعضهم: كشف للخلق ما يبدو لهم وأمروا به.

سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الحجر

لا يخفى على ذو التمكن والاطمئنان من أرباب التوحيد والعرفان، الواصلين إلى مرتبة التحقيق والإيقان أن أصحاب التقليد والتلوين، المترددين في مضيق الحسبان والتخمين متى ظهر عندهم ولاح عليهم أمارات تسليم أرباب التوحيد المفوضين أمورهم كلها إلى الله، وشاهدوا من ظواهر أحوالهم في أوصافهم وأفعالهم أمارات الاعتدال، وعلامات الرضا والتسليم تمنوا أن يكونوا أمثالهم وعلى أوصافهم وأخلاقهم، وأحبوا أن يتدينوا بدينهم، ويتخلقوا بأخلاقهم؛ لعدم رسوخهم فيما هم فيه من التقليدات الباطلة، والتخمينات العاطلة الموروثة لهم من آبائهم وأسلافهم، ويتفطنوا من أنفسهم التزلزل والتذبذب في ظنونهم وجهالاتهم، إلا أنهم من شدة شكيمتهم وضغينتهم وخبث طينتهم لم يقدموا على قبول الإيمان والتدين بدين الإسلام، مع نزول الآيات الظاهرة الدالة المثبتة لحقية وورود المعجزات الباهرة المبينة لصدقه ومطابقته للواقع.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ على وجه التنبيه بما يدل على تأييده وتعضيده في أمره، وأوصاه بترك مكالمتهم ودعوتهم، وبشّره بإهلاكهم وانتقامهم، فقال متيمناً باسمه العظيم: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الموقف لعباده على مقتضى مشيئته ومراده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم بتبيين دلائل دينه على مقتضى استعداداتهم وقابلياتهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوفقهم على الاتصاف به وقبوله.

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ

مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر: 1 - 12].

﴿الر﴾[1] أيها الإنسان الأفضل الأكمل، الأليق لأن يفيض عليه سبحانه لطائف رموزات أسرار الربوبية، ولوائح رقائق سرائر الألوهية اللامعة اللائحة من مقر الرحمة العامة، والكرامة الكاملة الشاملة ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المذكورة في هذه السورة ﴿آيَاتُ الكِتَابِ﴾ أي: بعض آيات الكتاب الجامع الناسخ للكتب السالفة ﴿وَ﴾ آيات ﴿قُرْآنٍ﴾ فرقان فارق بين الهداية والضلالة، والرشد والغي ﴿مُبِينٍ﴾ [الحجر:1] ظاهر البيان لأولي البصائر المتأملين في حكم إيجاد الموجودات، سيما الإنسان الكامل المميز الممتاز بأنواع الفضائل والكرامات، سيما العقل المفاض له من العقل الكلي ليتوجه به نحو موجده، ويتدبر به أمر مبدئه ومعاده، ومن لم يصرفه إلى ما خُلق لأجله، وجبل لمصلحته فقد كفر وضل ضلالاً بعيدًا بمراحل عن مرتبة الإنسانية؛ وذلك من غاية انهماكهم في الغفلة، وعمههم وسكرتهم بمزخرفات الدنيا الدنيّة.

وحين فاقوا عن سكرتهم وعمههم أحيانًا ﴿رُبَمَا يَوَدُّ﴾ أي: قلما يحب ويستحسن

(1) قال روزبهان: ﴿ الر﴾ فهم النقد بما يرى من فلق الإلهام إخبارًا كَبِر بصورة الألف واللام والراء، إن الله سبحانه بيّن كالألف بحر الإثبات؛ لأنه خبر عن الأولية، ألا ترى كيف قدمها على أول أسمه الله، وبيّن باللام بحر النفي؛ لأنها شقيقة لام لا، وبين بالراء بحر كشف الربوبية، وظهور أنوار الرؤية، وهذه من شرائط المعرفة، فمَنْ لم يسبح في بحر النفي بنعت الفناء لوجدان عين الحقيقة، وحق البقاء لا يبلغ إلى بحر الربوبية، ولا يدرك لطائفها، ولا يصل إلى عيان كشف الرؤية بحقائقها، وقد انقلبت هذه الحروف من أماكنها إيهامًا، وإشارة لفهوم الفهماء، وإدراك العلوم والعلماء، ألا تراها في نص صورة الإيمان، كيف كانت أولها لا إله، ثم ذكر محل الإثبات بالألف إلا الله، ولم يذكر الزاي؛ لأن الأكثرين استغرقوا في البحرين ولم يصلوا إلى البحر الثالث، لأجل ذلك لم يذكر الراء في هذه الكلمة، وهذا سر عجيب لا يعرفه إلا أهل السر من أهل التوحيد، وهي أصل الكتاب؛ لأن الكتاب جاء مخبرًا بمجموعة عن أسرار ما بلسان صاحب الواقعة ﷺ.

على وجه التمني ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] أي: ستروا الحق، ولم يصرفوا عقولهم إلى كشفه ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:2] مصرفين عقولهم إلى معرفة الله، ومفوضين أمورهم كلها إليه، ومتوكلين على الله في جميع حالاتهم، لكن من شدة طغيانهم، ونهاية غوايتهم وخسرانهم لم يقبلوا دعوتك، ولم يؤمنوا بك وبكتابه يا أكمل الرسل عنادًا واستكبارًا؛ حتى ينجو من خذلان الدنيا وخسران الآخرة.

﴿ذَرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل وشُغلهم في دنياهم ﴿يَأْكُلُوا﴾ من مأكولاتها المورثة لأنواع المرض في قلوبهم ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بمزخرفاتها الفانية ولذاتها الوهمية ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ ويشغلهم عن الاشتغال بالطاعات، ويحرمهم عن اللذات الأخروية مطلقًا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:3] قبح صنيعهم، وسوء فعالهم حين انكشف الأمر وتبلى السرائر، فحينئذٍ يتنبهون بما فوتوا لأنفسهم من اللذات الروحانية بإعراضهم عن الله وكتابه ونبيه.

﴿وَ﴾ من سنتنا القديمة: إنَّا ﴿مَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر:4] أي: ما أردنا إهلاك قرية من القرى الهالكة إلَّا وكتبنا أولاً في لوحنا المحفوظ، وعلمنا القديم لإهلاكها أجلاً معلومًا ووقتًا معينًا.

بحيث ﴿مَا تَسْبِقُ﴾وما تتقدم ﴿مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ الذي عين لإهلاكها ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر:5] عنه، بل متى وصلوا إليه هلكوا حتمًا، بحيث لايسع لهم التقديم والتأخير أصلاً.

﴿وَ﴾كيف لا نهلكهم ونعذبهم بأشد العذاب ولا ننتقم عنهم؛ إذ هم ﴿قَالُوا﴾ حين دعوتك إياهم وإلقائك إليهم شعائر الإيمان والإسلام منادين لك، مستهزئين معك متهكمين: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ النبي ﴿الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ من عند ربه ﴿الذِّكْرُ﴾ أي: الكتاب المبين له أمثال هذه الكلمات التي نسمع منك ﴿إِنَّكَ﴾ في دعوتك وادعائك النبوة والكتاب ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:6] مخبط مختل العقل، يخبطك الجن، ويعلمك أمثال هذه

---

(1) اعلم أن (رُبَّ) مثقلة أو مخفَّفة إذا دخلت على المضارع تكون للتقليل، فقال المفسرون: معنى قلة، وداوتهم أنهم كالسكارى من ورود الشدائد الكثيرة المتعاقبة، فإذا صاروا إلى أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، تمنوا ذلك، وإلا كان من شأنهم أن يتمنوا ذلك في جميع أوقاتهم، لا في بعض الأحيان.

الكلمات والحكايات، تخيلت أنهم ملائكة ينزلون إليك بها، وإن اطلعت على الملائكة وصاحبت معهم، مع أنك بشر مثلنا؟!.

﴿لَّوْ مَا﴾ أي: هلّا ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ المنزلين إليك ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر:7] في دعواك حتى نراهم ونسمع قولهم، مثل رؤيتك إياهم.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ لكل واحد من البشر، بل لمن نؤتى الحكمة منه له في أصل فطرته واستعداده، وهم الأنبياء والرسل المأمورون بالإرشاد والتكميل، ومانتزلهم ﴿إِلَّا﴾ تاييدًا لهم ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالدين الثابت المطابق للواقع؛ ليتدين بدينهم من يتبعهم، ويؤمن لهم إطاعةً وانقيادًا، ولو اطلع الكل على نزولهم، ورأوا صورهم لبطل حكمة الإطاعة والإرسال والتكميل؛ إذ الكل في الرشد والهداية على السواء حينئذٍ ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر:8] منتظرين إلى يوم الجزاء؛ إذ الكل ناجون مهديون في النشأة الأولى.

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾[1] أي: الكتب على الأنبياء والرسل على وجه يعجز البشر عن إتيان مثله؛ لكون ألفاظه ومعلوماته، ونظمه واتساقه خارجة عن مقتضيات مداركهم وعقولهم؛ لذلك ينسبون أكثر الأنبياء والرسل إلى الجنون والخبط ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9] عن تحريف أهل الزيغ والضلال المنحرفين عن جادة التوحيد.

﴿وَ﴾ لا تحزن يا أكمل الرسل من استهزائهم معك وتكذيبهم، فإنهم من الديدنة القديمة بين أهل الضلال، فإنا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ رسلاً حين شاع أنواع الفسوق والعصيان ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:10] أي: فتتهم وفرقهم.

---

(1) الذكر صفته، وصفته قائمة بذاته، وهو منزّه عن تغيير كل مغيرات، نزّلنا القرآن في قلوب العارفين وصدور الموقنين وأسرار الموحدين وإنا له لحافظون، من مخالفتهم القرآن يحفظ قلوب الصدِّيقين والصادقين بما حفظ قرآنه عن شكوك النفس، ومغالطة الشياطين، وحركات الضمائر بالخطرات المذمومة، وأيضًا كاشفنا عن أسراره في قلوب أوليائي، وبما كشفنا منه لهم حافظون بحفظها في صميم أسرارهم، ويحفظ أسرارهم عن غير فهم حقيقي.

قال ابن عطاء: نحن أنزلنا هذا الذكر شفاءً وبيانًا وقرآنًا وفرقانًا؛ ليهدي به من كان موسومًا بالسعادة، منور بتقديس السر عن المخالفة، وإنا له لحافظون، وإنَّا نحفظه في قلوب أوليائه، ونستعمل به جوارح الخواص من عبادنا. يقال: أخبر أنه حافظ القرآن، وإنما يحفظه بقراءته، فقلوب القراء خزائن كتابه، وهو لا يضيع حفظة كتابه، فإن في تضيعهم تَضْيِيع كتابه.

﴿وَ﴾ هم من خبث طينتهم، وشدة شكيمتهم وضغينتهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر:11] بأنواع الاستهزاء من نسبة الكذب والجنون، وأنواع العيوب.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ وندخله ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر:12] الذين تعلقت إرادتنا ومشيئتنا بإهلاكهم وتعذيبهم على مقتضى أوصافنا القهرية والجلالية.

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحجر: 13 - 25].

لذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالرسول المنزل إليهم ﴿وَ﴾ كيف يؤمن بك يا أكمل الرسل هؤلاء الكفرة؛ إذ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:13] أي: سنة الله في الكفرة الماضين، أو سنة كل فرقة من أسلافهم، وهم أيضًا على أثرهم وطبقهم تقليدًا لهم؟!.

﴿وَ﴾ من خبث طينتهم، وفسوقهم وغفلتهم ﴿لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: على هؤلاء المستهزئين المنهمكين في الغي والضلال ﴿بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ على خلاف العادة ليؤمنوا بك وبدينك وكتابك ﴿فَظَلُّوا فِيهِ﴾ وصاروا ﴿يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر:14] يصعدون منه نحو السماء، ويستوضحون ما فيها.

﴿لَقَالُوا﴾من شدة غيهم وضلالهم: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾ وحيرت ﴿أَبْصَارُنَا﴾ بسحر محمد وتلبيسه، وإنما فُعل بنا هذا؛ لنؤمن له، ونصدق قوله وكتابه، ونقبل دينه ﴿بَلْ﴾

أمرنا كذلك بلا شك وتردد؛ إذ ﴿نَحْنُ﴾ بمشاهدة هذا الفتح والعروج ﴿قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:15] مغبوطون مخبوطون، لبس علينا الأمر هذا الشخصُ بالسحر والشعبذة.

ثمَّ قال سبحانه امتناناً لعباده بتهيئة أسباب معاشهم: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾ وقدرنا ﴿فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ اثني عشر تدور وتتبدل فيها الشمس في كل سنةٍ شتاءً وصيفًا، ربيعًا وخريفًا، والقمرُ في كل شهر تتميمًا لأسباب معاشكم، وتنضيجًا لأقواتكم وأثمّاركم ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي: حسَّنا نظمها وترتيبها، وهيئاتها وأشكالها ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾[1] [الحجر:16] المتأملين في كيفية حركاتها ودوراتها وانقلاباتها؛ ليستدلوا بها على قدرة مبدعها، ومتانة أمر صانعها ومخترعها إلى أن ينكشفوا بوحدة المظهر ورجوع الكل إليه.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿حَفِظْنَاهَا مِن﴾ اطلاع ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾[2] [الحجر:17] على

(1) قال الورتجبي: أخبر بجلاله وعز كبريائه عن سموات الذات، وأبراج الصفات، وأنه كشف أنوارها وأسرارها لنظّار الأرواح والعقول والقلوب؛ لتسير في أبراجها بقدر قوتها من قوى السعادة والتوفيق، فكواكب الأرواح تسري في أبراج الأزليات والأبديات، ونجوم العقول تسير في أبراج أنوار العظمة والكبرياء، وسيارات القلوب تسير في برج سنا الجلال والجمال، وأقمار الأسرار وشموسها تسير في بروج سبحات الذات، فتحصيل الأرواح من أماكنها وسيرها التوحيد والتجريد والتفريد، وتحصل العقول من سيرها المعارف والكواشف، وتحصل القلوب من سيرها العشق والمحبة والشوق والخوف والرجاء والقبض والبسط والعلم والخشية والأنس والانبساط، وتحصل الأسرار من سيرها الفناء والبقاء والسكر والصحو، ولكل عارف وموحد ومحب وشائق وصادق ومخلص ومريد من كل برج من أبراج الصفات له نظر وفهم وعلم ومعرفة وكشف ومقام وعمل ونطق وإشارة وعبادة وجد وحال وأدب وأفعال وما لا يتناهى من دنيات ثمارها المشاهدات ولطائفها المكاشفات؛ لأن منابعها الصفات التي منزهة عن الحدود والعلات، ومَنْ سار في أبراج الصفات يرى منابع الصفات، وهي عيون ألوهية الذات، سبحان من عظم شأنه وتقدست أسمائه وصفاته وذاته عن أوهام الخليقة، ومن إدراك قلوب البرية، وذلك قوله بوصف تنزيهه: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

(2) قال الورتجبي: منع كشف جمال صفاتها وجلال ذاتها عن أبصار البطّالين والمدّعين والمبطلين الزائغين عن الحق المقبلين على الخلق، هذا من أعالي دقائق الإشارات، وإشارة الأدنى أنه تعالى جعل في سماء الأرواح أبراج أنوار تجلي صفاته وذاته، فسيارات أنوار الصفات والذات تسير في أبراج همها، وجعل تلك الأبراج منورة مزينة بزينة نور الصفات والذات لسكان أرض القلوب من أنظار العقول؛ لترى العقول في ترائيها أقمار الصفات وشموس الذات من حيث التجلي لا من حيث كينونة الحلول، فتستشرف على أسرار معارف جوده ووجوده، فلكل نظر

ما فيها من السرائر والحكم المودعة.

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ﴾ واختلس من الشياطين ﴿السَّمْعَ﴾ والاستطلاع من سكان السماوات، وتكلف في الصعود والرقي نحوها ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ من كمال قهر الله إياه ﴿شِهَابٌ﴾ جذوةُ نارٍ على مثال كوكب ﴿مُّبِينٌ﴾ [الحجر:18] ظاهرٍ عند أولي الأبصار زجرًا له، ومنعًا عن الاستطلاع بالسرائر.

﴿وَالْأَرْضَ﴾ أيضًا ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ أي: مهَّدناها وبسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ شامخات لتقررها وتثبيتها؛ ولتكون مقرًا للمياه والعيون، ومعدنًا للجواهر ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:19] مطبوعٍ ملائمٍ، تستحسنها الطباع وتستلذ به.

﴿وَ﴾ إنما ﴿جَعَلْنَا﴾ وخلقنا كل ذلك؛ أي: العلويات والسفليات؛ ليحصل ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ تعيشون بها، وتقومون مزاجكم منها؛ لتتمكنوا وتقدروا على سلوك طريق التوحيد والعرفان الذي هو سبب إيجادكم، والباعث على إظهاركم؛ إذ ما خُلقتم وجُبلتم إلَّا لأجله ﴿وَ﴾ كذا معايش ﴿مَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر:20] من أخلاقكم وأولادكم، وإن كنتم تظنون أنكم رازقون لهم ظنًا كاذبًا، بل رزقكم ورزقهم ورزق جميع من في حيطة الوجود علينا.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون رزق الكل علينا ﴿إِن مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما من رطب ولا يابس مما يطلق عليه اسم الشيء ﴿إِلَّا عِندَنَا﴾ أي: في حيطة قدرتنا ومشيئتنا ﴿خَزَائِنُهُ﴾[1]

منها فائدة في القلوب من المواجيد والحالات والمعاملات والمقامات، مثل الوجل والخشية والندم والرهبة والرغبة والمراقبة والمحاضرة والخطاب والشهود والوقوف بأسرار العبودية والربوبية، فنعت تلك القلوب بما رأت تلك العقول من أبراج سماء الأرواح الوجد والهيجان والهيمان والوله والزفرات والعبرات، صواحبها أوتاد الأرض ونقباء الأولياء وأصفياء الحضرة شمائلهم أنوار جود الله، يظهر من وجوههم سنا وجود الله، سبحان الله، من هم وأين مأواهم؟ طوبى لهم، ثم طوبى لهم ثم بفضله وجوده وحفظ تلك البروج من هواجسات النفوس ووساوسات الشياطين.

(1) قال الورتجبي: قال ابن عطاء: في هذه الآية النظر إلى شواهد القسم أسكنت بالنفوس عن الحكم. وقال سهل: أخص خزائن الله في الأرض قلوب أوليائه التي هي محل معرفته وغيبه ومحل نظره، فمَنْ حفظ تلك الخزانة بالذكر الدائم والمراقبة عمّر الله قلبه بالرجوع إليه على دوام الأوقات والأعراض عما سواه. وقال: خزائنه في الحقيقة مقدوراته وهو سبحانه قادر على كل ما هو موهوم الحدوث. ويقال: خزائنه في الأرض قلوب العارفين بالله في الخزانة جواهر

أي: مخزونات كل شيء عندنا لا ينتهي قدرتنا دون مقدور، بل لنا القدرة الكاملة بإيجاد الخزائن من كل شيء ﴿وَ﴾ لكن اقتضت حكمتنا أنا ﴿مَا نُنَزِّلُهُ﴾ ونظهره ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21] عندنا، وفي حيطة علمنا، وأجل مقدر لدينا لا اطلاع لأحد عليه؟!.

﴿وَ﴾من بدائع حكمتنا، وعجائب صنعتنا ﴿أَرْسَلْنَا﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿الرِّيَاحَ﴾ الهابة في فصل الربيع ﴿لَوَاقِحَ﴾ أي: ملقحات تجعل الأشجار حوامل بالأثمار ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ بعد صيرورتها حوامل ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ لتربيتها وتنميتها ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي: وقت الصلاح والحصاد ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ﴾ أي: للماء ﴿بِخَازِنِينَ﴾[1] [الحجر:21] حافظين؛ أي: ليس في وسعكم وطاقتكم حفظه في الحياض والغدائر، وكذا إلقاح الأشجار وإنباتها وسقيها وإصلاحها، وجميع ما يحتاج إليها، إذ ليس عندكم خزائن كل شيء.

﴿وَ﴾ أيضًا من غرائب مبدعاتنا ﴿إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ ونظهر على مقتضى أوصافنا اللطفية البسيطة ﴿وَنُمِيتُ﴾ ونعدم على مقتضى أوصافنا القهرية القبضية ﴿وَنَحْنُ

من كل صنف، فحقائق العقل جواهر ومنعها في قلوب أقوام، ولطائف العلم جواهر، وبدائع المعرفة جواهر، وأسرار العارفين مواضع سره، فالنفوس خزائن توفيقه، والقلوب خزائن تحقيقه، واللسان خزائن ذكره.

ويقال: أرواح قلوب الفقراء عن تحمل المنّة من الأغنياء فيما يعطوهم، وأرواح الأغنياء عن مطالبة الفقراء منهم شيئًا، فليس للفقير صرف القلب من الله إلى مخلوق، ولا افتقار منه لأحد، ولا للغني بقليل منه لأخذ ذلك الملك كله لله، والأمر بيد الله فلا قادر على الإبلاغ إلا الله.

(1) قال البقلي: غرس في قلوب أوليائه أشجار المعرفة التي هي من بساتين غيب ملكوته وجبروته، ثم أرسل عليها رياح لطفه بكشف جماله لها؛ فتلقح بشمال جماله أشجار معرفتهم ثمار محبته وشوقه وعشقه، ثم سقاها بمطر عنايته من بحر كرمه حتى أثمرت كل غصن منها حكمة من حكمه وعلمًا من علومه، وخبرًا من غيبه، وسرًّا من أسراره، وحقيقة من حقائقه بها نسائم الأنس، ونورها لطائف القدس، وزهرها من لوائح إنصاف، ووردها من لوامع الذات، وفواكهها حياة مرضي المريدين تشفيهم من داء الفراق، وتربيهم بترياق الوفاق، فكل سالك عارف عاشق محب واله سقاه الحق من مطر لطفه من بحار كبريائه شربات مفرحات الأفراح بأقداح الأرواح؛ فيصير سكران جماله من حب جلاله هائمًا من شوقه إلى وصاله، فلا العاشق الشائق يسكن من سكره، ولا من سقي شرابه، ولا ينقص بحر وصاله من شرب عاشق جماله وكمال جلاله.

﴿الْوَارِثُونَ﴾[1] [الحجر:23] الباقون بعد انتهاء المظاهر وفنائها بعد الطامة الكبرى.

﴿وَ﴾ من كمال علمنا وخبرتنا أنا ﴿لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ المتقدمين في الوجود ﴿مِنكُمْ﴾ أي: من أسلافكم، بل من شئونكم ونشأتكم التي في أصلاب آباءكم وأرحام أمهاتكم، بل استعداداتكم في ذرائر العناصر، بل حصصكم من الروح الأعظم ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر:24] المتأخرين منكم في الوجود على الوجه المذكور.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿هُوَ﴾ المطلع بسرائر الماضي والحال والمستقبل ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ في المحشر وموعد القيامة، والحساب والجزاء، وكيف لا ﴿إِنَّهُ﴾ في ذاته وأوصافه وأفعاله ﴿حَكِيمٌ﴾ متقن الفعل، متين الصنع ﴿عَلِيمٌ﴾ [الحجر:25] لايعزب عن حيطة حضرة علمه شيء؟!.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ

---

(1) قال البقلي: نحي بمشاهدتنا قلوب المنقطعين من موت الفراق، ونميت نفوس المريدين بالخوف عنا وقهر عظمتنا عن حياة الشهوات، وأيضًا نحي الأرواح بتجلي بقائنا عن موت فنائها في مشاهدة قدمنا، ونفنيها عن حياتها بمشاهدة البقاء برؤية قدمنا وأزلنا، نحي أسرار العارفين بجمالنا ونميتها باحتجاب مشاهدة جلالنا عنها، ونحن الوارثون ما عليها من أحكام الربوبية وما لها من أحكام العبودية، قال الواسطي: نحي مَنْ نشاء بنا، ونميت من نشاء عنه، قال بعضهم: نحي أقوامًا بالطاعة ونميت أقواما بالمعصية، وقال البراق: نحي القلوب بنور الإيمان ونميت الأنفس بإتباع الشهوات، وقال أبو سعيد الخرّاز: الحي من العباد من الحق حياته، والميت منهم من جر كأنه بقاؤه. وقيل: نحي القلوب بالمشاهدة، ونميت النفوس بالاستار، وقال سهل: نحي أهل الصفوة بمعرفتنا والإقبال علينا، ونميت المخالفين بإنكارنا والإعراض عنا، وقال: أيضًا نحي النفوس السعيدة متابعة القلوب الرضية، ونميت النفوس الشقية بمتابعة الهوى والشهوات، وقال الأستاذ: نحي القلوب بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة. ويقال: نحي المريدين بذكره، ونميت الغافلين بهجره. ويقال: نحي قومًا بأن يلاطفهم بلطف جماله، ويميت قوما بأن يحجبهم عن نيل أفضاله.

رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: 26 – 41].

ثمّ قال سبحانه امتنانًا لكم، وتنبيهًا عن دناءة منشأكم، ثمّ على شرف مكانتكم وعلو شأنكم: أيها المكلفون من الثقلين، القابلون للإيمان والمعارف ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ أي: أظهرنا جنسه، وقدرنا جسمه ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ أي: طين يابس مصوتٍ من غاية يبسه وبقائه على حر الشمس، متخذٍ ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[1] [الحجر:26] أي: من طين أسود منتن كريه الرائحة، يستكره ريحه جميع الحيوانات.

---

(1)غلظ الملعون في دعواه بخالص العبودية والمعرفة بالوحدانية، وإفراد القدم عن الحدوث؛ لأنه ظن أن محض العبودية صورة السجود والركوع، ولم يعلم أن متابعة أمره بأوجه، هي خالص العبودية، وينبغي أن يتابع أمر معبوده، ولم يأمر بشد الزنار مثلاً، ولا يبالي بأن يشد على وسطه الزنار؛ لأن العاشق الصادق يأخذ أمر معشوقه، ولا يخالفه في جميع مراده، ولو كان مشفقًا على محبوبه بأن يخلص عبادته له، فإذا رد قوله ونازع إرادته كيف له شفقة على محبوبه يا ليت لو رأى في مكان الأمر جلال الأمر؛ فإن آدم ﷺ كان قبلة الظاهر كالكعبة، ولا يقع السجود إلا في مشاهدة الربوبية؛ لأنه قال: هو أهله لا غير ومقام إلا من مقام الامتحان، وظن الملعون أنه مستحكم في توحيده حيث لم يسجد لغيره، وهناك لا غير لأن في حقيقة عين الجمال ما هو إلا هو، ولو كان نظره صحيحًا لم يلتفت إلى الوسائط؛ لأنه في عين الجمع الدليل والمدلول واحد من حيث الحقيقة لا من حيث الرسوم، فيبقى الملعون جاهلاً عن معرفته عين الجمع، وقد غلط أيضًا إفراده عن الحدوث؛ لأنه كان محجوبًا بنظرين، نظر إلى آدم ﷺ، ونظر إلى نفسه؛ فأما نظره إلى آدم ﷺ قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ﴾، وأما نظره إلى نفسه قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، ولو كان صحيح القول في نظره إلى عين الوحدانية يسقط عنه رؤية الغير في البين، ظن أنه عالم بالله، وقد وصل إلى عين الحقيقة، ولم يعرف أنه ما وصل إلى أدني المقامات، ولو كان في محل التحقيق ما أحاله الحق إلى خدمة حادث من الحدثان، حرفه أنه لم يكن أيضًا مبتدأ من أهل الإرادة في أول درجات العبودية، ولو كان صادقًا في إرادته لأكل تراب قدم آدم ﷺ؛ لأن المريد ملهوف واله بإرادته ومحبته لمقتداه، ولكن إيش ينفعه، وهو كان مريدًا لا مريدًا؛ لأنه كان معجبًا برأيه، ناظر إلى نفسه في إرادته وعبادته، فقد حصل له الإنكار على مشايخه في زمانه، وسقط من عين الحق وعيون أصفيائه إلى صهوات الرياسة والضلالة، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهدى، ومن الرياء بعد الإخلاص.

﴿وَالْجَانَّ﴾ أي: جنسه أيضًا ﴿خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إيجاد الإنسان من مادة أدنى أيضًا؛ إذ هو متخذ ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:27] أي: شديد الحر متناه فيه.

انظروا أيها المعتبرون إلىٰ نشأتكم ومادتكم ﴿وَ﴾ اذكروا تشريف ربكم إياكم وقت ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ يا أكملَ الرسل، خصه سبحانه رسول الله ﷺ بالخطاب؛ للياقته وكمال استحقاقه أن يكون مخاطبًا معه، كأنه لجمعية مرتبته عمومَ مراتب بني نوعه، عبارةُ عن جميعهم ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على سبيل الإخبار والتعليم: ﴿إِنِّي﴾ لمطالعة جمالي وجلالي، وجميع أوصاف كمالي على التفصيل ﴿خَالِقٌ﴾ ومقدرُ ﴿بَشَرًا﴾ أي: تمثالاً متخذًا ﴿مِّن صَلْصَالٍ﴾ متخذة ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:28] بعيدٍ بمراحل عن مقاربتي ومقارنتي؛ إذ هو أخس الأشياء وأدونها.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي: عدلته وكملت هيكله وشكله ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ورششت عليه من رشحات نور وجودي ليكون حيًا بحياتي، ومرآة لي أطالع فيها جميع أسمائي وأوصافي ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:29] فعليكم أن تضعوا جباهكم على تراب المذلة عنده تعظيمًا له وتكريمًا.

ولما سمعوا الأمر الوجوبي القطعي ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ بلا طلب مرجح ودليل ﴿كُلُّهُمْ﴾ بلا خروج واحد منهم ﴿أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:30] مجتمعون معًا بلا تقدم وتأخر، وتردد وتسويف.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي هو منهم تبعًا لأصالته ﴿أَبَىٰ﴾ عن السجود، وامتنع ﴿أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:31].

ثمَّ لما تخلف إبليس، وركن عن أمر الله ﴿قَالَ﴾ سبحانه توبيخًا وتقريعًا: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ أي: أي: شيء عرض لك يا إبليس ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: 32] الخاضعين الواضعين جباههم على تراب المذلة امتثالاً للأمر الوجوبي؟!.

﴿قَالَ﴾ إبليس محتجًا على الله، طالبًا للرجحان والمزية على سبيل الإنكار والتعريض: ﴿لَمْ أَكُن﴾ أي: لم يصح مني، ولم يستحسن عني، ولم يلق لمرتبتي ﴿لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾ جسماني ظلماني كثيف ﴿خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ﴾ أكثف وأظلم منه، وأخذت الصلصال ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:33] لا شيء أظلم منه وأبعد عن ساحة عز القبول، والتمثالُ المشتمل على هذه الظلمات المتراكمة لا يليق أن يَخضع ويسجد له الروحاني النوراني.

﴿قَالَ﴾ سبحانه طردًا له وتبعيدًا: إذا تخلفت يا إبليس عن أمري، وخرجت عن مقتضى حكمي ﴿فَاخْرُجْ﴾ أيها المردود ﴿مِنْهَا﴾ أي: من بين الملائكة، ولا تعد نفسك من زمرتهم، فإنهم مقبولون مطيعون، وأنت مردود ومطرود ﴿فَإِنَّكَ﴾ بتخلفك عن مقتضى أمرنا ﴿رَجِيمٌ﴾ [الحجر:34] بعيد عن رحمتنا وكرامتنا.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ والطرد والتخذيل، نازلةٌ مستمرة ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر:35] مقرك ومقيلك النار المعدة لك، ولمن تبعك من عصاة العباد.

ثم لما آيس إبليس عن القبول، وقنط عن رحمة الله ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا متحسرًا متأوهًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربَّاني بأنواع الكرم والنعم، فكفرت نعمك بمخالفة أمرك ﴿فَأَنظِرْنِي﴾ وأمهلني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر:36] ويحشرون؛ لأغوي بني آدم، وأنتقم عنهم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الحجر:37] لتكون عبرة للعالمين.

﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر:38] أي: إلى وقت لا يمكن فيه تلافي التقصير، وكسب الزاد للمعاد، وتهيئة الأسباب ليوم الميعاد.

قيل: هي النفخة الأولى لحشر الأجساد.

﴿قَالَ﴾ إبليس مقسمًا مبالغًا: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: بحق قدرتك التي أغويتني وأضللتني بها، وأحطتني عن رفعة منزلتي، وأخرجتني من بين أحبتي وإخوتي ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أعمالهم الفاسدة، وأحسن عليهم الأفعال القبيحة ﴿فِي الأَرْضِ﴾ وأغرينهم إلى ارتكاب أنواع المفاسد والمقابح عليها، وأصناف الجرائم والآثام المائلة إليها نفوسهم طبعًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ وأضلنهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:39] بحيث لا يشذ عنهم أحد من ذوي النفوس الأمارة.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1] [الحجر:40] المخلصين رقابهم عن ربقة

---

(1) الحاصل: إن عباد الله منهم المخلِصون بكسر اللام؛ وهم الصادقون؛ بمعنى إنهم تخلَّصوا عن شوائب النفسانية في أعمالهم وأحوالهم، وهم على خطر في الجملة لبقاء شيء من نفوسهم، ومنهم المخلَصون بالفتح؛ وهم الصدِّيقون؛ بمعنى أنهم تخلَّصوا عن شوائب الغيرية، كما تخلَّصوا عن شوائب النفسانية، فهم فانون عن نفوسهم، باقون بربهم لا يد للشيطان عليهم أصلاً؛ لأن الشيطان إنما يخدم النفس؛ لأنها الأصل في الفساد، فإذا كانت حركات عن صفاتها الرذيلة؛ عزل الشيطان نفسه عن تلك النفس المطمئنة؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان.

ولقد غلب عاصم على غيره من القُرَّاء في قراءة الفتح، ولله درّه معرفة، فإن المستثنى من العباد؛

الأمارة، المطمئنين المتمكنين في مقام الرضا والتسليم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه على مقتضى إشفاقه ورحمته: ﴿هَذَا﴾ أي: إخلاص المخلصين المطمئنين، الراضين بما جرى عليم من قضائي ﴿صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ وطريق موصل إلى توحيدي، ووحدة ذاتي واستقلالي في آثار أوصافي وأسمائي ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:41] لا عوج فيه أصلاً، من توجه إليّ عن هذا الطريق فاز ونجا، بحيث لا يعرضه الضلال والانحراف أصلاً، وكيف يعرضه؛ إذ هو من خلّص عبادي؟!.

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الحجر:42 – 58].

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ الذين هم تحت قبابي ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ أيها المضل المغوي ﴿عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: استيلاء وغلبة ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ﴾ [الحجر:42] الضالين بإغوائك عن منهج اليقين، وهم وإن كانوا من جنسهم صورةً ليسوا منهم حقيقةً.

إنما هو هم لا غيرهم، وإن كان غيرهم أيضًا ممّن يتذكّر ويُبصر؛ لكن أين المخلط من غيره، فإنه ما دامت بقيّة من النفس؛ فصاحبها غير محفوظ بالكلية، وقد عُرف بين الأولياء إن الكُمّل محفوظون؛ بل معصومون إلا أن العصمة تُقال في الأنبياء، والحفظ في الأولياء فرقًا بين المقامين.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:43] أي: تابعًا ومتبوعًا.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ على عدد مداخلها من الشهوات السبعة المقتضية إياها، المذكورة في كريمة ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران:14].

﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾ من الأبواب السبعة الجهنمية ﴿مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:44] أي: طائفة مفروزة منهم بالدخول من كل بابٍ، وإن كان الكل شريكًا في الكل.

ثمّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المخلِّصين نفوسهم عن وسوسة الشياطين ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ متنزهاتٍ من العلم والعين والحق ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الحجر:45] جاريات من زلال الحقائق والمعارف، صافياتٍ عن كدر الرياء ودرن التقليدات.

ويقول لهم الملائكة حين وجدانهم متصفين بحلية التقوى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: سالمين عن شدائد الحساب وصعوبته ﴿آمِنِينَ﴾[1] [الحجر:46] عن خوف العذاب والعقاب.

﴿وَ﴾ كيف لا يكونون سالمين آمنين، إذ ﴿نَزَعْنَا﴾ وأخرجنا بنور الإيمان والتوحيد ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾ وضمائرهم ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: حقدٍ وحسدٍ متمكن في نفوسهم، متعلق لبني نوعهم حتى صاروا ﴿إِخْوَانًا﴾ أصدقاء متكئين ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ متساوية من الصداقة ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:47] متناظرين مطالعين كل منهم في مرآة أخيه محامد أخلاقه، ومحاسن شيمه.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: محنة وعناء حتى يشوشوا بها ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:48] حتى يخافوا منه، بل هم فيها خالدون مخلدون، مستمرون ما شاء الله.

ثمّ قال سبحانه تسليةً لعموم عباده، وتبشيرًا لهم بسعة فضله ورحمته: ﴿نَبِّئْ﴾

---

(1) قال في التأويلات: أي: بجذبات العناية والسلام من الله هو الجذبة الإلهية آمنين من موانع الدخول والخروج بعد الوصول وفيه إشارة إلى أن السير في الله لا يمكن إلا بالله وجذباته كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج تأخر عنه جبريل في سدرة المنتهى وبقي عند الرفرف في مقام قاب قوسين ما وصل إلى مقام أو أدنى وهو كمال القرب إلا بجذبة أذن مني فبسلام الله سلم من موانع الدخول والخروج بعد الوصول.

أي: أخبر وأعلم يا أكمل الرسل المبعوث على كافة الأمم عموم ﴿عِبَادِي﴾ مؤمنهم وكافرهم، مطيعهم وعاصيهم ﴿أَنِّي﴾ من كمال برّي ومرحمتي إياهم ﴿أَنَا الْغَفُورُ﴾ المبالغ في الستر والعفو لمن استرجع إلي، واستغفر عن ظهر القلب، وأناب عن محض الندم ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الحجر:49] لهم، أرحمهم وأقبل منهم توبتهم، وأعفو عنهم زلتهم.

﴿وَ﴾ نبئهم أيضا ﴿أَنَّ عَذَابِي﴾ وانتقامي وبطشي على من أصر على عنادي، واستمر على ترك طاعتي وانقيادي ﴿هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:50] المؤلم المستمر الذي لا نجاة لأحد منه.

﴿وَ﴾ إن أنكروا على إنعامي وانتقامي ﴿نَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر:51] تبيينًا وتوضيحًا لهم.

وقت ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ جرد مرد، صِباح ملاح ﴿فَقَالُوا﴾ ترحيبًا وتكريمًا: ﴿سَلَامًا﴾ أي: نسلم عليك سلامًا، ثمّ لما تفرس إبراهيم بنور النبوة أنهم ملائكة جاءوا بأمر خطير ﴿قَالَ﴾ على سبيل المخالفة: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر:52] أي: خائفون؛ لأنهم جاءوا هفوة، ودخلوا عليه بغتة بلا إذن واستئذان على عادة المسافرين، ولا يظهر عليه أثر السفر.

﴿قَالُوا﴾ أمنًا له، وتسكينًا لخوفه واضطرابه: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ منّا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ من عند ربك ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[1] [الحجر:53] قابل للنبوة والرسالة، والحكمة الكاملة.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام متأوهًا آيسًا، مستفهمًا على سبيل الاستبعاد: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ أيها المبشرون في زمانٍ قد انقطع الرجاء فيه عادةً ﴿عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر:54] المانع من الاستيلاء والاستنماء العادي؛ إذ هو في سنٍ قد انقطعت الشهوة عنه، وعن زوجته أيضًا؛ إذ هما في سن الهرم والكهولة.

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ﴾ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع بإذن الحق، وعلى مقتدى قدرته الكاملة بإيجاد شيء بلا سبق السبب العادي له ﴿فَلَا تَكُن﴾ أيها النبي المتمكن

---

(1) قال نجم الدين كبرى: مع كبره وكبر امرأته بشارة للطالب الصادق أنه وإن كان مسنًا وقد ضعف جسمه وقواه وعجز عن جهاد النفس ومكابدتها واستعمالها في مباشرة الطاعات والأعمال البدنية ويوسوسه الشيطان من نيل درجات القربة؛ لأن أسباب تحصيل الكمال قد تناهت ومعظمها العمر والشباب؛ ولهذا قال المشايخ: الصوفي بعد الأربعين نادر.

في مقام الرضا والتسليم، المسند المفوّض جميع الحوادث الكائنة في عالم الكون والفساد إلى الفاعل المختار بلا اعتبار الوسائل والأسباب ﴿مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر:55] الجازمين بفقدان الشيء عند فقدان أسبابه العادية.

﴿قَالَ﴾ مستبعدًا مستوحشًا: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ وييأس ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ﴾ التي وسعت كل شيء على مقتضى جوده تفضلاً بلا سبق استحقاق واستعدادِ أسباب ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:56] المقيّدون بسلاسل الأسباب الطبيعية، وأغلال الوسائل الهيولانية، ونحن معاشر الأنبياء لا نقول بأمثال هذه الأباطيل الزائغة.

ثم لما جرى بينهم ما جرى ﴿قَالَ﴾ ابراهيم ﷺ على مقتضى تفرسه منهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: أمركم العظيم الذي جئتم لأجله ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر:57] المهيبون؟.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر:58] خارجين عن مقتضى العقل والشرع والطبع؛ إذ فعلتهم الفاحشة الشنيعة مما يستقبحه ويستكرهه العقول والطباع مطلقًا، فكيف الشرع، فنهلكهم اليوم بالمرة على مقتضى أمر الله وقدره.

﴿ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحجر: 59 – 73].

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أي: أهل بيته، ومن آمن له ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 59] لكونهم معصومين مطيعين.

﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ المجرمة العاصية ﴿قَدَّرْنَا﴾ بإعلام الله وإذنه إياه علينا ﴿إِنَّهَا لَمِنَ

﴿الغَابِرِينَ﴾ [الحجر:60] الباقين مع الكفرة الهالكين؛ لكونها باقية على اعتقادهم وعنادهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ ودخل على طريق الضيفان ﴿آلَ لُوطٍ المُرْسَلُونَ﴾ [الحجر:61] المرد الصباح الملاح.

﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الضيفان ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر:62] أخاف عليكم من قومي وسوء فعالهم، وقبح ديدنتهم وعادتهم، مع أني أخاف من جئتكم أيضًا على هذا الوجه، بحيث لا أرى عليكم أمارات البَشَر.

﴿قَالُوا﴾ أي: المرسلون له: لا تخف لا علينا ولا منا؛ إذ ما جئنا لتخويفك وتوحيشك ﴿بَلْ جِئْنَاكَ﴾ لنسرك ونؤيدك، وننصرك على أعدائك ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [الحجر:63] أي: بإثبات ما يشكّون فيه ويترددون، بل يكذبونك فيه مراء، وهو العذاب الذي توعدتَ لهم، وادعيتَ نزوله عليهم، وهم يشكّون فيه.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الحجر:64] فيما قلنا لك.

والآن وقت إنجاز ما وعد الله بك من إنزال العذاب عليهم ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي: سر واذهب معهم ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: في طائفة من آنات الليل وساعاته، فقدمهم أمامك ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ وأثرهم، والعذابُ منزل عليهم عقيب خروجك بلا تراخ، وإذا كانوا خلفك أصابتهم منه ﴿وَ﴾ بعدما خرجتم إليهم من بينهم ﴿لَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ خلفه، ولا ينظر إلى ما وراءه حتى لا يصيبه ما أصابهم، ولا يهوله ولا يفزعه ﴿وَامْضُوا﴾ أيها المأمورون ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر:65].

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي: حكمنا على لوط بالوحي إليه ﴿ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ الفظيع الهائل، وهو ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ﴾ يعني: إن عواقب هؤلاء المسرفين المفرطين مقطوعة مستأصلة بالمرة، حال كونهم ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:66] أي: حين دخول الصباح عليهم.

﴿وَ﴾ بعدما بلغ الرسل إلى لوط ما جاءوا به من قِبَل الحق ﴿جَاءَ أَهْلُ المَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر:67] وهي سَدُوم، بأضياف لوط، ويستحسنوهم طامعين وقاعهم مسرعين حول بيته.

﴿قَالَ﴾ لهم لوط على مقتضى شفقة النبوة، وإن كان الأمر عنده مقضيًا محتمًا

بلا تردد: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ المسافرين ﴿ضَيْفِي﴾ نزلوا في بيتي ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ [الحجر: 68] بإساءتهم ؛ لأن إساءتهم وتفضيحهم عين إساءتي وتفضيحي.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن ارتكاب محظوراته، والركون إلى محرماته ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ [الحجر:69] ولا تخجلوني منهم؛ إذ فعلتكم هذه معهم مسقطة للمروءة بالمرة.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه: أتنهانا اليوم عنهم كما نهيتنا عن أمثالهم فيما مضى ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ من قبل ألّا تمنعنا ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر:70] وكن في نفسك زكيًا طاهرًا مهذبًا، ما لك معنا وخبثنا؟!.

ثمّ لما بالغوا في الإصرار والعناد ﴿قَالَ﴾ لهم لوط: ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ النسوان ﴿بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر:71] فهن أولى بكم، وأطهر لقضاء وطركم.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ المنبعثة من شهوتهم المفرطة، المحيرة المدهشة لعقولهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:72] ويهيمون إلى حيث لا يسمعون نصحه، فكيف يقبلونه ويفهمون؟!.

ولما لم يتركوا الفضيحة، ولم يقبلوا النصيحة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ الهائلة المهلكة وقت الصبيحة، حال كونهم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر:73] داخلين وقت شروق الشمس.

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الحجر: 74 – 88].

﴿فَجَعَلْنَا﴾ بالزلزلة ﴿عَالِيَهَا﴾ أي: عالي المدينة ﴿سَافِلَهَا﴾ وسافلها عاليها؛ يعني: قد قلبنا دُورهم عليهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ منعقدة منضمة مركبة ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:74] وهو معرب سنْك وكِل.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك والتقليب والإمطار ﴿لَآيَاتٍ﴾ وعبر ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:75] المتأملين المتفرسين، المتعمقين في أنية الأشياء ولميِّها حتى ينكشف عليهم أمرها وسمتها، ولا تترددوا ولا تشكوا أيها السامعون المعتبرون في انقلاب تلك المدينة وتخريبها.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: المدينة المذكورة ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:76] أي: جادة ثابتة يطرقها الناس، ويرون آثارها وأطلالها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصة إهلاك أولئك الطغاة البغاة، الهالكين في تيه الغفلة والشهوات ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:77] الخاشعين الخائفين من قهر الله وغضبه، الراجين من عفوه ورحمته.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين المعتبرين أيضًا قصة قوم شعيب عليه السلام ﴿إِن كَانَ﴾ أي: إنه كان ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي: الغيضة؛ إذ هم يسكنون فيها ﴿لَظَالِمِينَ﴾ [الحجر:78] خارجين عن حدود الله الموضوعة للعدالة بين عباده، المتعلقة ببخس المكيال والميزان ونقصهما.

وبعدما بالغوا فيها بعثنا إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه، واستهزءوا معه، وأرادوا مقته ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ مثلما انتقمنا من قوم لوط ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: أصحاب سدوم والأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:79] أي: ملتبسين ملتصقين بسبيل واضح، وطريق مستقيم مستبين ظاهر لائح، جاء به كل نبي منهم، فكذبوه عتوًا وعنادًا، فأُخذوا بما أخذوا.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ﴾ أيضًا مثل تكذيبهما ﴿أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ وهو وادٍ بين المدينة والشام يسكن فيها ثمود ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر:80] يعني: صالحًا القائم مقام جميع الأنبياء باعتبار اتحاد المرسل به، وهو الدعوة إلى توحيد الحق، وذلك حين بعثنا إليهم بعدما خرجوا عن حدود الله، وانحرفوا عن جادة توحيده.

﴿وَ﴾ أيدنا أمره بأن ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾ معه ﴿آيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿فَكَانُوا﴾ من

نهاية عتوهم وعنادهم ﴿عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر:81] بحيث لا يقبلونها أصلاً.

﴿وَ﴾ من عادتهم المستمرة بينهم أنهم ﴿كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ يسكنون فيها ﴿آمِنِينَ﴾ [الحجر:82] من اللصوص، وأنواع المؤذيات والحشرات.

ولما لم يبالوا بالآيات والرسول، وتمادوا على غيهم وضلالهم الذي كانوا عليه انتقمنا منهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ الشديدة الهائلة، وهم حينئذٍ ﴿مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: 83] داخلين في الصباح، كقوم لوط، فأهلكوا بالمرة.

﴿فَمَا أَغْنَى﴾ ودفع ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر:84] من الأموال والأمتعة، والعُدد الكثيرة، والحصون المنيعة، والأبنية الوثيقة المشيدة شيئًا من عذاب الله ونكاله.

ثمّ قال سبحانه قولاً دالاً على كمال قدرته ومشيئته، ولطفه وقهره، وإنعامه وانتقامه تنبيهًا على ذوي البصائر والاعتبار المتفكرين في خلق الله، وإيجاده وإعدامه، واستقلال تصرفاته في ملكه وملكوته: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ وقدرنا ﴿السَّمَوَاتِ﴾ وما فيها من الآثار والمؤثرات العلوية ﴿وَالأَرْضَ﴾ وما عليها من المتأثرات السفلية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الكائنات والفاسدات الحادثة في الجو باطلاً عبثًا لا عبرة لها ولا اعتبار لإظهارها وظهورها، بل ما خَلَقْنَا مَا خَلَقْنَا ﴿إِلَّا﴾ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾[1] المثبت لأصحاب الدلائل والبراهين، وتوحيد الحق الثابت المحقق لأرباب الكشف واليقين.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها العقلاء المكلفون المعتبرون ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة لانقهار التعينات، واضمحلال التشكلات ﴿لَآتِيَةٌ﴾ جزمًا بلا تردد وشبهة، فيجازي فيها كل على

---

(1) قال في التأويلات: أي: لإظهار الآيات الحق بالحق لأرباب الحق المكاشفين بصفات الحق فإنه لا شهور للسماوات والأرض وما بينهما غير الإنسان بأنها مظهر لآيات الحق، وإنما الشعور بذلك للإنسان الكامل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:190] وهم الذين خلص لب أخلاقهم الربانية عن قشر صفاتهم الإنسانية، وفيه معنى آخر ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ﴾ أي: سماوات الأرواح ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: أرض الأشباح وما بينهما من النفوس والقلوب والأسرار والخفيات إلا بالحق ومظهره، فإن الإنسان مخصوص به من بين سائر المخلوقات والمكونات؛ لأنه بجميع مبانيه الظاهرة ومعانيه الباطنة مرآة لذات الحق تعالى وصفاته فهو مظهره عند التزكية التنقية، ومظهره عند التحلية والتجلية به لشعوره بذلك، كما كان حال من صقل مرآته عن صدأ أنانيته وتجلى بشهوة هويته عند تجلي ربوبيته بالحق، فقال: أنا الحق ومن قال بعد فناء أنانيته عن بقائه بسبحانيته سبحاني ما أعظم شأني.

مقتضى ما كسبت في عالم التعينات والتطورات، وإذا كان الكلّ مجازون بأعمالهم، مسئولون عنها ﴿فَاصْفَحِ﴾ يا أكمل الرسل، وأعرض عن انتقام من يؤذيك ويرديك ﴿اَلصَّفْحَ اَلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:85] أي: الإعراض المستحسن عند الطباع، واحلم معهم، والطف عليهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي ربَّاك بأنواع اللطف والكرم، واصطفاك من بينهم بأصناف الفضائل والكمالات ﴿هُوَ الخَلَّاقُ﴾[1] لهم ولأعمالهم ﴿العَلِيمُ﴾ [الحجر:86] المميز المبالغ في التمييز بين صالحها وفاسدها، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿وَ﴾ لا تبال يا أكمل الرسل بهم، وبما عندهم من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية، ولا تحزن على أذاهم، فإنا من مقام جودنا وفضلنا ﴿لَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ وأعطيناك تتميمًا لتكريمك وتعظيمك ﴿سَبْعًا﴾ أي: سبع آيات ﴿مِّنَ المَثَانِي﴾ أي: الفاتحة التي تثني نزولها تارة بمكة، وتارة بالمدينة على عدد الصفات السبع الإلهية؛ ليكون لك حظ من جميعها، والسبع الطباق الفلكية والكواكب السبعة، والأقاليم السبعة الأرضية، والمشتهيات السبعة الدنيوية المذكورة في كريمة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران:14] لتكون عوضًا عنها، والأدوية السبعة الجهنمية؛ لتكون منجية منها، فتكون الفاتحة أعظم وأولى من الدنيا وما فيها.

﴿وَ﴾ مع ذلك لا نقتصر عليها، بل آتيناك ﴿القُرْآنَ العَظِيمَ﴾ [الحجر:87] الجامع لفوائد ما في الكتب السالفة، الناسخ لها، المعجز لجميع من أتى بمعارضته ومقابلته.

فعليك بعدما اصطفيناك يا أكمل الرسل من بين سائر الأنبياء بأمثال هذه الكرامات أن ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ نحوهم، ولا تنظر نظر متحسر راغب، بل نظر معتبر كاره ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من الزخارف ﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافًا من الأمتعة معطاة منها للكفرة ابتلاءً لهم، بحيث صاروا بها مفتخرين، بطرين بين الناس ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ بعدم اتباعهم لك وإيمانهم بك؛ إذ هذه المزخرفات الدنية تحجبهم عن الإيمان، وتعوقهم عن العرفان؛ لأنهم مفتونون بها ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وابسطها كل البسط ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:88] الذين يتبعونك عن خلاء القلب، وصفاء القريحة بلا

---

(1) قال نجم الدين: يشير بالخلاق وهو للمبالغة إلى أنه تعالى خالق لصور المخلوقات ومعانيها وحقائقها العليم بمن خلقه مستندًا لمظهرية ذاته وصفاته ومظهريته، فلما كانت السموات والأرض وما بينهما مظهر الصفات الحق تعالى دون ذاته ولا شعور لها به، ولم تكن مظهرًا لذاته وصفاته وكان الإنسان الكامل.

شوب الرياء والسمعة، وشين الأهوية الفاسدة.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾ [الحجر: 89 – 99].

﴿وَقُلْ﴾ للمعاندين المنكرين: ﴿إِنِّي﴾ بإذن ربي ووحيه إليّ ﴿أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر:89] والمنذر المبين، أنذركم ببيان واضح، وبرهان لائح، نازلٍ عليّ من ربي أن العقاب والعذاب سينزل على من لم يؤمن بالله، وبوحدة ذاته، وصفات كماله.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا﴾ أي: مثل العذاب الذي أنزلناه من قبل ﴿عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر:90] وهم الرهط الذي تقاسموا أن يبيتوا صالحًا.

والمقتسمون اليوم هم ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ﴾ المعجز لفظًا ومعنى، نصًا ودلالة، اقتضاءً ومطلقًا ﴿عِضِينَ﴾[1] [الحجر:91] أي: ذي أجزاء مختلفة، بعضها حق؛ لأنه مطابق للكتب السالفة، وبعضها باطل؛ لأنه مخالف لها، وبعضها شِعر، وبعضها كهانة، مع أن الكل هداية لا ضلال فيها أصلاً، تعالى شأنه وكتابه عما يقولون علوًا كبيرًا.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وعزته وجلاله ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:92] أي: عن جميعهم على التفصيل.

﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:93] أي: يقدحون في القرآن، وينسبون إليه من المفتريات التي هو بريء منها، بعيد عنها بمراحل.

وإذا كان نزول القرآن للهداية العامة، والإرشاد الشامل ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ واجهر به يا أكمل الرسل، وافرق بين الحق والباطل على الوجه المأمور فيه، وبين

(1) قال في التأويلات: أي: جزؤه أجزاء في الاستعمال، فقوم: قرأوه وداوموا على تلاوته ليقال لهم القراء وبه يأكلون، وقوم: حفظوه بالقراءة ليقال لهم الحفاظ وبه يأكلون، وقوم: حصلوا تفسيره وتأويلاته ابتغاء طلب الشهرة وإظهارًا للفضل ليأكلوا، وقوم: استخرجوا معانيه واستنبطوا فقهه وبه يأكلون، وقوم: شرعوا في قصصه وأخباره ومواعظه وحكمه وبه يأكلون وقوم: أولوه على وفق مذاهبهم وفسروه برأيهم فكفروا بذلك.

الهداية والضلال ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:94] واتركهم وأنفسهم، ولا تلتفت إليهم، ولا تتعرض لدفعهم ومنعهم إن استهزئوا بك.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ﴾ أذى ﴿الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:95] عنك، وانتقمنا لأجلك منهم بأضعاف ما قصدوا بك من الاستهزاء والسخرية.

وكيف لا ننتقم منهم؛ إذ هم المشركون المسرفون ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ﴾ المتوحد في ذاته وأوصافه وأفعاله ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ مستحقًا لنعبادة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:96] عند انكشاف الحجب والأستار، قبح ما يفترون، وينسبون إلى الله افتراءً ومراءً.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ منك يا أكمل الرسل ﴿أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ من كظم غيظك، ويقل صبرك على تحمل أقلهم ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:97] مما لا يليق بجنابنا من القدح في كلامنا، وإثبات الشركاء لنا مع وحدة ذاتنا، ومن استهزائهم بك، وبمن تبعك من المؤمنين، فعليك ألا تلتفت إليهم، ولا تسمع هفياناتهم، وإنما عليك العبرة منهم، وتنزيهنا وتقديسنا عن مقالاتهم.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إذ تسبيحك وتحميدك إيانا خير لك من استماع ما تفوهوا به مراءً ﴿وَكُنْ﴾ في نفسك في جميع أوقاتك وحالاتك ﴿مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:98] الواضعين جباههم على تراب المذلة على قصد تعظيمنا وتبجيلنا.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ

﴿ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه: 99 – 113].

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ واجتهد في سلوك طريق المعرفة ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[1] [الحجر:99] ويحصل لك الكشف والشهود، ويرتفع عنك حجب الأنانية والوجود.

جعلنا الله من الموقنين المنكشفين بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك القاصد لسلوك طريق التوحيد - أنجح الله آمالك - أن تبتدئ أولاً بعدما هذبت ظاهرك بالشرائع، وباطنك بالجلاء عن الموانع، بذكر الله الواحد الأحد الصمد، المتصف بجميع أوصاف الكمال إلى أن يؤدي ذكرك إلى الفكر المورث للمجاهدة والانزعاج، والشوق والابتهاج أحيانًا، وواظب عليها إلى أن يستوعب جميع أوقاتك وحالاتك، وحينئذٍ ظهرت ولاحت على قلبك مقدمات المحبة والمودة، والعشق المزعج المفني، وصرت عليها زمانًا إلى أن اشتاق وتعطش قلبك إلى فنائك وانقهارك في محبوبك.

وفي تلك الحالة عرضت عليك الحيرة والحسرة، والوحشة والقلق والاضطراب، والخوف والرجاء، واللذة والألم، وصرت بين بين، وأين أين، وكيف كيف.

وبالجملة: كنت في تلوينٍ وتكوينٍ، وإطلاق وتقييدٍ، وما هي سكراتك عند موتك الإرادي، واضطراباتك دونها، وحينئذٍ لا يسع لك إلّا الرضا والتسليم، والتوكل والتفويض، إلى أن جذبك الحق، ووفقك بالتمكين والتسكين، وأطلقك عن التقييد والتعيين، وأفناك عنك، وأبقاك بذاته، وفزتَ بما فزت، وتكون حينئذٍ ﴿مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:98] قد أتاك اليقين والتمكين، وأخلصك عن التردد والتلوين.

---

(1) قال في التأويلات: أي: إلى الأبد وذلك لأن حقيقة اليقين المعرفة، ولا نهاية لمقامات المعرفة فكما أن للواصل إلى مقام من مقامات المعرفة يأتيه يقين بتلك المقام في المعرفة كذلك يأتيه شك بمعرفة مقام آخر في المعرفة فيحتاج بيقين آخر في إزالة هذا الشك إلى ما لا يتناهى، فثبت إلى اليقين هاهنا إشارة إلى الأبد.

سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة النحل

لا يخفى على ذوي التمكن والتوطين من أرباب المحبة والولاء، الواصلين إلى مقر التوحيد، الناجين المخلصين عن ربقة التلوين والتقليد، باستيلاء سلطان الإطلاق المفني للأغيار مطلقًا أن الأمور الإلهية الجارية على حسب الأوصاف الذاتية مرهونةُ بأوقات مقدرةٍ، وآجال معينةٍ من عنده سبحانه، لا يتقدم عليها ولا يتأخر عنها، بل إذا وصل وقتها وقع فيها حتمًا حكمًا مبرمًا، لا تختلف عنها أصلاً إلّا إذا علق الحق بتقديمها وتأخيرها، ووقفه في حضرة علمه القديم على أمرٍ من الأمور.

لذلك أمر عباده بالدعاء والمناجاة ربما اتفق عليه ووافق له، فالاستئخار والاستعجال إنما هو من شيم أهل الزيغ والضلال، المقيدين بسلاسل الأسباب، وأغلال الوسائل، وأما أرباب الإطلاق المتحيرون في بيداء الألوهية، الوالهون في فضاء الربوبية، لا يستقدمون ولا يستأخرون في الأمور الحادثة، بل جريان الأمور كلها عندهم على سبيل التجدد الإبداعي، والأسبابُ والوسائل عندهم إنما هي توهماتُ باطلة، وتخيلات عاطلة، نشأت من الإضافات العدمية، والاعتبارات الوهمية الحاصلة من توهم الزمان والمكان المتفرعين على الجهات العدمية، بالنسبة إلى المحبوسِين في مضيق الأزل والأبد، والأول والآخر، والمبدئ والمنتهي.

لذلك أخبر سبحانه عباده بجريان أمره على مقتضى مراده، وقت تعلق إرادته ومشيئته بإظهاره وإيجاده، فقال متيمنًا باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي تجلى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا على ما تجلى من مظاهره ومصنوعاته بلا سبق زمان ومكان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ الذي دبر أمور عباده على مقتضى مراده بأحسن التدبير في مبدئهم ومعادهم، بلا مشاركة ظهير ومشير ﴿الرَّحِيمِ﴾ الذي هداهم إلى سبيل توحيده بالإنذار والتبشير، وأرسل إليهم الأنبياء؛ ليبينوا لهم طريق الرشد، ويجنبوهم عن الغي والضلال، وأنزل عليهم الكتب المبينة الفارقة بين الحق والباطل، والحرام والحلال، وأخبرهم فيها عن يوم الحشر والعرض الموعود للجزاء والسؤال عما جرى عليهم في النشأة الأولى

من الأحوال، فلهم أن يصدقوه ويؤمنوا له، ولا يسألوا عن وقت قيامه، بل يهيئوا الزاد لأجله، ويشمروا الذيل لوقوعه تعبدًا وانقيادًا.

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ① يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ② خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ③ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ④ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑦ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ⑧﴾ [النحل:1 – 8].

لذلك أخبر سبحانه عن إتيانه ووقوعه بالجملة الماضوية تنبيهًا على تحقق وقوعه، فقال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾[1] أي: يومه الموعود الذي انكشفت فيه السدول، ولاحت الأسرار، وارتفعت حجب التعينات والأستار، واضمحلت السّوى والأغيار، ونودي من وراء سرادقات العز والجلال بعد انقهار الكل: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:16]؟ وأجيب أيضًا من ورائها: ﴿لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16]، ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: لا تستعجلوا وقوعه أيها المترددون الشاكون في أمره ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:1] له من الآلهة الباطلة، ويدّعون شفاعتها لهم عند الله لدى الحاجة.

---

(1) قال في التأويلات: كلام قديم كان الله في الأزل به متكلمًا، والمخاطبون به في الله محبوسين وهم طبقات ثلاث: منهم الغافلون والعاقلون والعاشقون، فكان الخطاب مع الغافلين: بالعتاب إذا كانوا مشتاقين إلى الدنيا وزخارفها وللذاتها وشهواتها وهم أصحاب النفوس، والخطاب مع العاقلين: بوعد الثواب إذا كانوا مشتاقين إلى الطاعات والعبادات والأعمال الصالحات التي تبلغهم إلى الجنة ونعيمها الباقية وهم أرباب العقول، والخطاب مع العاشقين: بوصل رب الأرباب إذا كانوا مشتاقين إلى مشاهدة جمال ذي الجلال، فتستعجل أرواح كل طبقة منهم للخروج من العدم إلى الوجود لنيل العقود وطلب المقصود فكلم الله تعالى في الأزل بقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ أي: سيأتي أمر الله للخروج من العدم لإصابة ما كتب لكل طبقة منكم في القسمة الأزلية.

بل هو الله الواحد الأحد، الصمد الذي ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ المقربين عنده ﴿بِالرُّوحِ﴾ أي: بالوحي الناشئ ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ توفيقًا وتأييدًا ﴿عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ﴾ خلّص ﴿عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء والمرسلون المأمورون ﴿أَنْ أَنذِرُوا﴾ أي: بأن خوفوا عباد الله المنحرفين عن استقامة صراطه، وجادة توحيده من بطشه وانتقامه إياهم؛ وقولوا لهم نيابةً عن الله: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ﴾ يُعبد بالحق ﴿إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:2] عن مخالفة أمري وحكمي.

وكيف تشركون أيها المشركون ما لا يقدر على خلق أحقر الأشياء وأضعفها للقادر الحكيم الذي ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ مع كمال عظمتها ورفعتها ﴿وَالأَرْضَ﴾ بكمال بسطتها، وإنما خلق ما خلق، وأظهر ما أظهر ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بانبساط نور الوجود الكائن الثابت في نفسه، وامتداد أظلال أوصافه وأسمائه عليهما، مع أنه على صرافة وحدته، وهما على عدميتهما الأصلية ﴿تَعَالَى﴾ وتقدس ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:3] له شيئًا لا وجود له، ولا تحقق سوى الظلية والعكسية.

ولاسيما كيف يشركون أولئك الحمقى الضالون للقادر الذي ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ وأوجده على أحسن صورة، وأعدل تقويم ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ دنيّة مهينة، لا تمييز لها أصلاً ولا شعور، وربّاها إلى أن صار ذا رشد وتمييز وكمال، وإدراك ودراية ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ مجادل مبالغ في امتياز الحق من الباطل، والهداية من الضلال ﴿مُّبِينٌ﴾ [النحل:4] ظاهر البيان بإقامة الدلائل والبراهين القاطعة، وما هي إلّا من تربية مبدعها وخالقها القادر المقتدر بالإرادة والاختيار؟!.

﴿وَالأَنْعَامَ﴾ أيضًا ﴿خَلَقَهَا﴾ وأوجدها طفيلاً للإنسان؛ ليكون ﴿لَكُمْ﴾ أيها المجبولون على الكرامة الفطرية ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ تستدفئون به من الألبسة والأغطية المتخذة من أصوافها وأشعارها وأوبارها لدفع الحر والبرد ﴿وَمَنَافِعُ﴾[1] غير ذلك من الخباء والقباء وغيرهما ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:5] لتقويم مزاجكم وتعديلها من

(1) قال الشيخ كبرى: أي: لتنتفعوا بها حين اطلاعكم على صفاتها الحيوانية الذميمة التي هي مودعة في جبلتكم مما يخالف صفاتكم الروحانية الملكية، فتجتهدوا في تبديل الصفات الحيوانية الذميمة بالصفات الملكية الروحانية الحميدة احترازًا عن الاحتباس في حيزها واجتنابًا عن شبهتها بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:44].

لحومها وشحومها وألبانها.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ وزينة وجاه بين أظهركم ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وتجمعونها إلى المراح من المرعى وقت الرواح مملوءة الضروع والبطون ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:6] وترسلونها إلى المرعى وقت الصباح.

﴿وَ﴾ من أعظم فوائدها أنها ﴿تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أي: أحمالكم التي تستثقلونها ﴿إِلَى بَلَدٍ﴾ بعيد ﴿لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ أي: لم يحصل لكم بلوغها إليها لولاها ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ أي: بالمشقة التامة، والعسر المفرط، فخلقها سبحانه تيسيرًا لكم وتسهيلاً، تتميمًا لتكريمكم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ الذي ربّاكم بأنواع اللطف والكرم ﴿لَرَءُوفٌ﴾ عطوف مشفق لكم، يسهل عليكم كل عسير ﴿رَحِيمٌ﴾ [النحل:7] لكم، يوفقكم ويهيئ أسبابكم؛ لتواظبوا على أداء ما أُفترض عليكم من كسب المعارف والحقائق الرافعة لكم إلى أرفع المنازل، وأعلى المراتب.

ثم أشار سبحانه أيضًا إلى ما يضركم، ويدفع أذاكم، ويرفع جاهكم تتميمًا لتعظيمكم وتربيتكم، فقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ إنما خلقها وأظهرها سبحانه ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَ﴾ تجعلوها ﴿زِينَةً﴾ لأنفسكم بين بني نوعكم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَخْلُقُ﴾ لكم ربكم على مقتضى علمه بحوائجكم ومزيناتكم ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:8] وتأملون أنتم لأنفسكم مما يعنيكم ويعينكم في النشأة الأولى والأخرى.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ⟨٩⟩ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ⟨١٠⟩ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⟨١١⟩ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ⟨١٢⟩ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ⟨١٣⟩ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⟨١٤⟩ وَأَلْقَى فِي

ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل: 9 – 15].

﴿وَ﴾ كما يدبر سبحانه أمور معاش عباده على الوجه الأليق الأحسن بحالهم، كذلك له أن يدبر أمور معادكم، بل هي أولى للتدبير؛ لذلك ﴿عَلَى اللهِ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: إرشادهم وهدايتهم إلى طريق مستقيم موصل إلى توحيده؛ ليصلوا إليه، ويفوزا بما وعدوا عنده ﴿وَ﴾ كيف لا يرشدهم سبحانه إلى سواء السبيل ﴿مِنْهَا﴾ أي: من السبيل ﴿جَائِرٌ﴾ مائل منصرف عن الحق وتوحيده على مقتضى أوصافه الجلالية المذلة المضلة تتميمًا للقدرة الكاملة، والسلطنة العامة الشاملة لكلا طرفي اللطف والقهر، والجمال والجلال ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ وأراد سبحانه هدايتكم ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:9] على مقتضى تجليات الأوصاف اللطفية الجمالية، المثمرة للّذة الدائمة، والسرور المستمر الغير المنقطعة، لكن اقتضى حكمته البالغة أن يكون جنابه رفيعًا متعاليًا عن أن يطّلع عليه واحد بعد واحدٍ؛ لذلك تجلى على بعض المظاهر بالأوصاف القهرية الجلالية المورثة للحزن الدائم، والألم المخلَّد.

وكيف لا يدبر سبحانه أمور عباده ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ﴾ وأفاض ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ محييًا لموات الأرض، مثل إحياء الروح لأراضي الأجساد؛ ليحصل ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربون منه، أو تعصرونه من القصب والفواكه ﴿وَ﴾ يحصل ﴿مِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: أنواع النباتات المستخرجة من الأرض لرعي مواشيكم؛ إذ ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل:10] وتُسرحون دوابكم للرعي إلى أن يسمن فيؤكل.

وأيضًا ﴿يُنبِتُ لَكُم﴾ أي: لقوتكم المقوم لمزاجكم ﴿بِهِ الزَّرْعَ﴾ بأنواعها؛ لتتخذوا منها أخبازًا ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ للإدام ﴿وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ للتفكه والتقوت أيضًا ﴿وَ﴾ بالجملة: يخرج لكم به ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ تتميمًا لأمور معاشكم، وتقويمًا لمزاجكم؛ لتفكروا في آلائه ونعمائه، وتتذكروا ذاته؛ كي تفوزوا بمعرفته وتوحيده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: إنعام هذه النعم العظام المذكورة ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة، وبينة واضحة لائحة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:11] أي: يستعملون عقولهم في تفكر آلاء الله ونعمائه؛ ليواظبوا على أداء شكرها.

﴿وَ﴾ من آياته سبحانه المتعلقة لتدبير أحوالكم: إنه ﴿سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه وتستريحوا ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لتعيشوا فيه وتكتسبوا ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لإنضاج

ما تتقوتون، وإصلاح ما تتفكهون ﴿وَ﴾ سخر ﴿النُّجُومُ﴾ أيضًا؛ لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، حال كون كل منها ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾[1] تابعاتٍ لحكمه وتقديره على تقدير النصب، أو مع أن الكل مسخرات في قبضة قضائه، يصرفها حسب إرادته ومشيئته على تقدير الرفع ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: التسخير المذكور ﴿لَآيَةً﴾ أي: في كلٍ منها دليل واضح، وبرهان لائح ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:12] ويستدلون من الآثار إلى المؤثر، ومن المصنوعات إلى الصانع الحكيم.

﴿وَ﴾ سخرَ لكم أيضًا ﴿مَا ذَرَأَ﴾ وخلق ﴿لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أشكاله وطبعه على مقتضى أهويتكم وأمزجتكم من الحوائج المتعلقة لحظوظكم وترفهكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل:13] ويتفطنون منها إلى كرامة الإنسان من بين سائر الأكوان، وإلى خلافته ونيابته عن الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ﴾ لكم ﴿الْبَحْرَ﴾ من كمال لطفه وتكريمه إياكم ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ وزينة من الجواهر النفيسة ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ وتتزينون بها ترفهًا وتنعمًا ﴿وَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الْفُلْكَ﴾ أي: السفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: جواري مشققات للبحر، مسيرات لمن فيها على الماء ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وجوده ما يعينكم، ويليق بكم من الحوائج والأرباح وغير ذلك ﴿وَ﴾ إنما سخر سبحانه ما سخر عليكم من البر والبحر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:14] رجاء أن تواظبوا وتداوموا على شكر نعمه، وتصرفوها طلبًا لمرضاته.

﴿وَ﴾ من رحمته ولطفه أيضًا ﴿أَلْقَى فِي الأَرْضِ﴾ التي هي مستقركم ومنشؤكم ﴿رَوَاسِيَ﴾ مخافة ﴿أَن تَمِيدَ﴾ وتتحرك ﴿بِكُمْ﴾ ولا يمكن استقراركم عليها لاضطرابها وتزلزلها؛ إذ هي في طبعها كرة حقيقية، ملقاة على الماء، مغمورة فيه، فلما ألقاها سبحانه عنايةً منه رواسي ثقالاً، صارت متفاوتة الأطراف في الثقل، فاستقرت وتثبتت ﴿وَ﴾ أيضًا أجرى لكم ﴿أَنْهَارًا﴾ عليها؛ كي يمكنكم الاستسقاء منها لدى الحاجة ﴿وَ﴾ عين لكم بين الجبال الراسيات ﴿سُبُلاً﴾ نافذات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل:15] إلى ما

---

(1) قال في التأويلات: وهو خطاب كن وتسخيرها استعمالها على وفق الشريعة وقانون الطريقة لمعالجه الطبيب الحاذق صاحب البصيرة والولاية كامل التصرف في الهداية مخصوص بالعناية.

تقصدون من البلدان البعيدة.

﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ ﴾
[النحل: 16 – 26].

﴿وَ﴾ نصب لكم ﴿عَلامَاتٍ﴾ دالة على مقاصدكم في البوادي والبراري بالتلال والوهاد ﴿وَ﴾ في البحار ﴿بِالنَّجمِ﴾ أي: بالنجوم المتعارفة عند البحارين؛ إذ ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:16] بها حين وقوعهم في لجج البحار، كل ذلك من الدلائل الدالة على وحدة الفاعل المختار، المتصف بجميع أوصاف الكمال، المنزه عن مشاركة الأضداد والأمثال، مبدع المخلوقات من كتم العدم بلا سبق مادة وزمان، ومخترع الكائنات بلا علل وأغراض على سبيل الفضل والإحسان.

﴿أَ﴾ تشركون مع الله الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لا شيء في الوجود سواه، ولا إله إلّا هو، يخلق ما يشاء على مقتضى جوده ورحمته، من لا يخلق شيئًا، بل هو من أدون المخلوقات ﴿فَمَن يَخْلُقُ﴾ أيها الحمقى ﴿كَمَن لَا يَخْلُقُ﴾ في الرتبة واستحقاق العبادة، ولم يتفطنوا بالفرق بينهما مع جلائه وظهوره، مع أنكم من زمرة العقلاء ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:17] فطرتكم المجبولة على العلم والتمييز؟!.

﴿وَ﴾ كيف تشركون مع الله المنعم المفضل عليكم، مع أنكم ﴿إِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ

﴿اللَّهِ﴾[1] الفائضة عليكم، وآلاءه الواصلة إليكم ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لكثرتها ووفورها، ومع ذلك أشركتم معه غيره، وكفرتم بنعمه، مع أن المناسب لكم الرجوع إليه، والإنابة نحوه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب وآمن، وعمل صالحًا ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل:18] يقبل توبتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم لو أخلصوا.

﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿يَعْلَمُ﴾ منهم ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾ في قلوبكم بلا موافقة ألسنتكم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل:19] بألسنتكم بلا مطابقة قلوبكم، فعليكم أيها المؤمنون المنيبون أن تنيبوا نحو الحق سرًا وعلانية حتى لا تكونوا من المنافقين المخادعين مع الله.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المشركون المكابرون أن ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المعبود بالحق آلهةً، وتعبدونها إفكًا كعبادته سبحانه، مع أنهم لا يستحقون الألوهية؛ إذ ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ حقيرًا، وكيف بالعظيم، بل ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل:20] مخلوقون.

بل هم من أدون المخلوقات؛ لأنهم ﴿أَمْوَاتٌ﴾ أي: جمادات لاشعور لهم أصلاً؛ لأنهم ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي: غير ذي حس وحركة إرادية ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾ شعور الحيوانات ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:21] أي: إلى أين يحشرون ويساقون من المرعى، فهم في أنفسهم أدنى وأخس من الحيوانات العجم، فكيف تتأتى منهم الألوهية المستلزمة للاطلاع على جميع المغيبات الجارية في العوالم كلها اطلاع حضور وشهود؟!.

بل ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أوجدكم من كتم العدم، وأظهركم في فضاء الوجود ﴿إِلَٰهٌ

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى أن النعمة نعمتين: أعطاف إعطائه ونعمة ألطافه، فنعمة أعطاف إعطائه ما يتعلق بوجود النعمة وهو على ضربين: نعمة ظاهرة، ونعمة باطنة، ونعمة ألطافه ما يتعلق بوجود المنعم وهو على ضربين: نعمة ذاته بالألوهية، ونعمة صفاته بالربوبية، وهي بلا نهاية فلا تعد ولا تحصى، وقال ابن عطاء: إن لك نفسًا وقلبًا وروحًا وعقلاً ومحبةً ودينًا ودنيا وطاعةً ومعصيةً وابتداءً وانتهاءً وحينًا وأصلًا وفصلًا، فنعمة النفس: الطاعات والإحسان والنفس فيهما تتقلب، ونعمة الروح: الخوف والرجاء وهو فيهما يتقلب، ونعمة القلب: اليقين والإيمان وهو فيهما يتقلب، ونعمة العقل: الحكمة والبيان وهو فيهما يتقلب، ونعمة المعرفة: الذكر والقرآن وهو فيهما يتقلب، ونعمة المحبة: الألفة والمواصلة والأمن من الهجران وهو فيهما يتقلب.

وَاحِدٌ﴾ أحد صمد، لم يكن له كفء ولا شريك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، إنما يظهر وينكشف توحيده سبحانه لأولي العزائم والنهي، من أرباب المحبة والولاء في النشأة الأولى والأخرى ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ المعدة لشرف اللقاء ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ بلقاء الله فيها ﴿وَهُم﴾ من شدة شكيمتهم، وكثافة حجبهم مع إنزال الكتب المبينة لأحوالها وأهوالها، والرسل المنبهين لهم عليها ﴿مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:22] مترددون عتوًا وعنادًا.

لذلك ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًا على الله أن يعذبهم، مع ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لسرائرهم وضمائرهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الكفر والضلال، فيجازيهم على مقتضى علمه بحالهم، ولا يحسن إليهم سبحانه بدل إساءتهم؛ لأنهم مستكبرون ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:23] لاشتراكهم معه سبحانه في أخص أوصافه؛ إذ الكبرياء مخصوص به، لا يسع لأحد أن يشارك معه فيه.

﴿وَ﴾ من غاية عتوهم واستكبارهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُم﴾ على سبيل الاستفسار: ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على نبيكم ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء: ما أنزل ربه إلّا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل:24] أي: الأكاذيب والأرجفة التي سطرها الأولون فيما مضى من تلقاء نفوسهم.

وإنما قالوا ذلك وشاعوا به بين الأنام ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ وآثامهم ﴿كَامِلَةً﴾ بلا تخفيف شيء منها ولا نقصان؛ ليؤاخذوا عليها ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ﴾ يحملوا أيضًا ﴿مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ من ضعفاء الناس بقولهم هذا إياهم، مع أنهم خالية الأذهان ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يتعلق منهم بالقرآن وإعجازه، ومع ذلك لا يعذرون؛ لعدم التفاتهم إلى التأمل والتدبر حتى يظهر عليهم حقيته وبطلان قولهم ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: 25] المضلون بضلالهم، والضالون بضلالهم، وعدم تأملهم وتدبرهم، مع أنهم مجبولون على التأمل والتدبر.

هذا التكذيب والإضلال، والتهكم والاستهزاء من الأمور الحادثة بين أولئك الهالكين في تيه الشرك والطغيان، بل من ديدنتهم القديمة، وعادتهم المستمرة؛ إذ ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ واحتالوا لإضلال العوام، وبنوا أبنية رفيعة للصعود إلى السماء، والمقاتلة مع سكانها وإلهها، ثمّ لما تم بنيانهم وقصورهم ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم﴾ أي: أتى أمره سبحانه بإهلاكهم وتعذيبهم بهدم بنائهم ﴿مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾

والأعمدة والأساس التي بُنيت عليها البناء، فتضعضعت وتحركت الدعائم ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وهم تحته متمكنون مترفهون، فهلكوا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ بغتةً ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:26] أماراتها قبل نزوله.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [النحل: 27 - 33].

﴿ثُمَّ﴾ بعد تعذيبهم في النشأة الأولى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يخذلهم الله، ويرديهم بتكذيب كلام الله ورسوله ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ﴾ أيها الضالون المضلون، المنهمكون في الغي والضلال ﴿تُشَاقُّونَ﴾ وتعادون ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في حقهم وشأنهم المؤمنين، وتعارضون معهم بادعاء الألوهية لأولئك التماثيل العاطلة الباطلة، ادعوهم حتى ينجوكم ويخلصوكم من عذابي وبطشي ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الأنبياء والرسل، وخلفائهم الذين دعوهم إلى الإيمان فلم يؤمنوا، بل يكذبونهم وينكرون عليهم، وعلى دينهم ونبيهم حين أبصروا أخذَ الله إياهم شامتين لهم، متهكمين عليهم: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ﴾ أي: الذلة والصغار ﴿الْيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ المفرط المجاوز عن الحد نازلٌ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل:27] المستكبرين الذين كذبوا الرسل، وأنكروا الكتب، واستهزءوا معهم.

وهم ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون عليهم حين معارضتهم بالقرآن،

وتكذيبهم إياه وبمن أنزل إليه، مع كونهم ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ ومعرضيها على العذاب الأبدي، ثمّ لما عاينوا في النشأة الآخرة بحقيته وصدقه، ومطابقته للواقع ﴿فَأَلْقَوا السَّلَمَ﴾ أي: الانقياد والتسليم، مبرئين نفوسهم عن التكذيب والإساءة مع القرآن، قائلين: ﴿مَا كُنَّا﴾ في النشأة الأولى ﴿نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ أي: ما نريد ونعتقد الإساءة في حقه، فيقول الملائكة لهم على سبيل التهكم: ﴿بَلَى﴾ أنتم لا تسيئون الأدب مع الرسول والقرآن ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع بجميع ما كان ويكون ﴿عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 28] من الرد والإنكار والتكذيب، فيجازيكم على مقتضى علمه.

ثمّ قيل لهم زجرًا وقهرًا: ﴿فَادْخُلُوا﴾ أيها المشركون المستكبرون، المعاندون مع الله ورسوله ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل فرقة منكم من باب منها، على تفاوت طبقاتكم في موجباتها، وادخلوا أنواع عذابها ونكالها، حال كونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مخلدين مؤبدين ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل:29] جهنم البعد والخذلان التي هي منزل الطرد والحرمان.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن محارم الله، وحفظوا نفوسهم عن العرض على المهالك الموجبة لسخط الله وغضبه: ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على نبيكم لتربية دينكم، وتصفية مشربكم عن أكدار التقليدات والتخمينات ﴿قَالُوا﴾: أنزل ﴿خَيْرًا﴾ محضًا في النشأة الأولى والأخرى، أما في الأولى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ وعملوا الصالحات المقربة إلى الله ﴿حَسَنَةٌ﴾ كاملة من العلوم والمعارف المثمرة للمكاشفات والمشاهدات ﴿وَ﴾ أما في الآخرة: فا ﴿لَدَارُ الآخِرَةِ﴾ المعدة للفوز بشرف اللقاء، والوصول إلى سدرة المنتهى ﴿خَيْرٌ﴾ من جميع الكمالات الأقصى، والدرجات العليا ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:30] المتحفظين نفوسهم عن الالتفات إلى ما سوى الحق.

دار الآخرة التي هي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ مصونة عن أمارات الكثرة المشعرة للاثنينية ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ مجردة عن جلباب التعينات العدمية ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ المنتشئة عن التجليات المترتبة على الأوصاف الذاتية الإلهية ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من مقتضيات الأوصاف اللطفية الحبية الجمالية ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:31] المائلين عن غير الله وسواه مطلقًا، الباذلين مهجهم في سبيله طوعًا، المنخلعين عن مقتضيات أوصاف بشريتهم إرادةً واختيارًا، الصابرين على ما جرى عليهم من القضاء تسليمًا ورضًا،

وهم ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون عليهم في نشأتهم، حال كونهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ طاهرين عن خبائث الإمكان، ورذائل الخذلان والخسران، الناشئة من ظلمات الطبائع والأركان ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: الملائكة المأمورون لقبض أرواحهم عند قبضها: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ أيها الصابرون في البلوى، السائرون إلى المولى ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ التي هي خير المنقلب والمثوى، وفوزوا بشرف اللقيا ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:32] في النشأة الأولى من الإعراض عن مقتضيات الهوى، ومن الرضا بالقضاء، ومن الصبر على العناء، والشوق إلى الفناء.

ثمّ قال سبحانه توبيخًا وتقريعًا على المشركين: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون أولئك التائهون في تيه الغفلة والغرور ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ المأمورون لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[1] يا أكمل الرسل؛ أي: يوم القيامة المعدة لتعذيبهم وانتقامهم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إمهال هؤلاء الهالكين وإهمالهم في أمر الإيمان ﴿فَعَلَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ في زمن الأنبياء الماضين ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ المجازي لهم على مقتضى إساءتهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:33] أي: يظلمون هم أنفسهم بعرضها على المهالك الموجبة أنواع العذاب والعقاب من تكذيب الرسل، وإنكار الكتب، وترك المأمورات، وارتكاب المنهيات.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧)﴾

---

(1) قال في التأويلات: أي: جذبات الحق للوصول والخلوة التي لا يسعهم فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج حين بقي عند جبريل في سدرة المنتهى وعبر بالرفرف إلى قرب قاب قوسين، وبقي الرفرف ثمة فكان ينتظر أمر ربه بقوله تعالى: ادن مني فجذبة الأمر أنزله مقام أو أدنى.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: 34 – 39].

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ عتوًا وعنادًا ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ جزاء ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [النحل:34] استكبارًا واستنكارًا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ من غاية انهماكهم في الغي والضلال، وشدة إنكارهم وشكيمتهم، متهكمين على وجه الاحتجاج: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، المستقل في الأفعال بالإرادة والاختيار، على زعمكم عدم عبادتنا لآلهتنا وأصنامنا ﴿مَا عَبَدْنَا﴾ ألبتة ﴿مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ إذ مراده مقضي حتمًا ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَا حَرَّمْنَا﴾ نحن ولا آباؤنا من البحائر وغيرها ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: بدون إذنه وإرادته ومشيئته ﴿مِن شَيْءٍ﴾ إذ لا يعارض فعله هذا صورة احتجاجهم واستدلالهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل استدلال هؤلاء الطغاة الغواة، الهالكين في تيه الغفلة والعناد ﴿فَعَلَ الَّذِينَ﴾ خلوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأرسل عليهم رسلاً، فكذبوهم وأنكروا عليهم، فأخذهم الله بذنوبهم، فأهلكهم بأنواع العذاب والعقاب؛ لأن إرادة الله لم تتعلق بإيمانهم وهدايتهم ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ﴾ أي: ما على الرسل ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: تبليغ ما أرسلوا به ﴿الْمُبِينُ﴾ [النحل:35] أي: على وجه التوضيح والتبيين؛ لئلا يبقى لهم شك وتردد في سماعه، وأما قبولهم واتصافهم بها وهدايتهم، فأمرٌ استأثر الله به، ليس لهم أن يخوضوا فيه؛ لأنه خارج عن وسعهم وطاقتهم.

ثمَّ فصل سبحانه ما أجمل بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الهالكة السالفة حين اختل أمور دينهم ﴿رَّسُولاً﴾ منهم، قائلاً لهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ المتصف بالوحدانية والفردانية، المستقل بالوجود والآثار المترتبة عليه، المنزه عن الشريك والأمثال ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1] أي: الآلهة المضلة التي أنتم تتخذونها من تلقاء

---

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى أن شريعة الأنبياء - عليهم السلام - إلى الخلق بأن يأمروهم بعبادة الله واجتناب طاغوت الهوى، وما يعبدون من دون الله ويعلموهم كيفية العبادة الخالصة عن شوائب الرياء والسمعة وكيفية الاجتناب عما سوى الله ليصلوا بهذين القدمين إلى حضرة الجلال، كما قال بعضهم: خطوتان وقد وصلت فالخطوة الأولى: عبادة الله بالتوحيد وهو التوجه

أنفسكم ظلمًا وزورًا، ثمّ لما بلغهم الرسول جميع ما جاء به من عندنا ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ﴾ بأن أراد هدايته فهداه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ﴾ أي: استمرت وثبتت ﴿عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ وتمرنت بقلبه؛ لتعلق مشيئة الله بضلاله، وإن ترددتم فيه ﴿فَسِيرُوا﴾ أيها الشاكون المترددون ﴿فِي الأَرْضِ﴾ التي هي مساكنهم ومنازلهم ﴿فَانظُرُوا﴾ واعتبروا من آثارهم وأطلالهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:36] المستهزئين للرسل والكتب.

﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَى هُدَاهُمْ﴾ وتريد هدايتهم، إنك لا تهدي من أحببت ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ الحكيم الهادي لعباده على مقتضى علمه باستعداداتهم ﴿لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي: لا يريد هداية من أراد ضلاله في سابق علمه، ولوح قضائه ﴿وَمَا لَهُم﴾ بعدما أراد الله إضلالهم ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل:37] ينصرهم على الهداية، ويشفع لهم حتى ينقذهم على الضلال.

﴿وَ﴾ من خبث طينتهم، وشدة بغضهم وضغينتهم ﴿أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: أغلظوا فيها وأكدوا، قائلين: ﴿لَا يَبْعَثُ اللهُ﴾ ولا يحيى مرة أخرى ﴿مَن يَمُوتُ﴾ بأن زال الروح الحيواني عنه، ثمّ قال سبحانه رادًا لهم، وتخطئة على أبلغ وجه وآكده أيضًا: ﴿بَلَى﴾ يبعثون؛ إذ وعد الله البعث والحشر ﴿وَعْدًا﴾ صدقًا ﴿عَلَيْهِ﴾ سبحانه إنجاز ما وعد ﴿حَقًّا﴾ حتمًا وفاءً لوعده، وإيفاءً لحكمه، مع أنه القادر المقتدر بالقدرة الكاملة على كل ما دخل تحت حيطة إرادته ومشيته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:38] حق قدره، وقدر قدرته وسطوته وبسطته.

وإنما ينجز الوعد الموعود ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ويوضح ﴿لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ بل يستبعدونه ويستحيلونه ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ له، وأنكروا عليه عنادًا ومكابرةً ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:39] في إصرار عدم وقوعه وتكذيبه.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ

إلى الله بالكلية طلبًا وشوقًا ومحبة، والثانية: الخروج عما سوى الله بالكلية صدقًا واجتهادًا بليغًا؛ لينالوا ما نال من قال لربه: كلي لكلك مشغول، فقال: كلي لكلك مبذول.

صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [النحل: 40 – 46].

وكيف تستبعدون أيها المنكرون أمثال هذا عن كمال قدرتنا وعلمنا وإرادتنا ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ وحكمنا حين تعلق إرادتنا ﴿لِشَيْءٍ﴾ أي: لإظهار شيء من الأشياء المثبتة في لوح قضائنا، وحضرة علمنا، أي: شيء كان عظيمًا أو حقيرًا ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أن يوجد ويتحقق في عالم الشهادة ﴿أَن نَّقُولَ لَهُ﴾ على مقتضى صفتنا القديمة التي هي الكلام، فارضين وجوده وتحققه؛ إذ هو عدم صرف، ولا شيء محض: ﴿كُن﴾ كالمكونات الأخر ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل:40] بلا تراخ ومهلة وامتداد ساعة ولحظة، بل التلفظ بحرف التعقيب بين الأمر الوجودي الإلهي، وحصول المأمور المراد له سبحانه، إنما هو من ضيق العطف وضرورة التعبير، وإلّا فلا ترتب بينهما إلّا وهمًا؛ إذ الترتب إنما يحصل من توهم الزمان والآن، وعنده سبحانه لا زمان ولا مكان، بل له شأن لا يسع في زمان ومكان.

ثمّ أشار سبحانه إلى علو درجة المؤمنين، وارتفاع شأنهم، ورفعة قدرهم ومكانهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ عن بقعة الإمكان، حال كونهم سائرين ﴿فِي﴾ سبيل ﴿اللَّهِ﴾ بعدما حصل لهم مرتبة التمكن والاطمئنان ﴿مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ بتسلط الأمارة عليهم زمانًا ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ ونمكنهم ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ أي: في نشأتهم الأولى ﴿حَسَنَةً﴾ أي: حصة كاملة، وحظًا وافرًا من المعارف والحقائق إلى حيث انخلعوا عن اللوازم البشرية بالمرة، وماتوا عن أوصاف البهيمية إرادةً واختيارًا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ المعدة لرفع الحجب، وكشف الغطاء والسدل ﴿أَكْبَرُ﴾ قدرًا، وأعظم شأنًا، وأعم لذةً ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:41] ويفهمون لذته بالذوق لمالوا إليه زيادة ميل، واجتهدوا نحوه زيادة اجتهاد، رزقنا الله الوصول إليه، والحصول دونه، وأذاقنا لذته.

وأيضًا ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما أصابهم من المصيبات والبليات، مسترجعين إلى الله في جميع الحالات ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا على غيره من الوسائل والأسباب

﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:42] في جميع شئونهم وتطوراتهم.

﴿وَ﴾ كيف يستبعدون رسالتك يا أكمل الرسل أولئك المشركون المعاندون، إذ ﴿مَا أَرْسَلْنَا﴾ للرسالة العامة رسلاً ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ مبشرين ومنذرين ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ أمثالك ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ شعائر الدين والإيمان، وننزل عليهم الكتب المبينة لأحكامها، فإن لم يقبلوا منك، ولم يعتقدوا صدقك، فقل لهم: ﴿فَاسْأَلُوا﴾ أيها المكابرون المعاندون، الجاهلون بحال من مضي من الأنبياء ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ والعلم منكم، وهم الأحبار والقسيسون ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:43] صدقه ومطابقته للواقع.

وكما أيدنا الرسل والأنبياء الماضين ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ اللائحة ترويجًا لما جاءوا به، وأرسلوا معه؛ ليبينوا ويوضحوا بها أحكام أديانهم ﴿وَ﴾ كذلك أيضًا ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الذِّكْرَ﴾ أي: الكتاب المعجز المشتمل على شعائر الإسلام وأحكامه ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ المتوغلين في الغفلة والنسيان ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من عند ربهم على مقتضى أزمانهم وأطوارهم من الأوامر والنواهي، والآداب والأخلاق ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾ بعد تبليغك إياهم، وتبيينك لهم ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] [النحل:44] في آياته وأحكامه، ويتأملون في حكمه ومرموزاته؛ كي يتفطنوا إلى معارفه وحقائقه، وكشوفاته وشهوداته الموعودة فيه.

ثمَّ قال سبحانه تهديدًا على أهل الزيغ والضلال، المنحرفين عن طريق الحق عتوًا وعنادًا: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ واحتالوا لهلاك الأنبياء، سيما معك يا أكمل الرسل، ولم يخافوا ﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ﴾ القادر الغالب على الانتقام ﴿بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفنا على قارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بغتةً، حال كونهم بائتين في مراقدهم ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ هم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:45] أماراتها ومقدماتها.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ العذاب وهم ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ وتحركهم دائرين مترددين ﴿فَمَا هُم﴾ حين أخذه ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل:46] مقاومين قادرين على دفع قهر الله وعذابه.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ

---

(1) فيما يستمعون من بيان القرآن والأحكام منكم على أنك أمي ما قرأت الكتب المنزلة، ولا تعلمت العلوم وإنما يتبين لهم من نور الذكر يلازمون الذكر ويواظبون عليه ليصلوا إلى مقام المذكورين في متابعتك ورعاية سنتك. [التأويلات النجمية].

يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠) ❁ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾ [النحل: 47 - 55].

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ العذاب ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ وتنقص من أموالهم وأولادهم على سبيل التدريج إلى أن يستأصلهم بالمرة ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾ أيها المجترئون على الله ورسوله، المسيئون الأدب معهما ﴿لَرَءُوفٌ﴾ عطوف مشفق، لا يعاجلكم بالعذاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل:47] يمهلكم ويؤخر انتقامكم رجاء أن تتذكروا وتتعظوا.

﴿أَ﴾ يصرون ويستمرون أولئك المشركون المسرفون على الشرك والنفاق ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ وينظروا نظر العبرة والاستبصار ﴿إِلَى﴾ انقياد جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ وأوجده وأظهره من كتم العدم إظهارًا إبداعيًا لحكمه وأمره ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ أي: يميل وينقلب ﴿ظِلَالُهُ﴾ بانقلاب الشمس وحركتها ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ مرة ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾ أخرى، على مقتضى اختلاف أوضاع الشمس، حال كونهم ﴿سُجَّدًا﴾ ساجدين متذللين خاضعين، واضعين جباهم على تراب المذلة إطاعةً وانقيادًا ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل في الألوهية والربوبية ﴿وَهُمْ﴾ في جميع حالاتهم وتقلباتهم ﴿دَاخِرُونَ﴾ [النحل:48] صاغرون ذليلون، خائفون من جلال الله وكبريائه، مستوحشون على سطوة قهره، وصولة استيلائه.

﴿وَ﴾ كيف يستكبرون أولئك المشركون المنكرون عن انقياد الله وإطاعته؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ لا لغيره من الأظلال الهالكة، والتماثيل الباطلة ﴿يَسْجُدُ﴾ ويتذلل طوعًا وطبعًا جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ كذا جميع ﴿مَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ تتحرك وتخرج من العدم نحو الوجود بامتداد أظلال الأوصاف الإلهية، ورش رشحات زلال وجوده عليها ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ المهيمون المستغرقون في مطالعة جمال الله وجلاله ﴿وَهُمْ﴾ من غاية قربهم، وتنزههم عن العلائق المبعدة عن الله، وتجردهم عن أوصاف

الإمكان مطلقاً ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1] [النحل:49] عن عبادة الله، والتذلل نحوه، فكيف أنتم أيها الهلكي الغرقى، المنغمسون في بحر الغفلة والضلال.

وإنما يسجد أولئك الساجدون المتذللون، لأنهم ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ القادر على الإنعام والانتقام أن يرسل عليهم عذابًا ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ لأنهم مقهورون تحت قبضة قدرته ﴿وَ﴾ لذلك ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:50] ويجتنبون عما ينهون.

﴿وَ﴾ كيف لا تمنعون عن إثبات الشركاء لله الواحد الأحد الصمد أيها المشركون المعاندون بعدما ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ عز شأنه، وجل بركاته: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أيها المكلفون بالإيمان والعرفان ﴿إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ مستحقين للعبادة والانقياد، فكيف الزيادة ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ يُعبد بالحق، يُرجع نحوه في الوقائع، ويُفوض إليه الأمور كلها، وما هو إلّا أنا ﴿فَإِيَّايَ﴾ لا إلى غيري من مخلوقاتي ومصنوعاتي ﴿فَارْهَبُونِ﴾ [النحل:51] أي: خصوني بالخوف والرجاء، وارجعوا إليّ عند هجوم البلاء، ونزول القضاء؛ إذ لا راد لقضائي إلّا فضلي وعطائي.

﴿وَ﴾ كيف لا يُرجع إليه، ويُستغاث منه، مع أن ﴿لَهُ﴾ ومنه ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات التي هي الفواعل والمفيضات المؤثرات ﴿وَ﴾ ما ظهر في ﴿الْأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة من الاستعدادات التي هي القوابل المتأثرات من العلويات ﴿وَلَهُ﴾ لا لغيره من الأسباب والوسائل العادية ﴿الدِّينُ﴾ أي: الإطاعة والانقياد، والتوجه والرجوع ﴿وَاصِبًا﴾ دائمًا حتمًا لازمًا ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ المحيط للكل

(1) قال في التأويلات: بل يتذللون لكل شيء من بين يدي صانعه ساجد سجود يلائم حاله كما أن كل شيء يسبح بحمده تسبيحًا يلائم حاله، فتسبيح بعضهم بلسان المقال، وتسبيح بعضهم بلسان الحال، والله يعلم لسان حالهم كما لسان قالهم، واعلم أن الله تعالى أعطى لكل شيء من أصناف المخلوقات من الحيوانات إلى الجمال سمعًا وبصرًا ولسانًا وفهمًا به يسمع كلام الحق ويبصر شواهد الحق ويكلم الحق ويفهم إشارته، كما أخبر الله تعالى عن حال السموات والأرض وهما في العدم أعطاهما سمعنا به سمعا قوله: ﴿ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ [فصلت:11] وأعطاهما فهمًا به فهما كلامه وأعطاهما لسانًا به قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:11] فكل شيء يسبح الله بذلك اللسان ويسجد بذلك الطوع، فمن هذا اللسان الملكوت بمعجزة النبي ﷺ كانت الحصى تسبح له في يده، وكذلك الأحجار الثلاثة كلمت داود ﵇، وأوبت الجبال معه لما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:44].

إحاطة شهود وحضور ﴿تَتَّقُونَ﴾ [النحل:52] وتحذرون أيها الجاهلون بحق قدره، مع أنه لا ضار سواه، ولا نافع غيره؟!.

﴿وَ﴾ واعلموا ايها المجبولون على التكليف أن ﴿مَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ واصلة لكم، نافعة لنفوسكم، مسرة لقلوبكم ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ المصلح لأحوالكم، وصلت إليكم امتنانًا عليكم وتفضلاً؛ إذ لا نافع إلّا هو ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ المشوش لنفوسكم، القاسي لقلوبكم ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:53] تتضرعون وتستغيثون ليدفع عنكم أذاكم؛ إذ لا ضار أيضًا إلّا هو.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ﴾ بعد استغاثتكم ورجوعكم نحوه؛ إذ لا كاشف سواه ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ أي: فجاء طائفة ﴿مِّنكُم بِرَبِّهِمْ﴾ الذي يدفع أذاهم، ويكشف ضرهم ﴿يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:54] له غيره من الأصنام والتماثيل العاطلة التي لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، فكيف لغيرهم؟!.

وإنما فعلوا ذلك وأشركوا ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم، ولم يقوموا بشكرها عنادًا ومكابرةً، بل أسندوها إلى ما لا شعور لها أصلاً ظلمًا وزورًا ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أيها المشركون بنا، الكافرون لنعمنا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:55] ما تكسبون لنفوسكم من العذاب المخلد، والعقاب المؤبد.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾[النحل: 56 – 64].

والعجب كل العجب ينكرون بنا، مع أنا متصفون بجميع أوصاف الكمال، منعمون لهم بالنعم الجليلة الجزيلة ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ ويعينون ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآلهتهم التي لا يعلمون ولا يفهمون منهم حصول الفائدة لهم، وجلب النفع إليهم أصلاً؛ إذ هي جمادات نحتوها بأيديهم ﴿نَصِيبًا﴾ أي: حظًا كاملاً ﴿مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾[1] وسقنا نحوهم جهلاً وعنادًا، ومع ذلك خيلوا أنهم لا يسألون عنها، ولا يؤاخذون عليها، بل يثابون بها على زعمهم الفاسد، ورأيهم الكاسد ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ أيها المسرفون ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾[النحل:56] علينا بإثبات الشركاء، وإسناد نعمنا إليهم افتراءً ومراءً.

﴿وَ﴾ من جملة مفترياتهم بالله المنزه عن الأشباه والأولاد: إنهم ﴿يَجْعَلُونَ﴾ ويثبتون ﴿لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ حيث يقولون: الملائكة بنات الله، مع أنهم يكرهونها لأنفسهم ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا ﴿وَلَهُم﴾ أي: يثبتون لأنفسهم ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:57] من البنين.

﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾ أي: بولادتها ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار وجهه أسود من غاية الحزن والكراهة ﴿وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿كَظِيمٌ﴾ [النحل:58] ممتلئ من الغيظ والبغض على الزوجة والوليدة.

وصار من شدة الغم والهم إلى حيث ﴿يَتَوَارَىٰ﴾ ويستتر ﴿مِنَ الْقَوْمِ﴾ استحياءً ﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي: الوليدة المبشرة بها، وتردد في أمرها ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: هوان ومذلة ﴿أَمْ يَدُسُّهُ﴾ ويخفيه ﴿فِي التُّرَابِ﴾ غيرةً وحميةً ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:59] لأنفسهم ما يشتهون، ولله المنزه عن الولد ما يكرهون.

ثم قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ المعدة لعرض الأعمال على الله والجزاء منه على مقتضاها ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ في حق الله المنزه عن الأهل والولد، سيما نسبتهم إليه ما يستقبحه نفوسهم من إثبات البنات له، تعالى عما يقول الظالمون علوًا

(1) قال في التأويلات: إلى أصحاب النفوس والأهواء أنهم يجعلون مما رزقهم الله من الطاعات نصيبًا بالرياء لمن لا علم لهم بأحوالهم شركًا لنفوسهم بحسبان رفعة منزلتهم عندهم وهم غافلون فارغون عن توهمهم وافترائهم في نفوسهم عليهم.

كبيرًا ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ هو الغني عن العالم وما فيها، فكيف الزواج والإيلاد، واللذين هما من أقوى أسباب الإمكان المنافي للوجوب الذاتي الذي هو من لوزام الألوهية والربوبية ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المتفرد، المنيع ساحة عزته عن الاحتياج إلى غيره مطلقًا، فكيف إلى الزوجة والولد ﴿الْحَكِيمُ﴾ [النحل:60] المتصف بكمال الحكمة المتقنة، كيف يختار لذاته ما لا يخلو عن وصمة النقصان؟!.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿النَّاسَ﴾ الناسين عهود العبودية على مقتضى عدله وانتقامه ﴿بِظُلْمِهِم﴾ ومعاصيهم الصادرة عنهم دائمًا ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على وجه الأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ أي: ذي حركة تتحرك عليها؛ إذ ما من متحرك إلّا وينحرف عن جادة العدالة كثيرًا ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ويمهلهم على مقتضى فضله وحكمته ولطفه ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: سمّاه الله وعينه في علمه لموتهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المسمى المبرم المقضى به ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1] [النحل:61] أي: لا يسع لهم الاستئخار والاستقدام، بل لا بدّ أن يموتوا فيه حتمًا مقضيًا.

﴿وَ﴾ من خبث باطنهم ﴿يَجْعَلُونَ﴾ وينسبون ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن الأنداد والأولاد ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ ما يستقبحون لنفوسهم، وهو إثبات البنات له سبحانه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَصِفُ﴾ وتقول ﴿أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ تصريحًا وتنصيصًا ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي: بأن لهم المثوبة العظمى، والدرجة العليا عند الله، بل ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا عليهم وحتمًا ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي: جزاؤهم مقصورٌ على النار، مخلدون فيها ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:62] في العذاب، مقدّمون على جميع العصاة والطغاة الداخلين في النار، المجزيين بها؛ لاستكبارهم على الله ورسله.

(1) قال الشيخ نجم الدين: فتأخير أهل السعادة وأرباب السلوك إلى أجل سماه الله بحكمة وسعة في إفناء كل صفة من صفات النفس بتبديلها بصفات القلب والروح في حينه وأوانه، فإن صفات النفس سلم إلى القلب والروح به تصعد النفس إلى عالم الروحانية بقدم إفناء صفاتها في صفات الروحانية بتبديلها بها وتأخير أهل الشقاوة وأصحاب النار إلى أجل سماه الله بحكمته وسنته في إفناء كل صفة من صفات الروحانية بتبديلها بصفات النفسانية الحيوانية في حينه وأوانه، وأن الروح تسلم هذه الصفات وتنزل إلى سفل الحيوانية حتى تنخرط في سلك ﴿أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:179].

﴿تَاللَّهِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسلاً ﴿إِلَى أُمَمٍ﴾ مضوا ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ حين فشا الجدال والمراء بينهم، فانحرفوا عن جادة الاعتدال، وأيدنا الرسل بالكتب المبينة لطريق العدالة والاستقامة، فبينوا لهم على أبلغ وجه ﴿فَزَيَّنَ﴾ وحسّن ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ المغوي المضل ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ التي كانوا عليها، فأصروا على أعمالهم، فلم يقبلوا قول الأنبياء؛ لذلك نزل عليهم من العذاب ما نزل في الدنيا، وسينزل في الآخرة بأضعافه وآلافه ﴿فَهُوَ﴾ أي: الشيطان ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ أي: متولي أمور هؤلاء عنهم ﴿الْيَوْمَ﴾ لذلك لم يقبلوا قولك، ولم يسمعوا بيانك، بل أصروا على ما عليه أسلافهم من الغواية والضلالة ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضًا مثل أسلافهم، بل أشد منهم ﴿عَذَابٌ﴾ في النشأة الأولى والأخرى ﴿أَلِيمٌ﴾ [النحل:63] مؤلم أشد إيلام؛ لأن بيانك وتبليغك أكمل من بيان سائر الأنبياء.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْكِتَابَ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة مع زيادات خلت عنها تلك الكتب ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ﴾ وتوضح ﴿لَهُمُ﴾ أي: للناس الأمر ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: التوحيد الذاتي وأحوال النشأة الأخرى، والمكاشفات والمشاهدات الواقعة فيها ﴿وَ﴾ أنزلناه أيضًا ﴿هُدًى﴾ أي: هاديًا، يهديهم إلى التوحيد ببيان براهينه وحججه الموصلة إليه بالنسبة إلى أرباب المعاملات والمجاهدات، من الأبرار السائرين إلى الله بارتكاب الرياضات القالعة لدرن الإمكان، ورين التعلقات.

﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: كشفًا وشهودًا بالنسبة إلى المجذوبين المنجذبين نحو الحق، المنخلعين عن جلباب ناسوتهم بغتة، بلا صنعٍ صدر عنهم، وأمرٍ ظهر منهم، بل جذبهم الحق عن بشريتهم، وبدّلهم تبديلاً، كل ذلك ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:64] ويوقنون بتوحيد الله وصفاته الذاتية، ويتأملون في آثار مصنوعاته تأملاً صادقًا، ويعتبرون منها اعتبارًا حقًّا إلى أن ينكشفوا ويفوزوا بما فازوا، وينالوا بما نالوا، وليس وراء الله مرمى ولا منتهى.

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [النحل: 65 – 71].

﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده إلى زلال توحيده ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: الطبيعة الهيولانية ﴿مَاءً﴾ أي: معارف وحقائق وعلومًا لدنية ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ﴾ أي: الطبيعة الهيولانية ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعدما كانت عدمًا صرفًا، فاتصفت بالعلوم والإدراكات الجزئية، وترقت منها متدرجًا إلى أن وصلت إلى مرتبة التوحيد المسقط للإضافات مطلقًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التبيين والتذكير ﴿لآيَةً﴾ دلائل وشواهد دالة على توحيد الحق ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل:65] سمع قبول وتأمل وتدبر.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيضًا أيها المتأملون المتدبرون ﴿فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ لو تعتبرون بها، وتتفكرون فيها حق التفكر والتدبر لانكشفتم بعجائب صنعنا، وكمال قدرتنا، ومتانة حكمتنا، وحيطة علمنا وإرادتنا؛ إذ ﴿نُسْقِيكُم﴾ ونُشربكم ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي: مما في بطون بعض الأنعام مستخرجًا ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ﴾ أي: أخلاط وفضلات مستقرة في كرشها ﴿وَدَمٍ﴾ نجس سائل، سارٍ في العروق والشرايين ﴿لَّبَنًا﴾ طاهرًا ﴿خَالِصًا﴾ صافيًا عن كدورات كلا الطرفين، بحيث لا يشوبه شيء منهما، لا من لون الدم، ولا من ريح الفرث ﴿سَائِغًا﴾ سهل المرور والانحدار، هنيئًا مرئيًا ﴿لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:66] بلا تعسر لهم في شربه ولا كلفة.

﴿وَ﴾ نسقيكم أيضًا أيها المعتبرون ﴿مِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ﴾ بحيث ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ أي: من عصير كل منهما ﴿سَكَرًا﴾ خمرًا، يترتب على شرب السكر المسكر، وهو وإن كان حرامًا شرعًا، إلا أنه يدل على عجائب صنع الله، وبدائع حكمته، وغرائب إبداعه واختراعه. ﴿وَ﴾ تتخذون من كل منهما ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب، والدبس والخل، وأنواع الأدم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الاتخاذ ﴿لآيَةً﴾ دالة على كمال قدرة الله

وحكمته ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل:67] أي: يستعملون عقولهم بالنظر والتفكر في آلاء الله ونعمائه؛ كي يتفطنوا إلى وحدة ذاته.

﴿وَ﴾ من عجائب المبدعات، وغرائب المخترعات التي يجب العبرة والاعتبار عنها: إنه ﴿أَوۡحَىٰ﴾ وألهم ﴿رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ الضعيف المنحول المستحقر إظهارًا لكمال قدرته وحكمته ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي﴾ أي: بأن اتخذي - أنثها باعتبار المعنى، وإن كان لفظ النحل مذكرًا - ﴿مِنَ﴾ شقوق ﴿ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ تأوين إليها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مِنَ﴾ شقوق ﴿ٱلشَّجَرِ﴾ في الآجام ﴿وَ﴾ كذا ﴿مِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ [النحل:68] ويبنون لك من الأبنية والأماكن، واصنعي فيها بإلهام الله إياكِ بيوتات من الشمعة المتخذة من أنواع الأزهار والنباتات التي لا علم لنا بتعيينها وإحصائها كلها مسدسات، متساويات الأضلاع والزوايا، بحيث لا تفاوت بين أضلاعها وزواياها أصلاً، بحيث عجز عن تصويرها حذّاق المهندسين، فكيف عن تحقيقها وكنهها، تاهت في بيداء ألوهيته أنظار العقل وآراؤه.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تم بناؤك ﴿كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي ألهمناك أكلها ﴿فَٱسۡلُكِي﴾ في اتخاذ العسل منها ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي: السبل التي ألهمك ربك بسلوكها على وجهها بلا انحراف واعوجاج ﴿ذُلُلٗا﴾ مسخرة في حكمه بلا تصرف صدرت عنك.

ثمّ لما عملتْ على مقتضى ما أوحيت وألهمت ﴿يَخۡرُجُ﴾ لكم أيها المكلفون بالإيمان والمعارف ﴿مِنۢ بُطُونِهَا﴾ أي: بطون البيوتات ﴿شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾[1]

(1) قال روزبهان: شراب معرفته بقدم جلال وعز بقائه، وأنوار ذاته، فاختلاف ألوانه باختلاف رؤيتها أنوار كل صفة، فعلى قدر رؤية الصفات يكون ألوانها، فمن لون المحبة، ومن لون العشق، ومن لون الأنس، ومن لون الفكر، ومن لون القبض والبسط، ومن لون الخوف والرجاء، ومن لون البسط والانبساط في هذه المقامات شفاء لكل مريض المحبة، وسقيم الألفة، وملدوغ الشوق، وسليم المعرفة، ومن شأن ذلك العسل لون نوري من بهاء الله وطعم حلاوة من حلاوة وصلة الله، فإذا حصل ذلك العسل من مشاهدة الله في حواصل تلك النحل، يحصل من ذلك العسل الذي صدر من تجلي الربوبية لها شمع العبودية، فإذا قهر عليه نيران المحبة تتميز بين الربوبية والعبودية، فيصير عسل الربوبية موضع ذوق مقام الأنس، كقوله ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»؛ فمن شرب قطرة منه بنعت الجذب، ومتابعته بنعت المحبة، يشفيه من كل سقم من علل الشهوات النفسانية، ولسقم الشيطانية ويصير مربي صحيحًا بأنوار الربوبية، فحالاته شراب الوصال يليق بالمخمورين بخمار الإرادة، ويكون شمعه أوصاف العبودية الخالصة بسرجه من نور كواشفه ومعارفه، فيضيء لكل سالك طريقه، وكل سائلٍ رشده.

أبيض وأسود، وأخضر وأصفر ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ عن الأمراض البلغمية بالأصالة، وعن غيرها بالتبعية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإلهام والوحي والخطاب على الزنبور الضعيفة بأوامر عجزت عنه فحول العقلاء، الكاملين في القوة النظرية والعلمية، وامتثالها وصنعها على الوجه المأمور بلا فوت شيء منها ﴿لَآيَةً﴾ أي: دليلاً واضحًا، وبرهانًا قاطعًا لائحًا على قدرة القادر العليم، والصانع الحكيم الذي ألهمها وأوصاها ما أوصاها ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:69] ويتدبرون في الأمور، ويتعمقون فيها متدبرين في أنيتها؛ كي يصلوا إلى لميتها.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر للإحياء والإماتة ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم إظهارًا إبداعيًا، وإيجاءً اختراعيًا مقدرًا مدة معينة لبقائكم في النشأة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء المدة المقدرة ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: يميتكم ويفنيكم ﴿وَمِنكُم مَّن﴾ يقدر لبقائه في هذه النشأة مدة متطاولة، بحيث ﴿يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وأخسّه وأسوئه، وإنما يرد بعض الناس إليه ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ﴾ ويفهم ﴿بَعْدَ﴾ تعلق ﴿عِلْمٍ﴾ منه بمعلومٍ مخصوصٍ ﴿شَيْئًا﴾[1] من أحوال ذلك المعلوم؛ يعني: يرجع إلى مرتبة الطفولية بعد كمال العقل، وإنما رده سبحانه إظهارًا للقدرة الكاملة، وتذكيرًا وعبرةً للناس؛ لئلا يطلبوا من الله طول الأعمار، وبُعد الآجال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ومفاسدهم ﴿قَدِيرٌ﴾ [النحل:70] مقدر مقتدر للأصلح لهم تفضلاً وامتنانًا.

﴿وَاللَّهُ﴾ المقدر لمصالحكم أيضًا ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ بأن

---

(1) في قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ نكر العلم والشيء؛ إشارة إلى أن العارف بالله إذا وصل إلى الله؛ كان علمه علمًا واحدًا هو علمه بالله تعالى فهو أجلّ العلوم كما أن الله تعالى أجلّ المعلومات؛ يعني أن أجلّ العلوم هو ما تعلّق بأجلّ المعلومات، وأمّا ما عاده مما تعلّق بغير الله تعالى فدونه فظهر أن علم التصوّف أجلّ العلوم ولأنه باحث عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله من طريق الكشف لا من طريق العقل كما عليه أهل الحكمة البحثية ونحوهم وكذا العلوم الكشفية إذا لم تكن سفلية متعلّقة بالأكوان بل كانت عُلوية متعلّقة بما ذكر من ذات الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله وهي عين العلوم التي تُذكر في كتب التصوّف؛ لكنها من قبيل العين والأذواق، وما في كتب التصوّف فرموز، وإشارات، ورسوم وإنما نُكّر الشيء؛ لأن الأشياء أيضًا في الحقيقة شيء واحد، والوجود والعالم من جوهر واحد فإذا اتّحد العلم اتّحد الأشياء ولمّا لم يكن الأشياء ذاتية أصلية باقية على حالها وإنما خُلقت كتلوّن زوال وشواهد اضمحلّت عند حصول الفناء فكان علم الفاني في الله العلم بالله لا العلم بالأشياء والأشياء.

قدر للبعض غنى، وللبعض فقرًا، وللبعض كفايةً، على حسب تفاوت مراتبهم واستعداداتهم في علم الله، ولوح قضائه، وقدر البعض مالكًا للبعض، والبعض مملوكًا له ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ بسعة الرزق والبسطة من الموالي والملاك ﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ﴾ أي: بعض مارزقهم الله ﴿عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من المماليك بأن يقدّر للمماليك في قسمة الله رزق، بل ﴿فَهُمْ﴾ أي: المماليك والموالي ﴿فِيهِ﴾ أي: في تقدير الرزق وقسمته ﴿سَوَاءٌ﴾ أي: كما قدّر للمُلاك قدّر للمماليك أيضًا، غاية ما في الباب: إن الرزق المقدر للمماليك إنما يصل إليهم من يد الموالي ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل:71] ينكرون ويكفرون بإسناد أرزاق المماليك إلى الموالي، لا إلى الله الرازق لجميع العباد.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل: 72 – 77].

﴿وَاللهُ﴾ المدبر المصلح لأحوال عباده ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ تفضلاً عليكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم، وبني نوعكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساءً، تستأنسون بهن، وتستنسلون منهن ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ﴾ ليخلفوا فيكم، ويحيوا أسماءكم ﴿وَ﴾ جعل لكم من أبنائكم وبناتكم ﴿حَفَدَةً﴾ يسرعون إلى خدمتكم وطاعتكم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿رَزَقَكُم﴾ الله تفضلاً عليكم وامتنانًا ﴿مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المقوية المقومة لأمزجتكم

وبنيتكم؛ لتواظبوا على طاعة الله، وتداوموا الميلَ إلى جنابه، وتلازموا شكرَ نعمه ﴿أَ﴾ تتركون متابعة الحق الحقيق بالتبعية، وهو القرآن المعجز، والرسول المبين له ﴿فَبِالْبَاطِلِ﴾ الذي هو الأصنام والأوثان ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون ويعبدون ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بِنِعْمَةِ اللهِ﴾ المنعِم المكرِم بأنواع الكرم ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل:72] حيث صرفوها إلى خلاف ما أُمروا بصرفها؛ إذ إعطاء النعم إياهم إنما هو لتقوية طاعة الله، وكسب معارفه وحقائقه، لا لعبادة الأصنام والأوثان الباطلة.

﴿وَ﴾ من خبث باطنهم، وثمرة كفرانهم نعم الله أنهم ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ المالك لأزمة الأمور الجارية في خلال الزمان والدهور ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ معنويًا روحانيًا فائضًا ﴿مِّنَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات على مقتضى الجود الإلهي ﴿وَ﴾ لا رزقًا صوريًا جسمانيًا معنويًا؛ لاكتساب المعارف الروحانية، مستخرجة من ﴿الأَرْضِ﴾ أي: عالم الهيولي والطبيعة ﴿شَيْئًا وَ﴾ هم أيضًا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل:73] لأنفسهم، فكيف لغيرهم؟!.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا﴾ ولاتثبتوا أيها الجاهلون بقدر الله وعلو شأنه ﴿لِلهِ﴾ المنزه عن الأنداد والأشباه ﴿الأَمْثَالَ﴾ إذ لا مثل ولا شبه ولا كفء، فكيف يشاركون له دونه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لجميع الكوائن والفواسد ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع أحوالكم، وأحوال معبوداتكم، وما جرى عليكم وعليهم ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها الغافلون الجاهلون بحق قدره ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:74] منه شيئًا، فكيف تضربون له مثلاً؟!.

بل ﴿ضَرَبَ اللهُ﴾ العالم بجميع السرائر والخفايا ﴿مَثَلاً﴾ لنفسه، ولمن أثبت المشركون له سبحانه شريكًا من الأصنام والأوثان، مثّل سبحانه شركاءهم ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ رقيقًا لا مكاتبًا ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من التصرف في مكاسبه بغير إذن مولاه ﴿وَ﴾ مثّل سبحانه نفسه ﴿مَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا﴾ يعني: من أحرارنا لأرقائهم تفضلاً وإحسانًا ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالاً وافرًا ﴿فَهُوَ يُنفِقُ﴾ ويتصرف ﴿مِنْهُ﴾ أي: من رزقه وكسبه ﴿سِرًّا﴾ بحيث لا يطلع على إنفاقه أحد، حتى الفقراء المستحقون ﴿وَجَهْرًا﴾ وعلانية على رءوس الملأ.

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ الأحرار المتصرفون أموالهم بالاستقلال والاختيار، وأولئك العبيد المعزولون عن التصرف رأسًا ﴿الْحَمْدُ لِلهِ﴾ على ما أعطانا عقلاً نجزم به عدم المساواة بين الفريقين، ونميز به الحق عن الباطل، والهداية عن الضلال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

﴿يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:75] الفرق بين كلا الفريقين؛ لعدم صرفهم نعمة العقل إلى ما خُلق لأجله، وهو الامتياز المذكور.

﴿وَضَرَبَ اللهُ وَهُوَ﴾ أيضًا ﴿مَثَلاً﴾ لنفسه، ولتلك المعبودات الباطلة، فقال: مثَلُنا ومثَلُهم مثل ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ أي: أخرس وأصم ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من التفهم والتفهيم ﴿وَ﴾ كيف يقدر على النفع للغير؛ إذ ﴿هُوَ﴾ في نفسه ﴿كَلٌّ﴾ ثقل ﴿عَلَى مَوْلاهُ﴾ أي: حافظه ومولي أموره ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ ويصرفه لطلب المهام ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ نجحٍ ونيلٍ، وهو مثل الأصنام العاطلة الكليلة التي لا خير فيها أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ أيها العقلاء المميزون ﴿هُوَ﴾ أي: هذا الموصوف بالأوصاف المذكورة ﴿وَمَن﴾ هو ذو منطق فصيح معرب ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ وينال بالخير والحسنى أينما توجهه بنفسه ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:76] معتدلٍ مائلٍ عن كلا طرفي الافراط والتفريط المذمومَين، وهو مثل لله الواحد الأحد الصمد، المتصرف المستقل في ملكه بالإراده والاختيار.

ثُمَّ أشار سبحانه إلى علو شأنه، وسمو برهانه، وتخصصه باطلاع المغيبات التي لا اطلاع لأحدٍ عليها، فقال: ﴿وَلِلهِ﴾ خاصةً واستقلالاً ﴿غَيْبُ السَّمَوَاتِ﴾ أي: ما فيها من جنود الله ومخلوقاته ﴿وَ﴾ غيب ﴿الأَرْضِ﴾ أي: ما عليها أيضًا من جنوده، لا اطلاع لأحدٍ منَّا عليها ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ الموعودة، وقصة وقوعها وقيامها بالنسبة إلى قبضة قدرته ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ أي: كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها في القرب والدنوّ ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي: بل هو أقرب من رجع الطرف؛ إذ الآن فيه متحقق في سرعة نفوذ قضاء الله بعد تعلق إرادته، الآن موهوم مخيل؛ إذ لا تراخي بين الأمر الألهي ووقوع المأمور المراد له إلَّا وهمًا على ما مر في تفسير قوله سبحانه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:3]، ولا يستبعد عن الله سبحانه أمثال هذا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ داخلٍ في حيطة حضرة علمه وقدرته ﴿قَدِيرٌ﴾ [النحل:77] لاينتهي قدرته دون مقدورٍ أصلاً.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ

بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[النحل: 78 – 85].

﴿وَ﴾ كيف ينتهي قدرته؛ إذ ﴿اللهُ أَخرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وأنتم خاوون عن العلوم كلها، بحيث ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من المعلومات أصلاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ أسبابًا وأدوات تعلمون بها أنواعًا من العلوم، هيأ لكم ﴿السَّمْعَ﴾ لإدراك المسموعات الجزئية ﴿وَالأَبْصَارَ﴾ لإدراك المبصرات الجزئية ﴿وَالأَفْئِدَةَ﴾ لإدراك الكليات والجزئيات، والمناسبات والمباينات الواقعة بين العلوم والإدراكات، كل ذلك بقدرة الله وإرادته، وفضله وجُودِه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] [النحل:78] يعني: رجاء أن تعدُّوا نِعَمَ منعمكم عليكم في شئونكم وتطوراتكم، وتواظبوا على شكرها؛ كي تعرفوا ذاته، وتصلوا إليه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم ينظروا ﴿إِلَى﴾ جنس ﴿الطَّيْرِ﴾ كيف صارت ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذللاتٍ للطيران والسيران بريشات واضحة ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ أي: في الهواء المتباعد عن الأرض ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ بلا علاقةٍ ودعامةٍ ﴿إِلَّا اللهُ﴾ المتفرد بالقدرة التامة الكاملة

---

(1) أخبر تعالى أنه أخرج الكل من بطون الأقدار، وأرحام العدم، وأصلاب المشيئة، على نعت الجهل به والإشراف على ذاته وصفاته بنعت المعرفة، لا يعلمون شيئًا من أحكام الربوبية، وأمور العبودية، والعلم بأوصاف الأزل، فألبسكم أسماعًا من نور سمعه، وكساكم أبصارًا من نور بصره، وأودع في قلوبكم علوم غيبه، بأن حلاها بحلية فطرة الإسلام والإيمان والإيقان، فتسمعون بسمعه كلامه، وتبصرون ببصره جماله، وتعقلون بنوره ذاته وصفاته ونعوته وأسمائه، وتشرب أرواحكم من سواقي قلوبكم شراب محبته وشوقه وعشقه، حين ترد أنوار المواجيد عليها من بحار كشف وحدانيته وسرمديته. [العرائس].

على أمثال هذه المقدورات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الشئون والتطورات المختلفة، والتسخيرات والتذليلات للطير ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل قاطعات على كمال علم الله وقدرته وإرادته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:79] بتوحيد الله، ويعتقدون اتصافه بجميع أوصاف الكمال.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ أي: من جملة مقدرواته المتعلقة بأمور معاشكم: إنه جعل لكم ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ التي بنيتم بأيديكم بإقدار الله وتمكينه وتعليمه إياكم ﴿سَكَنًا﴾ أي: مسكنًا تسكنون فيها، كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر، والآجر والخشب ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ أيضًا ﴿مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: تحملونها وتنقلونها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وترحالكم من مكانٍ إلى مكانٍ ﴿وَ﴾ كذا ﴿يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وحضركم ﴿وَ﴾ جعل لكم أيضًا ﴿مِنْ أَصْوَافِهَا﴾ هي للضائنة والغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ هي للإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ هي للمعز ﴿أَثَاثًا﴾ أي: ما يُلبس ويُفرش ﴿وَ﴾ صار ﴿مَتَاعًا﴾ لكم، تتمتعون بها ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل:80] أي: إلى مدة متطاولة من الزمان.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ أيضًا ﴿مِمَّا خَلَقَ﴾ من الأبنية والشجر والجبال وغيرها ﴿ظِلَالًا﴾ تتفيئون وتستظلون به من حرِّ الشمس ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ أيضًا ﴿مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي: كونًا، تسكنون بها لدفع البرد ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ أيضًا ﴿سَرَابِيلَ﴾ أي: أثوابًا وأكسية وأغطية متخذة من الصوف والقطن، والكتّان والحرير وغيرها ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أي: تحفظكم من شدة الحر ﴿وَسَرَابِيلَ﴾ أي: الدروع والجواشن والسربالات ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ عند الحراب والقتال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما ذُكر من أنواع النعم ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾ الفائضة ﴿عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل:81] أي: تنقادون وتطيعون، وتسلّمون أموركم كلها، وتتخذونه وكيلاً.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن حكم الله بعدما تلوتَ عليهم يا أكمل الرسل ما تلوتَ من أوامره وأحكامه، ولم يقبلوا منك الحق، لا تبالِ بهم وبإعراضهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل:82] الموضح، وقد بلّغتَ، وعلينا الحسابُ والجزاءُ بالعذابِ والعقابِ.

وكيف لا يحاسبون ولا يعاقبون أولئك المشركون، إنهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي عدّها وهيأها لهم ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ من خبث بواطنهم بإسنادها إلى شركائهم وشفعائهم ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ أي: عرفائهم وعقلائهم الذين يعرفون النعمة والمنعم، ثمّ ينكرون إنعامه، وأتباعهم؛ أي: ضعفاؤهم في العقل والتميز كلهم هم ﴿الْكَافِرُونَ﴾

[النحل:83] الجاحدون لله وإنعامه، يجازون على مقتضى جحودهم وإنكارهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيهم القائم بأمرهم، المشرف الناظر بحالهم من قِبَل الحق، يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر، ويوم العرض والجزاء ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا يُمهلون للاعتذار، ولا يُقبل منهم إن اعتذروا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[1] [النحل:84] ويسترضون من العتبى، وهي الرضا.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالعرض على المهالك، بالخروج عن حدود الله الموضوعة فيهم ﴿الْعَذَابَ﴾ الموعود لهم بألسنة الرسل والكتب ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: يتيقنوا أو يتحققوا ألَّا مخلِّص لهم منه، ولا تخفيف عنهم بشفاعة أحد ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النحل:85] يُمهلون؛ ليتداركوا ما فوتوا من الإيمان والإطاعة.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل: 86 – 91].

﴿وَ﴾ كذا ﴿إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ حين يأسوا وقنطوا من شفاعتهم

---

(1) قال في التأويلات: يعني: ولا يتكلفون أن يعرفوا ربهم، وذلك لأن الدنيا مزرعة الآخرة والأرواح تبذور في أرض الأشباح فمربيها ومنبتها ومثمرها أعمال الشريعة بشرط الإيمان ومفسدها ومبطلها ومغير أحوالها عن خصيتها الكفر وأعمال الطبيعة والموت حصادها والقيامة بيدرها فكل نبات فساد في الأرض بطل استعداده لقبول التربية، ولم يتم أمر نباته فلما حصد وحصل في البيدر ولا تفيده أسباب التربية لتغير أحوالها.

ومعاونتهم، وعاينوهم أنهم هلكى أمثالهم ﴿قَالُوا﴾ متضرعين إلى الله نادمين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربَّانا بأنواع اللطف والكرم، فكفَرنا بِنعمك وبك، وبأوامرك ونواهيك الجارية على ألسنة رسلك ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الهلكى الغاوون ﴿شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ عنادًا ومكابرةً، وبواسطة هؤلاء الضُلّال رَدَدْنا قول أنبيائك ورسلك وكتبك، ثمّ لما سمع شركاؤهم منهم قولهم هذا ﴿فَأَلْقَوْا﴾ وأجابوا ﴿إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾: ما تَدْعُون وما تعبدون أيها الضالون الظالمون إلّا أهويتكم وأمانيكم ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل:86] مقصورون على الكذب والزور في دعوى إطاعتنا وعبادتنا.

﴿وَ﴾ حين اضطر أولئك المشركون الضالون ﴿أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي: الاستسلام والانقياد بعدما تعنتوا واستكبروا في النشأة الأولى، وما ينفعهم حينئذٍ انقيادهم وتسليمهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: خَفِي عليهم، وضاع عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل:87] على شركائهم من الشفاعة لدى الحاجة، حتى تبرأوا منهم وكذّبوهم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأعرضوا عن الحق بأنفسهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿صَدُّوا﴾ ومنعوا ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الموصِل إلى توحيده، وهو الشرع الشريف المصطفوي ﴿زِدْنَاهُمْ﴾ في النشأة الأخرى بسبب ضلالهم وإضلالهم ﴿عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:88] الغير عن متابعتك يا أكمل الرسل، ويفسدون في أنفسهم.

﴿وَ﴾ اذكر لهم ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو نبيهم ورسولهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ الغواة البغاة، المنهمكين في بحر الإعراض والإضلال ﴿وَ﴾ الحال: أنا قد ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ المشتمل لفوائد جميع الأديان والكتب، وجعلناه ﴿تِبْيَانًا﴾ موضحًا مفصلاً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحتاج إليه من أمور الدين من الشعائر والأحكام والأركان، والآداب والأخلاق، والمندوبات والمحظورات، والمواعظ والتذكيرات، والقصص التي يعتبر منها المعتبرون المسترشدون بالنسبة إلى عوام المؤمنين ﴿وَهُدًى﴾ إلى معارف وحقائق، يهديهم إلى طريق التوحيد المنجي عن غياهب التقليدات والتخمينات بالنسبة إلى خواصهم.

﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: كشفًا وشهودًا مترتبة على الجذبة والخطفة، والخطوة بالنسبة إلى خواص الخواص ﴿وَ﴾ بالجملة: ما هو إلّا ﴿بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:89] المتقادين لله بسرائرهم وظواهرهم، مفوضين أمورهم كلها إليه بلا تلعثم وتذبذب.

وكيف لا يسلمون ويفوضون ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿يَأْمُرُ﴾ أولاً عباده ﴿بِالْعَدْلِ﴾ أي: القِسط والاعتدال في جميع الأفعال والأقوال، والشئون والأطوار ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ ثانياً؛ لأنهم ما لم يعتدلوا ولم يستقيموا لم يتأت لهم التخلق بأخلاق الله التي هي كمال الإحسان والعرفان ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ ثالثاً؛ أي: إيصال ما حصل لهم من المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات إلى مستحقهم من ذوي القربى من جهة الدين، المتوجهين نحو الحق عن ظهر القلب، الراغبين إليه عن محض المحبة والوداد، المتعطشين إلى زلال توحيده؛ لأنهم ما لم يتمكنوا ويتقرروا في مرتبة الإحسان، لم يتأت منهم الاستكمال والاسترشاد.

وكما يرغِّب سبحانه عباده بموجبات الإيمان والتوحيد، ومعظِّمات أصوله وأركانه، ينفِّرهم أيضًا عن غوائلهم ومهلكاتهم ومغوياتهم، فقال: ﴿وَيَنْهَى﴾ أولاً ﴿عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ أي: إفراط القوة الشهوية الموجبة لرذالة النفس، وسقوطها عن المروءة والعدالة المقتضية للتخلق بالأخلاق المرضية الإلهية، وخروجها عن الحدود الشرعية الموضوعة لحفظه حكمة الزواج والتناسل بمتابعة القوى البهيمية الناشئة عن طغيان الطبيعة الهيولانية الناسوتية، المنافية لصفاء القوى الروحانية اللاهوتية.

﴿وَ﴾ عن ﴿الْمُنكَرِ﴾ ثانياً؛ إذ كل من رُكِّب على جموح القوة الغضبية، وأخذ سيف الهذيانات المثيرة لأنواع الفتن والبليات، وعمل بمقتضاها، ونبذ الحلم والرحمة وراء ظهره، فهو بمراحل عن مرتبة الإحسان، بل لا يرجى منه إلا الخذلان والخسران ﴿وَ﴾ عن ﴿الْبَغْيِ﴾ ثالثاً؛ لأن من تمكن وتمادى على مقتضى كلتا القوتين الشهوية والغضبية فقط، سقط عن المروءة والعدالة اللتين هما من أقوى أسباب الكمال المستلزم للإرشاد والتكميل، ومتى سقطتا عنه فقد استكبر على خلق الله، وتجبر وبغى وظلم، ألا لعنة الله على الظالمين، إنما ﴿يَعِظُكُمْ﴾ الله المصلح لأحوالكم بما يعظكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] [النحل:٩٠] رجاء أن تتعظوا وتتمثلوا بما أمروا، وتجتنبوا عما

---

(1) قال الورتجبي: إنَّ الله سبحانه دعا العباد إلى الاتصاف بصفته، منها العدل والإحسان والشفقة والرحمة والقدس والطهارة عما لا يليق به، فهو العادل والمحسن والرحمن والرحيم غير ظالم جائز، وهو منزَّه عن جميع العلل، فمن كسي أنوار هذه الصفات بنعت الذوق والمباشرة، وحلاه بزينتها يخرج عادلاً محسنًا، رءوفًا رحيمًا، طاهرًا مطهرًا، صادقًا مصدقًا، وليًا، حبيبًا محبوبًا، مريدًا مرادًا، مراعىً محفوظًا، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشرك والشك ورؤية الغير وطلب

نهوا؛ كي تصلوا إلى صفاء توحيده المسقط للمنافرات رأسًا.

﴿وَ﴾ من علامة اتعاظكم وتذكركم الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿أَوْفُوا﴾ أيها الطالبون لمرتبة العدالة ﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾ وميثاقه الذي عهدتم مع الله بألسنة استعداداتكم في بدء فطرتكم، وكذا بجميع العهود والمواثيق ﴿إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ مع إخوانكم، وبني نوعكم ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ سيما ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وتغليظها ﴿وَ﴾ كيف تنقضونها، إذ ﴿قَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ﴾ الرقيب ﴿عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وكيلاً لتلك البيعة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائرهم ومخائلهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل:91] من نقض الأيمان وأماراتها.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:92 – 97].

العوض في العبودية، ويأخذ منها الانتصاف بينها وبين عباد الله بألا يرى عيب غيرها، بل يرى عيبها في جميع الأوقات، وينصف بين عباد الله ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعي ذوي القرابة في المعرفة والمحبة من المريدين الصادقين، ويرحم الجهال من المسلمين وينهى نفسه عن مباشرة فواحش دعاوى الأنانية، ومباشرة الهوى والشهوة، ويدفعها عن الظلم باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله؛ ليكون مطمئنًا في عبودية الحق ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته، وإحاطته بكل ذرة وفناء الخليقة.

﴿وَ﴾ بعدما علم الله منكم ما فعلتم ونقضتم من الأيمان ﴿لَا تَكُونُوا﴾ في نقضها وعدم وثوقها ﴿كَالَّتِي﴾ أي: كالمرأة التي ﴿نَقَضَتْ﴾ ونفشت ﴿غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: بعدما غزلتها وفتلتها قويةً محكمةً نقضتها ﴿أَنكَاثًا﴾ بلا غرضٍ يترتب على نقضها سوى الجنون والحزن، فأنتم كذلك في نقضكم أيمانكم الوثيقة بذكر الله وعلمه بلا غرضٍ منكم يتعلق بنقضها سوى أنكم ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ﴾ أي: نقضها ﴿دَخَلاً﴾ أي: خديعةً ومكيدةً واقعةً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ محفوظةً إلى ﴿أَن تَكُونَ﴾ وتقع ﴿أُمَّةٌ﴾ قوية ﴿هِيَ أَرْبَى﴾ أي: أقوى وأزيد عَدَدًا وعُدَدًا ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ أنتم تحلفون معهم، فتنقضون حلف الأمة الضعيفة، وتتبعون القوية بعد نقض العهود واليمين، وما هذا إلّا مكر وخديعة مع الله، ومع عباده ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ﴾ ويختبركم ﴿اللهُ بِهِ﴾ أي: بازدياد القوية؛ لكي يظهر أتمسكون إيمانكم أم تنقضون ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ ويوضح ﴿لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:92] فيثيبكم بالوفاء، ويفضحكم ويعاقبكم بالنقض.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ القادر على جميع المقدورات هدايتكم جميعًا ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ وخلقكم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقةً على الهداية والإسلام ﴿وَلَكِن﴾ حكمته تقتضي خلاف ذلك، ولذلك ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ على مقتضى قهره وجلاله ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ﴾ وتحاسبنّ كل منكم في يوم الجزاء ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:93] إن خيرًا فخير، وإن شرّا فشر.

وبعدما أشار سبحانه إلى قبح المكر والخديعة باليمين والحلف ترويجًا لما في نفوسهم من الظلم والعدوان صرحَ بالنهي تأكيدًا ومبالغةً؛ ليحترز المؤمنون عن أمثاله، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَيْمَانَكُمْ﴾ ومواثيقكم ﴿دَخَلاً﴾ أي: مفسدةً مبطنةً مخفيةً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ترويجًا لكذبكم ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ أي: قدم كل منكم عن شعائر الإيمان ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ واستقرارها فيها ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ العذاب في النشأة الأولى ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: بسبب ميلكم وانحرافكم عن طريق الحق الذي هو الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿وَلَكُمْ﴾ بارتكاب المنهي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:94] في النشأة الأخرى بأضعاف ما في الأولى.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدلوا وتأخذوا أيها المؤمنون ﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾ أي: بنقض عهده، والارتداد عن دينه ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ أي: حطامًا دنيويًا ﴿إِنَّمَا عِندَ اللهِ﴾ لوفائكم بعهده، وثباتكم على دينه أجر عظيم أخروي ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لبقائه وعدم

زواله، ودوام لذّته ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:95] خيريته لاخترتم ألبتة.

وكيف لا يكون ما عند الله خيرًا؛ إذ ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من حطام الدنيا ومزخرفاتها ﴿يَنفَدُ﴾ أي: يزول ويضمحل ﴿وَمَا عِندَ اللهِ﴾[1] من اللذات الأخروية، والمعارف اليقينية ﴿بَاقٍ﴾ بقاءً أبديًا سرمديًا إلى ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما فوتوا من الأعراض الدنيوية؛ بسبب ثباتهم وتقررهم على الأمور الأخروية، ولم ينقضوا العهود والمواثيق المتعلقة بالدين، ولم يستبدلوا الأعلى الباقي بالأدنى الفاني، ولحقهم بذلك ما لحقهم من المحن والشدائد القاحلة، وضاع عنهم ما ضاع من لذاتها وشهواتها، فصبروا على جميع ما أعطيناهم ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:96] أي: لنجزينهم ونثيبنهم بجزاءٍ أحسن من مقتضى عملهم؛ لوفائهم على عهودنا ومواثيقنا، وجريهم على مقتضى أمرنا ونهينا.

﴿مَنْ عَمِلَ﴾ منكم عملاً ﴿صَالِحًا﴾ لقبولنا، ناشئًا ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ منكم ﴿أَوْ أُنثَى وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ في حين العمل ﴿مُؤْمِنٌ﴾ موحِّد بالله، مصدق للرسل والكتب المنزلة إليهم، ممتثل بجميع ما جاء به الرسول ﷺ، طالب للترقي من العلم إلى العين، ثمّ إلى الحق ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ بعد فنائه عن لوازم بشريته وموته، وانخلاعه عن مقتضيات أوصاف بهيميته بإرادته واختياره ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[2] معنوية خالصة عن وصمة الموت والفوت

---

(1) أخبر سبحانه أن كل وارد يرد على قلوبهم من موارد القرب الإلوهية يجري ولا يثبت، ويبقى لهم أصل الأصل، وهو مشاهدة جلاله وعزته، وأيضًا ما عندكم من المعارف ينفذ في سبحات جماله المعروف، وما في عنديته من أنوار الذات والصفات التي يبلو منها جميع المعارف باقية للعارفين المحبين، فإنّ بنقص المعارف لا ينقص الكواشف، وإنّه بنقص الأعمال لا ينقص الأحوال.

(2) معنى الآية أن العمل الصالح ثلاثة أشياء: التبرؤ من الكون وما فيه بنعت تصاغره في عين من يرى القدم، وبذل الوجود لتصاريف الربوبية بنعت الرضا واللذة في البلاء، ورفع النظر عن الجزاء، والأعواض بكل حال، وهو مؤمن أي موقن مشاهد في حاله وعلمه قبول الحق وإقباله إليه بوصف الرضا عنه، وأيضًا هو مشاهد ما وعده الله له من أحكام الغيب بنور البصيرة، وأيضًا وهو مخلص عن النظر إلى غير الله، وهو مؤمن بما يقول هاتف الغيب في قلبه، وأيضًا هو مؤمن بأن وجوده وطاعته لا يليق بحضرة القدم، من كان هكذا يلبس الحق سره وروحه وقلبه وعقله بركة حياته الأزلية، فيحيه بحياته، ويريه بهاء جماله، ويصيره مستأنسًا بوصله، معافًا من فضله، فيكون ملبسًا في ظاهره وباطنه بلباس لطفه، محروسًا من قهره برعايته، فمقامه مقام العافية خارجًا من

مطلقًا، خالية عن شوب الزوال والانقضاء، صافية عن الكدورات المتعلقة للحياة الصورية ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: أجر عملهم وصبرهم عن مقتضيات القوى البشرية، والحياة الصورية ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:97] أي: أحسن وأوفر من جزاء عملهم الذي جاءوا به حين كانوا سائرين إلينا، طالبين الوصول إلى صفاء توحيدنا.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل: 98 – 106].

ومن جملة الأعمال الصالحة المثمرة للحياة الطيبة المعنوية، بل من أجلّها: قراءة القرآن المشتمل على المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات المترتبة على سلوك طريق التوحيد والعرفان ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي: قصدتَ قراءته أيها القارئ

امتحان البلاء، وهذا جزاء من أقبل عليه له لا لنفسه ولا لغيره، فيبقى عيشه مع الحق بلا كدورة ولا فترة، وفي جميع أنفاسه مشاهدة مكاشف خارج من نعوت التغاير النفسانية بحوادث الشهوات وخطوات الشيطان، ما أطيب حاله وما أحلى شأنه وما ألذ حاله، طوبى له ثم طوبى له.

الطالب لاستكشاف غوامض مرموزاته، ومعضلات إشاراته ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ والتجأ أولاً ﴿بِاللهِ﴾ المتجلي بصفة الكلام المعجز لقاطبة الأنام، الحفيظ لخلّص عباده من جميع ما لا يعنيهم من المعاصي والآثام ﴿مِنَ﴾ وساوس ﴿الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل:98] المطرود والمبعد عن ساحة عزّ الحضور برجوم آثار الأوصاف القهرية الإلهية، ومن غوائله وتسويلاته التي هي جنود الهوى والغفلة، والتخيلات الباطلة، والتوهمات المثيرة لأنواع الأماني والشهوات.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ أي: استيلاء وغلبة ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله، وأيقنوا بحقية كتبه ورسله، وباليوم الموعود وما فيه من العرض والجزاء ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ومربيهم لا على غيره من الأسباب الوسائل العادية ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾(1) [النحل:99] ويُسلمون ويُسندون جميع أمورهم إليه أصالةً.

وكيف يكون للشيطان استيلاء على المؤمنين الموقنين؛ إذ هم يعادونه عداوةً شديدةً، ويخاصمون معه مخاصمة مستمرة ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ واستيلاؤه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ ويحبونه ويقبلون قوله، ويسمعون غوايته، ويطيعون أمره ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ﴾ أي: بسبب إغوائه وإغرائه ووسوسته ﴿مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:100] بالله الواحد الأحد،

---

(1) قال في التأويلات: يعني: سلطان نور الإيمان، والتوكل غالب على سلطان وسوسة الشيطان، فإذا كان هذا حال الأمة مع الشيطان، فكيف يكون كمال النبوة معه؟! فثبت أن المراد بالخطاب الأمة، وإنما خص النبي ﷺ به لتعتبر الأمة وتتنبه أن مثل هذا النبي ﷺ مهما يكون كمال النبوة معه فيثبت آلته مأمورًا بالاستعاذة بالله من الشيطان، فيكون الأمة بها أولى وأحق فأما تخصيص الاستعاذة بالله عند قراءة القرآن من الشيطان الرجيم لمعانٍ وفوائد: فأولها: لكي يتذكر القارئ واقعة الشيطان ويتفكر في أمره إنما صار شيطانًا رجيمًا بعد أن كان ملكًا كريمًا، لأنه فسق عن أمر ربه وخالفه وأبى أن يسجد لآدم ﴿وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34] أي: فصار من الكافرين فينتبه بذلك عند قراءة القرآن ويصفي نيته قبل القراءة على أن يأتمر بما أمر الله في القرآن وينتهي عما نهاه عنه احترازًا عن المخالفة، فإن فيها الطرد واللعن والرجم والفسق والكفر وإنها مظنة للخلود في النار، وثانيها: لأن العبد لا يخلو من حديث النفس وهواجسها ومن إلقاء الشيطان ووساوسه وقلبه لا بدّ يتشوش بذلك، فلا يجد حلاوة كلام الله فأمره بالاستعاذة تزكية للنفس عن هواجسها وتصفية للقلب عن وساوس الشيطان؛ ليتحلى بنور القرآن فإن التحلية تكون بعد التزكية والتصفية، فافهم جدًا، ثالثها: ولأن في كل كلمة من كلمات القرآن أن لله تعالى إشارات ومعانٍ وحقائق لا يفهمها إلا قلب مطهر عن تلوثات الهواجس والوساوس معطر بطيب أنفاس الحق، وذلك مودع في الاستعاذة بالله فأمر بها لحصول الفهم.

المنزه عن الشريك والولد.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَ﴾ من كمال قدرتنا، ووفور حكمتنا: نسخ بعض الآيات وتبديلها بالنسبة إلى بعض الأعصار والأزمان، فإنا ﴿إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً﴾ ناسخة ﴿مَّكَانَ آيَةٍ﴾ منسوخةٍ لحكمة ظهرت علينا، ومصلحة لاحت لدينا، فلا بدَّ ألَّا نُسأل عن نسخنا وتبديلنا، بل عن جميع أفعالنا مطلقًا، ولا يُسند فعلنا إلى غيرنا مطلقًا ﴿وَ﴾ كيف يُسند فعله سبحانه لغيره؛ إذ ﴿اللهُ﴾ المطلع لجميع ما كان ويكون اطلاع حضور وشهود ﴿أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ بحسب الأوقات والأزمان، فله نسخ ما ثبت، وإثبات ما نسخ ﴿قَالُوا﴾ أي: المشركون المعاندون حين ظهر في القرآن نسخ بعض الآيات المثبتة، وإثبات بعض المنسوخات القديمة متهكمين طاعنين: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: ما أنت أيها المدَّعي للرسالة والوحي إلَّا مفترٍ كذاب، قلتَ بقولٍ من تلقاء نفسك، ثمَّ ظهر لك ما فيه، بدلتَ بأخرى على مقتضى أهوائك وأمانيك، ونسبته إلى ربك افتراءً ومراءً، مع أنك أخبرت أن ربك يقول: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:29]، كل ذلك؛ أي: النسخ والتبديل، والإنزال من عندنا لحكمة ظهرت علينا ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 101] حكمة النسخ والتبديل في الأحكام، فينكرونها.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ما أنا مفتر في هذا النسخ والتبديل، بل ﴿نَزَّلَهُ﴾ أي: القرآن ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبرائيل عليه السلام عليّ هكذا، وهو منزه عن جميع النقائص، فكيف عن الافتراء، وأوصاني أنه منزل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي ربَّاك بأنواع التربية، وأيدك بهذا الكلام المعجز ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق المطابق للواقع بلا شائبة شك وتردد، وإنما أنزله ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ ويقرر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تثبيتًا وتقريرًا في مرتبة اليقين العلمي ﴿وَهُدًى﴾ أي: هدايةً ورشدًا للعارفين المتحققين في مرتبة اليقين العيني ﴿وَبُشْرَى﴾ أي: بشارة وتمكينًا لأهل الكشف والشهود في مرتبة اليقين الحقي، كل ذلك ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:102] المسلّمين أمورهم كلها إلى الله طوعًا ورغبة.

ثمَّ أخبر سبحانه عن مطاعن المشركين بالقرآن والرسول، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ﴾ لا يسلّمون نزول القرآن منا وحيًا وإلهامًا، ويكذبونك يا أكمل الرسل في نسبتك إنزاله إلينا، بل ﴿يَقُولُونَ﴾ ما هو إلَّا مفترٍ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ﴾ هذا ﴿بَشَرٌ﴾ أي: عبدٌ رومي، أو رجلٌ من العجم، أو رجالٌ أخر على ما قالوا، وكيف يقولون وينسبون أولئك المكابرون المعاندون هذا إلى القرآن؛ إذ ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ﴾ أي: يميلون وينسبون ﴿إِلَيْهِ﴾

عنادًا ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ معلقٌ غير بيّنٍ، وأنت عربي لا تفهم لغتهم ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾ فصيح ﴿مُّبِينٌ﴾ [النحل:103] واضحٌ بليغٌ في أعلى مراتب البلاغة، بحيث عجزت عن معارضته مصاقع الخطباء مع كمال تحديهم، ومع ظهور إعجازه واعتراف الكل بأنه معجزٌ، لم يقبلوا حقيته، ولم يصدقوا أنه كلام الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته، وكمال أوصافه وأسمائه، طبع الله على قلوبهم وختمها، بحيث ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ المضلُّ المذلُّ إلى حقية كتابه ورسوله الذي أنزل إليه، بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:104] في النشأة الأولى والأخرى، ثمّ قلّبَ سبحانه ما فتروا برسول الله ﷺ وأعاده عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ على الله بنسبة كلامه إلى غيره ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على كمال توحيده ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المفترون المسرفون ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[1] [النحل:105] المقصورون على الكذب والافتراء والمراء من شدة قسوتهم، وخبث باطنهم.

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ المستحق للإيمان والعبودية، سيما ارتد ﴿مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ أي: بعدما آمن له - العياذ بالله - فقد استحق غضب الله وقهره ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الكفر، وهُدِّدَ بالقتل وأنواع العقوبات حين العجز، فأجرى كلمة الكفر على لسانه ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ متمكن فيه، راسخ غير متزلزلٍ، بلا مطابقةٍ وموافقةٍ بلسانه، فهو باقٍ على إيمانه، ولا غضب عليه، بل له الأجر الجزيل؛ لأن العبرة في الإيمان والكفر بالقلب؛ لأنهما فعلان له أصالةً ﴿وَلَٰكِن﴾ من المغضوبين ﴿مَّن شَرَحَ﴾ وملأ ﴿بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ اعتقادًا أو رضاءً مستحسنًا له، مستطيبًا إياه ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ وقهرٌ نازلٌ ﴿مِّنَ

(1) قال في التأويلات: أي: هم المتسبون إلى الكذب الحقيقي الذي صار اسم العلم لهم بأنهم كذبوا على الله وكذبوا بآياته، وكذبوا على النبي ﷺ وكذّبوا به وبما جاء به، وكذبوا بالقرآن والمعجزات، وفيه إشارة إلى أن الكذبات التي تقع في أثناء كلام من يؤمن بالله ورسله وكتبه ولا يكذب عليهم ولا يكذب بهم، فإنها ليست من الكذاب الذي يفتري من لا يؤمن بآيات الله وإنه مخصوص بمن يفتري على الله الكذب، وإن الكذبات التي تقع للمؤمن وهي من جملة المعاصي لا تخرجه من الإيمان، وإن ينقص بها الإيمان ثم بالتوبة يرجع الإيمان إلى أصله كسائر المعاصي والذنوب، يدل على هذا قوله ﷺ: «ما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا» فثبت أن المؤمن يبغض الكذب في بعض الأوقات إذا لم يكن مصرًا عليه ويتوب.

﴿اللهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:106] لعظم جرمهم الذي هو الارتداد، العياذ بالله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: 107 – 114]

وما ﴿ذَلِكَ﴾ أي: تحسينهم الكفر، واستطابتهم به إلا ﴿بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا﴾ واستطابوا ﴿الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: الحياة الصورية المستعارة الزائلة ﴿عَلَى﴾ حياة ﴿الآخِرَةِ﴾ التي هي الحياة المعنوية الحقيقية السرمدية التي لا زوال لها أصلاً ﴿وَ﴾ أيضًا بسبب ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المطلع على استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِي﴾ إلى الإيمان والتوحيد ﴿القَوْمَ الكَافِرِينَ﴾ [النحل:107] المجبولين على الكفر والعناد بحسب أصل فطرتهم واستعداداتهم.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المجبولون على الكفر هم ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ﴾ وختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ إلى حيث لا يفهمون، ولا يتفطنون بسرائر الإيمان والتوحيد أصلاً، ولا يتلذذون بلذاتها؛ لغلظ حجبهم وكثافتها ﴿وَ﴾ على ﴿سَمْعِهِمْ﴾ إلى حيث لا يسمعون، ولا يقبلون دلائل التوحيد وأماراتها من أرباب الكشف واليقين ﴿وَ﴾ على ﴿أَبْصَارِهِمْ﴾ إلى حيث لا ينظرون نظر عبرة وبصارة إلى المظاهر والآثار المترتبة على الأوصاف الذاتية الإلهية ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن عزّ الحضور ﴿هُمُ الغَافِلُونَ﴾

[النحل:108] المقصورون على الغفلة والنسيان، التائهون في تيه الضلال والطغيان.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ﴾ بسبب طردهم وخذلانهم ﴿فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: 109] المقصورون على الخسران والنقصان.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما سمعت أحوال أولئك المقهورين المطرودين ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي ربّاك بأنواع الكرامات، وأوصلك إلى أعلى المقامات يجزي خير الجزاء تفضلاً وإحسانًا ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ عن بقعة الإمكان حين كوشفوا بما فيها من الخذلان والخسران، وأنواع الرذائل والنقصان، وذلك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ بأنواع الفتن والمحن باستيلاء جنود الأمارة بالسوء عليهم ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ معها بترك مألوفاتها، وقطع تعلقاتها، وصرفها عن مشتهياتها ومستلذاتها ﴿وَصَبَرُوا﴾ على متاعب الرياضات، ومشاق المجاهدات إلى أن صارت أماراتهم مطمئنةً راضيةً مرضيةً، ثمّ بعدما قطعوا مسالك السلوك، ومنازل التلوين والتزلزل ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ المفضل المحسن إليك يا أكمل الرسل، وإلى من تبعك من خيار المؤمنين ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: بعد المجاهدات والرياضات ﴿لَغَفُورٌ﴾ يسترُ أنانيتهم، ويغنيهم عن هوياتهم مطلقًا ﴿رَحِيمٌ﴾ [النحل: 110] لهم، يمكنّهم في مقام الرضا والتسليم مطمئنين مرضيين.

هب لنا من لدنك رحمةً يا ذا القوة المتين.

واذكر يا أكمل الرسل المبعوث إلى كافة الأنام ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ عاصيةٍ أو مطيعةٍ ﴿تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[1] أي: ذاتها، وتهتم لشأنها بلا التفاتٍ منها إلى شفاعةِ غيرها؛ إذ هي رهينة ما كسبت من خيرٍ وشرٍ ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾

---

(1) قال البقلي: الأنفس بالتفاوت، فنفس تجادل عن معصيتها، ونفس تجادل عن طاعتها، ونفس تجادل عن خوفها من النار، ونفس تجادل عن طمعها في الجنة، وهؤلاء الأنفس مشغولة بمجادلتها عن مشاهدة خالقها والشوق إلى لقائه، والنفس المنبسطة العاشقة الهائمة ينبسط إلى ربها، وتدل عليه دلال عاشق على معشوقه، وشائق على مشوقه، وتقول في مجادلتها وانبساطها: إلهي فعلت بي ما فعلت في الدنيا، ابتليتني ببلايا محبتك، وعظائم الشوق إليك، وحبستني في دار الامتحان مع أعدائي، فأين عدلك وإنصافك؟! أما آن وقت حصول المراد، فتكشف لي جلال سرمديتك حتى أنظر إليك بك أبدًا، فكل نفس ليس هذا دأبها فهي محجوجة بمجادلتها، محجوبة بعملها في الدنيا والآخرة، وهو تعالى يعطي كل ذي فضل فضله، ويعطي مأمول كل نفس بقدر طاعتها، وهو منزه عن النسيان والظلم والضلال، فيجازي الكل بإحسانه، فإنه لا ينقص من ملكه مثقال ذرة، وأن يدخل الكل في جواره، ويريهم جماله.

طاعة ومعصية ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:111] في جزائهم وأجورهم لا زيادةً ولا نقصانًا على مقتضى العدل الإلهي.

﴿وَ﴾ بعدما أراد سبحانه أن ينبه على أهل النعمة، وأرباب الرخاء والرفاهية، ألَّا يبطروا، ولا يباهوا بما في أيديهم من النعم، ويداوموا على شكرها، وأداء حقها خوفًا من زوالها وفنائها، وانقلابها شدةً ونقمةً ﴿ضَرَبَ اللهُ﴾ المدبِّر لأمورهم ﴿مَثَلًا﴾ تعتبرون منها وتتعظون ﴿قَرْيَةً﴾ هي مكة أو أيلة ﴿كَانَتْ﴾ نفوس أهلها ﴿آمِنَةً﴾ عن الخوف من العدو والجوع من نقصان الغلات والأثمار ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ بما عندهم من الحوائج بلا تردد ومشقة؛ إذ ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ على الترادف والتوالي ﴿رَغَدًا﴾ واسعًا وافرًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البلاد التي في حواليها ونواحيها.

وصاروا مترفهين متنعمين إلى أن باهوا وبطروا ﴿فَكَفَرَتْ﴾ أهلها ﴿بِأَنْعُمِ اللهِ﴾ الواصلة إليهم، وأسندوها إلى غير الله عنادًا ومكابرةً، وخرجوا على رسول الله، وطعنوا في كتاب الله ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ بعد خَلْعِ خِلَعِ الأمن والاطمئنان؛ أي: مسار الجوع والخوف في سائر أعضائهم وجوارحهم سريانَ أثر المذوقات، ونفورها إلى حيث لا ينجو عن أثرهما جزء من أجزاء البدن، كل ذلك ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:112] من الكفران والتكذيب والطعن، والعناد والاستكبار.

﴿وَ﴾ كيف لا يأخذهم، ولا يذيقهم ﴿لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أفضل وأكمل من جميع الرسل مع كتابٍ أكمل وأشمل من سائر الكتب ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أشد تكذيبٍ، وأنكروه أقبح إنكارٍ ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ العاجل، وهو الجدب الواقع بينهم، أو وقعة بدر ﴿وَ﴾ الحال أنهم في تلك الحالة ﴿هُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل:113] خارجون على الله، وعلى رسوله، والعذابُ الآجل سيأخذهم في النشأة الأخرى بأضعاف ما في النشأة الأولى.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ

لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه: 114 – 125].

وإذا سمعتم أيها المؤمنون المعتبرون من أحوال أولئك الأشقياء، المغمورين في بحر الغفلة والغرور، البَطِرين بما عندهم من اللذة والسرور، وسمعتم أيضًا أحوالهم وأهوالهم ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً﴾ مباحًا بحسب الشرع ﴿طَيِّبًا﴾ مما كسبتم بيمينكم على مقتضى سنة الله من خلق الأيدي والأرجل للمكاسب، أو مما اتجرتم وربحتم، وهو من الكسب أيضًا ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ﴾ الذي أقدركم ومكّنكم على الكسب ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:114] أي: تطيعون وتقصدون عبادته برفع الوسائل والأسباب العادية عن البَيْن.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: 115 – 122].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أي: اعلموا ما حرَّمَ عليكم ربكم في دينكم إلَّا الميتة المائتة حتف أنفه بلا تزكية وتسمية ﴿وَالدَّمَ﴾ المسفوح السائل من الحيوانات المباحة ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ وسُمِّي عليه من أسماء الأصنام ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ منكم أيها المؤمنون إلى أكل هذه المحرمات، حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ خارجٍ على السلطان العادل، المقيم للشرائع والأحكام ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مجاوزٍ عن الحدود الشرعية لغرضٍ فاسدٍ من أنواع المعاصي، وقطع الطريق والإباق ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع على سرائر عباده وضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ يستر زلتهم الاضطرارية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل:115] يقبل توبتهم عنها.

ثمَّ نهاهم سبحانه عن التقول بالأقوال الفاسدة من تلقاء أنفسهم، ومقتضى أهوائهم، كما يقول المشركون المسرفون، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ أيها المتدينون بدين الإسلام المنزل على خير الأنام ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ أي: شيء تصف ألستكم إياه الوصف الكذب بلا ورود وحي وإذنِ شرعٍ، بل من تلقاء أنفسكم افتراءً ومراءً، بأن تقولوا: ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ وتنسبوه إلى الله ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ تزيينًا لقولكم الباطل، وترويجًا له، كما قالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾[الأنعام:139]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ وينسبون ﴿عَلَى اللهِ﴾ المنزه عن مطلق الأباطيل ﴿الْكَذِبَ﴾ ظلمًا وزورًا ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: 116] ولا يفوزون بخير الدارين.

إذ نفعهم فيما يفترون ويكذبون ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ومنفعةٌ صغيرةٌ لا اعتداد بها ﴿وَلَهُمْ﴾ بسبب ذلك في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:117] مؤلمٌ مؤبدٌ لا نجاة لهم منه أصلاً.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ في سورة الأنعام، حيث قلنا: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام:146]، ﴿وَمَاظَلَمْنَاهُمْ﴾ في تحريم ما حرمنا عليهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:118] أي: هم يظلمون أنفسهم بارتكاب المعاصي والمناهي، وترك المأمورات والمندوبات؛ لذلك عُوقبوا وأُخذوا بما أَخذوا.

﴿ثُمَّ﴾ بشَّر سبحانه على عموم أصحاب المعاصي والآثام بالعفو والمغفرة، والشفقة عليهم بعدما تابوا وندموا عما هم عليهم مخلصين، فقال لحبيبه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾

الذي بعثك يا أكمل الرسل إلى كافة البرايا بشيرًا ونذيرًا، يحسن ويرحم ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ أي: الفعلة القبيحة، والديدنة الشنيعة المذمومة في الشرع، مع كونهم في حين ارتكابها ملتبسين ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ ناشئةٍ من عدم التدبر والتأمل بوخامة عواقبها شرعًا مع تدينهم، وقبولهم بأحكام الشريعة، وكانوا ممن لا يؤمن، ولا يقبل ما ورد به الشرع ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ وندموا ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ ارتكاب ﴿ذَٰلِكَ﴾ السوء ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ بالتوبة والاستغفار ما أفسدوا على نفوسهم بالفساد والإصرار ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ المحسن المفضل على التائب المخلص ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: بعد التوبة والندم ﴿لَغَفُورٌ﴾ يستر ذلتهم ﴿رَحِيمٌ﴾ [النحل: 119] يقبل توبتهم.

ثم أشار سبحانه إلى فضائل خليله - صلوات الرحمن عليه وسلامه- وكمال كرامته، ونجابة فطرته، وطهارة أصله وطينته، وعلو شأنه ورتبته، وارتفاع قدره ومنزلته - فقال: ﴿إِنَّ﴾ جدّك يا أكمل الرسل ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الذي اختاره الله لخلته، واصطفاه لرسالته ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أي: إمامًا مقتدىً، لائقًا للقدوة بالأمور الدينية؛ لأنه كان ﴿قَانِتًا﴾ مطيعًا ﴿لِلَّهِ﴾ راغبًا إلى امتثال مأموراته، واجتناب منهياته ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة، والآراء الفاسدة ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:120] في حالٍ من الأحوال.

بل هو رأس الموحدين، ورئيس أرباب التحقق واليقين ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أي: صارفًا لنعم الله إلى ما خلقه سبحانه لأجله على الوجه الأعدل الأقوم بلا تبذيرٍ وتقتيرٍ، طالبًا فيه رضاء الله بلا شائبةٍ من الرياء والسمعة؛ لذلك ﴿اجْتَبَاهُ﴾ واختاره للرسالة العامة ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:121] موصلٍ إلى توحيده بلا عوجٍ وانحرافٍ.

﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ من لدنا تفضلاً عليه وإحسانًا ﴿حَسَنَةً﴾ صورية إلى حيث لا تنقطع آثار إنفاقه وجوده إلى يوم القيامة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: 122] لقبولنا، الواصلين إلى صفاء توحيدنا.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم

﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾ [النحل:123 - 128].

﴿ثُمَّ﴾ بعدما ما أشرنا إليك يا أكملِ الرسل كمال استحقاقه، ولياقته للاقتدار والمتابعة ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ تكريمًا لك وله ﴿أَنِ اتَّبِعْ﴾ في إيصال الدعوة، وتبليغ الرسالة، وإظهار الدين والأحكام، والرفق والتليين مع الأنام، والحكم والتواضع معهم على أبلغ وجه وأكمل نظام ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: خصلة جدك - عليك وعليه الصلاة والسلام - إذ كان ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط في جميع الأطوار والأخلاق، والأفعال والأقوال ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:123] المستكبرين في خُلُقٍ من الأخلاق، ووصفٍ من الأوصاف، بل كان على مقتضى صرافة التوحيد، وعدالة اليقين والتحقيق؛ لذلك صار إمامًا للموحدين إلى قيام الساعة.

ثمّ قال سبحانه تعييرًا على المشركين، وتقريعًا لهم: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أي: قُدر وفرض لحوق وبال يوم السبت، وأنواع العقوبات والمسخ ﴿عَلَى﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وجادلوا مع نبيهم في تعيينه واختياره؛ إذ أمرهم موسى عليه السلام بتعظيم يوم الجمعة واتخاذها عيدًا، فأبوا معللين: إن الله قد فرغ من خلق السماوات والأرض في السبت، فنحن نوافقه، ونتخذه عيدًا، فألزمهم الله تعظيم السبت، وتحريم الصيد فيه، فاحتالوا فيه، فاصطادوا بالمكر، فمسخهم الله، ولحقهم من الوبال ما لحقهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:124] ويجادلون مع الرسل، فيجازيهم ويعاقبهم على مقتضى ما صدر عنهم.

ثمّ أشار سبحانه إلى تتميم تكريم حبيبه ﷺ، وتعظيم رتبته، وتهذيب أخلاقه، وتكميل حكمته ورسالته، وتعميم رأفته ورحمته إلى جميع البرية، وكافة الخليقة؛ إذ هو مبعوث على الكل بالرحمة العامة، وهو خاتم الرسالة والنبوة، ومكمل أمر التشريع والتكميل؛ إذ العلة الغائية في مطلق التشريع والإنزال والإرسال إنما هي ظهور مرتبته ومكانته التي هي الدعوة إلى التوحيد الذاتي، ومتى ظهرت فقد كملت وتمت؛ لذلك نزل في شأنه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:3].

وهي آخر آية نزلت من القرآن، وقال ﷺ: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[1] فقال مخاطبًا له خطاب تمكينٍ وتكريمٍ: ﴿ادْعُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي: إلى طريق توحيد مربيك الذي أرشدك إلى معارج عنايته، وهداك إلى كمال كرامته كافة البرايا، وعامة العباد ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ البالغة المكيفة لقلوبهم عن صلابة التقليدات الراسخة الموروثة لهم عن أسلافهم، المصفية نفوسهم عن الحمية الجاهلية المتمكنة فيها، الخالية عن توهم السطوة والاستيلاء، المثيرة لأنواع الأعراض النفسانية المترتبة على البشرية، المزيلة لأنواع الشبه والتخيلات الناشئة من الأسباب والوسائل العادية المقنعة، ملائمة للفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها رجاء أن يتفطنوا، ويتنبهوا بمقتضى جِبِلَّتهم وفطرتهم.

﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الموروثة لهم يقظانًا من سِنَة الغفلة، ونوم النسيان، المحصلة لهم شوقًا وسرورًا إلى مُبدئهم ومُنشئهم، المرغِّبة لهم إلى اللذات الروحانية الدائمة الباقية المستمرة بلا ورود زوالٍ وانقطاعٍ، المنفِّرة عما هم عليه من العوائق، والعلائق العائقة من اللذات الوهمية المنقضية المنقطعة المورثة لأنواع المحن والأحزان.

﴿وَ﴾ إن احتجت يا أكمل الرسل في دعوتهم إلى المجادلة معهم والمكالمة ﴿جَادِلْهُم بِالَّتِي﴾ أي: بالطريق التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ الطرق وأسلمها، وأعدلها من المقدمات المعتدلة الدالة على المساواة من كلا الجانبين برفق وتليين ومسكنة، وإرخاء عنان خالٍ عن السطوة والتهور، والغضب والتجبر، وعن التمسخر والضحك والاستهزاء، والتجهيل والتسفيه، والتشنيع الشنيع، كما يفعله عوام العلماء في محاوراتهم ومناظراتهم؛ إذ هي بعيدة عن الحكمة بمراحل، مثيرة لأنواع الفتن والخصومات، فلك ألَّا تبالغ في إهدائهم وإيمانهم، ولا تتشوش وتتحزن عن ضلالهم وطغيانهم؛ إذ ما عليك إلَّا تبليغ ما أُرسلتَ به.

وأما حصول الهداية والضلالة فيهم فأمر خارج عن وسعك وطاقتك ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ المطلع على استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ الموصل إلى توحيده ﴿وَهُوَ﴾ أيضًا ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:125] إذ قدَّر في سابق قضائه

(1) رواه البيهقي (192/10)، والقضاعي في «الشهاب» (270/4).

هدايتهم وضلالهم، وكذا جميع ما جرى عليهم في شئونهم وتطوراتهم على التفصيل، بحيث لا يشذّ عن حيطة حضرة علمه شيء منها.

وبعدما أمر سبحانه حبيبه بما أمر من آداب الدعوة، وأخلاق الرسالة والنبوة، ومراعاة حقوق الأنام، والمداراة معهم، أشار إلى المجازاة والمحاذاة، والقصاص والعقوبات الواقعة في أمر الرسالة، ووضع التشريع والتبليغ؛ إذ هي مبنية على الأمر بترك المألوفات، وترك العادات والاعتقادات، وترك التخمينات والتقليدات؛ لذلك لا يخلو عن المنازعات والمخاصمات المؤدية إلى أنواع الجنايات.

فقال سبحانه مخاطبًا له ولمن تبعه من المؤمنين: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون منتقمين عنهم ﴿فَعَاقِبُوا﴾ أي: فعليكم أن تعاقبوا ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[1] لا أزيد منه؛ إذ الزيادة منافية لاعتدال الإيمان والتوحيد ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ أيها المؤمنون على ما أصابكم من العقوبات، وأعرضتم عن الانتقام صفحًا، وكظمتم الغيظ كظمًا ﴿لَهُوَ﴾ أي: العفو والكظم ﴿خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:126] الذين صبروا على ما أصابهم من المكروهات، مسترجعين إلى الله، منزلين إنزاله إليه سبحانه بلا رؤية الوسائل في البين، بل يعدون العناء عطاءً، والترح فرحًا، والنقمة نعمةً، والمحنة منحةً؛ لصدورها من الله.

وبعدما خاطب وأوصى سبحانه للمؤمنين بالصبر والعفو على وجه العموم، وترك الانتقام، خص رسوله ﷺ بالخطاب؛ لكونه أحق وأولى بامتثال أمثاله؛ إذ هو جامع جميع مراتب الكمال بالاستحقاق والاستقلال، فقال: ﴿وَاصْبِرْ﴾ أيها المتحقق المتمكن في مقر التوحيد، المسقط لجميع الإضافات على ما جرى عليك من الأذيات المترتبة على بشريتك وناسوتك ﴿وَمَا صَبْرُكَ﴾ وكظمُك بعد فنائك عن بشريتك ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾ المتجلي عليك بالإطلاق إلى أن انخلعتْ عنك لوازم ناسوتك، وما بقيت لك إلا

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى من دعا إلى الله فأجاب وجاهد النفس ونهاها عن الهوى، وسلك طريق الحق بالاتباع دون الابتداع، ثم هبت صرصر البلاء من غريب الابتلاء، واستولت النفس وحجب في مراتع الدنيا وشهواتها على وفق طبعها وهواها حتى غلبت الروح وجنوده وعاقبتم بأنواع عقوبات مختلفة من التباعد والتقاعد والتقاطع إلى أن نسمت رياح العواطف عن مهب العناية، وطلعت شمس الإقبال عن مشرق الأفضال وانقلب الأحوال فأقبل نهار الروح مشرقة بأنوار الجمال وأدبر ليل النفس مظلمة بقهر الجلال وأسرت النفس وجنودها وعزم الروح وجنوده على معاقبتهم بالفطام عن مألوفاتهم والإقدام على مخالفاتهم وتأديبهم بسياط الجوع والعطش فنودوا من حظائر القدس ومجالس الأنس.

لوازم لاهوتك، وظاهر أنه لا يجري فيها المكروه والمنكر ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين بما لحقهم من المنافرات والمشوشات ﴿وَلَا تَكُ﴾ بعد انشراح صدرك بالتوحيد الذاتي ﴿فِي ضَيْقٍ﴾ ضيق صدر، وحزن وكآبة ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[1] [النحل:127] أولئك الماكرون المعاندون المكابرون.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المختبر لأنبيائه وأوليائه، وخواص عباده بأنواع الأذى والمحن الجسمانية ﴿مَعَ﴾ الصابرين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ وأخذروا عن الانتقام وقت الغدرة طلبًا لمرضاة الله، وجريًا على مقتضى توحيده ﴿وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:128] على من أساء إليهم رفقًا لهم، وتلطيفًا إياهم ابتغاءً لمرضاة الله، وتثبيتًا في طريق توحيده.

أذقنا حلاوة توحيدك، وأصبرنا على ما جرى علينا من المحن، والعطاء والعناء طلبًا لمرضاتك، إنك على ما تشاء قدير.

خاتمة السورة

عليك أيها المسترشد الخبير البصير - أرشدك الله إلى امتثال ما سمعتَ في هذه السورة، سيما في الكريمة المذكورة آنفًا، ورزقك الاتصاف بما فيها من الحِكَم والآداب، والأخلاق المرضية، والسجايا الفاضلة - أن تتأمل فيها حق التأمل والتعمق، حالَ كونك خاليًا صافيًا عن الكدورات العارضة من طغيان القوى البهيمية، والحميّة الجاهلية، تاركًا بما عرض عليك من الأغراض النفسانية المترتبة على الأمور العادية، المستلزمة فيه لأنواع الضلال والفساد من التفوق على الأقران، والترفع على الإخوان، والتكبر على ضعفاء الأنام، والتلذذ بالسمعة والرياء المثيرة لأصناف الأهواء الفاسدة، والآراء الباطلة التي لا يمكن قلعها وقمعها أصلاً، سيما تمرنتَ ورسختَ، فلك أن تراجع وجدانك بأي شيء أردت الترفع، وقصدت التفوق والتفضل، أما ترى أن منشأك ماذا ؟! أما استحييت التفوه من هذا وهذا ؟!.

---

(1) قال الشيخ البقلي: أي: انظر إلى مرادنا منهم، ولا تنظر إلى مرادك منهم، فإن أمر الربوبية سابقٌ على أمر العبودية. قال ابن عطاء: كان النبي ﷺ لم يكن يضيق بهم صدرًا، ولكنَّ الله تعالى حذّره ما هو موهوم في البشرية، وإنْ كان هو منزّهًا عنه. قال الأستاذ: طالع التقدير فيما لا نجعله حظًا عندنا، لا ينبغي أن يوجب أثرًا فيك، ومن أسقطنا قدره فاستصغر قدره وأمره، ثم تسلّى قلب نبيه ﷺ بأنه تعالى مع متّقٍ صادقٍ شاهدٍ محسنٍ.

وأمّا قصة كرامتك وخلافتك التي هي من المواهب الإلهية، والعطاءات الغيبية، فإنما هي مبنية على محض التذلل والتواضع، والخضوع والانكسار مع كل ذرةٍ من ذرائر الكائنات؛ إذ مبناه على الحكمة المتقنة المتشعبة من أسرار سرائر الرسالة والنبوة، وهي عبارة عن اعتدال جميع الأوصاف، وتزكية النفس عن جميع الرذائل، بل هي مبنية على إفناء مقتضيات الأوصاف البشرية رأسًا إرادةً واختيارًا.

وبالجملة: من أنصف على نفسه أدرك أن جميع ما في نفسه سوى التذلل والانكسار، والمسكنة والافتقار، حال كونه خاليًا عن شوب الرياء والسمعة، والعُجب والجَزْبَرَة، إنما هي رعونات صدرت من طغيان القوى البهيمية المؤيدة بالعقل المستعار المموه بتمويهات الأوهام الباطنة، وتزيينات الخيالات الكاذبة.

هب لنا من لدنك جذبةً تنجينا من أنانيتنا، ولذةً تلجئنا إلى سلوك طريق الفناء الموصل إلى البقاء السرمدي، إنك أنت الوهاب.

فهرس المحتويات